جولة تاريخية
في عصر الخلفاء الراشدين

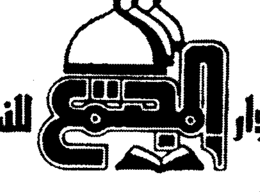
« دراسة وصفية تحليلية لأحداث تلك الفترة »

دكتور
محمد السيد الوكيل

دار المجتمع للنشر والتوزيع

الطبعة الخامسة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م



للنشر والتوزيع

الرئيسي : جـدة - ميـدان الجـامعـة - ص.ب. : ٤٠٨٤٥ - جـدة ٢١٥١١ { الادارة ٦٨٩١٤١٧ المكتبة ٦٨٩٤٤٦١ الفاكس ٦٨٩٤١٤٤

الفروع : الخبر - شارع الاميرنايف - تقاطع ١٦ - ص.ب. : ٢٣٢١ - الخبر ٣١٩٥٢ { المكتبة ٨٩٤١١٣٦ الفاكس ٨٩٤١١٣٦

المدينـة المنـورة - الـدائـري الثـانـي - دوار القبلتـين - ص.ب. : ٢٠٢٤٢ { المكتبة ٨٢٣٦٣٠٦ الفاكس ٨٢٣٦٣٠٦


جولة تاريخية
في عصر الخلفاء الراشدين



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن التاريخ الإسلامي ينبغي أن يدرس دراسة تحقيق وتمحيص لا أن يقرأ قراءة سرد للأحداث ومتابعة للوقائع، لأن التاريخ الإسلامي صورة حية للأمة الإسلامية ترى فيها ملامح الأمة الحقيقية، ومعالمها الخاصة المميزة لها عن سائر الأمم.

وتلك الدراسة لا تتأتى لكل إنسان يقرأ التاريخ بل تحتاج إلى إنسان ذي خصائص علمية معينة تؤهله لأن يقف أمام الأحداث متمعناً، ويدرسها دراسة الخبير الممارس، فيحلل الوقائع، ويردها إلى الأسباب التي هي أجدر بأن ترد إليها، ويستنتج منها الدوافع التي أدت إلى فعلها.

على أن الخبرة والممارسة وحدهما لا يكفيان لدراسة التاريخ تلك الدراسة العلمية الملهمة دون أن يراعي الدارس ما يأتي:

١ ـ يجب أن نعلم أن الذين صنعوا هذا التاريخ رجال من البشر يجوز عليهم الخطأ والسهو والنسيان وإن كانوا من كبار الصحابة وأجلائهم. إن إدراك هذه الحقيقة يخفف عنا كثيراً من الصدمات التي قد يصاب بها الدارس الذي يخفى عليه إدراكها. فعندما نقرأ أن أبا بكر رضي الله عنه أحرق الفجاءة السلمي بالنار جزاء خيانته، ونحن نعلم أن هناك نهياً صريحاً عن التعذيب بالنار لا نكذب الحادثة لأول وهلة، ولا نصدقها لأول وهلة، بل

ينبغي تحقيق الحادثة والتثبت من صحتها، فإذا ثبتت صحتها رجعنا إلى الأصل الذي بين أيدينا دون أن نتهم المؤرخين بالتزوير أو التاريخ بالكذب، وعلمنا أن أبا بكر - رضي الله عنه - بشر يخطىء ويصيب، ونحيل الحادثة إلى خطأ البشر في الاجتهاد، ونذكر قول الرسول ﷺ أن المجتهد المخطىء له أجر والمصيب له أجران فهو إذا على كل حال مأجور فلا ننتقصه وقد آجره الله، وهكذا يكون موقفنا من مثل هذه الأحداث مهما كان فاعلوها.

٢ - ينبغي أن نعلم أن أحداث التاريخ ووقائعه قد كتبت في ظروف تختلف تماماً عن الظروف التي ندرسه فيها فبينما تلقى المؤرخون الأحداث تلقياً عن طريق الرواة؛ بينما نحن لا نقبلها إلا بعد أن تمر بفحص دقيق، وتجارب عديدة، وتجتاز الاختبار بنجاح، وبينما كان المندسون بين المسلمين يروجون أخباراً لم تثبت صحتها ويتلقفها المؤرخون في غمرة تطير الأحداث بلهفة، ويثبتونها على أنها حقائق تاريخية مسلمة، بينما نحن نلمح فيها سمة الوضع ونرى عليها بصمات الوضاعين، فنقف أمامها في حذر، وندرس الحادثة في تجرد، ونحلل الشخصيات بإنصاف حتى نتحقق من صحة الحادثة أو بطلانها.

٣ - إن كثيراً من الأحداث التاريخية كان لها من الظروف ما يبرر فعلها في نظر المؤرخين فأثبتوها تقديراً لتلك الظروف، وإن لم يذكروا تلك المبررات فخفيت على الدارسين فردوها أو تشككوا في صحتها، ونحن لا نستطيع النجاة مما وقع فيه هؤلاء حتى ندرك تلك الظروف ونقدرها قدرها.

لهذا كان لزاماً على دارس التاريخ أن يدرس الظروف التي وقعت فيها أحداثه والحالة النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي اكتنفت تلك الأحداث قبل أن يحكم عليها حتى يكون حكمه أقرب إلى الصواب في تلك الجزئية التاريخية.

وينبغي أن نعلم أن بعض تلك الأحداث لا يبررها غير ظروفها التي وقعت فيها، فلا نحكم عليها بالظروف التي نعيش فيها نحن أو بأية ظروف يعيش فيها غير صانعي تلك الأحداث لأن الحكم حينئذ لا يستند إلى

مبررات، وبالتالي تكون نظرة الحاكم إلى هذه الوقائع لم تستكمل وسائل الحكم الصحيح، فيصدر الحكم غير مطابق للواقع.

ونحن إذا استوعبنا تلك الملاحظات عند دراسة التاريخ نتخطى كثيراً من العقبات التي تهز نفوس الدارسين، وتعطي انطباعاً غير صحيح عن فترة ما من فترات التاريخ الإنساني، ونخرج من ذلك بنتيجة حتمية هي بقاء منزلة الرجال في مكانها الطبيعي من نفس الإنسان ووجدانه، فلا تسقط شخصيات لها مكان الصدارة لمجرد حادثة لم توافق الحس الإنساني، ولم يتقبلها العقل البشري، أو على الأقل لم يتصور حدوثها من تلك الشخصيات التي كان ينظر إليها من قبل بكل إعجاب واحترام وتقدير.

وليس ذلك من قبيل تبرير الأخطاء أو التغاضي عن السيئات، فإن ذلك مناف تماماً للمنهج الإسلامي في دراسة الوقائع، فإن القرآن الكريم خاطب المسلمين يوم أحد بأسلوب يختلف تماماً عن مخاطبتهم في غزوة بدر فعن يوم بدر يقول لهم الله سبحانه: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾. وفي يوم أحد يقول لهم هم: ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾.

في يوم بدر توجيه وتحذير، وفي يوم أحد تقرير للواقع بعيد عن المجاملة والتحريف، في يوم بدر يحذرهم مغبة التنازع، وفي يوم أحد يقرر أن ما حذرهم منه قد وقعوا فيه إن هذه الصراحة في تقرير أحداث التاريخ تعلم المسلمين كيف يدرسون التاريخ، وإننا لنرى الاعتراف بهذا الواقع المؤلم في صراحة لا تنقصها جرأة، وفي وضوح لا تشوبه مجاملة في الحديث عن الغزوتين اللتين أصيب فيهما المسلمون لأسباب اقترفوها (وهما أحد وحنين) فالقرآن الكريم يحدثنا عن يوم أحد فيقول: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنّى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم﴾.

وفي يوم حنين يقول: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، ثم وليتم مدبرين﴾ هكذا وبهذه الصراحة، وبدون مجاملة في استعمال الألفاظ المعبرة يقرر القرآن الكريم

الحقيقة التي يجب ألا تغرب عن بال المؤمن ليتجنب الوقوع فيها، ويبتعد عن الأسباب المؤدِّية إليها.

إن القرآن الكريم وهو يعالج تلك المشكلة النفسية صارح فيها المؤمنين بما يجب أن يعيشوا فيه، وأن يتجرعوا مرارة ثمرته ليدركوا المشكلة من جوانبها المختلفة، ولا يخفى عليهم شيء من أسبابها ونتائجها، وهناك ينفع العلاج، وهناك يفيد التعليم، ولعل القرآن الكريم قد تناول الموضوع بهذه الواقعية لأنها حقائق تاريخية فلا يجوز أن يُخفى شيء من جوانبها على الدارسين ولأن نتائجها تسبب للواقعين فيها مشكلات نفسية، وأنجع ما تعالج به المشكلات النفسية هو القدرة على المصارحة ومواجهة الحقائق بشجاعة، وتحمل نتائجها بصبر.

إن القرآن الكريم الذي بحث هذه الموضوعات بتلك الصراحة على أهميتها وحساسيتها، لا يقبل منا تبرير أخطاء المخطئين، ولا السكوت عن سيئات المسيئين وهناك فرق واضح بين الخطأ المتعمد والخطأ الذي أوقعت فيه الظروف والملابسات، فكلاهما وإن كان خطأ إلا أن عذر الأخير مقبول.

ولما كان خطأ المؤمنين في الغزوتين من النوع الأخير فإن القرآن الكريم مع تذكيرهم به ومعاتبتهم عليه يقبل عذرهم، ويعفو عن سيئاتهم، فيقول ـ سبحانه ـ في أصحاب أحد (ولقد عفا عنكم) ويقول في أهل حنين: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾.

هكذا يجب أن يُدرَس التاريخ، وهكذا يجب أن يتجه منهج البحث في دراسة التاريخ، ولا يفوتني هنا أن أذكر بأن الغرض من دراسة التاريخ هو جعله ميداناً تعرض فيه أحداث الماضي البعيد على صفحات الحاضر الذي يعيشه الإنسان، وترسم فيه سياسة المستقبل على ضوء ما يمليه الحاضر، وبذلك نخرج التاريخ من حيز النظريات الضيق إلى ميدان التطبيق العملي الفسيح، وتكون أحداث التاريخ نماذج للأجيال لا فلسفة يجترها المعلمون، ويهيم في خاليها المتعلمون.

د. محمد السيد الوكيل.

الخليفة الأول

أبو بكر الصِّدِّيق



الخليفة الأول

أبو بكر الصِّدِّيق

أبو بكر الصدِّيق:

هو عبدالله بن أبي قحافة ـ عثمان ـ بن عامر بن عمرو القرشي التيمي، ويلتقي مع رسول الله ﷺ في مرة وهو الجد السادس له ـ عليه الصلاة والسلام.

وكان أبو بكر يلقب بعتيق لحسنه وجماله وقيل لعتقه من النار، قال مصعب بن الزبير: وأجمعت الأمة على تسميته بالصدِّيق لأنه بادر بتصديق الرسول ولازم الصدق.

مولده ونشأته:

ولد بعد الرسول بسنتين وأشهرٍ، ونشأ بمكة، وكان لا يغادرها إلا للتجارة وكان من رؤساء قريش وأهل مشورتهم في الجاهلية، ومن المشهور عنه ـ رضي الله عنه ـ أنه ترك الخمر في الجاهلية، ولما سئل هل شربت الخمر في الجاهلية؟ قال: أعوذ بالله. فقيل: ولم؟ قال: كنت أصون وأحفظ مرؤتي، فإن من شرب الخمر كان مضياعاً في عرضه ومرؤاته[1].

صفته:

أخرج ابن سعد عن عائشة أن رجلاً قال لها: صفي لنا أبا بكر فقالت:

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٢.

كان أبيض نحيفاً، خفيف العارضين، أجنأ - أي في ظهره أنحاء - لا يستمسك أزاره، يسترخي عن حقويه - أي خاصرتيه - معروق الوجه - أي قليل لحم الوجه - غائر العينين، ناتىء الجبهة - أي مرتفعها - عاري الأشاجع - أي أصول الأصابع.

وكان رضي الله عنه أبيض الشعر يخضب بالحناء والكتم.

إسلامه:

هو أول من أسلم من الرجال، وأول من صلى مع الرسول ﷺ، وكان أبو بكر صديقاً للرسول في الجاهلية، ولعل التجارة والخروج فيها قد ربطت بينهما برباط وثيق حتى روى البيهقي عن أبي ميسرة أنه ﷺ كان إذا خرج سمع من يناديه، يا محمد، فإذا سمع الصوت ولى هارباً، فأسر ذلك إلى أبي بكر، وكان صديقاً له في الجاهلية.

وروى ابن عساكر في سبب إسلامه قال: قال أبو بكر الصدِّيق: كنت جالساً بفناء الكعبة وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً، فمر به أمية بن أبي الصلت فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟. قال: بخير، قال: وهل وجدت؟ قال: لا، فقال:

كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله في الحقيقة بور

أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم؟ قال أبو بكر: ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبي ينتظر ويبعث، قال: فخرجت إلى ورقة بن نوفل، وكان كثير النظر في السماء، كثير همهمة الصدر فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث فقال: نعم يا ابن أخي، أنا أهل الكتب والعلوم، إلا أن النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسباً - ولي علم بالنسب - وقومك أوسط العرب نسباً.

قلت: يا عم، وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له، إلا أنه لا يظلم ولا يُظلم ولا يظالم، فلما بُعِث رسول الله ﷺ آمنت به وصدقته[1].

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٤ - ٣٥.

بعض فضائله:

أجمع أهل السنة أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم سائر العشرة، ثم باقي أهل بدر، ثم باقي أهل أحد، ثم باقي أهل البيعة، ثم باقي الصحابة.

روى البخاري عن ابن عمر قال: كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله، فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ويضيف الطبري في الكبير، فيعلم بذلك النبي ﷺ: «ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء، ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر».

وأخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل آنفاً فقلت: يا جبريل، حدثني بفضائل عمر بن الخطاب، فقال: لو حدثتك بفضائل عمر مدة ما لبث نوح في قومه ما نفدت فضائل عمر، وإن عمر حسنة من حسنات أبي بكر».

مُبَايَعَتُهُ بالخلافة

لم يكد رسول الله ﷺ يودع الدنيا مختاراً جوار ربه حتى اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالقرب من دار سعد بن عبادة، وتشاوروا فيما بينهم لاختيار خليفة يرعى شؤونهم ويسوس أمورهم، لأنهم يعلمون أن أمر المسلمين لا يستقيم إلا بخليفة يقودهم بكتاب الله وسنة رسوله، وقد خشوا إن هم أجلوا ذلك أن يُنتقض الأمر، ويفلت من أيديهم، لهذا كانت المبادرة إلى اختيار الخليفة.

وكان اللقاء الأول في سقيفة بني ساعدة وقد بادر إليه الأنصار وأدركهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، فدخلوا السقيفة والأنصار يتهيئون لاختيار الخليفة، وكانوا يظنون أن لهم في الأمر شيئاً، وعرضوا اقتراحاً بأن يكون من المهاجرين أمير، ومن الأنصار أمير.

وانتظر أبو بكر حتى انتهى المتحدث باسم الأنصار ثم قال: أما بعد فما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم - يريد عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهما.

ولكن الناس قد أكثروا اللغط، وارتفعت أصواتهم حتى خشي عمر - رضي الله عنه - أن يختلف الناس، فقال: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون

أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر[1].

فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر.

وكانت هذه فرصة تهيأت لا بد أن يغتنمها عمر، ولا بد أن يحسم الأمر في تلك الصحوة النفسية للأنصار قبل أن يطرأ عليها ما يعكرها أو يغير اتجاهها، لقد كان الموقف حساساً للغاية، وماذا عسى أن يكون لو لم يهتبل عمر تلك البادرة من الأنصار؟.

لقد كان من المحتمل إن خرج عمر وصاحباه قبل أن تتم البيعة أن يحدث الأنصار بيعة لأحدهم وحينئذ لا يكون المصير إلا إلى أحد أمرين: إما أن يتابعوهم على من بايعوه غير راضين وإما أن يحدثوا بيعة أخرى فتكون التفرقة ويكون الفساد.

لهذا بادر عمر منتهزاً هذه الإشراقة الروحية قائلًا: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعه عمر، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، وانحسم الأمر واجتمعت كلمة الأمة على الرجل الذي ضحى في سبيل الإسلام وعرف له المسلمون هذا الفضل فقدموه.

وكان اللقاء الثاني لأبي بكر مع المسلمين في المسجد، وكان في اليوم التالي ليوم السقيفة، وهناك كانت البيعة العامة، وفي هذا اليوم صعد أبو بكر المنبر، وقام عمر بين يديه وقال: إن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه فقام الناس وبايعوه البيعة العامة بعد أن تمت له بيعة السقيفة.

ونظر أبو بكر وهو فوق المنبر فلم ير الزبير بن العوام، فدعا به فجاء، فقال أبو بكر: ابن عمة رسول الله وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين، فقال الزبير: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايع، ثم تفحص وجوه

---

(1) الطبري (٣/٢٠٢) وابن الأثير (٢/٣٢٤).

القوم، فلم يقع نظره على علي بن أبي طالب، فدعا به فجاء فقال أبو بكر: ابن عم رسول الله وختنه على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين فقال علي: لا تثريب يا خليفة رسول الله، ثم بايعه.

وخطب أبو بكر خطبته الشهيرة التي حدد فيها معالم السياسة التي سينهجها في خلافته، ورسم الملامح التي ستتميز بها حكومته فقال: (أما بعد، أيها الناس، إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله)[1].

وهكذا نشأت نظرية الخلافة عند المسلمين وكانت هده هي أول جلسة سياسة صرفة يجلسها المسلمون، ويناقشون فيها ذلك الحدث الهام في تاريخهم السياسي، ونحن نلاحظ أن اللقاء الأول كان المسلمون فيه شديدي الحماس، وكانت الأعصاب متوترة، والنفوس ضيقة حرجة، ولعل ذلك كان سبب النقاش الطويل الذي خيم على اجتماع السقيفة ولا جرم في حدوث مثل ذلك فإن فقد رسول الله، ووقع الحادث على النفوس، وتأثيره على القلوب كان لا يزال في عنفوانه، كما كانت جثة رسول الله ﷺ لا تزال ماثلة بين أيدي الرجال لم توار بَعد.

ونحن ننظر إلى الظروف التي دارت فيها المناقشة واختلفت فيها وجهات النظر على أنها ظروف طارئة، وليست ظروفاً طبيعية يمكن للناس فيها أن يتفهموا الحقائق في جو هادىء ويبحثوا الأمور في مناخ معتدل يساعد على المرونة وتتقبل فيه الآراء المخالفة لبحثها واختيار الأصلح منها.

---

(١) الطبري (٣/ ٢١٠).

إن كثيراً من الناس يحاولون إظهار ما كان في السقيفة من خلاف على أنه تكالب على الدنيا، وحب للمناصب، ودليل على عدم استقرار الإيمان في النفوس، والحق الذي يجب أن يفهمه الباحث المنصف هو أن هذا الخلاف كان دافعه البحث عن الأفضل والأصلح للمسلمين ونحن نحمد الله - عز وجل - أن وقف الخلاف عند حد الكلام والمناظرة، ونعتقد أن الإسلام كان صمام الأمن في يوم السقيفة، فلولا الوحدة الإسلامية التي دعمها الإسلام، ولولا الأخوة الإسلامية التي ربط بها الإسلام بين القلوب لاستلت السيوف، وأريقت الدماء، وكان الخراب والدمار، فأي قوة في الأرض تستطيع أن تمنع الثارات القديمة أن تطل بقرنها؟.. وأي حواجز تستطيع أن تحول بين هذه السيوف المتلمظة وبين الرقاب المتطاولة؟.

ليس هناك من يقدر على ذلك إلا الإسلام الذي كان تحقيق المصلحة له رائد الجميع في يوم السقيفة، ومن أجل هذا حقنت الدماء، وصفت القلوب، واجتمع المسلمون على خليفتهم يحوطونه بقلوبهم ويفدونه بأرواحهم وكانوا كلهم طوع أمره يتبادرون إلى طاعته ويتنافسون في تنفيذ أوامره.

الصدِّيق رجل الساعة:

كانت مواقف الصدِّيق - رضي الله عنه - منذ إسلامه توحي بمعاني كبيرة وتبشر بمستقبل حافل بجلائل الأمور، وكأن الله - عز وجل - كان يرشحه منذ اللحظة الأولى لأمر عظيم، وذلك لأنه كان أسبق الرجال إلى الإسلام، فلم يكد يسمع عن بعثة رسول الله ﷺ حتى بادر إليه وسعى بين يديه وأعلن إسلامه ولم يعبأ كثيراً ولا قليلاً بموقف قريش من رسول الله ولم يفكر في تجارته ومستقبله بل جعل ذلك كله في سبيل الله فلماذا إذن يفكر فيه؟.

لقد خرج من ماله فلم يفكر في جمعه ولم تعد تعنيه تجارته فلم ينشغل بتنميتها، وضحى بذلك كله في سبيل الله.ووقف في أحلك المحن إلى جوار رسول الله.

وكان موقفه من حادث الإسراء والمعراج فكان أروع مواقفه ـ وكلها روعة لا تمييز بينها ـ لقد رأت قريش أن ذلك الحادث هو الذي سيفتن أبا بكر ويرده عن تصديق رسول الله، فذهبوا إليه لا يخامرهم شك في انصرافه عن الإسلام عندما يسمع خبر الإسراء وساقوا إليه الخبر وهم يزفون إلى أنفسهم بشائر انصراف المؤمنين عن عقيدتهم ولكنهم صدموا صدمة لم يتوقعوها عندما سمعوا كلمة أبي بكر (إن كان قال: فقد صدق) وقال رضي الله عنه: (إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، إني لأصدقه في خبر السماء) وحطم ذلك الموقف أمل قريش كلها، وأيقنت أن كل ما شيدته من أماني، وما حلمت به من نصر قد ضاع أدراج الرياح.

وفي يوم الهجرة يبرز جانب آخر من جوانب حياة الصدِّيق النادرة، وهو جانب التضحية بالنفس بعد أن ضحى بالمال والجهد، فها هو ذا يدخل الغار قبل الرسول ليتأكد من خلوه من الهوام المؤذية وها هو ذا في الطريق يسير مرة أمامه، ومرة خلفه، وثالثة عن يمينه والآخرة عن شماله حتى لفت نظر الرسول ﷺ فيسأله عن سبب ذلك فيقول: يا رسول الله أذكر الرصد فأمشي أمامك، وأذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الكمين فأمشي مرة عن يمنيك ومرة عن شمالك.

هكذا يفعل أبو بكر رضي الله عنه ليفتدي رسول الله بنفسه، وذلك لأن أبا بكر كان يعلم أن موته موت رجل، وأما موت رسول الله فموت أمة ونهاية عقيدة، وقضاء على دين لم يتم بعد.

ثم يكون الموقف البطولي بحق، والذي دل على شخصية تميزت بخصائص لم تتوفر لرجل قط غير أبي بكر، ذلك هو موقفه يوم وفاة الرسول ﷺ ـ فإنه ـ رضي الله عنه ـ لما بلغه الخبر جاء من السنح مسرعاً، ودخل بيت الرسول فوجده مسجى ببرده، فكشف عن وجهه الشريف وقبله وقال: ما أطيبك حياً وأطيبك ميتاً، ثم رد عليه البرد، وخرج على الناس وخطب فيهم قائلاً: (أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية ﴿وما محمد إلا

رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين﴾)[1].

إن روعة الموقف وجلاله ليس في إدراك أبي بكر حقيقة موت رسول الله مخالفاً بذلك عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي كان يتوعد رجالاً قالوا: إن رسول الله قد مات، وليس كذلك في القدرة على إقناع الناس بموته ﷺ وجمعهم على الإسلام والعقيدة الصحيحة. ولكن الروعة والعظمة حقاً في تماسك أبي بكر أمام هول الصدمة. وقدرته على ضبط أعصابه. ومواجهة الموقف بهذا الحزم في تلك اللحظة الدقيقة. لئن وجد في الصحابة من ذهل لهول النبأ ففقد وعيه فقد كان أبو بكر أولى بذلك منهم، ولئن ضعف من عظماء الرجال وأقواهم أمام عظم الفجيعة وجسامة الخطب حتى لم تحمله قدماه فسقط على الأرض فقد كان أبو بكر أجدر بذلك منهم دون أن يلومه أحد، فقد كان ـ رضي الله عنه ـ أعظم الناس حباً لرسول الله ﷺ وقد رأينا كيف كان يفتديه بنفسه في أحرج الأوقات.

إن إدراك أبي بكر لما وراء ذلك الحدث من الأمور العظام وتصوره المستوعب للموقف من جوانبه المختلفة، وتوقعاته لردود الفعل المترتبة على وفاة الرسول، كل ذلك جدير بأن يوهن قوة أعظم الرجال قوة، ويعقد لسان أعظم الرجال فصاحة، ولو أن أبا بكر تعرض لشيء من ذلك ما كان ملوماً، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن.

لم يضعف الحادث الجلل من عزم أبي بكر، ولم يعقد موت رسول الله لسانه عن أن يجلي للناس حقيقة الأمر، وسيطر أبو بكر على الموقف برباطة جأش، وصرامة وحزم، وكانت خطبته إشارة قوية إلى أمر عظيم سيجتاح الجزيرة، وخطب جسيم سيلم بالمسلمين شاؤوا أم أبوا وتهيئة النفوس المؤمنة للثبات على الإيمان، إن كلمة الصدِّيق التي مازالت ماثلة في أذهان المؤمنين تؤكد هذا المعنى، ألم يقل ـ رضي الله عنه ـ (من كان يعبد محمداً فإن

---

(١) ابن هشام (٤/٢٢٤) والآية من سورة آل عمران ١٤٤.

محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) إنه بذلك يشير إلى أن هناك ناساً دخلوا الإسلام خوفاً من قوة الرسول، فهؤلاء حان لهم الوقت ليتمردوا على السلطة وليرتدوا على أعقابهم، ويثيروا فتنة عمياء لا يعلم مداها إلا الله، وهناك إلى جانب تلك الفئة جماعة مؤمنة دخلت في الإسلام طاعة لله وامتثالاً لأوامره، وقد حان الوقت لهؤلاء كذلك أن يستعدوا للدفاع عن الإسلام وأن يكونوا سداً منيعاً بينه وبين الذين يتربصون به الدوائر.

إن إدراك أبي بكر رضي الله عنه لكل هذا وقدرته على التماسك أمام تلك الخطوب وتمكنه من ضبط أعصابه رغم إحاطة ما يحطم الأعصاب ويهد القوى كل ذلك كفيل إذا انضم إلى ما سبق ذكره لأن يجعل أبا بكر هو المرشح الوحيد لخلافة رسول الله ﷺ وتولي أمر المسلمين.

إذا ليس تفاني أبي بكر في حب الرسول وحده كافٍ لأن يرشحه لهذا المنصب، وليس بذله وتضحيته التي لم تقف عند حد كذلك، لأن ذلك قد يتوفر في إنسان ولكنه لا يكون قادراً على مواجهة المواقف الحاسمة بالقدر المناسب لها من الكفاية والحزم والشجاعة، والحق الذي لا يماري فيه إلا معاند هو أن أبا بكر قد توفرت فيه كل مرشحات الخلافة فهو محب صادق لرسول الله حباً جعله أشد االناس اتِّباعاً لهديه واستمساكاً بشرعه، وهو أكثر الناس بذلاً وتضحية في نصرة الإسلام، وهو فوق ذلك أعظم الناس إيماناً بهذه الشريعة التي جاء بها رسول الله، وأقدرهم على الصمود أمام المحن ومواجهة الأحداث بما يناسبها، فكان بحق رجل الساعة ورجل الدولة والخليفة الذي لا يجرؤ أحد على منافسته ولا يستطيع أحد أن يغني غناءه.

أبو بكر والردة

لم يكد أبو بكر يتولى أمر المسلمين، بعد انعقاد البيعة له حتى واجهته ردة عاتية، وانتقضت الجزيرة العربية كلها تناهض المسلمين وتعلن خروجها على الإسلام، وظهر المتنبئون والتف حولهم رجال من ذوي المصالح الشخصية الحاقدين على الإسلام والطامعين في المنصب والجاه.

تنبأ طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد وانضمت إليه غطفان ومن والاها، وتنبأت سجاح بنت الحارث التميمة وانضم إليها مالك بن نويرة من بني جربوع. وهو تميمي كذلك، وظهر الأسود العنسي في اليمن، وقتل عامل رسول الله ﷺ على اليمن، وفرض نفسه على أهل البلاد. وكان قد سبق الجميع مسيلمة بن حبيب الحنفي حيث تنبأ في عهد الرسول وكتب إليه بنبوته .

وهكذا نلاحظ أن الجزيرة قد نكثت عهدها من جميع أقطارها من الجنوب (عبهلة) الأسود العنسي، ومن الشمال بنو عبس ومرة وذبيان وطليحة الأسدي، ومن الشرق مالك ابن نويرة ومسيلمة الكذاب، فلم يبق على دين الاسلام سوى أهل المدينة ومكة والطائف والقبائل الواقعة بين مكة والمدينة.

وقف أبو بكر أمام الردة وحده، وحاول المسلمون أن يثنوه عما عزم عليه من قتالهم وتجييش المسلمين لردعهم، ولكن هيهات، فقد كان ـ رضي الله عنه ـ أمة وحده، وكان يرى ببصيرة المؤمن ما لم يره غيره من المؤمنين، ووجد المسلمون الذي أذهلتهم الردة في عمر بن الخطاب خير نصير، ودفعوه

ليرد أبا بكر عن عزمه حتى لا يقضي على البقية الباقية من المسلمين، إنهم (لا قبل لهم بحرب العرب جميعاً، ولا سبيل إلى النجاة إلا المهادنة، وليرتد من يرتد، وليمنع الزكاة من شاء منهم، فما داموا هم يعبدون الإلّه فلا بأس عليهم).

وفطن أبو بكر لما يراد بالإسلام فقال كلمته المشهورة: أو ينقص الدين وأنا حي؟ وجاء عمر يجادل أبا بكر في أمر ما نعى الزكاة لعل الخليفة يسكت عنهم حتى ينتهوا من المرتدين الذين عادوا إلى الجاهلية، ولكن أبا بكر كان أقوى حجة وأوضح برهاناً فحاج عمر، وكأنه رأى في عمر الجبار وَهَناً فصارحه بالحقيقة (حتى أنت يا عمر، أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه، ولأقاتلنهم وحدي ما استمسك السيف بيدي).

كان ذلك الإصرار من الخليفة دليلاً على أنه يرى ما لا يراه غيره، وبرهاناً على اقتناعه بأحقية موقفه، وكانت تلك الكلمات القوية العنيفة أصدق حجة على تصميمه على القتال، ورأى عمر أن حجة أبي بكر أوضح، وتيقن أن سبيله أوثق فاقتنع، وتراجع عن رأيه، وشرح الله صدره للإسلام، فقال: (فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق)[1].

وكما حاول المسلمون منعه من محاربة ما نعي الزكاة والمرتدين حاولوا كذلك منعه من إنفاذ جيش أسامة، ولكن كل المحاولات قد باءت بفشل ذريع، حيث لم ير فيها الخليفة إلا وهنا لا يليق بالمسلمين، وخوراً لا يتناسب مع مكانتهم، فأراد أن يقطع كل سبب يتعللون به وأن يغلق الباب فلا يفتح أبداً فقال: (والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته)[2].

---

(١) ابن كثير (٦/٣١١).

(٢) هيكل الصدّيق أبو بكر ص ١٠٣، الكامل ابن الأثير ٢/٣٣٤، الطبري (٣/٢٢٥).

وشيع أبو بكر جيش أسامة وأوصاه بأن يصنع ما أمره به رسول الله ﷺ ولا يقصر في شيء منه ولا يتعجل العودة إلى أهله قبل أن يتم عهده.

وسار أسامة إلى أرض البلقاء من بلاد الشام، وأغار على آبل، وبعث سراياه إلى قضاعة تقتل وتحرق حتى قضى على كل فتنة واجهته، وعلى كل من وقف في طريقه وكان شعارهم في تلك المعركة (يا منصور أمت) وعاد الجيش مظفراً يسوق أمامه ما غنم في تلك المعركة حتى دخل المدينة.

وسر أبو بكر كما سر المسلمون لمقدم أسامة ظافراً منتصراً وقسم الخليفة الفيء على المجاهدين وأعطى القاعدين من الخمس، وعقد أحد عشر لواء وجهها لضرب المرتدين ومانعي الزكاة.

المتنبئون: ظهر بعض المتنبئين في آخر حياة الرسول ﷺ كالأسود العنسي ومسيلمة بن حبيب، وتنبأ بعضهم بعد وفاة الرسول كطليحة ابن خويلد، وسجاح بنت الحارث.. ومع شيوع تلك الظاهرة في أنحاء الجزيرة المختلفة إلا أن التاريخ لم يرو لنا أن واحداً منهم دعا إلى الوثنية، أو حاول إرجاع الناس إليها، وتلك ظاهرة جديرة بالاهتمام، فما دام هؤلاء الناس قد خرجوا على الإسلام، وأعلنوا تنبؤهم غير مكترثين بعواقب تلك الدعوى، فلماذا لم يعلنوا العودة إلى دين الأباء والأجداد ليكون ذلك دافعاً قوياً لحنين الناس إلى ماضٍ قريب العهد لم تجر عليه الأيام ذيول النسيان بعد؟.

أغلب الظن أن الإسلام لما كشف عورات تلك الديانة الفاسدة، وظهر بطلانها للقاصي والداني من الناس لم يعد هناك مجال للمناداة بها، وتجميع الناس حولها، بل إن الناس جميعاً قد أد ركوا عن يقين أنها حجارة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ومن هناك كانت الدعوة إلى إحيائها ومحاولة إعادة الناس إليها ضرباً من الهذيان لا يصغي إليه أحد ولا يلتفت إليه عاقل، ومعنى ذلك أن مجرد ذكر الأصنام كفيل بأن ينفر الناس ممن يدعو إليها، ويحاول إيقاظها بعد أن ووريت التراب.

إن الإسلام قد أحدث في الناس يقظة عقلية وصحوة ذهنية وجهت كل نواحي الحياة طوعاً أو كرهاً إلى الوجهة الصحيحة وأخضعت كل المناهج إلى

قانون البحث العقلي الواعي الرزين فلم يعد هناك مجال لنبش القبور وإخراج الرفات والدعوة إلى شيء قد رم وبلى.

وإذا كان الأمر كذلك فإلام كان يدعو هؤلاء المتنبئون؟

إننا عندما ندرس أوضاع المتنبئين نلمس بوضوح أنهم إنما كانوا يدعون إلى زعامات شخصية يريدون من وراء ذلك أن تكون لهم تلك المنزلة الرفيعة التي كانت لرسول الله ﷺ ظناً منهم أنه تبوأوا تلك المكانة بدعوى النبوة، ولم يدركوا أن الدعوى وحدها لا توصل إلى ذلك ولكن الذي يوصل إليه هو كون الدعوى مؤيدة بالحق الذي أعلنته ونادت به. ومع علمهم بأن دعوتهم خالية من الحقيقة مجردة من كل مقوماتها إلا أن هناك عوامل أخرى جعلتهم ينجحون في تجميع الأتباع، وتكثير المريدين من أهمها العصبية القبلية التي جعلت عيينة بن حصن يقول من غير استحياء نبي من الحليفين أحب إلينا من نبي من قريش، ومنها الهروب من التكاليف التي فرضها الإسلام عليهم وكانوا من قبل لا يتقيدون بشيء فوجدوا في متابعة هؤلاء المتنبئين تخلصاً من تلك التكاليف وكأن هؤلاء قد أدركوا بذكائهم أنهم يكسبون تأييد الناس والتفافهم حولهم إذا خففوا عنهم من تلك القيود التي أدركوا ثقلها بعد وفاة الرسول ﷺ فنادى بعضهم بمنع الزكاة، وحط بعضهم عمن تبعهم فريضتين من الصلاة.

ومن هنا ندرك أن دوافع الردة والتنبؤ كانت ترجع إلى العوامل الآتية:

١ ـ الرغبة في الزعامة وحب السيطرة.
٢ ـ العصبية القبلية.
٣ ـ ثقل التكاليف والرغبة في التخلص منها.

ولتتناول بشيء من الإيجاز غير المخل ـ إن شاء الله ـ طرفاً من حروب الردة.

المرتدون يهاجمون المدينة:

بعد إنفاذ جيش أسامة طمعت بعض القبائل القريبة من المدينة في

غزوها متأكدين من خلوها من الرجال المحاربين وبخاصة وقد غادرها بعث أسامة متوجهاً إلى الحدود الشمالية للجزيرة أي على بعد لا يقل عن ثمانمائة كيلومتر من المدينة. ولكي يتأكد هؤلاء الطامعون من نجاح غزوهم أرسلوا رسلاً عنهم ليتفاوضوا مع أبي بكر في أن يحط عنهم الزكاة ويتركهم ويتركونه ولم يكن المقصود هو المفاوضة لذاتها ولكن كان من وراء ذلك مقصد خبيث، فقد كانوا يريدون الوقوف على مدى استعداد المدينة للدفاع عن نفسها وقدرتها على الصمود في وجه من يريد أن يغير عليها وأغلب الظن أنهم كانوا معتقدين أن الخليفة لن يقبل منهم مثل هذا العرض السخيف وكيف يقبل منهم وقد رأوا أنه ـ رضي الله عنه ـ لم يقبل من أصحابه تعطيل بعث أسامة مع شدة الحاجة الظاهرة إلى ذلك، وأصر على إنفاذه تلبية لرغبة رسول الله ﷺ فهل يقبل منهم تعطيل فريضة من فرائض الإسلام؟

إنهم كانوا متأكدين أنه يرفض هذا الطلب ولكنهم عندئذ يكونون قد وقفوا على عورات المدينة وعرفوا جوانب الضعف فيها.

وفطن الخليفة لما جاء به مندوبو عبس وذبيان، وغطفان وفزارة، فعبأ المسلمين الذين معه في المدينة القادرين منهم وغير القادرين، وقال لهم: (إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة، وأنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أو نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم فاستعدوا وأعدوا).

وطلب الخليفة من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود أن يقفوا على أبواب المدينة يحرسونها من هجمة العدو ولبثوا على ذلك ثلاث ليال وفي الليلة الثالثة باغتهم العدو آملين أن يجبروا الخليفة على التنازل عن ذلك الغرض الذي اعتبروه أتاوة يدفعونها إلى المسلمين، ولم يدر بخلدهم أن المدينة ستقاوم بعدما رأوا من خلوها من المدافعين، ولكنهم بوغتوا بمواجهة القوم لهم وردهم على أعقابهم وعاد الغزاة بخيبة أمل غير متوقعة وتعقبهم أبو بكر في ثلث الليل الأخير واشتبك معهم في معركة مفاجئة واستيقظ العدو على مس السيف فولوا الأدبار حتى

بلغوا ذا القصة وأقام المسلمون في منازل القوم وطاردوهم منها وأبقى الخليفة النعمان بن مقرن ومعه حامية حتى لا يعود العدو إلى منازله مرة أخرى.

وهكذا وقف أبو بكر رضي الله عنه في وجه مانعي الزكاة ورفض التنازل عن شيء من الإسلام، ترى لو أن أبا بكر ساوم القوم وقبل منهم ما طلبوا أو بعض ما طلبوا هل يكفون عن المزيد؟.

وهل كانت مطالبهم تقف عند حد؟ أستطيع أن أقول متأكداً مما أقول، إن أبا بكر لو لبى بعض ما طلب القوم لفاوضوا في المزيد ولم تقف طلباتهم عند حد بل لبلغت طلباتهم فرائض الإسلام كلها ولكن أبا بكر قد قطع عليهم هذا الأمل وأجبرهم على الإذعان للإسلام بكل فرائضه وواجباته.

عودة الجيش:

كان لانتصار أبي بكر في معركة ذي القصة من الأثر ما جعل القبائل ترسل مندوبيها ليعلنوا إذعانها ويؤدوا الزكاة إلى الخليفة، وكان في مقدمة المندوبين الزبرقان بن بدر ومعه صفوان من زعماء بني تميم، وعدي ابن حاتم من طيء واستقبلهم الناس ببهجة وسرور، وقد اطمأنت قلوبهم بنصر الله لأبي بكر، وفي غمرة تلك الفرحة وصل جيش أسامة مظفراً يسوق الغنائم إلى المدينة، وكان في استقباله الخليفة وكبار الصحابة، وتوجه أسامة إلى المسجد عند دخوله المدينة كما كان يفعل رسول الله ﷺ عند عودته من الغزو، وهناك ركز أسامة الراية التي عقدها له رسول الله وصلى لله شكراً على ما أكرمه به من النصر.

اطمأن المسلمون في المدينة لوصول جيش أسامة منتصراً، وتأكد لهم أن أبا بكر كان أبعدهم نظراً، وأعظمهم ثقة بنصر الله، وقد عبر عن ذلك ابن مسعود رضي الله عنه حين قال: لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن من الله علينا بأبي بكر، أجمعنا على ألا نقاتل عن ابنة مخاض وابنة لبون، وأن نعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية، أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار، ومن قتل منا في الجنة،

وأن يدوا قتلانا، وأن نغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذ منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم(١).

ولم يكد جيش أسامة يستجم من وعثاء السفر حتى عزم أبو بكر على مهاجمة عدوه لئلا يجد طعم الراحة فيتمرد ويثور، واستخلف أسامة بن زيد على المدينة وسار هو والجيش الذي كان معه إلى القصة، ونازل عبساً وذبيان وغطفان وبني بكر وأجلاهم عن مواقعهم واستولى على الأبرق وأعلن أنها لن تعود لأصحابها من بني ذبيان مرة أخرى، وكان أبو بكر يقصد من ذلك أن يعلم هذه القبائل المتمردة أن النصر الأول لم يكن محض صدفة فها هو ذا ينتصر عليهم ويخرجهم من ديارهم، وبذلك يقطع عليهم التفكير في غزو المدينة مرة أخرى حتى ولو خلت من المحاربين.

وقسم الخليفة جيش أسامة بعد أن استراح، وعقد أحد عشر لواء، وخرج بالجيش إلى ذي القصة وجعل على كل لواء قائداً، ووجه كل قائد إلى جهة من جهات الجزيرة التي ظهرت فيها الردة(٢).

معركة البزاخة:

وجه الخليفة خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ على رأس اللواء الأول إلى البزاخة حيث يقيم طليحة بن خويلد في قبيلته بني أسد، وقد انحاز إليه المنهزمون في ذي القصة من عبس وذبيان وغطفان وفزارة واستعدى طيئاً وجديله والغوث وغيرهم من القبائل التي أطاعته ليستعين بهم على محاربة المسلمين.

وكان طليحة قد تنبأ في قومه فآمنوا بنبوته، واستطاع طليحة بذكائه أن يستعيد الحلف القديم الذي كان بين أسد وغطفان وطيء، واجتمع عليه هؤلاء عصبية لذلك الحلف واستنكافاً أن يخضعوا لقريش.

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٤٢).
(٢) الطبري (٣/٢٤٩).

وشن أبو بكر هجوماً على كل أنحاء الجزيرة ولكنه هجوم ليس فيه قتل ولا دماء وإنما فيه رعب وفزع ليمهد للهجوم الذي سيكون فيه الموت والدمار، فأرسل رسالة إلى كل أنحاء الجزيرة هدد فيها المارقين بالقتل والإحراق والسبي إن لم يفيئوا إلى أمر الله وأنذرهم بأن أمراءه لن يقبلوا منهم إلا الإسلام، فمن فاء فهو خير له، ومن أبى فلن يعجز الله.

وبقدر إعلان هذه الحرب البيضاء قبل مسيرة الأمراء استعمل الخليفة حرب الأعصاب فقد أعلن أنه سيخرج في جيش آخر من جهة خيبر حتى يلتقي مع جيش خالد هناك ومن ثم يطبقون على بني أسد ومن تبعهم فيمزقونهم شر ممزق فلا تسمع لهم همساً.

سار خالد متوجهاً بجيشه إلى البزاخة وقد سبقه عدي بن حاتم بأمر من الخليفة لينقذ من قومه من يستطيع إنقاذهم، ولما وصل عدي إلى قومه وجد فريقاً منهم قد سبقوا إلى طليحة وأخذ عدي يهدد ويرغب حتى استجاب له قومه وطلبوا منه أن يمهلهم ثلاثة أيام حتى يحتالوا على طليحة ويستردوا إخوانهم الذين سبقوهم إليه.

ولما وصل خالد إلى بني طيء في طريقه إلى البزاخة خرج إليه عدي مسرعاً واستمهله ثلاثة أيام كما طلب قومه وأرسل بنو طيء إلى طليحة يستعجلون في رد إخوانهم ليستعينوا بهم على رد جيش خالد الذي مال إليهم فيعوقوه عن السير حتى يستعد طليحة للقائه واقتنع طليحة بقول طيء وانطلت عليه حيلتهم فأسرع في رد الطيئين إلى قومهم، وهكذا خان طليحة ذكاؤه ولم يدرك ما بيته له القوم وعاد عدي بعد ثلاثة بخمسمائة مقاتل ممن رجعوا إلى الإيمان.

واستمهل عدي خالداً مرة أخرى لعله يستطيع أن ينقذ جديلة كما أنقذ طيئاً، وقبل خالد منه فقد صدقه في الأولى ولن يكذبه في الآخرة، وذهب إليهم عدي وكلمهم ومازال بهم حتى هداهم الله، فعاد إلى خالد ومعه منهم ألف فارس[١].

---

(١) الطبري (٣/٢٥٤).

وأرسل خالد الطليعة ليستشف أمر عدوه، ويتعرف على أحوالهم قبل أن يهاجمهم واختار لذلك رجلين عظيمين من خيرة جنوده هما: ثابت ابن أقرم، وعكاشة بن محصن.

وفي الطريق التقيا بحبال بن طليحة فقتله عكاشة واستلبه، واستأنفا السير حتى التقيا بطليحة وأخيه سلمة فتبارزوا فقتل طليحة عكاشة ولم يقدرْ سلمة على ثابت حتى استعان بطليحة وقتلاه.

وأقبل خالد بجيشه فوجد عكاشة وثابتاً صريعين، فشق ذلك على الجيش وأدرك خالد بعبقريته العسكرية أنه لا يستطيع أن يقاتل عدوه بجيشه وهو على تلك الحالة النفسية القلقة فمال إلى طيء وطلب من عدي أن يمده برجال من قومه يرفع بهم معنويات الجيش وبذل عدي أقصى جهده في مد خالد بالرجال، وأقبل رجال من طيء منضمين إلى جيش المسلمين فازداد بذلك عددهم وارتفعت معنوياتهم وطابت بالحرب نفوسهم فزحف بهم خالد على عدوهم.

وصلت أنباء طيء وجديلة إلى طليحة فوهنته وأضعفت عزمه بعد أن تقوى بهم وبمن انضم إليه من أمثالهم، ولكنه لن يستطيع الفرار من الميدان وقد التف حوله قومه وحلفاؤه وعلى رأسهم عيينة بن حصن الفزاري في سبعمائة مقاتل من قومه، إنه إن يفر يعرض نفسه لخطر عظيم ومن ذا الذي يمنعه من غضبة هؤلاء وقد تأكدوا من كذبه عليهم وخداعه لهم؟.

إنه إن يصبر حتى يأتي جيش المسلمين فينشغل به قومه ويفر وهُم في شغل عنه خير من أن يفر من بينهم وهم حوله لا يشغلهم شيء فيلحقُوا به فيقتلوه.

ولا أعتقد إلا أن طليحة قد أسر في نفسه هذا الأمر وعزم عليه دون أن يطلع عليه أحد من قومه والذي يؤيد ذلك ويؤكده هو أن طليحة قد أعد لنفسه فرساً ولزوجه بعيراً ليفر عندما تحين الفرصة.

زحف خالد بجيشه حتى وصل البزاخة وهناك كان عيينة بن حصن يقود

جيوش طليحة، وأما طليحة نفسه فقد آثر أن يبقى في خيمته ملتفاً بكسائه زاعماً أنه يتنبأ للناس ولا أخاله إلا يستعد للهروب عندما تسنح الظروف.

والتقى الجيشان وقاتل عيينة قتال المستميت اليائس من الحياة فلما ضجر من القتال ذهب إلى طليحة في خيمته وسأله، هل أتاك جبريل؟ فقال: لا، فرجع فقاتل حتى ضجر وعاد إلى طليحة وسأله، هل أتاك جبريل؟ ويجيب طليحة، لا، وكأنه يريد أن ييأس عيينة فيفر قبل أن يفر هو، ولكن عيينة يعود ويقاتل حتى إذا مل ولم يعد لديه أمل في النصر ذهب إلى طليحة وكرر عليه السؤال، وكأن طليحة قد رأى الغدر في عيني عيينة فخاف أن يجيبه بالسلب فيغدر به فقال له: نعم جاءني جبريل، فقال عيينة في لهفة، وماذا قال لك؟ وأجاب طليحة بكلام هو إلى الهذيان أقرب منه إلى قول العقلاء وانتظر عيينة أن يسمع وحياً كالذي كان يسمعه من محمد ﷺ ولكنه فوجيء بكلام متهافت مهلهل حين قال طليحة: قال لي جبريل: (إن لك رحاً كرحاه، وحديثاً لا تنساه) ولم يطق عيينة صبراً على هذا السخف فصاح بقومه: (انصرفوا يا بني فزارة فإنه كذاب)[1].

وانتهز طليحة فرصة فرار قومه وحانت له لحظة الفرار الذي كان يستعد له منذ انصراف طيء وجديلة عنه وركب فرسه وأركب زوجه البعير الذي أعده وانطلقا هاربين إلى الشام ومر به جماعة من قومه وسألوه، بماذا تأمرنا[2]؟.

فقال: من استطاع أن يفعل منكم مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل.

قتل خالد من أتباع طليحة من قتل وأسر منهم من أسر، ولكن أوامر الخليفة كانت تقضي بألا يقبل الأمراء من المرتدين إلا الإسلام لذلك قتل خالد من قتل المسلمين وأحرق من أحرقهم ورمى ببعضهم من رؤوس الجبال كما فعلوا بالمسلمين ورجم بعضاً بالحجارة كانوا قد رجموا المسلمين، ولم يبق في الأسر إلا الزعماء أرسل بهم إلى الخليفة ليرى فيهم رأيه.

---

(١) الطبري (٣/٢٥٦).
(٢) نفسه.

وأقر الخليفة سياسة الإرهاب التي اتبعها خالد ولم يلمه على عقوبة أنزلها بأعداء الله ولو كانت الإحراق بل شجعه بقوله: (ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به جهرة)[1].

واتخذ أبو بكر رضي الله عنه مع الأسرى سياسة غير سياسة خالد، فعاملهم باللين والرحمة وعفا عنهم ما عدا الفجاءة إياس بن عبد ياليل فإنه لم يحقن دمه ولم يصفح عن ذنبه وذلك لأنه خدع أبا بكر وخان جماعة المسلمين، فقد طلب من الخليفة أن يمده بالسلاح ليكون عوناً للمسلمين ولكنه استعمل هذا السلاح ضد المسلمين فاعتبر الخليفة عمله خيانة عظمى وجريمة لا يجوز العفو عنها حتى يرتدع غيره ويكون عبرة لمن تسول له نفسه أن يعمل عمله، لذا أمر الخليفة به فأحرق في النار في بقيع المصلى[2] (مكان مسجد الغمامة الآن).

وظل خالد في البزاخة شهراً يتعقب الفلول، ويقضي على الجيوب، وينكل أعداء الله ليجعل منهم عبرة لكل ذي عقل حتى طهرت الأرض وبرئت من المرتدين.

وأما طليحة فقد فر بزوجه إلى الشام ونزل على بني كلب ولما جاءته الأخبار بأن أتباعه قد عادوا إلى الإسلام ودخلوا في دين الله عاد هو الآخر إلى الإسلام وتاب عما كان يدعيه، وذهب طليحة إلى مكة معتمراً في خلافة الصدِّيق، ومر بالمدينة ولم يدخلها حياء من أبي بكر وجاء المسلمون فأخبروا الخليفة بمكانه فقال: ما أصنع به، خلوا عنه فقد هداه الله للإسلام.

ولما استخلف عمر رضي الله عنه جاء طليحة ليبايعه ولكن عمر رفض قبول البيعة منه، وقال له: أنت قاتل عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم؟ فقال طليحة: يا أمير المؤمنين ما تقول في رجلين أكرمهما الله على يدي، ولم

---

(١) ابن كثير (٦/٣١٨).
(٢) ابن كثير (٦/٣١٩).

يهني بأيديهما فسكنت ثائرة عمر وقبل بيعته وعاد طليحة فأقام بين قومه حتى خرج في حروب العراق مع المسلمين وأبلى فيها أحسن البلاء.

امرأة تتنبأ:

كان الخلاف ناشباً بين جماعة المسلمين وبين جماعة المرتدين من بني تميم بقيادة مالك بن نويرة وكان بنو تميم بعد موت رسول الله ﷺ مترددين في أمرهم هل يمنعون الزكاة مع المانعين أم يستمرون على ما كانوا عليه؟ وأدى هذا التردد إلى أن صاروا فريقين: فريق ارتد ومنع الزكاة، وفريق ظل على إسلامه وبعث بأموال الصدقات.

وكان مالك بن نويرة ممن أسلم في عهد الرسول وهو يومئذ سيد بني يربوع، وقد اتخذه الرسول عاملاً له على قومه ولكنه بعد وفاة الرسول منع الزكاة وتنكر لسلطان المدينة وتزعم الفريق المرتد المتمرد على الخليفة، وبذلك جعل نفسه غرضاً تقصده جيوش المسلمين.

وبينما كان القوم على خلاف شديد فيما بينهم، بل استعد كل فريق منهم لمنازلة الفريق الآخر فاجأتهم سجاح بنت الحارث التميمية وهي من بني يربوع جماعة مالك بن نويرة ولكنها كانت تعيش مع أخوالها التغلبيين في العراق، وكانت تعتنق النصرانية ديناً لها، وتزوجت من بني أخوالها وكانت ذكية داهية تعرف بالكاهنة ولها خبرة في قيادة الرجال.

كانت سجاح تكره الإسلام والمسلمين كما يكرهه النصارى، وكانت تضمر له الشر كما يضمره اليهود، ولهذا لما سمعت بوفاة الرسول جاءت من شمال العراق بقومها ومن تابعها من القبائل المحيطة بها تقصد غزو المدينة للقضاء على سلطان أبي بكر فيها.

ويرى بعض المؤرخين أن دعوى سجاح النبوة إن هو إلا حيلة فقط، وما هي في الحقيقة إلا جاسوسة للفرس بعثوا بها لتزيد الفرقة بين أبناء الجزيرة وتشعل الفتن بين ساكنيها وقد استغل الفرس فيها ذكاءها وقدرتها على

الإقناع بما تريد ولعل الفرس كانوا يقصدون من وراء ذلك أن يشغلوا العرب بأنفسهم حتى لا يفكروا في غزو بلادهم وبخاصة وقد رأوهم يقتحمون حدود الروم سواء كان ذلك في عهد الرسول ﷺ أم في عهد أبي بكر رضي الله عنه. ولعلهم كانوا يطمعون في أن يستعيدوا ملكهم المفقود في بعض نواحي الجزيرة، وبخاصة في اليمن الذي كان تحت سلطتهم حتى عهد الرسول ولعل الأمرين كانا السبب الذي دفع الفرس إلى الزج بسجاح في ذلك الميدان الذي لم تقتحمه أنثى قط قبل سجاح.

وإن مما يؤيد هذه الدعوى أن سجاح كانت بحكم دينها الذي تعتنقه تكره الإسلام كما قلت من قبل فاستغل الفرس فيها ذلك الاتجاه، فدفعوها بإغراء مساندتها وتأييدهم لها ولهذا فإنها لم تلتق مع المسلمين، ولم تعزم عزماً أكيداً على الدخول معهم في معركة بل كانت تتظاهر بذلك وكلما وجدت ما يصرفها عنه انقادت له راضية، ثم لما علمت بقدوم خالد إلى اليمامة، وهي عند مسيلمة فرت راجعة إلى العراق، وكأنها اكتفت بما أثارته من شغب وبما لفتت إليه أنظار الناس في الجزيرة من كثرة الخارجين على الإسلام والمسلمين.

كانت من الطبيعي أن تتوجه سجاح إلى بلاد بني تميم قومها الأقربين وبخاصة وكان الخلاف بينهم على أشده، فما لها لا تنزل عليهم بفتنتها لتزيد النار اشتعالاً وتكون بذلك قد حققت جانباً من مهمتها.

ولم تكد تصل إلى بني عمومتها حتى دعتهم إلى الاستجابة لها، فأنف بعضهم أن يتبع امرأة ولو كانت تميمية ولو أوحى إليها، ومال بعضهم إلى متابعتها ولا أظن أن هؤلاء اتبعوها تصديقاً لها، ولكن مكيدة في المسلمين، وتكثيراً للمتمردين، وكان على رأس من اتبعها مالك بن نويرة وعطارد ابن حاجب ومعهما رجال من سادات تميم.

واستطاع مالك بسهولة أن يقنعها بالعدول عن الذهاب إلى المدينة وأقنعها بالانضمام إليه لمحاربة المناوئين من بني تميم فاستجابت له دون عناء

وقالت (فشأنك بمن رأيت، إنما أنا امرأة من بني يربوع، وإن كان مالك فهو ملككم)[1].

تلك العبارة الناعمة التي لا يلمح فيها المحقق إلا أنوثة مضطربة متداعية، لا تنم إلا عن كذب دعوى سجاح ومثل هذا الاستسلام السريع لا يخفى مغزاه على مثل مالك بن نويرة وهو الزعيم المجرب، فلم تكن المسألة إذاً نبوة ولا أنبياء، وإنما هي إثارة الفتنة وتوسيع رقعة الخلاف وتكثير عدد المشاغبين على المسلمين.

ودارت معركة عنيفة بين سجاح وجنودها ومن تبعها من بني تميم من جهة وبين المخالفين لها من جهة أخرى قتل فيها خلق كثير ثم تصالحوا ولم تجد سجاح لنفسها مقاماً بينهم فخرجت متجهة إلى المدينة فلقيها أوس بن خزيمة فهزمها واستسلمت له على ألا تجتاز بلاده إلى المدينة.

ووقفت سجاح حائرة مع قومها ماذا تفعل؟ وإلى أين تتجه؟ لقد اصطلح بنو تميم فلم يعد لها مكان بينهم وهذا الطريق إلى المدينة قد سد في وجهها، وفكرت سجاح ولم يطل تفكيرها فماذا عليها لو قصدت مسيلمة ذلك الزميل الذي لم تجربه بعد، ولم تختبر عريكته.

وهنا غمغمت بتلك الكلمات (عليكم باليمامة، دفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا يلحقنكم بعدها ملامة)[2].

وسمع أتباعها هذا السخف فزعموه وحياً، ولم يكن لهم بد من التوجه إلى اليمامة وإلا فإنهم يكونون قد خالفوا الوحي وعرضوا أنفسهم لنقمة الموحى.

سارت سجاح بجيشها اللجب إلى اليمامة لتجرب حظها مع مسيلمة بعد أن منيت بالهزيمة في بني تميم ثم على يد أوس بن خزيمة، ولعلها

---

(١) الطبري (٣/٢٦٩).
(٢) الطبري (٣/٢٧٢).

انتهزت فرصة اشتباك مسيلمة مع ثمامة بن اثال الذي كان يقاتل الكذاب حتى تأتيه جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، ولعل سجاح أرادت أن تباغت مسيلمة وهو في تلك الحال فيسلم لها ببعض ما تريد فتظهر أمام قومها بالتغلب ولو مرة حتى لا تتهم بالكذب، وتنكشف بتكرار الهزائم.

على كل حال سارت سجاح لا تريد إلا اليمامة، وليس لها وجهة سواها، وعلم مسيلمة الكذاب بقدومها، فراسلها يستأمنها، ويضمن لها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت، وأخبرها بأن الله قد رده عليها وحباها به.

وطلب مسيلمة الاجتماع مع سجاح ليتدارس معها الأمر، ووافقت سجاح دون أن تشترط لنفسها شيئاً، فأطمع ذلك مسيلمة فقدم عليها في رجال من قومه واجتمع معها في خيمة منفردين، ولم تخرج من عنده إلا عروساً قد بنى بها.

ونحن لا ندرك سر استجابة سجاح السريعة لكل دعوة توجه إليها، بل لا نستطيع أن نعلله إلا بأنها كانت لينة العريكة في أنوثتها كما وصفها بعض المحققين وشيء آخر ينبغي أن ندركه هنا، وهو أن سجاح بإثارة الفتنة في بني تميم، والدخول في معركة ولو خاسرة مع ابن خزيمة، وانضمامها إلى مسيلمة قد حققت الغاية التي جاءت من أجلها.

إنها لو لم تنضم إلى مالك وتؤيده لما ثارت الفتنة، ولما قتل بعضهم بعضاً، ولو لم تدخل في معركة مع أوس بن خزيمة لأدرك قومها حيلتها وانفضوا من حولها، ولو لم تنضم إلى مسيلمة وتؤمن به لتساءل الناس لماذا لم تحقق هدفها ورجعت إلى حيث أتت؟.

وخاتمة المطاف أنَّ سجاح قد رضيت من الغنيمة بالإياب، وأنَّ مسيلمة كان لا بدَّ أن يصانعها حتى لا يحارب في جبهتين، وعادت سجاح إلى العراق مودِّعة زوجها الجديد دون أن تبقى معه في اليمامة أو تأخذه معها إلى العراق، وقد جعل لها مسيلمة نصف خراج اليمامة فقنعت به ويبدو أنَّ ما تمَّ بينهما من الزواج كان متعة لم يحرمها دين مسيلمة الجديد..

ونحن نقف أمام هذا الزواج وقفة العجب، أنَّ مسيلمة لم يكن في حاجة إلى زوجة، بل الذي يظهر من تشريعاته لاتباعه أنَّه كان لا يميل إلى عشرة النساء، فقد حرَّم على مريديه أن يقربوا أزواجهم ما داموا قد رزقوا البنين يقول ابن كثير: (وقد كان مسيلمة لعنه الله شرع لمن اتبعه أنَّ الأعـزب يتزوج، فإذا ولد له ذكر فيحرم عليه النساء حينئذٍ إلَّا أن يموت ذلك الولد الذكر، فتحل له النساء حتى يولد له ذكر)[1].

إنَّ رجلاً هذا شأنه لا يمكن أن يتزوج لرغبة في الزواج ولكن الذي يغلب على الظن أنَّه لمس من سجاح ميلاً للرجال، فأسكتها بإشباع ميولها، وأصدقها بأن حط عن أتباعها صلاتي العشاء والصبح، ورضيت ورضي قومها بهذا الصداق، وانصرفت عائدة إلى العراق.

معركة البطاح:

وقف بنو تميم بعد انصراف سجاح عنهم مترددين لا يدرون ماذا يصنعون وقد بلغتهم أنباء معركة البزاخة وما حلَّ فيها بطليحة من الخزي والهزيمة فزادتهم قلقاً وحيرة وتفكر مالك بن نويرة فيما ينتظره على يد خالد وجنوده، وليس بأشجع من طليحة ولا أقدر منه على خوض المعركة، إنَّ قيامه مع سجاح المتنبئة الكاذبة، ومنعه الزكاة ومقاتلته المسلمين من قومه يعرضه لموقف حرج، وإذا كان طليحة قد ناله هذا المصير على يد المسلمين فما المصير الذي ينتظر مالكاً على أيديهم؟.

فأمَّا وكيع بن مالك صاحب مالك بن نويرة وصديقه الذي انضمَّ معه إلى سجاح فقد أدرك خطأه، وعاد إلى رشده فأعلن إسلامه وبعث بالزكاة إلى المدينة وأمَّا مالك فترك نفسه في حيرتها، فلم يفعل كما فعل وكيع.

وانتهى خالد بن الوليد مع معركة البزاخة، وعقد العزم على التوجـه بجيشه إلى البطاح حيث يقيم مالك وأتباعه، ولمَّا همَّ خالد بالمسير إلى البطاح لم يوافقه من معه من الأنصار وقالوا: (ما هذا بعهد الخليفة إلينا،

---

(١) ابن كثير (٦/٣٢١) البداية والنهاية.

وإنَّما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا).

وأجابهم خالد: (إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إليّ أن أمضي، وأنا الأمير وإليَّ تنتهي الأخبار، ولو أنَّه لم يأتني كتاب ولا أمر ثمَّ رأيت فرصة إن أعلنته بها فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذلك إذا ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثمَّ نعمل به، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا، وأنا قاصد له بمن معي من المهاجرين والتابعين لهم بإحسان ولست أكرهكم)[1]. . وسار ومن معه من المهاجرين يقصد البطاح.

ونظر الأنصار في الأمر وتشاوروا فيما بينهم وكأنَّهم ندموا على ما فعلوا وقال بعضهم لبعض (لئن أصاب خالد اليوم خيراً إنَّه لخير حرمتموه، ولئن أصابته ورجاله مصيبة ليجتنبكم الناس)[2] واتفقوا على أن يلحقوا به، وجردوا له رسولاً فلحقه بعد يومين وطلب منه الانتظار حتى يلحق به الأنصار.

وجد خالد في المسير بعد أن لحق به الأنصار ووصل إلى البطاح فلم يجد فيها أحداً، وذلك لأنَّ ابن نويرة كان قد نصح قومه بالإسلام، وكذلك كان كل أمراء بني تميم قد أذعنوا للإسلام ودفعوا الزكاة، وكان القوم قد لزموا بيوتهم حتى لا يظن بهم الظنون.

فلما وصل خالد ولم يجد أحداً بثَّ السرايا وأمرهم بأن يأتوه بكل من لم يجب داعي الله، واستجاب الأمراء كلهم، وجاءوا طائعين ممثلين لأقوامهم يقدِّمون الزكاة بين يدي خالد ولم يكن مالك بن نويرة بين هؤلاء الذين أعلنوا ولاءهم وبذلوا زكاتهم.

وقبضت السرايا على مالك وهو معتزل أمر الناس، فأحضروه بين يدي خالد هو ومن معه ووافقه من قومه، وأمر خالد بحبسهم.

---

(١) ابن كثير (٣٢٢/٦). هيكل ص ١٥٤ الصدِّيق أبو بكر.
(٢) ابن الأثير (٣٥٨/٢) (الكامل).

وسأل خالد السرية التي أسرتهم عن أمرهم فاختلفوا فيما بينهم، قال بعضهم: لم يؤذنوا ولم يصلوا، وقال الآخرون وفيهم أبو قتادة: بل أقاموا الصلاة.

والذي يظهر من خلال تلك الأحداث أنَّ القوم لو أذنوا وصلوا كما فعل غيرهم ما أسرتهم السرية ولكان مثلهم مثل إخوانهم الذين لم يؤسروا وإلاَّ فلم يؤسر هؤلاء وقد أذنوا وصلوا ولم يؤسر غيرهم ممن أذن وصلَّى؟.

وجد خالد نفسه أمام أمرين في مسألة مالك بن نويرة فكان لا بدَّ أن يتأكَّد بنفسه حتى يصدر حكمه بعد الوقوف على جلية الموضوع، لذا أمر بحبسهم حتى الصباح.

مقتل مالك بن نويرة:

يروي المؤرخون أنَّ الأسرى باتوا ليلتهم مكبلين وكانت الليلة شديدة البرد، فأمر خالد بإدفاء الأسرى فنادى مناديه (دافئوا أسراكم) فظنَّ الحراس أنَّ خالداً يريد قتلهم فقتلوهم وسمع خالد صياح القوم فخرج ليرى الخبر فوجدهم قد فرغوا منهم فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه.

يروي ابن كثير هذه الرواية بصيغة تدل على الضعف وعدم اعتماده عليها، ولئن صحَّت هذه الرواية فإنَّ خالداً لا دخل له في قتل القوم، ويكون قتلهم وقع خطأً غير مقصود لا من خالد ولا من الحراس ـ وعلى هذا يكون زواج خالد من امرأة مالك إنَّما أراد به تعويضها عمن فقدت فيكون لها فيه عزاء كما فعل سعد بن أبي وقاص مع زوجة المثنى بن حارثة رضي الله عنهما.

وتجري رواية أخرى على النحو التالي: يقول المؤرخون: إنَّ خالداً استدعي مالكاً ولامه على ما كان منه من متابعة سجاح ومنع الزكاة وقال: ألم تعلم أنَّ الزكاة قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إنَّ صاحبكم كان يزعم ذلك فقال خالد: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ ثمَّ التفت إلى ضرار بن الأزور وقال: يا ضرَّار اضرب عنقه فضرب ضرَّار عنقه[١].

---

(١) ابن كثير (٣٢٢/٦).

ويقول صاحب الوفيات: إنّ خالداً سأل مالكاً عن منع الزكاة فقال مالك: إنّي آتي الصلاة دون الزكاة، قال خالد: أما علمت أنّ الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ فقال مالك: قد كان صاحبكم يقول ذلك.

قال خالد: أو ما تراه لك صاحباً؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك، وتجادل الرجلان بالكلام وأطالا الجدال فقال خالد: إني قاتلك، وأجاب مالك، أو بذلك أمرك صاحبك؟ فقال خالد: والله لأقتلنك، وأمر بقتله.

كثير من المؤرخين يرجحون هذه الرواية ولكنهم يرونها عند هذا الحد ناقصة، فهم يزعمون أنّ خالداً قتل مالكاً ليتزوج امرأته[١]، ويرى بعضهم أنه كان يهواها في الجاهلية وأنه قتل مالكاً ليحصل على زوجته[٢] وإذا لم تأت الرواية على ذلك النحو فإنّ تصرف خالد مع مالك يناقض تصرفه مع بقية الزعماء الذين أسرهم وبعث بهم إلى المدينة ليرى فيهم الخليفة رأيه فلهذا قتل مالكاً ولم يقتل غيره؟.

مناقشة وتصحيح:

لست هنا أقف محامياً عن خالد، وإنّ أي مؤرخ أو محقق ينبغي أن يتجرَّد من جميع العوامل عند إرادة تحقيق أمثال هذه الأحداث ومهما بلغ إعجاب المرء بخالد وبشجاعته وببلائه الذي يعدُّ بحق مفخرة في التاريخ فإنّ ذلك لا يجعل المحقق يميل مع إعجابه حتى تضيع معالم التاريخ، بل ينبغي أن تكون الحقيقة التاريخية هي الغاية العظمى التي يسعى المؤرخ لإثباتها سواء كانت في جانب من أعجب به أم مالت عنه إلى غيره ولست أرى أنّ التبرير بغير مبرر كافٍ لإثبات وقائع التاريخ مهما كانت بلاغة المبرر وقدرته على الاستنباط والتعليل.

إنّ الغاية من عمل المحقق هي إظهار الحقيقة التي كثيراً ما تخفى على الناس فيتّهمون البريء بغير دليل ويبرئون المتهم لأنّ إدانته لم تثبت لهم

---

(١) اليعقوبي.
(٢) الأصفهاني.

والمحقق في الأحداث التاريخية كالقاضي ينبغي ألاّ يصدر حكماً قبل أن تتوفر لديه الأدلّة - في نظره على الأقل - حتى يكون مرتاح البال مطمئن الضمير لما أصدره من أحكام.

وقضية خالد بن الوليد مع مالك بن نويرة من المشكلات المعقّدة في التاريخ، ولست أرى تعقيدها بسبب غموضها وخفاء جوانبها ولكني أعتقد أنَّ صعوبتها نشأت عن إدخال عناصر غريبة عنها فيها، وجعلها أصولاً يجب أن تخضع الواقعة لها؛ وإلاّ كانت غير محبوكة وتعتبر ناقصة يجب أن يتمها الفنان، حيث لا ينبغي أن تخرج القصّة في ذلك الثوب القصير وبهذا الشكل المبتور.

إنّهم لا يتصورون أنّ خالداً يقتل مالكاً لأنّه يستحق القتل، وإلاّ فلماذا إذاً لم يقتل قرة بن هبيرة، وعلقمة بن علاثة، وعيينة بن حصن وغيرهم من الزعماء، لا بدَّ أن تكون ليلى أم تميم هي التي دفعت خالداً بجمالها لأن يقتل زوجها لينال ما في مثابته كما روى اليعقوبي.

ويقول هؤلاء معللين صحّة قولهم بأنَّ خالداً تزوج ليلى فعلاً رغم ما سبَّبته له من المتاعب وذلك أمر لم يختلف فيه المؤرخون.

ولكنني أستطيع أن أقول بالرغم من قوّة الحجة التي يتمسك بها أصحاب هذا القول: إنّه يجب على المحقق أن يتروّى في الحكم، وأن يبحث الموضوع من جهاته المختلفة لعلّه يعثر أثناء بحثه على ما يثبت له براءة خالد مما اتّهم به.

إنَّ الباحث المحقق سيجد فرقاً بعيداً بين موضوع مالك وموضوع غيره من الزعماء الذين ساندوا المرتدين وظاهروهم على المسلمين ذلك أنَّ هؤلاء جميعاً قد ندموا على ما كان منهم وعادوا إلى الإسلام، وحتى زعماء بني تميم من أمثال عطارد بن حاجب ووكيع بن مالك لما ندموا على ما فعلوا ودفعوا الزكاة، لم يصبهم أذى من المسلمين، وعاشوا في قومهم آمنين.

وأما مالك فقد ظلَّ مضطرباً في تفكيره حائراً في مصيره، ماذا يفعل

أيظل على ردّته ويصر على منع الزكاة أم يعود إلى ما كان عليه قبل تلك الفتنة؟.

إنَّ مالكاً بموقفه المضطرب، وفكره الحائر يعرض نفسه للسؤال الذي ينبغي أن يكون الجواب عنه واضحاً لا يحتمل التأويل ولكنَّ مالكاً بقي على تردده ولم يقطع في الموضوع برأي مما جعل خالداً يحضره بين يديه ويسأله ليجيب بالوضوح المطلوب، فهل أجاب مالك بوضوح؟.

إننا نلاحظ أنَّ مالكاً كان واضحاً في موضوع الصلاة، ولكنَّه كان متردداً في موضوع الزكاة، أليس هو القائل:

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فإن قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا: الدين دين محمد

ولهذا كانت مناظرة خالد له في الزكاة، ألم تعلم أنَّ الزكاة قرينة الصلاة؟ ويجيب مالك، إنَّ صاحبكم كان يزعم ذلك.

ماذا نفهم من رد مالك؟ إنَّه لا يفهم إلَّا بطريق واحد هو أنَّه لا يقر بفرضية الزكاة، ولا يذكر صحبته للرسول ﷺ ولا يقر بنبوته، رغم صحبته للرسول واعترافه بنبوته قبل وفاته، فهو إذن مانع للزكاة مرتد بإنكار النبوة بعد أن آمن بها.

أفبعد هذا الإصرار والعناد نسوي بين مالك وبيں الزعماء الذين أظهروا التوبة والندم وعادوا طائعين إلى الإسلام، وأدُّوا ما عليهم من الزكاة؟.

وأمَّا ثورة أبي قتادة رضي الله عنه من أجل قتل مالك فإنَّها مبنية على أنَّ مالكاً أقام الصلاة، وخالد رضي الله عنه لم يقتل مالكاً من أجل الصلاة، وإنَّما قتله من أجل الزكاة فثورة أبي قتادة على خالد لم تكن في محلها، فإنَّ خالداً نفسه ناظر مالكاً على أساس أنه معترف بالصلاة لكنه منكر للزكاة.

وإذا كانت ثورة أبي قتادة التي اقتنع بها عمر رضي الله عنه وطالب الخليفة بمعاقبة خالد من أجلها مبنية على كون خالد تزوج ليلى وبنى بها بعد مالك، فإن لائِمي خالداً ينبغي أن يستمعوا إلى رأي خالد في الموضوع قبل

أن يثوروا عليه فلعلَّه أراد تعويضها عن زوجها الفارس المشهور ولعلَّه أراد أن يخفف عنها وقع الحادث فيشغلها عن التفكير فيه بأعباء الزوج الفاتح الذي كسر شوكة الردَّة وأخضع المرتدين لسلطان الإسلام.

ولماذا لا يلوم هؤلاء سعد بن أبي وقاص وقد تزوَّج سلمى بنت حفص بعد وفاة زوجها المثنى بن حارثة وهو في ميدان المعركة فالعادة إذن عربية قديمة لا يلام فاعلها.

إننا نستطيع أن نؤكد أنَّ مالكاً قُتِلَ مرتداً مهما قال القائلون بأنَّ خالداً قتله ليتزوج امرأته فإنَّ الأصفهاني في الأغاني وابن خلكان في الوفيات يوردان الحوار الذي دار بين خالد ومالك ويبرزان فيه أنَّ مالكاً لم يقر بالزكاة، ولم يذكر النبوة، وكل واحد من الأمرين يوجب قتل صاحبه شرعاً، فكيف إذا اجتمعا؟..

وهناك دليل آخر نورده في هذا المقام لنستدل به على أنَّ مالكاً مات مرتداً وبالتالي نرفع عن خالد الملام الذي يوجه إليه..

حكى المؤرخون أنَّ عمر بن الخطاب التقى هو ومتمم بن نويرة أخو مالك، واستنشد عمر متمماً بعض ما رثى به أخاه، وأنشده متمم قصيدته التي قال فيها:

وكنا كندمـانَيْ جذيمـة حقبة　　　من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلمـا تفرقنـا كـأني ومـالكـاً　　　لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

فلما سمع عمر ذلك قال: هذا والله التأبين ولوددت أني أحسن الشعر فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك.

قال متمم: لو أنَّ أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته، فسر عمر رضي الله عنه لمقالة متمم وقال: ما عزاني أحد عن أخي بمثل ما عزاني به متمم[1].

---

(١) البلاذري ص ١٠٨.

إن زيد بن الخطاب مات على الإسلام شهيداً في غزوة اليمامة، ومتمم يعترف بأنَّ أخاه مات على غير ذلك حين يقول: لو أنَّ أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته. ولو كان متمم يقصد الموت على الشهادة في سبيل الله لقال: لو أنَّ أخي مات مثل موتة أخيك، ولو أنَّ مالكاً قتله خالد ظلماً وهو يؤمن لكان شهيداً، ولم يكن هناك ما يدعو متمماً لأن يقول ما قال معزياً نفسه عن أخيه.

إنَّ كلمة متمم تدل على أنَّ مالكاً لم يمت على الإسلام، أفلا يكون خالد مَعذوراً بعد ذلك كله حين يقتله؟.

وإذا تقرَّر أنَّ مالكاً قتل مرتداً مانعاً للزكاة فزوجه لا تخلو من أمرين: إما أن تكون متابعة له في ردَّته، وحينئذٍ يحق لخالد أن يتَّخذها أمة له يستحلها باستبراء رحمها ثمَّ يبني بها وقد يتحقق ذلك في ليال معدودة.

وإما أن تظل على إسلامها فتكون الردَّة قد فرَّقت بينهما فليست زوجاً له شرعاً. وحينئذٍ يحل لأي إنسان أن يتزوج بها بعد أن تستبرِيء رحمها، وقد تزوجها خالد، وعلى كلا الحالين فإنَّ خالداً لم يخالف الشرع ولم يرتكب إثماً.

والذي يظهر أنَّ ليلى أم تميم كانت قد تابعت زوجها على الردَّة فأصبحت ضمن ما غنم المسلمون ولذلك يقول ابن كثير: واصطفى خالد امرأة مالك بن نويرة... فلمَّا حلَّت بنى بها[1] والمعروف في اللغة أنَّ الصفية ما يختاره الرئيس لنفسه من الغنائم[2].

موقف عمر من القضية:

كان أبو قتادة ـ الحارث بن ربعي الأنصاري ـ قد شهد بأنَّ مالكاً أقام الصلاة، فلمَّا قتل خالد مالكاً غضب أبو قتادة، وعاد إلى المدينة يشكو خالداً

---

(١) ابن كثير (٦/٣٢٢).
(٢) القاموس مادة (صفي).

إلى الخليفة ويدَّعي أنَّ خالداً قتلٍ مسلماً، وتزوجٍ امرأته، وكل ما يقول به أبوٍ قتادة: إنَّ مالكاً أقام الصلاة ولكنَّه لم يذكر شيئاً عن موقفه من الزكاة، ولعلّ أبا قتادة كان يعتقد أنَّ من أقام الصلاة فهو مؤمن لا يباح قتله ولو منع الزكاة وكان هذا هو الرأي عند المسلمين قبل أن يقنعهم أبو بكر بأنَّ الزكاة أخت الصلاة ولا يجوز الإقرار بإحداهما وإنكار الأخرى.

ولهذا رجع أبو قتادة إلى المدينة غاضباً بعد أن تكلَّم مع خالد وأطال معه الكلام في مقتل مالك ولهذا فإنَّ أبا بكر رضي الله عنه لم يأخذ كلام أبي قتادة مأخذ الجد، لأنَّه كان يؤمن بأنَّ خالداً لم يرتكب جرماً يوجب عليه حداً.

ولكنَّ أبا قتادة ذهب إلى عمر وكلَّمه عن خالد، وأخبره بأنَّه قتل مالكاً بعد أن أقام الصلاة فغضب عمر لقول أبي قتادة، واعتقد أنَّ خالداً ارتكب خطأً لا بدَّ أن يؤاخذ به، وذهب إلى الخليفة وألحَّ على عزل خالد، وقال له: أعزله فإنَّ في سيفه رهقاً ولكنَّ الصديق أجابه لا أشيم سيفاً سلَّه الله على الكفار.

ولعلَّ عمر كان يذهب مذهب أبي قتادة في أنَّ المرء إذا صلى ثبت له الإيمان ولا يجوز قتله بعد ذلك إلَّا بإحدى الخصال الثلاث التي ذكرها الرسول ﷺ في قوله: «لا يحل دم امرىء مسلم إلَّا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». ومالك في رأيهم لم يفعل شيئاً من ذلك.

لهذا ظلَّ عمر يلحُّ على الخليفة ويطالب بعزل خالد ويبدو أنَّ الخليفة لم يكن مقتنعاً بخطأ ارتكبه خالد فقال لعمر: يا عمر أمسك لسانك عن خالد هبه تأول فأخطأ.

إنني أعتقد أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لو ثبت لديه خطأ خالد ما أعفاه من المسؤولية ولو أنَّ خالداً ارتكب جرماً يوجب حداً ما أعفاه أبو بكر أبداً من إقامة الحد، وأبو بكر يؤمن بأنَّ إقامة الحدود مسؤولية الإمام وأنَّ تعطيلها مع

ثبوتها تضييع لجزء عظيم من مبادىء الإسلام وأنَّ تعطيل الحدود بغير مبرر للتعطيل لا يقل إثماً عن منع الزكاة، فكيف يقاتل مانعي الزكاة ويجرد لهم الجيوش ليجبرهم على أدائها، ثمَّ يُعطل الحدود التي أمر الله بها؟.

إنَّ أبا بكر ليس هو الذي يتهاون في ذلك، وهو القائل: وإني متبع ولست بمبتدع، ولهذا فأنا لا أقول بما قال به المؤرخون الذين يريدون تبرير عدم إقامة الحد على خالد بقولهم: (وكان أبو بكر لا يقيد من عماله) بل الحق الذي لا أشك فيه هو أنَّ خالداً لم يرتكب أمراً يوجب عليه الحد، وأقصى ما في الأمر أنَّه اجتهد فأخطأ ومثله لا يلام على الخطأ بعد الاجتهاد.

وقد وقع مثل ذلك من خالد ـ رضي الله عنه ـ في حياة الرسول ﷺ وذلك حين بعثه إلى بني جذيمة بعد فتح مكة فأسرهم وعرضهم على السيف وهم يقولون: صبأنا صبأنا يريدون أسلمنا ولكنهم لم يحسنوا النطق بها.

ولمَّا علم الرسول بالخبر رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد». ثلاث مرات[1].

ولم يقتل الرسول خالداً قصاصاً ولم يعزله عن إمارة الجيش بل أرسله بعد ذلك على سرية ليهدم العُزَّى وكذلك أمره على سرية بعد غزوة تبوك وأرسله إلى دومة الجندل، فأسر أكيدر، وجاء به إلى الرسول ﷺ[2].

كان أبو بكر رضي الله عنه في معاملة خالد مقتدياً بالرسول ﷺ ولهذا لم يعزله كما لم يعزله الرسول وأرسله أميراً على الجيش الذي وجَّهه إلى اليمامة لحرب مسيلمة.

ولكن عمر لم يكف عن مطالبة الخليفة بعزل خالد مما اضطر أبا بكر لأن يستدعي خالداً إلى المدينة ليسمع منه ويحكم في أمره.

وحضر خالد إلى المدينة وعليه درعه الحديد وقد صدىء من كثرة الدماء ودخل المسجد وفي عمامته أسهماً مضَمَّخة بالدماء وأخذ يمشي إلى

---

(١) (٢) ابن هشام (٤/٥٤) (السيرة النبوية).

مجلس الخليفة في خطى وئيدة فلمَّا رآه عمر نهض إليه وانتزع الأسهم من عمامته فحطَّمها، وقال له في غضب: قتلت امرأً مسلماً ونزوت على امرأته؟ والله لأرجمنك بالحجارة.

ولم ينطق خالد بكلمة وأخذ يمشي إلى مجلس الخليفة وهو يعتقد أنَّ رأيه فيه كرأي عمر ولكنَّه حين دخل على الخليفة رأى منه وجهاً غير وجه عمر، فاطمأن لذلك، وسأله الخليفة فأبان له الأمر واعتذر له بما يوضح وجهة نظره فيما فعل، فعذره الخليفة وقبل منه غير أنه لامه وعنَّفه على زواجه من ليلى ولم يجف دم زوجها السابق وهو لا يزال مشتغلاً بالحرب مخالفاً بذلك عادة العرب الذين كانوا يجتنبون النساء في أوقات الحرب ويرون القرب منهنَّ عاراً لا يمحوه شيء، وتحمَّل الخليفة ديَة مالك من ماله الخاص ليسكت أخاه متمماً.

وخرج خالد من عند الخليفة متَّجهاً إلى مجلس عمر وقال له: هلم إليَّ يا ابن أم شملة، وقد ظهرت في صوته نشوة النصر وكأنَّه كان يقول لعمر: خل أحجارك ترجم بها غيري وعرف عمر من حديث خالد أنَّ الخليفة قد عذره ورضي عنه، فلم يردَّ عليه بشيء ورضي بما رضي به الخليفة وعاد خالد إلى جيشه ليقوده من نصر إلى نصر فقد ولاَّه الخليفة أمرة الجيش المتوجِّه إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذَّاب.

غزوة عقرباء:

عاد خالد من لدن الخليفة ناجياً بنفسه وبإمارته متوجهاً إلى البطاح ليقود جيشه المظفَّر، ويزحف به إلى اليمامة حيث يعسكر مسيلمة بن حبيب الكذّاب المتنبيء.

وأمدَّ الخليفة القائد العبقري بخيرة جنوده وما كان له أن يضن عليه بمدد وهو يعلم أنَّ الكذاب قد استفحل أمره، واستشرى خطره ووقف يهدد الإسلام بأربعين ألف جندي ممن تبعه.

أمدَّه بالقراء والبدريين الذين كان يضن بهم ويقول: (لا أستعمل أهل

بدر، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم فإنَّ الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم)[1] ومع ذلك لم يضن بهم على خالد، نعم أمدَّ الخليفة خالداً بكل من كان يضن بهم على غيره وكيف لا وهو يعلم أنَّ مسيلمة قد تغلَّب على عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة وهو الآن يستعد لملاقاة خالد.

لم يكن أحد من المسلمين يحس بخطورة الموقف مع مسيلمة كما كان يحس الصدِّيق، ولم يكن أحد من المسلمين يدرك ما وراء المعركة كما كان يدرك الصدِّيق، إن كل ما أحرزه المسلمون من نصر قبل معركة اليمامة ـ مع عظيم شأنه ـ لم يكن شيئاً يذكر أمام معركة اليمامة، وكل ما تحمَّله المسلمون من المتاعب والمشقات كان شيئاً هيناً يسيراً مقابل ما يتوقع تحمُّله في تلك المعركة الحاسمة.

كان الخليفة يدرك ذلك كله، ويدرك فوق ذلك إيمان بني حنيفة بالكذاب، والتفافهم حوله واستعدادهم للموت تحت رايته، وقد كانوا جميعاً لا خلاف ولا تنازع، وكانت العصبية تربط على قلوبهم وتزيد من تفانيهم في الدفاع عن مسيلمة مع علمهم بكذبه؛ يقول ابن كثير: (وفَدَ طليحة النفري على اليمامة فقال: أين مسيلمة؟ فقال: تعنى رسول الله، قال: لا حتى أراه، فلما جاء قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم، قال: من يأتيك؟ قال: رحمان، قال: أفي نور أم ظلمة؟ فقال: في ظلمة.. قال.. قال طليحة: أشهد أنَّك كذاب وأنَّ محمداً صادق، ولكنَّ كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر[2].

نهار الرجال ومسيلمة:

ما كان مسيلمة ليبلغ في قومه هذا المبلغ لولا العصبية العمياء التي أضلَّت القوم، وأرتهم الباطل حقاً والكذب صدقاً ولولا الفتنة التي حمل لواءها نهار الرجال بن عنفوة، وكانت هذه الفتنة على بني حنيفة أعظم أثراً من

---

(١) هيكل ص ١٦٥ ـ ١١٦، ابن الأثير (٢/ ٣٦١).
(٢) ابن كثير (٦/ ٣٢٧)، ابن الأثير (٢/ ٣٦٢).

ادِّعاء مسيلمة النبوة، ذلك لأنَّ الرجال جاء إلى المدينة في عهد رسول الله ﷺ مسلماً، وهناك قرأ شيئاً من القرآن، وفقه في الدين وعرف ما يجب أن يعرفه المسلم من أركان الإسلام والإيمان، وكان مع ذلك عاقلاً ذا رأي.

فلمّا اشتعلت فتنة مسيلمة أرسله الرسول إلى أهل اليمامة ليفقههم في الدين، ويرد من تبع منهم مسيلمة إلى حظيرة الإسلام، ولكنَّ نهاراً لم يكد يصل إلى اليمامة، ويرى التفاف القوم حول مسيلمة حتى ضعف إيمانه وخارت عزيمته ولم يستطع وقد أكل الجبن قلبه أن يجهر بكذب مسيلمة ويا ليته قد وقف ذلك الموقف السلبي، ولو فعل لقبل منه، ولكّنه شغب مع الشاغبين وشهد أمام أتباع مسيلمة بأنَّ محمداً قال: إنّ مسيلمة شريكه في الرسالة وأنّه قد أوحي إليه، وفرح أتباع مسيلمة بتلك الشهادة أيما فرح، وطاروا بها غبطة وسروراً.

لقد شهد نهار الرجال ـ وهو الفقيه العالم القارىء ـ بأنَّ مسيلمة رسول، ومن الذي يتهم نهاراً وهو مبعوث محمد ﷺ إليهم وعظمت بذلك الفتنة واستفحل الأمر وانضمَّ إلى مسيلمة من كان متردداً حائراً واستغلظ أمر مسيلمة وأصبح عقبة كؤوداً في سبيل الفتح الإسلامي.

خالد يتوجه إلى اليمامة:

كان مسيلمة قد التقى بجيش المسلمين بقيادة عكرمة بن أبي جهل، ولكن عكرمة لم يستطع الصمود أمام جيش مسيلمة، فتراجع أمام الجحافل الزاحفة المعتدة بعددها وقوَّتها.

وكان الخليفة قد أمدَّ عكرمة بشرحبيل بن حسنة ليعاونه على أمره، وتعجل عكرمة في لقاء عدوِّه قبل أن يصل شرحبيل، ولعلَّ ذلك كان السبب فيما مني به جيش عكرمة، وبلغت أنباء الهزيمة شرحبيل قبل أن يصل إلى الميدان فتوقف لكيلا يصاب بما أصيب به سلفه، وظلَّ في مكانه حتى يأتيه خالد في جنده.

وعلم الصدِّيق بما فعل عكرمة، وبالهزيمة التي حلَّت بجيشه فخاف أن

يسمع بذلك المسلمون فيفت في عضدهم، ويوهن قوتهم فكتب الخليفة إلى عكرمة: (لا تريني ولا أراك لا ترجعن فتوهن الناس، امضي إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة، ثمَّ تسير أنت وجندك تستبرئون الناس حتى تلقى المهاجر ابن أبي أمية باليمن وحضرموت).

وهذه الرسالة تدل على حنكة الخليفة ودرايته بأمور الحرب بقدر ما تدل على غيظه وغضبه على عكرمة لتسرعه ودخوله المعركة قبل أن يصله المدد مما أدّى إلى هزيمة جيشه رغم ما فيه من أبطال العرب وصناديدهم.

لعلَّ عكرمة قد عجَّل بمنازلة مسيلمة ليحرز لنفسه فخار النصر كما أحرزه خالد، وبذلك يقول بعض المؤرخين ولعلَّه أراد أن يعاجل مسيلمة قبل أن يستفحل أمره أكثر مما هو فيه ولكنه على أي حال لم ينتظر المدد وتعجل الأمر فكان ما كان.

إنَّ الخليفة لم يمد عكرمة بشرحبيل وجنده إلاَّ وهو مدرك تماماً خطورة الموقف، فكيف يجازف عكرمة بسلامة الجيش؟ ذلك أمر ينبغي أن نلتمس فيه العذر لعكرمة، فهو في أرض المعركة ونحن بعيدون عنها والشاهد يرى ما لا يراه الغائب.

كان لا بدَّ أن يرسل الخليفة لذلك العدو العنيد عبقري الحرب وابن بجدتها خالد بن الوليد وتوجَّه خالد بأمر الخليفة إلى اليمامة بعد أن تَوَّجَهُ النصر على بني أسد وبني تميم، وزحف بجيشه المنتصر وقد انضمَّ إليه المدد الذي أمدَّه به الخليفة فصار جيشاً عظيماً، وجيش المسلمين دائماً لا يستمد عظمته من كثرته ولا من قوَّته، ولكنَّه يستمدها من إيمانه العميق وقيادته الملهمة وتوفيق الله - عز وجل - ولو قلَّ عدده.

بين خالد ومجاعة:

وفي الطريق إلى اليمامة التقى خالد وجيشه بفرقة من جيش اليمامة لم تخرج لملاقاة المسلمين ولا للتجسس عليهم، ولكنَّها خرجت بقيادة مجاعة بن مرارة لتأخذ بثأر لها عند بني عامر وبني تميم وأرادت أن تتعجَّل

ذلك في فرصة الهزيمة التي مني بها أعداؤهم وقبل أن تنشغل هي بالحرب مع جيش المسلمين.

وعثر المسلمون على جيش مجاعة وهم نائمون عند ثنية اليمامة فلما أحسوا بقدوم جيش خالد هبُّوا مذعورين وجيء بهم إلى القائد فسألهم عن رأيهم في مسيلمة فقالوا: منا نبيٌ ومنكم نبي، فأمر خالد بقتلهم جميعاً ما عدا مجاعة بن مرارة فقد استبقاه لعلَّه يستفيد من خبرته ومكانته في قومه.

لم يغن عن القوم اعترافهم بعدم خروجهم لقتال المسلمين ولم يغن عنهم كذلك إقرارهم بأنهم خرجوا يطلبون ثأرهم من بني عامر وبني تميم واعتذارهم لخالد، لأنَّ القوم كانوا محاربين فليس من الحكمة إفلاتهم ليقووا جيش مسيلمة ويكايدوا المسلمين.

وسمع مسيلمة بما حدث لمجاعة وجماعته كما علم بقدوم خالد ابن الوليد في جيش عظيم وكان اسم خالد وحده كفيلا بأن يقطع نياط قلوب الجيش ويبث الرعب في نفوسهم ولم يكد مسيلمة يسمع بقدوم خالد عليه حتى انسحب من موقعه واتَّخذ عقرباء مقراً لجيشه.

وتقع عقرباء في طرف اليمامة وليس وراءها إلاَّ الريف، وجعل مسيلمة الأموال وراء ظهر القوم حتى يدافعوا عنها ويزدادوا حمية ولعلَّ مسيلمة اختار هذا المكان حتى يتمكَّن القوم من اللجوء إلى الحديقة إذا أصابتهم الهزيمة فإنَّه لم يكن مطمئناً للنصر الذي أحرزه على عكرمة وكان يتوقع من وراء خالد هزيمة منكرة.

وفي الميدان صَفّ مسيلمة جنوده فجعل على مجنبتي الجيش الحكم بن الطفيل والرجال بن عنفوة بن نهشل وصف خالد جيشه وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنه وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب وحذيفة ابن اليمان، وتقدَّم خالد بالمسلمين حتى نزل على مكان مرتفع يشرف على اليمامة وهناك ضرب عسكره وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس والعرب على راياتها، وأمَّا

مجاعة بن مرارة فقيّده خالد بالحديد وجعله في خيمته تحرسه عروسه الجديدة ليلى أم تميم.

وتواجه الجيشان وأخذ كل فريق يستعد للساعة الفاصلة، أمّا المسلمون فلم يكن لهم أمل إلاّ في الله ـ تبارك وتعالى ـ يستمدون منه العون، ويطلبون منه النصر، ويستعينون به في أحرج الأوقات.

وأمّا مسيلمة فكان أعلم بنفسه ممن خدعهم أو خدعوا به، ولئن استطاع أن يكذب على كل الناس فإنّه لا يستطيع أن يكذب على نفسه، إنّه يعتقد من قرارة نفسه أنّه كذاب، وأنّ أمره باطل وخداع، ولهذا لم يدع قومه للدفاع عن دينهم الجديد، ولم يستثر حفائظهم بضياع العقيدة، ولكنه استطاع أن يحمسهم بتذكيرهم بالدفاع عن أعراضهم والذب عن نسائهم فقال: اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم[١].

التقاء الفريقين:

والتقى الفريقان هؤلاء يغامرون بدينهم وعقيدتهم وهؤلاء يدافعون عن أحسابهم ونسائهم وكانت معركة حامية الوطيس قاتل فيها الفريقان ببسالة نادرة، وشدَّ بنو حنيفة على المسلمين فأزاحوهم عن أماكنهم، ودخلوا خيمة خالد وفيها مجاعة بن مرارة وليلى أم تميم، وهموا بقتل ليلى، ولكن مجاعة أجارها، ودفع القوم عنها بقوله: نعمت الحرة هذه، إني جار لها.

واستطاع زيد بن الخطاب أن يقتل مقابله الرجَّال بن عنفوة، واستطاع قوم مسيلمة أن يزيلوا خالداً عن فسطاطه وقطعوا أطناب الفسطاط ومزَّقوه بسيوفهم، ولكنَّ المسلمين قتلوا منهم جموعاً غفيرة.

واستطاع خالد بن الوليد أن يضبط نفسه حتى في ساعات التقهقر، وبحكمته وحنكته جمع جيشه الذي كادت تأكله سيوف بني حنيفة، وتجلّى

(١) ابن كثير (٦/٣٢٤). وفي الطبري القائل هو شرحبيل بن مسيلمة (٣/٢٨٨).

لخالد مظهر من مظاهر الضعف لمسه في جيشه، ذلكم هو التواكل وعدم التميز فصاح في الجَيش صيحة أيقظته بعد أن أذهلتهم ملامح الهزيمة التي غيَّرت خطتهم فقال بأعلى صوته: (امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نؤتى)؟.

ودوت هذه الصيحة تهزُّ قلوب المسلمين هزاً عنيفاً، فامتاز القوم، ووقف كل بني أب تحت رايتهم فاطمأن خالد للنتيجة، وتأكَّد أنَّه بذلك أغلق باب التواكل وفتح باب النصر على مصراعيه، وأشعلت تلك الصيحة حماس المسلمين، فندموا على ما كان، وذكر بعضهم بعضاً بما يجب أن يكون وأخذت صيحات الحماس ترتفع في جنبات العسكر، فهذا ثابت بن قيس يقول: (هكذا عني حتى أريكم الجلاد)، والبراء بن مالك يقول: (أين يا معشر المسلمين، أنا البراء بن مالك، هلمَّ إليَّ). ويسأل زيد بن الخطاب عن أمر فيقول: (لا والله لا أتكلَّم حتى نهزمهم، أو ألقى الله فأكلمه بحجَّتي) ويصيح أبو حذيفة (يا أهل القرآن زيِّنوا القرآن بالفعال) ويثبت سالم مولى أبي حذيفة وهو يقول: (بئس حامل القرآن أنا إذا لم أثبت) أثارت هذه الصيحات روح الاستشهاد في نفوس المسلمين فحملوا على جيش مسيلمة حملة صادقة لا يبتغون من ورائها إلَّا النصر أو الشهادة، واستطاعوا أن يزحزحوا جيوش الكفر عن موقفهم الأوَّل، بعد أن استبسلوا في الدفاع عن الأرض وعن العرض، وكانوا لا يتركون شبراً إلَّا بعد أن يستفرغوا جهدهم في الدفاع عنه.

ورأى خالد استبسال العدو وشجاعته، وسمع صيحات المسلمين ولمس تصميمهم على الموت أو النصر فتأكَّد من اقتراب وعد الله، وعزم على أن يقرِّب جيشه من نصر الله، فخرج على رأس كتيبة ونظر إلى المدافعين عنه وقال: (لا أوتين من خلفي) ثمَّ صاح بشعار المعركة يومئذٍ وهو يا محمداه[1] وأراد بذلك خالد رضي الله عنه أن يشد من عزم جنده، وأن يعبر بهم أقرب الطريق إلى النصر وكيف يرى جنود مسيلمة يتساقطون حوله قتلى دون أن يسلموه، ويقف هو ينظر إلى المعركة دون أن يضع حدًّا لها.

---

(١) الطبري (٣/٢٩٣)، ابن الأثير (٢/٣٦٤).

قتل مسيلمة:

تأكّد خالد أنَّ أقرب الطرق إلى النصر هو قتل مسيلمة حتى ينفض من حوله رجاله فاقتحمهم خالد بفرسه وسيفه في يده يقتل منهم يمنة ويسرة حتى كان بحيال مسيلمة وأخذ يثيره ليخرج إليه، ولكنَّ عدو الله أمسكه الجبن، ووقف خالد بين الصفين، وطلب المبارزة فكلّما خرج إليه رجل منهم شيَّعه إلى الجحيم، وأحسَّ مسيلمة بالعار يجلِّله لجبنه وهلعه، وهمَّ أن يقدم لمبارزة خالد، ولكنَّه اضطرب وتقهقر، وشدَّ خالد عليه برجاله يعملون فيمن حوله سيوفهم ولما استحرَّ فيهم القتل صاحوا بمسيلمة، أين ما كنت تعدنا؟.

وهنا رأى مسيلمة الموت يلاحقه ففرَّ قائلاً: قاتلوا عن أحسابكم[1]، وكيف يقاتلون وهم لا يستطيعون الإفلات من سيف خالد وجنده وتبع بنو حنيفة مسيلمة في الفرار كما تبعوه في النبوة الكاذبة.

معركة الحديقة:

وكان محكَّم بن الطفيل لا يزال حيّاً يقاتل، وقد هاله فرار القوم بعد ثباتهم، وخاف عليهم أن تدركهم سيوف المسلمين فلا يبقوا على أحد منهم فناداهم (يا بني حنيفة، الحديقة الحديقة).

وكانت الحديقة قريبة منهم، وكانت ملكاً لمسيلمة وتعرف بحديقة الرحمان، وكانت كذلك حصينة منيعة، وفرَّ القوم إليها يطلبون النجاة من سيوف المسلمين، ووقف المحكم يجالد عن قومه يحمي ظهورهم عند فرارهم حتى يحتموا بالحديقة، وعندئذٍ صوَّب إليه عبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق سهماً وقع في نحره فخرَّ صريعاً.

ودخل القوم الحديقة وأغلقوا أبوابها، وظنُّوا أنَّهم أمنوا على أنفسهم أو على الأقل استراحوا قليلاً من حر السيوف تنهش أجسامهم ولكنَّ المسلمين لم يتركوهم ليهنئوا بشيء من الراحة فأخذوا يبحثون عن ثغرة يقتحمون منها إلى الحديقة ولكنهم لم يظفروا بطائل.

---

(١) الطبري (٢٩٤/٣).

وهنا صاح البراء بن مالك يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة والمسلمون يترددون في إنفاذ رغبته، ولكنَّه أصرَّ فـرفعوه فـوق الجحف برماحهم حتى علا سور الحديقة، وصاح صيحة فرَّقت المجتمعين حول بابها وألقى بنفسه عليهم يقتل منهم من أدركه، وفرَّ الناس أمامه كالغنم أمام الذئب وفتح البراء باب الحديقة ودخل المسلمون وهم يكبِّرون وأصحاب مسيلمة يفرون لا يلوون على شيء[1].. وخلص المسلمون إلى الكذاب فوجدوه مختبئاً في جدار، وكان وحشي قاتل حمزة ممن اقتحموا الحديقة فلمَّا رأى مسيلمة هزَّ حربته وضربه بها ضربة أصابته وتبعه أبو دجانة فضرب مسيلمة بسيفه ضربة سقط على أثرها وهنا صاحت جارية من القصر، وا أميـر الوضاءة، قتله العبد الأسود.

واستسلم أنصار مسيلمة على أثر الصيحة لسيوف المسلمين فقتلوا منهم نحو عشرين ألفاً واستشهد من المسلمين نحو ستمائة حتى سميت الحديقة بعد ذلك بحديقة الموت.

وانتهت المعركة التي هدَّدت كيان المسلمين فترة من الزمن لم يذوقوا فيها طعم الراحة وحمد المسلمون ربَّهم على ما حباهم من نصره وخرُّوا له ساجدين.

وأخذ خالد مجاعة بن مرارة ليدلَّه على مسيلمة فلمَّا رآه خالد صريعاً قال: قبحكم الله على اتباعكم هذا، وبعث خالد الخيل تجمع الغنائم من أنحاء اليمامة، ثمَّ عزم على غزو الحصون وكانت خالية من الرجال، ولكنَّ مجاعة أوهمه بأنَّها مملوءة رجالاً وسلاحاً حتى اضطر خالد أن يصالحه لما لمسه في المسلمين من الضعف من شدَّة ما لقوه في المعركة والمعارك التي سبقتها.

ثمَّ اكتشف خالد أنَّ مجاعة خدعه، ولكنَّ مجاعة اعتذر بأنَّه إنَّما نصح لقومه، وقبل خالد عذره ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً وردَّ خالد عليهم

---

(١) الطبري (٣/٢٩٤)، ابن الأثير (٢/٣٦٤).

ما كان المسلمون قد أخذوه من السبي إلّا قليلاً بعث به إلى الخليفة في المدينة.

صاحب هذه الأعياد بذلك النصر المؤزر حزن كاد يقتل الناس في مكّة والمدينة على حد سواء وذلك لما فشا في كبار الصحابة من القتل، حتى أنه لما عاد عبدالله بن عمر إلى المدينة وَلَقِيَهُ أبوه فيها قال له: (ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألا واريت وجهك عني؟).

وأجاب عبدالله (سأل الله الشهادة فأعطيها، وجهدت أن تساق إليّ فلم أعطها)[1].

خالد يتزوج:

ودعا خالد مجاعة بن مرارة بعد أن استقرّ له الأمر، واطمأنّ إلى تمام النصر، وطلب منه أن يزوجه ابنته، ولكنّ مجاعة تردّد خائفاً مما يحدث من الخليفة، وقد علم بأنّه لام خالداً وعنّفه على زواجه من ليلى أم تميم، ولكنّ خالداً لم يعبأ بكلام مجاعة، وأصرّ على الزواج فزوّجه مجاعة ابنته.

أبو بكر يعتب:

وعلم الخليفة بما صنع خالد فغضب وتألّم، كيف يصنع خالد ذلك وبيوت المدينة ومكّة لم يفارقها الحزن بعد، ودماء الشهداء لا تزال تبلل ثرى اليمامة، وأرسل إلى خالد كتاباً يعاتبه فيه عتاباً شديداً، ويعنّفه على فعلته، وبلغت قسوة الخطاب حدّاً وصفها الطبري بقوله: فكتب إليه كتاباً يقطر بالدم.

وكانت صيغة الكتاب كما يأتي: (لعمري يا ابن أم خالد أنك لفارغ. تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد)[2].

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٦٦).

(٢) الطبري (٣/٣٠٠).

وهذا الخطاب يعطينا إحصاء جديداً لِعدد شهداء المسلمين حيث بلغ ألفاً ومائتي شهيد بخلاف ما ذكره ابن كثير من أنَّ عددهم يتراوح بين الخمسمائة والستمائة شهيد.

وبهذه المعركة تحدد مصير الجزيرة العربية، ولم يعد هناك ما يقلق الخليفة، أو يشغل بـالَ المسلمين، فقد كانت المعارك في مهرة وعمّان والبحرين واليمن كلها معارك ثانوية بالنسبة لمعركة اليمامة، وطابت نفس أبي بكر بانتصار المسلمين في عقرباء واستراح خالد بن الوليد بعد طول العناء.

وانتقل خالد إلى وادي الوبر، حيث يكون منزله الجديد الذي جمع فيه زوجيه العروسين ليلى أم تميم بنت المنهال، وابنة مجاعة بن مرارة.

وقعة اليرموك

اليرموك نهر ينبع من جبال حوران، يجري قرب الحدود بين سوريا وفلسطين، وينحدر جنوباً ليصبَّ في غور الأردن ثمَّ في البحر الميت، وينتهي مصبُّه في جنوب الحولة، وقبل أن يلتقي بنهر الأردن بمسافة تتراوح بين ثلاثين وأربعين كيلومتراً يوجد وادٍ فسيح تحيطه من الجهات الثلاث جبال مرتفعة شاهقة الارتفاع ويقع في الجهة اليسرى لليرموك.

اختار الروم هذا الوادي لأنَّه المكان الذي يتَّسع لجيشهم الضخم الذي يبلغ عدده مائتين وأربعين ألف مقاتل.

وأمَّا المسلمون فقد عبروا النهر إلى الجهة اليمنى، وضربوا معسكرهم هناك في واد منبطح يقع على الطريق المفتوح لجيش الروم، وبذلك أغلقوا الطريق أمام الجيش المزهو بعدده وعدده، فلم يعد للروم طريق يسلكون منه، أو يفرون إذا اضطروا للفرار، لأنَّ جيش المسلمين قد أخذ عليهم مسلكهم الوحيد.

وقد يعجب الإنسان كثيراً، وهو ينظر إلى الخارطة، ويرى نفسه مضطراً لأنَّ يسأل كيف رضي قوَّاد الروم لجيوشهم هذا الموقع؟ وكيف وافق الجنود على النزول فيه وهم يرون ألاَّ سبيل للخروج منه إلاَّ عن طريق هذا الوادي الذي احتلَّه المسلمون؟

أفما كان الأجدر بهم إن اضطروا إلى اتِّخاذ هذا المكان ميداناً للجيش

لأنّه لا يوجد مكان سواه يتّسع لجيشهم أن يحموا الفتحة الوحيدة التي لا طريق لهم غيرها؟.

لا شكَّ أنَّ البديهيات العسكرية تحتِّم حماية أمثال هذه الفتحة ليؤمِّن الجيش طريقه إذا اضطر إلى الخروج من هذا الوادي المحاصر بشواهق الجبال.

ولكن يبدو أنَّ قوات الروم كانت مغرورة بكثرتها الهائلة مزهوَّة بالنصر الذي أحرزته على خالد بن سعيد ومن معه من قوَّات المسلمين، كما يبدو أنَّ هذا النصر أنساهم أبسط التخطيط العسكري في مثل هذا الموقف.

ازداد حماس الخليفة لفتح الشام بعد ما أصاب خالد بن سعيد وجنده من الهزيمة والفرار، فندب أعظم قوَّاده للذهاب إلى بلاد الشام، فأمَّر عمرو بن العاص على فرقة من الجيش وأمره أن يتّجه بها إلى فلسطين، واستدعى يزيد بن أبي سفيان وولّاه على جيش لجب فيهم سهيل بن عمر وأمثاله من أهل مكّة، وألحقه بجيش آخر بقيادة أخيه معاوية، ووجّه شرحبيل بن حسنة ليقود جماعة من جيش خالد بن سعيد، وندب الخليفة جيشاً عظيماً وأمَّر عليه أبا عبيدة بن الجراح، وعيَّن لكل جيش طريقه، وأمره أن يسلكه حتى يصل إلى مقرِّه، فأخذ عمرو بن العاص طريق المعرقة، وسلك أبو عبيدة الطريق نفسه، وأخذ يزيد بن أبي سفيان طريق التبوكية وسلكه معه شرحبيل ابن حسنة، وتوجّه الأمراء إلى الشام فلمَّا وصلوها نزل أبو عبيدة الجابية، ونزل يزيد البلقاء، ونزل شرحبيل الأردن، ونزل عمرو ابن العاص العربة[1].

هرقل ينصح قومه:

علم الروم بدخول الجيوش الإسلامية أرضهم، فكتبوا إلى هرقل وكان بالقدس، فقال هرقل: أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم

---

(١) ابن الأثير (٢/٤٠٦).

من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم[1].

وأغضبت هذه النصيحة قوّاد الروم، وظنّوا أنَّ الإمبراطور قد وهن وضعف وسيسلم البلاد للغزاة الفاتحين، والحق أنَّ هرقل قد ضعف أمام غضبة قوّاده، وعزم على قتال المسلمين مع يقينه بالهزيمة، وجمع هرقل الثائرين، وتوجّه بهم إلى حمص، وهناك أعدَّ جيشاً ضخم العُدد كثير العَدد، وقسّمه أربعة أقسام، وجعل كل قسم منه يقابل فرقة من جيش المسلمين ليوهنهم ويشغلهم عن مناصرة إخوانهم.

عدد الجيش:

بلغ جيش المسلمين ثلاثين ألفاً أو تقل قليلاً، وأمَّا جيش الروم فقد بلغ مائتين وأربعين ألفاً[2].

فزع المسلمون لهذه الأعداد الضخمة التي واجهتهم، وكتبوا إلى عمرو بن العاص يسألونه ماذا يفعلون، فأجابهم: (الرأي لمثلنا الاجتماع، فإن مثلنا إذا اجتمعنا لانغلب من قلة)[3]، وكتبوا إلى أبي بكر فأجابهم بمثل ما أجابهم به عمرو وقال: (إن مثلكم لا يؤتى من قلة، وإنَّما يؤتى العشرة آلاف، والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل رجل منكم صاحبه)[4].

اتّجه المسلمون إلى اليرموك تنفيذاً لوصية الخليفة، فوجدوا الروم قد نزلوا بالوادي السابق الذكر، وعبر المسلمون النهر فنزلوا بإزائهم.

الخليفة يدرس أسباب تأخُّر النصر

واستشار الخليفة أصحابه من ذوي الرأي، وقلب الأمر على كل وجوهه، فاهتدى إلى أنَّ ضعف المسلمين ناتج عن ضعف القيادة، ذلك لأنَّ الأمراء

---

(١) نفسه.
(٢) هيكل ص ٢٨٥.
(٣) الطبري (٣/٣٩٢)، ابن الأثير (٢/٤٠٦).
(٤) نفسه.

الذين بعثهم الخليفة إلى الشام ليس فيهم من يصلح في نظر الخليفة لخوض هذه المعركة الرهيبة، فأبو عبيدة بن الجرَّاح مع قدرته العسكرية الفائقة إلاَّ أنَّه رقيق القلب لا يقدم على الحسم، وابن العاص مع دهائه وحسن حيلته يهاب الإقدام على عدوِّه، وعكرمة مع إقدامه وحنكته غير أنَّه تنقصه دقَّة التقدير للمواقف، وبقيَّة القواد لم يشتركوا من قبل في مثل هذه المعارك الكبيرة.[1]

وهناك أمر آخر ينبغي للخليفة أن يقدِّره ولا يغفله ذلكم هو تساوي القوَّاد في المقدرة فليس فيهم من يقرون له بالتفوق أو العبقرية التي يتميز بها عليهم حتى يجتمعوا عليه.

من أجل هذا فكَّر الخليفة كثيراً في الأمر وطال تفكيره فالأمر ليس بالهيِّن اليسير، وإنَّما هي معارك فاصلة لا بدَّ أن تحسم في الشام كما حسمت في العراق.

واهتدى الخليفة ـ رضي الله عنه ـ إلى الحل فقال لمجلس الشورى: (والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد)[2].

خالد يتوجَّه إلى الشام:

كتب الخليفة إلى خالد يأمره بأن يستخلف على العراق ويتَّجه بخيرة جنده إلى الشام، وصدع خالد بأمر الخليفة واتَّجه إلى الشام في تسعة آلاف مقاتل من خيرة الجند، حيث اختار أصحاب رسول الله ﷺ وضن بهم على المثنى بن حارثة خليفته على العراق، وغضب المثنى لذلك التقسيم وقال: (والله لا أقيم إلاَّ على إنفاذ أمر أبي بكر، وبالله ما أرجو من النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ)[3]، فلما سمع خالد منه ذلك أرضاه وأسكته، وأراد خالد أن يغادر العراق وهو مطمئن فردَّ النساء والضعفاء إلى المدينة حتى لا ينشغل بهم المثنى عند منازلة عدوِّه.

---

(١) الصديق أبو بكر ص ٢٨٨ .

(٢) ابن كثير (٥/٧).

(٣) ابن الأثير (٤٠٧/٢).

وقطع خالد بجيشه بادية الشام المعروفة ببادية السماوة وهو طريق لم يعبره جيش قط قبل جيش خالد، وذلك لوعورته وقلّة الماء فيه، وتعرُّض من يسلكه للهلاك بالعطش والضياع، وإنَّما صمم خالد على اختراق هذه البادية رغم تحذير العارفين بها لأنَّه كان يريد أن يباغت العدو فينزل خلفهم حتى لا يحبسوه عن إغاثة المسلمين.

وبالعزم والإيمان اخترق خالد وجيشه تلك البادية، وغامر هذه المغامرة، وقطعها في خمسة أيام وكلما مرَّ بجماعة من أعداء المسلمين قاتلهم وتغلَّب عليهم وغنم منهم حتى وصل اليرموك في آخر ربيع الآخر من السنة الثالثة عشرة من الهجرة.

كانت الجيوش الإسلامية قد نزلت موقفها من اليرموك قبل مجيء خالد إليهم بثلاثة أشهر: صفر وربيع الأول وربيع الآخر، وكان المسلمون قد ضجروا وملُّوا هذا الموقف الذي لا يتناسب مع إقدامهم وشجاعتهم وتضحياتهم في سبيل الله، فأرسلوا إلى الخليفة يصفون له الحال ويستمدونه ليحسموا الموقف، وكان عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قد أحس من المسلمين بما يشبه اليأس من طول المقام وعدم القدرة على خوض معركة تفصل بينهم وبين عدوهم، وخاف أن تسري هذه الروح إلى صفوف المسلمين فيضعفون ولا يستطيعون مواجهة العدو، ولم يكن العدو يرجو من وراء هذا الموقف أكثر من ذلك، فإنَّ روح اليأس إذا سرت في جيش مهما كانت قوَّته لا بد أن يؤول حاله إلى أحد أمرين: إما أن ينسحب ويفوز خصمه بالسلامة من غير قتال، وإما أن يدخل في معركة تكون نتيجتها حتماً في مصلحة الطرف الآخر.

أدرك عمرو بن العاص أنَّ هذه الروح بدأت تدبُّ في أوصال الجيش المرابط أمام عدوِّه ثلاثة أشهر فأراد أن يخفف عنهم، وينفخ فيهم روحاً جديدة تبعث فيهم الأمل، وتجدد فيهم نشاطهم وحيويتهم، فنظر إلى جيوش الروم الكثيرة العَدَد الكثيفة العُدد، ولفت نظر المسلمين إلى وضعهم الجغرافي

الذي لا يحسدون عليه، وقال: (أيها الناس، أبشروا، حصرت والله الروم، وقلَّما جاء محصور بخير)[1].

وصادف قدوم خالد قائد المسلمين وصول باهان قائد الفرس، واستبشر المسلمون بقدوم خالد، بقدر ما فرح الروم بوصول باهان، وبلغت إحصاءات الجيشين عندئذٍ ما وصفه الطبري بقوله: (وحزَّب المشركون وهم أربعون ومائتا ألف، منهم ثمانون ألف مقيَّد: أربعون ألفاً مسلسلون للموت، وأربعون ألفاً مربطون بالعمائم؛ وثمانون ألف راجل، وثمانون ألف فارس، والمسلمون سبعة وعشرون ألفاً ممن كانوا مقيمين، إلى أن قدم عليهم خالد في تسعة آلاف، فصاروا ستة وثلاثين ألفاً)[2].

وتواجه الجيشان في تعبئة لم ير مثلها قط، وكان القسيسون والشمامسة والرهبان، يحرِّضون جيوش الروم ويحثونهم على القتال لمدَّة شهر قبل المعركة حتى امتلأوا حماساً، وأخذوا يتحينون الفرصة للقاء.

دعوة إلى توحيد القيادة

ونظر خالد إلى المسلمين فوجدهم متساندين، كل جماعة على رأسها قائدها ليس لهم أمير واحد يجمعهم، ورأى - رضي الله عنه - بعبقريته العسكرية أنَّ هذا الحال لا يؤدِّي إلى النصر، فخطب في المسلمين، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: إنَّ هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بأعمالكم، فإنَّ هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون، فإنَّ ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإنَّ من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته.

قالوا: فهات، فما الرأي؟ قال: إنَّ أبا بكر لم يبعثنا إلاَّ وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم، إنَّ الذي أنتم فيه أشد على

---

(١) الطبري (٣/٣٩٣).
(٢) الطبري (٣/٣٩٤).

المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أنَّ الدنيا فرَّقت بينكم، فالله الله، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله، ولا عند خليفة رسول الله ﷺ هلموا فإن هؤلاء تهيئوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا ولنَتَداورَ الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني إليكم اليوم، فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم وأنَّ الأمر أطول مما صاروا إليه[1].

كانت كلمة خالد تلك أعظم أثراً في نفوس المسلمين من تحريض القسيسين والرهبان في نفوس الروم، ولئن ظلَّ هؤلاء يعبئون تلك التعبئة الروحية لمدَّة شهر كامل فإنَّ نفوسهم لم يكن فيها من اليقين وحسن الثقة في وعد الله كما كان في نفوس المسلمين، ولذلك أثمرت كلمة خالد التي لم تستغرق دقيقتين ما لم تثمره مواعظ الرهبان والقسيسين لمدَّة شهر، لأنَّ النفوس المؤمنة بالحق تكون دائماً مهيَّأة لاستقبال التوجيه والموعظة، سريعة التأثُّر بما يلقى عليها إذا ذكرت بوعد الله ـ عزَّ وجل ـ، حسنة الثقة فيما عنده.

على أنَّنا نرى في كلمة خالد ـ رضي الله عنه ـ من الإخلاص والحث عليه، وعظيم الاعتماد على الله ما لا يمكن أن يخيب صاحبه، زد على ذلك بعد نظر خالد وإدراكه لما حوله من أبعاد المعركة وقدرته العسكرية التي تجعل أصحابه يدينون له من غير منازع، كل ذلك جعلهم يجتمعون على قيادته بعد أن كانوا متساندين لا يدين أحد لأحد، ولا يرى أحد أنَّ أحداً أحق بالأمرة منه.

خطَّة خالد لمواجهة الروم

اجتمع المسلمون على خالد بعد أن مكث شهراً على اليرموك ليس بينه وبين الروم قتال واقترح خالد بعد أن آلت إليه القيادة العامَّة لجيش المسلمين

---

(١) الطبري (٣/٩٥ ـ ٩٦)، ابن الأثير (٢/٤١١).

أن يقسم الجيش إلى كراديس (فرق) كل فرقة من ألف رجل، وجعل على كل كردوس رجلاً ممن اشتهروا بالشجاعة والإقدام أمثال القعقاع بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وأضرابهم، وأسند قيادة القلب إلى أبي عبيدة بن الجراح، وقيادة الميمنة إلى عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة، وقيادة الميسرة إلى يزيد بن أبي سفيان.

وقال لأصحابه: (إنَّ عدوَّكم كثير وليس تعبيه أكثر في رأي العين من الكراديس)[1] حاول خالد بذلك أن ينسي المسلمين كثرة الروم المخيفة، وأن يظهر المسلمين في حالة تدخل الرعب والفزع في عدوِّهم، ولكنَّه لم يلبث أن سمع رجلاً يقول: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فغضب خالد لمَّا سمع وصاح مغضباً، بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنَّما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان، والله لوددت أن الأشقر - يعني فرسه - براء من توجِّيه وأنهم أضعفوا في العدد، وكان فرسه قد حفي من مشيه بالمفازة (بادية الشام)[2].

وخشي خالد أن تسري كلمة الرجل في صفوف المسلمين فتوهنهم، وتضعف مقاومتهم، فعجَّل بالمعركة ليشغل المسلمين بها بدلاً من أن يشغلوا عنها بالنظر في عددهم وعدد عدوهم.

لم ينسى خالد أن يختار من جنوده من يتولى أمور المسلمين، فبعد أن نظَّم الكراديس واختار لها مهرة القوَّاد، عيَّن أبا الدرداء قاضياً، وأبا سفيان واعظاً، وجعل على الطلائع قباث بن أشيم، وعلى الأقباض عبدالله ابن مسعود، ولكنَّ القارىء المقداد يقول الطبري: (ومن السنة التي سنَّ رسول الله ﷺ بعد بدر أن نقرأ سورة الجهاد عند اللقاء - وهي الأنفال - ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك)[3].

وقام أبو سفيان بدوره كواعظ للمسلمين خير قيام فقال وهو يمشي بين

---

(١) ابن الأثير (٢/٤١١).
(٢) ابن الأثير (٢/٤١٢).
(٣) الطبري (٣/٣٩٧).

الكراديس: يا معشر المسلمين، أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل، نائين عن أمير المؤمنين وإمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده، شديد عليكم حنقه وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلّا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنّها سنة لازمة، وإنّ الأرض وراءكم، وبينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاري وبراري ليس لأحد فيها معقل ولا معول إلّا الصبر، ورجاء ما وعد الله فهو خير معول، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون.

ثمَّ ذهب إلى النساء فوصاهنَّ، ثم عاد فنادى، يا معشر أهل الإسلام حضر ما ترون فهذا رسول الله والجنَّة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم، ورجع إلى موقفه في الصف حيث كان.

وقام أبو هريرة بعد أبي سفيان فقال: سارعوا إلى الحور العين وجوار ربكم ـ عزَّ وجل ـ في جنات النعيم، ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحب إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإنَّ للصابرين فضلهم[١].

خالد يأمر بالهجوم:

سمع المسلمون هذه الكلمات فوقعت من نفوسهم موقعاً أنساهم قلَّتهم وكثرة عدوهم، وتطلعت قلوبهم إلى ما عند الله، وهبَّت عليهم من خلالها نسائم الجنَّة فاشتاقوا إليها، ولمح خالد في الجنود حماساً لم يره من قبل، ورأى حبهم للجهاد على النحو الذي كان يتطلع إليه منذ قدم إلى اليرموك، وتأكَّد أنَّ المسلمين قد تأهَّبوا للمعركة بكل إمكاناتهم، فانتهز الفرصة، وأمر عكرمة والقعقاع أن ينشبا القتال.

فبرز القعقاع وهو يرتجز:

يا ليتني ألقاك في الطراد　　قبل اعترام الجحفل الورَّاد

وأنت في حلبتك الوراد

---

(١) ابن كثير (٧/٩).

وتبعه عكرمة وهو يقول:

قد علمت بهكنة الجواري أني على مكرمة أحامي

ونشبت المعركة حامية الوطيس، مستعرة الأوار، السيوف تخطف الأرواح، وتزيل الهام، وتفري الأجسام.

خالد يستقبل بريد الخليفة

وبينما المسلمون كذلك إذ أقبل البريد من المدينة مسرعاً يتخطّى الناس، ويسأل عن خالد، والناس وراءه يتبعونه ليستطلعوا منه أخبار المدينة، والبريد يبشرهم بالخير، ويخبرهم عن الأمداد.

ولمّا بلغ البريد خالداً سلّمه الكتاب، وأخبره بوفاة أبي بكر وأسر إليه به، وأخبره بما أخبر به الجند، فسرَّ خالد من حسن تصرف البريد وقال له: أحسنت، ووضع الكتاب في كنانته حتى لا يطلع أحد على ما فيه فيجزع الجند، وينتشر الأمر.

إسلام قائد من قوّاد الروم

وفي الوقت نفسه خرج جرجة من صفوف الروم حتى وقف بين الصفين، ونادى ليخرج إلى خالد، فخرج خالد إليه، وأناب أبا عبيدة عنه، والتقى الرجلان بين الصفين، وسأل جرجة خالداً عن سبب تسميته سيف الله، فأخبره خالد بأنَّ الرسول هو الذي سمّاه ذلك ودار بين الرجلين حديث طويل أسلم جرجة على أثره، وتبع خالداً إلى خيمته ليعلمه الإسلام.

موقف عكرمة من هجوم الروم

ظنَّ الروم أنَّ جرجة حمل على المسلمين، وأنه في حاجة إلى المدد، فحملوا على المسلمين حملة أزالتهم عن مواقفهم، وثبت لهم عكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام، وكانا على جامية فسطاط خالد، ولما رأى عكرمة تراجع المسلمين قال: قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفر منكم اليوم،

ثمَّ نادى في المسلمين، من يبايع على الموت؟ فبايعه عمُّه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور ومعهما أربعمائة من أبطال المسلمين وفرسانهم، ودافعوا عن الفسطاط حتى أثبتوا جميعاً جراحاً، وقتلوا إلَّا من برأ وكان منهم ضرار ابن الأزور[1].

وتراجعت الروم أمام ثبات عكرمة وأصحابه، ورأى خالد تراجع الروم فزحف بقوَّاته يرافقه جرجة على جيوش الروم المنهزمة، وظلَّ يضرب فيهم بسيفه ومعه جرجة يضرب ويقتل من طلوع النهار حتى مالت الشمس إلى الغروب، وقاتل كل فريق من المسلمين تحت رايتهم حتى صارت الروم تدور كأنَّها الرحا.

يقول ابن كثير: فلم تر في يوم اليرموك إلَّا مخًّا ساقطاً، ومعصماً نادراً، وكفًّا طائرة[2].

خالد يدير المعركة:

وواجه خالد ميسرة الروم التي حملت على ميمنة المسلمين، فقتل منهم ستة آلاف، والتفت إلى أصحابه وقال: والذي نفسي بيده لم يبق عندهم من الصبر والجلد إلَّا ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم، ثمَّ اعترضهم فحمل بمائة فارس على مائة ألف منهم، فلم يكد يصل إليهم حتى انفضَّ جمعهم، وحمل عليهم المسلمون حملة صادقة، فانكشفوا لا يلوون على شيء وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

وصلَّى المسلمون صلاة الظهر والعصر إيماء، واستشهد جرجة، وحمل خالد برجاله على الروم حتى صار في وسطهم، وذعر الروم لهول ما رأوا من المسلمين، وفرَّ خيالتهم وأفسح لهم المسلمون الطريق، فهاموا على وجوههم في البلاد، ثم تبعوا من فرَّ من الخيالة، واقتحم خالد عليهم الخندق، وجعل الروم يتقهقرون أمام الهجوم الكاسح الذي شنَّه خالد في اللحظة المناسبة

---

(١) الطبري (٣/٤٠١).

(٢) ابن كثير (٧/١٢).

حتى وصلوا إلى الواقوصة، وجعل الذين سلسلوا أنفسهم لئلا يفروا يتساقطون في الواقوصة كما يتساقط الفراش في النار، وكلما سقط رجل من مجموعة سقطت معه بأكملها حتى سقط فيها، وقتل عندها مائة ألف وعشرون ألفاً، ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق، سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل[1]، وأخر الناس صلاة العشاء حتى استقرَّ الفتح.

وأمعن المسلمون في قتل الروم، وظلُّوا يقاتلون حتى أصبحوا، ودخل خالد رواق تذارق أخو هرقل، فلما أصبحوا وقد انتهت المعركة أتى خالد بعكرمة بن أبي جهل جريحاً فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه، ومسح وجهيهما وأخذ يقطر في حلقيهما الماء حتى استشهدا، وقال: زعم ابن حنتمة - يعني عمر - أننا لا نستشهد[2].

وقاتل نساء المسلمين في هذا اليوم، وقتلوا عدداً كبيراً من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج، وعندئذٍ يرجع المنهزمون، وكان عمرو بن العاص من المنهزمين ومعه أربعة نفر حتى بلغوا النساء، فلما زجرنهم رجعوا إلى القتال[3].

دفع شبهة:

وكان يزيد بن أبي سفيان من الذين ثبتوا ولم يفروا، وقاتل قتالاً شديداً، لأنَّ أباه مرَّ به، وذكَّره بما يجب عليه وعلى أمثاله من الأمراء، وأمره بالصبر والثبات، ورغَّبه فيما عند الله من الأجر والمثوبة، فأجاب يزيد، أفعل إن شاء الله[4].

وهذه الرواية ترد رواية ابن الأثير التي رواها عن عبدالله بن الزبير، وفيها يتَّهم أبا سفيان ورجالاً من مكَّة يسميهم مهاجرة الفتح، بأنَّهم تنحوا عن

---

(١) الطبري (٣/٤٠٠).
(٢) ابن الأثير (٢/٤١٤).
(٣) ابن كثير (٧/١٣ - ١٤).
(٤) ابن كثير (٧/١٣ - ١٤).

الميدان، وظلُّوا بعيداً يتربصون بالمسلمين فإذا ركب الروم المسلمين قالوا: إيه بني الأصفر، وإذا غلب المسلمون يقولون: ويح بني الأصفر.

تدل هذه الرواية على تجنُّب أبي سفيان المعركة، وأنَّه لم يشترك فيها، ولكن ابن الأثير نفسه يذكر ما يكذب ذلك، حيث يروي بعدها مباشرة وفي الصفحة نفسها أنَّ عين أبي سفيان قد أصيبت في المعركة، وذلك أمر مجمع عليه من المؤرخين، فكيف يكون أبو سفيان بعيداً عن ميدان المعركة يتربص بالمسلمين، وكيف يصيبه سهم في عينه فيفقؤها وينتزع السهم من عينه أبو حتمة[1].

ويروي ابن كثير عن سعيد بن المسيَّب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله إقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد[2].

أين كان أبو سفيان، وهو ينادي نصر الله؟ وأين كان وهو يطلب الثبات من المسلمين؟ هل كان يطلب الثبات وهو هارب من الميدان؟ وهل يليق برجل كأبي سفيان أحد زعماء قريش أن يطلب الثبات من المسلمين ويفر هو خارج المعركة؟ ومن الذي يصيح بالمسلمين ليثبتوا ثمَّ يرى بعد ذلك بعيداً عن الميدان؟.

أغلب الظن أنَّ الرواية مكذوبة على أبي سفيان، فقد أجمع المؤرخون على أنَّه كان واعظ الجيش وروى عنه المؤرخون كلمات في الحض على القتال والحث على الثبات تثير إعجاب كل من قرأها أو سمع بها.

هزيمة الروم

وفرَّ المنهزمون من اليرموك حتى بلغوا دمشق، وأمَّا هرقل فإنَّه لما بلغه

---

(١) ابن الأثير (٢/٤١٤)، والطبري (٣/٤٠١).
(٢) ابن كثير (٧/١٤).

خبر اليرموك وكان بحمص تركها وولّى عليها رجلاً وجعلها بينه وبين المسلمين، وودَّع سوريا الوداع الأخير.

وتوجَّه المسلمون بعد ذلك إلى الأردن، وطهَّروها مما بقي فيها من جنود الروم، ثـم تابعوهم إلى دمشق حيث حاصروهم هناك.

وبلغ عدد الشهداء من المسلمين ثلاثة آلاف شهيد بينهم كثير من كبار الصحابة مثل سعيد بن الحرب بن قيس السهمي، ونعيم النحام، والنضير ابن الحارث، وأبو الروم عمر بن هشام أخو مصعب بن عمير، وكان في جنود هذه المعركة ألف صحابي منهم مائة ممن شهد بدراً[١].

وغنم المسلمون كل ما كان في معسكر الروم، وكان شيئاً عظيماً حتى خصَّ الفارس من النفل ألف وخمسمائة[٢] درهم أو ألف وخمسة دراهم[٣]، وكانت الموقعة الفاصلة عند اليرموك في شهر جمادي الآخرة من السنة الثالثة عشرة من الهجرة بعد أن مكث المسلمون قرابة أربعة أشهر لا ينالون من الروم، ولا ينال منهم.

ولمَّا انتهت المعركة، وطارد المسلمون الروم حتى حصروهم في دمشق أظهر خالد الكتاب الذي جاء به البريد، فإذا هو نعي للخليفة، وعزل لخالد من الإمارة وتولية لأبي عبيدة بن الجراح إمارة الناس، وعندئذٍ قال خالد ـ رضي الله عنه ـ وهو يعلن وفاة الخليفة وتولية عمر: (الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت، وكان أحب إليَّ من عمر والحمد لله الذي ولَّى عمر، وكان أبغض إليَّ من أبي بكر، وألزمني حبه)[٤].

---

(١) ابن الأثير (٢/٤١٠، ٤١٤).
(٢) الطبري (٣/٤٠٠).
(٣) هيكل ص ٣٠٣.
(٤) ابن كثير (٧/١٤).

وفاة الصديق

ونحن نلاحظ خلافاً في تاريخ وفاة الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ ينبغي أن يحقق، فالطبري وابن الأثير وابن كثير والسيوطي والبلاذري كلهم مجمعون على أنَّ الوفاة كانت في جمادي الآخرة، وهذا أمر لا خلاف فيه بين المؤرخين.

وكما اتَّفق المؤرخون على الشهر الذي توفي فيه الخليفة، فهم كذلك متفقون على أنَّ الوفاة كانت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة.

ويأتي الخلاف بعد ذلك في اليوم الذي حصلت فيه الوفاة، والرواية التي تكاد تحظى بإجماع المؤرخين أنَّه ـ رضي الله عنه ـ اغتسل في يوم شديد البرد، وكان ذلك يوم الإثنين لسبع خلون من جمادي الآخرة، فحم على أثر ذلك خمسة عشر يوماً، وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة[1].

ولكننا نرى أنَّ البريد قد وصل والمسلمون في اليرموك والمعركة دائرة بينهم وبين الروم، والمؤرخون أنفسهم يرون أنَّ معركة اليرموك انتهت في جمادي الآخرة كذلك، فمتى يصل البريد من المدينة إلى الشام؟ وفي كم يوم يقطع المسافة؟؟.

إنَّ البريد مهما كانت سرعته لا يمكن أن يقطع هذه المسافة في أقل

(١) الطبري (٣/٤١٩)، ابن الأثير (٢/٤١٨)، ابن كثير (٧/١٨) السيوطي ص ٨١.

من عشرة أيام، ولو توفي الخليفة لثمان بقين من جمادي الآخرة لتحتّم أن تكون المعركة قد امتدت إلى شهر رجب، ولهذا فإني أرجِّح أن تكون وفاة الصدِّيق في النصف من جمادي الآخرة قبل انتهاء المعركة بعشرة أيام كما ذكر الطبري حيث يقول: (ومرض أبو بكر ـ رحمه الله ـ في جمادي الأولى وتوفي للنصف من جمادي الآخرة، قبل الفتح بعشرة أيام)[1].

وهذه الأيام العشرة يمكن أن يصل البريد فيها من المدينة المنورة إلى الشام حيث تدور المعركة.

---

(١) الطبري (٣/٣٩٤).

الخليفة الثاني

عُمَر بن الخَطّاب



الخليفة الثاني
عمر بن الخطاب

عمر في الجاهلية:

هو عمر بن الخطاب بن عبد العزى من بني كعب بن لؤي فهو عدوي قرشي، ولد بعد عام الفيل بثلاثة عشر عاماً، وكان من أشراف قريش وسادتها، وإليه كانت سفارة قريش فهو سفيرهم إذا نشبت الحرب بينهم أو بينهم وبين غيرهم، وهو المفاخر والمنافر عنهم إذا فاخرهم أحد أو نافرهم.

يجتمع نسبه مع الرسول في الجد السابع (وهو كعب بن لؤي)، ومن جهة أمه يجتمع معه ﷺ في الجد السادس وهو (مرة بن كعب).

كان في صغره يرعى الغنم لأبيه، ثمَّ عمل بالتجارة يذهب بها إلى الشام، كما كان عزيز الجانب في أهله محترماً بين قومه، وكان قوي الشكيمة شديد الباس[1].

وكان قبل إسلامه شديداً على المسلمين، قاسياً في معاملته لهم، فكان يعذبهم عذاباً تنهدُّ منه الجبال، وتذوب لهوله الأحجار، حتى أنَّه كان يعذب جاريته، وظلَّ يضربها حتى ملَّ الضرب فتركها وهو يقول: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلاَّ ملالة.

فأجابته الجارية المعذَّبة، كذلك فعل الله بك، واشترى أبو بكر الجارية فأعتقها[2].

---

(١) الطبري (٥/١٧).

(٢) ابن هشام (١/٢٧٨).

إسلام عمر:

ظلَّ عمر يعامل المستضعفين من المسلمين بهذه الغلظة وتلك القسوة سنتين متواليتين وأوَّل ما بدا منه من تغير تلك الحال حينما رأى المسلمين ِجون من بلادهم تاركين ديارهم وأهليهم ، مضحين بوطنهم وذويهم في سبيل تلك العقيدة التي آمنوا بها عندئذٍ رقَّ إليهم ، وأظفر لهم غير ما كانوا يرون منه حين قال لهم : صحبتكم السلامة .

وأغلب الظن أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ لم يرق لهم رحمة بهم وعطفاً عليهم، ولكنَّه قد رأى هؤلاء المهاجرين يودعون مكَّة التي يبذل الناس في سبيل زيارتها كل غالٍ ونفيس فاعتقد أنَّه لا يفعل ذلك إلَّا أناساً يحملون في قلوبهم ما هو أغلى عليهم من مكَّة وما في مكة، من أجل ذلك تركوها لينجوا بعقيدتهم التي ملأت عليهم حياتهم، وعوَّضتهم خيراً عن كل ما يحرص الإنسان عليه في هذه الحياة.

كان الرسول ﷺ يتمنَّى أن يعز اللّه دينه بأحد العمرين: إما ابن الخطاب وأما ابن هشام (أبو جهل) لهذا دعا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائلاً: اللهمَّ أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل ابن هشام[1] وقد استجاب الله لنبيه، وكان أحب الرجلين إليه ـ سبحانه ـ هو عمر بن الخطاب، فأصابته دعوة الرسول فأسلم.

ويذكر لنا المؤرخون أحداثاً كثيرة يعزون إسلام عمر إليها، وما دامت قد صحت كلها فالأولى التوفيق بينها بأن يجعل بعضها مقدمات لقصَّة الإسلام التي هي أثبت القصص بالنسبة لعمر وأرجح القصص وأقربها إلى الواقع ما رواه بن هشام من أنَّه خرج يريد قتل الرسول ﷺ فقابله رجل في الطريق، فأخبره بإسلام أخته فاطمة وختنه (زوج أخته) وهو سعيد بن زيد، فانصرف عمر عن رأيه، وقصد بيت أخته، فدخل عليهما وبعد نقاش وجدال أخذ عمر الصحيفة التي كانت بين أيديهم فقرأها فإذا فيها آيات من القرآن الكريم،

---

(١) السيوطي ص ١٠٩ تاريخ الخلفاء.

فانشرح صدره للإسلام وقال: دلُّوني على محمد، فذكروا له مكانه فذهب فأسلم.

وأقول إنَّ هذا أرجح الروايات وأقربها للواقع، لأنَّها هي التي تتناسب مع أخلاق عمر ـ رضي الله عنه ـ وطبيعته، ولأنَّها أكثر الروايات تداولاً على ألسنة المؤرخين وأهل السير، ولا يستبعد كما قلت أن تكون الروايات الأخر تمهيداً ومقدمة لما حصل من إسلامه ـ رضي الله عنه.

ولمَّا أسلم سمَّاه الرسول ﷺ الفاروق، وقد سئل عن سبب ذلك فقال: لما أسلمت قلت لرسول الله: ألسنا على الحق؟ قال: بلى، قلت: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد، فنظرت قريش إليَّ وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة شديدة فسمَّاني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذٍ، لأنَّه أظهر الإسلام وفرَّق بين الحق والباطل.

وقد استبشر أهل السماء بإسلامه ـ رضي الله عنه ـ حتى نزل جبريل وأخبر الرسول بذلك[1]، ونزل قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾[2].

وكان إسلامه ـ رضي الله عنه ـ في السنة السادسة من البعثة بعد الهجرة إلى الحبشة يقول السيوطي: أسلم سنة ست من النبوة، وله سبع وعشرون سنة، ويقول ابن سعد: أسلم عمر في ذي الحجة من السنة السادسة من النبوة، وهو ابن ست وعشرين سنة.

والقولان يختلفان تماماً مع القول بأنَّه ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، إذ لو صحَّ ذلك لكان عمره يوم إسلامه ثلاثاً وثلاثين سنة، لأنَّ الفرق بين مولد الرسول ﷺ وبين مولده ـ رضي الله عنه ـ ثلاثة عشر عاماً، وحيث أنَّه أسلم سنة ست من النبوة فينبغي أن يكون عمره حينئذٍ ثلاثاً وثلاثين سنة.

---

(١) رواه ابن ماجة..

(٢) أخرجه البزار والحاكم.

والذي يلفت النظر هنا أنَّ تاريخ مولده، وكذلك تاريخ إسلامه يكاد يتم إجماع المؤرخين عليهما، ولذلك فإن رفض أحدهما أو كليهما لا يحسن في هذا المقام، والذي أراه أنَّ التاريخين صحيحان، وأنَّ ما ينبغي الخلاف فيه هو عمره ـ رضي الله عنه ـ عند إسلامه، ولهذا أرى أن يكون عمره الذي ذكره السيوطي وابن سعد ليس هو عمره عند إسلامه، بل هو عمره يوم بعثة الرسول ﷺ وعلى هذا يصح التاريخان، ويكون عمره عند إسلامه ثلاثاً وثلاثين سنة، وتكون وفاته عن ثلاث وستين سنة.

ويعتبر عمر من السباقين إلى الإسلام، حيث لم يسبقه إلى الإسلام إلاَّ خمسة وأربعون رجلًا وإحدى عشرة امرأة على أرجح الأقوال والله أعلم.

صفته:

كان ـ رضي الله عنه ـ رجلًا طوالاً أصلع، أعسر أيسر، أحور العينين، آدم اللون وقيل: كان أبيض شديد البياض تعلوه حمرة، أشنب الأسنان[1]، وكان يصفر لحيته، ويرجل رأسه بالحناء[2]، وأرجح الأقوال فيه أنَّه كان آدم شديد الآدمة ـ يعني أسمر شديد السمرة.

بعض فضائله:

روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فإنَّه عمر» والمحدثون الملهمون.

وأخرج الترمذي والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب».

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول: الحق لا يخشى في الله لومة لائم حتى قال فيه الرسول: «إنَّ الله وضع الحق على لسان عمر يقول به»[3].

---

(١) أبيض الأسنان حسنها.
(٢) ابن كثير (٦/١٣٨).
(٣) أخرجه ابن ماجة والحاكم.

وأخرج البزار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «عمر سراج أهل الجنة».

كما كان ـ رضي الله عنه ـ سداً منيعاً بين المسلمين وبين الفتن، وقد أشار رسول الله إلى ذلك بقوله: «هذا غلق الفتن ـ وأشار بيده إلى عمر ـ لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين أظهركم».

وروى ابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماء ملك إلاَّ وهو يوقر عمر، ولا في الأرض شيطان إلاَّ وهو يفرق من عمر».

وقد وافقه القرآن في أربعة مواضع:

١ ـ في أسرى بدر لما أشار على الرسول بالقتل، وأخذ الرسول برأي أبي بكر بالفداء فنزل القرآن الكريم يؤيد رأي عمر (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض).

٢ ـ وفي الحجاب، وذلك حين أشار على النبي بأن يأمر نساءه بأن يحتجبن لأنه يدخل عليهن البار والفاجر، فنزل القرآن موافقاً لرأي عمر (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلاَّ أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه. . . . وإذا سألتموهنَّ متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب).

٣ ـ وفي تحريم الخمر، وذلك حين دعا؛ اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل قوله ـ تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾.

٤ ـ وفي مقام إبراهيم حين قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، لو اتَّخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزل قوله ـ تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾

٥ ـ وهذه زادها البخاري، وذلك حين اجتمع نساؤه ﷺ عليه غيرة فقال لهنَّ عمر: (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) قال: فنزلت ـ الآية ـ كذلك.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من أبغض عمر فقد أبغضني، ومن أحب عمر فقد أحبني، وإنَّ الله باهى بالناس عشية عرفة عامة، وباهى بعمر خاصة، وإنَّ الله لم يبعث نبياً إلَّا كان له في أمته محدَّث، وإن يكن في أمتي منهم أحد فهو عمر، قالوا: يا رسول الله، كيف محدَّث؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه».

مُبَايَعَتُهُ بالخلافة

تقرَّر نظام الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ بانتخاب أبي بكر الصدِّيق خليفة للمسلمين، وقد رأينا أن بيعة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لم تتم إلَّا بعد أن كان المسلمون على أبواب نزاعات لا يعلم مدى تأثيرها على الجماعة الإسلامية إلَّا الله ـ عزَّ وجل ـ ولولا أنَّ أبا بكر قد رزق في تلك الفترة العصيبة من ضبط الأعصاب، والسيطرة على القلوب، ولولا أنَّه ذكر الناس بسيادة قريش وأحقيتها لهذا الأمر، ولولا أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ أثار في النفوس الحمية الإسلامية، وذكَّرهم بفضل أبي بكر، وسألهم من منكم تطيب نفسه أن يتقدَّم أبا بكر، رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟.

ولولا ذلك كله لثارت النفوس، واشرأبت الأعناق، وبلغت الفتنة مداها، ولم يستطع أحد أن يسيطر عليها.

لا شكَّ أنَّ ذلك كله قد دار في رأس أبي بكر وقد أحسَّ بدنو أجله، فماذا عسى أن يحصل في جماعة المسلمين إن هو فارق الدنيا وترك الأمر لهم يختارون خليفتهم، فهل يضمن أن تجتمع القلوب على خليفة بعده؟ ومن هو هذا الخليفة الذي يمكن أن تجتمع عليه القلوب لو كانت ستجتمع على أحد؟ إنَّ العاقبة مخيفة، وإنَّ الأمور لم تتضح في نفوس المسلمين، فماذا عليه لو استشفَّ آراء كبار الصحابة ليعرف اتِّجاههم؟ وماذا لو استشارهم ليلزمهم بما أشاروا عليه به؟.

إنَّه ـ رضي الله عنه ـ كان موقناً أنهم سيشيرون بعمر، وإن يكن لهم بعض التحفظات، فإنَّه قد يستطيع إقناعهم بالتنازل عن تلك التحفظات،

ولكنَّه إذا مات قبل أن يطَّلع على رأيهم ويقنعهم بالتنازل عمَّا قد يعن لهم فإنهم قد لا يجتمعون على أحد، وتكون الفتنة المدمرة.

لهذا أرسل أبو بكر إلى عبد الرحمن بن عوف وقال: أخبرني عن عمر، فقال: يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه، ولكن فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضي الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه، يا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذ غضبت على رجل في شيء أراني الرضا عنه وإذا لنت له أراني الشدَّة عليه.

ثم التفت إلى عبد الرحمن ـ رضي الله عنه ـ وقال: لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً. قال عبد الرحمن: نعم.

ودعا الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وقال له: أخبرني يا أبا عبدالله عن عمر بن الخطَّاب وأجاب عثمان: يا خليفة رسول الله، أنت أخبر به، فقال أبو بكر: على ذلك يا أبا عبدالله. قال عثمان: اللهمَّ علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله.

قال أبو بكر: رحمك الله يا أبا عبدالله، لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً، قال عثمان: أفعل. قال أبو بكر: لو تركته ما عدوتك، وما أدري لعلَّه تاركه والخيرة له ألَّا يلي من أموركم شيئاً، ولوددت أني كنت خلواً من أموركم، وأني كنت ممن مضى من سلفكم[1].

ولم يكتف الخليفة برأي الرجلين العظيمين في عمر بل تابع بحث الأمر مع كل من يعرف له رأياً ومشورة، فاستدعى سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار حرصاً منه على أن يجتمع رأي المسلمين على رجل بعده، حتى لا يتكرَّر ما وقع في يوم السقيفة.

وكانت الأنباء قد خرجت من بيت الخليفة تذكر ما دار بين الخليفة ومن طلب مشورتهم في استخلاف عمر، وخاف بعض المسلمين من غلظة عمر

---

(١) الطبري (٣/٤٢٨).

على جمع كلمة المسلمين، وصمموا على أن يذهبوا إلى الخليفة يطلبون منه تغيير عمر.

وتزعم الجماعة طلحة بن عبيدالله، وتوجهوا إلى بيت الخليفة واستأذنوا في الدخول فأذن لهم، فقال طلحة: يا خليفة رسول الله، ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك؟.

وغضب أبو بكر لهذا الموقف الذي لم يكن لينتظره من طلحة، وصاح في أهله أجلسوني فلما أجلسوه، قال - ولا يزال الغضب يملك عليه حواسهُ: (أبالله تخوفوني، خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول لربي: اللهمَّ استخلفت على أهلك خير أهلك)[1].

واتَّجه الخليفة إلى طلحة وقال له: أبلغ عني ما قلت لك من وراءك.

ولعلَّ هذا الحوار بين الخليفة وطلحة قد أثار في نفس أبي بكر الشكوك في رضا المسلمين ببيعة عمر، فأراد أن يخاطب الناس بالأمر مباشرة، وانتهز فرصة اجتماع الناس في المسجد وأشرف عليهم من حجرة له مطلَّة على المسجد، وقال: (أترضون بمن استخلف عليكم؟ فإني والله ما آلوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد وليت عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا) فأجاب الناس، سمعنا وأطعنا.

وهنا رفع أبو بكر يديه إلى السماء وقال: (اللهمَّ إني لم أرد بذلك إلاَّ صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم ما أنت به أعلم، واجتهدت لهم رأياً، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم)[2].

وزادت ثقة الناس في حسن اختيار أبي بكر لهم، وعلموا أنَّه بذل لهم

---

(١) ابن الأثير (٢/٤٢٥).

(٢) هيكل ص ٨٨ الفاروق عمر.

النصح ومحضهم صادق الرأي، واطمأن أبو بكر كذلك على سلامة المسلمين وجمع كلمتهم على عمر بعدما سمع ورأى ما أجاب به المسلمون، وهنا دعا عثمان بن عفان فأملى عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين. أما بعد، وأغمي على أبي بكر قبل أن يتم عهده، فكتب عثمان من عنده، (فإني قد استخلفت عليكم عمر ابن الخطاب، ولم آلكم خيراً)[1].

فلما أفاق أبو بكر قال لعثمان: أقرأ عليَّ، فقرأ عليه، فكبَّر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن أفتلت في غشيتي قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرها أبو بكر من هذا الموضع.

ثمَّ دعا الناس، وطلب منهم أن يبايعوا لمن في الكتاب فبايعوا سامعين مطيعين.

وتوفي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد مغيب شمس يوم الإثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادي الآخرة من السنة الثالثة عشرة من الهجرة، الموافق ٢٢ أغسطس ٦٣٢ م، وغسل وحمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ وجيء به إلى المسجد، وصلّى عليه عمر والمسلمون من خلفه، ثمَّ نقل إلى حجرة أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وشقَّ له لحد إلى جوار لحد رسول الله ﷺ وجعل رأسه بين كتفي الرسول ﷺ وتولّى دفنه عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر وعثمان ابن عفان وطلحة بن عبيدالله.

وأتمَّ عمر أمر الخليفة الراحل، وخرج من حفرته ينفض يديه من التراب، ونظر إلى الحضور من الصحابة فألقى عليهم السلام، وانصرف إلى داره، وقد مضى نصف الليل الأول.

عمر يتقلّد مهام الخلافة:

بات عمر هذه الليلة معنى مشغول البال، ملك عليه تفكيره أمور لم

---

(١) ابن الأثير (٢/٤٢٥).

تكن لتغيب عنه وهو أعلم الناس بحال المسلمين حين تركهم أبو بكر، لقد كانت جيوش المسلمين في العراق تواجه مصاعب شديدة والمثنى بن حارثة هناك يلقى من الفرس عنتاً وضغطاً، ولم تكن القوات في الشام أحسن حالاً من قوات العراق، ولم ترد إلى المدينة من الأخبار ما يطمئن المسؤولين في الأيام الأخيرة لأبي بكر، واستلم عمر القيادة بعده والحال هي الحال.

وتمر هذه الصورة سريعة في خاطر عمر وهو يتقلّب على فراشه لا يأتيه النوم، وكيف يخلد إلى الراحة وأمور المسلمين كلها قد ألقيت على عاتقه منذ الليلة، وضخم عمر ـ رضي الله عنه ـ المسؤولية حتى شملت كل شيء في رعيته حتى الحيوان، وتذكر وهو يستعرض ذلك كله وصية الخليفة له، ألم يوصه بمواصلة الحرب في العراق والشام؟ ألم يذكّره بما يجب على من يتولى أمر المسلمين من الإنصاف والعدل؟ ألم يحمّله أمانة النصح لأمّة محمد ﷺ والعمل بما يحقق لهم المصلحة؟؟.

دار ذلك كله بخلد عمر، فلم يهنأ بنوم، ولم يستقر جنبه على فراشه حتى أصبح، وخرج للصلاة، وتتابع المسلمون على بيعته فسكنت نفسه، وهدأ القلق الذي ساوره طول ليلته، وأخذ عمر يتحين الفرصة ليعلن سياسته على الملأ من المسلمين.

وحانت الفرصة لعمر في صلاة الظهر، وقد امتلأ المسجد بالمسلمين، عندئذٍ صعد عمر المنبر وخطب الناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلّى على رسوله وسلّم، وأثنى على أبي بكر بما هو أهله ثمّ قال: (أيها الناس، ما أنا إلّا رجل منكم، ولولا أني كرهت أن أرد أمر الخليفة ما تقلّدت أمركم) وردّ المجتمعون عليه، بالثناء والحمد ذاكرين له فضله وسبقه.

ونظر عمر إلى السماء في إشفاق وقلق وقال: إني قائل كلمات فأمنوا عليهنّ: (اللهمّ إني غليظ فليّني، اللهمّ إني ضعيف فقوّني، اللهمّ إني بخيل فسخّني).

ثمّ قال: (يا أيها الناس إنّ الله ابتلاني بكم، وابتلاكم بي، وأبقاني

فيكم بعد صاحبي، فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيَّب عني فآلوا فيه عن الجزء والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكل بهم)[1].

ونزل عمر فصلَّى بالناس صلاة الظهر، وكان ذلك يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر جمادي الآخرة للسنة الثالثة عشرة من سني الهجرة النبوية، وهو أوَّل يوم من خلافة عمر ـ رضي الله عنه.

سياسة عمر الداخلية:

بدأ عمر حياته في الخلافة بتنفيذ وصيَّة أبي بكر كما بدأ أبو بكر حياته فيها بتنفيذ بعث أسامة، وكلا الرجلين كان حريصاً على ألَّا يخل بعهد عهد به إليه، وكلاهما كان يرى أنَّ الوفاء بتلك الوصية هو أوَّل خطوة في سبيل النجاح، فكان أبو بكر يرى أنَّ أي تهاون في إنفاد جيش أسامة يحدث في صفوف المسلمين ثغرة يمكن أن تكون سبيلًا للمساومة في أشياء أخرى لا يمكن الوقوف بعدها عند حد.

وعمر كذلك كان يرى أنَّه إذا لم ينفذ وصية أبي بكر في متابعة الحرب انفرط عقد المسلمين، وتراخوا واستسلموا للراحة، وقعدوا عن الجهاد، وذلك هو الوهن في الطريق الطويل الذي ينتظر من المسلمين الكثير والكثير من البذل والفداء والتضحية والدماء.

أفترى أنَّ كلا الرجلين العظيمين أو أحدهما هان عليه إسلامه حتى يسمح لنفسه أن يكون أوَّل من ينقض عراه، أو يحدث فيه حدثاً، أو يقصِّر في إمداده بما فيه أسباب القوَّة والعزَّة والمجد؟.

كلَّا، فإنَّ كلا الرجلين قد بذل من جهده، وفكره ووقته ما به أعز الله الإسلام ونصر المسلمين.

وعلى هذا الأساس بنى عمر ـ رضي الله عنه ـ سياسته في تسيير دفَّة أمور الدولة التي آلت إليه بعد موت صاحبيه، وكان أوَّل ما بدأ به.

---

(١) هيكل ص ٩١ الفاروق عمر.

أ ـ تعبئة المسلمين للجهاد:

وقف عمر على المنبر في مسجد الرسول ﷺ وطلب من المسلمين أن يخفوا لتعزيز الجيش في بلاد الفرس، ولكنه رأى منهم تقاعساً وميلاً إلى الخلود في المدينة.

ولعلَّ سر ذلك التقاعس هو علمهم بما لقي المثنى بن حارثة من جيش فارس مما اضطرَّه إلى التراجع واللجوء إلى الحيرة والتحصُّن بها، ولعلَّ سر ذلك هو ميلهم إلى الدعة، ومطاوعة النفس فيما تميل إليه من الإقامة مع الأهل وبين المال والبنين، وأيّاً كان السر في ذلك فإن على عمر أن يقنع المسلمين بضرورة الجهاد في سبيل الله، وأن يعبئهم طوعاً أو كرهاً لتعزيز إخوانهم المقيمين في تلك الثغور.

ولعلَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قد لمس من الناس أنَّ الأمر يحتاج إلى شيء من الحزم ليردَّ المسلمين إلى صوابهم، فماذا عليه لو عاد إلى ما اشتهر به من الشدَّة وأخذ الأمور بالحزم والجد؟.

وصعد عمر المنبر حين اجتمع الناس لصلاة الظهر وقد رأى رأياً أحب أن يعلنه على الناس بصراحته المشهورة، فنادى في الناس برد سبايا أهل الردة إلى عشائرهم، وقال: (كرهت أن يكون السبي سنة في العرب).

كان وقع هذا النداء على المسلمين خطيراً، فأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ هو الذي أباح لهم ذلك، فكيف ينقض عمر، ويطلب من المسلمين تحرير من تحت أيديهم من أرقاء حروب الردة.

ظنَّ الناس أنَّ عمر بذلك بدأ يسلك سبيلاً غير سبيل صاحبه، وأنَّه لا محالة سيتنكب بهم الطريق، والحق أنَّ كلا الخليفتين محق في مسلكه، فأبو بكر أراد بذلك أن يذل هذه القبائل المتمردة وأن يضع أنوفهم في الرغام، وأن يحملهم على الجادة مرغمين، وأما عمر فقد رأى إخلاص هذه القبائل بعد عودتها إلى الإسلام، ورأى في زعمائهم تفانياً يدل على إيمان بالحق الذي فاءوا إليه، وخشي أن يحدث استمرار السبي في العرب انكساراً في نخوتهم

وحطاً من كرامتهم ثمَّ يكون ذلك عادة لهم فلا يغضبون لذل، ولا يأنفون من إهانة، ثمَّ لا يستفاد بهم بعد ذلك في شأن من الشؤون.

لاحظ عمر توجس المسلمين من الخطة التي اتَّخذها نحو أسارى الردة، ولكنَّه عزم على أن يسير في الشوط إلى نهايته مهما كانت النتائج، فلما كان اليوم الثالث من خلافته، قام في الناس خطيباً فقال: (إنَّما مثل العرب مثل جمل أنف اتَّبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده أمَّا أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق).

يبدو أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قد أراد بتلك الكلمة أن يشعر المسلمين بأنَّه سيحملهم على الجادة طائعين أو مكرهين، وقد بلغت تلك المقالة من نفوس المسلمين المبلغ الذي قصد إليه عمر، فاشرأبَّت الأعناق، وشخصت الأبصار، ورأى ذلك التغيُّر في الناس فصعد المنبر وقال: (بلغني أنَّ الناس هابوا شدَّتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا، ثمَّ اشتدَّ علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟) ثمَّ قال: ومن قال ذلك فقد صدق.

وتابع عمر خطبته (ثمَّ إني وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أنَّ تلك الشدَّة قد أضعفت ولكنها إنَّما تكون على أهل الظلم والتعدِّي على المسلمين، فأمَّا أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدَّى عليه حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق، وإني بعد شدَّتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف)[1].

وإننا لنرى أنَّ خطبة عمر تلك تسير على النهج نفسه الذي كانت تسير عليه سياسة أبي بكر، وإن بين الخطبتين تشابهاً واضحاً لا يخفى على أحد مما يدل على أنَّ الرجل لن يخالف صاحبه إلى أمر لم يسر عليه، ووقعت تلك المقالة من عمر في نفوس المسلمين موقعها الذي أراد، وكان لها أثرها

---

(١) هيكل عمر ص ٩٣ الفاروق عمر.

الذي قصده وبدأ الناس يأخذون أوامر الخليفة بالجد الذي يليق بها، وأحسَّ عمر بأنَّ كلامه قد بلغ من النفوس مبلغاً ينبغي ألَّا يضيِّعه، فأثار في قلوبهم الحماس للإسلام، وحرَّضهم على الخروج للجهاد، وكان المثنى بن حارثة قائد قوات المسلمين في العراق حاضراً ولم يعجبه قعود المسلمين عن الجهاد، وكان قد سمع كلام الخليفة، فعزَّ عليه ألَّا يستجيبوا له فقام فيهم خطيباً، وهوَّن عليهم أمر الجهاد في بلاد الفرس، وأخبرهم بأنَّ جيوش المسلمين قد أخذت من يد الفرس ما جعلهم ينعمون مع شرف الجهاد ببحبوحة العيش.

وخفَّ المسلمون لجهاد عدوِّهم، وتجهزت كتيبة من أولي الرأي منهم، وولَّى عمر قيادة تلك الكتيبة لأبي عبيد بن مسعود الثقفي، ثمَّ أرسل كتيبة أخرى بقيادة جرير ابن عبدالله البجلي في قوم من بجيلة، وتتابعت القوات على المثنى بن حارثة بعد أن عاد إلى العراق ليقود المسلمين ضدَّ أعداء الله من أهل فارس.

ب ـ توحيد الجزيرة سياسياً:

كان عمر ـ رضي الله عنه ـ دائم التفكير في أحوال المسلمين، وكان في رأسه أمور كثيرة طالما عرضها على الخليفة السابق. ولكنه لم يحظ منه بالموافقة عليها، فهل آن له الأوان ليخرجها إلى حيز التنفيذ، لقد كان عمر يرى في نصارى نجران ويهود خيبر رأياً لم يره أبو بكر، وكان يرى في قيادة جيوش الشام رأياً يخالف فيه رأي أبي بكر، فهل يسير في ذلك على نهج سلفه أم يحدث من التغيير فيه ما يتوافق مع رأيه؟.

كان عمر يعتقد أنَّ أمام المسلمين أموراً عظيمة وخطوباً جسيمة ينبغي أن يستعدُّوا لها، وكان يرى أنَّ أوَّل خطوات هذا الاستعداد هو توحيد الجزيرة حتى تنهض بأعباء الرئاسة التي آلت إليها، وكذلك كان يرى أنَّ أهم ما تتوحد عليه الجزيرة هو العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد، لهذا صمَّم على ألَّا يبقى في جزيرة العرب دينان.

فأمَّا اليهود فأجلاهم إلى الشام، وأمَّا النصارى فقد أخرجهم إلى العراق

وأوصى بهم عامله خيراً وأمره أن يعوِّضهم أرضاً تشبه أرضهم بنجران، كذلك فعل مع اليهود في بلاد الشام.

كان إجلاء اليهود والنصارى عن أرض شبه الجزيرة هو الخطوة الأولى التي اتخذها عمر لإقامة الوحدة السياسية فيها، ولم يكن ذلك كافياً بل كان على عمر أن يتخذ خطوة أخرى لا تقل أهمية عن تلك الخطوة، وتلك هي إزالة الفوارق بين سكان الجزيرة أنفسهم، ذلك لأن إجلاء اليهود والنصارى مع بقاء الفوارق بين السكان لا يقيم الوحدة بينهم، فكما أن وجود اليهود والنصارى قد يؤدي إلى زيادة التوتر ويفسح هوة الخلاف فكذلك وجود الفوارق يؤدي إلى تلك النتيجة وزيادة.

لهذا كان لزاماً على عمر أن يتخذ الخطوات الإيجابية لإزالة الفوارق والقضاء على أسبابها حتى تتحد القلوب، وتجتمع المشاعر، وتظهر الدولة الفتية في صورة ترهب أعداءها وتحول بينهم وبين التفكير في الاعتداء عليها.

واتخذ عمر ـ رضي الله عنه ـ تلك الخطوة الجريئة التي أوهمت في ظاهرها مخالفته لسياسة الصدِّيق، وتلك هي الأمر برد سبايا أهل الردة حتى يشعر العرب جميعاً أنهم أمام شريعة الله سواء، وأنه لا فضل لقبيلة على قبيلة إلّا بحسن بلائها وما تقدمه من خدمات للإسلام والمسلمين.

وتلت تلك الخطوة خطوة أخرى وهي السماح لمن ظهرت توبتهم من أهل الردة بالاشتراك في الحروب ضد أعداء الإسلام.

وكان الخليفة السابق قد منع هؤلاء من الاشتراك في تلك الحروب عقوبة لهم أولاً وخوفاً من انحيازهم إلى أعداء الإسلام ثانياً، فلما زالت المخاوف بصدق توبتهم، وأصبحت الدولة في حاجة إلى خدماتهم في مواجهة أعدائها، أمر عمر برفع ذلك الحظر عنهم والاستفادة من خبراتهم العسكرية، وقد أثبتوا شجاعة في الحرب، وصبراً عند اللقاء، ووفاء للدولة لا يعدله وفاء.

وهناك خطوة هامة ينبغي لمن أراد إقامة الوحدة في شبه الجزيرة ألّا

يغفلها، ولم تغب تلك الخطوة عن ذهن عمر عبقري السياسة في تلك الفترة من الزمان، فاتخذها على الفور بعد أن أدرك أن الوحدة التي ينشدها لا تستقيم بدونها، فأمر باتخاذ هجرة الرسول ﷺ موعداً للتاريخ الإسلامي، وألزم المسلمين في أنحاء الجزيرة المختلفة، بل وفي أطراف الدولة المترامية ألا يؤرخوا إلّا بالهجرة وعندئذ تظهر وحدة العقيدة بوجود دين واحد، ووحدة الأمة بإزالة الفوارق، ووحدة الاتجاه باتخاذ تاريخ واحد، وهكذا أحدث عمر وحدة سياسة بكل ما تحمله الكلمة من معنى في شبه الجزيرة، واستطاع أن يواجه عدوه وهو واثق من النصر.

جـ ـ مصادر دخل الدولة:

كانت مصادر الدخل في عهد الرسول ﷺ وفي عهد الخليفة الأول مقتصرة على الزكاة والغنائم والجزية، وما يعثر عليه من مخبآت الجاهلية، أما في عهد عمر فقد تعددت مصادر الدخل تبعاً لاتساع رقعة الأرض بالفتوحات العظيمة التي قام بها المسلمون، فوجد لدى الدولة أراض فتحها المسلمون عنوة، وفرضوا عليها نوعاً من المال عرف بالخراج، وأصبح التجار غير المسلمين يتنقلون في البلاد الإسلامية يعرضون تجارتهم للبيع، ويتاجرون في بلاد المسلمين، وقد فرض على هؤلاء التجار نوع من المال عرف بالعشر، وبذلك أصبحت مصادر الدخل في الدولة الإسلامية كما يأتي:

١ ـ **الزكاة**: وهي ركن من أركان الإسلام أوجبه الله على كل مسلم يملك النصاب ويحول عليه الحول، وتؤخذ من الأصناف الآتية:

أ ـ الذهب والفضة.
ب ـ عروض التجارة.
ج ـ سائمة الإبل والبقر والغنم.
د ـ ما خرج من الأرض من الزرع الذي يتمول.

ولكل واحد من هذه الأربعة حصة معينة ونصيب محدد يطلب في مظانه بشروطه.

٢ ـ **الغنائم**: وهي ما أفاء الله على المسلمين من أموال الكفار وكان نصيب

الدولة منه الخمس، ويقسم الباقي على المجاهدين وهو أربعة أخماس الغنيمة.

٣ ـ **الجزية**: وهي حصة من المال تؤخذ على رؤوس أهل الكتاب الذين أصروا على البقاء على دينهم، ويترك تقديرها للإمام يقدرها بحسب حال من تفرض عليه من اليسار والتوسط والفقر، وتؤخذ منهم الجزية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، ولا تؤخذ من الصبي ولا من المرأة ولا من الشيخ الكبير ولا من المعـدم.

٤ ـ **الخراج**: وهو مقدار معين من المال أو الحاصلات يفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة ولم يقسمها الخليفة بين الفاتحين بل أوقفها على المصالح العامة.

٥ ـ **العشور**: وهي مقدار من المال يفرض على التجارة التي يقدم بهـا أصحابها من الكفار إلى بلاد المسلمين للإتجار فيها وتكون بنسبة العشر من التجارة ويجوز للإمام أن يخفضها إلى نصف العشر أو يرفعها عنهم إذا رأى المصلحة في ذلك.

د ـ بيت المال وتدوين الدواوين:

زاد دخل الدولة في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ زيادة عظيمة مما اضطر الخليفة إلى التفكير في مصير هذه الأموال كيف يحفظها؟ وكيف يضبط دخل الدولة ونفقاتها؟ وكيف يوزع هذه الأموال على مستحقيها؟.

شغل عمر بالتفكير في هذا الموضوع كثيراً، ثم صادف أن جاءه مال عظيم من البحرين يقدر بخمسمائة ألف درهم، فقال عمر للناس: إنه قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم أن نعده لكم عداً، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين، إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً يعطون الناس عليه، فدون الديوان[١].

---

(١) البلاذري ص ٤٤٠، أبو يوسف ص ٤٥ الخراج.

وكان ذلك في المحرم سنة عشرين من الهجرة وصنف الناس على قدر درجاتهم ومنازلهم وبدأ ببني هاشم رهط رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب وكان الذين تولوا تصنيف الناس على هذا النحو عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من نساب قريش، وبعد أن انتهوا من بني هاشم بدأوا بآل أبي بكر ثم بآل عمر على الخلافة[1].

واضطر عمر أن يتخذ بيت مال يجمع فيه أموال الدولة خوفاً من الضياع فأنشأه على غير سابقة لأن الأموال في عهد رسول الله وأبي بكر كانت توزع على المسلمين فور وصولها، فلم يكن هناك حاجة لإنشاء بيت مال للدولة، وكما خصص لكل ولاية ديواناً، خصص لكل ولاية قاضياً، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية ليعطي للقضاة حرية النظرِ والفصل في القضايا ولو كانت ضد الخليفة.

وهكذا امتدت يد عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى جميعِ مرافق الدولة بالإصلاح والتطوير والإنشاء، والتجديد حتى أقام نظاماً كاملاً لدولة ليس لها ماضٍ ترجع إليه، وكانت بعد مضرب الأمثال في العدل والنظام وحسن السياسة، كما كانت مضرب الأمثال في القدرة على استيعاب حضارة الأمم السالفة وصبغها بالصبغة الإسلامية الخالصة، ثم هي فوق ذلك كله الدولة الوحيدة التي جمعت بين حضارة الفرس والروم، وحكمت الرقعة الفسيحة التي كانت تحكمها الدولتان الكبيرتان في تلك الفترة من الزمان، واستثمرت كنوزهما بشكل مكنها من سيادة العالم وتدبير سياسته على نحوٍ لم تسبق إليه فكانت بحق أمة قرآنية فريدة.

سياسته الخارجية:

اتسمت سياسة عمر ـ رضي الله عنه ـ الخارجية بالحرص على نشر الدعوة، فقد كان شغله الشاغل أن يعم الإسلام الأرض من أقطارها المتباعدة، إنه كان يشعر بأن حرمان أمة ما من الدخول في الإسلام مهما نأت

---

(١) البلاذري ص ٤٣٦.

أرضها وشط مزارها مسؤولية سيحاسب عليها بين يدي الله ـ عز وجل ـ وكان هذا الشعور يقلقه كثيراً، ويزعجه كثيراً، ويعكر عليه صفو حياته.

إن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يحس بثقل التبعة، وكان يتمنى لو أنه استطاع أن يرى الأرض كلها مسلمة تدين بالتوحيد، وتؤمن بالإسلام، وتحكم شريعة الله، فكان يفكر كثيراً في الوسيلة التي تبلغه تلك الغاية، لقد كان يؤمن بأن رسالة الإسلام للناس جميعاً الأبيض منهم والأسود، والعربي والعجمي على حد سواء، فلماذا يقف بها عند حدود الجزيرة العربية؟ لماذا لا يطرق بها بلاد الأكاسرة، ويدق بها أبواب القياصرة، ويسيِّر بها الدعاة في السهل والجبل والبوادي والحضر؟

إن الخليفة الأول قد فتح له هذا الباب، ومن قبله الرسول ﷺ قد مهد الطريق، وأرسل جيشاً إلى مؤته ثم إلى تبوك، فلماذا لا يستمر في تنفيذ تلك السياسة، ويسير على هَدْيِ صاحبيه؟

وعلى هذا الهدي رسم عمر بن الخطاب سياسته الخارجية، فعبأ المسلمين للجهاد، وسير الجيوش تلو الجيوش تحمل الهُدى والخير، وتدعوا إلى السعادة والرشد، وإننا لنرى ذلك واضحاً في وصيته لسعد بن أبي وقاص حين اختاره قائداً لجيوش المسلمين في معركة القادسية، يقول عمر: (يا سعد سعد بن وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله، فإن الله ـ عز وجل ـ لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلاّ طاعة، فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ يلزمه فالزمه، وعليك بالصبر[١].

وخرجت الجيوش من المدينة عاصمة الإسلام الأولى بعد أن زودت بالنصائح التى كان عمر يرى أنها المنهاج القويم للجيش الذي يحمل رسالة

---

(١) الطبري (٤٨٣/٣).

السماء، إن مهمته الأولى هي الدعوة إلى الله، وهداية الناس إلى الخير، ونشر دين الله في ربوع العالمين.

لهذا كانت مهمة هذه الجيوش دعوة الناس إلى الإسلام فإن أجابوا كفوا عنهم وصاروا إخواناً لهم، وإن أبوا طالبوهم بدفع الجزية تحقيقاً لولائهم للمسلمين فإن أجابوا كانوا في ذمة المسلمين وعلى المسلمين حمايتهم والزود عنهم، وإن أبوا فهم أعداء محاربون لا بد من القضاء عليهم قبل أن يقضوا هم على المسلمين.

هكذا وبهذا الترتيب الحكيم كانت تزود الجيوش الإسلامية قبل أن تخرج من المدينة، لأن الجيوش التي تحرص على تعميم الخير، ودعوة الناس إليه لا يكون فتحها من أجل التوسع في الأرض، ولا من أجل استغلال خيرات البلاد، ولا من أجل استعباد العباد، بل يكون من أجل الهداية والرشاد.

وإن المناقشة التي دارت بين المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - وبين رستم قائد الفرس في غزوة القادسية لتعطي أوضح دليل على ذلك، لقد سأل رستم المغيرة بعد مناقشة طويلة قال: (أرأيتم لو دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟ قال المغيرة: أي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلّا في تجارة أو حاجة)[1].

تلك هي سياسة عمر الخارجية وسنرى نماذج منها فيما يلي:

نماذج من الفتوحات:

القادسية مدينة في العراق تقع في الجنوب الغربي من بغداد، وفي الجنوب من النجف والغرب من الكوفة، وتعتبر القادسية باب العراق العربي، ومن أجل هذا كان اهتمام المسلمين بفتحها، لأن من يسيطر عليها يفتح له العراق ذراعيه، ولا تكون أمامه عقبة في الإستيلاء عليه.

---

(١) ابن كثير (٧/ ٣٩).

كان عمر ـ رضي الله عنه ـ كما ذكرت قبل مهتماً بتنفيذ وصية أبي بكر في استنفار الناس للذهاب إلى العراق حيث يوجد جيش المثنى بن حارثة الشيباني، وكان المثنى قد وصل إلى المدينة في آخر عهد أبي بكر يستمده ويخبره بأحوال المسلمين في بلاد الفرس، ولكن الخليفة كان في مرض الموت فأحضر عمر وأوصاه باستنفار الناس وإلحاقهم بجيش المثنى.

واستنفر عمر المسلمين، وجهز جيشاً بقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفي، وكتب إلى المثنى أن ينضم بجيشه إلى أبي عبيد، وبعث عمر مع أبي عبيد سليط بن قيس الأنصاري، والتفت عمر إلى أبي عبيد وقال له: (قد بعثت معك رجلاً هو أفضل منك إسلاماً فاقبل مشورته) ونظر إلى سليط وقال له: (لولا أنك رجل عجل في الحرب لوليتك هذا الجيش، والحرب لا يصلح لها إلاّ الرجل المكيث)[1].

وقعة الجسر:

سار أبو عبيد بالجيش نحو الحيرة يستنفر كل من يمر به من أحياء العرب، وانضم إليه منهم جماعات، وظل يمشي حتى بلغ قس الناطف، وهناك التقى بالمثنى حيث استقبله بجيشه وانضم تحت رايته حسب توجيه أمير المؤمنين.

وسار بالجيش حتى وصل إلى مكان يقال له النمارق، والتقى بجيش الفرس وهزمهم هزيمة منكرة وغنم منهم غنائم كثيرة بعث بخمسها إلى المدينة، وواصل مسيرته، فلما وصل باروسما وكان قد بلغه أن الروم أعدوا حامية لها عاجلها أبو عبيد بالقتال قبل أن تصلها الحامية فأوقع بالفرس وهزمهم وهرب الفرس وفر نرس والجالينوس نحو المدائن[2] وتقدم أبو عبيد نحو الحيرة.

فزع رستم لهذه الهزائم المتوالية فجهز جيشاً عظيماً بقيادة بهمن

---

(١) الدنيوري ص ١١٣ الأخبار الطوال.
(٢) ابن كثير (٢٧/٧).

المعروف بذي الحاجب وسار بهمن بجيش الفرس حتى نزل بقس الناطف، ونزل أبو عبيد بالمروحة، ورأت دومة زوجة أبي عبيد أن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب، فشرب أبو عبيد، وشرب معه أناس من جيشه، فلما أصبحت أخبرت أبا عبيد فأولها الشهادة، وعهد إلى الناس وجعل الأمراء بعده من النفر الذين شربوا مما شرب منه وجعل، الإمارة بعدهم إلى المثنى ابن حارثة.

وفصل بين الجيش النهر المعروف بالفرات وكان عليه جسر، فأرسل قائد الفرس إلى المسلمين إما أن تعبروا إلينا ونخلي بينكم وبين العبور، وإما أن تدعونا نعبر إليكم[1].

ونصح المسلمون أبا عبيد بعدم العبور، وقال له المثنى: (أيها الأمير، لا تقطع هذه اللجة فتجعل نفسك ومن معك غرضاً لأهل فارس) ولكن أبا عبيد كان لا يزال في نشوة النصر، وكانت انتصاراته السابقة قد أغرته بالعبور فترك تريثه الذي من أجله قدمه عمر على سليط بن قيس، ونسي أن الحرب لا يصلح لها إلاّ الرجل المكيث، فنظر إلى المثنى مزهواً بانتصاره، مدلاً بشجاعته وقال: (جبنت يا أخا بكر)[2] وعبر إلى الفرس دون أن يعبأ بنصح الناصحين، وولى أبا محجن الثقفي على الخيل، ووقف هو على القلب ودارت بين الفريقين معركة رهيبة كان أبو عبيد ـ رحمه الله ـ أول شهيد فيها واستشهد الأمراء بعده، وكلهم قتلهم الفيل يضربهم بيده ثم يطؤهم حتى يقضي عليهم، واستشهد سبعة من رجال ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويحارب به حتى يموت[3].

ثم أخذ اللواء المثنى بن حارثة، وصمد به في وجه العدو، ولكن الناس قد ضجروا وضعفت عزائمهم ففروا عن المثنى، ورأى عبدالله ابن مرشد الثقفي فرار الناس فخشي العاقبة وهاله الموقف، فعمد إلى الجسر

---

(١) ابن الأثير (٢/٤٣٨).

(٢) الدينوري ص ١١٣.

(٣) ابن الأثير (٢/٤٣٩).

فقطعه، وقال للناس: (موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا) وحمى المثنى بن حارثة وقد رأى الفرس يهجمون على المسلمين هجمة شرسة، ورأى المسلمين يتساقطون في النهر ومن صبر منهم تنهشه سيوف العدو فقال ومعه جماعة من فرسان المسلمين: أنا دونكم فاعبروا على هينتكم، ولا تدهشوا ولا تغرقوا أنفسكم[1].

وقال المثنى لعروة بن زيد الخيل الطائي: (انطلق إلى الجسر، فقف عليه، وخل بين العجم وبينه)، وجعل المثنى يقاتل من وراء الناس، ويحميهم حتى عبروا، وكان أبرز من قتل عند الجسر سليط بن قيس، واستشهد من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقي ثلاثة آلاف[2]، وقتل من الفرس ستة آلاف، وكان بين وقعتي الجسر واليرموك أربعون ليلة كانت اليرموك في جمادي الآخرة والجسر في شعبان[3].

معركة البويب:

البويب مغيض متفرع من الفرات، وقعت عنده معركة بين المسلمين والفرس عرفت باسمه، كانت تلك المعركة في رمضان سنة ثلاث عشرة من التاريخ، وكان بينها وبين موقعة الجسر شهر يقل قليلاً أو يزيد قليلاً.

كانت موقعة الجسر قد هزت نفس عمر هزاً عنيفاً، وكان الذين فروا من المعركة لا تكفكف دموعهم ندماً على ما فرط منهم، وكانوا كلما قرأوا قوله - تعالى -: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المصير﴾[4]، يبكون بل كانوا كلما ذكروا إخوانهم الذين أكرمهم الله بالشهادة يوم الجسر تقطعت قلوبهم حسرات على ما كان من حرمانهم منها.

---

(١) ابن الأثير (٢/٤٣٩).
(٢) الطبري (٣/٤٥٨).
(٣) الطبري (٣/٤٥٥).
(٤) الطبري (٣/٤٥٩) والآية من سورة الأنفال.

كانت هذه العوامل كلها دافعاً قوياً للمثنى لأن يفكر في استرداد هيبة المسلمين في العـراق وكان عليه أن يحمل هذا العبء فهو آخر قواد المعركة، وقد نجاه الله ليثأر لإخوانه ويستعيد كرامة المسلمين، فكتب إلى عمر يستمده ويستحثه.

ولم يكن عمر بأقل حماساً من المثنى لذلك الأمر، إن الفرس إذا لم يلاحقوا طمعوا، وما لم يشغلوا هجموا، وإن هذه الآلاف من المسلمين في العراق يتعرضون كل يوم يمر بهم لمثل غارة الفرس يوم الجسر، وإذا لم تكن هناك معركة تردع الفرس، وتوقف زحفهم وتحطم كبرياءهم، سيستمرون على استخفافهم بالمسلمين، ويوالون غاراتهم على جيوشهم حتى يخرجوهم من بلاد الفرس بعد ما بذلوا فيها من النفوس الغالية والدماء الذكية والأرواح الطاهرة.

لهذا استنفر عمر المسلمين، وخف المسلمون لملاقاة عدوهم العنيد طمعاً فيما عند الله من الأجر، ورجاء ما يصيبون في الدنيا من المغانم، فأقبل الناس على المدينة من كل ناحية، وأخذ عمر ـ رضي الله عنه ـ يلحقهم بالمثنى جماعات جماعات، وعلى رأس كل جماعة قائد من رؤسائهم، حتى اجتمع لدى المثنى جيش عظيم، وراح المثنى كلما سمع بقادم بعث إليه موعدكم البويب[1].

وقف جيش المسلمين على شاطىء البويب الشرقي، والمثنى يستقبل الجيوش القادمة من المدينة وسمع الفرس بذلك فاستخفوا بالمسلمين، ولم يدر بخلدهم أن المسلمين قد حربوا، ولم يظنوا إلاّ أنها ستكون مثل موقعة الجسـر، واختاروا مهـران ليكون قـائد قـواتهم وهو من فـرسان الفـرس وشجعانهم، وعسكر مهران وجيشه الكثيف على شاطىء الفرات الغربي بإزاء المسلمين.

وكاتب مهران المثنى إما أن تعبر إلينا أو نعبر إليكم، وأجابه المثنى بل اعبروا، وعبر مهران وجيشه، واجتمع الجيشان على شاطىء الفرات الشرقي

---

(١) الطبري (٣/٤٦١).

في المكان المعروف بالبويب وطلع المثنى على المسلمين راكباً فرسه الشموس، وطاف بالجيش، وعبى جنوده، فجعل على المجنبتين بشير ابن الخصاصية وبسر بن أبي رهم، وعلى المجردة المعنى أخاه، وعلى الرجالة أخاه مسعوداً، وعلى الردء مذعوراً، وعبأ مهران جيشه، وخرج به في ثلاثة صفوف مع كل صف فيل والرجالة أمام الفيلة، وأحدثوا أصواتاً مزعجة، فقال المثنى للمسلمين: (إن الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت)[1].

ونبه المثنى المسلمين إلى أنهم صائمون، ولفت أنظارهم إلى ما يحدثه الصيام في الإنسان من الضعف، واقترح عليهم أن يفطروا ليتقووا بذلك على قتال عدوهم فأفطروا[2].

ووقف المثنى على الرايات يحثهم على القتال، وكلما مر براية قال لأصحابها: إني لأرجو ألا يؤتى الناس من قبلكم اليوم، والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلّا وهو يسرني لعامتكم، ثم قال: إني مكبر ثلاثاً فتهيأوا ثم احملوا في الرابعة[3].

ولم يكد المثنى يكبر التكبيرة الأولى حتى بادر الفرس بالقتال، وشدوا على المسلمين شدة عنيفة اختلت منها صفوف بني عجل من المسلمين، وخاف المثنى أثر هذا الاختلال فأرسل إليهم رجلاً يقول لهم: الأمير يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم: لا تفضحوا المسلمين اليوم، فاعتدل القوم، وأبلوا بلاء حسناً وفرح بذلك المثنى حتى ضحك[4].

ودارت المعركة عنيفة بين الفريقين، واشتد أوارها، وأخذت تتأرجح حيناً مع المسلمين وحيناً عليهم، وخشي المثنّى أن تطول المعركة ويضعف المسلمون أو يصيبهم الوهن، ففكر وفكر، وتأكد أن المعركة لا تحسم إلّا إذا

---

(١) ابن الأثير (٢/٤٤٢).
(٢) الطبري (٣/٤٦١).
(٣) ابن الأثير (٢/٤٤٢، ٤٤٣).
(٤) الطبري (٣/٤٦٥، ٤٦٦).

هزم قائدها، فعزم على أن يحمل عليه مهما كلفه ذلك، وأن يحسم المعركة بضربة خاطفة، وهنا عمد المثنى إلى رجلين من العرب ولكنهما على دين النصرانية، فحثهما على القتال معه حمية، وأثار فيهما النخوة العربية، وقال لهما: إني حامل على مهران فإذا رأيتماني أحمل عليه فاحملا معي[1].

وحمل المثنى على مهران حملة صدق فيها الله، فأزال مهران عن مكانه وتأخر القلب متقهقراً، واختلط الجيشان، وثار الغبار، فلم يعرف كل فريق لمن الغلبة، وظل المسلمون يشددون الهجوم؛ وظل الفرس يتقهقرون، وأصيب مسعود بن حارثة قائد المشاة وأخو المثنى بجراح أثبتته. وبقي فيه رمق، وخشي أن يوهن مصرعه الجيش فالتفت إليهم وقال: (يا معشر بكر ابن وائل، ارفعوا راياتكم رفعكم الله، لا يهولنكم مصرعي)[2].

وحمي الوطيس، وانتظر المثنى حتى أسفر الغبار. فرأى الهزيمة قد حلت بالعدو، فأخذ يشجع مَن على مجنبتَيّ الجيش ويحثهم على القتال بقوله: عاداتكم في أمثالهم، انصروا الله ينصركم[3].

وانهزم جيش الفرس هزيمة نكراء، وتفرقوا في كل مكان مصعدين ومصوبين، وفروا نحو الجسر يريدون العبور، ويتلمسون النجاة، ولكن المثنى - رحمه الله - كان أسبق منهم فحال بينهم وبين الجسر، وردهم عنه، وأعمل المسلمون سيوفهم في الفارين منهم قتلاً، وأجبر عرفجة بن هرثمة كتيبة من جيش الفرس حتى لم يكن وراءها إلاّ الفرات، يقول عرفجة: ورجوت أن يكون الله - تعالى - قد أذِنَ في غرقهم وسلى عنا مصيبة الجسر، فلما دخلوا في حد الإحراج كسروا علينا، فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى قال بعض قومي: لو أخرت رايتك! فقلت: عليَّ تقديمها، وحملت بها على حاميتهم فقتلته، ففروا نحو الفرات، فما بلغه أحد منهم فيه روح[4].

---

(١) نفسه.
(٢) هيكل ص ١١٦.
(٣) الطبري (٣/٤٦٧).
(٤) الطبري (٣/٤٦٨).

وتتبع المسلمون الفرس إلى الليل وهم يتخبطون لا يدرون ماذا يصنعون، وسيوف المسلمين تنهشهم نهشاً، فلما كان الصباح تتبعوهم كذلك حتى أمسوا وقتلوا منهم زهاء مائة ألف قتيل(١).

وندم المثنى على منعه جيش الفرس من العبور وقال: لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه، حتى أحرجتهم، فإني غير عائد، فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فإنها كانت مني زلة، لا ينبغي إحراج أحد إلّا من يقوى على الامتناع.

وصلى المثنى على شهداء البويب، وقدمهم على الأسنان والقرآن، وقال: والله إنه ليهون على وجدي أن شهدوا البويب، أقدموا وصبروا، ولم يجزعوا ولم ينكلوا، وإن كان في الشهادة كفارة لتجوز الذنوب(٢).

وانتدب المثنى جماعة من المسلمين ليتعقبوا المجوس وهم فارون حتى يوقعوا الرعب في قلوب أهل فارس، ومال إلى رجل كان قد حاول الخروج من الصف قبل بداية المعركة مستقتلاً ليهجم على العدو وقال له المثنى: أين المستبسل بالأمس وأصحابه؟ انتدبوا في آثار هؤلاء القوم إلى السيب، وأبلغوا من عدوكم ما تغيظونهم به، فهو خير لكم وأعظم أجراً، واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم(٣).

وأمر المثنى أن يعقد لهم الجسر فعبروا عليه، وخرج جميع من كان قد حضر يوم الجسر يطلب القوم أو الشهادة لعله يكفر عما كان منه يوم الجسر.

وغنم المسلمون غنائم عظيمة حيث أصابوا بقراً وغنماً ودقيقاً وسبياً، فقسمه المثنى بينهم ونفل أهل البلاء، وأعطى بجيلة ربع الخمس بينهم بالسوية كما شرط لهم الخليفة.

وكتب قواد المتتبعين إلى المثنى (إن الله ـ عز وجل ـ قد سلم وكفى،

---

(١) الطبري (٣/٤٦٧)، وابن الأثير (٢/٤٤٤).
(٢) ابن الأثير (٢/٤٤٤)، الطبري (٣/٤٦٩).
(٣) الطبري (٣/٤٦٩).

ووجه لنا ما رأيت وليس دون القوم شيء، أفتأذن لنا في الإقدام؟ فأذن لهم، فأغاروا على الفرس حتى بلغوا ساباط)[1].

وهكذا كانت تلك المعركة اقتصاصاً عادلاً من هؤلاء الذين غرروا بالمسلمين، ونالوا منهم، وهي في الوقت نفسه إعلان عن قوة المسلمين، واسترجاع لما فقدوه من الهيبة في نفوس المشركين، وإعادة للروح المعنوية على أعلى درجة في قلوب المؤمنين، حيث تأكدوا أن هزيمة يوم الجسر كانت جولة بسبب ما ارتكبه قائدها من الأخذ برأيه وترك آراء مستشاريه، فارتفعت معنويات المسلمين، وخارت قوى الفارسيين وقد عبر عن ذلك رستم والفيرزان قائدا الفرس العظيمان حينما سألتهما يوران ابنة كسرى وصاحبة العرش يومئذ قالت: ما بال أهل فارس لا يخرجون إلى العرب كما كانوا يخرجون قبل اليوم؟ ومالكما لا تبعثان كما كانت الملوك تبعث قبل اليوم؟.

فأجاباها: إن الهيبة كانت مع عدونا يومئذ، وأنها فينا اليوم[2].

وأحب قبل أن أنهي الحديث عن تلك المعركة أن أسجل هنا رأياً للدكتور محمد حسين هيكل ما أراه إلّا أنه جانب فيه الصواب مما اضطرني إلى التنبيه عليه حتى لا يتورط فيه من لا يدرك مغزاه ذلك هو قوله: (إن الحرب في العراق لم تكن حرباً صليبية، ولا حرباً إسلامية، وإن الدين لم يكن هو الذي أثارها، وإنما أثارها حرص العرب على التخلص من الغير الأجنبي الذي ركبهم قروناً طويلة، وأن يكون الجيش العربي وحدة سياسية أينما كانت منازله... ثم يقول: والاعتبارات التي أثارت الحرب في العراق هي التي أثارت الحرب في االشام، أما الفتح لنشر الإسلام بالسيف فلم يدر بخاطر أبي بكر ولا بخاطر عمر، وإن دار بخاطرهما أن تكون الدعوة إلى الإسلام حرة لا يقف في سبيلها عائق من العوائق[3].

---

(١) نفسه ص ٤٧٠.
(٢) الطبري (٣/٤٦٤).
(٣) هيكل ص ١١٨.

إن عبارات الدكتور هيكل تعطي مدلولاً واحداً لا يقبل الشك أو الشركة، وهو أنه يريد أن يجعل هذه المعارك التي ضحى فيها المسلمون بخيرة رجالهم، وفقدوا فيها كبار قوادهم في سبيل القومية العربية لا في سبيل الإسلام، وهذا المعنى الذي مال إليه كل الميل، وحاول أن يجعله قضية مسلمة لا ينبغي أن يكون للجدل مجال فيها حتى قال: «أحسب الأمر واضحاً فلا سبيل إلى الريبة فيه» هذا المعنى ليس للكاتب عليه دليل إلا فهماً فهمه جاوز فيه كل دلالات النصوص التي ذكرها هو بنفسه في كتابه الذي أثار فيه تلك المشكلة.

إن تصريحات القواد المسلمين في تلك المعركة واضحة في أنها حرب إسلامية من أجل إعلاء كلمة الله: إن المثنى لما رأى خللاً في بعض صفوف الجيش بعث إليهم يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام، ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم[1].

إنني أعتقد أن الحرب لو كانت من أجل العرب كما يدعي الكاتب لأثار القائد فيهم النعرة العربية، ولقال: لا تفضحوا العرب بدلاً من قوله: لا تفضحوا المسلمين.

والقائد نفسه يقول وهو يحرض المؤمنين على القتال: عاداتكم مع أمثالهم، انصروا الله ينصركم[2] فهل الذين يقاتلون من أجل القومية ينصرون الله أم ينصرون عصبية قبيحة نهى عنها الإسلام، وقال فيها رسول الله ﷺ: «ذروها فإنها منتنة». وترى قائداً آخر وهو جرير بن عبدالله البجلي يخطب في قومه بجيلة يحرضهم على القتال في المعركة نفسها فيقول: (فلا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ولا أشد عليه منكم...). ثم يقول: (فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين: الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة)[3].

---

(١) الطبري (٣/٤٦٥ ـ ٤٦٦).
(٢) هيكل ص ١١٥، الطبري (٤٦٧/٣).
(٣) الطبري (٤٦٩/٣).

من المعلوم أن الذين يقاتلون في سبيل القومية لا تخطر ببالهم كلمة الجنة ناهيك عن اعتبارها ثواباً عظيماً على ما يقدمه من البذل والتضحية، وإنما الذين يقاتلون في سبيل القومية ينتظرون تقدير الوطن وإعجاب سكانه بما بذلوا من التضحيات.

إن الإسلام الذي لا يفضل العربي على العجمي، ولا يقدم الشريف على الضعيف إلا بقدر ما يقدم الإنسان في سبيله من البر والتقوى وعمل الصالحات، لا يمكن أن يحارب ويريق دماء أبنائه ويقدم أرواحهم هدية رخيصة لوطن أو جنس، وإنما يكون ميزانه في ذلك قول عمر لسعد: (فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة)[1] بهذا وأمثاله يندفع رأي الكاتب، ولا يكاد يثبت أمام هذه البراهين، وبذلك يثبت أن الحرب في الإسلام لإعلاء كلمة الله، وإزالة العقبات عن طريق الدعاة.

---

(١) الطبري (٤٨٣/٣)، هيكل ص ١٤٢.

(القادسية)

وقعت انتصارات المسلمين في البويب في نفوس الفرس موقعاً حطم كبرياءهم، وأرغم أنوفهم وألقى الرعب في قلوبهم فانفتحت بلادهم أمام المسلمين، وتوالت الهزائم على جيوشهم التي انهزمت نفسياً بعد هزيمة البويب الساحقة.

ولما رأى سويد بن قطبة ما نزل بالفرس من الهزائم على يد المثنى وجيشه طمع في الناحية التي يقيم فيها، وكانت هزائم الفرس المتوالية قد بلغت كل أنحاء فارس فمكنت للمسلمين ومهدت لهم الطريق ليتقدموا بجيوشهم، لهذا كتب سويد بن قطبة إلى عمر يخبره بضعف الناحية التي يقيم فيها وبما أصاب أهلها من الخور والوهن لانتصار المسلمين، وطالب من أمير المؤمنين أن يمده بجيش يستعين به على فتح ما في جهته من البلاد.

وفرح عمر لما أصاب الفرس من الوهن وجهز جيشاً من ألفي رجل بقيادة عتبة بن غزوان وسيره إلى العراق وأوصاه بقوله: (يا عتبة، إن إخوانك من المسلمين، قد غلبوا على الحيرة وما يليها، وعبرت خيولهم الفرات حتى وطئت بابل، مدينة هاروت وماروت ومنازل الجبارين وأن خيلهم اليوم لتغير حتى تشارف المدائن، وقد بعثتك في هذا الجيش، فاقصد قصد أهل الأهواز، فاشغل أهل تلك الناحية أن يمدوا أصحابهم بناحية السواد على إخوانكم الذين هناك، وقاتلهم مما يلي الأبلّة)[1].

(١) الدينوري ص ١١٦.

وإننا لنلمح عبقرية عمر العسكرية من خلال تلك الوصية، إن المسلمين متفوقون من ناحية الحيرة وأن جيوشهم تجد في سيرها وتطأ كل ما يقابلها من بلاد فارس، ولكن هذا التقدم قد يشكل خطراً على المسلمين إذا تنبه الفرس واستمدوا قواتهم من جهة الأهواز.

إن تقدم القوات الإسلامية كان متجهاً إلى الشمال، فإذا فاجأتهم قوات الفرس من الجنوب من ناحية الأهواز والأبلة أحكمت عليهم قبضتها، وحالت بينهم وبين الإمدادات التي تعينهم على فك ذلك الحصار، فكان لا بد من شغل قوات الجنوب حتى لا تتمكن من إمداد قوات الشمال بما يعرض المسلمين للخطر، ويهدد حياتهم، وينذرهم بالفناء.

وهذا من جانب آخر يدل على وقوف عمر على خريطة البلاد، ومعرفته بنواحيها المختلفة وذلك شأن كل أمير يعنيه انتصار قواته، فيتخذ كل الاحتياطات التي يترتب عليها سلامة جيشه، وتضمن لهم سلامة خطوط العودة وأمانها.

استمع عتبة إلى نصيحة الخليفة ووعاها وصمم على العمل بها، واتجه نحو «الأبلة» فافتتحها عنوة، وكتب بالنصر إلى عمر فاستبشر المسلمون بذلك، وتابع عتبة سيره إلى إقليم خوزستان ففتح «المذار» وقتل مرزبانها، واقترب بذلك من الحيرة، ثم ارتد إلى «فرات البصرة» فافتتحها، واتجه نحو الشرق ففتح «دست ميسان» ودخل المدينة لا يحول بينه وبينها شيء ومن هنا اتجه إلى «أبرقباذ» ففتحها وهو في طريقه إلى البصرة.

استقر عتبة في البصرة بعد أن ذلل الجنوب والجنوب الشرقي، وحمى بذلك ظهر المسلمين المتقدمين نحو الشمال، وكتب إلى عمر بما فتح الله به على المسلمين وأستأذنه في الخروج والعودة إلى المدينة، فأذن له عمر، واستخلف عتبة المغيرة بن شعبة على البصرة وقاد المغيرة جيوش المسلمين بعد عتبة، وفتح الله على يديه «ميسان».

موقف الفرس من هذه الهزائم:

روعت هذه الهزائم رجال الفرس، فتشاوروا في أمرهم، ونظروا في كل الوجوه، وبحثوا أسباب تلك الهزائم، فزعموا أنهم إنما أصيبوا بذلك بسبب توليتهم النساء عليهم، وكانت أزرميدخت هي ملكتهم في تلك الفترة، فعزموا على تنحيتها واجتمعوا على يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز، فولوه أمرهم، وهو يومئذ لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، والتف حول أزرميدخت بعض الرجال، وتحارب الفريقان، فكان النصر ليـزدجرد[1]. وتجري رواية أخرى بأن الفرس بعد دراسة أحوالهم وقفوا على السبب الحقيقي في تلك الهزائم في زعمهم وهو اختلاف قوادهم وتفرقهم.

ويبدو أن النزاع على السلطة كان على أشده بين رجلي فارس في تلك الفترة: رستم والفيرزان، وقد التف حول كل منهما فريق من الناس، وقد بلغ الخلاف بينهما حداً جعل بهمن قائد الفرس في موقعة الجسر لا يستطيع مطاردة المسلمين والقضاء على البقية الباقية من جيشهم فكان خلافهم من لطف الله بالمسلمين.

ثم كانت الهزائم المتوالية بعد موقعة الجسر، ومخر المسلمون سواد العراق حتى وصلوا ساباط وتكريت، وعندئذ قال أهل فارس لرستم والفيرزان: أين يذهب بكم؟ لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس، وأطمعتما فيهم عدوهم، ولم يبلغ من أمركما أن نقركما على هذا الرأي وأن تعرضانا للهلكة، ما بعد بغداد وساباط وتكريت المدائن، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت، ثم نهلك وقد اشتفينا منكما[2].

كان لهذا الموقف من رجال فارس أثره في نفس رستم والفيرزان وقد رأيا من القوم حزماً لم يرياه من قبل، وصراحة لم يواجها بها من أحد، وعزماً على الانتقام لم يسمعاه من قبل فعلما أن الأمر لا يحتمل فوق ذلك شيئاً،

---

(١) الدينوري ص ١١٩.

(٢) ابن الأثير (٢/٣٠٨).

وبحثاً عن مخرج لتلك الأزمة التي تهدد حياتهما. فقالا لبوران بنت كسرى التي كانت تحكمهم في تلك الفترة اكتبي لنا أسماء نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم ففعلت، فأرسل القائدان في طلبهن، ولم يتركا امرأة إلا أحضروها واستدلوا منها على ولد من أبناء كسرى فلم يوجد أحد، ثم قالت إحداهن: لم يبق من ولد كسرى إلا غلام يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى، وأمه من أهل بادوريا، فأحضـروه، واجتمعوا عليـه، وتسابق المرازبة والرؤساء في طاعته وخدمته ونشط يزدجرد فجيش أهل فارس، وسمى الجند لكل منطقة، وتحمس أهل فارس، وتمرد سكان السواد على المسلمين، وثاروا عليهم، ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين من العهود وتعرض المسلمون بذلك لخطر عظيم[1].

المسلمون يواجهون الأزمة: كتب المثنى بن حارثة وجرير بن عبدالله البجلي كتاباً إلى عمر أخبراه فيه باجتماع الفرس على يزدجرد، وتحفزهم لقتال المسلمين، وتمرد أهل السواد، وصوروا له حرج الموقف كأنه يراه، فاغتم لذلك عمر، وبعث بكتاب إلى القائدين يرسم لهما الخطة، ويوضح لهما ما ينبغي عليهما اتخاذه في ذلك الموقف فقال: «أما بعد، فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الجد إذ جد العجم، فلتلقوا جدهم بجدكم فنزل المثنى بذي قار، ونزل الناس بالجل وشراف، وتفرق الناس في أمواه المنطقة المختلفة كل قائد وكتيبته على ماء، فكانوا فرقاً قريبة بعضها من بعض، ينظر بعضهم إلى بعض ويغيث بعضهم بعضاً إذا نزلت نازلة أو حزبهم أمر، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة[2].

عمر يحرض المؤمنين على القتال: لم يكتف عمر بذلك الكتاب الذي

---

(١) الطبري (٣/٤٧٧، ٤٧٨).
(٢) الطبري (٣/٤٧١).

بعث به إلى المثنى وجرير وقد رأى في كتابهما خطراً يهدد حياة المسلمين، ويدعو إلى اتخاذ الحيطة والحذر وخاف عمر - رضي الله عنه - أن تتكرر مأساة الجسر، وأن يقع المسلمون في محظور يكون هو سببه، وقد يترتب عليه إعراض المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وتتوقف تلك المرحلة التي ما وصل إليها إلا بعد جهد ووعود.

دار ذلك كله في رأس عمر، وأخذ عليه كل تفكيره، ولكن خطورة الموقف لم تفقده عزمه على مواصلة ما بدأ به في بلاد الفرس، ولم تضعضع من قوته، بل علم أن ما حدث في فارس لا بد أن يكون دافعاً له على إتمام المسيرة فقال: (والله لأرمين ملوك العجم بملوك العرب)[1].

وكتب عمر إلى الأمراء في ذي الحجة سنة ثلاث عشرة: (لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة ولا تدعوا رئيساً ولا ذا رأي وشرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا وجهتموه إليّ)[2].

فجعل رؤساء القبائل والعمال يوجهون الناس وجهتهم فمن كان قريباً من العراق انضم إلى المثنى ومن كان أقرب إلى المدينة جاء إلى المدينة، وجاءت الأمداد إلى عمر تترى، ورمى الفرس بوجوه الناس، وخرج هو بأهل المدينة، ونزل على ماء يعرف بصرار وهو عازم على الخروج بنفسه، وأمر مناديه فنادى في الناس: (الصلاة جامعة، واجتمع الناس ينظرون الخبر فاطلعهم عمر على ما عزم عليه فأما العامة فقالوا: سر وسر بنا معك، وأجابهم عمر، استعدوا وأعدوا فإني ماضٍ بكم إلى العراق أو يظهر رأي هو أرجح من ذلك.

وبعث عمر إلى أهل الرأي وهم مجلس شوراه، وعرض عليهم الرأي فاستقر رأيهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب الرسول ﷺ ويبقى هو في المدينة لأنه أقوى للمسلمين وأنكى للعدو، فإنه إن أصيب انفرط عقد

---

(١) ابن كثير (٧/٣٦).
(٢) ابن الأثير (٢/٣٠٨).

المسلمين، وانكسرت شوكتهم، وطمع فيهم عدوهم اقتنع عمر بهذا الرأي، ووجد فيه مصلحة للمسلمين لا تعدلها مصلحة، فجمع الناس وأطلعهم على ما أشار به عليه أهل الرأي، ولكن الذي شغل بال عمر ـ رضي الله عنه ـ بعد ذلك اختيار القائد الذي يملأ هذا الفراغ، ويسد تلك الثغرة، فسأل المسلمين، من ترون لذلك الأمر؟.

وأجابه عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قد وجدته يا أمير المؤمنين، فقال: من هو؟ قال: الأسد في براثنه سعد بن مالك الزهري، فسر عمر بهذا الاختيار الموفق، فسعد رجل من أصحاب النبي ﷺ وهو شجاع مغوار، ورام ماهر، وله بالحرب خبرة وممارسة، وهو بعد رجل مكيث، وهل يصلح للحرب إلا الرجل المكيث؟.

وبعث عمر إلى سعد وهو على صدقات هوازن بنجد، فحضر سعد إلى المدينة، وولاه عمر أميراً على الجيش المتوجه إلى العراق، وأوصاه فقال: (يا سعد، سعد بني وهيب، لا يغرنك من الله، إن قيل خال رسول الله، وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله ـ عز وجل ـ لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر، هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين)[1].

خرج سعد من المدينة ووصية عمر قد استقرت في قلبه، ومعه أربعة آلاف من المسلمين معهم النساء والذرية، وتوافد المسلمون على المدينة بعد مغادرة سعد، فكان الخليفة يبعث بهم إليه لينضموا إلى جيشه، ولم يكد سعد ـ رضي الله عنه ـ يصل إلى زرّود حتى بلغ جيشه عشرين ألفاً. وكان الخليفة لما هم سعد بالرحيل من المدينة دعاه، وزوده بالنصائح التي لا

---

(١) الطبري (٣/٤٨٣).

يستغني عنها قائد، فأمره بأن يجعل وجهته القادسية، وأن يكون بين بلاد الفرس وبلاد العرب وأن يبادرهم بالضرب والشدة، وطمأنه من جهة كثرة عددهم وقوة عتادهم، فأخبره بأنهم قوم خدعة، مكرة، ثم قال: فإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لم يجتمع شملهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم(١).

وطلب الخليفة من سعد أن يكتب إليه بكل أحوال المسلمين حتى يكون مشاهداً لهم في كل أحوالهم فكتب إليه سعد بذلك بعد وصوله، وأخبره بأن الفرس قد جردوا لحربه رستم وأمثاله فهم يطلبوننا ونحن نطلبهم، وأمر الله بعد ماض، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا، فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية(٢).

وهذه الرسالة الموجزة من قائد قوات المسلمين إلى أمير المؤمنين توحي بما كان يحس به جيش المسلمين من شعور بالمسؤولية، وتحمل للتبعة، لقد جرد الفرس لهم خيرة قوادهم، ومشى المسلمون إليهم بخيرة فرسانهم، فقد كان بين صفوفهم عمرو بن معدي كرب الزبيدي، وطليحة ابن خويلد الأسدي، والأشعث بن قيس الكندي وغيرهم من زعماء العرب وشجعانهم.

إن رسالة سعد تدل على أن الأمر خطير والعاقبة مجهولة، ولكنهم يرجون من الله الخير ويأملون منه العون والنصر، وقد كان أكثر ما يخيف سعداً هو أن تتكرر فاجعة الجسر فتنهار قوى المسلمين بعد أن استردوها في معركة البويب، وماذا لو تكررت تلك المصيبة؟ هل يرجى أن تكون للمسلمين بعدها قائمة؟

إن هذا كله مما تبعثه رسالة سعد، ولعله برمته قد خالط نفس سعد فعبر عنه بتلك الرسالة، ولكن الله ـ عز وجل ـ لم يجعل سعداً يستمر في هذا

---

(١) ابن كثير (٧/٣٧).
(٢) نفسه.

التفكير المخيف، فلم يكد يبلغ بقواته العذيب حتى التقى مع أحد قواد الفرس على رأس كتيبته، وليس هناك ما يزيل هذه الأوهام من الرؤوس إلا المعركة، فاشتبك سعد مع قوات الفرس بقيادة شيرزاذ فأوقع بهم، وهزمهم هزيمة أنست المسلمين مخاوفهم، وأعادت إلى قلوبهم الطمأنينة والثقة في نصر الله، وغنم المسلمون منهم غنائم ذات قيمة فخمسها سعد وأرسل بالخمس إلى أمير المؤمنين، وقسم أربعة أخماسها بين المحاربين ففرح الناس واستبشروا بذلك.

وتوجه سعد إلى شراف، وهناك انضم إليه جيش المثنى وقوامه ثمانية آلاف جندي، وتوجه من جند الشام ثمانية آلاف جندي كذلك تحت قيادة هاشم بن عتبة، ولكن المثنى لم يكن على رأس جيشه، فبينما ينتظر قدوم سعد، وطال شوقه إلى لقائه انتقض جرح المثنى الذي جرحه في يوم الجسر ومات قبل أن يصل سعد وقبل أن يلتقي به، ويطفيء شوقه برؤيته - رضي الله عنه وأرضاه.

واتجه سعد يجد السير إلى القادسية، وقد خلف بالعذيب نساء المسلمين وأبناءهم وترك معهم كتيبة من خيل المسلمين بإمرة غالب ابن عبدالله الليثي، تحمي الحريم وتذود عن الذراري. وعند القادسية بدأ سعد يعبيء جيشه حسب تعليمات أمير المؤمنين، فعين أمرا القلب والميمنة والميسرة، واختار نائباً له خالد بن عرفطة، وكان عمر - رضي الله عنه - قد عين قاضي الجيش وهو عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، وجعله على قسمة الغنائم، وجعل واعظهم ورائدهم سلمان الفارسي وجعل زياد بن أبي سفيان كاتب الجيش[١].

وقدم المعنى بن حارثة أخو المثنى ومعه سلمى بنت خصفة زوج المثنى، وأخبر سعداً بوصية المثنى ونصحه لهم فترحموا عليه، ورد سعد المعنى إلى ما كان عليه في عهد أخيه، وتزوج سلمى تعويضاً لها عما فقدت بموت زوجها.

---

(١) ابن الأثير (٢/٣١١ - ٣١٢).

وكان في الجيش تسعة وتسعون بدرياً، وثلاثمائة وبضعة عشر من الصحابة الذين أسلموا بعد بيعة الرضوان، وثلاثمائة ممن شهد فتح مكة، وسبعمائة من أبناء الصحابة[1].

الفرس يتهيئون للمعركة: وقع اختيار يزدجرد على رستم ليكون قائد معركة القادسية وأغلب الظن أنها مكيدة من الفيرزان، حيث كان منافسه الخطير، نعم إن قيادة رستم للجيش تتناسب مع أهمية المعركة وخطورتها، فقد كان رستم أعظم قواد الفرس، وأكثرهم دراية وخبرة بالحرب، ولكنه كان يضن بنفسه أن يذهب مع الريح، وماذا تغني عنه شجاعته في الحرب وخبرته بها، وهو يرى أنه يحارب قوماً ليس لهم ملاذ إلا سيوفهم، وليس لهم طمع إلا في الاستشهاد. ولكن رستم رغم أن يزدجرد قد ولاه أمر المعركة ـ وذلك فخر لا ينبغي لرستم أن يحرمه ـ إلا أنه لم يقدم عليها بسهولة بل تردد كثيراً وحاول أن يجد فرصة للهروب من هذا الهول الذي فرض عليه، ويعلل بعض المؤرخين تردد رستم بأنه كان رجلاً منجماً وأنه رأى في النجوم سوء طالع الفرس، وقرأ بين سطورها هزيمة محققة لجيشه.

وأنا لا أميل إلى هذا القول، فما كان للنجوم أن تخبر بشيء استأثر به علم الله وحده، وما كان لمثل رستم وهو من هو ذكاء وخبرة أن يصدق النجوم في مثل تلك الظروف، لقد كانت ثقة كسرى برستم كفيلة بأن تنسيه ما قالت النجوم، ويخوض المعركة ليرى يزدجرد أن ثقته في محلها وأنه اختار للمعركة ابن بجدتها، ولكن رستم لم يفعل ذلك، بل كان يود لو يذهب غيره بهذا الفخار على أن يعفيه منها.

إن رستم الذي خبر الحرب وعرف نتائجها وأثرها في القلوب والنفوس كان يؤمن بأنه لن يقاتل في هذه المعركة بشراً كالبشر الذين عرفهم في معاركه، ولكنه يقاتل صنفاً جديداً من الناس لهم قلوب غير قلوب الناس، وفيهم عزائم لا تضارعها عزائم الفرس مجتمعين، لقد كانت موقعة الجسر

---

(١) نفسه.

كفيلة بأن تحطم معنوياتهم، وتقضي على كل عزم في صدورهم، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، إن المسلمين تحملوا الصدمة بصبر عجيب، وثبات مدهش، وخاضوا بعدها معاركَ خرجوا منها متوجين بأكاليل النصر، إن أمثال هؤلاء لا يمكن أن ينجو منهم رستم، ولا يمكن أن ينتزع منهم النصر الذي بذلوا في سبيله المهج والأرواح.

كان ذلك هو السبب الحقيقي في تردد رستم عن خوض المعركة مع المسلمين، وإذا نحن أضفنا إلى ذلك ما يجوز أن يكون سبباً في اختياره لقيادة المعركة وهو تحريض الفيرزان ليخلو له الجو بعد قتل رستم، وإذا تصورنا أن ذلك يمكن أن يكون قد دار بذهن رستم وخالط قلبه الشك منه تأكدنا أن رستم قد أحس بأنه وضع قسراً بين فكي الرحا، وهيهات هيهات له أن يخرج سليماً معافى.

إن الذي يطلع على الحوار الذي دار بين يزدجرد ورستم عندما اختار يزدجرد رستم لقيادة الفرس[1] يؤمن تمام الإيمان بأن رستم قد داخل قلبه الخوف من هذه المعركة، وكأنه كان يشاهد الموت فيها رأي العين، ولم يغن رجاء رستم ولا توسله، ولم ينفع استعطافه وترحمه وأصر يزدجرد على أن يواجه به جيش المسلمين بعدما علم بما أحدثوه في البلاد من الفوضى والاضطراب وبعد أن هرع أهل السواد إلى المدائن مهددين بالاستسلام إن لم يدفعوا عنهم غارة المسلمين. وتولى رستم أمرة جيش الفرس، وسار إلى ساباط متجهاً إلى القادسية، وعلم سعد بذلك فكتب إلى عمر، فأمره عمر بالثبات والصبر، وأن يرسل الدعاة يدعون يزدجرد ورستم إلى الدين كعادة المسلمين قبل دخول المعركة، وبين له أن دعوتهم إلى الإسلام توهن قوتهم، وتضعف شأنهم إذا لم يستجيبوا ويدخلوا في الإسلام.

المسلمون رسل هداية:

وصل كتاب الخليفة إلى القائد وفيه (لا يكربنك ما يأتيك عنهم، ولا ما

---

(١) يقرأ في ذلك الكامل لابن الأثير (٢ / ٣١٤ / ٣١٥).

يأتونك به، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل المنظرة والرأي والجلد يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً عليهم، واكتب إليّ في كل يوم)[1]! وصدع سعد بأمر الخليفة، واختار الوفد الذي سيبعث به ليفاوض الفرس، وجمع في هذا الوفد صنفين من الناس: صنف لهم أصل وحسب وفيهم رأي وعقل واجتهاد، وهم النعمان ابن مقرن وبسر بن أبي رهم، وحملة بن جوية، وحنظلة بن الربيع، وفرات بن حيان، وعدي بن سهل، والمغيرة بن زرارة بن النباش.

والصنف الثاني: جسام الأبدان، عليهم مهابة ولهم رأي وحكمة وهم: عطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسان، وعاصم ابن عمرو، وعمرو بن معدي كرب، والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة[2].

تكون الوفد من هؤلاء الأربعة عشر رجلًا ووجههم سعد إلى الملك ليدعوه إلى الله وذهب الدعاة إلى المدائن ليقابلوا يزدجرد هناك، ويشرحوا له سبب مجيئهم إلى بلاده واستأذن الوفد، فأذن له بعد استعدادات اتخذها الملك شأن الملوك في كل عصر. سألهم الملك عن سبب مجيئهم، وأغراهم ببذل المال والطعام والكسوة إن هم رجعوا إلى بلادهم، ولكن المسلمين لم يحضروا لذلك، فلو كانوا يقصدون الطعام والمال لكفاهم ما حملوا من أرض السواد وإنما هم جاؤوا يدعون الناس إلى الإسلام فمن أبى فعليه أن يظهر ولاءه لتلك الدعوة ببذل الجزية، فمن أبى وعاند فليس إلا السيف.

بهذا انتهت المفاوضات نهاية فاشلة، فأما المسلمون فأصروا على ما عرضوا ولم يقبلوا شيئاً دونه وأما يزدجرد فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

وهكذا يتضح لكل ذي عينين أن المسلمين لم يخرجوا للسلب والنهب، ولم يخرجوا لتوسيع رقعة الأرض، ولم يقاتلوا من أجل المال والطعام، ولكنهم خرجوا هداة دعاة إلى الحق فهم أول ما يطلبون أن يدخل

---

(١) الطبري (٣/٤٩٥).
(٢) الطبري (٣/٤٩٦).

الناس في الإسلام، فإن رفضوا وأحبوا أن يكونوا على دين آبائهم فلا بأس وعليهم أن يؤدوا الجزية التي هي عنوان الولاء وعدم التمرد، فإن أبوا هذا وذاك فهم عقبة في طريق الحق يصدون عنه وينفرون منه، وليس لهم إلا القتل، وآخر الدواءالكي.

رستم يزحف إلى القادسية: خرج رستم إلى ساباط وهي مدينة تقع في الجنوب الغربي للمدائن، وليست بعيدة عنها، وأقام فيها فترة تظاهر فيها أنه يعد جيشه وينظم صفوفه، ولعل رستم لم يغادر ساباط سريعاً رغم ما صدر إليه من الأوامر الصريحة في الذهاب إلى القادسية لأنه علم بقدوم وفد المسلمين على يزدجرد، ولعله كان يتوقع إجراء مفاوضات ناجحة تدفع عنه البلاء الذي يتمنى التخلص منه، ويعود إلى الحياة الهادئة التي كان ينعم بها قبل تكليفه بهذا الأمر الذي لم يصادف رغبة من نفسه.

إن رستم كان يرجو أن ينتصر عقل يزدجرد على عاطفته، وأن تتغلب الحكمة على التهور، ولكنه أصيب بخيبة أمل عندما نُمي إلى علمه فشل المفاوضات واستكبار كسرى عن قبول الحق، فلم يكن هناك بد من الزحف إلى القادسية.

وزحف رستم إلى القادسية في خطوات وئيدة، ولكنها لم تصدر عن تعقل وتيه واستخفاف بالأمر الذي كلف به، ولكن مصدر التأني كان الخوف الذي استحوذ على نفسه والذعر الذي استولى على قلبه، فلم يعد فيه من الجرأة والإقدام ما يجعله يحث الخطى ويجد في سيره.

قدم رستم الجالينوس في أربعين ألف مقاتل، وتابعه في ستين ألفاً، ولم يكد يصل إلى القادسية حتى ضرب مخيمه ونزل بجنوده هناك وقد بلغ عددهم مائة وعشرين ألفاً، يتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلاً، بينهم الفيل الأبيض الذي كانت الفيلة تألفه وتسير بسيره.

ورغم ضخامة هذه القوة التي يصرفها رستم كما يشاء، ورغم أنه في بلده وبالقرب من مصدر إمداداته وتموينه، وبالرغم من قلة عدد المسلمين

وبعدهم عن مصادر إمداداتهم، برغم هذا كله كان رستم يتمنى لو يوفق في وسيلة يصرف بها المسلمين من غير قتال، ولعل ذلك الأمر هو الذي كان يشغل باله، ويقلق نفسه.

إن رستم قد فكر وأطال التفكير واهتدى إلى أن المماطلة والتسويف قد يوصلانه إلى ما يرجو، ولهذا ظل بعيداً عن القادسية أربعة أشهر[1] بعد ما كلف بمنازلة المسلمين.

وقف رستم وجيشه على العتيق حيال جيش المسلمين، وصف جيشه فجعل الفيلة في المقدمة رجاء أن يرهب المسلمين، ولما اطمأن إلى نظام جيشه، ورجا أن يكون ذلك قد نال من نفوس المسلمين طلب المفاوضة، وأرسل إلى سعد يطلب رجلاً عاقلاً حكيماً يتكلم معه.

ولم يكن رستم يرجو من وراء ذلك إلا أن ينجح في أمر فشل فيه يزدجرد، فيرد المسلمين بغير قتال، وإذا لم يوفق في ذلك فإنه يكون قد أطال الأمد عليهم فيضجرون وينصرفون، أو يكونون قد رأوا ما أعد لهم الفرس من الرجال والسلاح فييأسون من النصر فيقع بينهم الخلاف، فيضعف أمرهم ويضمحل شأنهم.

ذلك ما أراد رستم من وراء المفاوضة، ولكن المسلمين وقد قطعوا هذه المسافة الطويلة وتركوا ديارهم، وخلفوا من ورائهم أزواجهم وذريتهم، ما كان لهؤلاء أن يضجروا وينصرفوا وقد خرجوا ابتغاء وجه الله، وعقدوا العزم على النصر أو الشهادة، وما كان لهم أن يختلفوا وقد أمرهم الله بالوحدة والاعتصام بحبله، ولا أن يضعفوا ويستكينوا وقد نهاهم الله - عز وجل - عن ذلك ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

وكأن عمر - رضي الله عنه - قد خاف أن يستعمل الفرس تلك السياسة الخبيثة، وخشى على المسلمين أن يبلغ الأمر من نفوسهم ما أراد أعداؤهم،

---

(١) ابن الأثير (٢/٣١٩).

فكتب إلى سعد يأمره بالصبر والمطاولة فاستعد سعد وأعد أصحابه لمطاولة عدوه.

وأخذ رستم يتحين الفرصة، ويبحث عن مكان يشرف منه على المسلمين، وظل يبحث حتى وصل إلى القنطرة، ومن هناك أشرف على قوات المسلمين، فرأى منهم ما زاده خوفاً على ما به من خوف وعندئذ أرسل إلى زهرة بن حوية الذي كان بحياله من القنطرة، وحاول أن يغريه، وعرض عليه الصلح على أن يجعل له جعلاً، وينصرف عنه من غير قتال، ولكن زهرة رفض هذا العرض، ولما رفض زهرة مفاوضة رستم وما عرضه عليه لجأ رستم إلى سعد، وقال له: أرسل إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا، وهم سعد أن يختار له وفداً كما فعل مع يزدجرد، ولكن ربعي ابن عامر قال: إن الأعاجم لهم آراء وآداب، ومتى تأتهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل فوافقه المسلمون، وأرسله سعد وحده.

ركب ربعي بن عامر فرسه، وذهب إلى رستم، ولكن جنود الفرس حبسوه عند القنطرة حتى يستأذنوا له، فأذن له رستم بعد أن أظهر زينته، وجلس على سرير من ذهب وفرش الأرض بالبسط والنمارق، ووضع عليها الوسائد المنسوجة بالذهب.

ودخل ربعي راكباً فرسه وسيفه في خرقة بالية ورمحه مشدود بعضب وقد، وسار حتى وطىء البسط بفرسه ثم نزل وشق وسادتين وربطه فيهما، وأخذ يطعن الطنافس والنمارق برمحه حتى هتكها، وراودوه على أن يضع سلاحه فأبى وقال: لم آتكم فأضع سلاحيْ بأمركم، بل أنتم الذين دعوتموني، فإما أن أدخل كما أريد وإلا رجعت.

فأذن له رستم، وأقبل ربعي حتى جلس قريباً من رستم، فركز رمحه وجلس على الأرض فسألوه ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نحب أن نجلس على زينتكم هذه. وقال الترجمان لربعي: ما جاء بكم؟ قال ربعي: الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبله

قبلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر.

فقال رستم: قد سمعنا قولكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال ربعي: نعم، كم أحب إليكم، أيوماً أم يومين؟

قال رستم: بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعته، قال ربعي: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل: إما أن تسلم وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك، وإن احتجت إلينا نصرناك أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا. وأنا كفيل بـذلك عن أصحابي.

قال رستم: أسيدهم أنت؟

قال ربعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم.

وخلا رستم بأصحابه واستشارهم فيما سمعوا، ولكنهم أبوا ونفروا، فزاده ذلك غماً على غم وأرسل إلى سعد يطلب رجلاً ليكلمه، فأرسل إليه سعد، حذيفة بن محصن، وكلمه رستم فلم يجد عنده إلا ما وجد عند ربعي بن عامر، وفي اليوم الثالث أرسل رستم يطلب رجلاً ليكلمه، فبعثوا إليه المغيرة بن شعبة، فتكلم رستم وتكلم المغيرة، ولم يجد رستم عنده إلا ما وجد عند صاحبيه، ولكن رستم أظهر الاستهانة بأمر المسلمين، وأخبره بأنهم كانوا يمدونهم إذا أجدبوا بشيء من التمر والشعير فيقنع به العرب ويعودون إلى جزيرتهم، ونوه رستم للمغيرة بأنه مستعد لأن يأمر للأمير بكسوة وبغل وألف درهم، ويصرف لكل رجل من الجيش بوقر تمر وثوبين، وتنصرفوا عنا.

ورد عليه المغيرة بما أفهمه أنهم لم يخرجوا لطلب الدنيا، وإنما خرجوا

يدعون الناس إلى الله ـ عز وجل ـ ثم خيره بين الأمور الثلاثة: الإسلام أو الجزية أو السيف عندئذ غضب رستم وأقسم بالشمس لا يرتفع صبح غد حتى أقتلكم جميعاً. انصرف المغيرة وهو لا يرى إلا الحرب، وأما رستم فقد خلا بقومه قائلاً: أين أنتم من هؤلاء؟ ما بعد هذا؟ ألم يأتكم الأولان فحسراكم واستحرجاكم ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً.

هؤلاء والله الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين، والله لئن كان بلغ من أربهم وصونهم لسرهم ألا يختلفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، لئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء فلجوا وتجلدوا فقال: والله إني لأعلم أنكم تصغون إلى ما أقول لكم، وإن هذا منكم رثاء فازدادوا لجاجة[1] إن القارىء لهذه الأحداث لا يملك إلا أن يسأل، لماذا حاول رستم أن يتكلم مع أكثر من واحد من المسلمين؟ ولماذا طلب كل يوم رجلاً، ولم يطلبهم واحداً بعد واحد في يوم؟

لا أراني مجانباً الصواب ـ إن شاء الله ـ إذا قلت: إن رستم كان يرمي من وراء ذلك إلى أمرين هامين بالنسبة للسياسة التي انتهجها منذ ولي أمر قتال المسلمين.

أما الأول: فلأنه أراد أن يطيل الوقت على المسلمين حسب خطته في المماطلة والتسويف فطلب كل رجل في يوم.

وأما الثاني: فإنه أراد أن يقف على جلية أمر المسلمين، وهل هم مجمعون على كلمة سواء أم بينهم خلاف في هذا الأمر الذي طال عليهم أمده، وحينئذ وجد القوم على طريق واحد فسقط في يده، وعلم أن النصر لا محالة للمسلمين، وقد عبر عن ذلك بقوله: والله لئن كان بلغ من أربهم وصونهم لسرهم ألا يختلفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم.

سعد يبعث الطليعة: لم يستطع سعد أن يعرف كثيراً عن جيش العدو

---

(١) الطبري (٣/٥٢٣ ـ ٥٢٤).

بواسطة هؤلاء الرسل المفاوضين ذلك لأنهم لم يدخلوا بين الجند، ولم يقفوا على أحوال العسكر، وقد رأى سعد أن الدخول في معركـة مثل هذه دون أن يعرف شيئاً عن عدوه مغامرة قد لا تحمد عقباها، بل قد يترتب عليها من المخاطر ما يسبب للمسلمين عناء ورهقاً، لهذا عزم على أن يبعث طليعة توقفه على حقيقة ذلك الجيش اللجب الذي نزل بحيالهم ولم يفصل بينهما إلا فرسخين ـ أي حوالي عشرة كيلومترات ـ وخاف سعد أن يفاجئه رستم بمالا يتوقع فتكون القاصمة.

انتخب سعد عشرة من خيرة رجاله وأمر عليهم طليحـة بن خويلد الأسدي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، كل منهما على خمسة رجال، وأخذ طليحة وعمرو طريقهما إلى معسكر الفرس، فلم يسيرا إلا فرسخاً وبعض الآخر حتى رأوا مسالح الفرس وسرحهم قد ملأوا الأودية، فرجع عمرو بمـن معه، وأصر طليحة على الدخول في معسكر القوم، ورجع من معه واتهموه بالخيانة لما كان منه من الردة في زمن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ولكن طليحة لم يعبأ بكلامهم، ولم يوهنه اتهامهم، بل قال لهم: (ملأ الرعب قلوبكم)[1].

وسار طليحة حتى دخل معسكر العدو، وأخذ يجوسه طول الليل، حتى إذا أوشك الليل على الانجلاء، وبدأ الصبح يسفر مر بفارس يعد عندهم بألف رجل فقطع أطناب خيمته وفك قيد فرسه وشد مقوده بمقود فرسه، ودخل على فارس آخر فهتك بيته وأخذ فرسه وخرج من بين الفرس وقد أحس به الناس فتنادوا للحاق به، فركبوا في أثره يطلبونه فأدركه فارس منهم فوقف له طليحة وقتله، ولحق به الثاني فصبر له ثم قتله، ثم لحق به الثالث وقد امتلأ حنقاً وغضباً حين رأى الفارسين صريعين وهما ابنا عمه، فهجم على طليحة يريد أخذ ثأره منه، ولكن طليحة راوغه حتى أسره وحمله على فرسه، وانطلق به حتى دخل على سعد، وأخبره خبر القوم[2].

---

(١) الدينوري ص ١١٩.

(٢) ابن الأثير (٢/٣١٨).

وطلب الأسير الأمان فأمنه سعد، ثم أخبر عن شجاعة طليحة، وعقب بأخبار قومه وما أعدوا للمسلمين.

سعد يعبىء جيشه: وقف سعد على حقيقة أمر الفرس، وما أعدوا من رجال وعتاد، وتأكد أن القوم موتورون، وأن رستم يحاول أن يثنيهم عن عزمهم بدون جدوى، وأن القتال سيكون عنيفاً في ساعاته الأولى، وقد يطول أياماً.

أدرك سعد ذلك كله، ولكنه عزم متوكلاً على الله أن يخوض المعركة مهما كانت النتائج وفي الوقت نفسه كان يزدجرد قد استبطأ رستم، فأرسل إليه يحثه على الهجوم ويشجعه على خوض المعركة، ولم يجد رستم أمامه إلا خوضها فهذه أوامر الملك تلاحقه بالهجوم، وهذه هيبته في نفوس الفرس بدأت تتضعضع حتى رمى بالجبن والخور، وهذه منزلة فارس قد تعرضت للقيل والقال، فما باله يطيل الموقف أكثر من ذلك.

كتب رستم إلى سعد أتعبر إلينا أم نعبر إليكم؟ فقال سعد: بل اعبروا إلينا. وخرج رستم وجيشه يريدون العبور، فقال لهم سعد: شأنكم والعبور، فأرادوا أن يعبروا القنطرة فمنعهم المسلمون، وقال سعد: لا ولا كرامة، أما شيء غلبناكم عليه فلن نرده عليكم، تكلفوا معبراً غير القناطر. فأخذوا يردمون العتيق حتى الصباح بأمتعتهم، وبالتراب والقصب والبراذع حتى جعلوه طريقاً، واستتم بعد ما ارتفع النهار[1].

وأمر سعد الناس أن يقفوا في أماكنهم، وجعل زهرة بن حوية، وعاصم بن عمرو بين عبدالله بن المعتم وشرحبيل بن السمط ووكل صاحب الطلائع بالطراد، وخلط بين الناس في القلب والمجنبتين ونادى مناديه: ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهاد في أمر الله يأيها الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد[2]. وجعل سعد خالد بن عرفطة خليفة له في قيادة الجيش.

---

(١) الطبري (٣/٥٢٩)، ابن الأثير (٢/٣٢٤).
(٢) الطبري (٣/٥٣٠).

وأما رستم فإنه لما عبر العتيق نظم جيشه، فجعل في القلب ثمانية عشر فيلاً عليها الصناديق والرجال، وفي إحدى المجنبتين ثمانية أفيال، وفي الأخرى سبعة أفيال عليها الصناديق والرجال وجعل الجالينوس بينه وبين ميمنته، والبيرزان بينه وبين ميسرته. وكان يزدجرد لاهتمامه بأخبار المعركة قد نظم رجالاً من مكان المعركة إلى باب الإيوان ينقلون له أخبارها أولاً بأول.

هكذا تواجه الجيشان، وبدأ رستم يقود الجيش وهو على سريره كأنه يظهر بذلك استخفافه بالعرب، وأما سعد ـ رضي الله عنه ـ فقد عاوده مرض كان يأتيه، وظهر في فخذيه وأليتيه دماميل وعاوده عرق النسا، فكان لا يستطيع أن يركب أو يجلس بل كان مكباً على وجهه وتحت صدره وسادة، يشرف على الناس من فوق سطح القصر.

المعركة الفاصلة

وأمر سعد السادة والشعراء وذوي النجدة والوجهاء أن يحرضوا الناس على القتال ويذكروهم بما يجب عليهم في مثل هذا الموقف، وقام كل منهم بما كلف به، ثم نادى سعد في الناس، الزموا مواقفكم، لا تحركوا شيئاً حتى تصلّوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم، واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ولتستتم عدتكم، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله. وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد (الأنفال) فقرئت وظهرت السكينة وخيم الخشوع على الناس ولم يكد سعد يكبر التكبيرة الثالثة حتى برز ذوو النجدات، وخرج لهم أقرانهم من الفرس وبدأت المعركة حامية ملتهبة، واستمرت أربعة أيام لا تفتر حتى تنشب، ولا تهدأ إلا وتثور، وحمي الوطيس، وكثر القتلى من الفريقين، ولم يكفّ الفريقان إلا بعد أن خيم الظلام وهجم الليل، ومضت هدأة منه.

وقد أبلت أسد بلاءً حسناً حتى قتل منها خمسمائة في اليوم الأول،

واستنجد سعد بعاصم بن عمرو ليحمي بني أسد، فصاح عاصم في أصحابه وأمرهم بأن يرشقوا راكبي الفيلة بالسهام وأن يقطعوا الأوضان التي تشد بها الصناديق على ظهور الفيلة، وفعل بنو تميم ذلك فنفرت الفيلة حتى قتل كل فيل أصحابه، ورد بنو تميم الفرس عن بني أسد، وذ لك في يوم أرماث وهو اليوم الأول. وفي صبيحة اليوم الثاني، أمر سعد بنقل القتلى والجرحى إلى العذيب. فأما القتلى فدفنوا هناك في وادٍ بين العذيب وعين الشمس، وأما الجرحى فسلموا إلى النساء يقمن بتمريضهن. ومع صبح هذا اليوم وصلت طليعة المدد القادم من الشام بقيادة هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص، وكان هاشم قد جعل على مقدمته القعقاع بن عمر التميمي، وكان القعقاع على ألف رجل قسمهم أعشاراً، وأمرهم كلما اختفت عشرة تتبعها عشرة أخرى، وقدم هو على العشرة الأولى فبشر الناس بالمدد، وانغمس في الفرس يقتل ويشرد، وينادي بالمبارزة فخرج إليه ذو الحاجب ـ وهو الرجل الثاني بعد رستم ـ فلما رآه القعقاع عرفه، وصاح يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر، وهجم على ذي الحاجب فأرداه قتيلاً، وطلب المبارزة فخرج له الفيرزان والبنذوان ـ وهما من فرسان فارس ـ فقتل القعقاع الفيرزان، وقتل الحارث بن ظبيان البنذوان، وصاح القعقاع، يا معشر المسلمين احصدوهم بالسيوف حصداً.

وأقبل المدد عشرة إثر عشرة، وكلما أقبل عشرة كبر المسلمون وفرحوا، وازداد حماسهم كأن لم يصبهم شيء بالأمس، وكانت فيلة الفرس غائبة في اليوم الثاني فقد أصابها ما أصابها، وإنهم ليصلحون شأنها.

وابتكرت جماعة القعقاع طريقة لإرهاب خيل الفرس، فجللت الإبل وبرقعتها، فأصبحت كالفيلة ودفعتها في خيل الفرس فنفرت منها الخيل وتعقب المسلمون الفرس، وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، واستمر القتال إلى منتصف الليل.

وفي هذا اليوم قاتل أبو محجن قتالاً عنيفاً، وكان محبوساً في بيت سعد، ولكنه لما دارت المعركة أخذ يستعطف سلمى زوج سعد ويعدها إن

هي أطلقته ونجاه الله ليعودن إلى محبسه فرقت له وأطلقته، وأخذ البلقاء فرس سعد، وخرج بها، وانضم إلى ميمنة المسلمين، فحمل على ميمنة الفرس، ثم استدار من خلف المسلمين، وحمل على ميسرة الفرس حملة عنيفة، وكان يقصف الناس قصفاً لم ير مثله، فأخذ المسلمون يتعجبون وهم لا يعرفونه، يقول بعضهم: هذا بعض رجال هاشم القادمين من الشام، ويقول بعضهم: بل هو هاشم نفسه، ويقول سعد وهو مطل من فوق قصره: لولا محبس أبي محجن لقلت: هذا أبو محجن، وهذه البلقاء.

وقال بعض الناس: إنه الخضر، وقال بعضهم: لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا إنه ملك وفي منتصف الليل، وبعد أن هدأ الناس، وتوقف القتال عاد أبو محجن إلى القصر ووضع رجليه في القيد.

وسألته سلمى، فيم حبست فقال: في شعر قلة، وأنشدها قوله:

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فلما بدا الصباح ذهبت سلمى إلى سعد، وأخبرته بقصة أبي محجن، فأطلقه وقال: اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، فقال أبو محجن: لا جرم والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً[1] وسمى المسلمون اليوم الثاني يوم أغواث.

وفي اليوم الثالث أصبح الناس على مواقفهم، وكان بين الصفين من قتلى وجرحى المسلمين ألفان ومن المشركين عشرة آلاف، ونقل المسلمون قتلاهم إلى حيث يدفنون والجرحى إلى النساء وكان على الشهداء حاجب ابن زيد، وكان النساء والصبيان يحفرون القبور، وبقي القتلى من المشركين لم ينقلهم أصحابهم، فكان ذلك توهيناً للفرس وقوة للمسلمين.

وأخذ القعقاع يرد أصحابه من حيث أتوا ليقدموا على المسلمين في اليوم الثالث كما قدموا في اليوم الثاني فيظنهم العدو مدداً جديداً، وقال لهم:

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٣٠ - ٣٣١).

إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة، فإن جاء هاشم فذاك، وإلا جددتم للناس رجاء وجداً ومع طلوع شمس اليوم بدأ رجال القعقاع يغدون فلما رآهم كبر وقال: جاء المدد وكان أخوه عاصم قد فعل مثل فعل القعقاع فأقبل الناس من هنا ومن هنا، وقويت شوكة المسلمين، وكان الفرس قد أنزلوا الفيلة بعد أن أعادوا توابيتها، ووقف الرجال يحمونها حتى لا يقطع المسلمون أوضانها. ووصل هاشم بن عتبة بمن معه من المدد، وهجم هاشم على قلب جيش فارس فاقتحمه حتى وصل العتيق ثم عاد واستبسل أصحاب هاشم في القتال، وبذلوا كل ما في وسعهم يهدون العدو هداً ورأى سعد الفيلة تفرق بين الكتائب، فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو، أكفياني الفيل الأبيض وبعث إلى حمال والربيل، أكفياني الفيل الأجرب، فأخذ كل منهم رمحاً، ودلف إلى الفيل الذي كلف به فوضع القعقاع وعاصم رمحيهما في عيني الفيل الأبيض، فنفر ورمى بمن على ظهره وضرب القعقاع شفره فقتله ووقع على جنبه وقتل حاميته، وفعل حمال والربيل كما فعل القعقاع وعاصم.

وأصيب الأجرب ولم يمت، ولكنه ظل يتألم ويتأرجح بين صفوف المسلمين والفرس حتى ألقى بنفسه في نهر العتيق فتبعته بقية الفيلة، وعبروا النهر حتى وصلوا المدائن.

واستمر القتال حتى المساء والفريقان متعادلان لم ترجح كفة واحد منهما، وذلك لما كان يمد به يزدجرد جيشه من ذوي النجدة والشجاعة كلما احتاجوا إلى ذلك.

وسمى هذا اليوم يوم عمواس. ولم يكن في أيام القادسية مثله، خرج الناس منه على سواء، كلهم على ما أصابه كان صابراً[1].

ودارت رحى معركة عنيفة في الليل، وقاتل المسلمون حتى الصباح وهم لا يتكلمون، ولكن يهرون هريراً حتى سميت الليلة ليلة الهرير.

واكتشف سعد مخاضة يحتمل أن يأتي منها العدو، فأمر عمرو ابن

---

(١) الطبري (٣/٥٥٦).

معدي كرب، وطليحة بن خويلد أن يذهبا إليها، فإن وجدا الفرس قد سبقوهما وقفا بحيالهم، وإلا بقيا هناك حتى يصدر إليهما أمره، وذهب عمرو وطليحة فلم يجدا أحداً، فقال طليحة: لو خضنا وآتينا الأعاجم من خلفهم، وقال عمرو: بل نعبر من أسفلها.

وعبر طليحة حتى كان خلف العدو، وهناك كبر ثلاث تكبيرات فزع لها الفرس، وانهارت أعصابهم وارتبكت صفوفهم، وأخذوا يبحثون عن مصدر الصوت فلم يجدوا أحداً. وأما عمرو فقد عبر من أسفل المخاضة، فلم يجد شيئاً ورجع، وبدأ ذوو النجدات من المسلمين أمثال مسعود بن مالك الأسدي، وعاصم بن عمرو التميمي، وابن ذي البردين الهلالي، وابن ذي السهمين، وقيس بن هبيرة الأسدي، وزحفوا على الفرس بغير إذن من القيادة ولعلهم وجدوا فرصة من عدوهم فلم يضيعوها.

ورأى سعد تزاحف الناس، فتعجب كيف يزحفون بغير إذنه، ولكن الأمر لا بد أن يكون فيه ما يستدعي ذلك فدعا للقوم بالمغفرة والنصر، وكان أول من زحف القعقاع، ورآه سعد فقال: اللهم اغفرها له وانصره، فقد أذنت له، إذ لم يستأذني، وخرجت القبائل وراء القعقاع يتبع بعضها بعضاً وكلما رأى سعد قبيلة دعا لها بالمغفرة والنصر وتلاحق الناس، واختلطوا، والقعقاع وأمثاله من الرؤساء يفعلون بالقوم الأفاعيل، وأفرغ الله عليهم الصبر إفراغاً، وانقطعت أخبار الناس عن رستم وسعد، فأقبل سعد على الدعاء يستنجز ربه وعده ويلح عليه أن يمدهم بعونه ويتوجهم بنصره، وكان أول بشير لسعد ابن أبي وقاص سماعه صوت القعقاع ينشد بعد منتصف الليل:

نحن قتلنا معشراً وزائدا　　أربعة وخمسة وواحدا
نحسب فوق اللبد الأساودا　　حتى إذا ماتوا دغوت جاهدا
الله ربي واحترزت عامدا[1]

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٣٤ ـ ٣٣٥).

نهاية رستم:

وأصبح الصباح والناس لم يغمض لهم طرف، ومشى فيهم القعقاع يقول: إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر. وسمع الناس كلام القعقاع فاجتمع عليه جماعة من الرؤساء، وصمدوا لرستم حتى خالطوا جيشه مع الصبح، واشتدت المعركة قاسية عنيفة، وزال الهرمزان والبيرزان من مكانهما، وشد المسلمون على القلب فتصدع، وهبت ريح عاصف فقلعت خيمة رستم، وألقت بها في النهر، وتقدم القعقاع ومن معه حتى وصلوا سرير رستم، وقد غادره حين هبت عليه الريح، وذهب إلى بغال قد أتته بمال مدداً فاستظل بظل بغل وحمله.

وأقبل هلال بن علفة، فرأى البغال فهجم عليها وقطع حبل الحمل الذي يستظل به رستم وهو لا يدري فسقط الحمل عليه وكسر فقرات ظهره، ولما رآه هلال ضربه ضربة بالسيف ولكن رستم تحامل حتى ألقى بنفسه في العتيق، واقتحمه هلال، فأخذه وهو عائم، فأمسك برجله، وأخرجه إلى الشاطىء وضرب جبينه بالسيف حتى قتله.

وحمل هلال رستم، فألقى به تحت أرجل البغال، وصعد سريره، وأخذ ينادي، يا معشر المسلمين، إليّ إليّ، قتلت رستم ورب الكعبة، فاجتمع حوله المسلمون، وكبروا فرحاً بنصر الله، ونادى بعضهم بعضاً مهنئاً بموعود الله.

وانقطعت آمال الفرس بموت رستم، وحاول الجالينوس إنقاذ ما يمكن إنقاذه من القوات المنهارة المتداعية، فوقف عند الردم الذي عبروه لملاقاة المسلمين، وناداهم ليعبروا نجاة بحياتهم وحاول المنهزمون الفرار، ولكن سقط منهم ثلاثون ألفاً كانوا مسلسلين في النهر، ووخزهم المسلمون برماحهم فلم ينج منهم أحد، وباء الهاربون منهم بخزي الهزيمة بعد قتال لم يسمع بمثله قبل اليوم[1].

---

(١) الطبري (٣/٥٦٣ ـ ٥٦٤).

وأخذ المسلمون يجمعون قتلاهم، وعلم نساء المسلمين بانتهاء المعركة، وكن من قبل يقمن بأعمال جليلة، فهن اللاتي كن يضمدن الجرحى، ويحفرن القبور، ويقمن على الشهداء.

وتتحدث أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي فتقول: شهدنا القادسية مع سعد مع أزواجنا فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهراوي ثم أتينا القتلى، فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، ومن كان من المشركين أجهزنا عليه، ومعنا الصبيان فنوليهم ذلك - تعني استلابهم - لئلا يكشفن عن عورات الرجال[١].

وأحصي القتلى من الفريقين، فكان شهداء المسلمين ثمانية آلاف وخمسمائة منهم ألفان وخمسمائة قبل ليلة الهرير، وستة آلاف ليلة الهرير ويوم القادسية[٢].

وأما قتلى المشركين فكانوا قرابة خمسين ألفاً، منهم ثلاثون ألفاً مسلسلون، وعشرة آلاف يوم القادسية وليلة الهرير، وقريباً من عشرة آلاف قبل ليلة الهرير[٣].

ودفن شهداء المسلمين في الخندق حيال مشرق.

سعد يأمر بتعقب الفارين: لم تزل شمس يوم القادسية - وكان يوم الاثنين من شهر محرم سنة أربع عشرة من الهجرة - حتى كان رستم جثة لا يلوي ولا يتحرك، وكانت جيوش الفرس نهباً لسيوف المسلمين، وقد هتكت الهزيمة شغاف قلوبهم، وانتزعت كل شجاعة وحماس من نفوسهم ففروا في الأودية والسهول، وانتشروا في جهات البلاد المختلفة هائمين على وجوههم لا يعرفون إلى أين يتجهون.

ونظر سعد إليهم وهم يقطعون العتيق هاربين فخشى أن يتجمع القوم

---

(١) ابن كثير (٧/٤٦).
(٢) الطبري (٣/٥٦٤).
(٣) ابن كثير (٧/٤٤).

في مكان ما ثم يعيدون الكرة من جديد، وقد صدق حدس سعد - رضي الله عنه - فقد أخذ الجالينوس يجمع فلول المنهزمين عازماً على الدخول مع المسلمين في معركة لعله ينجح فيما لم ينجح فيه رستم أو لعله إذا لم ينجح أن يعوق تقدم المسلمين نحو المدائن العاصمة.

لهذا أمر سعد القعقاع بن عمر وشرحبيل أن يتعقبا الهاربين، وتبعهما زهرة بن الحوية ومعه ثلاثمائة فارس قد عبروا العتيق ليقضوا على هذه الفلول، وأدرك زهرة الجالينوس، يجمع المنهزمين فقتله وأخذ سلبه[1]. واستسلم الفرس وألقوا بأيديهم، وأسرهم المسلمون من غير مقاومة حتى رؤيَ شاب من النخع يسوق أمامه ثمانين أسيراً[2].

وواصل المنهزمون فرارهم إلى دير كعب، وهناك استقبلهم النخارجان أحد القواد الذين وجههم يزدجرد مدداً لرستم، فكان لا يمر به أحد من الفل إلا حبسه عنده، ثم عبى الناس وأوقفهم في أماكنهم حتى جاء المسلمون فاستعد لملاقاتهم، ونادى بالمبارزة رجل ورجل.

وخرج من صفوف المسلمين زهير بن سليم يتحدى النخارجان، فبرز إليه وكان النخارجان سميناً بديناً، وكان زهير مربوعاً شديد العضدين والساعدين.

وبدأت المبارزة فرمى النخارجان نفسه على زهير فصرعه، وجلس على صدره، وأراد أن يخرج خنجره ليقتله، فوقع إبهام النخارجان في فم زهير، فمضغها مضغاً شديداً حتى استرخى النخارجان، وانتهز زهير فرصة استرخاء خصمه فانقلب عليه، وأخذ الخنجر من يده، وأدخل يده تحت ملابسه وبعج بطنه وقتله[3]. وحمل عليهم المسلمون من كل جانب فهزموهم شر هزيمة، وفروا حتى دخلوا المدائن.

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٣٦).

(٢) نفسه.

(٣) الدينوري ص ١٢٣ وفي الطبري وابن الأثير وابن كثير أن الذي قتل هو شهريار، والذي قتله هو نائل بن جعشم أبو نباته.

سعد يبعث البشرى إلى المدينة: اطمأن سعد إلى تلك النتيجة، وأبرأته أنباء النصر من علته وجمعت الغنائم بين يديه فكانت شيئاً لا يحصى ولا يحد، وبلغ نصيب الفارس ستة آلاف والراجل، ألفين، وأهل البلاء ألفين وخمسمائة[1] ونصيب أهل الأيام ثلاثة آلاف[2]. هذا كله سوى الخمس الذي فصله سعد ليبعث به إلى أمير المؤمنين في المدينة.

وكتب سعد بأخبار المعركة إلى أمير المؤمنين، وبعث بالكتاب مع سعد بن عميلة الفزاري قال فيه: أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحناهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبوه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وصفوف الآجام، وفي الفجاج.

وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاري، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله، فإنه بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل كدوي النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم[3] وكان عمر يخرج كل يوم إلى طريق العراق يسأل كل قادم عن أخبار المسلمين، ويستمر يترقب القادمين، ويتحسس الأخبار حتى ينتصف النهار، ثم يعود إلى منزله.

فلما جاء البشير لقيه عمر، وسأله، من أين؟ فأخبره، قال: يا عبده حدثني، قال البشير: هزم الله المشركين، وأخذ عمر يسرع في مشيته والرجل راكب ناقته، وهو لا يدري أن الذي يسأله هو أمير المؤمنين، حتى دخل المدينة، وسمع الناس يسلمون عليه بأمرة المؤمنين فعرف أنه عمر، فقال له: هلا خبرتني ـ رحمك الله ـ أنك أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لا بأس عليك يا

---

(١) هيكل ص ١٦٨.
(٢) الطبري (٥٦٨/٣)
(٣) ابن كثير (٤٦/٧).

أخي[1] وقرأ عمر الرسالة على المسلمين، فبشرهم، وأدخل السرور على نفوسهم، وإن كان موت الذين استشهدوا من المسلمين قد عكر عليهم صفو هذه الفرحة إلا أن عزاءهم فيمن مات منهم أنهم لقوا الله شهداء في سبيل إعلاء كلمته.

سياسة عمر المالية بعد القادسية

ثم التفت عمر إلى الناس وقال: إني حريص على ألا أرى حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض فإذا عجز ذلك عنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم، ولست معلمكم إلا بالعمل، إني والله لست بملك فأستعبدكم، ولكني عبدالله عرض عليَّ الأمانة فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت بكم، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتي شقيت بكم، ففرحت قليلاً، وحزنت طويلاً فبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب[2].

كان هذا الكلام من عمر - رضي الله عنه - إعلاناً عن حياة سيبدؤها مع المسلمين، تلك هي حياة التكافل والمصارحة، فهو يعلن أنه لن يدع حاجة للمسلمين إلا سدها، ويتمنى لو أن المسلمين اطلعوا على ما في نفسه لهم من الحب والخير، ويخبرهم بأنه لن يتكلم في هذا، ولكنهم سيلمسون ذلك عملاً يطبق في حياتهم. وكأن عمر كان يرى أن من واجب الخليفة أن يسعد الناس بما يدخل عليهم السرور في حياتهم فهو يعلن أنه سيواسي بين الناس حتى يعيشوا متقاربين سواء في الكفاف أم في الغنى، ويقول في صراحة إن ما تولاه من أمر المسلمين أمانة، فإن أدى حق الناس فيها سعد وسعدوا، وإن استغلها لمصلحته الخاصة شقي وشقوا، ثم لا يجد عند الله ملجأ ولا وزراً.

ولعل عمر - رضي الله عنه - أعلن ذلك، وهي سياسة جديدة لما فتح الله القادسية على المسلمين لأن القادسية باب فارس، ولأنها إذا فتحت على

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٣٧).
(٢) ابن كثير (٧/٤٦).

المسلمين ستفتح عليهم الدنيا، وقد خشي عمر أن يكون مال الفيء غنيمة للمجاهدين فقط، فأعلن أن المسلمين جميعاً شركاء فيه.

وكانت موقعة القادسية شغل الناس الشاغل سواء من العرب أم من العجم على حد سواء، وكان الناس ينتظرون نتائجها بفارغ الصبر، حتى أن الرجل يكون عنده الأمر الهام فيؤجل النظر فيه حتى تظهر نتيجة تلك المعركة الفاصلة التي ستحدد مصير المقاتلين، فإن كانت للعرب فهي نهاية العجم وإن كانت للعجم فهيهات أن تقوم للعرب بعدها قائمة.

ونحن رأينا أن العرب المسلمين قد أحرزوا فيها نصراً حاسماً حطم معنويات الفرس، وأذل كبرياءهم وقطع آمالهم في الانتصار على المسلمين، حتى أنهم في المعارك التي تلت معركة القادسية كان قتالهم يفقد الحماس الذي واجهوا به المسلمين في القادسية، وكانوا يفرون فرار النعام.

فالمسلمون يدخلون المدائن بدون مقاومة، ويتقدمون نحو نهاوند فيتحصن الفرس خوفاً من هزيمة محققة، ولا يخرجون من حصونهم إلا بحيلة دبرها المسلمون ليخرجوهم من حصونهم ليهزموهم الهزيمة التي لم يقاوموا بعدها، وسميت المعركة فتح الفتوح. لم يكن هذا الانتصار وليد عوامل مادية، فكل العوامل المادية كانت في مصلحة العجم حيث كانوا يملكون العدد الوفير والمال الكثير والعتاد المدمر والقيادة الفريدة، وفوق ذلك فهم في بلادهم يأتيهم المدد كلما دعت الحاجة إليه، بعكس المسلمين.

ولم يكن لمحض صدفة وحظّاً حظِيَ به المسلمون، فإن الصدفة لا تتكرر بشكل منتظم، والحظ لا يسير في اتجاه واحد أبداً، لأن الصدفة والحظ ليس لهما قانون ثابت يسيران عليه وإنما كان الانتصار في الحقيقة نتيجة عوامل روحية ونفسية انفرد بها المسلمون دون الفرس، إن المسلمين كانوا يقاتلون بعقيدة لا تضعف، وثقة في نصر الله كاملة. وكان قائدهم دائم الدعاء يلح على الله أن ينصر جنوده، وكانت معنويات المسلمين عالية لأن الحياة والممات عندهم سيان فالحياة نفحة من الله، فهم يحيون لينصروا دين الله. والممات شهادة في سبيل الله فهم يموتون من أجل إعلاء كلمة الله،

فحياتهم لله ومماتهم لله، وهم بهذه وذاك سعداء ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[1].

وأما الفرس فلم تكن لهم تلك العقيدة التي تبعث الأمل، وتحفز الهمم، وتوجه صاحبها إلى الصالح العام فصلتهم بالله مبتوتة، وتطلعاتهم إلى نصره مقطوعة، ثم هم لا يرجون من وراء هذه الحرب إلا المصالح الخاصة التي كثيراً ما يضن الناس بالتافه أن يبذل في سبيلها فهم كانوا أحرص على الحياة، وأعظم أملاً في المكث فيها.

ومن ناحية أخرى كانوا يعتقدون أنهم هم الذين يصنعون النصر بأيديهم، فلم ينتظروه من الله وقد عبر رستم عن ذلك قبل المعركة حين دعا فرسه فأسرج له، ثم وثب عليه فإذا هو على ظهره دون أن يمسه أو يضع رجله في ركابه، ثم قال:

غداً ندقهم دقاً، فقال له رجل: إن شاء الله، فقال رستم: وإن لم يشأ[2].

إن النصر لا يأتي لقوة ولا لكثرة، ولا لشجاعة ولا لجرأة، ولكن النصر من عند الله يمنحه من يشاء ولو كان أقل عدداً وأضعف سلاحاً، ويمسكه عمن يشاء ولو توفرت له كل أسباب القوة والغلبة.

وهناك جانب آخر له اعتباره في إحراز النصر، ذلك لأن المسلمين إنما كانوا يحاربون لرفع الظلم عن الناس، وإسعاد البشرية، وأما الفرس فكانوا يحاربون من أجل استعباد الناس وإذلال البشرية، وشتان بين باغي الخير وباغي الشر، وجدير بالخير أن ينتصر على الشر.

---

(١) الأنعام الآية: (١٦٢، ١٦٣).

(٢) الطبري (٣/٥٣٠).

فَتحُ المَدائِن

أقام سعد بالقادسية شهرين ينتظر أمر الخليفة وتوجيهاته، وفي هذه الفترة استجم المسلمون وأراحوا ظهورهم، وغنم المسلمون من القادسية المال والسلاح والكراع[1]، فكلهم مؤد فارس مما أنعم الله عليهم من غنائم القادسية.

ولأيام بقين من شهر شوال سنة ١٥هـ جاء خطاب عمر يأمر سعداً بالتوجه إلى المدائن، فخرج سعد على الناس، وأطلعهم على رسالة الخليفة، وقدم بين يديه زهرة بن الحوية، ثم اتبعه عبدالله بن المعتم، ثم شرحبيل بن السمط، ثم هاشم بن عتبة، وقد اتخذه خليفة له بدلاً من خالد بن عرفطة، وجعل خالداً على الساقة.

ونزل زهرة الكوفة، وقدم عليه عبدالله بن المعتم وشرحبيل، فتركهما وارتحل نحو المدائن، فلما وصل (برس) لقي جماعة من الفرس، فناوشوه فهزمهم، وطعن قائدهم بصبهري طعنة مات بسببها وهو في طريقه إلى بابل، حيث سقط في النهر ومات هناك عند بابل.

ولما هزم بصْبهرى جاء دهقان بُرْس فصالح زهرة وقدم الجزية، وعقد لزهرة الجسر وأخبره بأمر الفلول المجتمعين في بابل[2].

---

(١) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير (قاموس).

(٢) الطبري (٣/ ٦٢٠) وابن الأثير (٢/ ٣٥٢).

أقام زهرة (ببرس) وأرسل إلى سعد يخبره بأمر المجتمعين في بابل، فقدّم سعد عبدالله ثم شرحبيل وهاشماً، واتبعهم، ومن هناك سير زهرة في المقدمة ثم اتبعه عبدالله وشرحبيل وهاشماً واتبعهم حتى نزلوا جميعاً ببابل، واقتتل الفريقان: فلول الفرس بقيادة الفيرزان وجموع المسلمين بقيادة سعد، وأنزل المسلمون بتلك الفلول هزيمة لم يسمع في التاريخ بأسرع من وقوعها بجيش حتى وصفها المؤرخون المسلمون بقولهم: (فهزمهم المسلمون في أسرع من لفت الرداء)[1].

وعلى أثر تلك الهزيمة النكراء فر الهرمزان نحو الأهواز فانتهب ما فيها، وفر الفيرزان إلى نهاوند وبها كنوز كسرى فاستولى عليها، وأما النخيرجان ومهران فتوجها إلى المدائن حيث عبرا نهر دجلة، ثم قطعا الجسر حتى لا يعبر المسلمون.

وفي بابل أقام المسلمون أياماً بعد هزيمة الفرس، ثم بلغهم أن النخيرجان قد استخلف شهريار ـ دهقان من دهاقين الباب بكوثي في جمع من الفرس، فبعث إليهم سعد زهرة بن الحوية وخرج شهريار متحدياً جميع المسلمين يطلب المبارزة فبرز له نائل بن جعشم وقتله على نحو ما تقدم في قصة النخارجان، وأقام زهرة بكوثي حتى قدم عليه سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ فأخبره بما فعل نائل بالشهريار، فعزم عليه أن يلبس سلبه، فلبس سِوارَيه وقباءه ودرعه وركب برذونه، وأقبل على سعد في ملابس الشهريار، فقال له سعد: اخلع سواريك إلا أن ترى حرباً فتلبسهما.

وهنا نلاحظ حرص القائد على أن يظل جيشه على هيئته الإسلامية، ولم ينسه النصر واجبه نحو رعيته ولعل سعداً أدرك أن في هذا المظهر من مخالفة القواعد الشرعية ما يوجب عليه نصح جنوده فبذل لهم النصح وأمره بخلع السوارين، وأغلب الظن أنهما كانا من ذهب ولا يجوز للرجال لبس الذهب وحتى إذا لم يكونا من ذهب فإن السوار من لبس النساء. ولا ينبغي

---

(١) ابن كثير (٧/٦٠).

للرجال التشبه بالنساء، فأما في الحرب فإن في لبسهما دوافع للمسلمين ليفعلوا مثل ما فعل نائل بأعدائهم فيحصلوا على مثل ما حصل نائل.

وأقام سعد مع جنده بكوثي أياماً، وذهب إلى المكان الذي كان يجلس فيه سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بكوثي، وأتى البيت الذي كان إبراهيم محبوساً فيه، فنظر إليه، وصلى على رسول الله وعلى إبراهيم وعلى أنبياء الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ ثم تلى: «وتلك الأيام نداولها بين الناس»[1].

موقعة بهرسير: كانت تلك المعارك السابقة على غير استعداد من المسلمين، وإنما فرضها الموقف عليهم فرضاً، فواجهوها بما تستحق من الاهتمام والعناية، وأحرزوا فيها ذلك النصر المؤزر، وبعد معركة كوثي وفرار الفرس وتفرقهم في البلاد، توجه سعد بجيشه نحو بهرسير، وهي إحدى مدينتي كسرى، وتقع على الشاطىء الغربي لنهر دجلة، ولأهميتها سماها المؤرخون المدائن الغربية[2].

اهتم المسلمون بفتح بهرسير التي يسميها ابن كثير (نهرشير) لأنها كانت تعتبر خط الدفاع الأول عن العاصمة المدائن الشرقية، وهي إحدى المدن السبع التي أطلق عليها اسم المدائن.

إن كسرى كان قد حشد فيها قوة هائلة آملاً أن ترد المسلمين أو على الأقل تؤخر تقدمهم حتى يستطيع الانسحاب بنسائه وأولاده وما يريد حمله عند مغادرة العاصمة.

وكان كسرى يرى أن دجلة هو خط الدفاع الثاني عن عاصمته، ولعل ذلك هو الذي دعاه إلى الاطمئنان حينما علم بأن المسلمين قد فتحوا القادسية وهم في طريقهم إلى المدائن ولكنه لما رأى تصميم المسلمين على محاصرة بهرسير حتى تفتح لهم عرض عليهم الصلح. تقدم زهرة بن الحوية

---

(١) الطبري (٢/٦٢٢)، ابن الأثير (٢/٣٥٣)، ابن كثير (٧/٦١).
(٢) ابن الأثير (٢/٣٥٤).

نحو بهرسير، وقبل وصوله إليها جاءه دهقان ساباط وطلب الصلح فأرسله زهرة إلى سعد فصالحه على الجزية، وبينما زهرة يتقدم نحو هدفه التقى بكتيبة بوران بنت كسرى التي كانت تحكم البلاد قبل يزدجرد، وكانت تلك الكتيبة تحلف كل يوم ألا يزول ملك فارس وهم أحياء، وأقبل سعد في جنوده، ونزل بمكان يعرف بمظلم ساباط، وهناك التقى بالكتيبة السابقة وكان في مقدمة الكتيبة أسد كبير لكسرى يسمى المقرّط، قد أوقفوه في طريق المسلمين لعله يرهبهم فيخافون ولا يتقدمون، ولكن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص تقدم نحو الأسد وضربه بسيفه ضربة قضت عليه والناس ينظرون إلى هاشم وهو يتقدم نحو الأسد ويعجبون بشجاعته وصرامة سيفه حتى سمى سيفه يومئذ بالمتن.

ورأى سعد ما فعل ابن أخيه فقبل رأسه، وقبل هاشم قدم عمه، وحمل هاشم على الفرس بعد قتل الأسد فهزمهم هزيمة فرقت جماعتهم، وأزالتهم عن مواقفهم، وأخذ يتلو قوله تعالى: ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال﴾[1].

وفي هدأة الليل، وصفاء السماء، وتلألؤ الكواكب سارت جحافل المسلمين تشق طريقها نحو بهرسير، ولم يكد الصبح يتنفس، وترسل الشمس أشعتها الذهبية على صفحة النهر الفضي، حتى أبصر المسلمون إيوان كسرى يلوح لهم من وراء النهر، عندئذ قال ضرار بن الخطاب: (الله أكبر، أبيض كسرى، هذا ما وعد الله ورسوله، وكبر فكبر المسلمون)[2].

وأخذت كتائب المسلمين تقدم على بهرسير واحدة تلو الأخرى، وكلما وصلت كتيبة كبرت وكبر المسلمون حتى وصلت كتيبة سعد فكبرت وكبر المسلمون واجتمع جيش المسلمين عند بهرسير في شهر ذي الحجة سنة ١٥ هـ، وأقام المسلمون عندها شهرين.

---

(١) الطبري (٣/٦٢٣) وابن الأثير (٢/٣٥٤) والآية من سورة إبراهيم رقم ٤٤.
(٢) ابن الأثير (٢/٣٥٤).

وحاصر سعد بهرسير، وبث خيوله في جهات مختلفة، فأغارت على من ليس لهم عهد عند المسلمين فأصابوا مائة ألف فلاح، وأخذ فيهم رأي الخليفة، فأخبره بأن من كانوا مقيمين ممن لم يعينوا عليكم فهو أمانهم، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به، فأطلقهم سعد، وأرسل إلى الدهاقين فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية، ولهم الذمة والمنعة، فقبلوا الجزية والمنعة، وأمنهم سعد، واغتبط الفرس بملك الإسلام.

وشدد سعد الحصار، ورمى المدينة بالمجانيق، وقربوا إليهم الدبابات، وقاتلوا بكل عدة ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً، فشغلوا الفرس، وأجبروهم على الخروج للقتال مرغمين، ولكنهم لم يطيقوا الحرب، فتواصوا بالصبر عليها، فقاتلهم المسلمون، فلم يثبتوا لهم، ولاذوا بالمدينة واشتد الحصار عليهم حتى أكلوا السنانير والكلاب[1].

وبينما المسلمون يشددون الحصار إذ أشرف عليهم رسول يزدجرد، وقال: الملك يقول لكم: هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة إلى جبالنا، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم؟ لا أشبع الله بطونكم[2].

ورفض المسلمون ذلك العرض، ورأى الفرس إصرار المسلمين على فتح المدينة عنوة، ففروا إلى المدائن، وتركوا بهرسير خالية، فدخلها المسلمون بغير قتال، وأنزل سعد المسلمين منازلهم ثم أراد العبور إلى المدائن، فوجد الجسور مقطعة، والمراكب قد أحرزت إلى الشاطىء الشرقي ووجدوا دجلة يحول بينهم وبين ما يريدون.

المسلمون أمام النهر: دخل المسلمون بهرسير في صفر سنة ست عشرة بعد حصار دام شهرين وقد وجد المسلمون أنفسهم أمام نهر دجلة، وقد أقاموا عليه أياماً، وجاء علج من علوج الفرس إلى سعد، وحاول أن يدله

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٥٥).

(٢) نفسه.

على مخاضة يمكنه أن يقتحم منها النهر فيخرج على الشاطىء الآخر ولكن سعداً تردد خوفاً على المسلمين، ولعله ذكر وصية الخليفة التي أوصاه بها وهي ألا يعرض المسلمين للمخاطر فأحجم ولم يتقدم.

ولم تمض أيام حتى جاء الفيضان، وعم السيل، وأصبحت دجلة تقذف بالزبد، وأسود ماؤها لما تحمله السيول من الأتربة، والماء يطمو ويرتفع حتى امتلأ به النهر وفاض.

وفي الليل وبينما سعد في نومه رأى أن خيل المسلمين اقتحمت دجلة وعبرت، فاستيقظ من نومه مستبشراً، وعزم على تعبير الرؤيا بعبور النهر، فجمع المسلمين، وخطبهم قائلاً: بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا، فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، فقد كفاكموهم أهل الأيام، وعطلوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم، فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل.

لم يكن أحد يتوقع هذه الإجابة السريعة من قوم قد جهدوا في حرب عدوهم، بل كان المراقب للموقف الدقيق يتوقع أن يتذكر المسلمون وقعة الجسر، وما حل بإخوانهم فيها وكان ينتظر أن يتردد المسلمون على الأقل قبل اتخاذ مثل هذا القرار الخطير.

إن العرب لم يتعودوا التعامل مع البحار والأنهار، ولم يكن لهم سابقة عهد بركوبها بله خوضها والقتال على متنها، فكيف اتخذوا هذا القرار الخطير باقتحامها وعبورهم إلى أعدائهم بهذه السرعة، وبغير تفكير أو دراسة للأمر؟.

أغلب الظن أن المسلمين قد لمسوا تأييد الله لهم بانتصاراتهم على عدوهم، فلم يخامرهم شك في عون الله ـ عز وجل ـ لهم، ولم يغب عن أذهانهم أنه ـ سبحانه ـ متم نوره ومظهر دينه ومن جانب آخر فإن قائدهم الذي خطبهم، وحرضهم على الاقتحام قد عزم على ذلك وهو إذا عزم لم يثنه عن

عزمه، ولا تستطيع عقبة ـ مهما عظمت ـ أن تحول بينه وبين ما أراد، أما وقد لمس المسلمون منه ذلك العزم الأكيد، ووثقوا من همته العالية التي لم تعرف التردد فما لهم لا يتخذون ذلك القرار بهذه السرعة؟.

وكان القرار الذي غير وجه التاريخ في تلك البقعة من الأرض. إن الذي يتأمل هذه الكلمات وهي تخرج من أفواه المسلمين يعتقد أنهم جميعاً كانوا على شوق إلى اتخاذ هذا القرار، فبادروا بتأييده قبل أن يطرأ ما يستدعي تأجيله.

عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل، كان هذا التأييد الصريح لقرار سعد ـ رضي الله عنه ـ مما شجعه على المضي في تنفيذه، ولم يترك سعد الأمر، حتى لا يتلجلج في صدور بعض الناس أو يجد الشيطان فرصة يدخل من خلالها إلى قلوب فريق منهم، فقال على الفور: من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج؟.

فخرج عاصم بن عمرو، وخرج معه ستمائة من ذوي البأس والنجدة، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف قائدهم، فأمر عليهم عاصم بن عمرو ذا البأس، وسار بهم عاصم حتى وقف على شاطىء دجلة، وبرز عاصم وقال: من ينتدب معي لنمنع الفراض من عدوكم، ولنحميكم حتى تعبروا؟.

فخرج له ستون منهم أصم بن ولاد، وشرحبيل بن السمط وأمثالهما، فجعلهم عاصم نصفين نصف على خيول إناث يتبعها النصف الآخر على خيول ذكور، حتى يكون ذلك أساس لسيرهم وأدعى إلى عوم الخيل.

وبدأ عاصم فاقتحم، واقتحم وراءه رجاله الذين نذروا أنفسهم لحماية إخوانهم، وعرفت هذه الكتيبة بكتيبة الأهوال، لما صنعت بالعجم في الماء ساعة العبور.

وأما بقية الستمائة فقد كان عليهم القعقاع بن عمرو أخو عاصم، فلما رأى عاصماً قد اقتحم هو ورجاله اقتحم كذلك في بقية الناس، وسميت كتيبة القعقاع بالكتيبة الخرساء[١].

---

(١) الطبري (٤/٩ ـ ١١). ابن الأثير (٢/٣٥٦).

معركة بحرية على الخيل: كان الفرس على شاطىء دجلة الشرقي يرقبون جيش المسلمين وينظرون ماذا سيفعلون في التغلب على تلك العقبة الكؤود، ولم يدر بخلدهم قط أنهم سيجرؤون على اقتحام تلك اللُجَّة، وبخاصة بعدما قحمهم المد، وزاد جريان السيل، ولكنهم فوجئوا بأن الكتائب تتابع متنافسة في خوض النهر الذي كان يعتمد يزدجرد عليه كحصن طبيعي يحتمي خلفه، ويظن أنه مانع عاصمته من أن يصل إليها عدو مهما كانت قوته.

وأخذت الفرس الدهشة وهم يرون خيل المسلمين تعبر النهر فقالوا: مجانين مجانين وقال بعضهم لبعض: إنكم لا تحاربون إنساً ولكن تحاربون الجن[1].

وحاول العجم وقف هذا التيار المتدفق، وصد هذه الموجة العارمة التي تتحدى القصر الأبيض وجاءت لتطرد منه أهله، وتستولي عليه بعزة الإسلام وكرامة المسلمين، وأنزل الفرس كتيبة من الخيل يواجهون بها خيل المسلمين الزاحفة لتحطيم عرش كسرى الذي كان يزعم أنه ربيب الآلهة، وإزالة الخرافة التي سيطرت على الناس حيناً من الدهر من أن آل ساسان هم أحفاد الرب، وورثة الحق الإلّهي.

وتواجهت الخيل بالقرب من الشاطىء الشرقي، وكان عاصم بن عمرو قائد كتيبة الأهوال في طليعة المسلمين، فنادى في رجال كتيبته، الرماح الرماح، اشرعوها وتواخوا العيون[2]. وشرع المسلمون رماحهم، وطعنوا بها عيون الرجال وعيون الخيل على حد سواء، وحاول الفرس تثبيت الخيل ليردوا بها المسلمين، ولكن هيهات، فقد رأت خيولهم من هجمة المسلمين ما لا يدع لها مجالاً للثبات، فولت مدبرة لم يستطع فرسانهم منعها من الهرب ولحقهم المسلمون فقتلوا منهم عدداً كبيراً، ومن نجا منهم عاش أعور.

---

(١) الطبري (١٤/٤).
(٢) ابن الأثير (٣٥٦/٢).

ووصل عاصم إلى الفرضة الشرقية، وتبعه رجاله، ثم لحقتهم الكتيبة الخرساء، وتوافوا جميعاً على الفرضة، وطارد المسلمون حامية الفرضة من الفرس حتى أجلوهم عن مواقفهم واضطروهم إلى مغادرة الشاطىء حيث وقف المسلمون يحمون إخوانهم المتهيئين للعبور. ولما تأكد سعد من أن الفرضة قد سيطرت عليها القوات الإسلامية، أمر رجاله بالعبور، وقال لهم: قولوا: (نستعين بالله، ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[1].

واقتحم سعد دجلة، واقتحمه المسلمون لم يتخلف منهم أحد وسار الناس على الماء وكأنهم يسيرون على الأرض حتى ملأوا ما بين الشاطئين، ولم ير وجه الماء لكثرة الفرسان والرجالة وقد حدث للمسلمين من الطمأنينة والأمان ما جعلهم يمزحون ويتحدثون وكأنهم في مجالسهم لم يفقد المسلمون أحداً من رجالهم، غير أن رجلاً يقال له: غرقدة البارقي زلّ عن فرس له شقراء، فأخذ القعقاع بلجامها، وأخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه، فقال الرجل: عجزت النساء أن يلدن مثل القعقاع بن عمرو[2].

وكما لم يفقد المسلمون أحداً من رجالهم، لم يفقدوا شيئاً من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له: مالك بن عامر، كانت علاقته رثة، فأخذه الموج، فدعا صاحبه الله ـ عز وجل ـ اللهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي، فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه[3].

ولا يستطيع إنسان أن يفسر هاتين الحادثتين إلا على أنهما من الأدلة القاطعة على عبور المسلمين على سطح الماء، إن الله ـ عز وجل ـ قد أراد أن يسقط غرقدة من فوق فرسه وأن تقطع علاقة قدح مالك ليبرهن للناس جميعاً أن المسلمين قد عبروا دجلة وهو مفعم بالماء، ولم يعبروا من

---

(١) الطبري (١٠/٤) ابن كثير (٦٥/٧) ابن الأثير (٣٥٧/٢).
(٢) ابن كثير (٦٥/٧).
(٣) نفسه، ابن الأثير (٣٥٧/٢).

مخاضة، وأنهم قطعوه سباحة على الخيل، ولم يجمد لهم الماء، وقد وصف ابن كثير هذا الذي حدث للمسلمين بقوله: وكان يوماً عظيماً وأمراً هائلاً وخطباً جليلاً، وخارقاً باهراً، ومعجزة لرسول الله ﷺ خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها في تلك البلاد، ولا في بقعة من البقاع.

إن الإنسان لا يجد تفسيراً لهذا الحادث إلا على هذا النحو، إنه معجزة للنبي ﷺ أجراها الله على يد المجاهدين الغازين في سبيله، حتى أن الفرس إذا تعب وأعيا، ينشز له تلعة فيستريح عليها، وحتى سمى يوم دجلة يوم الجراثيم[1].

وكان يسير إلى جوار سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي - رضي الله عنهما - فقال سعد: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه، وليظهرن دينه، وليهزمنّ عدوه إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات.

فقال سلمان: الإسلام جديد، ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً[2].

وخرج المسلمون من البحر أفواجاً، تنفض خيولهم أعرافها لها صهيل لم يغرق منهم أحد، ولم يفقد لهم متاع، وواجهت خيول المسلمين بعد عبورها حامية الفرضة من جيوش الفرس، وتقاتلوا قتالاً شديداً، حتى أتى آت فقال للفرس: علام تقتلون أنفسكم؟ فوالله ما في المدائن أحد[3].

استسلام المدائن

نعم لم يكن في المدائن أحد، فقد هرب يزدجرد وحمل عياله إلى حلوان قبل أن يغادر المدائن وأخذ معه كل ما خف حمله وغلا ثمنه من حر

---

(١) الطبري (١٣/٤) والجرثومة التراب المجتمع.
(٢) ابن الأثير (٣٥٧/٢).
(٣) الطبري (١٣/٤).

المتاع وخفيفه، فعلام يقاتل إذن هؤلاء المجانين؟ وهل يوجد أحد في المدائن وقد فر منها من هو أحق الناس بالدفاع عنها، لا بد أنها بفرار كسرى تكون قد خلت تماماً من السكان إذ لا يعقل أن يترك الناس ملكهم يهرب وحده...

وأول من دخل المدائن كتيبة الأهوال بقيادة عاصم بن عمرو، ثم الكتيبة الخرساء بقيادة أخيه القعقاع بن عمرو، وراحوا يطوفون سككها وشوارعها، فلا يعثرون على أحد يخشونه ودخل الناس تباعاً دون أن يلقوا مقاومة تذكر.

وقف المسلمون أمام القصر الأبيض، وقد بهرتهم زخارفه وزيناته، وأدهشتهم ضخامته وشرفاته فراحوا يتأملونه والعجب يستولي على عقولهم، وتذكروا وعد الله لهم، وبشرى رسول الله ﷺ وبينما هم مستغرقون في تفكيرهم، هائمون في تأملاتهم إذ وجدوا جماعة من الفرس متحصنين في القصر، فدعاهم سعد على لسان سلمان الفارسي - رضي الله عنه - وكان سلمان رائد المسلمين، وداعية أهل فارس، فدعاهم سلمان كما دعا أهل بهرسير وأمهلهم ثلاثاً[1].

وكان دعاؤه لهم أن يقول: إني منكم في الأصل، وأنا أرق لكم، ولكم في ثلاث أدعوكم إليها ما يصلحكم: أن تسلموا فإخواننا لكم مالنا، وعليكم ما علينا، وإلا فالجزية، وإلا نابذناكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين[2].

فلما مضى اليوم الثالث أبى أهل بهرسير فقاتلهم المسلمون، وأما أهل القصر فقبلوا وخرجوا ونزلوا على الجزية والمنعة، ولما علم أهل المدائن ماتم من الصلح بين المسلمين ومن كانوا في القصر رجعوا إلى المدائن، وأدوا الجزية، وعاشوا في كنف المسلمين وحمايتهم.

---

(١) الطبري (١٤/٤).
(٢) الطبري (١٤/٤).

وأمر سعد زهرة أن يتتبع المنهزمين، ويطاردهم حتى لا تكون لهم عودة، فطاردهم إلى النهروان شمالاً ثم إلى مثل تلك المسافة من جميع الجهات.

ودخل سعد االقصر الأبيض، واتخذ الإيوان مصلى، ولم يغير ما فيها من التماثيل وتجول في أبهاء القصر وأنحائه، وقد لفت نظره ما كان يتمتع به أصحاب القصر من النعيم والزخرف والأبهة فتلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾.

وصلى سعد بالإيوان صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهن، وأتم سعد الصلاة منذ دخلها لأنه كان قد عزم على الإقامة فيها، كما صلى في الإيوان أول جمعة في صفر سنة ست عشرة[٢].

شبهة وتحقيق: يروي لنا التاريخ على ألسنة المؤرخين القدامى والمحدثين أن الذي دفع سعداً - رضي الله عنه - إلى اقتحام لجة البحر، وارتكاب تلك المغامرة الخطرة، وتعريض أرواح المسلمين للهلاك إنما هو حرصه على اقتناء أموال كسرى والحصول عليها قبل أن يهرب بها من المدائن.

روى ذلك الطبري وابن الأثير وابن كثير من القدامى كما رواها الخضري وهيكل وغيرهما من المحدثين وأنا لا أعتقد أن سعداً يخاطر بأرواح المسلمين من أجل الحصول على المال، وهو الذي رفض أن يعبر بهم عن طريق المخاضة خوفاً عليهم، ووصية أمير المؤمنين له بعدم تعريض المسلمين للخطر لا تزال ماثلة أمام عينيه، ثم أننا قد رأينا أن هؤلاء الذين عبر بهم سعد ليحصل على المال كانوا أزهد الناس في هذا المال حتى أن

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٥٨)، الطبري (٤/١٦)، ابن كثير (٧/٦٦).

(٢) الطبري (٤/٦٦).

أمير المؤمنين لما وصله الخمس مع بشير بن الخصاصية وكان معه السفطان والبساط وغيرها من أنواع التحف نظر إليها عمر وقال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء فأجابه علي، عففت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا.

إن قوماً تطيب نفوسهم بالتنازل عن هذه التحف والألطاف والأدهان والحواصل يذهب بها إلى المدينة لتوزع على المسلمين هناك لا يمكن أن يغامروا بأرواحهم في سبيلها ومن أجل الحصول عليها وأن الذي تميل إليه النفس في ذلك هو أن الخليفة كان يلح على فتح المدائـن وكانت رسائله تترى على القائد الفاتح بألا يدع الفرس يتجمعون، وعليه أن يلاحقهم ويطاردهم حتى لا تقوم لهم قائمة.

كان سعد ـ رضي الله عنه ـ أمام إلحاح الخليفة لا يستطيع أن يرد بغير الإيجاب، وكان عليه أن يصدع بالأمر ولا يتلكأ في تنفيذه، إن سعداً يعلم أن عدم تنفيذ أمر الخليفة معناه العزل من هذا المنصب، ولم يكن سعد يحرص على المنصب لما يناله به من جاه وسلطة، ولكنه كان يحرص عليه أشد الحرص لأنه أقرب الطرق إلى الجنة التي حرص عليها كل مؤمن فالجهاد كما أخبر الرسول ﷺ ذروة الأمر وسنامه.

وإذا أضفنا إلى ذلك الرؤيا التي رآها سعد، وعلى أثرها عزم على عبور النهر لعلمنا من ذلك السبب الحقيقي الذي دفع القائد إلى ركوب لجة البحر.

المسلمون والغنائم: لما فتح المسلمون المدائن فتحت عليهم الدنيا فقد جمعوا من أموال كسرى مالا يحصيه عد أو يحصره حد، حيث كانت الأموال السائلة في خزائن القصر الأبيض ثلاثة آلاف ألف ألف، حمل منها يزدجرد حين خـرج إلى القادسية مائة وخمسين ألف ألف أي النصف، ووجد المسلمون النصف بتمامه فحملوه[1].

لقد شغل يزدجرد عن أخذ هذه الأموال بغيرها من أنواع النفائس

---

(١) الطبري (١١/٤).

والتحف والمجوهرات ويبدو أن الناس لم يخطر ببالهم قدرة المسلمين على عبور دجلة، فكانوا مطمئنين على أرواحهم وأموالهم ولكنهم لما فوجئوا بعبور المسلمين أخذوا ينهبون كل ما يقع تحت أيديهم من الأموال، ومع كثرة السلب والنهب، ومع وفرة ما حمل يزدجرد معه فإن الخزائن لازالت مترعة غاصة بالأموال حتى قال ابن الأثير: وتركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفصول والألطاف والأدهان مالا يدرى قيمته.

كذلك تركوا ما كانوا قد أعدوه للحصار من الطعام والبقر والغنم فغنمه المسلمون وعثر المسلمون على قبال مسلسلة بالسلاسل فحسبوه طعاماً فإذا هي مملوءة بأواني الذهب والفضة، ورأى المسلمون بعض الفرس يسيرون ببغال فأمسكوها وأخذوها منهم فإذا عليها ثياب كسرى وخرزاته ووشاحه ودرعه المحلى بالجواهر وتاجه المرصع بالجواهر، وملابسه المنسوجة بالذهب المنظومة بالجواهر. وقتل القعقاع فارسياً وأخذ ما معه فإذا هي دروع لكسرى وهرقل وخاقان وداهر والنعمان وهؤلاء ملوك هزمهم الفرس واستولوا على هذه الدروع منهم.

وأدرك رجل من المسلمين فارسيين يقودان حمارين، فأخذهما فإذا على أحدهما سفطان في أحدهما حصان من ذهب بسرج من فضة، وفيه فارس من فضة مكلل بالجوهر، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب، وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر.

وجاء رجل بشيء عجيب لم يروا مثله مع كثرة ما وجدوا، وسأله صاحب الأقباض، هل أخذت منه شيئاً؟ فقال الرجل: لا والله، ولولا الله ما أتيتكم به، فقالوا: من أنت؟ فقال: والله لا أخبركم فتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه، فاتبعوه رجلاً، فإذا هو عامل ابن عبد قيس[1]. والذي يدهش من بين هذا كله ذلك القطيف (البساط) الذي

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٣٦٠).

عثر عليه العرب المسلمون وهم يبحثون في القصر، وكان مربَّع الشكل ستين ذراعاً في مثلها، وكان الأكاسرة يعدُّونه للشتاء إذا ذهبت الريح شربوا عليه فكأنهم في رياض.

وكان فيه طرق كالصور، وفيه فصوص كالأنهار أرضها مذهّبة، وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافتيه صورة مبقلة، وأخرى مزروعة، وأوراق الزرع من الحرير على قضبان الذهب وأمّا الزهر فهو من الذهب والفضّة، وأمّا الثمر فمن الجواهر الكريمة[1].

وقد كان تاج كسرى عظيماً ضخماً لا يستطيع حمله فكان ينصب له الكرسي تحته، ويشد بسلاسل الذهب فكان كسرى يجلس في مجلسه، وأمامه البساط السابق الذكر، وكان في البساط فوق ما ذكرنا مصور لجميع المدن والبلدان التي تحت سيطرة كسرى (كالخريطة) ويتضح في ذلك المصور الأنهار والقلاع والأقاليم والكنوز، والمزارع.

فكان إذا جلس في مجلسه، ودخل تحت تاجه، وهو بكامل زيّه وهيئته، يسأل عن هذه البلاد واحدة واحدة، ويتعرَّف على حكّامها وأحوالها، وما جرى فيها من الأحداث ليقف على كل ذلك بنفسه ولا يهمل أمر المملكة، ولا يقصر في سياستها وإدارتها[2].

جمع المسلمون كل هذه النفائس، ولم تتطلع نفوسهم إلى شيء منها إلّا ما يحله لهم الأمير ولم نسمع أنَّ رجلاً منهم غلَّ أو سرق، أو طمع في شيء مما وجده، بل كان كل رجل منهم يذهب بالأسلاب وما يجده من هذه العجائب التي تخلب العقول بنفاستها، وتجذب القلوب بزينتها ويسلمها وافية صافية إلى صاحب الأقباض ولقد رأينا ذلك الرجل الذي أحضر كثيراً من النفائس فسأله القابض، هل أخذت منها شيئاً؟ فكانت إجابته، لولا الله ما رأيتم منها شيئاً.

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٣٦٠).

(٢) ابن كثير (٧/ ٦٦ - ٦٧).

إنَّهم إذن كانوا يراقبون الله في كل أحوالهم: في السر والعلن والسلم والحرب والأمن والخوف وكانوا لا يفقدون أحلامهم في المواقف التي تفسد على اللبيب رأيه وحلمه، وكانت الإغراءات مهما بلغت لا تبلغ من نفوسهم إلَّا بقدر ما يرى فيها مما يحل له.

تلك كانت حال المسلمين ومواقفهم التي تجبر التاريخ على أن يطأطىء لها رأسه معظّماً ومكبّراً لهم زهدهم فيما تنافس الناس في جمعه، وإخلاصهم لدينهم الذي أعزَّهم الله به. ومراقبتهم الله عزَّ وجلَّ - الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ولقد بلغت أمانة الناس يومئذٍ حداً يضرب به المثل حتى كان الرجل يأتي بالأحمال العظام وهو لا يدري ما فيها ولا تسول له نفسه أن ير ما فيها، وإنَّ سعداً - رضي الله عنه - ليلمس ذلك بنفسه فيقول: والله إنَّ الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وأيم الله - على فضل أهل بدر - لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء[1].

إنَّ جابر بن عبدالله - رضي الله عنه - لتدهشه أمانة القوم وزهدهم فيقول: والله الذي لا إله إلَّا هو، ما أطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم وهؤلاء الثلاثة الذين عناهم جابر هم: طليحة بن خويلد الأسدي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وقيس بن المكشوح[2] ولعلَّ جابرا ومن معه ممن اتُهم هؤلاء الرجال إنَّما اتُهموهم لأنَّهم كانوا من رؤوس المرتدين وممن حاربهم أبو بكر - رضي الله عنه - ولكنَّ هذه المعارك قد أثبتت حسن إسلامهم، وتمام إيمانهم حتى وجدوا من أعظم الناس أمانة وزهداً.

كان الذي تولى أمر القبض هو عمرو بن عمرو المزني، والذي تولى تقسيم الغنائم سليمان بن ربيعة الباهلي.

---

(١) الطبري (١٩/٤).

(٢) نفسه.

خمّس سعد الغنائم، واستأذن الفاتحين في أن يرسل البساط والسفطين وكل ما يعجب العرب رؤيته إلى أمير المؤمنين فأذنوا له طيبة نفوسهم، فأرسل بالخمس وما معه من الطرف مع بشير بن الخصاصية، وأمره أن يذهب به إلى المدينة ويقدمه إلى أمير المؤمنين هناك.

وهناك عرض عمر البساط على الناس بعد أن فرّق الخمس على المسلمين، وسألهم ماذا يفعل به، فقال بعض الناس: إنّه لك وأنت مفوَّض فيه، وقال بعضهم: رأيك فيه يا أمير المؤمنين، ثمّ قام علي - رضي الله عنه - فقال: يا أمير المؤمنين، الأمر كما قالوا، ولم يبق إلاّ التروية، إنّك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له.

قال عمر: صدقتني ونصحتني، وقطعه بينهم، فأصاب عليّاً قطعة منه، فباعها بعشرين ألف وما هي بأجود تلك القطع[1]. ودعا عمر - رضي الله عنه - محلماً، وكان رجلاً جسيماً، فنصب له تاج كسرى على عمودين من خشب وألبسه ملابسه، وأحلسه للناس، فنظروا إليه، ونظر إليه عمر، وأخذ يغير له ملابس كسرى زياً بعد آخر كما ألبسه سيفه ومنطقته، والناس ينظرون ويعجبون مما يشاهدون، وعندئذٍ قال عمر: إنَّ قوماً أدوا هذا لذوا أمانة، وأعطى سيف كسرى لمحلِّم[2]. وقسم سعد أربعة أخماس الفيء على الناس فأصاب كل فارس - وكلهم كان فارساً - اثنا عشر ألفاً، وكان عدد الجيش ستين ألفاً. وأتمّ سعد الصلاة وصام، واتّخذ الإيوان مسجداً لصلاة الأعياد ونصب فيه منبراً فكان يصلي فيه - وفيه التماثيل - ويجمع فيه، فلمّا كان الفطر قيل: ابرزوا، فإنَّ السنة البراز في العيدين، فقال سعد: صلوا فيه، قال: فصلوا فيه، وقال: سواء في عقر القرية أو في بطنها. وقسم سعد المنازل، وبعث إلى العيال فأنزلهم الدور وفيها المرافق، فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وتكريت والموصل، ثمّ تحولوا إلى الكوفة[3].

---

(١) الطبري (٤/٢١ - ٢٢).

(٢) نفسه (٤/٢٣).

(٣) نفسه (٤/٢٠ - ٢١)، ابن الأثير (٢/٣٦٠).

معركة نهاوند

نهاوند مدينة تقع جنوب همذان، وإلى الشمال الشرقي للمدائن، وفيها توافى الفرس واجتمعوا لحرب المسلمين، وتعتبر من بلاد الجبال، دارت فيها معركة عنيفة بين المسلمين بقيادة النعمان بن مقرن - رضي الله عنه - وبين الفرس بقيادة الفيرزان.

بلغت جنود الفرس في تلك المعركة مائة ألف وخمسين ألفاً، وأمَّا جند المسلمين فكانوا ثلاثين ألفاً، وكان ذلك على الأرجح في سنة واحدة وعشرين من الهجرة في خلافة عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه.

سبب المعركة:

لقد ظلَّ المسلمون في بلاد فارس منذ فتحوا المدائن سنة ست عشرة في صفر وهم هادئون هانئون، لم يشتركوا في معركة كبيرة مدَّة خمسة أعوام تقريباً، وكانت البلاد تهادنهم وتصالحهم، فلما فتح المسلمون الأهواز، واستولوا على دار الملك القديم في اصطخر ومنعوا جيش العلاء من أيديهم، واستولوا على المدائن غاظ ذلك أهل فارس، فتكاتبوا فيما بينهم، وكتب بعضهم إلى يزدجرد الذي كان قد فرَّ من المدائن إلى حلوان ثمَّ إلى قم ثمَّ إلى أصبهان. ويبدو أنَّ هذه الكتب قد أحيت في نفس يزدجرد أملاً بعد يأس كاد يودي به فاستجاش يزدجرد الناس، واجتمعوا في نهاوند. حضر من الباب إلى حلوان ثلاثون ألف مقاتل، ومن خراسان إلى حلوان ستون ألف مقاتل، ومن سجستان وفارس إلى حلوان ستون ألف مقاتل، واجتمعوا على

الفيرزان[1] وتشاورت هذه الآلاف المؤلَّفة فيما بينهم، فقالوا: إنَّ محمداً ﷺ الذي جاء العرب لم يتعرَّض لبلادنا، ولا أبو بكر الذي قام بعده تعرَّض لنا في دار ملكنا، وإنَّ عمر بن الخطاب هذا لمَّا طال ملكه انتهك حرمتنا، وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى غزانا في عقر دارنا، وأخذ بيت المملكة، وليس بمنته حتى يخرجكم من دياركم، فتعاهدوا وتعاقدوا على أن يقصدوا البصرة والكوفة ثم يشغلوا عمر عن بلاده[2].

عمر يستشير أصحابه:

وصل الخبر عمر بن الخطاب، وتأكَّد لديه ما عزم عليه الفرس، فاجتمع بالمسلمين في المدينة، وقال لهم: هذا يوم له ما بعده، وقد هممت أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه، فأنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين، ثمَّ أستنفرهم، وأكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم، ويقضي ما أحب فإن فتح الله عليهم صببتهم في بلدانهم[3].

فقام طلحة بن عبيدالله، وفوَّض الأمر لأمير المؤمنين يقضي فيه بما يوفقه الله له، فلمَّا جلس قام عثمان فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثمَّ تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى الكوفة والبصرة، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنَّك إن سرت بمن معك، قل عندك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزاً وأكثر يا أمير المؤمنين، إنَّك لا تستبقي بعد نفسك من العرب باقية، ولا تمنع من الدنيا بعزيز، ولا تلوذ منها بحريز، إنَّ هذا يوم له ما بعده من الأيام فأشهده برأيك وأعوانك، ولا تغب عنه، وجلس.

فقال عمر: إنَّ هذا يوم له ما بعده، فتكلموا أيها الناس، فقام علي ابن أبي طالب، فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين فإنَّك إن أشخصت أهل الشام من

---

(١) الطبري (١٢٢/٤).
(٢) ابن كثير (١٠٦/٧).
(٣) ابن الأثير (٣/٣).

شامهم سارت الروم إلى ذراريهم وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم. وإنَّك إن أشخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات.

أقرر هؤلاء في أمصارهم، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق: فرقة في حرمهم وذراريهم، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم، إنَّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير للمؤمنين أمير العرب وأصلها فكان ذلك أشد لكلبهم عليك، وأمَّا ما ذكرت من مسير القوم فإنَّ الله هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأمَّا ما ذكرت من عددهم فإنَّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، ولكن بالنصر. فقال عمر: هذا هو الرأي كنت أحب أن أتابع عليه[1].

اختيار القائد:

قال عمر: أشيروا عليَّ أيها الناس برجل أوليه هذا الأمر، وليكن عراقياً. فقال الناس: أنت أخبر برجالك وجندك يا أمير المؤمنين، فقال: لأولين الحرب رجلًا يكون غداً لأسنة القوم جزراً[2].

تعيين القائد:

كان النعمان بن مقرن ـ رضي الله عنه ـ والياً على كسكر، فكتب إلى عمر يقول: إنَّ مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب وإلى جنبه مومسة تلوّن له وتعطّر، فأنشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين[3].

وكأنَّ هذه الرسالة وصلت عمر وهو يبحث عن قائد للمعركة الهامَّة التي عزم عمر على أن يخوضها المسلمون، فوجد فيه ضالته، وعثر على القائد

---

(١) نفسه.

(٢) الدينوري ص (١٣٥).

(٣) الطبري (١٢٦/٤).

الذي لا يصلح لها سواه، فقال: أمَّا والله لأولينَّ أمرهم رجلًا ليكوننَّ لأول الأسنة إذا لقيها غداً، فقيل: من يا أمير المؤمنين؟ فقال: النعمان بن مقرن المزني، فقالوا: هو لها[1].

عندئذٍ كتب عمر كتاباً إلى النعمان يوليه أمر الحرب، ويأمره بالمسير إلى ماه لتجتمع عليه الجيوش فإذا اجتمعوا إليه سار بهم إلى الفيرزان قال عمر: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك، فإنِّي أحمد إليك الله الذي لا إلّه إلاَّ هو أمَّا بعد، فإنَّه بلغني أنَّ جموعاً من العجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً فتؤذينَّهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنَّهم غيضة، فإنَّ رجلًا من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك[2].

وكتب عمر إلى والي الكوفة يأمره بأن يستنفر الناس ويول عليهم حذيفة بن اليمان، ويوجِّه إلى ماه ليلتقي هناك بالنعمان، وكتب إلى أبي موسى والي البصرة أن يمد النعمان بالجند، وأن يوجههم إلى ماه ليلتقوا هم كذلك بالنعمان هناك.

وكتب عمر إلى الجنود الذين كانوا بالأهواز ليشغلوا الفرس عن المسلمين، وقال لهم: اشغلوا الفرس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري، فوقف هؤلاء على تخوم أصبهان وفارس، وبذلك قطعوا أمداد الفرس عن أهل نهاوند[3]. وكتب عمر إلى النعمان، إن حدث بك حادث فعلى الناس حذيفة بن اليمان فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن، وأرسل عمر السائب بن الأقرع ليكون على الغنائم وقال له: إنْ فتح الله

---

(١) نفسه.
(٢) نفسه ص (١١٥).
(٣) الطبري (١٢٧/٤).

عليكم فاقسم ما أفاءَ الله عليهم بينهم، ولا تخدعني ولا ترفع إليَّ باطلاً وإن نكب القوم فلا تراني ولا أراك[1].

وأمر عمر النعمان بأن يستشير من معه من خبراء الحرب وفرسانها من أمثال طليحة بن خويلد، وعمرو بن معدي كرب، وعمرو بن سلمى.

وإنّنا لنلاحظ من خلال ذلك العرض عبقرية عمر العسكرية الفذَّة، حيث ترى أنَّه لم تفته فائتة وإنك لتقرأ توجيهاته فلا تخال إلاَّ أنَّه في الميدان يتحسَّس عوراته ويسد ثغراته، ويقطع الطريق على أعدائه، ويحاصر أهل نهاوند فلا يصل إليهم مدد ولا يستطيع يزدجرد الهارب الطريد الذي جمع هؤلاء ليذوقوا حتفهم أن يقدم لهم أيَّة مساعدة، إنَّه يراهم يذبحون ولكنَّه لا يملك دفع الموت عنهم وهو الذي عرضهم له.

ولا يفوت عمر أن يعيِّن القواد، لأنَّه يرى خطورة المعركة، ويتوقع ضراوتها، ثمَّ إنَّ قول عمر - رضي الله عنه: والله لأولينَّ أمرهم رجلاً ليكوننَّ لأول الأسنة إذا لقيها غداً، يدل على أنَّه كان يتوقع استشهاد النعمان، ولعل عمر قد استشف ذلك من طلب النعمان عزله عن الإمارة ورغبته في الجهاد.

إنَّ رجلاً يمل الإمارة وهي أمنية عزيزة على النفوس، ويلح على أمير المؤمنين أن يعزله عنها لأنَّها كالمرأة المومس تعرض فتنتها وجمالها على شاب يافع، ويطلب أن يكون جندياً في جيش يقاتل في سبيل الله، لهو رجل اشتاق إلى الجنة، وتاقت روحه إلى الشهادة ومالت نفسه إلى جوار الله - عزَّ وجل.

لهذا كان لا بدَّ أن يعيِّن عمر الأمراء على الجيش، وكيف يترك ذلك وهو لا يرى النعمان إلاَّ مع الشهداء. إنَّها فراسة المؤمن التي كانت تكشف لعمر - وهو الملهم الموفق — الخبايا التي خفيت على غيره، ولم يدركها أحد سواه.

---

(١) نفسه.

التوجه إلى الميدان:

استمع النعمان لوصايا أمير المؤمنين، ووعاها جيداً لأنَّها النهج الذي لا ينبغي مخالفته، وتوجه إلى ماه ليلتقي بالأمراء هناك، وسار وسار معه أجلاء الصحابة: حذيفة بن اليمان، وعبدالله بن عمر، وجرير بن عبدالله البجلي، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وطليحة بن خويلد الأسدي، وقيس بن مكشوح المرادي[1].

سار النعمان بالناس يقصد ميدان المعركة (نهاوند) لينازل عدواً عنيداً قد حربتهم الهزائم المتوالية، وأشعلت حقدهم الخسائر الفادحة، سار وهو يفكر في وصية أمير المؤمنين، وكيف يتّقي الخسائر في الأرواح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان النعمان شديد الحرص على ذلك، ألم يقل له أمير المؤمنين: (فإنَّ رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار)؟.

كان عليه إذن أن يأخذ حذره، ويبذل أقصى ما يمكنه من الاحتياط، لئلا يؤخذ فجأة أو يباغت على غرَّة، لهذا لما اقترب من نهاوند، وكان على بعد بضعة وعشرين فرسخاً تقريباً[2].

اختار ثلاثة من فرسانه ليكونوا طليعة للجيش، يأتونه بخبر عدوه، وهؤلاء هم، طليحة بن خويلد وعمرو بن معدي كرب، وعمرو بن أبي سلمى[3].

سارت الطليعة بعزم نحو وجهتها، فلما مضى يوم رجع عمرو بن بثي (ابن أبي سلمى) وسأله الناس، لماذا رجعت؟ فقال: كنت في أرض العجم، وقتلت أرض جاهلها، وقتل أرضاً عالمها، فلما مضت ليلة أخرى رجع عمرو بن معدي كرب، وسأله الناس، ما رجعك؟ وأجاب، سرنا يوماً وليلة، ولم نر شيئاً، وخفت أن يؤخذ علينا الطريق فرجعت.

---

(١) ابن كثير (١٠٨/٧).

(٢) ابن الأثير (٤/٣).

(٣) نفسه.

ولكن طليحة لم يحفل بهما، ولم يتعجل العودة كما فعل صاحباه، بل تابع سيره حتى انتهى إلى نهاوند، وأساء الناس الظن بطليحة كما أساءوه من قبل في القادسية، وتحدث الناس أن طليحة قد ارتد، وذهب إلى أعداء الإسلام، ولكن طليحة ـ رضي الله عنه ـ كان أعلا قدراً من ذلك وأوثق إيماناً بعد أن عاد إلى الإسلام، ولم تنفعه نبوة كان هو أعلم الناس بكذبها.

أمعن طليحة في جيش الفرس، وعلم أخبار القوم، ثم رجع إلى جمهور، فلما رأوه كبروا، فقال طليحة: ما شأن الناس؟ فأخبروه بالذي خافوا عليه، فقال: والله لو لم يكن دين إلا العربية ما كنت لأجزر العجم الطماطم هذه العرب العاربة.

ثم دخل طليحة على النعمان، فأخبره الخبر، وأعلمه أنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد يخافه، عندئذ نادى النعمان بالرحيل، وأمرهم بالتعبية، وبعث إلى مجاشع بن مسعود أن يسوق الناس، وجعل على مقدمته نعيم بن مقرن، وعلى مجنبته حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع ابن مسعود.

وواصل النعمان سيره حتى كان في مواجهة القوم، وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبته الرزدق وبهمن جاذويه، وقد انضم إلى جيش الفرس كل من تخلف يوم القادسية، وحضر معركة نهاوند كثير من أعلامهم وفرسانهم، وكان خيلهم أنوشق.

رأى النعمان هذه الحشود الهائلة وتلك الجحافل الزاحفة فخاف أن يوهن منظرهم الناس فبادر بالتكبير وكبر المسلمون على تكبيره فتزلزلت الأعاجم، ودب الذعر في نفوسهم، وأمر النعمان بحط الأثقال، وضرب الفسطاط، وتنافس كبار الحاضرين في ضرب الفسطاط حتى أقاموا له فسطاطاً يضارع أبهى وأفخم فسطاط عرف في ذلك الحين[1].

كان اليوم يوم الأربعاء، وكان المسلمون في مواجهة العجم، ولبث

---

(١) ابن كثير (١٠٩/٧).

أدري لماذا لم يهاجم الفرس المسلميـن وهم يحطون أثقالهم ويضربون الفسطاط لأميرهم؟ لقد كانت هذه فرصة ضيعها العجم بجبنهم وخورهم وأغلب الظن أن التكبيرات التي أصدرها المسلمون عند وصولهم إلى الميدان بقدر ما كانت إعلاناً عن حضورهم كانت انذاراً وتحذيراً للعجم من قوة المسلمين التي داهمتهم، فأخذتهم دهشة المفاجأة، وكبل أيـديهم هول المباغتة فأصبحوا غير قادرين على المقاومة بل المبادرة.

وانتهى المسلمون من حط الأثقال وضرب الفسطاط، وآل زمام المبادرة إلى أيديهم والفرس واقفون ينتظرون قضاء الله فيهم، فأمر النعمان جنوده بقتال عدوهم، فاقتتلوا يومي الأربعاء والخميس، ولم ترجـح كفة أحـد الفريقين، بل كانت الحرب سجالاً ولم تسفر عن نتائج توحي بتفوق أحد الجيشين.

وفي صبيحة يوم الجمعة، لجأ الفرس إلى حصونهم يلوذون بها فراراً من عدو لم ولن ينصرف عنهم حتى يبلغ غايته، وحاصر المسلمون الفرس في حصونهم، ولكن الحصار لم يكن ذا جدوى إذ أن الفرس كانوا على الخيار يخرجون للمسلمين متى شاءوا، ويدخلون حصونهم متى شاءوا، ولم تؤثر إقامة المسلمين الطويلة أمام حصون العدو إذ كان عندهم من الزاد والسلاح ما يكفيهم.

وأراد أمير الفرس أن يطلع المسلمين على قوة جيشه، وأن يخبر مدى عزيمتهم على خوض المعركة وأن يساومهم من خلال ذلك لعلهم يرجعون، فأرسل إلى النعمان يطلب منه أن يبعث إليه رجلاً عاقلاً أريباً ليكلمه، فأرسل النعمان إليه المغيرة بن شعبة.

دخل المغيرة على أمير الفرس، وقد استعدوا لاستقبـالـه بأحسن ما لديهم من الزينة والشارة، ووقف الحراس حوله وبأيديهم النيازك والحراب تكاد تخطف الأبصار بلمعانها، وقد جلس هو على سرير من ذهب وعلى رأسه التاج المرصع بالجواهر. وأقبل المغيـرة على الأمير يقـطع البساط برمحه، وكأنه أراد أن يشعرهم بأن هذه الزينة لا قيمة لها عنده، ثم نهض

ليجلس على السرير فمنعوه، فقال: إن الرسل لا يفعل بهم هذا. ونقل ترجمان الأمير إلى المغيرة قوله: إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير، وأطول الناس جوعاً، وأشقى الناس شقاء، وأقذر الناس قذراً، وأبعده داراً، وما منعني أن آمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجساً لجيفكم، فإنكم أرجاس، فإن تذهبوا نخل عنكم، وإن تأتوا تِلكم مصارعكم.

قال المغيرة: فحمدت الله، وأثنيت عليه، وقلت: والله ما أخطأت من صفتنا شيئاً ولا من نعتنا حتى قال: وإن الله أرسل إلينا رسوله ﷺ فوعدنا النصر في الدنيا والجنة في الآخرة، فوالله مازلنا نتعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر حتى أتيناكم، وإنا والله لن نرجع إلى هذا الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما في أيديكم، أو نقتل بأرضكم[1].

لم يكن أمير الفرس في تلك المفاوضات لبقاً ولا حاذقاً، وإن السفه ليبدو عليه من خلال حديثه، فإن الرجل الذي يبدأ إنساناً بالسب والشتم والنيل منه ومن أصله، ويذكره بما كان عليه في عهد مضى لهو إنسان أحمق، فإن هذا الأسلوب لا يوصل إلى نتيجة، ولا يؤدي إلى هدف، بل بالعكس يثير في النفس عصبية قد تدفع صاحبها إلى تضحيات لولا هذه الإثارة لضن بها والإنسان أكثر ما يكون حماساً وانفعالاً إذا مسست نسبه أو نلت من شرفه وحسبه. وبهذا الأسلوب الذي استعمله الأمير الفارسي خسر الجولة، وانعكس عليه مراده، وأصبح هدفاً يصوب إليه المفاوض المسلم سهامه. وإني أعتقد أن الأمير الفارسي كان في حالة نفسية قلقة، إذ يستحيل أن يكون رجل في تلك المنزلة في قوم لهم حضارة وفيهم ملك ولهم سياسة وكياسة ثم يبدو بهذا السفه وهذه الخفة في مثل هذا الموقف الذي ينبغي أن يظهر لعدوه فيه التجلد وعدم الاكتراث وعلى العكس من ذلك الموقف كان المفاوض المسلم، فقد رأيناه ثابت الجنان أمام هذا التهديد المزعج قوي الحجة في مواجهة الهذيان الفارسي، صادق القول حيال ذلك الكذب المفضوح، وكان

---

(١) الطبري (٤/١١٨).

بهذه الكلمات الهادئة الرزينة أكثر تأثيراً في نفس الفرس من هذا الوعيد الصاخب الذي لا يستطيع صاحبه تنفيذه.

وإن مما يدل على أثر تلك الكلمات في نفس القائد وأتباعه قوله عندما سمع كلام المغيرة: أما والله إن الأعور قد صدقكم الذي في نفسه. ولم يخف على المغيرة أثر ذلك التهديد الهادىء في نفس الفرس فقال: فقمت وقد والله أرعبت العلج جهدي[1].

بداية المعركة:

كان فشل المفاوضات إيذاناً بنشوب الحرب، وكانت كلمات المغيرة قد تركت أبعاداً سيئة في نفس الفرس، ولكنهم مع ذلك صمموا على أن يحاربوا حتى يطردوا المسلمين أو يموتوا دون ذلك، وكان الفرس قد ضربوا على أنفسهم خندقاً يحميهم من غارة يتوقعونها من المسلمين تقضي على تجمعهم الكثيف، وقد حضروا مسلسلين كأنهم جبال من حديد راجين أن تحول تلك السلاسل بينهم وبين الفرار فيثبتون، وأتوا بحسك الحديد فنثروه وراء ظهورهم لئلا تسول لإنسان منهم نفسه أن يفر مخافة أن يعقره الحسك.

وطال حصار المسلمين للفرس، واشتد الأمر على المسلمين فالمناجزة عندهم خير من هذا الحصار الممل، إن المناجزة ستحسم الأمر على أي حال، أما هذا الحصار والعدو متمكن من داره عنده طعامه وشرابه وسلاحه فلا يعلم أحد إلا الله متى ينتهي ذلك الموقف.

لهذا فزع المسلمون إلى النعمان، وشكوا له ذلك الموقف الذي لا يعرفون مداه، فوجدوه هو الآخر ينظر فيما جاؤوا من أجله، فحبسهم عنده، واستدعى أهل الرأي وذوي النجدات، فاجتمعوا عنده، فتكلم النعمان وقال: قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاؤوا، ولا يقدر المسلمون على انغاصهم وانبعاثهم قبل مشيئتهم، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق

---

(1) نفسه.

بالذي هم فيه، وعليه من الخيار عليهم في الخروج، فما الرأي الذي به نحمشهم ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل؟[1].

فتكلم عمرو بن أبي سلمى فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم، فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم.

فرد عليه المسلمون رأيه، وقالوا: نحن على يقين من إظهار ديننا، وإنجاز موعود الله لنا.

وتكلم بعده عمرو بن معدي كرب فقال: ناهدهم وكاثرهم، ولا تخفهم. ورفض ذلك الرأي بالإجماع كما رفض سابقه وقال المسلمون: إنما تناطح بنا الجدران، والجدران أعوان لهم علينا.

ثم تكلم طليحة بن خويلد فقال: إني أرى أن تبعث سرية تبرز للقوم، وتناوشهم بالقتال حتى تحمشهم، فإذا برزوا لها تظاهرت بالفرار، فإذا اتبعوهم لاذوا بنا، وأظهرنا جميعا الفرار فإذا رأوا منا ذلك لا يشكون في أننا جادون في الهزيمة، وعندئذ يخرجون من حصونهم أجمعين فإذا تكامل خروجهم صمدنا لهم وجالدناهم حتى يقضي الله بيننا[2]. وخطى هذا الرأي بموافقة من الحاضرين، واستجادوه، فأمر النعمان القعقاع بن عمرو أن يقود سريته ويخرج ليحاصر بها الفرس، وينفذ الخطة، فخرج القعقاع، وحاصر المتحصنين، فلما رأوهم قلة طمعوا فيهم، وخرجوا لمقاتلتهم، وأبدى القعقاع فنوناً من الحيل شجع بها العدو على اتباعه، ثم صمد لهم حتى لا تنكشف حيلته، وتابع الفرس هجومهم، وتقهقر القعقاع. عندئذ تأكد الفرس أن المسلمين منهزمون لا محالة، وجدوا في تتبعهم حتى وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام القوة الحقيقية للمسلمين، ولم يجدوا بداً من المناجزة، وهم المسلمون بقتالهم ولكن النعمان نهاهم، ورمى الفرس المسلمين بالنشاب حتى أفشوا فيهم الجراح، وضج المسلمون بالشكوى إلى النعمان، وقالوا:

---

(١) الطبري (٤/١٢٩ - ١٣٠).
(٢) ابن كثير (٧/١١٠).

ألا ترى ما نحن فيه؟ فما تنتظر بهم؟ أئذن للناس في قتالهم، فقال النعمان: رويداً رويداً[1].

ويظهر أن المسلمين كانوا لا يرون رأي النعمان، فكانت المناجزة السريعة أحب إليهم من التريث ولكنهم مع ذلك لم يخرجوا على أمر قائدهم بل التزموا السمع والطاعة، وهم وإن خالفوه في الرأي فإن ذلك من حقهم لا يمنعهم منه أحد، ولكنهم لا يستطيعون مخالفة أمره لأنهم يدركون أن مخالفة أمر القيادة مع كونه معصية لله ورسولـه فهو سبب عظيم من أسباب الهزائم والبلاء.

استطاع النعمان أن يمنع المسلمين عن مباشرة القتال حتى يأمرهم، وذلك حقه المطلق دون منازع ولكنه لم يستطع أن يمنعهم من إبداء آرائهم فجاهروا بها، قال المغيرة بن شعبة: لو أن هذا الأمر إليّ علمت ما أصنع، ورد النعمان، رويدا ترى أمرك، وقد كنت تلي الأمر فتحسن، فلا يخذلنا الله ولا إياك، ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترجو في الحث[2]. كان اليوم يوم جمعة، ولم يكن النعمان يؤخر القتال جبناً ولا خوفاً بل أنه كان ينتظر الساعة التي كان رسول الله ﷺ يستحب القتال فيها، وذلك عند الزوال، وتفيؤوا الأفياء ومهب الرياح وقال النعمان للمغيرة لما طلب منه التعجيل بقتال العدو: إنه والله ما منعني من أن أناجزهم إلا شيء شهدته من رسول الله ﷺ. إن رسول الله كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار ولم يعجل حتى تحضر الصلاة، وتهب الأرواح، ويطيب القتال، فما منعني إلا ذلك.

وكأن النعمان ـ رضي الله عنه ـ قد خشي أن يظن الناس به الظنون، ويتهمونه بتأخير القتال خوف الموت، فدعا الله فقال: اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام وذل يذل به الكفار، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة.

---

(١) ابن الأثير (٣/٥).

(٢) الطبري (٤/١٣١).

والتفت النعمان إلى الناس وقال: أمنوا يرحمكم الله، فأمن الناس وبكوا[1].

واقتربت الشمس من الزوال، وحانت الساعة التي يترقبها النعمان فركب برذوناً أحوى قريباً من الأرض، وطاف على الناس، ووقف على كل راية فحمد الله وأثنى عليه، وخطب خطبة ذكرهم فيها بما كانوا عليه قبل الإسلام، وما آل إليه أمرهم بعده، وبين لهم أن عدوهم يخاطر بأرضه وبلده وأنتم تخاطرون بدينكم وحريمكم، وليس سواء ما خاطروا به وخاطرتم به، وأعاد إلى أذهان الناس أنهم إنما ينتظرون إحدى الحسنيين الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة. ثم قال ـ رضي الله عنه ـ استعدوا فإني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معاً.

ورفع النعمان رأسه إلى السماء، يبتهل إلى الله ـ عز وجل ـ أن يكتبه مع الشهداء فقال: اللهم أعز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك، ونصر عبادك[2].

فتح الفتوح: انتهى النعمان من حديثه مع جنوده، وصلى الظهر ركعتين صلاة الخوف[3] وعاد إلى مكانه والناس ينتظرون التكبير، فلما كبر الثالثة حمل المسلمون على عدوهم، واضطربت صفوف الأعاجم، وانقض النعمان على العدو كأنه عقاب انقض على فريسة، وقد أعلم نفسه بثياب بيض وعمامة بيضاء.

والتحم الجيشان، وتقاتلوا بالسيوف قتالاً لم يسمع بمثله، واستمرت المعركة حتى خيم الظلام وقتلوا من العجم عدداً هائلاً غطت دماؤهم وجه الأرض حتى كانت الخيل تلزق في الأرض من غزارة الدماء، وقتل أمير

---

(١) الطبري (١١٩/٤).
(٢) الطبري (١٣١/٤ ـ ١٣٢).
(٣) الدينوري ص ١٣٦.

المسلمين النعمان بن مقرن ـ رضي الله عنه ـ حيث زلق فرسه في الدماء فصرعه، وأصابه سهم في خاصرته، ولم يشعر به أحد إلا نعيم بن مقرن، وكان على مجنبة أخيه، فحمل الراية قبل أن تسقط، وسجى أخاه بثوب، ودفع الراية إلى حذيفة بن اليمان. وخشي المغيرة بن شعبة أن ينكشف للناس قتل الأمير فقال: اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم، لكيلا يهن الناس[1] وقاتلوا حتى أظلهم الليل فانكشف المشركون عن مواقعهم.

ولبس سواد بن مقرن أخو النعمان ثياب أخيه، وتقلد سيفه، وركب فرسه، فلم يشك الناس أنه النعمان[2] فثبتوا يقاتلون عدو الله وعدوهم حتى أنزل الله نصره، وأعز جنده، وهزم عدوه. واشتد ضغط المسلمين على المنهزمين ففروا لا يلوون على شيء فاصطدموا بحسك الحديد الذي وضعوه خلفهم لئلا يفروا، وأصابهم منه أذى أي أذى فمالوا عن الطريق يطلبون مهرباً، وكانت الهزيمة قد خلعت قلوبهم، وأعمت أبصارهم، فلم يدركوا الطريق، فأخذوا يتساقطون في هاوية سحيقة بعيدة القاع، وكانوا مسلسلين كل عشرة أو سبعة في سلسلة، فكلما هوى رجل منهم سقط عليه من كانوا معه في سلسلته فقتلوه. وهكذا تخطف الهزيمة عقول المهزومين فلا يستبينون سبيلهم، ولا يدركون طريقهم، ولولا ذلك الهول، ولولا غزارة الدماء لكان يوماً فكهاً ورأى المسلمون تلك الهوة فحادوا عنها، واتخذوها مقبرة لثمانين ألفاً سقطوا فيها من الأعاجم وتتبعوا الفارين الذين نجوا من فكي الهاوية، وكان فيهم قائد الفرس الفيرزان.

اتجه الفيرزان نحو همذان، ورآه نعيم بن مقرن، فقدم وراءه القعقاع بن عمرو واتبعه القعقاع حتى أدركه بالقرب من ثنية همذان، وكانت الثنية غاصة بالتجار الذين يحملون العسل على البغال والحمير، وأدرك الفيرزان أنه لن يستطيع الهروب على فرسه فترجل آملاً أن يختفي بين

(١) الطبري (١٣٢/٤).

(٢) الدينوري ص ١٣٦.

التجار، ولكن القعقاع لم يفلته فترجل وراءه وصعد الجبل وهناك أدركه وقتله.

وعلم المسلمون أن الله - عز وجل - سخر لهم قافلة العسل هذه ليتمكنوا من القبض على الفيرزان وقتله فقالوا: إن لله جنوداً من عسل[1]. وغنم المسلمون العسل، وما معه من المتاع وسميت الثنية بعد ذلك بثنية العسل، وواصل الأعاجم فرارهم حتى دخلوا همذان والمسلمون يقتفون أثرهم لا يتركون لهم فرصة وحاصروها واستولوا على ما حولها، وخاف صاحبها أن يفتحها المسلمون عنوة فصالحهم واستأمنهم. ودخل المسلمون نهاوند، بعد هذا النصر المؤزر، وبعد مقاومة من حامية نهاوند، وأبدى سماك بن عبيد العبسي ضروباً من الشجاعة أذهلت العدو، حيث برزت له جماعة من حامية نهاوند فقتل منهم سبعة رجال، ولم يبق إلا رجل واحد فألقى سلاحه واستأمن سماك فأمنه، ثم أخبره بأنه صاحب نهاوند، وطلب منه أن يذهب به إلى الأمير ليصالحه ويؤدي الجزية، فقال له سماك: ما اسمك؟ قال: دينار. فانطلق به إلى حذيفة فصالحه على الخراج والجزية، وأمن أهل نهاوند على أموالهم وحيطانهم ومنازلهم[2]. وسمي ذلك الفتح فتح الفتوح لأنه لم يكن للفرس بعده اجتماع، وملك المسلمون بلادهم[3]. هدأ المسلمون بعد عناء طويل، ونعمت أعينهم بنصر الله لهم، وراحوا يسألون عن أميرهم، أين النعمان؟ فقال لهم أخوه معقل: هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة[4]. وأدرك معقل النعمان وبه رمق، فغسل وجهه من أداوة ماء كانت معه، فقال له النعمان: من أنت؟ فقال معقل، قال ما صنع المسلمون؟ قال: أبشر بفتح الله ونصره. قال النعمان: الحمد لله، اكتبوا إلى عمر[5].

---

(١) ابن الأثير (٣/٦).
(٢) البلاذري ص ٣٠٣.
(٣) ابن الأثير (٣/٧).
(٤) نفسه ص ٦.
(٥) البلاذري ص ٣٠١.

وأسفرت المعركة عن قتلى للعدو لا يحصون، فقد قتل في الهاوية نحواً من ثمانين ألفاً وقتل في المعركة ثلاثون ألفاً، ذلك سوى من قتل في أثناء الطلب[1].

الغنائم:

وجمعت الغنائم لدى السائب بن الأقرع، فأخرج منها الخمس وذهب به مع كثير من التحف والجواهر الثمينة وسفطين كان كسرى قد ادخرهما لنوائب الدهر واتفق المسلمون على رفع ذلك كله إلى عمر، وأما أربعة أخماس الغنيمة فقد قسمها حذيفة بين الفاتحين، فأصاب الفارس ستة آلاف والراجل ألفان، ولما رد عمر السفطين بيعا بمليوني درهم وزعت على الناس فخص الفارس أربعة آلاف من قيمتها. ونفل لذوي النجدات، وأعطى كل من رصد الطريق على فارس، ومن كان ردءاً للجيش المحارب لأنهم حموا ظهورهم من غدر العدو.

حذيفة في نهاوند:

ظل حذيفة في نهاوند ينتظر أمر الخليفة، وقد أرسل بالبشرى مع طريف بن سهم، وأرسل خمس الغنائم وكنوز كسرى مع السائب بن الأقرع.

وأما أمير المؤمنين في المدينة فقد طال انتظاره لأنباء المسلمين، وألح على الله في الدعاء أن ينصر جنده، ويعز دينه، وكان يخرج كل ليلة إلى ظاهر المدينة لعله يجد من يخبره بخبر المسلمين، ولكنه كان يعود إلى المدينة كما خرج منها.

وقدم طريف بن سهم إلى المدينة يحمل البشرى بالفتح، وسأله عمر عن أخبار المسلمين فقال: ما عندي أكثر من أخبار الفتح، خرجت والمسلمون في الطلب[2]. وفي ليلة خرج وخرج معه أصحابه وأمعن، حتى

---

(١) الطبري (٤/١٣٦).
(٢) الطبري (٤/١٣٤).

رأى راكباً من بعيد، فقال لأصحابه قولوا: فقال عثمان بن عفان: السائب فقال عمر: السائب، فلما دنا منه قال: ما وراءك؟ قال: البشرى والفتح، قال: ما فعل النعمان قال: زلق به فرسه في دماء القوم فصرع فاستشهد.

ورجع عمر إلى المدينة مهموماً حزيناً، وكان السائب يمشي إلى جواره، وسأل عمر عن عدد القتلى فأخبره بعدد قليل، وأن النعمان كان أول شهيد من المسلمين ودخل عمر المسجد ودخل معه السائب وحط الأحمال، وأمر عمر عبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن أرقم بالمبيت في المسجد لحراسة الأموال، وذهب هو إلى منزله. واتبعه السائب وهو يحمل السفطين، وأخبر عمر بخبرهما وموقف الناس منهما، فقال عمر: يا ابن مليكه، والله ما دروا هذا ولا أنت معهم، فالنجاء النجاء، عودك على بدئك، حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه.

ورجع السائب بالسفطين، فباعهما بنهاوند فأصاب أربعة آلاف ألف[1].

وضع عمر يده على رأسه، وبكى بكاء طويلاً، وراح يترحم على النعمان، ويسأل عمر قتل من المسلمين فرد عليه السائب، قتل فلان وفلان يعد أشراف الناس وأعيانهم، ثم قال: وآخرون من أفناد الناس ممن لا يعرفهم أمير المؤمنين، فبكى عمر وقال: وما ضرهم ألا يعرفهم أمير المؤمنين؟ ثم قال أولئك المستضعفون من المسلمين، لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوهم وأنسابهم، وما يصنعون بمعرفة عمر بن أم عمر[2].

وقدم السبي إلى المدينة، وراح الصبيان منهم يمشون في طرقاتهم، وكان أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة يعيش في المدينة وأصله من نهاوند، أسره الروم في حروبهم مع الفرس، ثم أسره العرب في حروبهم مع الروم، ووقع في سهم المغيرة بن شعبة، وكان أبو لؤلؤة كلما رأى صغيراً من

---

(١) الطبري (٤/١٣٥).
(٢) الطبري (٤/١١٦)، وابن الأثير (٣/٦، ٧).

أسرى نهاوند بكى ومسح على رأسه، وقال: أكل عمر كبدي[1].

وهذا الفعل من أبي لؤلؤة يفسر لنا أبعاد الجريمة التي ارتكبها في حق المسلمين باغتيال الخليفة، ليس السبب إذن هو ثقل ما كلفه المغيرة به وإلا لكان المغيرة أولى بالقتل من عمر ولكن اللعين كان يشعر بالأسى كلما رأى أسرى نهاوند يمشون في شوارع المدينة. إنه أحس بأن عمر قد نكب بلاده برزء حطم كبرياءها، وجعل سادتها وأشرافها خدماً للمسلمين فأكل الحسد قلبه، ولم يستطع كتمان غيظه حتى أفرغه في تلك المؤامرة الخبيثة التي حلت بالمسلمين ونظر عمر فإذا يزدجرد يتنقل من بلد إلى بلد، وكلما حانت له فرصة جمع أتباعه وشنها حرباً على المسلمين، واعتقد عمر أن الأمر سيطول ما دام يزدجرد في بلاد الفرس، وأن يزدجرد سيظل يتنقل في ربوع البلاد ما دام المسلمون واقفين عند البلاد التي فتحوها.

فكر عمر في الأمر طويلاً وعلم أن القضاء على يزدجرد لا يكون إلا بانسياح المسلمين في بلاد فارس فإما أن يقع في أيدي المسلمين أو يفر خارج البلاد، وكلا الحالين مؤد إلى النتيجة المطلوبة لهذا سمح عمر للمسلمين بالانسياح، فوجه الأمراء من أهل البصرة والكوفة، وبعث الألوية ووجه الأمراء إلى جهات فارس المختلفة ليقطعوا الطريق على يزدجرد فلا يتمكن من جمع الناس ومحاربة المسلمين، فوجه نعيم بن مقرن إلى همذان ليردها إلى الطاعة، وأمره أن يسير إلى خراسان وبعث عتبة بن فرقد، وبكير بن عبدالله إلى أذربيجان، يسير إليها أحدهما من جهة حلوان والآخر من جهة الموصل فيهاجمانها من جهة الشرق ومن جهة الغرب، ووجه عبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى أصبهان.

وهكذا يكون الخليفة قد فرد جناحيه على العراق بشقيه العربي منه والعجمي وأغلق الباب في وجه يزدجرد فلم يعد أمامه فرصة للتنقل وتجييش الجيوش وشن الحرب وإزعاج المسلمين.

---

(١) ابن الأثير (٣/٧).

إن سيطرة المسلمين على القادسية ثم المدائن ثم نهاوند قد أثار في الفرس روح السخط والتذمر والغضب أما السخط والتذمر فكانا على الزعماء والقواد الذين عجزوا عن مقاومة المسلمين وفروا أمامهم في كل الميادين، وكان السخط والتذمر دافعين من جانب آخر إلى النقد الذي دار في كل مجلس من مجالس الفرس أنهم يرون العرب قوماً جياعاً همجاً لم يمارسوا حضارة، ولم يشتهروا بعلوم ولم ينبغوا في فن فكيف ينتصر هؤلاء الأجلاف على العرش الساساني المقدس وعلى هؤلاء القواد العظام من أمثال رستم والنخارجان والفيرزان. إن الفوضى لا تنتصر على النظام وأن الجهل لا يقوى على مصارعة العالم والهمجية لا تتغلب على الحضارة، هذه حقائق لا ينكرها أحد، فكيف انتصر العرب على العجم. لا بد أن شيئاً ما قد حدث، وإن هذا الشيء كما يحتمل أن يكون في العجم يحتمل كذلك أن يكون في العرب.

لم يدر بخلد الفرس أن العرب قد جاءهم الهدى من الله، فحول الفوضى إلى نظام هو أدق مما عرف الفرس، وقضى على الجهل فأصبحوا بفضل الله علماء لا يضارع علمهم علم، ونظم صفوفهم فصاروا قوة فعالة تغير ولا تتغير، وتؤثر ولا تتأثر، وتقود ولا تنقاد. ولكن الذي علق بأذهانهم هو تقصير قياداتهم، وعدم الاهتمام من زعمائهم، وهذا هو الذي أثار روح الغضب على العرب وأخذ الفرس يتلاومون كيف حصل هذا؟ وهذا هو الذي جعلهم يتجمعون مرة بعد مرة محاولين إيقاف هذا الزحف الذي هدد حياتهم، وقضى على ملكهم، وجعلهم يفرون كالأنعام مدبرين.

وإن الناظر إلى خريطة بلاد فارس لينبهر وهو يرى هؤلاء الجنود يصلون إلى أذربيجان شمالاً بل في أقصى الشمال وإلى أصبهان واصطخر شرقاً لا غاية لهم إلا إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وتخليصهم من ضيق الدنيا إلى سعتها. إن الفرس لو أدركوا هذه الحقيقة من أول الأمر لما وسعهم إلا التسليم، لأن جيشاً يخرج من بلاده يحمل الهداية للناس ويدعو إلى الخير، ويحذر من الشر لا يمكن أن يقف في وجهه شيء ولا

يرده عن غايته شيء، ولكن الفرس عجزوا عن إدراك تلك الحقيقة، فظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، وأن قوتهم بالغة غايتها من هؤلاء الغزاة.

انساح المسلمون في بلاد العجم فأمنوا مرافقها، وفرضوا إرادتهم على نواحيها ولم يعد أمام يزدجرد إلا الفرار والهروب من قبضة الفاتحين، وحانت لعمر فرصة الاستقرار والهدوء فأما يزدجر فظل قابعاً لا يريم بعد أن بسط المسلمون نفوذهم على البلاد، وفي عهد عثمان ثارت اصطخـــر، ونزلها يزدجرد يجمع ويتهيأ للقتال فسار إليه عثمان بن أبي العاص وعبدالله بن عامر ففر إلى مرو، ثم آوى إلى طحان هارباً فنام في طاحونة، وقتله الطحان ورماه في النهر[1].

وأما عمر فقد كتب إلى أهل الكوفة ـ وقد استقرت له الأمور ـ إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً، ووليت حذيفة بن اليمان ما سقت دجلة وما وراءها، ووليت عثمان بن حنيف الفرات وما سقى[2].

---

(١) الدينوري ص (١٣٩ ـ ١٤٠).

(٢) الطبري (٤/١٣٩).

فُتوحُ الشّام

كانت معركة اليرموك باباً انفتح بانفتاحه الطريق إلى بلاد الروم، كما كانت القادسية بالنسبة لبلاد الفرس، فكلتا المعركتين شجعتا المسلمين على الاستمرار في الفتح والغزو وقد تم النصر في المعركتين في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقد سبق القضاء بوفاة الخليفة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قبل أن يحرز المسلمون النصر في معركة اليرموك وحمل البريد في ذهابه أسوأ نبأ سمعه المسلمون بعد وفاة رسول الله ﷺ ألا وهو نبأ وفاة أبي بكر، كما حمل في إيابه نبأ عزّى المسلمين في مصابهم، وسلاهم عن وفاة خليفتهم، ذلكم هو نبأ انتصار المسلمين في اليرموك.

إن اليرموك حسنة في ميزان الخليفة الأول، فهو الذي عبأ لها، وهو الذي أمد جندها بالقائد المظفر، عبقري الحرب، خالد بن الوليد، فكيف لا يفرح المسلمون بالانتصار فيها؟ وكيف لا يتسلون بأنبائها عن وفاة الخليفة وهي ثمرة جهده، وثقل في ميزانه؟

وعاد البريد يحمل إلى الخليفة الثاني أنباء النصر، ففرح الخليفة به، وترضى عن أبي بكر، وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وأقر الأمراء الذين ولّاهم أبو بكر على ما كانوا عليه في عهد سلفه الراحل، واستثنى منهم أميرين: أما الأول فخالد بن الوليد فقد عزله الخليفة عن إمرة الجيش، وضمه إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح بعد أن أسند إليه قيادة جيوش الروم، وأما الثاني فعمرو بن العاص وقد أمره الخليفة أن يعين الناس حتى إذا انتهوا من فتح دمشق وَفَحل تَولّىٰ أمر الحرب في فلسطين.

آل أمر جيوش الشام إلى قيادة أبي عبيدة، فأخبر أبو عبيدة خالداً بما أحدث أمير المؤمنين بعد انتهاء خالد من فتح دمشق، فقال خالد: يرحمك الله! ما منعك أن تعلمني حين جاءك؟ فقال أبو عبيدة: كرهت أن أكسر عليك حربك؛ وما سلطان الدنيا أريد، ولا للدنيا أعمل، وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن أخوان وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه[١].

عزم أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ على مواصلة الزحف على بلاد الروم، ولكنه تردد، ولم يدر بماذا يبدأ؟ أيتوجه إلى دمشق؟ وحينئذ يكون قد ترك خلفه بفحل جيشاً لجباً للروم يقدر ثمانين ألف مقاتل لا يأمن أن يبغته من ورائه.

أم يتوجه إلى فحل، فهو يخشى أن يتجمع الروم بدمشق، ويقوى أمرهم، ولا يستطيع المسلمون فتحها إلا بجهد ومشقة وشدة، وحينئذ قطع هذا التردد، وأرسل إلى الخليفة يستشيره بأيهما يبدأ.

وردَّ عليه الخليفة قائلاً: أما بعد، فابدأوا بدمشق، فانهدوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، وأهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل في دمشق من يمسك بها ودَعوها، وانطلق أنت وسائر الأمُراء حتى تغيروا على فحل، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالأردن وفلسطين[٢].

التوجه إلى دمشق:

بهذا الرد أنهى الخليفة تردد القائد، وأمن مخاوفه، حيث أمره بأن يبدأ بدمشق لأنها عاصمة البلاد، وسقوط العاصمة يؤدي دائماً إلى ضعف المقاومة في الأطراف وكثيراً ما تكون المقاومة بعد سقوط العاصمة من أجل الحصول

---

(١) ابن كثير (٧/ ٢٣٠).
(٢) الطبري (٣/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨).

على الأمان، أما استرداد العاصمة، أو إعادة مكانتها إليها فقلما يخطر ذلك على بال المقاومين، وإن حصل ذلك أحياناً فإنما يكون رمية من غير رام لظروف طرأت فغيرت مجرى الأوضاع.

وأمن الخليفة خوف القائد مما يجد من جهة فحل حين أمره بإرسال خيل تقف بإزائهم فتشغلهم بأنفسهم عن التفكير في مباغتة المسلمين، ولم ينس الخليفة أهل حمص وأهل فلسطين وما بينهم وبين أهل دمشق من علاقات تفرض عليهم مساعدة الدمشقيين فذكر القائد بذلك حتى لا يؤتى من قبل مالا يتوقع.

وصدع القائد بأمر الخليفة وعبأ جيشه، وتوجه به نحو دمشق، وقبل أن ينطلق بجيشه أرسل إلى فحل عشرة قواد، ومعهم جيش عظيم، وأمر عليهم عمارة بن مخشى الصحابي ووجه جيشاً بقيادة علقمة بن حكيم ومسروق العكي ليشغل أهل فلسطين عن مساعدة دمشق، وبعث ذا الكلاع في جيش ليحول بين أهل حمص وإمدادهم لأهل دمشق.

واطمأن أبو عبيدة للخطة، فلم يعد هناك ما يشغله، ولا يهدد أمن الجيوش الزاحفة نحو دمشق، إن تلك الخطة قد قطعت كل أمل في مساعدة الدمشقيين، ولا شك أنهم سيقفون وحدهم في مواجهة المسلمين، وحينئذ لن يُعجِز المسلمين أمرهم وستكون الدائرة عليهم.

لقد كانت فحل مصدر خطر عظيم حيث يعسكر فيها جيش قوامه ثمانون ألفاً مدججون بالسلاح والعتاد، وهم على استعداد لنجدة قوات دمشق إذا اقتضى الأمر، ولكن عمارة بن مخشى وجيشه قد فاجأوا الجيش المدل بعدته وعتاده فسقط في يد الروم، وبثقوا المياه فأوحلت الأرض راجين أن يحول ذلك بينهم وبين الجيش الذي قدم لمحاصرتهم، واغتم المسلمون لتلك المكيدة الخبيثة ولم يدر قط بخلدهم أن الله ـ عز وجل ـ قد قضى أن يكون ذلك من أعظم أسباب نصرهم، ورابط الجيش في مكانه محاصراً جيش الروم بفحل من أرض الأردن.

وكذلك كانت حمص مركزاً رئيسياً لقوات الروم، وكان هرقل قد فر

إليها بعد اليرموك حين علم بأن قوات المسلمين يستعدون لغزو دمشق، ولما حاصر المسلمون دمشق استغاث أهلها بهرقل، واستمدوه، ولم يخيب هرقل أملهم فيه، فأمدهم بجيش على خيل ليضمن وصول المدد في أسرع وقت، ولكن ذا الكلاع وجيشه قد رصدوا تحركاتهم، ووقفوا في وجه المدد، وحالوا بينه وبين الوصول إلى دمشق، فلم يتمكن المدد من الوصول، وظل أهل دمشق تحت رحمة جيش المسلمين.

توجه أبو عبيدة بجيشه نحو دمشق، وكان الأمير يزيد بن أبي سفيان، فجعل خالداً على القلب، وأبا عبيدة وعمراً على المجنبتين، وعياض بن غنم على الخيل، وشرحبيل بن حسنة على الرجالة، فلما نزلوا الغوطة وجدوا دورها وبساتينها خاوية على عروشها، ليس بها ديار ولا نافخ نار، لقد فر القوم إلى دمشق ليحتموا بأسوارها المنيعة وحصونها الشامخة، فنزل المسلمون بها وسكنوا دورها واستمتعوا بخيرات بساتينها، وكان ذلك عوناً لهم على محاصرة المدينة العتيدة.

كانت أسوار دمشق ترتفع في الهواء ستة أمتار أو تزيد، وكان عرضها ثلاثة أمتار بل تزيد، وأما حصونها فكانت شاهقة شامخة كثيرة الشرفات، وكان لأسوارها أبواب ضخمة ترد من يريدها بسوء، وأحيطت تلك الأسوار بخندق عرضه ثلاثة أمتار، تملؤه مياه بردى لتحمي المدينة من المهاجمين أو على الأقل تعوق مسيرتهم حتى يستعد حراس الأسوار للقاء الغزاة.

ورغم كل ذلك أصر أبو عبيدة على محاصرة دمشق، وتقدم الجيش الظافر إلى دمشق، وكانت نشوة النصر في اليرموك لا تزال تهزه وتدفعه لطلب المزيد من النصر، واستغل القائد العظيم طرب الناس بنشوة النصر، كما استعان بشوقهم إلى رؤية دمشق التي كثيراً ما سمعوا عنها ما يشجعهم على التضحية لفتحها، وأصدر أبو عبيدة أمره بمحاصرة المدينة، وعين لكل فريق باباً من أبوابها الكثيرة المنتشرة في سورها الحصين.

محاصرة دمشق:

نزل أبو عبيدة على باب الجابية، ونزل عمرو بن العاص على باب

توماء، ونزل شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب كيسان، ونزل خالد بن الوليد على بابها الشرقي[1].

وعلم المسلمون أن الحصار سيطول، وبخاصة وأن زمن الشتاء قد اقترب والبرد هناك يمزق الجلود، ويقطع الأوصال، وكان جيش الروم المحاصر في داخل العاصمة يعتمد على بردها القارس، وطقسها الذي لا يتحمله سكان جزيرة العرب الشديدة الحرارة، ولهذا ظل جيش دمشق معتصماً بها رغم خيبة أمله في وصول إمدادات هرقل له. إن قادة الجيش وإن خاب أملهم في هرقل فلن يخيب في برد الشتاء ورده لهؤلاء الأعداء، فكم حاصر المدينة معتدون وكان الشتاء وحده كفيلاً بطردهم وردهم على أعقابهم.

استعد المسلمون لذلك كله فنصبوا المجانيق، وأعدوا الدبابات، فأما طول الحصار فلهم في بساتين الغوطة وأنهارها ما يكفل لهم حياة رغدة هنيئة، وأما شدة البرد فقد هيئوا أنفسهم بالصبر وقوة التحمل، وأما مناعة العاصمة فإن تشديد الحصار وتضييق الخناق جديران بتحطيم معنويات المتحصنين بها، ولهم بعد ذلك وفوق ذلك كله تأييد الله - عز وجل - ونصره، فما لهم لا يصبرون؟

بدأ المسلمون يهاجمون دمشق، ويضربونها بالمجانيق، ويقتربون من أسوارها بالدبابات، ولكن ذلك لم يغن شيئاً، واستطاع جيش الروم أن يصمد لذلك ويرد هجمات المسلمين، ولكنه يخش الخروج إليهم، فلا تزال النهاية المؤلمة في معركة اليرموك عالقة بأذهانهم، وطال الحصار فعلاً حتى بلغ ستة أشهر عند بعض المؤرخين، وانتهى فصل الشتاء، وخاب الأمل الوحيد الذي كانوا لا يشكون في عونه لهم، ووقوفه إلى جوارهم.

وبدأ أهل دمشق يطلبون الصلح على لسان أسقف منهم[2]، وأجابهم

---

(١) هيكل: الفاروق عمر (١/١٢٨).
(٢) البلاذري ص ١٢٨.

المسلمون على أن يكون للمسلمين نصف ما بأيدي الروم من الأموال والأملاك، ولكن الروم ترددوا وأبوا[1].

فتح دمشق:

وظل الحال على ما هو عليه، المسلمون يشددون الحصار، والروم لا يعرفون سبيلاً للخروج من ذلك الحصار، حتى كانت ليلة استطاع خالدابن الوليد الذي كان يراقب الموقف بدقة وعناية فائقتين أن يعبر الخندق هو وجماعة من جيشه منهم القعقاع بن عمرو، ومذعور ابن عدي سباحة بالقُرَب، نفخوها وعلقوها في أعناقهم، وتسلقوا السور الشاهق بالحبال والأوهاق، وانحدروا إلى الداخل بالحبال نفسها، وكبروا فاجتمع المسلمون حول السور والباب، وعالج خالد ومن معه الباب بالسيوف ففتحوه بعد أن قتلوا البوابين، ودخل المسلمون المدينة عنوة، وذعر أهل دمشق فهرعوا إلى الأبواب الأخرى يطلبون الصلح فوافق المسلمون، وعقدوا معهم الصلح ما عدا خالداً فقد دخلها عنوة، والتقى القواد المسلمون في وسط المدينة عند كنيسة المقسلاط بالقرب من درب الريحان[2].

يقول صاحب الفتوح: وهو موضع النحاسين بدمشق، وهو البريص الذي ذكره حسان بن ثابت في شعره حين يقول:

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل[3]

والرواية هذه متفق عليها بين المؤرخين في فتح دمشق إلا من شذ منهم فقلب الكلام وعكس الوضع وادعى أن خالداً دخلها صلحاً وأبا عبيدة أو يزيد دخلها عنوة.

ولكن كيف عرف خالد بانشغال الروم في تلك الليلة حتى أقدم على اقتحام العاصمة؟ تجري الروايات بأن خالداً كان يقظاً مهتماً بالأمر، وأنه كان

---

(١) الطبري (٣/ ٤٤٠).

(٢) ابن كثير (٧/ ٣٠).

(٣) البلاذري ص ١٢٨.

لا ينام ولا يترك أحداً ممن معه ينام، وفي تلك الليلة لاحظ هدوء السور وخلوه من الحراس، فما أسباب ذلك؟ يقول الطبري وابن الأثير وابن كثير وغيرهم: بأنه ولد للبطريق مولود فصنع لأهل دمشق طعاماً اجتمعوا عليه، وأكلوا وشربوا وغفلوا عن واجبهم وشغلوا عن مواقفهم فلاحظ ذلك خالد فانتهز الفرصة وكان الاقتحام.

ويقول البلاذري: إن رجلاً منهم أتى خالداً، وأخبره بأن هناك هذه الليلة ليلة عيد لأهل المدينة، وأنهم في شغل، وأن الباب الشرقي قد ردم بالحجارة وترك وأشار عليه بأن يلتمس سلماً، فأتاه قوم من أهل الدير الذي عند عسكره بسلمين فرقى جماعة من المسلمين عليهما إلى أعلا السور، ونزلوا إلى الباب وليس عليه إلا رجل أو رجلان، فتعاونوا عليه وفتحوه وذلك عند طلوع الشمس[1].

والروايتان تؤديان إلى نتيجة واحدة هي أن خالداً فتح دمشق من بابها الشرقي عنوة، وأن أهلها كانوا عنها غافلين، وأن خالداً استعمل في الوصول إلى غايته السلاليم سواء كانت من الحبال أم غيرها، وأنه غامر ودخل المدينة وهي مغلقة الأبواب وهو الذي فتحها لجيشه.

ولكنهما تختلفان مع هذا في شيء آخر وهو أن خالداً في الرواية الأولى عرف انشغال الدمشقيين بفطنته ويقظته، وأن خالداً قد أعد الحبال والأوهاق[2] ليستعملها عندما تحين الفرصة، وفي الرواية الثانية عرف انشغال الناس بواسطة واحد منهم، وأنه استعار السلاليم من أهل الدير القريب منه.

والذي تميل إليه النفس هو الرواية الثانية، فقد حدث ذلك كثيراً في البلاد التي فتحها المسلمون بعد أن استعصت عليهم. وبخاصة وأن الروم كانوا قد ظلموا الرعية، وأرهقوا الناس بالضرائب الباهظة، وكان الناس قد ملوهم وملوا حكمهم، وضاقوا بأساليب ظلمهم، وقد حدث ذلك فعلاً عند فتح الإسكندرية.

---

(١) البلاذري ص ١٢٨.

(٢) الأوهاق: الحبال في أطرافها عقد تطرح على الشيء فتمسك به.

وإلا فإن هدوء السور وخلوه من الحراس لا يدلان على انشغال الناس فقد يكون ذلك مكيدة للتغرير بالمسلمين وإيقاعهم في حبائلهم، ومثل ذلك لا يغيب عن فطنة خالد العبقري، ولا يعزب عن ذهنه.

والرواية الثانية على ما هي عليه لا تقلل من عبقرية خالد العسكرية، ولا تهوّن شأن الدور الذي قام به خالد في فتح المدينة الحصينة، بل إنها لتعطي إلى جانب القدرة العسكرية الفائقة حنكة سياسية بارعة، حيث استطاع خالد ـ رضي الله عنه ـ أن يكسب عطف الناس، ويستميل قلوبهم إليه حتى انتهز ذلك الرجل انشغال الناس بعيدهم، وقصد خالداً، وأخبره بما عليه أهل دمشق وأغراه بالفتح.

فبينما نرى خالداً سياسياً بارعاً أقام علاقات حسنة مع أحد الأساقفة، وكسب عطف الناس واستمال قلوبهم، نراه هو وأصحابه وقد نفخوا القرب، وعلقوها في أعناقهم، وعبروا بها الخندق المحيط بالسور، ولا يكاد يعبر حتى ينصب السلالم ويرقى عليها ثم يستعملها في الهبوط إلى داخل المدينة، وصيحات التكبير تملأ الفضاء، ويقتل الحراس، وينشر الرعب في أنحاء العاصمة الحالمة الوديعة التي كان أهلها بالأمس يلهون آمنين.

إنها حنكة خالد السياسية شدت أزر عبقريته الحربية فكانت الثمرة فتح دمشق العتيدة الحصينة، ما أروع الحنكة السياسية حين تتعاون مع الخبرة العسكرية، وأعظم من ذلك وأروع أن تجتمع الصفتان في رجل واحد قادر على استخدامهما متى شاء لا حين تجبره الظروف وتضطره الأوضاع.

كان فتح دمشق عند بعض المؤرخين بعد اليرموك وفي السنة نفسها بعد حصار دام سبعين يوماً أو أربعة أشهر أو ستة أشهر، وكان ذلك كله ولم تخرج سنة ثلاث عشرة للهجرة النبوية بالرأي الذي رجحه ابن كثير هو أنها فتحت في رجب سنة ١٤ هـ وقال: هو رأي الجمهور[١].

واتفاق المؤرخين على أن دمشق وإن كان بعضها فتح عنوة وبعضها فتح

---

(١) ابن كثير (٧/٢٢).

صلحاً إلا أنه قد أجرى عليها جميعها حكم الصلح، وكان الصلح عند أكثر المؤرخين على المقاسمة أي أن المسلمين قاسموا سكان دمشق كل ما كان في أيديهم حتى الكنائس، وكان عددها خمس عشرة كنيسة أخذ المسلمون منها سبعة وقاسموهم أكبر الكنائس وأضخمها كنيسة القديس يوحنا المعمدان[1]، فأخذ المسلمون نصفها وجعلوه مسجداً وتركوا لهم نصفها الغربي كنيسة يقيمون فيها شعائرهم[2]، وقد أخذ الوليد بن عبد الملك منهم النصف الذي بأيديهم وأدخله في المسجد المعروف بالمسجد الأموي اليوم[3].

وتضمن هذا الصلح فرض الجزية على سكان دمشق، وقد جعلها أبو عبيدة ديناراً على كل رأس وشيئاً من الحنطة والزيت والخل يقتات به المسلمون، وكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فكأن عمر لم يرض بذلك بل ينظر إلى طبقات الناس واختلا فهم في اليسار وعدمه[4]، كما فرضها على الذكور البالغين القادرين على تأديتها دون غيرهم[5].

روى البلاذري أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد يأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى، وأن يجعلوها على أهل الورق أربعين درهماً، وعلى أهل الذهب أربعة دنانير، وعليهم من أرزاق المسلمين مدّان من الحنطة، وثلاثة أقساط زيتاً، وجعل عليهم ودكاً وعسلاً[6].

---

(١) الفاروق عمر/ هيكل (١/١٣٣).
(٢) ابن كثير (٧/٢١).
(٣) البلاذري ص ١٣٢.
(٤) نفسه ص ١٣١.
(٥) أبو يوسف ص ١٣٢.
(٦) البلاذري ص ١٣١.

المسلمون في دمشق:

استقر الأمر للمسلمين في دمشق، وطاب لهم فيها المقام، فعاشوا بين قصور وأنهار وورود وأزهار، ونظر أبو عبيدة فإذا كثير من أهل دمشق يتركون بيوتهم ويفرون إلى أنطاكية، حيث يقيم هرقل، ورأى المسلمين يسكنون هذه الدور، وينعمون بتلك القصور فخاف أن يخلدوا إلى الدعة والنعيم، وأن ينسوا من خلفوا وراءهم من المقاتلين فذكرهم بهم حين عمد إلى قسم الغنائم، فقسم معهم لذي الكلاع وجنوده، ولأبي الأعور ورجاله، ولبشير ومن معه، كما قسم للجنود الذين يحاصرون فحلاً.

وبهذا يكون أبو عبيدة - رضي الله عنه - قد ذكر المسلمين بإخوانهم الذين دفعوا عنهم، وينتظرونهم ليكملوا معهم المشوار الذي بدأوه.

وأما هذه الدور وتلك القصور التي تركها أهلها وفروا منها، فلا ينبغي أن تشغلهم عن مسيرة الجهاد في سبيل الله حتى لا يحل بهم ما حل بأهلها الذين فروا منها إلى غير رجعة، وليكن للمسلمين فيهم عبرة فالسعيد من وعظ بغيره.

هرقل يودع دمشق:

وأما هرقل إمبراطور الروم، وصاحب البلاد، فكان كلما سمع بانتصار المسلمين يبتعد عن الموطن الذي فتحوه، وظل يفر من بلد إلى بلد، ويتنقل من مكان إلى مكان يطلب النجاة، وينتظر الفرج، حتى سقطت دمشق، ثم حمص وقنسرين في أيدي المسلمين حينئذ فر هرقل إلى القسطنطينية، وأشرف على نشز من الأرض والتفت إلى الشام وقال: السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده[1].

ويقول أبو جعفر: لما فصل هرقل من شمشاط وأخلا الروم التفت إلى سورية فقال: قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر، فأما اليوم فعليك السلام

---

(1) ابن الأثير (٢/٤٩٤).

يا سورية تسليم المفارق، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً[1].

وكتب أبو عبيدة بالفتح إلى الخليفة فسر به، وكتب إلى أبي عبيدة أن اصرف جند العراق إلى العراق، فأخرج أبو عبيدة جند العراق وهم الذين قدموا مع خالد بن الوليد، وأمر عليهم هاشم بن عتبة المرقال، وعوضه عمن قتل منهم، وأمرهم بالسير واللحوق بسعد بن أبي وقاص، وخرج هو وبقية الأمراء متجهين إلى فحل[2].

من دمشق إلى فحل:

لا يزال القواد العشرة الذين أرسلهم أبو عبيدة لمحاصرة فحل مرابطين عندها وكلما هم المسلمون بغزو المدينة حال الوحل بينهم وبين ما يريدون، ذلك لأن جيش الروم لما علم بقدوم جيش المسلمين إليهم فزعوا أشد الفزع، وفكروا كيف يدفعون هذا الموت الزاحف عليهم؟ فبثقوا مياه نهر الأردن ومياه بحيرة طبرية فغرقت الأرض بالمياه، وكانت الأرض سبخة فتحول ترابها إلى وحل وطين لم يتمكن الجيش بسببه من اقتحام المدينة.

وكان أبو عبيدة قد انتهى من دمشق، وعقد الصلح مع أهلها، ونظر فإذا هرقل يحرض الناس عليهم، والروم يجتمعون حوله في أنطاكية، وفكر القائد ماذا يصنع؟ أيذهب إلى هرقل ليقضي عليه، ويريح المسلمين من تحريضه وشره؟ أم يذهب إلى فحل ليؤمن ظهر الناس، وتصير الشام بعدها سلماً للمسلمين؟

وسرعان ما تذكر أبو عبيدة رسالة الخليفة وأمره بالتوجه إلى فحل بعد فتح دمشق فلم يعد هناك مجال للتردد والتفكير، فليذهب أبو عبيدة وجيشه إلى فحل، وليكن من أمر هرقل بعد ذلك ما يكون.

استعد أبو عبيدة للمسير إلى فحل، وخلف يزيد بن أبي سفيان في خيله على دمشق حتى لا تنتقض أو ترتد، وتقلب للمسلمين ظهر المجن.

---

(١) الطبري (٣/٦٠٣).

(٢) ابن الأثير (٢/٤٢٩).

وكان شرحبيل بن حسنة هو أمير الجيش حسبما وصى الخليفة، ورتب شرحبيل جيشه، فجعل خالداً على المقدمة، وأبا عبيدة وعمراً على المجنبتين، وضرار بن الأزور على الخيل، وعياض بن غنم على الرجل[1].

سار الجيش على بركة الله، يحدوه أمل كبير في فتح هذه البلاد حتى تهدأ بلاد الشام كلها، ويصبح فيها المسلمون آمنين، واتجه شرحبيل بجيشه نحو الجنوب حتى انتهى إلى الجيش المحاصر وعليه أبو الأعور السلمي، فوجده وقد حال الوحل والماء بينه وبين جيش الروم.

وأراد شرحبيل أن يحرك الجيش الذي حاصر فحل تلك الفترة الطويلة دون أن يستطيع فتحها ليجدد نشاطه، ويحفزه للعمل بعد طول توقف فبعثه إلى طبرية فخرج أبو الأعور السلمي بجيشه متوجهاً إلى الشمال حيث تكون طبرية.

ونزل شرحبيل بجيشه الذي ضم خيرة قواد المسلمين على فحل، فوجد الأرض لازالت غارقة بالوحل والماء، وبحث المسلمون حولهم فوجدوا أنفسهم بأطيب مقام، الأرض خصبة، والخيرات كثيرة، والعيش رغد، والروم محصورون لا يصلهم مدد ولا يسعفهم عون، فلماذا يتعجلون؟

وكتب القائد إلى الخليفة يخبره بموقف الجيش، ذلك لأن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يوصي القواد دائماً بالكتابة له بكل ما يكون عليه الجيش حتى يكون بقلبه وروحه دائماً مع المجاهدين وما كان يحب أن يخفى عليه شيء من أحوالهم، ولم يكن هناك ما يدعو للعجلة فأقام الجيش حتى يأتيه أمر الخليفة.

مغامرة يائسة:

رأى سَقَلَّار قائد جيش الروم وجوهاً جديدة تحاصر المكان، ورأى في تصرفاتهم عدم الاكتراث بطول الحصار، فتأكد أن القوم جادون في

---

(١) الطبري (٣/٤٤٢).

حصارهم، وأنهم لن يبرحوا الأرض ـ مهما طال وقوفهم ـ حتى يفتحوها، فماذا يفعل؟ وكيف يتصرف؟

لقد كانت هزيمتهم في اليرموك لازالت تقض مضاجعهم، وتفت في أعضادهم ثم بلغتهم أخبار دمشق ذات الحصون والأسوار فزادت في فزعهم واضطرابهم وها هي ذي الأنباء تترى بأن هرقل يتأهب لمغادرة بلاد الشام إلى غير رجعة.

لم يكن أمام جيش الروم إزاء تلك الأحداث الجسام، وبعد تلك المواقف المفزعة إلا أن يغامر بخوض معركة مع المسلمين وليكن الموت فهو على كل حال خير من الأسر وإن كان مشوباً بعار الهزيمة.

عزم سقلار على مباغتة المسلمين وتبييتهم، فأرسل فرقة من جنوده ليكتشفوا له من خلال الوحل طريقاً بها يهاجم منه المسلمين، معتقداً أنه سيأخذهم على غرة وهم نائمون، ولكن شرحبيل قائد قوات المسلمين كان دائماً على أهبة الاستعداد، لأنه كان يتوقع أن يهاجمه الروم في أية لحظة، ولهذا فإنه كان يمسي ويصبح على تعبئة وكان جيشه في غاية اليقظة والحذر.

وتخير سقلار بن مخراق القائد اليائس ليلة ليبيت فيها المسلمين، فلما جن الليل عبر تحت ستار ظلامه ذلك المكان الوحل إلى حيث يعسكر المسلمون، وهو مطمئن تماماً إلى غفلة المسلمين وعدم انتباههم له، ولكنه لم يكد يواجه الجيش الإسلامي حتى فوجىء باستعدادهم لملاقاته، وخاب أمله في كل ما كان يتوقعه من غفلة المسلمين وعدم انتباههم، فلم يكن بد من المعركة.

وتلقاه شرحبيل هو وجنوده، فقاتلوا أشد القتال، وقاوموا أعنف مقاومة أعادت إلى أذهان الروم استبسال المسلمين في معركة اليرموك، واستبسل الروم في القتال فلم تكن لهم رغبة في الحياة بعد قتلى اليرموك واستسلام دمشق وفرار هرقل.

واستمرت المعركة بتلك الشراسة طول الليلة التي هاجم فيها سقلار،

وتنفس الصبح والقتال لا يزال مستعر الأوار، والموت يتخطف الناس من كل جانب، وأيقن المسلمون أن ما بين النصر والهزيمة هو صبر ساعة فصبروا محتسبين، وانتصف النهار والمعركة تزداد شراسة وفتكاً، وتحمس المسلمون فبعد الزوال ينزل نصر الله ـ عز وجل ـ كما علمهم رسول الله ﷺ وازدادت ثقتهم بهزيمة عدوهم فقد بدا على جيش الروم إعياء شديد، ولولا تشبث النفس الإنسانية بالحياة لألقوا بأيديهم منذ الجولة الأولى.

اللحظة الحاسمة:

ولمس خالد بن الوليد وضرار بن الأزور ما أصاب جيش الروم من الفشل والوهن فشدا عليه شدة حطمت معنوياته، وأحدثت فيه من الخلل والاضطراب مالم يعد في الإمكان تلافيه، وأقبل الليل بظلامه المخيف وسيوف المسلمين تنهبهم نهباً، فتزلزلت قلوبهم في صدورهم، واضطربت مع شدة الضربات صفوفهم، فحسبوا الليل فرصة للهروب من سيوف المسلمين فانهزموا حيارى خائفين، فضلوا الطريق، وأسلمتهم الهزيمة إلى الوحل الذي صنعوه بأيديهم ليمنع عنهم زحف المسلمين وقتل سقلار ورديفه نسطورس، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهنأه[١].

ولحق بهم المسلمون وقد حال الوحل بينهم وبين الفرار، فتناولوهم بأطراف الرماح وقتلوا منهم ثمانين ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد، وهكذا بدأت الهزيمة في فحل، ووقع القتل في الرداغ[٢].

إن تنصروا الله ينصركم:

وهكذا بدت للمسلمين آيات الله عز وجل، فقد كان ـ سبحانه ـ يهيء لهم أسباب النصر في شيء كرهوه وبرموا به، لقد كان انبثاق الماء، وتوحل الأرض مكيدة اتخذها الروم ليعوقوا تقدم جيش المسلمين، وأراد الله أن يكون الماء والوحل سبباً في انتصارهم وهزيمة عدوهم ﴿ويمكرون ويمكر

---

(١) الطبري (٣/٤٤٣) وابن الأثير (٢/٤٣٠).

(٢) ابن الأثير (٢/٤٣٠) والرداغ الطين والوحل.

الله، والله خير الماكرين﴾ (الأنفال الآية ٣٠). فانقلبت المكيدة على من اتخذها، وكانت عوناً للمسلمين على عدوهم، وأناة من الله ليزدادوا بصيرة وجداً[1].

وغنم المسلمون من الروم في تلك المعركة مغانم لم يقدرها المؤرخون، فاقتسموها بينهم، واطمأنت نفوسهم إلى موعود الله لهم، وانصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حمص تنفيذاً لأمر الخليفة، وصحبا معهما سمير ابن كعب وذا الكلاع الحميري ومن معه وخلفا شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص ليتمما فتح الأردن وفلسطين.

---

(١) الطبري (٣/٤٤٣).

فتح بيت المقدس

انتهت مهمة أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد في فلسطين بعد فتح فحل والقضاء على جيش الروم بها، فانصرفا راشدين إلى حمص ليواصلا الفتوحات في شمال سورية وليقضيا على فلول الروم هناك، ويقطعا على هرقل كل أمل في العودة أو التفكير في استرداد ما فتح المسلمون.

وبقي عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة في أرض الأردن وفلسطين، وكان عمر قد ولى ـ عمرو بن العاص أمر الحرب في فلسطين إذا بدأت الحرب فيها، فنهض بما كلف به يساعده في ذلك شرحبيل.

وفكر عمرو كثيراً قبل أن يبدأ مهمته، حيث كان لا بد من دراسة للموقف دراسة تجنبه المخاطر وتبعد جيشه عن المهالك، وبخاصة وهو يعلم أن أي خطأ في ذلك سيغضب الخليفة، وقد يعرضه للعزل فيحرم شرف الفتح لتلك البلاد التي كان يتطلع لفتحها كبار القواد من المسلمين، وكانت وصية الخليفة إلى أبي عبيدة حين ولاه أمر جيوش الشام لا تزال ترن في أذن عمرو وجميع القواد على حد سواء.

ويقول عمر ـ رضي الله عنه: (لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه)[1].

كان على القائد عمرو أن يفكر كثيراً قبل أن يخطو خطوة واحدة في

---

(١) الطبري (٣/٩ ـ ٤٣٤).

تلك الحرب التي يعرف كيف يدخل فيها، ولكنه لا يعرف إذا دخلها كيف يخرج منها، وكان عليه مع هذا التفكير الجاد أن يدرس وضع الجيوش الرومية بفلسطين، وهو يعلم أن قائدها والمسؤول عنها هو أرطبون القائد الأعظم الذي يلي هرقل في المكانة عند الروم، وأرطبون هذا كان كما وصفه ابن جرير حين قال وكان الأرطبون أدهى الروم، وأبعدها غوراً، وأنكاها فعلاً[1].

ونظر عمرو حوله فإذا جنود الروم قد تفرقوا في نواحي فلسطين المختلفة. فكانت منهم فرقة في بيسان، ، وأخرى في قيسارية، وثالثة في غزة ، ورابعة في الرملة ، والخامسة في إيليا (بيت المقدس) والسادسة وهي أكبرها حجما وأقواها رجالاً كانت في أجنادين بقيادة الأرطبون نفسه.

وأما شرحبيل وهو صاحب الأردن كما ولاه الخليفة الأول فكان عليه أن ينتهي من بيسان وطبريه، وقد وجد نفسه بعد الانتهاء من معركة فحل أمام بيسان فرأى من الحكمة ألا يدعها وهؤلاء جنوده يشرئبون إليها فانتهز الفرصة، والجنود لا يزالون في نشوة النصر، والعدو مبهور الأنفاس مما نزل برفقائه في فحل فعجل ببيسان وشدد عليها الحصار يساعده في ذلك عمرو ابن العاص والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو، وأما أبو الأعور السلمي فكان في حصار طبرية.

وحاصر المسلمون بيسان أياماً حتى ضج أهلها، وفل حدهم توالي الأنباء بانتصار المسلمين، فخرجوا يائسين فقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، ثم صالحوا من بقي منهم على مثل صلح دمشق، وطارت تلك الأخبار إلى أهل طبرية وهم محاصرون فلم يكن بد من التسليم وطلبوا الصلح من المسلمين فصالحهم أبو الأعور على مثل صلح دمشق، وبتسليم بيسان وطبرية تمَّ فتح الأردن كله صلحاً[2].

---

(١) نفسه ٦٠٥.

(٢) ابن الأثير (٤٣١/٢) والطبري (٤٤٢/٣، ٤٤٤).

واتجه الجيش المظفر إلى فلسطين يتولى قيادته عمرو بن العاص، وعليه أن يواصل المسيرة ويكمل المشوار[1] ونظرعمرو فوجد جيوش الروم وقد تفرقت في أنحاء البلاد من غزة إلى قيسارية ثم أجنادين وبيت المقدس فكتب بذلك إلى الخليفة.

ووجه الخليفة على الفور كتاباً إلى يزيد بن أبي سفيان يأمره فيه بإرسال أخيه معاوية ليحاصر قيسارية، وكانت قيسارية أعظم الثغور وأكثرها جندا ثم هي فوق ذلك أقرب الثغور من أجنادين، وتستطيع أن تمد أرطبون بما يحتاج إليه من الجنود والعتاد، فكان لا بد من حصارها لقطع المدد عن قوات أجنادين التي يتولاها أرطبون وكتب الخليفة إلى علقمة بن مجزز يأمره بالتوجه إلى غزة ومحاصرتها، وأمر عمرو بن العاص أن يواجه بنفسه أرطبون في أجنادين.

سار معاوية إلى قيسارية وحاصرها حصاراً ضاق به أهلها فكانوا يزاحفونه وكان يردهم في كل مرة إلى أماكنهم، ولما طال عليهم الأمد خرجوا من حصونهم وهم مصممون على ملاقاة المسلمين، وقاتلوا في استماتة شأن اليائس من العودة إلى الحياة وقاتلهم المسلمون في استماتة أشد من استماتتهم فقتلوا منهم ثمانين ألفاً وكملوهم في الهزيمة مائة ألف قتيل[2].

بعث معاوية يبشر الخليفة بفتح قيسارية وجمع الخليفة الناس عندما جاءه البريد فحمد الله وقال: لتحمدوا الله على فتح قيسارية.

واتبع معاوية مع الأسرى طريقة فطمت قائد الروم عن العبث بأسرى المسلمين فقد كان معاوية يحبسهم ويقول: ما صنع ميخائيل بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله[3].

ولما فتح معاوية قيسارية وجد بها سبعمائة ألف من المرتزقة، وثلاثين

---

(١) كلمة عامية تطلق على السير المتواصل.
(٢) الطبري (٣/٦٠٤).
(٣) نفسه.

ألفاً من السامرة ومائتي ألفاً من اليهود، ووجد فيها ثلاثمائة سوق قائمة كلها، وكان يحرسها كل ليلة مائة ألف جندي[1].

ويروي البلاذري في فتح قيسارية رواية أخرى فيقول: إن يهودياً يقال له يوسف أتى المسلمين ليلاً فدلهم على طريق في سرب، واشترط أن يؤمنوه وأهله، وذهب المسلمون فدخلوها من السرب، وفتحوا الباب، فدخل معاوية ومن معه، وكان بها خلق من العرب[2].

وبلغ عدد الأسرى في قيسارية أربعة آلاف، بعث بهم معاوية إلى الخليفة في المد ينة فأمر بهم فأنزلوا الجرف ثم قسمهم على يتامى الأنصار، وجعل بعضهم كتّاباً وبعضهم في أعمال المسلمين ونادى عمر في الناس أن قيسارية فتحت قسراً فكبر وكبر المسلمون[3].

إننا نلاحظ فرح الخليفة بفتح قيسارية بصورة لم نلاحظها عليه في فتح دمشق أو فحل وليس هذا إلا دليلاً على أن قيسارية كانت ثغراً يعتمد عليه الروم في إمداد فلسطين بكل ما تحتاج إليه لتظل في أيديهم وتحت سيطرتهم لما كان لها من الأهمية الدينية عندهم ففيها كنيسة القيامة وكنيسة المهد وغير ذلك من المقدسات، على أن فرح الخليفة بفتحها يشير إلى شيء آخر، ذلكم هو طول حصارها وما لاقاه فيها المسلمون من العنت حتى قيل إنها ظلت محاصرة سبعة أعوام[4].

وفي الوقت الذي كان معاوية فيه يحاصر قيسارية ذهب علقمة بن مجزز إلى غزة فحاصرها ولم يستطع القيقار قائد الروم هناك أن يجد سبيلاً لإمداد أرطبون بما يلزمه من المدد.

خطة عمرو في المعركة:

وأما عمرو بن العاص فقد كان شديد الحرص على أن يجرد أرطبون

---

(١) البلاذري ص ١٤٧.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ص ١٤٧ - ١٤٨.
(٤) البلاذري ص ١٤٨.

من كل عوامل القوة وأن يعزله عن بقية القوات التي ترابط في الأماكن القريبة منه والتي يستطيع الاستعانة بها وقت الضرورة حتى لا تطول المعركـة.

لهذا وجه أبا أيوب المالكي إلى الرملة ليشغل قواتها، ووجه علقمة ابن حكيم، ومسروق العكي إلى إيليا ليشغلا أهلها وبعث إلى الفريقين بالجنود والإمدادات وذهب إلى أجنادين حيث يقيم أرطبون، وحاصرها وهو ينتظر فرصة ليقتحمها، ولم تتح له تلك الفرصة وهنا تذهب الروايات إلى أن عمراً لما طال الحصار، ولم تتح له فرصة الهجوم، عالج الأمر بنفسه فدخل على أرطبون كأنه رسول من قبل عمرو، وأبلغه مايريد، وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد.

ولما هم بالخروج وقد رأى أرطبون من ذكائه ودهائه ما جعله يعتقد أن هذا الرسول هو عمرو نفسه أو أنه الذي يأخذ عمرو برأيـه، وحدث نفسه بقتله ليفجع المسلمين به، وهنا دعا حرسيا وأمره أن يقعد له في مكان حتى إذا مر به قتله.

وفطن عمرو لما يدبر له فقال لأرطبون: قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا مثل الذي أرى فيما عرضت فقد رآه أهل العسكر ورآه الأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، وكنت على رأس أمرك، وفرح الأرطبون حيث سيظفر بـالعشرة جميعهم ورأى أنها فرصة لا ينبغي تضييعها فقال: نعم، وأرسل إلى الحرسي ألا يقتل البدوي، وقال لعمرو: انطلق فجيء بأصحابك.

وخرج عمرو ناجياً من موت محقق، فعزم على أن لا يعود لمثلها، وأما أرطبون فقد أدرك أن عمرو بن العاص قد خدعه فقال: خدعني الـرجـل، هذا أدهى الخلق، وبلغت القصة الخليفة فسر بحيلة عمرو، وقال غلبه عمرو، لله عمرو[1].

---

(١) الطبري (٣/٦٠٥) ابن الأثير (٢/٤٩٨) ابن كثير (٧/٥٤).

إن هذه القصة تكاد تكون متواترة في كتب التاريخ، وهي إن صحت تدل على مقدار دهاء كلا الرجلين ومقدرته على الخروج من الأزمات، وتغلب عمرو على العقبات، وإني وإن لم أر أحداً تشكك فيها إلا أن النفس لا تميل إلى تصديقها تصديقاً قاطعاً، فهي قصة يمكن أن تكون وتقع من أمثال عمرو، ولكن الذي شككني فيها هو وقوعها مرة أخرى من رجل آخر وهو علقمة ابن مجزز الذي أرسله عمر لحصار غزة، وقصة علقمة مع الفيقار صورة طبق الأصل من قصة عمرو مع أرطبون مع أن علقمة هذا لم يشتهر بذكاء ولم يعرف بدهاء، ومثله نظيره الفيقار، وإني لأرجو من هذه اللمسة أن تفتح الباب للنقاد فيحققوا القصة، ويدلوا فيها برأي يمكن الاطمئنان إليه.

عاد عمرو إلى جيشه وقد عرف عن أرطبون كل ما يريد، فلم يكن بد من شن الغارة، وإنشاب المعركة وهاجم عمرو أجنادين، وثبت له أرطبون، ودارت رحى الحرب عنيفة قاسية بين الفريقين، وسقط فيها من القتلى ما أعاد إلى الأذهان يوم اليرموك[1].

كاد النهار يولي والمعركة لا تزال حامية الوطيس، ورأى أرطبون أن جنوده قد أصابهم الإعياء، وأحس بانهيار معنوياتهم، أمام جنود حالفهم النصر فهو يسير في ركابهم فانهزم متجهاً نحو الجنوب حيث مدينة القدس لعله يجد فيها قوة تحميه ويستطيع بها مواجهة المسلمين، ورآه علقمة ومسروق منهزماً في الناس متجهاً نحو بيت المقدس، فأفسحا له الطريق حتى دخل ثم أحكما عليه الحصار.

ولعل أرطبون قد فر من أجنادين بعد أن تأكد أن عمراً قد عرف مداخلها ومخارجها وأنه لن يتركه يهنأ بالأمن فيها فذهب إلى مكان لم يعرفه عمرو بعد.

ونزل عمرو وجنوده أجنادين واستدعى قواته المحاصرة للرملة وبيت المقدس فحضروا جميعاً وأقاموا معه في أجنادين ريثما يرسم خطته الجديدة.

---

(١) الطبري (٢/٦٠٥)، ابن الأثير (٢/٤٩٨)، ابن كثير (٧/٥٤).

حصار القدس:

وأصر عمرو على حصار القدس، وعزم على ألا يبرحها مهما كان الثمن حتى يفتحها، وأما أرطبون فقد لمس ذلك الإصرار من عمرو ومع ذلك لم يعبأ به كثيراً فقد كان يعلم أن للروم جنوداً منتشرين في أماكن شتى، وأنه يستطيع الاستعانة بهم متى شاء، ومن ناحية أخرى فإن القدس كانت منيعة بحصونها وجنودها فهو في مأمن يمكنه من مقاومة عمرو والصمود في وجهه.

وأراد عمرو أن يعزل القدس تماماً حتى لا يصلها مدد، وحتى يحاصرها وهو في مَأمَن لا يخاف أن يؤتى من خلفه، فأرسل عمرو قواته لتفتح كل المدن التي يحتمل أن يأتي منها المدد للقدس، فاستولى المسلمون على اللد، ونابلس، ويافا وعمواس وبيت جبرين وغزة ورفح، واتجهت فرقة إلى الشمال ففتحت سبسطية[1].

وأخذ عمرو بعد أن اطمأن إلى أنه قطع المدد عن ارطبون بل عن القدس بكل ما فيها، أخذ يفكر كيف يحاصر القدس، وراح يشاور القواد الذين استدعاهم إلى أجنادين، وبينما هم غارقون في التفكير، وصلت رسالة من أرطبون إلى عمرو بن العاص، وكان أرطبون في الروم كعمرو ابن العاص في العرب حتى قال فيهما عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عما تنفرج[2].

وافتضّ عمرو الرسالة فإذا فيها إنك صديقي ونظيري أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين فارجع ولا تغر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة[3].

وهنا توقف عمرو قليلاً، وانصرف عن التفكير في محاصرة بيت

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٤٥٩) والبلاذري ص ١٤٤.
(٢) الطبري (٣/٦٠٥).
(٣) نفسه ص ٦٠٦.

المقدس، وأخذ يفكر في رد هذه الرسالة، ولكن الرد وحده لا يكفيه، ولا يشفي نفسه، ولا ينقل إليه الصورة الواضحة التي يريدها وهداه تفكيره إلى استخدام رجل يعرف الرومية، يحمل الرسالة إلى أرطبون، ويستمع ما يدور بينه وبين خاصته، وينقل ذلك كله إلى عمرو. واستدعى الرجل، وسلمه الرسالة وقد كَتب فيها، جاءني كتابك، وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمت إني صاحب فتح هذه البلاد، واستعدي عليك فلاناً وفلاناً وفلاناً ـ لوزرائه ـ فاقرئهم كتابي ولينظروا فيما بينك وبينيَ[1].

وذهب رسول عمرو إلى أرطبون بالرسالة وسلمها له وهو جالس بين النفر الذين سماهم عمرو في كتابه، فلما قرأه قال: لا يفتح والله عمرو شيئاً من فلسطين بعد أجنادين، فقال وزراؤه من أين علمت هذا؟ فقال: صاحبها رجل صفته كذا وكذا وذكر صفة عمر بن الخطاب[2].

وسمع رسول عمرو هذه الكلمات فطار بها إليه، وأخبره بما سمع فعلم عمرو أن صاحبها عمر ابن الخطاب، فكتب إليه، يستمده، ويقول له: إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً، وبلاداً ادخرت لك فرأيك. فلما وصل الكتاب إلى الخليفة علم أن عمراً لم يقل هذا إلا عن علم فعزم على السفر إلى الشام لفتح بيت المقدس[3].

عمر في بلاد الشام

وأحب هنا قبل أن أتكلم عن ذهاب عمر إلى بلاد الشام أن أشير إلى أن خلافاً طائلاً دار في هذا المقام، وأسئلة كثيرة طرحت في هذا الموقف وكلها تتطلب الإجابة الحاسمة الشافية، وأجمل هذه الأسئلة فيما يأتي:

هل حوصرت بيت المقدس أم لا؟ ومن الذي حاصرها؟ وهل خرج

---

(١) نفسه.

(٢) ابن الأثير (٢/٤٩٩ ـ ٥٠٠).

(٣) ابن الأثير (٧/٥٥).

منها أرطبون قبل الحصار أم خرج بعد حصارها؟ وهل اشترك عمر ابن الخطاب ومن معه في حصار المدينة أم لا؟ وهل طلبت القدس الصلح قبل الحصار أم بعده؟ هذه كلها أسئلة تلح على الإجابة، والمؤرخون مختلفون فيها اختلافاً كبيراً بحيث يصعب على الباحث القطع فيها برأي حاسم.

نعم، إن الباحث المحقق يستطيع أن يستبعد بعض هـذه الأسئلة لخلوها مما يؤيدها أو لأن الأحداث التاريخية تعطي دلالات تجعلها بعيدة عن الواقع التاريخي.

إننا نستطيع أن نقطع بأن القدس لـم تطلب الصلح قبل الحصار، لأن ذلك قول يتعارض مع تاريخ المدينة المنيعة الحصينة، ويتعارض كذلك مع تمسك الروم بها لأنها المدينة المقدسة التي تضم كل مقدساتهم ففيها كنيسة القيامة، وفيها الصليب الأعظم، وفوق ذلك فأن السيد المسيح مشى على ترابها فباركها، وأصبحت مزاراً يحجون إليه، ويتبركون به، ويلتمسون عنده الغذاء الروحي.

إن التاريخ يروي لنا أن المدينة المقدسة بموقعها الجغرافي حيث تقع في منطقة جبلية في جنوب فلسطين تعتبر قلعة حصينة، وأن قدماء المصريين كانوا يعتبرونها خط الدفاع الأول لمن يأتي من جهتها قاصداً مصر، وأن المدينة صمدت أيام الغزو الفارسي في القرن السادس قبل الميلاد وأن اليهود لما اتخذوا هيكل سليمان معبداً لهم قووا المدينة ورمموا حصونها حتى صارت قلعة استطاعت أن تصمد في وجه الغزو الروماني في القرن الأول قبل الميلاد، وظلت المدينة المقدسة منيعة حصينة، قاومت الفرس بجيوشهم الجرارة عندما زحفوا عليها في مطلع القرن السابع الميلادي ثمانية عشر يوماً، وكان ذلك قبل الفتح الإسلامي بعشرين سنة تقريباً.

إن هذه الوقائع التاريخية ترد القول بأنها استسلمت قبل الحصار، وتثبت الرواية القائلة بأنها حوصرت شهوراً قبل أن تطلب الصلح[1].

---

(١) الواقدي (١/٢٢٨)، هيكل الفاروق عمر (١/٢٣٣).

وتختلف روايات المؤرخين أيضاً فيمن حاصرها، فمنهم من يقول: أبو عبيدة عامر بن الجراح قدم من الشام وحاصرها حتى طلب أهلها الصلح، ومنهم من يقول: عمرو بن العاص هو الذي حاصرها وهو الذي أرسل إلى أمير المؤمنين يستمده، ويطلبه ليتمم الصلح.

وحسبك أن تعرف أن أبا عبيدة بن الجراح، ورفيقه خالد بن الوليد كانا في ذلك الحين مشغولين بالمعارك في شمال بلاد الشام حتى ترد بغير عناء رواية محاصرتهما لبيت المقدس، وعندئذ يثبت عندك أن عمراً هو الذي حاصرها.

وإذا كانت الروايات متفقة على أن أمير المؤمنين إنما استدعي من المدينة ليتمم الصلح فعلاً فكيف يأتي بجيش ويحاصر المدينة حتى يضطرها إلى طلب الصلح؟

وأما أرطبون فإنه لما رأى أهل أيليا حريصين على الصلح، وبدأ الصلح فعلاً بين سكان القدس ـ وبين المسلمين خرج هو وتذارق ومن أبى الصلح من الروم، وذلك لأن الصلح قد أعطى الروم هذا الحق فقد جاء فيه (فمن خرج منهم فأنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأْمَنهم)[1].

ونستطيع بعد ذلك أن نقول، ونحن مطمئنون لما نقول أن المدينة المقدسة قد استعصت على الفاتحين، وأنها حوصرت فترة طويلة استمد فيها عمرو الخليفة مراراً وكتب إليه أرطبون، إنك لن تفتح شيئاً من فلسطين بعد أجنادين، وإن الذي حاصرها هو عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ وأنه لما طال الحصار، ولم ينصرف المسلمون يئس الروم وأيقنوا من سقوطها، فطلبوا الصلح، على أن يتولاه أمير المؤمنين بنفسه، فكتب إليه عمرو: إني أعالج حرباً كؤوداً، وبلاداً أدخرت لك فرأيك[2].

عندئذ عزم عمر ـ رضي الله عنه ـ على أن يذهب إلى بلاد الشام ليرى

---

(١) الطبري (٣/٦٠٩).

(٢) نفسه ص ٦٠٧.

الموقف بنفسه ويعالجه بحكمته، وهناك في المدينة المنورة، وفي مسجد رسول الله ﷺ جمع عمر الصحابة ليستشيرهم فيما عزم عليه، فأشار عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بعدم الخروج لأنه أحقر لهم وأرغم لأنوفهم، وأشار علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم، وهذا مما يدل على أن الحصار قد طال وضجر منه المسلمون.

وأخذ أمير المؤمنين برأي علي، واستخلفه على المدينة، وسار متجهاً إلى الشام في جماعة من الصحابة منهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ـ رضي الله عنه ـ وجعل عمر العباس على مقدمته[١].

اجتماع الخليفة مع الأمراء:

ولما هم عمر بالخروج كتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم ويستخلفوا على أعمالهم، وحضر الأمراء في اليوم الموعود، واستقبلوا عمر بالجابية، وكان أول من استقبله يزيد ابن أبي سفيان ثم أبو عبيدة بن الجراح ثم خالد بن الوليد[٢].

وقدم الخليفة على فرس ليسرع في سيره، ويخالف الواقدي في ذلك ويقول بل قدم على بعير، ويؤيد ـ ذلك ما رواه ابن كثير عن ابن أبي الدنيا أنه قال: قدم عمر الجابية على طريق إيليا على جمل أورف تلوح صلعته للشمس، وليس عليه قلنسوة ولا عمامة تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب وطاؤه كسائي أنبجاني ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمره أو شمله محشوة ليفاً، هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرق جنبه.

وعرضت له مخاضة فنزل عن بعيره، ونزع موقيه فأمسكهما بيده، وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم عظيماً عند أهل

---

(١) ابن كثير (٧/٥٥).
(٢) ابن الأثير (٢/٥٠٠).

الأرض، صنعت كذا وكذا فصك عمر في صدر أبي عبيدة وقال: أولو غيرك يقولها يا أبا عبيدة إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله[١].

استقبل الأمراء الخليفة على الخيول، وعليهم الديباج والحرير، وغضب عمر لما رأى على الأمراء من ثياب الديباج والحرير، فأخذ الحجارة، ورماهم بها وقال: ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم أإياي تستقبلون في هذا الزي وإنما شبعتم منذ سنين؟ وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم، فقالوا يا أمير المؤمنين، إنها يلامقة، وإن علينا السلاح قال فنعم إذن[٢].

والذي يتضح من روايات المؤرخين في قدوم عمر إلى الجابية أنه لم يقدم للصلح، وإنما قدم ليطلع بنفسه على أحوال المسلمين، ويأخذ رأي القواد فيما يجب العمل به في مثل هذا الموقف، لأن عمراً كان قد استمده أكثر من مرة، والخليفة يمده ولا يبخل عليه بشيء، فلما تكرر ذلك ولم يأته نبأ الفتح خرج مع فرقة من المسلمين ليقف على حقيقة الأمر، ولذلك كتب إلى الأمراء ليلتقي معهم في الجابية، ويبحث معهم الأمر ولذلك أيضاً حضر جميع الأمراء ما عدا عمراً وشرحبيل فإنهما كانا محاصرين الأرطبون[٣].

إن عمر لو حضر إلى الشام ليتمم الصلح مع أهل بيت المقدس لما نزل الجابية، ولتوجه على الفور إلى بيت المقدس لينهي الصلح ويصرف الجنود الذين حاصروا المدينة تلك المدة الطويلة.

إن الجابية تقع في الجنوب الغربي لدمشق، وهي أقرب إليها منها إلى القدس، وقد مر عمر على القدس وهو في طريقه إلى الجابية[٤] ولم ينزل

---

(١) ابن كثير (٧/٥٩ - ٦٠).
(٢) ابن الأثير (٢/٥٠٠) اليلامقة كلمة فارسية وهي القباء المحشو.
(٣) نفسه ص ٥٠١.
(٤) ابن كثير (٧/٥٦).

عند القدس فهو إذا قد حضر لأمر آخر غير الصلح، وذلك هو التداول مع الأمراء في شؤون الفتح.

ولما وصل عمر الجابية كان اليأس قد بلغ بأهل القدس مداه، فعزموا على طلب الصلح، وحيث يوجد الخليفة في الجابية فالأجدر أن يتولاه بنفسه، فذهب وفد يمثل أهل القدس ومعهم رجال يمثلون أهل الرملة ليستأمنوا أمير المؤمنين، ويطلبوا منه الصلح، وكانت القدس والرملة هما المدينتان اللتان لم يستطع عمرو فتحهما حتى قال عنهما أبو جعفر: وكانوا قد أشجَوا عمراً وأشجاهم، ولم يقدر عليها ولا على الرملة[1]. لم يبرح عمر الجابية حتى قدم الوفد الممثل للقدس والرملة، وطلبوا منه الصلح، فصالحهم على إيليا وحيزها والرملة وحيزها وصارت فلسطين بعد ذلك نصفين نصف مع أهل إيليا، والآخر مع أهل الرملة[2].

وفيما يلي نص كتاب الصلح الذي كتبه الخليفة لأهل إيلياء:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبانهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا

---

(١) الطبري (٦٠٨/٣).

(٢) الطبري (٦٠٨/٣).

مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين - إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية ابن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة[1].

إن كتاب الصلح هذا يشهد شهادة حق بأن الإسلام دين تسامح وليس دين إكراه وهو شاهد عدل بأن المسلمين عاملوا النصارى الموجودين في القدس معاملة لم تخطر لهم على بال فأين هذه المعاملة وذلك الأمان العام من موقف الروم منهم حينما أرادوا أن يجبروهم على التنازل عن مذهبهم، ويدخلوهم في مذهب الإمبراطور.

إن عمراً وهو الفاتح القادر كان يستطيع أن يفرض عليهم ما يشاء، وأن يجبرهم على ما يريد، ولكنه لم يفعل لأنه كان يمثل الإسلام، والإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه ولا يقبل من أحد إيماناً إلا عن طواعية وإذعان. إن الإيمان ليس شيئاً يجبر عليه الناس لأنه من عمل القلوب، والقلوب لا يعلم مخبآتها إلا الله - سبحانه فقد يريك الإنسان أنه مؤمن وليس كذلك، وتكون مضرته لأهل الإيمان أكثر ممن يجاهرون بالكفر والإلحاد ولهذا آثر المسلمون أن يعطوا الناس حرية العبادة ، ويؤمنوهم على كل عزيز لديهم على أن يعيشوا في كنف المسلمين، ويؤدون الجزية مقابل حمايتهم والذود عنهم، وفي ظلال الحياة الهادئة الوديعة، وفي رحاب الصلات والجوار، وفي كنف المسلمين وعدالتهم سيرى غير المسلمين عن قرب جمال الإسلام وسماحته وسيلمسون إنصافه وعدالته وسَيَرَون فيه الحقائق التي قد عَميت عليهم

---

(١) الطبري (٣/٦٠٩).

لبعدهم عنه، وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجاً كما حدث في كل البلاد التي فتحها المسلمون، وأعطوا أهلها مثل هذا الأمان.

إن المسلمين لم يخسروا شيئاً وهم يُؤمنون النصارى على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، ولكنهم كسبوا الكثير بموالاة هؤلاء لهم ودخولهم آخر الشوط في دينهم.

وهمَّ الخليفة بمغادرة الجابية ليذهب إلى بيت المقدس بعد أن أمَّن أهلها وأسعدهم بالعهد الذي كتبه لهم، ولكنه قبل أن يغادر قسَّم فلسطين إلى منطقتين فاستعمل علقمة بن مجزز على إيلياء ـ وتوابعها، وعلقمة بن حكيم على الرملة وتوابعها وأمدهما بالجنود الذين كانوا مع عمرو وشرحبيل وأما عمرو وشرحبيل فقد انضما إلى الأمراء في الجابية[١].

ولما بلغ الأمان أهل إيلياء فرح به الناس فرحاً عظيماً لما أعطاهم من الأمان، وحقق لهم من الامتيازات التي حرموا منها في عهد الرومان، وكأن أرطبون وتذارق ومن سار معه على دربهم لم يعجبهم هذا الصلح لأنهم لا يستطيعون الحياة مع الناس كأفرادهم، ولا يهنأون بأن يعيش الناس سواسية كأسنان المشط، فاستغلوا ما في شروط الصلح من تأمينهم حتى يبلغوا ديارهم، وخرجوا من القدس مولين شطر مصر حيث ترابط قوات الروم هناك[٢].

عمر في بيت المقدس:

انتهى مؤتمر الجابية، وانصرف الأمراء كل إلى الجهة التي قدم منها، وتوجه عمر بن الخطاب إلى إيلياء مصطحباً معه عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، فلما ركب فرسه رأى برجله وجعاً فنزل عنه وأحضر له برذون ليركبه فلما مشى به جعل يتجلجل به ويهتز، فقال عمر: احبسوا احبسوا، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا[٣]. وأما أبو جعفر

---

(١) الطبري (٣/ ٦١٠).

(٢) نفسه ص ٦٠٨، ابن الأثير (٢/ ٥٠١).

(٣) ابن كثير (٧/ ٦٠).

فيروي أنه لما اهتز به البرذون نزل عنه، وضرب وجهه بردائه، وقال قبح الله من علمك هذا، وقال هذا من الخيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده[1].

وأقام عمر بالجابية أياماً حتى برىء فرسه، وزال عنه العرج فركبه وذهب به إلى بيت المقدس وهناك استقبله أهل القدس استقبالاً يليق به وبما أسداه إليهم من الفضل في شروط الصلح ويبدو أن دخول عمر بيت المقدس كان في الليل، فقد روى أبو جعفر عن رجاء بن حيوة قال: لما شخص عمر من الجابية إلى إيلياء، فدنا من باب المسجد قال: ارقبوا لي كعباً فلما انفرق به الباب قال: لبيك اللهم لبيك بما هو أحب إليه ثم قصد المحراب، محراب داود عليه السلام، وذلك ليلاً فصلى فيه فلم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة فتقدم فصلى بالناس وقرأ بهم سورة (ص) وسجد فيها، ثم قام وقرأ بهم في الثانية سورة بني إسرائيل ثم ركع ثم انصرف.

واستشار عمر كعب الأحبار في مكان المسجد فأشار كعب بأن يجعله خلف الصخرة وقال له: إنك إن تفعل ذلك تكن القدس كلها بين يديك ولكن عمر رفض هذا الاقتراح من كعب وقال: ضاهيت والله اليهودية يا كعب بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله ﷺ قبلة مساجدنا صدورها وقال: إنا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة فجعل قبلته صدره.

ويروى ابن كثير أنه رضي الله عنه دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، وصلى فيه تحية المسجد، ثم صلى صلاة الغداة من الغد فقرأ في الأولى بسورة (ص) وسجد فيها والمسلمون معه، وفي الثانية بسورة (بني إسرائيل)[2].

وسأل عمر كعب الأحبار عن مكان الصخرة فدله عليها، وذلك لأن الصراع بين اليهود والنصارى كان قد بلغ أشده، وكانت الأيام بينهم دول، فإذا كان النصر للنصارى ضيعوا معالم الصخرة وجعلوها مزبلة يلقون فيها

---

(١) الطبري (٣/ ٦١٠).

(٢) ابن كثير (٧/ ٥٥)، وسورة بني إسرائيل هي سورة الإسراء.

القاذورات والأوساخ حتى أن المرأة كانت ترسل خرقة حيضها لتُلقى في الصخرة، وذلك لأن الصخرة قبلة اليهود.

وكان ذلك من النصارى معاملة بالمثل، لأن اليهود لما صلبوا من شبه لهم بعيسى ـ عليه السلام ـ اتخذوا قبره محلاً للقمامة، حتى أطلقت كلمة القمامة على الكنيسة التي بناها النصارى محل القبر، وهي الكنيسة المعروفة بكنيسة القيامة.

وقد بالغ النصارى في استعمال الصخرة محلاً لإلقاء الكناسة حتى وصلت المحراب ـ محراب داود عليه السلام. وقد لفت ذلك نظر هرقل وهو يزور بيت المقدس في العام الذي وصله فيه كتاب النبي ﷺ فوعظ الناس وخوفهم عاقبة ذلك العمل، وقال: «إنكم لخليق أن تقتلوا على هذه الكناسة مما امتهنتم هذا المسجد كما قتلت بنوا إسرائيل على دم يحيى بن زكريا» ثم أمروا بإزالتها فشرعوا في ذلك ولم ينتهوا من ثلثها حتى فتح المسلمون القدس[1].

ولهذا لم يعرف عمر مكان الصخرة لأنها كانت مغطاة بالزبالة والأوساخ، فلما دله كعب الأحبار عليها أخذ يرفع عنها التراب والأوساخ، ولما رآه المسلمون فعلوا كما فعل ـ رضي الله عنه، وأمر الخليفة أهل الأردن بنقل ما تبقى من التراب والأوساخ عن الصخرة ففعلوا[2].

وهذا موقف آخر جليل وعظيم من مواقف أمير المؤمنين التي لا تحصى، والتي برهن فيها عملياً على أن الإسلام يحترم جميع الأديان، ويجعل كل المقدسات محترمة ولا يحتقر شيئاً منها، إن هذه الصخرة التي أزال عنها عمر التراب والأوساخ بيده، وحملها في قبائه لينفيها عنها هي قبلة اليهود والصخرة المعظمة عندهم التي كلم الله عليها يعقوب ـ عليه السلام ـ كما يعتقدون.

فكما كان موقف عمر من النصارى رائعاً وجليلاً حين منحهم حرية

---

(١)، (٢) نفسه ٥٦.

الاعتقاد وأمنهم على صلبانهم وكنائسهم لم يضن على اليهود مع ما ارتكبوه مع المسلمين من الجرائم بمثل هذا الموقف الرائع الجليل، حيث رفع التراب عن الصخرة، وأظهر عنايته بها وحرصه على احترامها.

وأخذ عمر يتجول في أنحاء المدينة المقدسة ويتنقل بين آثارها وعجائبها، ويذكر نعمة الله عليه حيث فتح مدينة الأنبياء على يديه ليضمها إلى المقدسات الإسلامية، فها هي ذي الكعبة المشرفة الرابضة في قلب مكة المكرمة تلتقي منذ عهد ليس بالبعيد بالمسجد النبوي في المدينة المنورة ثم هي اليوم ترتبط بالمسجد الأقصى القائم في مدينة القدس مجتمع النبيين، والمدينة المعظمة عند اليهود والنصارى، فهي أرض المعاد بالنسبة لليهود، وهي مثوى عيسى ـ عليه السلام ـ حسب زعم النصارى، وهي أولى القبلتين عند المسلمين.

ألست ترى معي أن المسلمين، وقد فتحوا القدس، وضموها إلى الأمجاد الإسلامية قد جمعوا بذلك الأديان كلها في صعيد واحد، وأوضحوا أن الإسلام هو الدين الوريث لكل ما سبقه من الأديان؟

أو لست ترى معي أن فتح القدس حقيق بأن يفرح به المسلمون فرحاً يعدل فرحتهم يوم فتحت مكة مهوى الأفئدة ومستقر البيت الحرام؟

أو لست ترى معي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ مهما صلى لله شكراً ومهما أثنى عليه سبحانه تعظيماً لن يبلغ شكر ما أنعم الله به عليه من نعمة الإسلام، وما أجرى على يديه من فتح هذه البلاد؟

نعم إن الأمر جدير باهتمام عمر، وإن الفتح حقيق بأن يذهله عن التفكير فيما عداه، ولكن عمر كان يرى دائماً أن مهمته أعظم من أن تقف عند فتح مهما كان، ولو كان بيت المقدس، إن عمر يشعر في قرارة نفسه أن ولايته لأمور المسلمين تتطلب منه المزيد، لأن الله أذن لهذا الدين أن يظهر على الدين كله، والمسلمون لا يزالون في أول الطريق.

وبينما عمر يطوف في كنيسة القيامة يصحبه البطريق الأكبر

(صفرونيوس) ويتحدث معه وقد أنس به وأحس منه الصدق فيما أعطاهم من العهد إذ حانت الصلاة، وطلب منه عمر مكاناً يصلي فيه، وأشار عليه البطريق أن يصلي حيث هو في الكنيسة[1] وأخبر البطريق بأنه يخشى أن صلى فيها أن يغلبهم المسلمون عليها، ويقولون: هنا صلى أمير المؤمنين. ولهذا السبب نفسه اعتذر عن الصلاة في كنيسة أخرى حتى يثبت لهم أن المسلمين معنيون بتنفيذ شروط الصلح، وعازمون على الوفاء بها ما لم يحصل منهم نقض أو ما يسبب النقض.

ودخل عمر الكنيسة ـ كنيسة المهد ـ في بيت لحم يصحبه صفرونيوس، وبيت لحم تبعد عن القدس ثمانية كيلو مترات مما يدل على اهتمام عمر بتفقد كل ما جرى الصلح عليه، وأدركت عمر الصلاة وهو في الكنيسة فصلى فيها، ولكنه خاف أن يتخذها المسلمون مسجداً فكتب عهداً خاصاً بهذه الكنيسة، ومنع المسلمين من دخولها في صورة جماعية وسمح لهم كأفراد.

ولعل عمر ـ رضي الله عنه ـ صلى في هذه الكنيسة بعد امتناعه من الصلاة في كنيستي القيامة وقسطنطين ليثبت للعالم أن الأرض كلها مسجد بالنسبة للمسلمين، وليزيل ما قد علق في قلب البطريق من كراهية عمر للصلاة في الكنيسة لأمر آخر غير الذي ذكره له.

وقد كانت صلاة عمر في هذه الكنيسة رداً مقدماً على من جاء بعده من المبشرين والمستشرقين وأثاروا القضية على وجه آخر حين زعموا أن عمر لم يصل في الكنيسة لما كان فيها من الصور والتماثيل لا لما ذكره للبطريق فكانت صلاته في كنيسة المهد دفعاً لما أثاره هؤلاء الناس حيث كان فيها من التماثيل والصور والصلبان ما لا يقل عن الموجود في كنيسة القيامة.

لقد كان ذهاب عمر إلى بلاد الشام فاتحة خير على المسلمين، حيث فتحت فلسطين كلها على يديه، ما عدا أجنادين فقد فتحها عمرو بن العاص،

---

(١) فهي معبد من المعابد التي يصلى فيها لله ولكن عمر رفض ان يصلي في الكنيسة

وقيسارية فقد فتحها معاوية بن أبي سفيان[1].

وكان فتح إيلياء في ربيع الآخر من السنة السادسة عشرة من الهجرة[2]، ويرى البلاذري أن فتحها كان في سنة سبع عشرة[3] وجمهور المؤرخين يضعون فتحها في أحداث السنة الخامسة عشرة[4].

قضى الخليفة عشرة أيام في القدس[5] تفقد فيها جند المسلمين كما تفقد أحوال المعاهدين وقسم البلاد إلى أقسام لتسهل إدارتها على الأمراء، وعين لكل قسم أميراً. وعاد الخليفة إلى المدينة العاصمة ففرح المسلمون بعودته فرحاً عظيماً لأنهم خافوا أن يقيم الخليفة في بلاد الشام ذات المزارع والقصور والبساتين النضرة والحياة السهلة، فلما عاد إليهم كبروا وهللوا، وأيقنوا أن خليفتهم لن تستطيع الدنيا بزينتها وزخارفها أن تبهره ولن تستطيع تلك الفتوح مهما عظمت أن تلوي عنق مسيرته لتصرفه عن طبيعته.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها الخليفة إلى بلاد الشام، وفي سنة سبع عشرة شد رحله متوجهاً إلى الشام فلقيه أمراء على الحدود بين الحجاز والشام في مكان يقال له «سرغ» وأخبروه أن الأرض سقيمة ونصحوه بعدم الدخول فرجع.

وفي السنة الثامنة عشرة أراد السفر إلى بلاد الشام وحال بينه وبينها طاعون عمواس، وما نزل بالمسلمين من القحط والمجاعة - عام الرمادة - ولما انتهى الطاعون وتغلب على المجاعة توجه في العام نفسه إلى الشام ليطمئن على المسلمين بعد أن مات في الطاعون خلق كثير من أجلاء الصحابة ومشاهير القواد كأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل والحارث ابن

---

(١) ابن كثير (٧/٥٧).
(٢) نفسه والطبري (٣/٦١٠).
(٣) البلاذري ص ١٤٤.
(٤) الطبري وابن الأثير وابن كثير.
(٥) الواقدي (١/٢٢٨).

هشام وشرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس ويزيد بن أبي سفيان وأبو جندل بن سهيل بن عمرو[1].

واجتمع عمر بالمسلمين في بلاد االشام، وخطب فيهم خطبة بليغة، وولي الولاة وورث الأحياء من الأموات، ولما حضرت الصلاة أشار عليه الناس بأن يأمر بلالاً فيؤذن للصلاة كما كان يؤذن في عهد رسول الله ﷺ، وكان بلال قد امتنع عن الأذان بعد وفاة الرسول ﷺ ولكنه امتثالاً لأمر الخليفة أذن للصلاة، فما بقي أحد كان قد أدرك رسول الله ﷺ وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته، وعمر أشدهم بكـاءً، وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكر رسول الله ﷺ، ثم رجع عمر إلى المدينة[2].

---

(١) ابن كثير (٥٧/٧). والبلاذري ١٤٥.
(٢) الواقدي (١٥٠/١).

فتح مصر

انتهى عمرو بن العاص - رضي الله عنه - من فتح فلسطين، ولم يعد هناك ما يستدعي بقاءه فيها، ترى ماذا هو فاعل؟ إن الخليفة لم يأمره بشيء ولم يصدر إليه أمراً بعمل معين، فهل يرضى عمرو بأن يظل عاملاً على فلسطين من قبل الخليفة ويقنع بذلك؟ وهل تسمح له عبقريته العسكرية أن يرى ولايته مهددة بالغزو من قبل الإمبراطورية الرومانية عن طريق مصر براً وبحراً؟.

لا أعتقد أبداً أن مثل هذا الغزو يخفى على مثل عمرو وهو الداهية الأريَب ولا أرى أن الروم يسلمون بهذه الهزائم وأمامهم فرصة لمحاولة استرداد بعض ما فقدوا، والبحر تحت سيطرتهم والبر في متناول أيديهم. بل إني لأجزم بأن هذه المحاولة لا بد أن تكون إذا لم يفاجئهم عمرو بن العاص بما ليس في حسبانهم، من أجل هذا فكر عمرو في فتح مصر.

وماله لا يفعل وأبو عبيدة وخالد لما انتهيا من أمر دمشق أمناها بفتح المناطق الشمالية التي يحتمل أن يداهمها منها الروم فلا بد أن يؤمن عمرو حدود ولايته الجنوبية والجنوبية الشرقية من غزو الروم لها وتهديدهم لحدودها. إن الروم الذين لا يزالون يسيطرون على مصر، و لا تزال قواتهم ترابط في حصونها المختلفة والمنتشرة في كل مكان لن يستسلموا للقوات الإسلامية إلا مجبرين، ولن يكفوا عن مواصلة الحرب إلا مضطرين فإذا ما قعد عمرو في فلسطين، ورضي بالمقام في ظلها الوارف وعيشها الرغيد،

ورياضها الغناء، وبساتينها الفيحاء، فإن الروم لن يتركوه ينعم بما قنع به، فعليه إذن أن يشحذ عزيمته ويجدد همته ويواصل المسيرة حتى يقضي على جيوش الروم المعسكرة في أرض مصر ولا سيما وقد انضم إليها الأرطبون وأخذ يستعد لاسترداد المجد السليب واسترجاع السلطة المفقودة.

من أجل هذا كان لا بد أن يتوجه عمرو إلى مصر لا من أجل ما فيها من خيرات ولا من أجل ما ينعم به أهلها من الرزق الواسع والعيش الوفير، نعم قد يكون ذلك من الأسباب، ولكنه ليس كل الأسباب، ولا ضير في أن يبحث المسلمون عن أماكن الخصب ليعيشوا فيها ما دام المقصد الأسمى والغاية العليا هي هداية الناس، ودعوتهم إلى الحق وتأمين الطريق للدعاة لينتشروا وينشروا الدعوة في أمان واطمئنان، ولكن الضير الحقيقي في أن يكون همّ الفاتحين استغلال خيرات البلاد المفتوحة وحرمان أهلها واستعبادهم. واختار عمرو من رجاله ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، وسار بهم نحو العريش يريد مصر[1]، وسواء فعل عمرو ذلك من تلقاء نفسه أو بأمر من الخليفة[2] فإن الظروف كانت تحتم عليه أن يسلك هذا المسلك لأنه إذا لم يبغت الروم فسوف يبغتونه وإذا لم يتغد بهم فسيتعشون به.

إن الروايات التي ذكرها بعض المؤرخين من أن عمراً ذهب لفتح مصر دون أن يأمره الخليفة وأنه تصرف من تلقاء نفسه وأن الخليفة أرسل إليه رسولاً يحمل كتاباً يقول له فيه: إن وصلك كتابي هذا قبل أن تدخل مصر أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي هذا فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره[3]، وتمضي هذه الروايات فتسوق تحايل عمرو على عدم استلام الكتاب حتى دخل أرض مصر، وعندئذ استلم الرسالة وسار متوجهاً إلى مصر.

---

(١) البلاذري ٢١٤.

(٢) نفسه.

(٣) ابن عبد الحكيم ص ٨١.

إن هذه الروايات لا يقبلها عقل عاقل ولا تستطيع الثبات أمام المناقشة العلمية الرصينة فإن طبيعة عمر ـ رضي الله عنه ـ وحزمه في معاملة الأمراء وعدم رضوخه لما يستحدثه ولاته من التصرفات التي لم يوافق عليها كل ذلك يأبى عليه أن يخضع لتصرف عمرو، بل إن الموقف يستدعي عزل عمرو واستبداله بغيره ومن يدري؟ لعل عمر إن سكت عن هذا التصرف ورضي به يكون بعد ذلك أسلوباً يتعامل معه الأمراء به، ولهم في ابن العاص أسوة وسابقة. ثم إن رسول عمر ما كان ليسكت على حيلة عمرو وهو قد لحق به قبل أن يدخل مصر فكان لا بد أن يسلمه الكتاب ويلزمه بما فيه، أو كان على الأقل يخبر الخليفة بما فعل عمرو وحينئذ ترى كيف يكون موقف الخليفة منه؟.

إن الذي تميل النفس إليه ويطمئن إليه القلب، ويوافق الوقائع التاريخية، ويتناسب مع مواقف عمر الحازمة هو أن عمرو بن العاص غادر فلسطين متوجهاً إلى مصر بأمر الخليفة، وأن عمراً ساق من الحجج والمبررات ما جعل الخليفة يقتنع بوجهة نظره ويوافق على فتح مصر[1].

وسواء كانت تلك المبررات اقتصادية أو سياسية أو عسكرية أم كلها مجتمعة، فإن الخليفة قد آمن أن فتح مصر ضرورة يقتضيها وضع المسلمين في الجزيرة العربية من الناحية الاقتصادية، وتفرضها حالة الدولة الناشئة التي لم يمض عليها سوى عشرين عاماً من الناحية السياسية، وتحتمها أوضاع الجيوش الإسلامية في فلسطين من الناحية العسكرية.

ليس لنا أن نفهم الأمور والأحداث إلا على هذا النحو، وإلا نكون مجانبين للصواب مبتعدين عن جادة الفهم المستقيم، ولهذا فإن الثقات من المؤرخين يقطعون بأن عمراً قد سار مع جيشه إلى مصر بأمر من الخليفة، وإن الخليفة أمده بعد مسيرته بالزبير بن العوام ومعه جيش يستعين به على

(١) ابن عبد الحكم ص ٨٠ ـ ٨١.

فتح مصر[1]، وذكر البلاذري أن عدد جيش الزبير قد بلغ عشرة آلاف أو إثني عشر ألف جندي[2]. سار عمرو بجيشه الصغير الذي لا يتناسب أبداً مع عظمة البلاد التي عزم على فتحها فقد كانت مصر معقل الروم على البحر المتوسط، ومفتاح إفريقيا، وبها ثغر الإسكندرية الذي يعتبر من أجمل وأعظم ثغور البحر المتوسط في ذلك الحين. بحيث كانت ميناؤها تتسع لاثني عشر ألف سفينة من مختلف الأحجام وكان سكانها يبلغون مليوناً من البشر من مختلف الأجناس والأديان بل يزيدون على ذلك[3].

وكانت مصر حصناً حصيناً حشدت فيه الروم جيشاً عظيماً وتولى قيادته أرطبون قائد الروم الأعظم ورصدت الطريق كلها من فلسطين إلى مصر بالقوافل والجحافل المسلحة وأقامت الحصون ليأوي إليها المحاربون ويتحصنوا بها، فكان هناك حصن الفرما وقواته التي أوقفت عمراً شهراً حتى استطاع فتحه، ثم كان حصن بلبيس وقواته الحصينة بقيادة أرطبون نفسه والذي صمد شهراً كذلك في وجه المسلمين. ويأتي بعد ذلك حصن أم دنين الذي عانى المسلمون في فتحه أشد المعاناة مما اضطر عمراً أن يكتب إلى الخليفة يستمده ويستنصره.

كانت كل هذه التحصينات عقبات في وجه الفاتحين الذين يبغون الوصول إلى حصن بابليون أعدها الرومان بالرجال والعتاد ليعوقوا مسيرة الجيوش التي تحاول اقتحام البلاد وبخاصة بعد أن أغار عليها الفرس وأخرجوا منها الروم قبل ذلك بخمس وعشرين سنة، وبهذا تكون لديهم فرصة يستعدون فيها لمواجهة الغزاة.

فماذا يغني جيش صغير كالذي خرج به عمرو ليفتح مصر؟ ماذا يغني جيش من ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة آلاف على أقصى تقدير في فتح بلد مثل مصر قد تحصن الروم فيه وملؤوه بالرجال والعتاد؟ ولكن ثقة عمرو في

---

(١) ابن كثير (٩٧/٧) والطبري (١٠٦/٤ ـ ١٠٧).

(٢) البلاذري ص ٢١٤.

(٣) هيكل الفاروق عمر (٦٨/٢ ـ ٦٩).

قدرته العسكرية، واعتزازه بإيمانه وتأكده من نصر الله ـ عز وجل ـ لعباده المؤمنين جعله يغامر ويزحف بهذا الجيش الصغير وكله أمل في تحقيق وعد الله، وكله ثقة في امداد أمير المؤمنين له بما يلزم من الجنود في مثل تلك المعركة.

وخرج عمرو من فلسطين بجيشه بعد استئذانه الخليفة، وواصل مسيرته حتى بلغ رفح وانحدر منها نحو العريش فدخلها دون مقاومة وصادف ذلك اليوم عيد الأضحى فضحى عن المسلمين بكبش[1].

معركة الفرما:

ومن العريش انحدر عمرو بجيشه نحو الغرب حتى بلغ الفرما وفيها كان أول قتال بين المسلمين والروم، وكانت المعركة عنيفة شرسة استمرت شهراً بين الفريقين حتى فتحها المسلمون. كانت حامية الفرما الرومية تحارب المسلمين وتنتظر المدد يأتيها من قبل المقوقس ولكن المقوقس لم يمدها بشيء وتركها وحدها تواجه المسلمين، ولعل المقوقس أراد بذلك أن يستنزف قوة المسلمين، فإنه إن أمد حامية الفرما بمدد كبير والمسلمون لا يزالون بقوتهم ولا زالت نشوة النصر بفتح بيت المقدس تغريهم بعدوهم، فإن المسلمين سيتغلبون عليهم ولا تكون هناك قوات تعرقل طريقهم وتحول بينهم وبين الوصول إلى الحصن، فأراد المقوقس أن يحارب المسلمون في الفرما ويحاربوا في بلبيس ثم يحاربوا في أم دين فتضعف قوتهم ويهنوا أمام عدوهم.

ذلك ما توقعه المقوقس ورجاله العسكريون، وهذا ما خططوا له فهل نجح التوقع، وانتصر التخطيط؟ الحق أن التوقع محتمل والتخطيط متقن، ولكن النتائج المترتبة عليه لم تتحقق بل أدت إلى عكس ما كان منتظراً عند الروم، فكان انتصار المسلمين في الفرما حافزاً لهم على مواصلة الزحف ودافعاً للقبائل العربية المقيمة بالقرب من الفرما للانخراط في جيش

---

(١) المقريزي (١/ ٢٨٩).

المسلمين، وموهناً لقوات الروم المنتظرة دورها في بلبيس وأم دنين.

وطال انتظار قائد حامية الفرما للمدد ولكنه لم يصل فيئس، وخرج مغامراً بحياته وحياة قواته وبرز للمسلمين، ودار هناك أمام الفرما قتال عنيف أجبر الروم على التقهقر ليلوذوا بحصونهم، ولكن المسلمين كانوا أسرع منهم إلى أبواب الحصن فحالوا بينهم وبين ما يريدون، وقضوا على الحامية فلم ينج منها إلا الشريد.

ودخل المسلمون الفرما فهدموا حصونها وخربوا كنائسها والأديرة التي اتخذها الروم حصوناً حاربوا منها المسلمين وأجبروهم على الوقوف أمامها شهراً أو شهرين ونظر المسلمون فإذا مرفأ قريب من الفرما ترسوا فيه السفن للروم، فخشي المسلمون أن يستعملها جيش العدو في غزو المدينة فأحرقوها ليقطعوا كل أمل للروم في العودة إليها، واتخذ المسلمون الفرما معقلاً يحمون به الطريق إلى فلسطين والجزيرة العربية.

قد يقول قائل: لماذا لم يبق المسلمون على الحصون والكنائس وغيرها مما هدموا ودمروا ليستعينوا بها؟

إن الباحث المحقق يرى أن عَمراً محق في كل ما فعله في الفرما، ذلك لأن قواته القليلة التي يحارب بها لا تمكنه من ترك بعضها ليحمي الحصن المفتوح، ويحول بين الروم وبين استرداده وحتى لو أتيحت له الفرصة لحماية الفرما ببعض جنوده فما يصنع فيما سيواجه بعد من الحصون؟ كان لا بد أن يتخلص من كل ما يمكن للروم أن يتحصنوا به، ويكون وسيلة يستعينون بها على حربه وتهديد قواته من خلفها.

اطمأن عمرو إلى أن المدينة لم تعد صالحة لحماية جيش يأوي إليها، وتفقد جيشه وما فقده في المعركة وتألم لفقد رجال كانوا حريصين على فتح مصر فعاجلتهم المنية، وخشي إن استمرت المعارك على هذا النحو مع وقوع الخسائر في الجيش القليل العدد ألا يستطيع مواصلة الزحف، ولا يتمكن من بلوغ الغاية.

ولكن الله تعالى قد عوضه عمن فقده فانضم إلى جيشه كثير من رجال القبائل العربية من راشدة ولخم وكانوا يقيمون بجبل الحلال[1].

ومضى عمرو بجيشه لا يلقى شيئاً من المقاومة متجهاً غرباً حتى وصل القواصر (القصاصين) ومن هناك اتجه نحو الجنوب حتى أصبح في وادي الطميلات بالقرب من التل الكبير، ثم اتجه إلى الجنوب الغربي حتى نزل بلبيس.

وقد سار الجيش هذه المسافة الطويلة دون أن يجد مقاومة تذكر، حتى قال المقريزي وابن عبد الحكم والأتابكي - فتقدم عمرو لا يدفع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس.

معركة بلبيس:

وعند بلبيس برز الروم في قوة كبيرة قاصدين صد عمرو عن التوجه نحو حصن بابليون وأرادوا منازلة المسلمين، فقال لهم عمرو - رضي الله عنه - لا تعجلونا حتى نعذر إليكم، وليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام، وعندئذ كفوا عن القتال، وخرج إليه الرجلان، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصية النبي ﷺ بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل - عليه السلام - فقالا قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء امنا حتى نرجع إليك، فقال عمرو - مثلي لا يخدع، ولكني أؤجلكما ثلاثة لتنظرا، فقالا - زدنا، فزادهما يوماً فرجعا إلى المقوقس، فأبى أرطبون أن يجيبهما، وأمر بمناهدتهم[2].

لا شك أن هزيمة أرطبون في أجنادين، ثم عدم قدرته على فك حصار القدس كانا يؤرقان حياته، ويظهرانه في حالة ضعف لا تتناسب مع مكانته عند الروم، ولعله أراد بهذا الرفض، وبعزمه على مهاجمة المسلمين في بلبيس أن يسترد شيئاً من كرامته المهدورة، أو لعله أراد أن يفعل شيئاً ينسى الروم هزيمته وفراره.

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٨٥، المقريزي (١/ ٢٨٨).
(٢) ابن الأثير (٢/ ٥٦٤).

ولكن أرطبون وقد لمس بنفسه قوة المسلمين وتصميمهم على الجهاد حتى النصر أو الشهادة خاف أن يلقى المسلمين وجهاً لوجه، فانتهز فرصة الهدنة التي أعطاها عمرو للراهبين أبي مريم وأبي مريام، وعزم على تبييت المسلمين لعله يصيب منهم غفلة فيصل إلى ما يتمنى من هزيمة المسلمين. . ولكن هيهات.

وخرج أرطبون في جيش تعداده اثنا عشر ألف مقاتل، وبيت المسلمين يحسبهم على غفلة ولكن عمراً كان حذراً دائماً، وكان جيشه على تعبية، فلم يكد يرى جيش الروم حتى نهض لقتالهم وحميت المعركة بين الفريقين فكانت عنيفة شرسة قتل فيها من المسلمين عدد لا يستهان به[1] وأما الروم فقد خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير، وكانت هزيمتهم منكرة قتل فيها أرطبون نفسه[2].

يتفق المؤرخون على أن حصار بلبيس والمناوشات التي دارت بين الفريقين عندها استمرت شهراً حتى فتح الله على المسلمين، وأغلب الظن أن هذا الشهر كان قبل الفتح، فإن عمراً ما كان لينتظر شهراً عند بلبيس وهو يعلم أن أي وقت يمضي دون تقدم الجيش الإسلامي إنما هو في مصلحة الروم، حيث يستطيعون لم شعثهم وجمع فلول جيشهم وتدعيم قوتهم لملاقاة المسلمين في مكان آخر، وعمرو يعلم كذلك أن الوقوف بالجيش بعد هذا الانتصار يذهب نشوة النصر من نفوسهم، ويميل بهم إلى الإخلاد إلى الراحة والقناعة بما أحرزوا من نصر.

لهذا فإني موقن بأن عمراً انطلق بجيشه عقب انتصاره في بلبيس ليحاصر قرية أم دنين، ولم ينتظر المدد الذي طلبه من الخليفة، مستغلاً في ذلك أثر النصر في نفوس المقاتلين وكان حصاره لام دنين طويلاً واشتد عليه الأمر، وتأخر عليه الفتح وطال انتظاره للمدد فدعاه ذلك كله لأن يرسل رسولاً

---

(١) هيكل، الفاروق عمر (٢/٩٣).

(٢) ابن الأثير (٢/٥٦٥)، هيكل (٢/٩٣).

إلى الخليفة يلح في طلب المدد، ويصف له وضع الجيوش الإسلامية وحاجتها الملحة إلى المدد لمواجهة جيوش الروم المتحصنة في حصن أم دنين.

معركة أم دنين:

وكانت أم دنين شمال حصن بابليون لهذا كان لزاماً على المسلمين أن يفتحوها قبل الحصن، إذ ليس من الحنكة العسكرية أن يدع الجيش وراءه مسلحة قوية ويتقدم يحاصر حصناً آخر، وأم دنين تقع على النيل، ويقع فيها الآن جامع أولاد عنان القريب من باب الحديد وكذلك حديقة الأزبكية[1].

وعند أم دنين نشب قتال عنيف، كان الروم يخرجون من الحصن أحياناً فيقاتلون المسلمين ثم يعودون إلى الحصن كلما اشتد عليهم الأمر، ومضى الحال على ذلك أياماً لم يحددها المؤرخون ولم يؤثر طول الحصار في المسلمين، فقد كان ما يحتاج إليه الجيش من الطعام والعلف موفوراً وبينما هم على ذلك وصل البشير بقدوم المدد، فارتفعت لذلك معنويات الجيش وقويت شكيمتهم، ورأى جنود الروم المدد يصل إلى المسلمين فخارت قواهم وضعفت عزيمتهم، وامتنعوا عن الخروج لملاقاة المسلمين.

وانتهز عمرو تلك الفرصة، وتحين الوقت المناسب، وأمر جنوده فشدوا على الحصن واقتحموه وهو في مقدمتهم، واستولوا على الحصن بعد مذبحة مروعة في العدو، وتمكنوا من أسر باقي الحامية.

كانت الحامية التي وصلت والمسلمون عند أم دنين مكونة من أربعة آلاف رجل كثر بهم عدد المسلمين، وعلموا أن أمير المؤمنين سيتابع لهم المدد حتى يتم لهم النصر، فقد بلغ عددهم بعد وصول المدد ثمانية آلاف رجل[2].

---

(١) حاشية النجوم الزاهرة (١/٨).
(٢) ابن عبد الحكم (١/٨٧).

وبعد سقوط أم دنين توجه عمرو بجنوده وقد انضم إليهم المدد نحو حصن بابليون، وكان المقوقس في الحصن حين وصل إليه المسلمون[1] وشدد المسلمون الحصار على الحصن، ولكن عمراً قد علم أن الحصن منيع، وليس من السهل اقتحامه بهذا العدد الذي معه، وإن كان بعض المدد قد وصل إلى أم دنين، وتعاون مع الجيش الذي حاصرها حتى فتحت فإن عدد جيش المسلمين لا يكفي لمحاصرة الحصن وإجباره على التسليم، وبخاصة وأن زمن فيضان النيل قد أقبل وسيصبح الحصن محاطاً بماء النيل من كل جوانبه.

ولو نظرنا إلى مناعة الحصن وما صمم عليه لرد أي معتد لعلمنا أن عمراً كان محقاً في أن يستزيد الخليفة من المدد، فقد كان حول الحصن خندق عليه قنطرة متحركة لا يمكن فتحها أو تحريكها إلا من داخل الحصن، وكان باب الحصن مصنوعاً من الحديد بحيث يستحيل اقتحامه، كما كانت السفن الراسية في ماء النيل الواصل إلى باب الحصن تحميه وتدافع عنه وكان للحصن أسوار يبلغ ارتفاعها ستين قدماً، وكان سمك الأسوار ثماني عشرة قدماً، وكانت صروحه ترتفع أكثر من أسواره، ولكل صرح سلم صاعد إلى أعلى البناء يشرف الناظر منه على جبل المقطم من الشرق، وعلى الجيزة والأهرام من الغرب[2].

عمرو أمام بابليون:

وقف عمرو أمام الحصن بعزم لا يفل، وهمة لا تعرف الملل، ولكنه خشي نتيجة المغامرة، فلئن كان النصر قد حالفه في خطواته السابقة، فإنه يخشى أن يعرض المسلمين لهلكة تغضب عليه أمير المؤمنين، فتضيع كل انتصاراته أمام تلك الغضبة، ولئن كانت المغامرات السابقة محمودة العواقب فقد تكون تلك المغامرة ماحية لكل محامد المغامرات السابقة، لهذا كله رأى عمرو أن يستعجل المدد وأن ينصرف عن محاصرة الحصن إلى حين.

---

(١) الأتابكي (١/٨).

(٢) هيكل، الفاروق عمر بتصرف (٢/١٠٣).

واتجه عمرو بجيشه إلى الغرب فعبر النيل، ولعله أراد أن يوهم من في الحصن أنه منصرف عنهم إلى غيرهم ليطمئنوا، وينصرفوا عن استعدادهم، وزاد عمرو في تضليلهم فاتجه جنوباً نحو الفيوم فلما أشرف عليها جاءته الأنباء بأن الروم قد أعدوا لها حامية كثيرة العدد قوية العدد، وإنهم مستعدون للدفاع عنها، عندئذ لزم الصحراء فلم يبرحها، وكان يبعث بالكتائب فتأتيه بما يحتاج إليه من الطعام لجيشه والعلف لخيلهم.

ولعل عمراً قد سلك هذا المسلك ليستجم جيشه الذي أرهقه السفر المتواصل، وأضنته الحروب المتتابعة، فهو منذ وطىء أرض مصر وهو ينتقل من معركة إلى معركة، ويخرج من ميدان ليدخل في ميدان آخر، واختار عمرو الصحراء ليعود بالجيش إلى مألوفه ويسكن ما في قلوب رجاله من الحنين إلى البيئة التي نشأوا فيها.

وجاءت الأنباء إلى عمرو بأن كتيبة من عسكر الروم تستتر بالآجام والأشجار وترقب حركاته وسكناته، وفكر عمرو ليتخلص من هذه الكتيبة فضرب في الصحراء وأوغل والكتيبة تتبعه وتسير بسيره، حتى إذا غلب على ظنه أن الكتيبة انقطعت عن مصادرها، ولم يعد في الإمكان نجدتها، طوقهم عمرو بجنوده وقتلهم عن آخرهم وتخلص من شرهم.

وانتظر قائد حامية الفيوم عودة حنا قائد كتيبة التجسس، ولكنه لم يعد وتأكد لديه أن حنا قد قتل هو وأفراد كتيبته فحزن عليه حزناً شديداً، وشاعت أنباء الكتيبة في أفواه الناس وراحوا يتناقلون أخبار الانتصارات التي أحرزها المسلمون، وأخذوا يستعرضون مواقف جيش الروم فلم يجدوا إلا هزائم وعاراً تندى لها جباه الشرفاء والشجعان، وأيقنوا أن دولة الروم قد ولت بغير رجعة.

ويبدو أن حنا قائد استخبارات الروم السالف الذكر كان شخصية عزيزة فيهم وكان له بينهم مكانة يحسد عليها، فإن قائد قوات الفيوم قد أمر بالبحث عن جثته، وكان المسلمون قد ألقوا بها في النيل، فلما عثر عليها حملت إلى الحصن، ومن هناك أرسلت إلى القسطنطينية ليلقي عليها هرقل نظرة الوداع

الأخيرة، فلما رأى هرقل جثة القائد تألم لهذا المصير، وأقسم ليدافعن عن مصر بكل قوته[1].

وظل عمرو لائذاً بالصحراء ليجم جيشه، ويستعد لمحاصرة الحصن، وبينما هو كذلك إذ أقبل عليه رجل من المسلمين يحمل إليه نبأ قدوم المدد الذي طالما انتظره، وسر عمرو لهذا النبأ، فإن قدوم المدد يمكنه من الاستمرار في الزحف، ويجعله قادراً على محاصرة الحصن.

وفكر عمرو في استقبال المدد، ورأى أنه لا بد أن يعود من حيث أتى وعليه أن يعبر النيل إلى الضفة الشرقية فإن المدد أقبل من الطريق التي سلكها عمرو حين قدومه، فقد اجتاز الفرما، وسار إلى بلبيس، وها هو ذا في طريقه إلى الحصن.

وعبر عمرو النيل في شجاعة فائقة ومهارة أدهشت المؤرخين، فقد كانت قوة الحصن قادرة على صده عن العبور، كما كان في إمكانها أن تحول بين عمرو والمدد الذي جاء ليشد أزره ويحمي ظهره، ولكن قوة الحصن لم تفعل شيئاً من ذلك رغم قدرتها عليه، ولست أدري ما الذي أعجزها عن انتهاز تلك الفرصة؟ أهو الخوف من لقاء عمرو وجنوده؟، أم أن عمراً غافلها وعبر في ظلام الليل دون أن تشعر بعبوره؟ أياً ما كان الأمر فإن عمراً قد تمكن من عبور النهر، واستقبل المدد عند عين شمس.

معركة عين شمس:

وعسكر المسلمون في عين شمس (هليو بوليس)، وأخذوا يستعدون لمهاجمة الروم، وشعر تيودور قائد الروم بأن الموقف سيكون له ردود فعل سيئة في نفوس المصريين إذا ظل قابعاً في الحصن ولم يخرج لمواجهة المسلمين، وخشي تيودور أن ينقلب المصريون أعواناً للمسلمين، وقد أنس في نفسه قوة يستطيع بها مواجهة المسلمين، حيث كانت قواته أكثر عدداً وأعظم عدة وأعلم بدروب البلد ومسالكها.

---

(١) هيكل، الفاروق عمر، (٢/٩٧).

كان عمرو بن العاص شديد الفرح بالمدد الذي وصله لا سيما وكان أمير المؤمنين قد اختار له خيرة الجنود وخيرة القواد، فقد أرسل إليه أربعة آلاف جندي، على كل ألف رجل منهم رجل مقام ألف، وهم - الزبير ابن العوام، والمقداد بن الأسود، وقيل المقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد[1].

وبهذا بلغ المدد اثني عشر ألفاً أربعة آلاف ثم أربعة آلاف تمام ثمانية آلاف[2] ثم أربعة آلاف فصاروا اثني عشر ألفاً، ولهذا كتب عمر - رضي الله عنه - إلى عمرو يقول له: (إعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة)[3].

وحاول عمرو أن يستفز جنود الروم ليخرجوا من الحصن، وفكر في حيلة ليبلغ بها مأربه، وصادف تفكير عمرو في ذلك تفكير تيودور في الخروج لمواجهة المسلمين، وبلغت أنباء خروج تيودور عمراً فسر لذلك، وعلم أن الله سيحقق له أمله، ورسم خطته بعد أن تأكدت لديه أنباء خروج الروم.

بعث عمرو خمسمائة فارس، بقيادة خارجة بن حذافة، فساروا بالليل من وراء الجبل حتى دخلوا مغارة بني وائل قبل الصباح - وهو مكان بالقرب من القلعة الحالية - وبعث كتيبة أخرى إلى أم دنين، وأمر عمرو الكتيبتين أن تختفيا، حتى إذا حانت لهم الفرصة كروا على العدو من جانبه ومؤخرته، وخرج عمرو في أكثر جند المسلمين للقاء العدو.

وخرج الروم بقيادة تيودور من الشمال الشرقي للحصن، وشقوا الأديرة والبساتين، والتقوا مع عمرو في وسط الطريق بالقرب من العباسية الآن، وحمي القتال ودارت المعركة رهيبة مفزعة في أول النهار، وبينما عمرو يقاتلهم من وجههم، حملت الخيل التي كان وجهها من خلفهم، فأما الكتيبة

---

(١) المقريزي، (١/٢٨٩).
(٢) ابن عبد الحكم (١/٨٧).
(٣) الأتابكي (١/٨).

التي كانت في مغارة بني وائل فاجتاحت مؤخرة جيش تيودور ففر الروم منهزمين إلى أم دنين فاستقبلتهم الكتيبة الكامنة هناك، وعندئذ فر الروم مولين الأدبار ولحقتهم سيوف المسلمين فلم ينج منهم سوى ثلاثمائة، ركبوا السفن وعادوا إلى الحصن[1].

محاصرة بابليون:

وتوجه عمرو بجيشه المظفَّر نحو الحصن، فحاصره وكانت حاميته ومن انضمَّ إليها من الفارين من معركة عين شمس قد أصابهم الذعر، وانفرط عقد نظامهم، ولم يعد لهم أي أمل في مقاومة لا يجنون من ورائها إلاَّ الهزيمة النكراء، والموت المحقق.

واستمر حصار المسلمين للحصن شهراً دون أن يملُّوا أو يولوا، وعلم الروم أنَّ الحصن مفتوح لا محالة مهما طالت مقاومتهم، وبخاصة وقد رأوا ماء النيل يأخذ في الهبوط، وكان المقوقس معهم في الحصن كما ذكرت من قبل، عندئذٍ بدأ المقوقس يجمع أهل الرأي ويشاورهم سراً في الأمر.

وأخذ المقوقس يطرح رأيه عليهم ولعلَّه بذلك أراد أن يفتح لهم باباً مغلقاً لا يجروء أحد على معالجته ليفتحه، فلم يكن فيهم من يملك من الشجاعة والجرأة ما يستطيع به أن يعرض مبدأ المفاوضة خشية أن يرمى بالجبن ويتهم بالضعف، وإن كانوا جميعاً يميلون إلى هذا الرأي، وذلك دائماً شأن المنافقين الذين يعيشون في ظروف يسيطر عنيها القهر، وتخضع للتسلط الغاشم والحكومات المستبدة، فهم لا ينطقون إلاَّ بما يرضي أهواء المتسلطين ولا يفعلون إلاَّ ما يشير به المستبدون.

وراح المقوقس يعرض حججه، ويدلي ببراهينه، فأخبرهم بأنَّهم لا قبل لهم بمقاومة قوم قهروا قيصر وملكوا ملك كسرى، وذكرهم بما مُنيت به جيوشهم في الفرما وبلبيس وأم دنين وعين شمس ثمَّ قال: «وها أنتم أولاء

---

(١) ابن عبد الحكم (١/٨٧ ـ ٨٨) وحاشية الصفحة نفسه

ترون ما نحن فيه من ضيق وعنت، وكأنّه يقول لهم أليس خيراً أن تفدوا أنفسكم بشيء من المال ليرحل هؤلاء العرب، ولتعود مصر إلى ملك الروم[1].

وافق المجتمعون على رأي المقوقس، وفوَّضوه في أن يتولى المفاوضة بنفسه مع المسلمين وركب المقوقس ظلام الليل خارجاً من الباب الخلفي للحصن، وأقلعت السفن به وبمن معه ممن على رأيه حتى وصل إلى جزيرة الروضة[2].

بدء المفاوضات:

ولمَّا استقرَّ المقوقس (قيرس) في الروضة، أرسل إلى عمرو بن العاص رسالة جاء فيها: (إنّكم قوم قد ولجتم في بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنّما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلّكم الروم، وجهزوا إليكم ومعهم من العدَّة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل وإنّما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعلّه أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنّا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلّكم أن تندموا إذا كان الأمر مخالفاً لطلبكم ورجائكم فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به على شيء)[3].

ولمَّا وصلت رسل المقوقس إلى عمرو حبسهم يومين عنده، ثمَّ ردَّ على المقوقس بقوله: (إنّه ليس بيني وبينكم إلاَّ إحدى ثلاث خصال ـ إما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وإما إن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم، وهو خير الحاكمين)[4].

---

(١) هيكل، (١٠٤/١).
(٢) ابن عبد الحكم (٩٦/١) وحاشية ٢ من الصفحة نفسها.
(٣) المقريزي (٢٩٠/١).
(٤) ابن عبد الحكم (٩٧/١).

وعادت الرسل إلى المقوقس تحمل هذه الرسالة التي حمّلها عمرو كل ما يجب أن يكون عليه المسلم من العزّة والاعتزاز، ونحن نلمح في رسالة المقوقس تهديداً بأسلوب مهذَّب يرمي من ورائه إلى الضغط على المسلمين ليعقد معهم الصلح الذي يريد، فهو تارة يهدد المسلمين بقلّة عددهم وضعف عدُّتهم، وتارة يتوعدهم بجيوش الروم التي ستزحف عليهم، ثمّ نراه يلين في رسالته فيطلب من المسلمين من يفاوضهم فلعلّه أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب[1].

ولا شك أنَّ عمراً بعبقريته ودهائه قد لمس في رسالة المقوقس كل ما تحتوي عليه من الوعيد والتهديد والرفق واللين فكان لا بدَّ من أن يجيب إجابة وأن يرد رداً مقنعاً، فحبس عمرو الرسل عنده ليطلعوا بأنفسهم على ما عليه المسلمون من جد في أمرهم وعزيمة في موقفهم من عدوهم، ورفض مبدأ المفاوضة ليشعره بأنَّ تهديده ووعيده لم يثن المسلمين ولم يغيِّر من موقفهم.

ولقد كان الرسل بعد عودتهم إلى المقوقس صادقين فيما بلَّغوه إياه من أوضاع المسلمين حيث حملوا تصوراً واقعياً لحياة المسلمين في معسكرهم، فلم يكد المقوقس يقرأ ردَّ عمرو برفض المفاوضات، وتخييره بين إحدى الخصال الثلاث حتى لمس قوّة الجيش المحاصر للحصن، وتأكَّد أنَّ عمراً في موقف المنتصر، وأنه يملي عليه ما يشاء من الشروط، وهنا التفت المقوقس إلى الرسل وسألهم ـ كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا ـ رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنَّما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلَّف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم[2].

---

(١) نفسه ص ٩٦.

(٢) المقريزي (١/ ٢٩٠).

وعندئذٍ أدرك المقوقس السر في تفوق المسلمين، والسبب في انتصارهم على كسرى الفرس وقيصر الروم، وتأكَّد لديه أنَّ أمثال هؤلاء لا يقف في وجوههم أحد، ولا يتغلَّب عليهم شيء ولو أنَّهم قصدوا الجبال لأزالوها عن أماكنها، ولهذا لم يركب رأسه ولم تأخذه العزَّة بالإثم، وانحنى أمام عظمة هذا الموقف الرهيب، وحذر قومه مغبَّة التباطؤ في طلب الصلح، وأمرهم بالإلحاح عليه، وأرسل إلى عمرو مرة أخرى.

(ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم)[1].

واختار عمرو عشرة رجال من خيرة رجاله، وأمر عليهم عبادة ابن الصامت، وكان عبادة رجلاً أسود اللون طويل القامة ـ طوله عشرة أشبار ـ يهابه كل من يراه، وأمر عمرو عبادة أن لا يقبل من المقوقس إلاَّ إحدى الخصال الثلاث.

وركب وفد المفاوضات الإسلامي السفن وتوجهوا نحو المقوقس في جزيرة الروضة، فلمَّا دخلوا عليه تقدَّمهم عبادة، فهابه المقوقس لسواده، وقال: نحواً عني هذا الأسود، وقدِّموا غيره يكلِّمني فردوا عليه، إنَّ هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيِّدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنَّما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا لما أمره به، وأمرنا ألاَّ نخالف رأيه وقوله.

قال المقوقس: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم؟ وإنَّما ينبغي أن يكون هو دونكم، قالوا: كلاَّ، إنَّه وإن كان أسود كما ترى فإنَّه من أفضلنا موضعاً، وأفضلنا سابقة ورأياً وعقلاً، وليس ينكر السواد فينا.

قال المقوقس لعبادة: تقدَّم يا أسود، وكلِّمني برفق، فإني أهاب سوادك، وإن اشتدَّ كلامك عليَّ ازددت لذلك هيبة.

---

(١) المقريزي (١/٢٩١).

وعلم عبادة من هذا الحوار أنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ قد ألقى الرعب في قلوب القوم وأنَّ ملكاً تحوطه حاشيته، وتحف به حراسه، وهو جالس في مملكته لا يمكن أن يهاب رجلاً مهما كان أسود، ومهما كانت خلقته، وإنَّما هو الرعب الذي ينصر الله به المؤمنين في كثير من الأحيان، وأراد عبادة استغلال الموقف لمصلحة المسلمين ليحرز من المفاوضات أكبر ما يمكن إحرازه من المكاسب، فقال للمقوقس: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشدُّ سواداً مني وأفظع منظراً، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي[1].

وأخذ عبادة يصف له شجاعة وقوَّة أصحابه، وزهدهم جميعاً في الدنيا، وحقيقة نظرتهم إليها وأخبره بأنَّهم لا يطلبون الدنيا، ولا يعملون لها، وإنَّما همهم الآخرة ورضاء الله وطاعته.

وازدادت هيبة المقوقس لعبادة، وأخبر أصحابه بأنَّ هؤلاء لن يغلبوا بل سيغلبون على الأرض كلها.

وبدأ المقوقس يظهر لعبادة شفقته على المسلمين، وخوفه عليهم من جنود الروم المغاوير، ثمَّ قال لعبادة ـ ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به[2].

وردَّ عبادة كلام المقوقس ونقضه من أساسه، وأخبره بأنَّ أعزَّ أماني المسلمين أن يموتوا في سبيل الله لأنَّه الطريق إلى جنَّة الخلد وهي غاية يسعى لها المسلمون، وقال له: (وأمَّا قولك إننا في ضيق وشدَّة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذي تريد فبيِّنه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة

---

(١) ابن عبد الحكم (٢/ ٩٨، ٩٩).
(٢) ابن عبد الحكم (١/ ١٠٠)

نقبلها منك، ولا نجيبك إليها إلاَّ خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت)[1].

وأصرَّ عبادة على موقفه فلم يكن له أن يحيد عنه وهو وصية الأمير إليه، فليس أمامه إلاَّ شيء يعرضه أو يقبله سوى الإسلام أو الجزية أو الحرب، وحاول المقوقس أن يحظى منه بخصلة أخرى لعلَّها تكون أرفق به وبقومه، ولكنه لم يجد إلاَّ الإصرار والثبات من عبادة.

وعرض المقوقس الرأي على أهل مشورته، فرفضوا العروض الثلاثة، وفضَّلوا الموت على قبول خصلة من الخصال، ولكنهم تركوا باب المفاوضة مفتوحاً حين قالوا: (لو رضوا منَّا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا)[2].

وأراد المقوقس إغراء القوم بمضاعفة ما عرضه عليهم من المال مقابل انصرافهم عن مصر ورفض عبادة أي عرض سوى ما عرضه هو، فقال المقوقس لأصحابه: (أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين، لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين).

فقالوا: وأي خصلة نجيبهم إليها؟ قال: إذن أخبركم.

أمَّا دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأمَّا قتالهم فأنا أعلم أنَّكم لن تقووا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بدَّ من الثالثة.

قالوا: ونكون لهم عبيداً أبداً؟ قال نعم، تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على أموالكم وأنفسكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيداً تباعون وتمزقون في البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهليكم وذراريكم.

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه (ص ١٠١).

قالوا: فالموت أهون علينا، وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة[1].

وعاد عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - هو والوفد الذين كانوا معه، وأخبروا عمراً بما كان بين الفريقين من الحوار، وبرفض القوم للخصال الثلاث التي عرضها، وباستعدادهم للحرب.

اقتحام الحصن:

لم يكن بدٌّ من أن يستعدَّ عمرو لمعركة لا يعلم نهايتها إلَّا الله، فالروم لم يرفضوا هذه الخصال ويستعدوا للقتال إلَّا وقد يئسوا من الحياة، وقتال اليائس صعب المراس لأنَّه لم يعد يحرص على الحياة ، فهانت في أعينهم فهم لا يأملون في شيء بعدها، ولهذا فإن مغامراتهم ستكون إلى حين، فلم يلبثوا أن يتعلقوا بزخارف الدنيا وبهجتها، فحين يرون الموت تحت بريق السيوف يطلبون النجاة بأي ثمن ولو كان حريتهم التي تشنجوا خوفاً عليها.

وندب عمرو أصحابه للقتال ومحاصرة الحصن بمن فيه، واشتدَّ إلحاحهم على الروم بالقتال وعندئذٍ قال الزبير بن العوَّام - رضي الله عنه - إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمّام، ثمَّ صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيرة أن يجيبوه جميعاً.

وصعد الزبير إلى أعلى السور، وكبَّر تكبيرة اهتزَّ لها الحصن، وجاوبه المسلمون بالتكبير وتسابقوا إلى السلم محاولين الصعود حتى نهاهم عمرو مخافة أن ينكسر السلم[2].

هزَّ التكبير أرجاء الحصن، وتردَّد صداه في نفوس المحصورين، فانهارت معنوياتهم وخارت قواهم، وأيقنوا أنَّ المسلمين قد اقتحموا عليهم الحصن ففروا هاربين، وعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه،

---

(١) المقريزي (١/٢٩٢).

(٢) ابن عبد الحكم (١/٩٤).

ودخل المسلمون الحصن فظفروا بمن فيه، ومكَّن الله للمسلمين فقتلوا من حامية الحصن خلقاً كثيراً، وأسروا منهم عدداً كبيراً.

رأى المقوقس ما حلَّ بقومه من الخزي والهزيمة فأخذته الشفقة بهم، وقال لهم - ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم؟ ما تنتظرون؟ فوالله لتجيبنَّهم إلى ما أرادوا طوعاً، أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرهاً، فأطيعوني من قبل أن تندموا؟[1].

لم يعترض القوم على ما قال المقوقس في هذه المرة فقد حلَّ بهم ما اضطرهم إلى طلب الصلح، لقد كانوا يعتقدون أنَّ أسوار الحصن العالية ستصدُّ عنهم الغزاة، بل كانوا مطمئنين إلى أنَّ أبراجه الشامخة ستحول بينهم وبين وصول المسلمين إليهم، وكيف يصل إليهم المسلمون ومياه النيل تحيط بالحصن العتيد، وكيف يقتحمونه وأبوابه قد صنعت من الحديد، وما الذي يضطرهم إلى التسليم وبالحصن كل ما يلزم الإنسان، المياه متوفرة غزيرة، والميرة حولهم كثيرة.

خطر ببال القوم كل ذلك، ولم يخطر ببالهم أنَّ المسلمين سيقتحمون عليهم الحصن من فوقهم، وأنَّ جنود عمرو سيتغلبون على كل هذه العقبات بصبرهم واستبسالهم، من أجل هذا بهت القوم، واستولت عليهم الدهشة، واستسلموا لما عرضه المقوقس من غير نقاش ولا تسويف وأذعنوا بالجزية صاغرين.

وكان المقوقس أعلم الناس بهذه النتيجة لأنه خبر المسلمين في ثباتهم على مبدئهم فوجدهم أصلب عوداً وأقوى شكيمة، قعقع لهم بالشنان فلم ينزعجوا، وألان لهم الكلام فلم ينخدعوا.

وإنَّ قوماً وضعوا الدنيا تحت أقدامهم، وأحلوا الآخرة محلَّ السويداء من قلوبهم، وقنعوا بما في أيديهم، ولم ينظروا إلى ما متع به غيرهم لجديرون بأن يسودوا وينتصروا.

---

(١) ابن عبد الحكم (١٠٣/١).

وإنَّ قوماً لم يغرُّهم بريق الذهب والفضَّة، ولم يشغلهم الدرهم والدينار، ولم يفرِّق بينهم جنس أو لون أو عرق لهم أولى الناس بحكم الدنيا والهيمنة على سياستها.

حاول المقوقس صرفهم عن واجبهم بكل وسائل الإغراء فعجز، لقد عرض عليهم اثنين وثلاثين ألف دينار، لكل جندي ديناران وللقائد مائة دينار وللخليفة ألف، ولكنَّهم رفضوا هذه الدنانير وهم في أشد الحاجة إليها، وعمد إلى تفريق كلمتهم حين عرض بعبادة بن الصامت وعيَّره بسواده فأحاطوه بقلوبهم وقالوا: هو سيدنا وأميرنا، وقد أمرنا الأمير أن نسمع له ونطيع، فهل أمثال هؤلاء يمكن أن ينتصر عليهم قوم عبدوا الدرهم والدينار وقطعت وشائج القربى بينهم الألوان والجنسيات، ومزَّقت وحدتهم خصومتهم في عقيدتهم.

أدرك المقوقس هذا كله حين فاوض المسلمين وسمع منهم، وأدرك كذلك النتيجة الحتمية للمعركة على ضوء ما أدركه من هذه الحقائق، ولهذا نصح قومه وكان لهم مخلصاً حين قال لهم: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى إحدى هذه الخصال، ولكنَّ قومه كانوا مغرورين مخدوعين فلم يدركوا ما أدركه المقوقس إلَّا بعد أن نزل بهم البلاء وحمَّ عليهم القضاء، وحينئذٍ خضعوا للسيف المسلَّط على رقابهم، وأذعنوا للجزية المفروضة على أعناقهم.

وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول له: إني لم أزل حريصاً على إجابتك إلى خصلة من الخصال التي أرسلت إليَّ بها، فأبى ذلك عليَّ من حضرني من الروم والقبط، فلم يكن لي أن افتئِت عليهم في أموالهم، وقد عرفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي، فأعطني أماناً أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي وأنت في نفر من أصحابك، فإن استقام الأمر بيننا تمَّ ذلك لنا جميعاً، وإن لم يكن رجعنا إلى ما كنَّا عليه[1].

وعرض عمرو الأمر على أصحابه، وطرح ما قصد المقوقس عليهم من

---

(١) ابن عبد الحكم (١٠٣/١).

إعادة المفاوضات، ورجا أن يتمَّ الأمر لصالح المسلمين، فتحقن الدماء وتتوقف المعارك ويسود الأمن، وتطمئن النفوس ويستريح المسلمون من عناء المعارك المتواصلة، فقد أرهقت المعارك جنود المسلمين حتى جالت بهم خيولهم، وحتى دار حوار عنيف بين القائد عمرو وبين جندي يمني في جيشه.

يقول ابن كثير: إنَّ عمرو بن العاص لمَّا التقى مع المقوقس جعل كثير من المسلمين يفر من الزحف، فجعل عمرو يذمّرهم ويحثُّهم على الثبات، فقال له رجل من أهل اليمن: إنَّا لم نخلق من حجارة ولا من حديد، فقال له عمرو: اسكت فإنَّما أنت كلب، فقال له الرجل: فأنت إذاً أمير الكلاب، فأعرض عنه عمرو، ونادى يطلب أصحاب رسول الله ﷺ فلمَّا اجتمع إليه من هناك من الصحابة، قال لهم عمرو تقدَّموا فَبِكُمْ ينصر الله المسلمين، فنهدوا إلى القوم ففتح الله عليهم وظفروا أتم الظفر[1].

إنَّ هذه الحادثة تدل على مدى ما وصل إليه حال المسلمين من التعب والإرهاق، وإنَّ قول اليمني: إنَّا لم نخلق من حجارة ولا حديد لأكبر دليل على ما لقي المسلمون من المشقَّة في حربهم مع الروم، وهم وإن كان النصر يكلِّل هذه الجهود، ويتوِّجها بتاج الفخار إلَّا أننا يجب أن نعترف بأنَّ للإنسان طاقة محدودة ينبغي أن يقف عندها حتى لا تكون النتائج عكسية على غير ما يشتهي صاحبها.

ويبدو أنَّ أصحاب عمرو ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ لم يقبلوا التفاوض لإحساسهم بضعف القوم، وإنَّ الحرب وإن أنهكتهم فقد أهلكت عدوَّهم، فلماذا يقبلون المفاوضة، وليس بين النصر المحقق لهم وهزيمة عدوِّهم إلَّا قليل من الصبر.

ولكنَّ عمراً رفض هذا المبدأ مبدأ الإجهاز على العدو وأخذ ديارهم وأموالهم عنوة، ولا سيَّما وقد استسلم القوم، وجنحوا للمهادنة، ألم يقل الله

---

(١) ابن كثير (٧/٩٩).

تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله﴾[1].

وذكر عمرو أصحابه بذلك وبوصية أمير المؤمنين فقال: قد علمتم ما عهد إليَّ أمير المؤمنين في عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليَّ فيها أجبتم إليها وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم[2].

عقد الصلح:

عندئذٍ قبل المسلمون، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاهَا وأسفلها، من القبط ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم، من بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النساء شيء.

وعلى أنَّ للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم[3].

وأقرَّ المسلمون للقبط بأنَّ لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيء من ذلك[4].

كان هذا الصلح للقبط خاصة، وأحصي من تنطبق عليه الشروط، وفرض عليه الديناران، فبلغ عددهم ستة آلاف ألف نفس، فكانت فريضتهم يومئذٍ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة[5].

وعند الأتابكي عن ابن لهيعة أنَّ عدد من فرضت عليهم الجزية من القبط ثمانية آلاف ألف نفس[6].

---

(١) سورة الأنفعال، الآية ٦١.

(٢) ابن عبد الحكم (١/١٠٣).

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) النجوم الزاهرة، الأتابكي (١/١٦).

وأمَّا الروم فقد شرط لهم المقوقس أن يخيروا، فمن أحبَّ منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على ذلك لازماً له مفترضاً عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج[1].

واشترط المقوقس بالنسبة للروم توقف تنفيذ هذا الصلح على موافقة ملك الروم فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم، وإلاَّ كانوا جميعاً على ما كانوا عليه[2].

موقف هرقل من عقد الصلح

وكتب المقوقس بذلك إلى ملك الروم آملاً أن يجيزه ويحقن دماء قومه، ولكنَّ العنجهية قد أخذت بتلابيبه، وأفسدت عليه رأيه، فكتب إلى المقوقس يحقر فعله ويقبِّح رأيه، ويرد ما اصطلح عليه مع المسلمين، ويقول له: إنَّما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب، واختاروهم علينا فإنَّ عندك من الروم بمصر وبالإسكندرية، ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدَّة، والقوَّة، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت، فعجزت عن قتالهم، ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم، فإنَّهم فيكم على قدر كثرتكم وقوَّتكم وعلى قدر قلَّتهم وضعفهم كأكلة، فناهضهم القتال، ولا يكون لك رأي غير ذلك[3].

لم يكن ملك الروم واثقاً في المقوقس حين كتب له بما كتب، فخاف أن يكتم الكتَّاب حتى يتم الصلح ويصبح الروم أمام الأمر الواقع، وماذا عن المقوقس لو فعل ذلك وقد أجرى الكتاب مع المسلمين على النحو الذي

---

(١) المقريزي (١/٢٩٣).

(٢) نفسه.

(٣) ابن عبد الحكم (١/١٠٤، ١٠١).

مضى، وما الذي يمنعه وهو حاكم مصر، وهو يمضي الصلح مع المنتصرين، إنَّه لا شكَّ مكسب للمصريين لا يماري في ذلك رجلان، والمقوقس يعلم علم اليقين أنَّ المصريين لن يخالفوا فيما تمَّ من الصلح، وبخاصة وأنهم قد رأوا بأعينهم ما لم ير الملك.

إنَّ المصريين لم يروا من الروم ما يشجعهم على قتال المسلمين، بل هم يشعرون في قرارة نفوسهم أنهم في حاجة لمن يخلِّصهم من الظلم الذي يرزحون تحته في ظل الروم ولا أشك في أنَّ المقوقس أكثر الناس شعوراً بما يعانيه المصريون تحت نير التسلُّط الرومي إنَّهم مرهقون بالضرائب، مثخنون بجراح المظالم، لا يشعرون بالحرية حتى فيما يمارسون من العبادات، وأنَّ الملك يجبرهم على ترك مذهبهم والدخول في مذهبه، ويسيمهم سوء العذاب ليذعنوا له ويخضعوا لما يريد، وكل ذلك يجري على يدي المقوقس وجنوده، إذ هو حاكم مصر من قبل هرقل ملك الروم.

كل ذلك جعل المقوقس يستمر فيما بدأه مع عمرو من أمر الصلح، ولم يعبأ بما كتب به هرقل إليه.

ولهذا أيضاً فإنَّ هرقل قد كتب كتاباً إلى الروم المقيمين بمصر يستنفرهم ليقفوا في وجه الغزاة الفاتحين(١).

وكان الأمر على ما توقَّعه هرقل فإنَّ المقوقس قد أبى أن ينقض العهد الذي أعطاه لعمرو وأمضاه على النحو الذي اتَّفق عليه الطرفان، وقال حينما بلغه كتاب هرقل ـ الله أعلم أنهم على قلَّتهم وضعفهم أقوى وأشدُّ منَّا على قوَّتنا وكثرتنا، إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منَّا، وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة(٢).

واجتمع المقوقس مع الروم الموجودين بمصر، وقد بلغه وصول كتاب الملك إليهم فقال لهم: اعلموا معشر الروم، والله إني لا أخرج مما دخلت

---

(١) المقريزي (١/٢٩٣).
(٢) المقريزي (١/٢٩٣).

فيه، ولا مما صالحت العرب عليه، وإني لأعلم أنَّكم سترجعون غداً إلى رأيي وقولي، وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني، وذلك أني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه، ويحكم. . أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة[1].

وأقبل المقوقس على عمرو بن العاص وقال له: إنَّ الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب إليَّ وإلى جماعة الروم ألاَّ نرضى بمصالحتك، وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم، ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه، وإنَّما سلَّطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تمَّ صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قبلهم نقض، وأنا متمم لك على نفسي، والقبط متمُّون لك الصلح الذي صالحتهم عليه[2].

وقال: وأمَّا الروم فأنا منهم بريء، وأنا أطلب منك أن تعطيني ثلاث خصال قال له عمرو: ما هنَّ؟

قال: لا تنقض بالقبط وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه، فهم متمُّون لك ما تحب.

الثانية: إن سألك الروم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً، فإنَّهم أهل لذلك، لأني نصحتهم فاستغشوني، ونظرت لهم فاتَّهموني.

الثالثة: أطلب منك إن أنا مت أن تأمرهم أن يدفنوني في أبي يحنس بالإسكندرية، فأجابه عمرو إلى ما طلب[3].

وهكذا جرى الفتح وتمَّ الصلح، وافتتحت مصر في ربيع الأول سنة ست عشرة[4].

---

(١) ابن عبد الحكم (١/١٠٥).
(٢) نفسه.
(٣) ابن عبد الحكم (١/١٠٦).
(٤) الطبري (٤/١١١)، ابن كثير (٧/٩٩).

وذكر القضاعي أنَّ مصر فتحت يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين[1]، والذي رجَّحه المؤرخون أنَّها فتحت قبل عام الرمادة ـ أي سنة ست عشرة ـ وقال ابن الأثير في تعليل ذلك ـ لأنَّ عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القلزم من مصر إلى المدينة ـ يعني في عام الرمادة ـ، وقال المقريزي: إنَّ الرمادة كانت في آخر سنة سبع عشرة وأوَّل ثماني عشرة.

وأحصى عمرو جنوده ليقسم بينهم سهامهم في الحصن، فبلغوا اثني عشر ألفاً وثلاثمائة، ومعنى ذلك أنَّ الجيش قد مات منه ألفان ومائتا رجل حيث بلغ عدد الجيش عند حصار الحصن خمسة عشر ألفاً وخمسمائة[2].

وظلَّ حصار المسلمين للحصن سبعة أشهر حتى تمَّ فتحه، ومن مات من المسلمين أو قتل أثناء الحصار دفن في أصل الحصن[3].

وترك الروم حصن بابليون في اليوم السادس من شهر إبريل سنة ٦٤١ وكانوا في شدَّة الغيظ والحنق بسبب ما أصابهم من الهزائم على يد المسلمين، ولهذا فقد أبوا أن يمر هذا اليوم بسلام على القبط الذين صالحوا عمراً، ولم يتركوهم ينعمون بثمرة الصلح الذي أمنهم على كل عزيز لديهم، فأخذوا الأقباط الذين كانوا قد سجنوهم في الحصن وسحبوهم على وجوههم، وقطعوا أيديهم، ونكلوا بهم، تنكيلاً أثار المؤرخ حنا النقيوس فسمَّاهم أعداء المسيح، الذين دنَّسوا الدين برجس بدعهم[4].

فتح الفيوم

يرى المؤرخون الغربيون أنَّ عمرو بن العاص اتَّجه نحو الفيُّوم بعد انتصاره في معركة أم دنين، ويقولون: أنَّ عمراً لما أبطأ عليه المدد، ولم

---

(١) المقريزي (١/٢٩٤).
(٢) نفسه.
(٣) المقريزي، نفسه.
(٤) هيكل (٢/١١١).

يستطع محاصرة حصن بابليون بمن معه من الجنود عبر إلى الضفة الغربية للنيل واتَّجه جنوباً حتى وصل ممفيس، وسار منها نحو الفيوم.

وهناك علم أن كتيبة تحمي المدينة وتدافع عنها، فمال نحو الصحراء ليبتجم جيشه ولكنَّه علم أنَّ الروم قد أرسلوا في أثره كتيبة تراقب حركاته، وعندئذٍ ابتعد عمرو عنها ثمَّ فاجأها وكر عليها فأبادها عن آخرها.

وهذه الرواية التي تعتمد على ما ذكره المؤرخ القبطي لهذا العصر حنًّا النقيوس لا تذكر أنَّ عمراً فتح الفيوم في تلك الجولة، ولكنها تشير فقط إلى أنَّه عرف مكان الفيوم، وحارب الحامية التي كانت تراقبه، وأنزل بها خسارة فادحة.

وعلى هذا فإنَّ رواية المؤرخين العرب التي تقول: إنَّ عمراً فتح الفيُّوم بعد فتح الحصن لا تتعارض مع رواية المؤرخين الغربيين.

إلَّا أننا نجد عند ابن عبد الحكم ما يفيد أنَّ المسلمين ظلُّوا سنة بعد فتح مصر لا يعرفون مكان الفيُّوم حتى دلَّهم رجل عليها[1].

ويذكر ابن عبد الحكم رواية أخرى تفيد نفس المعنى حيث يقول: ويقال بل خرج مالك بن ناعمة الصدفي - وهو صاحب الأشقر - على فرسه ينقض المجابة ولا علم له بما خلفها من الفيوم، فلما رأى سوادها رجع إلى عمرو فأخبره بذلك[2].

وهاتان الروايتان تفيدان أنَّ عمرو بن العاص لم يكن يعرف الفيوم، ولم يكن عنده علم بها، وذلك يجعلنا نميل إلى أنَّ عمراً عندما عبر النيل ومشى نحو الفيُّوم قبل فتح بابليون لم يكن يقصد الفيوم، وإنَّما مشى نحو الصحراء ليستجم الجيش كما ذكرنا، فلمَّا علم بالكتيبة تتعقبه حاصرها وأنزل بها تلك الهزيمة المنكرة وإنَّما ذكر حنَّا النقيوس أنَّه قصد الفيوم لأنَّه سار بجيشه نحوها.

---

(١) ابن عبد الحكم (١/٢٢٨).

(٢) المقريزي (١/٢٤٩).

والفيوم بلد من أغنى بلاد مصر وأخصبها، قال فيها الكندي في كتاب فضائل مصر: وليس في الدنيا ما بني بالوحي غير هذه الكورة، ولا بالدنيا بلد أنفس منه ولا أخصب، ولا أكثر خيراً، ولا أغزر أنهاراً ولو قايسنا بأنهار الفيوم أنهار البصرة ودمشق لكان لنا بذلك الفضل[1].

وأمَّا القاضي الفاضل فيقول فيها: إن دخل الفيوم بلغ في سنة خمس وثمانين وخمسمائة مبلغ مائة ألف واثنين وخمسين ألف دينار وسبعمائة وثلاثة دنانير[2].

توجهت الكتيبة التي بعث بها عمرو مع المصري نحو الفيوم، فساروا حتى كادوا أن ينتهوا من الصحراء، فلم يروا شيئاً، فهمُّوا بالإنصراف، فقال المصري: لا تعجلوا، وسيروا فمشوا قليلاً، وعندئذٍ بدا لهم سواد الفيوم، فجدُّوا في السير حتى اقتربوا منها، وباغتوها بالهجوم، فلم يقاوم أهلها الغزاة، ولم يكن عندهم قتال، وسلموا أنفسهم، وألقوا بأيديهم.

وفتحت الفيُوم بعد حصن بابليون بسنة كما ذكر ابن عبد الحكم في فتوح مصر والمغرب.

---

(١) المقريزي (١/ ٢٥٠).

(٢) ابن عبد الحكم (١/ ٢٢٨).

فتح الإسكندرية

بعد أن تم لعمرو فتح حصن بابليون حمد الله بما هو أهله، وشكره - سبحانه - على منه وفضله، وتنفس الصعداء فقد طال حصار الحصن سبعة أشهر دون أن يرى في الأفق ما يبشر بالنصر والمسلمون وإن لم يكونوا في ضائقة تؤدي إلى تذمر، أو تصل إلى حد العنت، ولكنهم كانوا قد ملوا الوقوف، وخشي عمرو أن يدب الوهن في صفوفهم لتحصن عدوهم، وتوفر المؤونات لدى خصمهم مما يوفر المناعة لدى المتحصنين، ويعطيهم فرصة أكبر للمقاومة والصمود.

ولعل هذا هو الذي جعل الزبير بن العوام - رضي الله عنه - يفكر في وسيلة يقتحم بها الحصن، ويقول لعمرو: لقد وهبت نفسي لله، ثم يصعد أسوار الحصن المنيعة، ويكبر فيكبر المسلمون من ورائه ويفتح الله عليهم.

وبدا لعمرو أن يزحف إلى الإسكندرية، ولا سيما وقد استتب الأمن في ربوع البلاد التي فتحها، ودان أهلها بالولاء للغزاة الفاتحين، فمنهم من دخل طوعاً في الإسلام، ومنهم من صالح على الجزية راضياً مقتنعاً، ولكن عمراً لا يستطيع الزحف على الإسكندرية مهما أغراه النصر الذي أحرزه في بابليون، ومهما شجعه استسلام القبط ورضاهم عما أنجز من الفتوحات حتى يستأذن الخليفة ويأذن له.

فأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين يبشره بفتح الحصن، ويستأذنه في الزحف على الإسكندرية[1].

وانتظر عمرو جواب الخليفة وإذنه وهو مقيم في الفسطاط، وعلم عمرو بما كان يدور على ألسنة أهل مصر من استصغار شأن العرب، واحتقار ملابسهم ومعاشهم، واستغرابهم من انتصارهم عليهم، فخشي عمرو أن يجر ذلك إلى الاستهانة بالمسلمين، وتشجيع عدوهم على الدخول معهم في معارك لا يعلم نتائجها إلا الله ـ سبحانه ـ وفكر عمرو، كيف يرد المصريين عن هذا التفكير؟ وكيف يقنعهم بجدارة الفاتحين واستحقاقهم لما أحرزوا من نصر؟

وعزم عمرو على أن يرى قبط مصر ما يجعلهم يرهبون المسلمين، ويحذرون الدخول معهم في صراع جديد، فأمر بجزر فذبحت، وطبخت بالماء والملح، ودعا أمراء الجند فحضروا ومعهم الجنود، وأذن لأهل مصر بالدخول، وقدم الطعام للمسلمين، فأكلوا أكلاً عربياً، ونهشوا اللحم واحتسوا المرق، وهم متدثرون بالعباء، وليس عليهم سلاح ورأى ذلك كله أهل مصر فازدادوا طمعاً وجرأةً بالمسلمين.

وفي اليوم التالي دعا أمراء الجنود وأصحابهم، وأمرهم أن يحضروا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ففعلوا، وحضر الأمراء والجنود في هيئة المصريين، وأذن لأهل مصر بالدخول، فلما دخلوا رأوا شيئاً غير الذي رأوه بالأمس، لقد رأوا بالأمس بدواً متلفحين بالعباء، ينهشون اللحم بأفواههم، تتطاير قطعه على من بجوارهم، واليوم رأوا قوماً كأنهم ولدوا في مصر، وتربوا على موائدها، فهذه الأطعمة مصرية لا يعرفها العرب، والقوام يقومون عليهم بألوان من الطعام فيتناولونه بطريقة أهل مصر، فخرج المصريون من مجلس عمرو وقد ارتابوا في أمرهم، وقال بعضهم لبعضهم: كدنا.

وأراد عمرو أن يرى المصريين قوته الحربية، فبعث إلى الأمراء أن

---

(١) البلاذري ص ٢٢١.

يلبسوا السلاح وأن يستعدوا للعرض العسكري، فلبسوا وتأهبوا، وأذن للمصريين بالحضور، فحضروا، وأمر بالاستعراض فسار الأمراء على رؤوس الجند وهم جميعاً بالسلاح والعتاد[1].

ورأى المصريون ذلك فانبهروا، إنهم أمس الأول رأوا قوماً يطمع فيهم من يراهم فهم من البداوة والسذاجة بحيث لا يرجى منهم نفع ولا ضر، وبالأمس رأوا قوماً على جانب عظيم من الحضارة والذوق وحسن المصانعة حتى ليظن من يراهم أنه في قوم لهم ماضٍ عريق في الحضارة والرقي، واليوم يرون جنوداً شاكي السلاح يرى فيهم من يراهم أسوداً كواسر لا تهاب الموت، ولا تخشى المنون والقوم هم القوم لم يتغيروا ولم يستبدل بهم.

ورأى القائد المسلم الداهية المحنك في أعين المصريين حيرة وعجباً فقال: إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم شيء حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم فخشيت أن تهلكوا، فأحببت أن أريكم حالهم، وكيف كانت في أرضهم، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرب، فظفروا بكم وذلك عيشهم، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني، وراجع إلى عيش اليوم الأول.

وبهذا الدرس العملي رأى المصريون العرب على حقيقتهم، فهم ليسوا العرب السذج الذين كانوا يعيشون على فتات الموائد قبل الإسلام، بل أصبحوا شيئاً آخر حيث صاغهم الإسلام صياغة جديدة ففهموا الحياة على الشكل الذي ينبغي أن تفهم عليه. وعرفوا مكانتهم في العالم، فهم الأساتذة الموجهون، والساسة المدبرون، والقواد الفاتحون.

لقد أعزهم الله بالإسلام فلن يذلوا وهم متمسكون به أبداً، وسودهم

---

(١) الطبري (٤/١١٠) وابن عبد الحكم يسوق القصة بطريقة أخرى ويقول: إن عمرا أجاب القبط حين سألوا فأين الذين كانوا أتونا قبل بقوله: أولئك أصحاب المشورة وهؤلاء أصحاب الحرب.

على الأمم فكانوا خيرها بالعمل لنشر الدعوة، أدرك المسلمون هذه الحقائق وليسوا مستعدين لتركها والانتكاسة إلى الوراء مرة أخرى.

وضرب عمرو مثلاً من الحياة التي يلمسها المصريون فكأنه يقول لهم: إن الذين تذوقوا طيب الحياة في مصر، وعاشوا أرغد العيش فيها، ليسوا مستعدين للعودة إلى حياة البداوة والتقشف بعد أن لمسوا الفرق بين الحياتين.

عندئذ نظر المصريون بعضهم إلى بعض وقالوا في دهشة وعجب: لقد رمتكم العرب برجلهم[1].

وبلغ أمير المؤمنين ـ عمر ـ ما صنع عمرو مع قبط مصر، فقال لجلسائه: والله إن حربه للينة ما لها سطوة ولا ثورة كثورات الحروب من غيره. إن عمراً لعض[2].

وجاء رد الخليفة على عمرو يأمره بالزحف على الإسكندرية. فاستعد عمرو واستخلف على مصر خارجة بن حذافة بن غانم[3].

وعلم الروم القاطنون بين مصر والإسكندرية بتهيؤ المسلمين للزحف نحو الإسكندرية فأتمروا فيما بينهم، وعزموا على صد عمرو وجيشه عن وجهته وقدمت عليهم مراكب كثيرة من بلاد الروم تحمل الجنود والسلاح فقويت بذلك شوكتهم، وعظم أمرهم، وصاروا في منعة من قومهم.

وخرج عمرو بن العاص من الفسطاط متوجهاً إلى الإسكندرية، واستعان بجماعة من رؤساء القبط في إصلاح الطرق، وإقامة الجسور والأسواق ليسهل على المسلمين السير في هذا الطريق.

واختار ابن العاص الضفة الغربية للنيل، فعبر إليها وهي أهون في

---

(١) الطبري (٤/١١٠).

(٢) نفسه والغض الداهية.

(٣) البلاذري ص ٢٢١.

السير لقلة العوائق حيث تكثر في الدلتا فروع النيل الكثيرة التي تحول بين الجيش وبين غايته وتعوق مسيرته إلى الإسكندرية.

وعلم عمرو بأن الطريق إلى الإسكندرية ليس سهلاً فحصون الروم منتشرة على طول الطريق، وجيوشهم مبثوثة في كل مكان، في نقيوس وسلطيس، وفي كريون.

وكان حصن نقيوس من أمنع حصونهم وأشدها رجالاً، ورأى عمرو أنه إن تمكن من التغلب على نقيوس فسيفت ذلك في عضد الروم ويفل حدهم، ونقيوس تقع على الضفة الشرقية لفرع رشيد بالقرب من منوف، وبلغ الروم أن المسلمين يقصدون نقيوس فعزموا على ملاقاتهم قبل أن يعبروا إليها، وتصدى جنود الروم لجيش المسلمين عند (طرنوط) ودارت هناك معركة استبسل فيها الروم. ولكنهم سرعان ما انهزموا وولوا مدبرين[1].

معركة نقيوس:

وفكر عمرو في أمره كثيراً، ماذا يفعل؟ هل يترك نقيوس بحاميتها القوية وحصنها المنيع ويستمر في سيره نحو الإسكندرية؟ ولكن ما يمنع الروم إن هو فعل ذلك أن ينقضوا على مؤخرة جيشه ويعكروا عليه صفوه، ويفسدوا خطته؟

وبعد هذا التفكير عزم على أن يعبر النهر، ويهاجم الحصن ومن فيه، وفي الوقت نفسه عزم الروم على المقاومة والدفاع عن نقيوس فخرج قائد الروم (دومنتيانوس) بجنوده وركبوا السفن المعدة للدفاع عن المدينة استعداداً لملاقاة المسلمين.

كان المسلمون يعتقدون أن الروم لن يخرجوا إليهم، وسيدافعون عن نقيوس من داخل حصنها، ولكنهم فوجئوا بجموع الروم في السفن. فكانت الفرصة التي ينتظرها عمرو دائماً، فأمر جنوده أن ينضحوهم بالنبل حتى ألجؤوهم إلى ركوب السفن بعد أن تركوها ليواجهوا المسلمين، وظل المسلمون يرمونهم حتى اضطربت صفوفهم، ووهنت عزائمهم وظنوا أن

---

(١) ابن عبد الحكم (١٠٧/١).

المسلمين سيقتحمون عليهم، فسلموا أنفسهم، وفر القائد بسفينته إلى الإسكندرية لعله يجد فيها ما يمنعه من عدوه، واستولى المسلمون على نقيوس[١].

وبعث عمرو شريك بن سمي مقدمة لجيشه، ليتعقب الفارين، فالتقوا به، واشتبكوا معه، وألجؤوه إلى مكان مرتفع من الأرض، فاعتصم به شريك، وأحاطت به الروم من كل جانب، فلما رأى شريك إحاطة الروم به أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفي ـ وكان له فرس يقال له أشقر صدف، وكان لا يجارى سرعة ـ أن يقتحم صفوف الروم وأن يذهب إلى عمرو فيخبره بموقف المسلمين، وإحاطة العدو بهم.

وركب أبو ناعمة فرسه الأشقر، وانحط على الروم كالسيل الجارف، وحاولوا صده فلم يستطيعوا، وأخبر مالك بن ناعمة عمراً، فأسرع لنجدة شريك، ولما سمع الروم بقدوم عمرو ولوا مدبرين[٢]، وسمي المكان الذي اعتصم به شريك بعد ذلك باسمه وقيل له: كوم شريك، وهو الآن قرية من قرى مركز كوم حمادة.

وانقذ عمرو شريكاً وسار بقواته كلها نحو الإسكندرية، وفي الطريق علم بأن الروم قد أعدوا للقائه عند سلطيس، وسلطيس قرية كبيرة تقع في منتصف الطريق بين كوم شريك وبين كريون، وعلى بعد تسعة كيلو مترات من مدينة دمنهور عاصمة البحيرة، واتجه عمرو ليلقى عدوه عند سلطيس، وهناك دارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة الروم، وفرارهم إلى كريون.

معركة كريون:

كريون مدينة قديمة، وصفها ابن حوقل بأنها مدينة عظيمة وجميلة، تقع على ضفتي ترعة الإسكندرية، وكان التجار يركبون منها القوارب إلى الفسطاط صيفاً إذا ارتفع ماء النيل.

---

(١) هيكل (٢/١١٩).

(٢) ابن عبد الحكم (١/١٠٨).

كانت مدينة كريون آخر حصن للروم من سلسلة الحصون التي كانت على طول الطريق بين بابليون والإسكندرية، وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح، وخطر كبير في الحرب حيث كانت تشرف على الترعة التي تعتمد عليها الإسكندرية في جلب الطعام واستعمال مائها للشرب، ولكن حصونها لم تكن في منعة حصن بابليون أو نقيوس، وكان لكريون حاكم تحت إمرته قوة عسكرية من الفرسان والمشاة[1].

كانت هزيمة الروم في سلطيس نذيراً يهدد بسقوط الإسكندرية، وكان سقوط الإسكندرية معناه زوال ملك الروم ونهاية أمرهم، من أجل هذا استنفر تيودور قائد الروم الأعظم في مصر قواته، وانضم إليه الشاردون من سلطيس فكانوا قوة لا ترام، وقد اطمأن تيودور إلى نتيجة المعركة لما رأى من قوة حصن كريون، وكان الروم قد رمموه وأعادوا ما انهدم منه، كما كانت ترعة الثعبان المارة غربي الحصن تعتبر تحصيناً طبيعياً للمدينة، وهناك ما يزيد من قوة كريون، ويجعلها قادرة على المواجهة والصمود ذلك أن الإمدادات تصل إليها بسهولة من الإسكندرية. وتدفقت قوات الروم من كل جهة لتعزز قوات القائد تيودور، فأقبلوا من سخا ومن خيس وبلهيب لتزيد من بأس قوات الروم، وتمكنها من مواجهة الفاتحين[2].

التقى المسلمون والروم في كريون، ودارت المعركة قوية عنيفة بصورة لم تعرف في المعارك السابقة، واستمر القتال إلى الليل، ولم يعقد النصر لأحد الفريقين، ومع تنفس الصبح في اليوم التالي بدأت المعارك أشد منها بالأمس، وزاد في ضراوتها شعور الروم بانهيار دولتهم إذا هم انهزموا وخلص المسلمون إلى الإسكندرية، وزاد ثبات الروم من شعور المسلمين بوجوب مضاعفة همتهم وشد عزيمتهم، ولم تنته المعركة حتى جن الليل وحجز ظلامه بين المتقاتلين.

---

(١) حاشية فتوح مصر والمغرب (١٠٨/١).

(٢) هيكل: الفاروق عمر (١٢١/٢).

ودامت المعركة على هذا النحو بضعة عشر يوماً[1]، تتراوح فيه المعارك بين الفريقين دون أن يتحقق نصر لأحدهما ينتهي به القتال، وأغلب الظن أن الروم قد أظهروا براعة وتفانياً في كريون لم يعرف عنهم من قبل، وقد داخل الخوف قلوب المسلمين من تلك النتيجة المجهولة طوال تلك الفترة التي دارت فيها المعركة حتى اضطر المسلمون لأن يصلوا صلاة الخوف، عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص صلى يومئذ صلاة الخوف[2].

على أن ضراوة المعركة وشراستها لم توهن المسلمين، ولم تقلل من حماسهم، بل قد زادتهم قوة على قوتهم وحماساً فوق حماسهم حتى روى المؤرخون أن عمرو بن العاص كان قد سلم اللواء لوردان مولاه، وجعل على المقدمة ابنه عبدالله، وقد أصيب عبدالله بن عمرو بن العاص يومئذ بإصابات بليغة حتى أخذ دمه يسيل من أنحاء جسمه، فلما اشتدت به جراحه قال: يا وردان، لو تقهقرت قليلاً نصيب الروح.

قال وردان، وهو يتقدم: وقد هيجه الشوق إلى الجنة، فرأى أنها لا تنال إلا بالتقدم وكأنه تمثل قول الشاعر:

تأخرت استبق الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدم

لهذا قال لعبد الله: الروح تريد؟ الروح أمامك، وليس خلفك[3].

وهنا هزت هذه الكلمات، قلب عبد الله، فاندفع يقاتل عدو الله غير عابىء بما ينزف منه من دماء، وما يلم به من آلام، إن ريح الجنة قد هبت نسماتها، وإن حورها قد تهيئن لاستقبال الشهداء، وولدانها قد استعدوا لاستقبال النزلاء فهل هناك روح غير هذا ؟ إنه الروح الحقيقي هو الذي أخبر عنه القرآن الكريم ﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم﴾ (سورة الواقعة الآية: ٨٨، ٨٩).

---

(١) ابن عبد الحكم (١/١٠٩).
(٢) نفسه.
(٣) ابن عبد الحكم (١/١٠٩).

وعلم عمرو بما أصاب ولده من الجراح فأرسل إليه رسولاً يسأله عن جراحه، فقال عبدالله:

أقول لها إذا جشأت وجاشت رويدك تحمدي أو تستريحي

فرجع الرسول إلى عمرو يحمل له إجابة ابنه، فسر عمرو وقال: هو ابني حقاً[1].

وشد المسلمون على الروم شدة أزالتهم عن مواقعهم، وحطمت معنوياتهم، وقضت على ما تبقى لديهم من الصبر، فولوا الأدبار لا يلوون على شيء وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة[2]. وفر من نجى منهم من الموت إلى الإسكندرية يلتمس في حصونها النجاة من سيوف المسلمين.

محاصرة الإسكندرية:

لجأ المنهزمون في كريون إلى الإسكندرية، المعقل الأخير في مصر لدولة الروم. وكانت حصون الإسكندرية لا ترام، حصن دون حصن، وكانت الإسكندرية نفسها روعة في الجمال، وآية من آيات الله في هذه الدنيا، فيها من القصور والمسلات، والكنائس والمعابد، والعمائر والقلاع والمنارات والتماثيل ما يأخذ بلب كل من يراها، ولا يزيد الناظر إليها إلا سحراً وعجباً.

لقد كانت الإسكندرية في ذلك العهد أجمل مدائن العالم وأبهاها، ولم يكن هناك من عواصم العالم ما يضارعها سحراً وفتنة، فليست دمشق بغوطتها وبساتينها وأنهارها إلا ضاحية من ضواحيها، وليست القدس وما حوت من مقدسات إلا معبداً من معابدها، وما أنطاكية بجبالها الشواهق، وبساتينها الفيحاء ومعابدها المقدسة إلا حياً من أحيائها، بل ما المدائن وأبيض كسرى يختال في ربوعها إلا نفحة من نفحات سحرها وجمالها.

رأى المسلمون الفاتحون ذلك كله بأعينهم حين أشرفوا على أسوارها، فاستولى عليهم العجب وأخذتهم الدهشة، وشدهم الشوق إلى

---

(١) المقريزي (١/١٦٣، ١٦٤).

(٢) البلاذري ص ٢٢٢.

اقتحام تلك الأسوار الشاهقة، ومباغتة هذه الحصون المنيعة.

أجال عمرو نظره في أطراف المدينة، ليضع خطته على أساس سليم، وليقدر للأمر ما يحتاج إليه من تدبير فوجد المدينة محصنة تحصيناً طبيعياً يزيدها مناعة وصموداً، فالبحر المتوسط يحميها من الشمال، وبحيرة مريوط تقيها هجمات الغازين من الجنوب، وترعة الثعبان تلتف حولها من الغرب، وحصونها الشامخة تحيطها من الشرق.

ولم تكن هذه التحصينات الطبيعية لتحول بين عمرو وبين ما عزم عليه من فتح الإسكندرية، فقد كان يرى أن انتصارات المسلمين المتوالية أكبر مشجع للمسلمين على اقتحام تلك الموانع، وتذليل هذه العقبات، كما كان يحس بفراسته أن هزيمة الروم في كريون لا بد أن تكون قد تركت في قلوب المحاربين من الهلع والفزع ما يجعلهم ينهارون لأول وهلة من الهجوم الذي يشنه المسلمون، لهذا كله أمر عمرو بالهجوم على المدينة، واقتحام أسوارها المكينة.

ولكن الروم كانوا قد أعدوا للأمر عدته، وكأنهم كانوا يتوقعون هجوم المسلمين على مواقعهم فنصبوا المجانيق فوق الأسوار، ولم يكد المسلمون يقتربون منها حتى سقط عليهم وابل من الحجارة الضخمة التي ألقتها المجانيق على صفوف المهاجمين، فأوقعت فيهم إصابات خطيرة، وعلى الفور أمر القائد بالتراجع إلى ما وراء مرمى المجانيق.

وتراجع المسلمون إلى جهة الشرق، وهناك ضربوا معسكرهم ما بين حلوة إلى قصر فاروس[١]، وكان هذا القصر قلعة بناها الفرس عندما حاصروا الإسكندرية، وأخذ رؤساء القبط الذين صحبوا المسلمين يمدونهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والعلوفة[٢].

وأقام عمرو في هذا المكان شهرين[٣]، راجياً أن يخرج له الروم في

(١) ابن عبد الحكم (١/١١٠).
(٢) نفسه.
(٣) نفسه (١/١١١).

معركة مكشوفة، حتى يستطيع منازلتهم والإيقاع بهم، ولكن أحداً لم يخرج إليه، بل لم يجرؤ جند الروم على مغادرة حصونهم.

وانتقل المسلمون من مكانهم الذي اختاروه، وضربوا فيه معسكرهم إلى مكان آخر يسمى المقس حيث لا جدوى من المقام بمكان لا يستطيع المسلمون فيه الالتقاء بعدوهم، والدخول معه في معركة فاصلة، وكان هناك أمر آخر ينبغي على القائد مراعاته ذلكم هو ما يصيب الجنود من الملل والكسل حين يطول بهم الوقوف دون أن يدخلوا في معركة، أو ينشطوا في عمل جاد.

لهذا وغيره فكر عمرو في التحول من مكانه الأول إلى المكان الجديد، وهو بهذه الحركة يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون، فهو من جهة ينشط جنوده، ويبعث في نفوسهم الأمل في ملاقاة عدو تأهبوا لقتاله، ومن جهة أخرى ينشر الرعب في القرى الواقعة بين قصر فاروس والمقس (أم دنين) حتى لا يفكروا في التمرد على الجيش الفاتح أو في مساعدة جيش الروم وإمداده بما يحتاج إليه.

وأمام حصون الإسكندرية الرابضة شرقيها ترك عمرو حامية ليظل الحصار قائماً ولئلا يظن الروم أن المسلمين عجزوا عن فتح الإسكندرية، وردوا عنها خائبين.

وتوجه عمرو ببقية الجيش نحو الشمال يريد المقس، وبينما هو يسير خرجت عليه من ناحية البحيرة كتيبة من الخيالة، واتخذت الحصن لها ستاراً، فأوقعت بالمسلمين على غرة فقتلت منهم اثنى عشر رجلاً عند كنيسة الذهب[1].

واحتاط عمرو لأمثال تلك المباغتة حتى لا يلدغ مرتين، ومشى بالجيش حتى نزل عند المقس؛ ومن هناك قسم الجيش إلى كتائب، وجعل على كل

---

(١) ابن عبد الحكم (١/١١١).

كتيبة رجلاً من رجاله الشجعان، وبعث بهم إلى جهات مصر المختلفة ليفتحوها وتصير الأرض كلها أرض خراج.

فوجه عبدالله بن حذافة السهمي إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم والأشمونين والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك، ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودقهلة وبنا وبوصير ففعل مثل ذلك، ووجه عقبة بن عامر الجهني، ويقال: وردان مولاه إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك، فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج[1].

وبذلك دانت أرض مصر كلها للمسلمين، وخضعت لسلطانهم، واطمأن أهل مصر للفاتحين الجدد وإن كانوا لا يزالون على حذرهم وحيطتهم، فكم جربوا قبلهم من الغزاة، ولم يجدوا عند أحد منهم ما يشجعهم على التفاؤل أو يشير إلى أنهم سيمنحون أصحاب البلاد حقهم في حكم أنفسهم والمشاركة في خيرات بلادهم، فقد غزاهم الهكسوس في االقرن الثامن عشر قبل الميلاد، واستأثروا بحكم البلاد وخيراتها وسخروا المصريين لخدمتهم. وفي عام ٣٣٢ قبل الميلاد غزاهم البطالسة (الإغريق) بقيادة الإسكندر المكدوني فقضى على الفراعنة، وأسس الإسكندرية واتخذها القائد بطليموس عاصمة، وانفرد بحكم البلاد هو ومعاونوه من الغزاة ونسوا أن للبلاد سكاناً أصليين ينبغي أن يؤخذ رأيهم في حكم بلادهم، ثم جاء الرومان، وكرروا المأساة نفسها، وها هم أولاء يسيمون الشعب المصري صاحب البلاد ألواناً شتى من الاضطهاد، وتغلب الفرس على الروم واحتلوا مصر عشر سنوات فلم يكونوا خيراً ممن سبقهم، ثم عاد الرومان فساروا سيرتهم الأولى.

فهل يكون العرب الفاتحون خيراً من هؤلاء جميعاً؟ لم يخطر ببال

---

(١) البلاذري ص ٢١٨.

المصريين وقد مروا بهذه التجارب كلها أن يكون هناك غزاة خيراً من غزاة، أو محتلون أفضل من محتلين، ومن أين تأتي تلك الخيرية؟ وما الذي يفضل هؤلاء على أولئك؟ أليسوا جميعاً غزاة يدفعهم إلى الغزو حب التسلط والغلبة؟ أو ليسوا جميعاً محتلين لم يخرجهم من بلادهم إلّا الطمع فيما وراء الاحتلال من تسخير أصحاب البلاد التي احتلوها ليكونوا لهم عبيداً، واستغلال ثروات البلاد لمآربهم الشخصية ومطامعهم الذاتية؟.

لا فرق إذاً بين عربي وعجمي فكلهم يسيرون في اتجاه واحد، وسائلهم واحدة الحرب والدمار، وغايتهم واحدة التسلط والاستغلال، ولا أمل في طائفة منهم يحقق للشعوب المغلوبة حريتها، ويثبت لها ذاتيتها.

على أي حال كان على الشعب المغلوب على أمره أن يصبر حتى تنفرج الأزمة وتنكشف الغمة وتنتهي المعركة، وما أشق ساعات الانتظار على النفس، وما أطول ما تمضي دقائقها بطيئة متعثرة، وما أكثر الهواجس التي تلم بتفكير الإنسان في لحظات الانتظار.

وكانت ساعات حرجة مرت بالشعب البائس الذي طالما استعبدته الشعوب المتغلبة، ولا يدري أحد ماذا كان يدور برؤوس الناس هناك، هل كانوا يتمنون انتصار الروم ولو أذاقوهم سوء العذاب إبقاء على دينهم، وعصبية لعقيدتهم؟ ولكن هل ترك لهم الروم دينهم حسبما آمنوا به؟ ألم يجبروهم على التخلي عن مذهبهم ليدخلوا في مذهب الملك الغالب؟ فلماذا إذاً يتمنون انتصار الروم؟

هل تظن أنهم كانوا ينتظرون انتصار المسلمين ليتخلصوا من ظلم الروم ولو إلى حين؟ ولكن من يضمن لهم أن المسلمين سيكونون خيراً من غيرهم؟ فلا داعي كذلك لتمنّي انتصار المسلمين.

لهذا كله وقف قبط مصر من المعركة موقف الحذر المتربص ينتظر، من سيكون سيد الموقف وعلى من تدور االدائرة، ورأى أن من الخير له ألا يظهر تأييده لأحد الفريقين فقد تأتي الرياح بما لا يشتهي السفن، وحينئذ لا ينفع الندم.

استتب الأمر للمسلمين في الوجهين القبلي (مصر العليا) والبحري (مصر السفلى) كما استقر لهم في مصر الوسطى (الفسطاط)، وفكر عمرو في العودة إلى الإسكندرية ليتمم فتحها، وفي الوقت نفسه فكر الروم في تزويد المدينة بكل ما تحتاج إليه لتستطيع التصدي لهجمات المسلمين المنتظرة، فكانت المراكب تفد إلى الإسكندرية من قبل ملك الروم دون أن يمنعها مانع فقد كان البحر المتوسط يومئذ خاضعاً لسلطان الروم دون منافس حتى أطلق عليه مؤرخو تلك الفترة بحر الروم وكانت تلك المراكب تحمل الجنود والعتاد، والمؤن والزاد، حتى أصبحت الإسكندرية وكأنها مستودع للرجال والتموين، وأصبح أهلها في منعة من عدوهم، فزادهم ذلك تشبثاً بالدفاع عنها والتضحية لإنقاذها.

وزاد الروم حماساً في الدفاع عن الإسكندرية أن هرقل نفسه قد عزم على الدفاع عنها، وأمر بإعداد ما يلزم ليسير إلى الإسكندرية ويباشر القتال بنفسه، كما أمر بألا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: ما بقاء الروم بعد الإسكندرية؟[1].

ووقف المسلمون أمام الإسكندرية يتحينون الفرصة لفتحها، ودارت أثناء ذلك مناوشات بين الفريقين لم تصل إلى درجة الحرب، ولا نستطيع أن نسميها معركة، فقد روى ابن عبد الحكم أن فريقاً من الروم خرج من باب الحصن، وحمل على المسلمين، فقتل رجلاً من مهرة، واحتز رأسه، فغضب المهريون لذلك، وقالوا لا ندفنه إلا برأسه.

فقال عمرو بن العاص: تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالي بغضبكم، احملوا على القوم إذا خرجوا، فاقتلوا منهم رجلاً، ثم ارموا برأسه، يرمونكم برأس صاحبكم، فلما خرج الروم للقتال، قتل المسلمون بطريقاً من بطارقتهم، واحتزوا رأسه، فرموا به إلى الروم فرمت الروم برأس المهري إليهم.

---

(١) ابن عبد الحكم (١/١١٢).

فقال عمرو: دونكم الآن، فادفنوا صاحبكم[1].

وظل الحال على ذلك بين المسلمين وحامية الإسكندرية، فكلما خرجت طائفة من الروم تصدى لها المسلمون، واشتبكوا معها حتى يردوها على أعقابها، ويجبروها على اللجوء إلى الحصون تمتنع بها، ويبدو أن الروم قد ضاقت صدورهم بهذا الحصار، وصمموا على فض هذا الموقف مهما كان الثمن ومهما كانت النتائج، وقد زادهم ثقة بأنفسهم، وأقنعهم بقدرتهم على التفوق على المسلمين تلك الإمدادات الهائلة التي كانت تتدفق على الإسكندرية من البحر، والتي أمر هرقل بجمعها ليسير بها إلى الإسكندرية.

وقد بلغت قوات الروم خمسين ألف مقاتل[2] مدججين بالسلاح، مستعدين للقتال وقد وقفوا ينتظرون قدوم هرقل ليقودهم في تلك المعركة الفاصلة، ولكن الله - عز وجل - كان في عون المسلمين، وقد سبقت مشيئته - سبحانه - بنصرهم، فهم جنوده الذين يحملون دعوته، وهم رسل الهداية للناس، المدافعون عن دينه، وما كان الله ليتخلى عن عباده، ولم يكن - جل وعلا - ليتركهم لأعدائه.

وبينما الروم في انتظار هرقل بفارغ الصبر لينهي هذا الحصار الذي ضاقت به نفوسهم وبينما هم ينظرون إلى الأفق البعيد من جهة الشمال لعلهم يبصرون ما يدل على قرب وصول الملك إذ رأوا رسولاً قادماً عليهم، ففرحوا به، وظنوا أنه مقدمة الملك الذي سبقه ليبشرهم بقرب وصوله، ويطمئنهم على النتيجة بما جلبه معه الملك مما يضمن لهم النصر الذي غاب عنهم في كل المعارك السابقة، ولم يكد جند الروم يلتفون حول الرسول ليتعرفوا منه أخبار هرقل حتى فاجأهم بنبأ وقع عليهم وقوع الصاعقة، ولم يجدوا عنده ما يشجعهم على الاستمرار في المقاومة، والإصرار على الدفاع عن الإسكندرية.

---

(1) ابن عبد الحكم (١/١٣).

(2) هيكل الفاروق عمر (٢/١٢٦).

لم يكن هذا الرسول إلا ناعياً نعى إليهم ملكهم الذي كانوا يرجون النصر على يديه، فما عساهم يفعلون؟ لقد سقط في أيديهم، وانقطع الأمل الذي كانوا به يتعلقون، وخارت قوى القوم فلم يستطيعوا صبراً ولا نصراً، ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا.

المقوقس يقترح الصلح:

وأراد المقوقس أن يعقد للإسكندرية صلحاً كالذي عقده لأهل بابليون، ولعله أراد أن يظفر بذلك الصلح قبل أن يبلغ المسلمين نبأ وفاة هرقل، ولكن عمراً أحس بأن هذا العرض من المقوقس لا يكون إلا نتيجة تخاذل وشعور بالضعف، فرفض عمرو الصلح، وحينئذ حاول المقوقس أن يخدع المسلمين، فأمر النساء بلبس السلاح والوقوف على أسوار المدينة مقبلات بوجوههن إلى الداخل، وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجوههم إلى المسلمين، يريد بذلك أن يرهب المسلمين.

ولعل عمراً أدرك بفراسته العسكرية أن من تكون له هذه القوة لا يطلب الصلح، ولعله كشف الخديعة بهذا الحس العبقري، ولو أضفنا إلى ذلك إدراك المسلمين دائماً للحقيقة التي لا تعزب عن بالهم وهي أنهم لا يغلبون بقوة ولا كثرة، ولا ينتصرون بعدد ولا عدد، وإنما يغلبون عدوهم بنصر الله لهم مهما قل عددهم وكثر عدوهم.

يمكننا أن نقول إن عمراً رفض الصلح مع المقوقس في الوقت الذي كان المسلمون في حاجة ملحة إليه لتأكده أن الإسكندرية أصبحت في حالة لا يمكنها معها المقاومة والصمود، لهذا كتب إلى المقوقس (إنا قد رأينا ما صنعت، وما بالكثرة غلبنا من غلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان) فقال المقوقس لأصحابه: قد صدق هؤلاء القوم، أَخرَجُوهُ من دار مملكته حتى أَدْخَلُوه القسطنطينية، فنحن أولى بالإذعان، فأغلظوا له القول، وأبوا إلا المحاربة[1].

---

(١) البلاذري ص ٢٢٢.

كان الروم يعتقدون أن ما لديهم من السلاح والرجال والتموين كاف لصد المسلمين، بل كانوا يعتقدون أكثر من ذلك، كانوا يعتقدون أن القسطنطينية ستظل تمدهم بما يلزمهم من الذخيرة والرجال والطعام وهم لا يريدون أكثر من ذلك للتصدي لزحف المسلمين وإيقاف تحركهم نحو المدينة لهذا سفهوا رأي المقوقس، وأغلظوا له القول، وأبوا إلا المحاربة.

ولكن سرعان ما خاب أملهم، وفشلت خطتهم، حيث انقطعت الإمدادات، وكاد ما بأيديهم أن ينفد، وراحوا يستمدون العاصمة دون جدوى، فقد كانت العاصمة في حاجة لمن يمدها ليخلصها من الفوضى التي أصابتها بعد موت هرقل، بل كان القصر نفسه في مسيس الحاجة إلى من ينقذه من الاضطراب المستعر في داخله، والدسائس التي كانت تحاك تحت سقفه.

أحست حامية الإسكندرية بكل ذلك، وأدركت أنها أصبحت في موقف حرج لا تحسد عليه، ولعلها ندمت على خطئها حين رفضت ما عرض المقوقس عليها من أمر الصلح، ولا شك أنها أيقنت بما سيحل بها من الدمار والخراب نتيجة لانقطاع المدد، وقلة الطعام، وتفشي الأوجاع والآلام في الوقت الذي ينعم فيه المسلمون بحرية الحركة، وتوفر الميرة، وعظيم الثقة في نصر الله.

عمر يستبطىء النصر:

كان ذلك كله يدور حول الإسكندرية في الوقت الذي كان الخليفة في المدينة ينتظر أخبار المعركة ويتلهف إلى استماع أنبائها، ولما لم يصل إليه شيء عن ذلك، واستبطأ الأمر، كتب إلى عمرو:

(أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونه منذ سنتين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكون غيَّرهم ما غيَّرَ غيْرَهُم.

فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب بالناس، وحثهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم)[١].

إن كتاب الخليفة يدل دلالة صادقة على مدى ضيقه بتأخر النصر، إن هؤلاء الجنود هم هم الذين فتح الله على أيديهم أمنع الحصون وأقوى المعاقل، ودعم بهم الجهاد وقواه، وهم هم الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الله، وخرجوا من بلادهم لا يبتغون إلا وجه الله، وتركوا نساءهم وعيالهم لينصروا دين الله، فما بال النصر يتأخر عليهم هكذا؟ وما بال الإسكندرية تستعصي عليهم فلم يستطيعوا فتحها.

وحق للخليفة أن يستبطىء النصر فقد مكث المسلمون أمام الإسكندرية أشهراً[٢]، دون أن يستطيعوا اقتحامها، وقد طالت هذه الأشهر حتى بلغت عند البلاذري ثلاثة أشهر[٣] وأما ابن عبد الحكم فقد ذكر أن الحصار استمر أربعة عشر شهراً: خمسة أشهر قبل موت هرقل وتسعة بعده[٤] وبلغت مدة الحصار عند بتلر أربعة أشهر وأياماً، وذ لك لأنه ذكر أن الحصار بدأ في آخر شهر يونيو سنة ٦٤١ م وأن المدينة فتحت في ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ م، ويذكر القضاعي أن حصارها دام ستة أشهر[٥].

والذي يظهر أن رأي بتلر هو الصواب في تلك المسألة، ذلك لأن أمير المؤمنين كتب في كتابه إلى عمرو (إنكم تقاتلون منذ سنتين) فإذا لاحظنا أن عمرو بن العاص وصل إلى العريش في ديسمبر سنة ٦٣٩ م كما ذكرت سالفاً

---

(١) المقريزي (١/١٦٥).
(٢) ابن عبد الحكم (١/١١٥).
(٣) البلاذري ص ٢٢٢.
(٤) ابن عبد الحكم (١/١١٧).
(٥) المقريزي (١/١٦٥).

وأن الإسكندرية فتحت في نوفمبر سنة ٦٤١ م كانت مدة الحصار تلك الأشهر الأربعة التي ذكرها بتلر مضافاً إليها ما زاد من الأيام.

وكان من حق الخليفة أن يستبطىء الفتح لأن جيوش المسلمين قد فتحت بلاد الشام كلها في سنتين، فكيف لا يستطيعون فتح مصر في سنتين، ويظهر لي أن الخليفة قد استبطأ النصر في تلك المدة التي ذكرها، ولم يكن استبطاؤه لفتح الإسكندرية وحدها، ولذا قال لأصحابه يوماً وهو جالس بينهم: ما أبطأوا في فتحها إلا لما أحدثوا[١].

تناول عمرو بن العاص كتاب الخليفة، وأطال التفكير فيه، وظل يفكر حتى استلقى على ظهره، ثم جلس فقال: إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا من أصلح أوله، ثم دعا بعبادة بن الصامت فعقد له اللواء وأمره على الناس.

ويبدو أن هذا التفكير من عمرو - رضي الله عنه - قد صادف موافقة المشورة من مسلمة ابن مخلد فإن ابن عبد الحكم يروي أن عمراً استشار مسلمة بن مخلد، وقال له: أشر عليّ في قتال هؤلاء.

فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك.

قال عمرو: ومن ذلك؟
قال مسلمة: عبادة بن الصامت.

فدعا عمرو عبادة، فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول. فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت، ناولني سنان رمحك، فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه، وعقد له، وولاه قتال الروم[٢].

وجمع عمرو المسلمين وقرأ عليهم كتاب الخليفة، ودعا الأربعة

---

(١) ابن عبد الحكم (١/١١٥).
(٢) ابن عبد الحكم (١/١١٦، ١١٧).

الذين أخبره عمر أنهم مقام أربعة آلاف، فقدمهم أمام الناس، وأمر الجميع بأن يتطهروا، ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا إلى الله - عز وجل - ويسألوه النصر، ففعلوا[1].

وقاد عبادة المسلمين، ودار قتال عنيف بين الطائفتين انتهى بفتح الإسكندرية وهزيمة الروم في اليوم الذي تولى فيه عبادة أمر القتال.

أسباب هزيمة الروم:

لا شك أن هزيمة الروم في الإسكندرية كانت آية من آيات الله، أظهرها على يد أصحاب رسول الله ﷺ وإلا فكيف يستطيع المسلمون اقتحام تلك الأسوار، وتخطي هذه الحصون، والتغلب على المتحصنين؟ إن المجانيق لا تنال منها أيّ منال، وإن ما يملك المسلمون من السهام والنبال لا تغني عن أصحابها شيئاً أمام تلك الرواسي الشامخات، ولقد شاء الله - تبارك وتعالى - أن يموت هرقل في تلك اللحظات الحرجة، وأن يضطرب البلاط اضطراباً يعطل تفكير العاملين فيه، حتى أنهم لا يفكرون إلا في أنفسهم، وما سيؤول إليهم أمرهم، فأين الإسكندرية من هذا التفكير؟ وماذا تكون حاميتها في معمعة تلك العواصف الهوج؟ فلتذهب الإسكندرية مع الريح، ولتمت حاميتها فليست عندهم أعز من أنفسهم.

أفيظن أحد والبلاط يغلي غليان القدر، والمؤامرات تحاك في ظلام سراديبه، وذوو الرأي فيه يفكرون في مصيرهم، أفيظن أحد والحالة هذه أن تمد الإسكندرية بشيء من المدد مهما قل عدده، أو خف حمله وبخس ثمنه؟.

لقد سبب موت هرقل انقطاع المدد عن الإسكندرية، فوهن عزم المدافعين عنها، وانهارت معنوياتهم فلم يعد هناك مجال للمقاومة والعناد، ولا شك أن هذه الأخبار تسربت إلى المسلمين ولو عن طريق حراس الأبواب الذين كانوا يتصلون بالمسلمين، ويتبادلون معهم الأحاديث، فألح المسلمون

---

(١) نفسه.

في القتال، ويئس المدافعون من النصر فألقوا بأيديهم، واستسلموا لسيوف المسلمين ولم تكن إلا جولة واحدة حتى تم النصر للمسلمين.

كيف تم هذا النصر، بل كيف تمكن المسلمون من اقتحام الأسوار والحصون؟ هل استسلم الروم وفتحوا المدينة أمام ضغط الظروف والأوضاع السيئة التي أحاطت بهم؟ أم فتح أحد الحراس بابه للمسلمين فدلفوا منه؟ لم يشر أحد من المؤرخين إلى شيء من ذلك وليس هناك من يستطيع أن يجزم بشيء منه.

ولكننا نستطيع أن نستنبط استنباطاً أن حماة الإسكندرية لما يئسوا من مجيء المدد، وهددتهم المجاعة وهم في حصونهم، لم يكن هناك دوافع تجعلهم يستمرون في المقاومة أو حوافز تغريهم بالصمود فآثروا السلامة، ودبروا للهرب. يقول ابن عبد الحكم: فلما هزم الله ـ تعالى ـ الروم، وفتح الإسكندرية هرب الروم في البر والبحر[1].

ومما يؤيد هذا أن المؤرخين الذين أسهبوا في وصف الفتوحات الأخرى، وذكروا دقائق الأمور وجلائلها وتحدثوا عن بطولات المسلمين وصمود أعدائهم، لم يتناولوا فتح الإسكندرية بشيء من التفصيل، ولم يتكلموا عن فتحها بأكثر من كلمات تكاد تكون واحدة جرت على ألسنتهم، ونقلها بعضهم عن بعض، وإذا دل ذلك على شيء فإنما يدل على أنه لم تدر معارك يمكن وصفها والإسهاب في نقل أحداثها، وإنما كانت جولة هرب بعدها الروم في البر والبحر، ولعل الروم خرجوا من حصونهم، وافتعلوا تلك المعركة ليجدوا سبيلاً للهرب، وإلا فكيف يهربون وهم محاصرون في داخل الحصون والأسوار؟

وتم فتح الإسكندرية يوم الجمعة مستهل شهر محرم سنة ٢١ هـ وبلغ عدد شهداء المسلمين اثنين وعشرين رجلاً[2].

---

(١) ابن عبد الحكم (١/١١٨).
(٢) المقريزي (١/١٦٥، ١٦٦).

عمرو يبشر الخليفة بالفتح

وبعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج إلى عمر بن الخطاب يبشره بفتح الإسكندرية، وقال معاوية لعمرو: ألا تكتب معي؟ فقال عمرو: ألست رجلاً عربياً تبلغ الرسالة، وما رأيت وحضرت؟ فما أصنع بالكتاب؟ ولما قدم معاوية على عمر، وبشره بالفتح خر عمر ساجداً شكراً لله، وقال: الحمد لله[1]

قال معاوية بن خديج: بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة في الظهيرة فانخت راحلتي بباب المسجد، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب، فرأتني شاحباً على ثياب السفر، فأتتني فقالت: من أنت؟

قلت: معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص.

فانصرفت عني، ثم أقبلت تشد، أسمع حفيف إزارها على ساقها حتى دنت مني.

فقالت: قم فأجب، أمير المؤمنين يدعوك، فتبعتها، فلما دخلت فإذا عمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه، ويشد إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك؟

قلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية.

فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن: أذن في الناس، الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، ثم قال لي: قم فأخبر أصحابك، فقمت فأخبرتهم.

ثم صلى، ودخل منزله، واستقبل القبلة، فدعا بدعوات، ثم جلس، فقال: يا جارية، هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت.

فقال: كل. فأكلت على حياء.

ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق.

---

(١) نفسه.

فقال: كل. فأكلت على حياء.

ثم قال: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟

قال: قلت: أمير المؤمنين قائل.

قال: بئس ما قلت، أو بئس ما ظننت، لئن نمت النهار لأضيعَنَّ الرعية، ولئن نمت بالليل لأضيعنَّ نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟[1].

ولما فتح الله الإسكندرية، وهرب الروم في البر والبحر، أخذ عمرو يتعقب الهاربين في البر ليقضي عليهم خشية أن يتجمعوا ويكيدوا للمسلمين، وكان قد ترك بالإسكندرية حامية ترابط فيها لئلا ينقض الروم، ولكن تلك الحامية لم تكن كافية للدفاع عن المدينة، حيث كان تعدادها ألف رجل[2]، ولهذا لما أحس الروم بمطاردة عمرو للهاربين في البر، عاد الهاربون في البحر إلى الإسكندرية، وقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من استطاع الهرب[3].

وعلم عمرو بما حدث للمسلمين على يد الروم، فعاد على الفور، واقتحم المدينة، وفتحها بالسيف وكتب إلى عمر بن الخطاب، أما بعد، فإن الله فتح علينا الإسكندرية عنوة قسراً بغير عهد ولا عقد[4].

وبعث برسالة أخرى يصف فيها الإسكندرية، فقال: أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمّام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك[5].

---

(١) ابن عبد الحكم (١/١١٩، ١٣٠).

(٢) ابن عبد الحكم (١/١٨).

(٣) نفسه.

(٤) البلاذري ص ٢١٧.

(٥) ابن عبد الحكم (١/١٣١).

ومن هذا الوصف المختصر لوضع الإسكندرية نقف على مدى ما كان فيها من التقدم العمراني والحضاري، وما كانت تزخر به من ألوان الفنون والمعارف، وما كانت تمتاز به من الوضع الاقتصادي المزدهر.

لقد كان في الإسكندرية سوى ما جاء في خطاب عمرو اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر ورحل منها قبل فتحها سبعون ألف يهودي، وكان يسكنها من الروم مائتا ألف رجل، وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار، استعملها الروم في الهرب بحراً، فحملوا فيها ثلاثين ألف شخص مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل، وأحصى من بقي فيها بعد فرار الفارين ممن ضربت عليهم الجزية فبلغوا ستمائة ألف رجل سوى النساء والصبيان[1].

وأراد عمرو أن يتخذ الإسكندرية مقراً للحكم، وقال: مساكن قد كفيناها.

وكتب بذلك إلى أمير المؤمنين، يستأذنه، فسأل عمر الرسول، هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، إذا جرى النيل.

فكتب عمر إلى عمرو، إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف.

فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى فسطاط[2].

الروم يستردون الإسكندرية:

ولما هم عمرو بمغادرة الإسكندرية استخلف عليها عبدالله بن حذافة السهمي، ومعه جماعة من المسلمين لحمايتها، ورد العدو عنها إذا حاول غزوها، ولكن الروم الذين كانوا بالإسكندرية نظروا إلى المسلمين فإذا هم قلة لا يستطيعون دفعاً ولا نصراً.

---

(١) نفسه.

(٢) ابن عبد الحكم (١/١٣٢).

فأغرتهم قلة المسلمين، وأثارت الحماس في نفوسهم حياة الذل التي يعيشونها في الإسكندرية بعد أن ضربت عليهم الجزية، فكتبوا بذلك كله إلى قسطنطين بن هرقل الذي تولى أمر الروم بعد وفاة أبيه.

ولم تكد رسالة أهل الإسكندرية تصل إلى قسطنطين حتى عبأ ثلاثمائة مركب بالرجال والسلاح، وأسند قيادة تلك الحملة إلى منويل الخصي، واتجه منويل بجيشه نحو الإسكندرية وانضم إليه من كان مقيماً بها من الروم[1]، وقتل من بها من المسلمين إلا من استطاع الهرب[2].

وبلغ عمرو ما حدث فرجع من فوره، فلما بلغ الإسكندرية وجد جنود الروم قد خرجوا منها يعيثون في القرى المجاورة لها فساداً، وهناك التقى الفريقان ورشق الروم المسلمين بالنشاب، وتترس المسلمون منهم، ثم التحمت الحرب بينهما، وشد عليهم المسلمون شدة رجل واحد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الروم وولوا الأدبار، فلم يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الإسكندرية، فتحصنوا بها، ونصبوا العرادات، وقاتلهم عمرو على أبواب الإسكندرية، ونصب المجانيق، وضرب بها أسوارها حتى نال منها، ولا زال يقصفها حتى وهنت قوة الروم، وألح عليها حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل المقاتلين، وسبى الذرية، وهرب بعض رومها إلى الروم، وقتل عدو الله منويل وهدم عمرو أسوارها، وكان قد نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك[3].

وكتب عمرو إلى الخليفة، إن الله فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد، فرد عليه عمر يقبح رأيه، ويأمره ألا يجاوزها[4].

وألح المسلمون على عمرو ليقسمها بينهم، وأبى عمرو حتى يستشير الخليفة ورفض الخليفة التقسيم، وقال لعمرو: لا تقسمها، وذرهم يكون

---

(١) المقريزي (/١٦٧).
(٢) البلاذري ص ٢٢٣.
(٣) نفسه.
(٤) ابن عبد الحكم (١/١١٨).

خراجهم فيئاً للمسلمين، وقوة لهم على جهاد عدوهم[1].

وكانت هناك قرى ظاهرت الروم، وأعانوهم علي المسلمين، وتلك القرى هي: سلطيس ومصيل وبلهيب، والخيس وقرطساً وسخاً، فلما انتصر المسلمون استحلوا أهل هذه القرى، وقالوا، هؤلاء لنا فيء مع الإسكندرية[2].

وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين يخبره بما أراد المسلمون بأهل القرى، وعلم أمير المؤمنين بأن للقوم عهداً سابقاً، فأمر عمراً بأن يجعل هذه القرى ذمة للمسلمين كما فعل بالإسكندرية، ونهى أن يتخذ أهلها فيئاً وعبيداً[3]، وأمر كذلك برد سباياهم وبتخيير أهلها بين الإسلام وبين دينهم، فمن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن اختار دينه خلى بينه وبين قريته، وكتب الخليفة بذلك كتاباً إلى عمرو بن العاص قال فيه:

(أما بعد، فإنه جاءني كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه، ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إليّ من فيء يقسم، ثم كأنه لم يكن، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لا نقدر على ردهم، ولا نحب أن نصالحهم على أمر لا نفي لهم به).

وبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يخبره بما أمر به أمير المؤمنين، فأجاب، قد فعلت.

---

(١) ابن عبد الحكم (١/١٢٢).
(٢) نفسه (١/١٢٢، ١٢٣).
(٣) نفسه.

فجمع عمرو ما بأيدي المسلمين من الأسرى، وحضر النصارى ليشهدوا التخيير، وأخذ المسلمون يخيرون الأسرى واحداً واحداً، فإذا اختار أحدهم الإسلام كبر المسلمون، وحازوه إليهم وإذا اختار دين قومه نخرت النصارى، وحازوه إليهم، ويحزن المسلمون لذلك حزناً شديداً، ويضربون عليه الجزية، وظل ذلك دأبهم حتى انتهوا من الأسرى، وكان ممن اختار االإسلام أبو مريم أحد رؤساء النصارى[1].

وأحصى عمرو أهل مصر ممن وجبت عليهم الجزية والخراج فكان مجموع ما جُبي منها ألفي ألف دينار[2] أي مبلغ مليونين من الدنانير ، وقد تم ذلك في عام ٢٣ من الهجرة في نهاية خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقد بلغ من حرصه على الإسكندرية بعد الفتح الثاني أنه كان يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الإسكندرية، وكان يوالي ذلك دائماً، فلا يغفل عنها، ولا يأمن الروم عليها وظل الأمر كذلك حتى انتقل إلى مثواه الأخير ـ رضي الله عنه وأرضاه في جنات النعيم.

---

(١) الطبري (٤/١٠٥، ١٠٦).

(٢) البلاذري ص ٢١٧.

عام الرّمادة

وهو العام الثامن عشر من الهجرة على أرجح الأقوال، وقد حدث في هذا العام وهو العام الخامس من خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ جدب شديد، وقحط عمَّ الناس، وجاع المسلمون فيه جوعاً كاد يهلكهم، حتى جفل الناس من البادية إلى المدينة لعلّهم يجدون عند أمير المؤمنين ما يسد حاجتهم، ويسكت بطونهم ولم يبخل عليهم أمير المؤمنين بشيء يستطيعه حتى فنى ما بقي في بيت المال من الأطعمة والأموال ولكنّه بخل على نفسه وألزمها ألاَّ تأكل سمناً ولا سميناً حتى يشبع المسلمون.

ولقد كان في زمن الخصب يبثُّ له الخبز باللبن والسمن، فلمَّا كان عام الرمادة كان يبث له بالزيت والخل، وكان لا يشبع منه حتى اسودَّ لونه، وتغيَّر جسمه، وخاف المسلمون عليه الضعف[1]، وسمي هذا العام عام الرمادة لأنَّ الأرض اسودَّت من قلَّة المطر، وأصبحت تشبه الرماد وكانت الريح تسفى تراباً كأنَّه الرماد، وأقسم عمراً ألاَّ يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيى الناس واشتدَّ الأمر حتى أوت الوحوش إلى الناس لشدَّة ما نزل بها من الجوع[2].

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يعس بالليل كعادته فلم يسمع أحداً يضحك ووجم الناس فلم يستطيعوا الكلام، وكفَّ السائلون عن السؤال،

---

(١) ابن كثير (٧/ ٩٠).

(٢) الطبري (٤/ ٩٨).

وازداد عمر لحال المسلمين همًّا وغمًّا حتى كان يقول: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسَّهم[1]

واستمرَّ الحال على ذلك تسعة أشهر[2]، وعمر لا يدري ماذا يفعل لينقذ المسلمين مما نزل بهم، ولمَّا أراد الله - عزَّ وجل - تفريج الكرب، وتحويل الحال إلى الخصب هيَّأ للأمر أسبابه، وفتح للمسلمين بابه.

روى سيف عن عاصم بن عمير بن الخطَّاب أنَّ رجلاً من مزينة عام الرمادة طلب منه أهله أن يذبح لهم شاة، فقال: ليس فيهنَّ شيء.

فلم يزالوا به حتى ذبح لهم شاة، فسلخ عن عظم أحمر، فنادى: يا محمداه.

فأرى فيما يرى الناس أنَّ رسول الله ﷺ أتاه، فقال: أبشر بالحيا، ائت عمر فاقرئه مني السلام، وقل له: إن عهدي بك وأنت وفيّ العهد، شديد العقد، فالكيس الكيس يا عمر.

وذهب الرجل إلى بيت عمر، وقال لغلامه: استأذن لرسول رسول الله ﷺ وأتى الغلام عمر فأخبره، ففزع عمر وقال: أرأيت به مسا؟.

قال: لا، قال: فأدخله، فدخل فأخبره الخبر.

فخرج عمر، ونادى في الناس، وصعد المنبر، وقال: أنشدكم بالذي هداكم للإسلام، هل رأيتم مني شيئاً تكرهونه؟.

فقالوا: اللهمَّ لا، قالوا: وما ذاك؟ فأخبرهم، ففطنوا ولم يفطن.

فقالوا: إنَّما استبطأك في الاستسقاء، فاستسق بنا.

فنادى الناس، فقام فخطب فأوجز، ثمَّ صلَّى ركعتيه فأوجز، ثمَّ قال: اللهمَّ عجزت عنَّا أنصارنا، وعجز عنا حولنا وقوَّتنا، وعجزت عنَّا أنفسنا، ولا

---

(١) نفسه.

(٢) ابن كثير (٧/٩٠).

حول ولا قوّة إلّا بك اللهمّ فاسقنا، وأحيي العباد والبلاد.

وروى أنّه قال عند الاستسقاء: اللهمّ إياك نعبد وإياك نستعين، اللهمّ اغفر لنا وارحمنا وارضَ عنا، ثمّ انصرف، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا الغدران[1].

وروى البيهقي عن أبي صالح عن مالك قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا.

فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: أيت عمر، فاقرئه السلام مني، وأخبرهم أنّهم مسقون، وقل له: عليك بالكيس الكيس.

فأتى الرجل، فأخبر عمر، فقال: يا رب ما آلوا إلّا ما عجزت عنه[2].

وأشار المسلمون على عمر أن يستغيث بالله ثمّ بالمسلمين، وعندئذٍ كتب إلى أمراء الأمصار أن ياغوثاه لأمّة محمد.

كتب ذلك لأبي موسى الأشعري بالبصرة ولعمرو بن العاص في مصر، ولأبي عبيدة بن الجرّاح في الشام يستمدهم ويستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها، فكان أوّل من قدم عليه أبو عبيدة بن الجرّاح في أربعة آلاف راحلة من طعام، فأمره أن يقسمها فيمن حول المدينة، وكان عمر قد أراد أن يستقر الناس في مواطنهم، وأن يطمئنوا إلى أنّ الخليفة لن يغفل عنهم، وأنّ الطعام سيأتيهم إلى حيث يقيمون وعمر بذلك يكافح ظاهرة فشت في الناس، تلك هي هجرة الناس إلى المدينة وفرارهم إلى مقر الخلافة، ولو أنّ الناس فعلوا ذلك كلهم لضاقت بهم المدينة، وأصبحت المشكلة مضاعفة فبدلاً من أن تكون محصورة في عدم الطعام تصبح وقد أضيفت إليها مشكلة السكن.

ولعلّ الخليفة أيضاً قد أراد بذلك أن يردّ هؤلاء اللاجئين إلى العاصمة

---

(١) الطبري (٤/٩٩ - ١٠٠).

(٢) ابن كثير (٧/٩٢) وقال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح.

إلى مواطنهم التي ينبغي أن يظلوا بها، فعندما يرى المسلمون اهتمام الخليفة بالبادية واختصاصه لها بالتقديم على العاصمة نفسها، وعندما يتأكدون أنَّ مواطنهم الأولى مقدمة على مكان هجرتهم يهرعـون إلى مساكنهم التي هجروها، ويستقرون في البلاد التي فرُّوا منها.

وعندئذٍ يخطط الخليفة في هدوء وتؤدة لمكافحة تلك المجاعة التي أكلت الأخضر واليابس، وقضت على كل مقومات الحياة في الجزيرة.

وقسَّم أبو عبيدة ما جاء به من الطعام والميرة على من حول المدينة، وعاد إلى أمير المؤمنين يبشِّره باطمئنان الناس وفرحهم بتصرفه معهم، وارتاحت نفس عمر بعد قلق كاد يودي بحياته، وكافأ أبا عبيدة بأربعة آلاف درهم وردَّها أبو عبيدة على عمر وقال: لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين، إنَّما أردت الله وما قبله، فلا تدخل على الدنيا.

قال عمر: خذها فلا بأس بذلك إذ لم تـطلبه، وألـحَّ عليه حتى أخذها[1].

وأجاب عمرو بن العاص الخليفة باقتراح يرى فيه تحقيق المصلحة، ورفع الحرج والقضاء على المجاعة فكتب يقول: إنَّ البحر الشامي حفر لمبعث رسول الله ﷺ حفيراً فصبَّ في بحر العرب، فسدَّه الروم والقبط، فإن أحببت أن يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر حفرت له نهراً وبنيت له قناطر.

فكتب إليه عمر: أن أفعل وعجل.

ويبدو أنَّ هذا الاقتراح قد أزعج أهل مصر فخافوا عاقبته، فاقترحوا على عمرو ألَّا يفعل لأنَّ في ذلك خراب مصر، وتدمير اقتصادها، فكتب عمرو إلى الخليفة: إنَّ هذا العمل فيه انكسار خراج مصر وخرابها.

---

(١) الطبري (٤/١٠٠).

فكتب عمر إليه: اعمل فيه وعجل، اخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها[1].

وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام إلى المدينة فصار الطعام بالمدينة كسعر مصر[2].

وتجري رواية أخرى بأن عمراً كان في فلسطين في تلك الفترة ويقولون: إن مصر فتحت سنة عشرين من الهجرة فكيف يرسل عمرو الطعام من مصر وهي لم تفتح بعد؟

وهؤلاء يزعمون أن عمراً بعث الطعام من فلسطين في البر والبحر عن طريق إيلة (العقبة). وكتب إلى عمر: (أما بعد، فلبث، لابعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي).

وبعث في البحر عشرين سفينة تحمل الدقيق والودك، وفي البر ألف بعير تحمل الدقيق، وبعث معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير من الشام، وبعث سعد بن أبي وقاص ألفي بعير من العراق تحمل كلها الدقيق، هذا خلاف خمسة آلاف كساء أرسلها عمرو، وثلاثة آلاف عباءة أرسلها معاوية[3].

ويرى ابن كثير وجاهة هذا القول فيقول: لكن ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة مشكل، فإن مصر لم تكن فتحت في سنة ثماني عشرة، فإما أن يكون عام الرمادة بعد سنة ثماني عشرة أو يكون ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة وهم، والله أعلم[4].

على أن ابن كثير نفسه يروي عن سيف أن مصر فتحت سنة ست عشرة، ويروي الطبري الرواية نفسها عن سيف.

---

(١) نفسه.

(٢) ابن الأثير (٢/٥٥٦).

(٣) ابن سعد (٣/٣١٥)، هيكل (١/٢٦٧).

(٤) ابن كثير (٧/٩٠).

والواقع الذي لا مراء فيه أن ذكر عمرو بن العاص في إرسال الطعام من مصر عام المجاعة مشكل يحتاج إلى تحقيق، وذلك لأن رأي جمهور المؤرخين على أن مصر فتحت سنة عشرين[1]، أي بعد عام الرمادة بسنتين، وذلك إن صح يقتضي أن يكون عام الرمادة بعد سنة عشرين من الهجرة، وهذا أيضاً يخالف رأي جمهور المؤرخين، وهو الذي أدى إلى تشكيك المؤرخين في إرسال عمرو الطعام من مصر في عام المجاعة.

ولكن تتبع الأحداث التاريخية قد يؤدي بنا إلى مخرج من هذا الإشكال، فالمعروف أن عمرو بن العاص لم يتوجه إلى فتح مصر إلا بعد أن تم فتح القدس، وبما أن فتح القدس كان في سنة سبع عشرة[2] أو في سنة ست عشرة وهو رأي الجمهور[3].

والمعروف كذلك أن عمراً أمضى في طريقه منذ خرج من فلسطين إلى أن فتح مصر ستة عشر شهراً تقريباً، وأتم السنتين حينما فتح الإسكندرية.

ويؤيد ذلك خطاب أمير المؤمنين إلى عمرو الذي قال فيه: أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلون منذ سنتين[4].

ولما كان فتح بيت المقدس في ربيع الآخر سنة ست عشرة[5] فإن مصر تكون قد فتحت في أول عام ثماني عشرة، وإذا ثبت هذا فإن عمرو ابن العاص يتمكن من إرسال الطعام من مصر إلى الجزيرة في عام الرمادة.

وبهذا يرتفع الإشكال الذي أورده ابن كثير، ويتحقق ما رواه المؤرخون من أن عمراً أرسل الطعام إلى الجزيرة عن طريق بحر القلزم.

والذي يظهر للباحث أن عمر - رضي الله عنه - لم يفطن لطلب الغوث من أمراء الأمصار إلا بعد أن أشار عليه به الصحابة حينما قص عليهم رؤيا

---

(١) قاله: ابن إسحاق وأبو معشر والواقدي انظر الطبري (٤/١٠٤).

(٢) البلاذري ص ١١٤.

(٣) الطبري (٣/٦١٠) ابن الأثير (٢/٥٠١) ابن كثير (٧/٥٧).

(٤) ابن عبد الحكم (١/١١٦).

(٥) ابن كثير (٧/٥٧).

المزني، فقالوا: صدق بلال (المزني) فاستغث بالله ثم بالمسلمين[1].

يقول ابن كثير: وكان عمر عن ذلك محصوراً ـ يعني غافلاً عنه.

فلما نبهه الصحابة قال: الله أكبر، بلغ البلاء مدته فانكشف، ما أذن لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم الأذى والبلاء، وكتب إلى أمراء الأمصار أن أغيثوا أهل المدينة ومن حولها[2].

واستسقى عمر لقومه، واستجاب الله له، فلم يكد ينصرف الناس إلى منازلهم حتى خاضوا الغدران[3].

ولكن ماذا يغني هذا المطر مهما كان غزيراً عن قوم هم في أمس الحاجة لما يأكلونه الآن فكان لا بد من استنجاد الأمراء ليعجلوا بإرسال الميرة إلى من أصابتهم المحنة، فحتى تربو الأرض وتهتز، وحتى تنشق عما سيخرج منها، وحتى ينضج ويطيب ليصلح للأكل يكون المسلمون في حاجة إلى معونة عاجلة أو يهلكون إذا أبطأت عنهم.

ومن المعلوم الذي لا يماري فيه أحد أن استغاثة الخليفة بالأمراء كانت بعد مضي أطول فترة من المجاعة بالمسلمين بحيث انتهت بوصول الإمدادات، ولم يرو أحد أن هذه الإمدادات تكررت أو تكرر طلبها.

وما أن وصلت الإمدادات من الأطعمة والأكسية، حتى عين لكل ناحية من يقوم على طعامهم وتوزيع الكساء عليهم، وتولى بنفسه إطعام من كان بالمدينة، وأصدر عمر تعليماته لمن أرسلهم إلى الأقاليم في قوله لهم: (أما ما لقيت من الطعام فمل به إلى أهل البادية فأما الظروف ـ الأوعية ـ فاجعلها لحفاً يلبسونها، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها، ويحملون من

---

(١) ابن كثير (٩١/٧).

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

ودكها، ولا تنتظر أن يقولوا ننتظر بها الحيا ـ المطر ـ وأما الدقيق فيصطنعون ويحرزون حتى يأتي أمر الله بالفرج)[1].

وكان عمر في وقت المحنة يؤدم الخبز بالزيت، ويذبح بين الحين والحين بعيراً ويقدمه مع الطعام، ويأكل مع الناس مما يأكلون، فلما أقبلت العير من الشام والعراق كان ينحر كل يوم عشرين بعيراً ويطعمها للناس[2].

وأحصى من طعم على موائده في ليلة واحدة فكانوا سبعة آلاف رجل، وأما من لم يحضروا الطعام من المرضى والنساء والعيال فقد بلغوا أربعين ألفاً[3].

وبعد أيام جرى الإحصاء مرة أخرى فكان عدد الحاضرين عشرة آلاف، وأما الغائبون فكانوا خمسين ألفاً[4].

وكان عمر يشرف على هذا العمل الضخم بنفسه ليتأكد من أن كل إنسان حصل له من الطعام ما يسد جوعه، وحتى تطمئن نفسه إلى أنه قام بواجبه نحو رعيته فينام قرير العين هانىء البال.

واتبع عمر نظاماً دقيقاً في توزيع التمر والأدم والدقيق وكل أنواع الأطعمة على القادرين على تهيئتها لأنفسهم حيث حدد لكل جماعة مقدارا معيناً يرسله إليهم كل شهر، وقد تزيد الكمية أو تنقص حسبما يوجد في بيت المال، وقد عزم على أمر خطير إذا اضطر إليه حيث صمم على أن يجعل مع كل عائلة عدد أفرادها من المسلمين، وقال: (لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم، فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا فعلت، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم)[5].

---

(١) هيكل (/٢٦٨)، ابن سعد (٣/٣١٠).
(٢) نفسه (٣/٣١٥).
(٣) ابن سعد (٣/٣٦).
(٤) نفسه (٣/٣١٧).
(٥) ابن سعد س(٣/٣١٦، ٣١٧).

ومع كل ما بذل عمر من جهد لإنقاذ المسلمين، وتلافي المحنة فقد سقط من المسلمين ضحايا لا يعدون، وكان عمر يصلي على من شهده منهم، ويرسل الأكفان إلى الجهات النائية ويأمر الولاة أن يتصلوا بالناس، ويخففوا عنهم مصابهم[1].

وكان من أروع ما عمله ـ وأعماله كلها في تلك المحنة روائع ـ أنه لم يجب الزكاة في عام الرمادة، بل أجل ذلك بارتفاع الجدب وكثرة الخصب[2].

فلما أخصبت الأرض، ورغد العيش، واطمأن الناس إلى معاشهم، وراجت الحياة الاقتصادية بينهم أرسل الجباة فجمعوا من كل قادر نصابين: نصاباً عن عام الرمادة، وأمر بتوزيعه على الفقراء والمعدمين، ونصاباً عن عامهم، وأمر الجباية أن يقدموا به عليه، ولعله أراد أن يعوض بيت المال عما فقده في زمن المجاعة، فقد أنفق كل ما كان فيه على المسلمين، أما وقد زالت المحنة، وانقشعت الغمة فأنه ينبغي أن يكون في بيت المال رصيد يرجع إليه المسلمون إذا دعت الحاجة.

وبهذا يكون عمر قد أسهم في تخفيف حاجة المحتاجين، ودبر المال اللازم لبيت مال المسلمين.

إن أي باحث محقق يمر بتلك الأحداث الجسام التي مر بها المسلمون في تلك المحنة القاسية لا يسعه إلا أن يقف أمامها مبهوراً من مواقف الخليفة الإنسانية التي تنم عن شخصية غير عادية، لقد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ في كل أطوار المجاعة إنساناً بكل ما تحمل الكلمة من المعاني، وقد زاد الإسلام هذه الإنسانية سمواً لا يرقى إليه أحد ورفعة لا يتطلع إليها كائن مهما كان.

لقد سمت إنسانية أمير المؤمنين حتى شارك الرعية في كل ما ألم بها، جاع الناس فجاع كما جاعوا، وتألم المسلمون فتضاعفت آلامه، وكان إذا

---

(١) نفسه (٣/٣١٧).
(٢) ابن سعد (٣/٣٢٣).

حضره الطعام يدعو الحاضرين ليشاركوه فيه، وتحمل من الأسى ما لا تتحمله الرواسي، وزاد الإسلام هذا الشعور في الخليفة رهافة حتى لم يكن ليشغله جوعه عن جوع الناس، ولم تصرفه آلامه عما يعانيه المسلمون، بل كان يتحمل جوعه وجوع الرعية معاً، ويقاسي آلامهم وآلامه على حد سواء.

ولقد كان باستطاعة الخليفة أن يحوز ما كان في بيت المال له ولأسرته معه، وأن يعيش بمعزل عن هؤلاء الجياع، وينفرد بالسمن والسمين والتمر والثريد واللبن والسويق ولا عليه إذا عاش الناس أو ماتوا، طعموا أو جاعوا، ولكن كيف يتأتي له ذلك وموقفه بين يدي الله بين عينيه؟ إنه لو أراد ذلك لم يستطع إليه سبيلاً.

نزل غلام عمر السوق بعد أن صرف الله السوء عن المسلمين فوجد عكة سمن، ووطب لبن فاشتراهما بأربعين درهماً، وأحضرهما لعمر، ثم قال: يا أمير المؤمنين، قد أبر الله يمينك، وعظم أجرك، قدم السوق وطب من لبن، وعكة من سمن فابتعتهما بأربعين. فقال عمر: أغليت بهما، فتصدق بهما، فإني أكره أن آكل إسرافاً.

وسكت عمر برهة ثم قال: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم[1].

---

(١) الطبري (٤/٩٨).

طاعون عمواس

ومن الأحداث الهامة التي نزلت بالمسلمين في خلافة عمر - رضي الله عنه - الوباء الذي انتشر في بلاد الشام وعرف بطاعون عمواس، وقد مات فيه خلق كثير أحصاهم المؤرخون فبلغوا خمسة وعشرين ألف رجل، فيهم كثير من السادة وأجلاء الصحابة وكبار القواد كأبي عبيدة عامر بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وغيرهم.

حدث هذا في السنة السابعة عشرة من الهجرة، وكان عمر قد عزم على الخروج إلى بلاد الشام، ولكن أمراء الأجناد، قد استقبلوه على الحدود، وأخبروه بأن الأرض سقيمة وأن الوباء منتشر يعصف بأرواح الناس، وطلبوا منه العودة إلى المدينة.

ووقف عمر من الأمر كعادته في مثل تلك الحالة، فاستشار الناس، فقال فريق: خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك.

وقال الآخرون: إنه لبلاء وفناء، ما نرى أن تقدم عليه.

لم يستبن الأمر للخليفة، وتلجلج في صدره منه شيء ولم يدر بأي الرأيين يأخذ؟ فدعا شيوخ قريش من مهاجرة الفتح، واستشارهم في الأمر،

---

(١) عمواس بلد صغير بين القدس والرملة، ونسب إليها الداء لأنه أول ما ظهر وفشا فيها.

فأجمعا على أن يرجع بالناس وأخبروه بأنه بلاء وفناء[1].

عندئذ قرر عمر العودة إلى المدينة، فنادى عبدالله بن عباس وقال له: يا ابن عباس، اصرخ في الناس فقل: إن أمير المؤمنين يقول لكم إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه.

وأصبح الناس جميعهم متهيئين للعودة إلى المدينة، ووقف بينهم عمر وقال: أيها الناس إني راجع فارجعوا.

وكان أبو عبيدة ممن لا يرون رجوع عمر، ويرون عودته فراراً من قدر الله، ولم يخف ذلك على عمر، ولكن صارحه به فقال: أفراراً من قدر الله؟ وأجابه عمر، نعم، فراراً من قدر الله إلى قدر الله.

وبهذا الحوار الهادىء بين الرجلين يتضح للمسلمين أمر عظيم من أمور العقيدة التي يجب أن يستقر مفهومها في صدور المسلمين، إن أبا عبيدة يرى أن العودة محاولة للفرار والهروب من قدر قدره الله، وهذه ثلمة في إيمان الرجل ينبغي أن يتنزه عنها، وبخاصة إذا كان أمير المؤمنين الذي هو قدوة الناس، وعنه يأخذون أمور دينهم، وهذا فهم اعتقده أبو عبيدة باجتهاده الخاص، وإن تابعه بعض الصحابة عليه، فليس له أن يلزم الناس جميعاً به.

وأما عمر فقد نظر للموضوع من جانب آخر، إنه يرى ألا ضرورة تجبر على الدخول في أرض موبوءة، وحتى إذا وجدت الضرورة فمن حق المسلم أن يختار أخف الضررين، وهي قاعدة معمول بها بين المسلمين، وكان عمر يرى أن الدخول في الأرض الموبوءة مهلكة يجلبها الإنسان لنفسه، والمسلم منهي عن ذلك بقوله ـ تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾[2] ألم تر إلى عمرو ابن العاص في غزوة ذات السلاسل لما أصبح جنباً ولم يجد سوى الماء البارد وخاف إن استعمله الضرر على نفسه تيمم، وصلى الصبح بأصحابه، فلما كلموه في ذلك استدل بالآية الكريمة ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ وعلم الرسول ﷺ بذلك فأقره على استدلاله.

---

(١) الطبري (٤/٥٧).

(٢) النساء الآية ٢٩.

وعمر بذلك ينظر في أفق أرحب من أفق أبي عبيدة، إنه يرى قدر الله في الأرض الموبوءة والأرض الصحيحة على حد سواء، ويرى أن السلامة أفضل من الاستسلام، ويرى فوق ذلك أنه لا يستطيع إنسان الفرار من قدر الله، وإنما هو يتقلب في قدر الله، فدخوله الأرض السقيمة قدر الله، ودخوله الأرض الصحيحة قدر الله، فلماذا إذن يحبس نفسه على الوباء ويدعي أنه قدر الله؟

لهذا قال عمر: نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله[١].

ولهذا أيضاً ضرب عمر مثلاً حسياً ليوضح رأيه لأبي عبيدة فقال: أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان: إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله، ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله؟

والتفت عمر إلى أبي عبيدة وقال: لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة؟[٢]

وعاد أمير المؤمنين ومن معه إلى المدينة دون أن يحمل في نفسه شيئاً مما أثاره أبو عبيدة، بل دون أن يجد في نفسه شيئاً على أبي عبيدة، فلم يكن الخلاف في الرأي عندهم ليبلغ القلوب، بل كان لا يتجاوز الألسن، وكل فريق بعد ذلك يكن للآخر الحب والتقدير والاحترام، والفضل في ذلك يرجع إلى التربية الإسلامية التي علمتهم أن العقول تتفاوت في الفهم، وأن المجتهد ولو أخطأ فهو مأجور، وحذرتهم من الانطواء على الأحقاد، وإفساد القلوب بالضغائن.

وكان ثمرة ذلك جيل واعٍ يعرض الأمور على عقله، ولا يتزمت لمجرد الهوى، ولا يتعصب رغبة في التغلب، ولكن الغاية الوصول إلى الحق، لهذا لم يكن الخلاف في الرأي مفسداً للود ولا معكراً للصفو، ولا مقطعاً للعلاقات.

---

(١) الطبري (٤/٥٧).
(٢) الطبري (٤/٥٨).

ويؤكد هذا الفهم العميق من العقول الإسلامية الواعية حرص عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على إخراج أبي عبيدة من منطقة الوباء، يقول أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ كنت مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام عام طاعون عمواس، فلما اشتعل الوجع، وبلغ ذلك عمر كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه:

(أن سلام عليك، أما بعد، فإنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك بها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إليّ)[1].

وأدرك أبو عبيدة حرص عمر عليه، ومحاولته إخراجه من أرض الوباء، فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين، ثم كتب إليه: (يا أمير المؤمنين، إني قد عرفت حاجتك إليّ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه، فخلني من عزمتك يا أمير المؤمنين، ودعني في جندي).

فلما قرأ عمر كتاب أبي عبيدة بكى، وانزعج الناس لبكاء الخليفة، وحسبوا أن أبا عبيدة قد مات، وسألوا أمير المؤمنين عن ذلك فقال: لا، وكأن قد.

وتأكد لأمير المؤمنين أن أبا عبيدة لم يزل على رأيه، وأنه بعد لم يقتنع برأي عمر ورأي عمر من واجبه أن يبصر الناس بما ينبغي فعله في مثل تلك الظروف فكتب إلى أبي عبيدة يقول: (سلام عليك، أما بعد، فإنك أنزلت الناس أرضاً عميقة، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة)[2].

واستدعى أبو عبيدة أبا موسى الأشعري، وأطلعه على كتاب الخليفة، وطلب منه أن يرتاد للناس منزلاً، وأخذ يتجهز ليتبع أبا موسى، ولكنه طعن

---

(١) ابن كثير (٧/٧٨).

(٢) ابن كثير (٧/٧٨)، الطبري (٤/٦١) وفيه أرضاً غمقه بدل عميقه.

وهو يركب راحلته، فأخبر أصحابه بذلك، وسار بالناس حتى نزل الجابية، ورفع عن الناس الوباء، ومات هو بالجابية[1].

أليس في حرص عمر على نجاة أبي عبيدة دليل على حبه له وتقديره إياه وحجة قاطعة على أن الخلاف بين الرجلين في الرأي لم ينل من قلبيهما، ولم يحل بين توادهما، وبهذا العقل المستنير وبهذا الفقه في أمور الدين، وعلى هذه القواعد الواضحة قامت الحركة العلمية الواسعة بين علماء المسلمين، كل ينشد الحق، ويبذل جهده في الوصول إليه، فتختلف الآراء، وتصطرع الأفكار، ويظل العلم نسباً بينهم جميعاً، وطلب الحق آصرة تجمع بين قلوبهم.

على أن المحقق يجد أن اختلاف وجهات النظر بين عمر وأبي عبيدة مبني على عدم وجود الدليل فكانت المسألة بينهما محل اجتهاد ونظر، ولا بأس بأن يصر كل واحد منهما على رأيه ما دام مقتنعاً به، ولم يأت فيه نص شرعي يعارضه.

ولذلك لما قدم عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ ورأى الناس في حيرة من أمرهم سأل، ما شأن الناس؟ فأخبروه خبرهم. فقال: عندي من هذا علم.

فقال عمر: فأنت عندنا الأمين المصدق، فماذا عندك؟

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه ولا يخرجنكم إلا ذلك».

فقال عمر: فللّه الحمد، انصرفوا أيها الناس، فانصرف عنهم[2].

وهكذا يكون الاجتهاد فيما لا نص فيه، فإذا كان النص فلا اجتهاد ولا

---

(١) ابن كثير (٧/٩٤).

(٢) الطبري (٤/٥٨)، ابن الأثير (٢/٥٦٠)، ابن كثير (٧/٧٧) والحديث متفق عليه.

اختلاف، ومن هذا النص يتضح أن كلا الرجلين محق في موقفه، فما كان لأبي عبيدة أن يخرج من أرض وقع بها الوباء وهو فيها، ولم يكن لعمر أن يدخلها وقد وقع الوباء بها وهو خارج عنها فلما انكشف الوباء، وارتفع البلاء، خرج عمر متوجهاً إلى بلاد الشام، ليتفقد رعيته، ويقف بنفسه على ما هي فيه، وليورث الأحياء من الأموات بعد أن التبس الأمر على الأمراء ودخل عمر الشام فقسم الأرزاق، وسمى الشواتي والصوائف، وسد فروج الشام ومسالحها وعين الأمراء على الجهات المختلفة، وعزل من عزل منهم لا عن سخط ولا عن ضعف، ولكنه يريد رجلاً أقوى من غيره ليستقيم به الأمر.

ولما هم عمر بالرجوع إلى المدينة في ذي الحجة سنة سبع عشرة، وكان قد استخلف عليها علي بن أبي طالب، خطب الناس خطبة جامعة بين فيها كل ما يهم الناس، ويصلح شأنهم، وبين حقوق الناس وواجباتهم، ثم ودع الناس وقفل راجعاً إلى المدينة[1].

لم تكن بلاد الشام وحدها هي التي ابتليت بهذا الطاعون، بل شاركتها فيه أقطار أخرى من الدولة المترامية الأطراف، روى الطبري عن أبي حارثة وأبي عثمان والربيع قالوا: وقع الطاعون بالشام ومصر والعراق، واستقر بالشام، ومات فيه الناس الذين هم في كل الأمصار في المحرم وصفر، وارتفع عن الناس، وكتبوا بذلك إلى عمر ما خلا الشام[2].

وبقدر ما اختلف المؤرخون في السنة التي وقع فيها الطاعون اختلفوا في سببه، أما بالنسبة للسنة التي وقع فيها، فالطبري وسيف بن عمر يريان أنه كان في سنة سبع عشرة، وابن إسحاق وأبو معشر وتبعهما ابن الأثير وابن كثير يرون أنه كان في سنة ثماني عشرة.

والرأي الذي عليه الجمهور أنه كان في سنة ثماني عشرة، ويؤيد ذلك قدوم أبي عبيدة ابن الجراح بأربعة آلاف راحلة من الشام في عام الرمادة، ولو

---

(١) الطبري (٤/٦٥).
(٢) الطبري (٤/٥٨).

كان الطاعون في سنة سبع عشرة لما حدث ذلك حيث يكون أبو عبيدة قد مات في الطاعون ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ قبل عام الرمادة.

وأما سبب انتشار الوباء فذكر بعض المؤرخين أنه كان بسبب غضب أبي عبيدة على أهل الشام لما شرب بعضهم الخمر متأولاً قوله ـ تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ بأنها للتخيير لا للنهي، وعندئذ دعا عليهم فأصابهم هذا الوباء.

وأما المتأخرون من المؤرخين فيرون أن كثرة القتلى في الميادين، وعدم القدرة على إحكام دفنهم، سبب وجود الميكروبات في الجو حتى تلوث بالوباء، وانتشر بين المسلمين.

وهذا الرأي قد يكون أقرب الرأيين إلى الصواب، والله أعلم[1].

---

(١) هيكل (١/٢٧٣).

وفاة عمر

كانت وفاة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حدثاً جللا أصيب به المسلمون، وكان وقعه فيهم أليماً، فقد كان اغتياله فجيعة ألمت بهم، فقد مات ـ رحمه الله ـ والمسلمون في أمس الحاجة إليه إماماً عادلاً، وخليفة ملهماً، وقائداً شجاعاً، يقودهم من نصر إلى نصر بعقله المدبر ويحل مشكلاتهم بعبقريته الفذة، ويسوي بينهم في المغرم والمغنم.

ولكن الله ـ عز وجل ـ قد خفف عليهم هول ذلك الخطب، حيث ألهم الخليفة أن ينظم شؤون الدولة، وأن يخطط لإدارتها، وأن يولي على الأمصار رجالاً أكفاء يحملون عبئها بجدارة وإخلاص.

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ في آخر أيامه يشعر بعظم التبعة، وينوء بالحمل الثقيل الذي تحمله عن أمة محمد ﷺ، حتى إنه وهو عائد من آخر حجة حجها أناخ بالأبطح، فكوم كومة من بطحاء، وطرح عليها طرف ثوبه، ثم استلقى، ووضع رأسه عليها، ونظر إلى السماء طويلاً ثم رفع يديه قائلاً: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط[1].

لقد كان عمر بهذا الدعاء يستمطر رحمة السماء، ويلح على ربه أن يخرجه من الدنيا غير مضيع لحقوق الناس، ولا مفرط في حق الله، وكان

---

(١) ابن سعد (٣/٣٣٤).

أخوف ما يخافه عمر أن يحمله الله وزر تلك الرعية التي استرعاه إياها، حتى كان أقصى ما يتمناه أن يخرج من الدنيا كفافاً لا له ولا عليه[1].

وكأنه ـ رضي الله عنه ـ كان قد أحس بدنوِّ أجله، حيث رأى في منامه أن ديكاً أحمر نقره نقرتين، فقصها على أسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ فأولتها له بأنه سيقتله رجل من الأعاجم[2].

ولعله لذلك كان يلح على الله أن يرزقه الشهادة في سبيله، والوفاة ببلد نبيه ـ يعني المدينة ـ حتى كان يقول: اللهم إني أسألك شهادة في سبيك، وموتاً في بلد رسولك[3].

ولم يكن اغتياله إلا مؤامرة دبرها موالي الفرس حينما شعروا بأن عمر قد دمر بلادهم وأسر ذراريهم وسبى نساءهم، وكانوا كلما رأوا الأطفال من بني جنسهم يمشون في شوارع المدينة ينظرون إليهم تملؤهم الحسرة عليهم، وكان أبو لؤلؤة فيروز المجوسي مولى المغيرة بن شعبة من أكثر الموالي حقداً على عمر، حتى أنه كان إذا مر به الأطفال من أبناء بلده (نهاوند) يمسح رؤوسهم بيده ويبكي ويقول: إن العرب أكلت كبدي[4].

إن هذه الكلمة وحدها لو صحت لتكشفت عن سر خطير وراء مقتل أمير المؤمنين، إنها مع بساطتها تخفي وراءها دوافع القتل الذي أقدم عليه أبو لؤلؤة، ولو لم يكن في نفس العبد إلا ما أثاره الأسرى من الأشجان لكان كافياً لارتكاب تلك الجريمة النكراء، فإذا أضفنا إلى ذلك استعداء فيروز عمر على سيده المغيرة، ورد عمر عليه بما لا يرضيه لتأكد لدينا أن الجريمة قد دبرت بليل، وأن العبد لم يكن وحده وراء جريمته.

ويؤيد ما ذكرنا من الاغتيال كونه ثمرة مرة لمؤامرة لئيمة ما رُوِيَ من أن

---

(١) نفسه (٣/٢٨٨).
(٢) نفسه (٣/٣٣٥).
(٣) ابن كثير (٧/١٣٧).
(٤) ابن سعد ٣/٣٤٧.

عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ لما رأى الخنجر الذي قتل به عمر قال: رأيت هذا أمس مع الهرمزان وجفينة، فقلت ما تصنعان بهذه السكين؟ فقالا: نقطع بها اللحم، فإنا لا نمس اللحم[1].

ويقول عبد الرحمن بن أبي بكر: مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى، فلما بغتهم ثاروا، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصاب في وسطه، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر، فوجدوه الخنجر الذي نعته عبد الرحمن[2].

تأكد الأمر لدى المسلمين، ولم يعد هناك ما يريبهم في أنها مؤامرة دبرت بين هؤلاء الثلاثة: الهرمزان وجفينة وأبو لؤلؤة.

إن هذا الثالوث الذي تشير إليه أصابع الاتهام لا يخلو ذكره من علامات استفهام ترتسم أمام عيني الباحث المحقق، وتستوقفه ملحة عليه في طلب الإجابة عن هذا الاستفهام.

ذلك لأن شهادة عدلين من كبار الصحابة لا يمكن للإنسان أن يصرف النظر عنها دون أن يكون هناك أدلة قاطعة مبرئة للمتهمين، والحق أن لكل منهم قصة تدينه وتضعه بغير تردد في قفص الاتهام حتى تثبت براءته.

فأما الهرمزان فهو رجل شديد التعصب ضد العرب، وقد عاهده المسلمون مرات، وفي كل مرة كان ينقض العهد عندما تسنح له سانحة، ولم يدخل في الإسلام إلا حينما رأى السيف فوق هامته.

جيء به بعد استسلامه إلى المدينة ليقابل أمير المؤمنين حسب طلبه، فرأى عمر نائماً في المسجد فسأل أين حجابه؟ وأين حراسه؟.

فقالوا: ليس له حجاب ولا حرس، فقال: ينبغي أن يكون نبياً.

فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء.

---

(١) نفسه ٣٥٠.

(٢) نفسه ٣٥٥.

واستيقظ الخليفة فرأى الهرمزان فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم.

فنظر عمر إليه، وتأمل ما يلبسه من الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللآلى ثم قال: أعوذ بالله من النار وأستعين به، الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، والتفت إلى الهرمزان وقال: يا هرمزان، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟

وسأله الخليفة، ما عذرك وما حجتك في إنقاضك مرة بعد مرة؟

وأجاب الهرمزان، وأخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك.

فقال عمر: قل ولا تخف ذلك، ولكن الهرمزان لم يقل شيئاً.

واعتبر الهرمزان قول عمر تأميناً له من القتل، وغضب عمر لذلك، واعتبرها خديعة خدعه بها الهرمزان، وقال: خدعتني، والله لا أنخدِع إلا أن تسلم.

وعندئذ أسلم الهرمزان[١].

لا شك أن الإسلام الذي أعلنه الهرمزان كان فقط لحقن دمه حتى يقول الطبري: فأيقن ـ الهرمزان ـ أنه القتل أو الإسلام، فأسلم[٢].

وذلك لا يمكن أن يكون هو الإسلام الذي يمنع صاحبه من ارتكاب تلك الجريمة، بل يدل تمرده المتكرر، ونقضه العهد مرة بعد مرة على ما ينطوي عليه قلبه من الخبث والشر للمسلمين.

وأما جفينة فكان رجلاً نصرانياً، وكان صديقاً لسعد بن أبي وقاص، أقدمه المدينة لِما كان يستملحه من حديثه، وكان جفينة يعلم الكتاب بالمدينة[٣].

---

(١) ابن كثير ي(٧/٨٧، ٨٨)، الطبري (٤/٨٦ ـ ٨٨) بتصرف.
(٢) الطبري (٤/٨٨).
(٣) ابن سعد (٣/٣٥٦).

ورجل يعيش في المدينة بين المسلمين، ويخالط كبار الصحابة ثم يظل متمسكاً بدينه الباطل، ولا يرى الحق الذي ظهر لكل ذي عينين لا يستبعد أن يشترك في هذه المؤامرة بل يستطيع الإنسان أن يقطع بذلك فهو عدو للإسلام ويغيظه كل تفوق للمسلمين.

وأما أبو لؤلؤة، فهو هو الذي كان يبكي حنيناً لأسرى نهاوند، وهو الذي هدد عمر حينما قال له: لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس[1].

فالهرمزان إذن رجل موتور في دينه وملكه، وجفينة رجل على غير دين الإسلام يخفى في نفسه من الحقد ما يدفعه للاشتراك في المؤامرة، وأبو لؤلؤة أسير ذليل يرى أن المسلمين سلبوه حريته وإنسانيته.

وثالوث في مثل هذا الوضع لا يستطيع أحد أن يقول ببراءته من تلك المؤامرة الدنيئة التي لا يقصد بها عمر في ذاته، ولكنه يقصد كخليفة للمسلمين، رفع راية الإسلام، وأذل أعداء الدين.

والباحث المحقق لا يستطيع أن يقنع نفسه بقول ابن كثير: وقد حسن إسلام الهرمزان وكان لا يفارق عمر حتى قتل عمر، فاتهمه بعض الناس بممالأة أبي لؤلؤة هو وجفينة[2].

وابن كثير في هذا الكلام ينفي التهمة عن الهرمزان وإن كان لم يتعرض لجفينة، ويستدل على حسن إسلام الهرمزان بأنه كان ملازماً لعمر - رضي الله عنه - وهذا لا يصلح دليلاً يبرىء ساحة الهرمزان لاحتمال أنه كان يلازم الخليفة ليعرف مخرجه ومدخله، ويدرس الوقت المناسب لتنفيذ المؤامرة وعلى ضوء تلك المعلومات يخطط للتخلص من الخليفة الذي أزال ملكه وأذل نفسه، وإلا فماذا يقول ابن كثير في شهادة العدلين - عبدالرحمن ابن عوف وعبد الرحمن بن أبي بكر؟.

وعلى أي حال فإن المؤامرة قد نفذت بدقة، وكان أمر الله قدراً

---

(١) نفسه ٣٤٥

(٢) ابن كثير (٧/٨٨).

مقدوراً. واتخذ أبو لؤلؤة ظلام الليل ستاراً أخفى وراءه الجريمة البشعة، وذلك شأن الجبناء في كل زمان ومكان، واستغل اشتغال الخليفة بالإقبال على الله في صلاة الصبح، ولم يكن عمر لينتبه إلى ما يدبر له وهو في هذا الموقف، فقد كان إقباله على الله حينما يقصد الصلاة يشغله عن كل ما حوله، حتى كان يوكل رجالاً بتسوية الصفوف[1] ليأتي الصلاة وقد تأهب المسلمون فلا تشغله تسويتهم عن الإقبال على الله ـ عز وجل.

وعمر ـ رضي الله عنه ـ وإن كان قد أدرك تهديد أبي لؤلؤة في حينه حيث قال لمن كانوا معه: لقد توعدني العبد آنفاً[2]. ويروي صاحب الطبقات أن عمر ـ رضي الله عنه ـ لما قال له أبو لؤلؤة: بلى أجعل لك رحى يتحدث بها أهل الأمصار، فزع عمر من كلمته وكان عليّ معه فقال له: ما تراه أراد؟ قال علي: أوعدك يا أمير المؤمنين، قال عمر: يكفيناه الله[3].

لا شك أن المعنى الذي أراده العبد لم يخف على عمر، ولكنه أراد أن يشهد علياً على ما أضمره الخبيث في نفسه، ومع ذلك لم يتخذ لنفسه حراساً ولا حجاباً، ولو أنه اتخذ ذلك لما كان ملاماً، ولكن عمر كان يخشى أن يعمل بها الخلفاء من بعده، فيحول الحجاب بين الخليفة وبين المسلمين فتضيع الحقوق ولا يجد المظلوم من ينصره.

ولا أعتقد أن كثرة الخراج أو زيادته على أبي لؤلؤة هو السبب في اعتدائه على الخليفة واغتياله ولكن الدوافع الخفية التي ذكرتها آنفاً اتخذت زيادة الخراج على العبد الصناع ستاراً لتنفذ من ورائه الجريمة البشعة، وإلا لكان أولى بالقتل المغيرة بن شعبة الذي زاد عليه الخراج والذي كان يستفيد وحده من زيادة الخراج.

على أن الخراج المضروب على أبي لؤلؤة في أكبر صورة وهو أربعة

---

(١) الطبري (١٩١/٤).
(٢) نفسه.
(٣) ابن سعد (٣٤٧/٣).

دراهم في اليوم لم يكن كثيراً، فقد كان العبد صناعاً ماهراً يحذق حرفاً شتى فقد كان نجاراً حداداً نقاشاً[1].

ولقد كان الخليفة محقاً حين رفض تخفيف الضريبة عنه لأنه لم ير فيها زيادة لا تطاق بل رأى أنه قادر على الوفاء بها من غير مشقة تلحقه، ولو أن عمر رأى فيما فرض على العبد زيادة لا تطاق لخففها عنه، كما كان يفعل مع كل مظلوم، ولو أن العبد انتحل سبباً غير ذلك لكان معقولاً، أما أن يقدح في عدل عمر فذلك ما لم يصدق أحد على الإطلاق.

ومهما كان السبب فإن عبد السوء قد أضمر في نفسه اغتيال الخليفة، واستغل الهرمزان وجفينة حماسه وتألمه لما حل بقومه فأذكيا فيه ما أضمره لنفسه، ولم تمض ليال حتى أحضرا له الخنجر، واندس بين المصلين في غلس الفجر، يحمل في يده خنجراً له رأسان، نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهي التي قتلته[2].

وراح الخبيث يطعن كل من اعترضه حتى طعن أحد عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً مات منهم من مات، وبقي من بقي مطعوناً يتلوى من آلامه، واجتمع على أبي لؤلؤة الغادر رهط من قريش: عبدالله بن عوف الزهري، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ورجل من بني سهم، وطرح عبدالله بن عوف على المجرم خميصة - ثوباً أسود - فتعثر فيه ووقع على الأرض، فلما رأى نفسه مقبوضاً لا محالة، طعن نفسه بالخنجر حتى مات، واحتز عبدالله ابن عوف رأسه[3].

وسقط الخليفة على الأرض بين آيدي المسلمين، والمسلمون في هرج ومرج، وصاح الخليفة، أفي القوم عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، هو ذا[4]، قال: قولوا لعبد الرحمن بن عوف فليصل بالناس.

---

(١) نفسه ٣٤٥، الطبري (١٩١/٤).
(٢) الطبري (١٩١/٤).
(٣) ابن سعد (٣٤٧/٣، ٣٤٨).
(٤) الطبري (١٩١/٤).

واحتمل عبدالله بن عباس ومعه جماعة من المسلمين عمر حتى أدخلوه بيته، وصلى عبد الرحمن بن عوف بالناس صلاة الصبح، وعمر لا يزال في غشية. فلما أفاق وقد أسفر الصبح نظر فيمن حوله، وقال: أصلى الناس؟.

قال ابن عباس: فقلت: نعم فقال: لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم دعا بوضوء فتوضأ ثم صلى، ثم قال: أخرج يا عبدالله بن عباس فسل من قتلني.

وخرج ابن عباس فسأل الناس، من طعن أمير المؤمنين؟ فقالوا: طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة.

ودخل ابن عباس على عمر فأخبره الخبر فقال: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط، ما كانت العرب لتقتلني[١].

واستدعى الطبيب بناء على طلب عمر حين قال: أرسلوا إليّ طبيباً ينظر إلى جرحي هذا[٢].

وحضر طبيب وطبيب وطبيب، وقرروا أن الخليفة لن يبرأ من طعنته، وقال له طبيب بني معاوية: أعهد يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: صدقتني أخو بني معاوية، ولو قلت غير ذلك لكذبتك.

وبكى الحاضرون لما سمعوا تقرير الطبيب، ونهى عمر عن البكاء حوله، وقال: من كان باكياً فليخرج، ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ: يعذب الميت ببكاء أهله عليه.

وبلغ ذلك عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: يرحم الله عمر وابن عمر، فوالله ما كذبا ولكن عمر وهل، إنما مر رسول الله ﷺ على نوح يبكين على هالك لهم فقال: إن هؤلاء يبكون، وإن صاحبهم ليعذب، وكان قد اجترم ذلك[٢].

---

(١) ابن سعد (٣/٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) نفسه (٣/٣٤٦).

لما سقى الطبيب عمر اللبن خرج من جرحه أبيض كما شربه، فلما رأى عمر بياضه أحس بدنو أجله، واقترابه من آخر لحظات حياته، وتذكر هول الموقف وسؤال ربه له عما استرعاه فبكى حتى أبكى من حوله من الصحابة، وقال: هذا حين، لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لأفتديت به من هول المطلع.

قال الصحابة: وما أبكاك إلا هذا؟ قال: ما أبكاني غيره.

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، والله إن كان إسلامك لنصراً، وإن كانت إمامتك لفتحاً، والله لقد ملأت إمارتك الأرض عَدلاً، ما من اثنين يختصمان إليك إلا انتهيا إلى قولك. قال: فقال عمر: اجلسوني.

فلما جلس قال لابن عباس: أعد على كلامك. فلما أعاد عليه قال: أتشهد لي بذلك عند الله يوم تلقاه؟

فقال ابن عباس: نعم.

ففرح عمر بذلك وأعجبه[1].

وعمر ـ رضي الله عنه ـ إنما سر بشهادة ابن عباس لأنه يعلم أن المؤمنين إذا شهدوا للمسلم بالخير كان من أهله، لذا كانت شهادة ابن عباس على ملأ من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مبعث فرح وسرور لعمر.

وأخذ عمر يفيق من غشيته، وقد اجتمع الناس على بابه البدريون المهاجرون والأنصار فقال لابن عباس: أخرج إليهم فسلهم، عن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني؟

فخرج ابن عباس فسألهم، فقال القوم: لا والله، ولوددنا أن الله زاد في عمرك من أعمارنا[2]. وأطمأنت نفس عمر، ووضع رأسه على الأرض يستقبل الموت بثقة كبيرة في عفو الله ورحمته ودخل عثمان بن عفان، فرفع

---

(١) ابن سعد (٣/٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) نفسه ٣٤٨.

رأس الخليفة ووضعها في حجره، فقال له عمر: أعد رأسي في التراب، ويل لي، وويل لأمي إن لم يغفر الله لي[1].

وروى ابن الأثير أنه قال لابنه عبدالله: خذ رأسي عن الوسادة فضعه في التراب لعل الله ينظر إليّ فيرحمني[2].

والتفت عمر إلى ابنه عبدالله وقال له: اقصدوا في كفني، واقصدوا في حفرتي، ولا تخرجن معي امرأة ولا تزكوني بما ليس فيّ فإن الله هو أعلم بي، وإذا خرجتم بي فأسرعوا في المشي فأنه إن يكن لي عند الله خير قدمتموني إلى ما هو خير لي، وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه[3].

وألح الحاضرون على الخليفة أن يستخلف، وأجابهم بقوله: أي ذلك ما أفعل فقد فعله من هو خير مني، أن أترك للناس أمرهم فقد تركه نبي الله ﷺ وأن استخلف قد استخلف من هو خير مني أبو بكر.

ولم يستخلف ـ رضي الله عنه ـ لأنه قد رأى من أصحابه جرصاً عليها، وتمنى لو كان أبو عبيدة ابن الجراح حياً لاستخلفه، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفه، وقال لعبد الرحمن بن عوف: إني أريد أن أعهد إليك.

وقال عبد الرحمن: أتشير عليّ بذلك؟ قال عمر: اللهم لا.
قال عبد الرحمن: والله لا أدخل فيه أبداً.

قال عمر: فهبني صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، ثم دعا علياً وعثمان والزبير وسعداً فقال: انتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم[4].

---

(١) نفسه ٣٦١.
(٢) ابن الأثير (٣/٥٢).
(٣) ابن سعد ٣/٣٥٩.
(٤) ابن الأثير (٣/٥٠).

وتذكر عمر ما عليه من الديون لبيت مال المسلمين، وكان قد استسلف منه ثمانين ألفاً، فدعا ابنه عبدالله وقال له: بع فيها أموال عمر فإن وفت وإلا فسل فيها بني عدي فإن وفت وإلا فسل قريشاً ولا تعدهم.

قال عبد الرحمن بن عوف: ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤديها؟

فقال عمر: معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدي أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر فتعزوني بذلك، فتتبعني تبعته، وأقع في أمر لا ينجيني إلا المخرج منه.

والتفت إلى ابنه وقال: اضمنها، فضمنها، ولم يدفن عمر حتى أشهد بها ابن عمر على نفسه أهل الشورى وعدة من الأنصار، وما مضت جمعة بعد دفن عمر حتى حمل ابن عمر المال إلى عثمان بن عفان، وأحضر الشهود على البراءة بدفع المال[1].

ودعا عمر ولده عبدالله فقال له: يا بني إني قد أرسلت إلى عائشة استأذنها أن أدفن مع أخوي فأذنت لي، وإني أخشى أن يكون ذلك لمكان السلطان، فإذا أنا مت فاغسلني وكفني ثم احملني حتى تقف بي على باب عائشة فتقول: هذا عمر يستأذن، فإن أذنت لي فادفني معهما، وإلا فادفني بالبقيع[2].

وأرى هنا أن أشير إلى حادثة ذكرها بعض المؤرخين، وأوثقوها بوفاة عمر بأحكم رباط، لهذا لا يجوز لباحث أن يهملها مهما توفرت لديه أسباب الإهمال، وتلك هي قصة كعب الأحبار في مقتل عمر بن الخطاب.

روى الطبري أن كعب الأحبار دخل على عمر بعد أن توعده أبو لؤلؤة فيروز المجوسي فقال له: يا أمير المؤمنين اعهد، فإنك ميت في ثلاثة أيام.

قال عمر: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله ـ عز وجل ـ التوراة.

---

(١) ابن سعد (٣/٣٥٨).

(٢) ابن سعد (٣/٣٦٣).

قال عمر: الله، إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا، ولكني أجد صفتك وحليتك، وأنه قد فنى أجلك.

قال: وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً ـ فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان، ثم جاءه من غد الغد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك إلى صبيحتها.

قال: فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة، وكان يوكل بالصفوف رجالاً، فإذا استوت جاء فكبر.

قال: ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته، وهي التي قتلته[١].

ويتابع ابن الأثير الطبري في ذلك حتى لكأنه ينقلها عنه نصاً، والمؤرخون المحدثون يقفون من تلك القصة موقفين متباينين: ينكرها بعضهم ويتزعم هؤلاء سير وليم مور، ويثبتها بعضهم ليتهم كعب الأحبار ويدخله مع مدبري جريمة الاغتيال، ويتزعمهم الدكتور محمد حسين هيكل.

أما سير وليم مور فيقول: (يتعذر علينا أن نعرف كيف نشأت هذه القصة العجيبة، وربما أنذر كعب عمر حين رأى ما بدا على أبي لؤلؤة من مظهر التحدي والوعيد).

ومن هذا النص نفهم أن مور لا يدري كيف نشأت القصة، واستدرك فاستنبط أنها لو صحت فقد تكون نتيجة لما رأى كعب الأحبار من تحدي فيروز وتوعده.

وأما الدكتور هيكل فيقول: (والذي نستطيع نحن أن نستخلصه من حديث أبي لؤلؤة مع عمر ومن قصة كعب، أن الفارسي توعد أمير المؤمنين، وأن اليهودي عين الموعد الذي تم فيه القتل قبل حدوثه بثلاثة أيام... ثم يقول: ونذير كعب، وطعنات أبي لؤلؤة تدل على أن في الأمر سراً لم يظهر

---

(١) الطبري (٤/١٩١).

ساعة ارتكاب الجريمة، لكنه ظهر من بعد)[1].

وكلام الدكتور هيكل واضح لا يحتاج إلى بيان فهو يتهم كعب الأحبار بأن له ضلعاً في المؤامرة وأنه كان واقفاً على أسرارها متأكداً من موعد تنفيذها.

وأحب قبل أن أبدأ في مناقشة الموضوع أن أعرِّف بكعب الأحبار، هو كعب بن مانع الحميري، كنيته أبو إسحاق، واشتهر بكعب الأحبار، أدرك النبي ﷺ وهو رجل، وأسلم في خلافة عمر، سنة اثنتي عشرة.

أخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب قال: قال العباس لكعب: ما منعك أن تسلم في عهد النبي ﷺ وأبي بكر حتى أسلمت في خلافة عمر؟.

قال: إن أبي كان كتب لي كتاباً من التوراة فقال: اعمل بهذا، وختم على سائر كتبه، وأخذ عليّ بحق الوالد على الولد ألا أفض الختم عنها، فلما رأيت ظهور الإسلام قلت: لعل أبي غيب عني علماً، ففتحتها فإذا صفة محمد وأمته، فجئت الآن مسلماً.

وكان كعب يقص في مسجد رسول الله ﷺ على مرأى من الصحابة وعلم منهم، فلما بلغه حديث الرسول: «لا يقص إلا أمير أو مأمور أو محتال» ترك القصص.

وهذه القصة التي رواها ابن حجر في الإصابة تدل على ورع كعب الأحبار والتزامه بالأفضل مما يجب أن يكون عليه المسلم عندما يجد نصاً في موضوع ما.

ووضعه ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام، قال فيه أبو الدرداء: إن عند ابن الحميرية لعلما كثيراً، وأما معاوية فكان يقول فيه: ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء، إن كان عنده لعلم كالبحار، وإن كنا فيه لمفرطين، وقال حميد بن عبد الرحمن ابن عوف: سمعت معاوية يحدث

---

(١) هيكل (٢/ ٢٨٠).

رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعباً فقال: إنّه كان لمن أصدق هؤلاء المحدثين عن أهل الكتاب.

روى عن النبي ﷺ مرسلاً، وروى عن عمر وصهيب وعائشة، وروى عنه الصائغ ومالك بن عامر وسعيد بن المسيب.

وهو من أهل اليمن، ولما أسلم قدم المدينة، ثم خرج منها إلى الشام فسكن حمص ومات بها سنة أربع وثلاثين من الهجرة لسنة بقيت من خلافة عثمان ـ رضي الله عنه[1].

هذا هو كعب الأحبار، وهو على هذا موثق عند المحدثين غير متهم، فما حقيقة تلك القصة؟

إن أول ما يواجه الباحث هنا هو موقف عبيد الله بن عمر الذي لم يكد يسمع بما حدث لأبيه حتى يحمل سيفه، ويهيج كالسبع الحرب، ويقتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة. أفترى عبيد الله هذا يترك كعب الأحبار والشبهة تحوم حوله، ويقتل ابنة أبي لؤلؤة الصغيرة الغريرة؟ إن أحداً يبحث الموضوع بحثاً علمياً لا يمكن أن يقبل ذلك.

ويضاف إلى ذلك أن جمهور المؤرخين لم يذكروا القصة، بل لم يشيروا إليها، فابن سعد في الطبقات وقد فصل الحادث تفصيلاً دقيقاً لم يشر قط إلى الحادثة، بل كل ما ذكر عن كعب الأحبار أنه كان واقفاً بباب عمر يبكي ويقول: والله لو أن أمير المؤمنين يقسم على الله أن يؤخره لأخره[2]. وأنه دخل على عمر بعد أن أخبره الطبيب بدنوا أجله فقال: (ألم أقل لك إنك لا تموت إلا شهيداً، وأنت تقول: من أين وأنا في جزيرة العرب؟).[3]

ويأتي بعد ابن سعد ابن عبد البر في الاستيعاب فلا يذكر شيئاً قط عن قصة كعب الأحبار، ويعزو قصة الشهادة إلى رؤيا رآها عوف بن مالك

(١) هذه الترجمة لكعب الأحبار ملخصة من الإصابة والطبقات الكبرى.
(٢) ابن سعد (٣/٣٦١).
(٣) نفسه ٣٤٠.

الأشجعي، وقصها على أبي بكر في خلافته، ثم قصها على عمر في خلافته على مشهد من الأصحاب، وأن عمر قال له: من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب، وأنتم تغزون وأنا لا أغزو ثم قال: بلى يأتي الله بها إن شاء[1].

وأما ابن كثير فيقول: إن وعيد أبي لؤلؤة كان عشية يوم الثلاثاء، وأنه طعنه صبيحة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة[2].

لم يكن إذن بين التهديد والتنفيذ سوى ساعات معدودات، فكيف ذهب كعب الأحبار إلى عمر وقال له ما قال: (اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام، ثم يقول: مضى يوم وبقي يومان، ثم مضى يومان وبقي يوم وليلة) من أين لكعب هذه الأيام الثلاثة إذا كان التهديد في الليل والتنفيذ صبيحة اليوم التالي؟.

ويتوالى المؤرخون، فيأتي السيوطي في تاريخ الخلفاء، والعصامي في سمط النجوم العوالي، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، وابنه عبدالله في كتابيهما مختصر سيرة الرسول، وحسن إبراهيم حسن في تاريخ الإسلام السياسي وغيرهم فلا نجد واحداً منهم يذكر القصة من قريب أو من بعيد.

أليس هذا دليلاً على أن القصة لم تثبت بصورة تجعل المحقق يطمئن إلى ذكرها هذا إذا لم تكن منتحلة مصنوعة كادبها بعض الناس لكعب لينفروا منه المسلمين، وهذا ما تطمئن إليه النفس ويميل إليه القلب، وبخاصة بعد ما عرفنا أن كعباً كان حسن الإسلام، وكان محل ثقة كثير من الصحابة حتى رووا عنه حديث رسول الله ﷺ.

وظل عمر ـ رضي الله عنه ـ يعاني من الطعنة ثلاثة أيام أو أربعة، فقد طعن يوم الأربعاء لثلاث ليال أو لأربع بقين من ذي الحجة، ومات يوم الأحد صبيحة هلال المحرم وكان ذلك على رأس اثنتين وعشرين سنة وتسعة أشهر

---

(١) الاستيعاب حاشية الإصابة (٢/٤٧٢).

(٢) ابن كثير (٧/١٣٧).

وثلاثة عشر يوماً من الهجرة النبوية الشريفة، فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال أو خمساً.

وصلى عليه صهيب بعد ما تنافس على ذلك عثمان وعلي - رضي الله عنهما - ولكنهما تراجعا حين ذكرهما عبد الرحمن بن عوف بوصية عمر، ودفن في حجرة عائشة مع صاحبيه رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان عمره ثلاثاً وستين سنة على الأرجح[1].

وطويت بوفاة الخليفة الراشد العادل صفحة من أنصع صفحات التاريخ وأنقاها فقد عرف التاريخ فيه رجلاً فذاً من طراز فريد، لم يكن همه جمع المال، ولم تستهوه زخرفة السلطان، ولم تمل به عن جادة الحق سطوة الحكم، ولم يحمل أقاربه ولا أبناءه على رقاب الناس، بل كان كل همه انتصار الإسلام، وأعظم أمانيه سيادة الشريعة وأقصى غايته تحقيق العدالة بين أفراد رعيته، وقد حقق ذلك كله - بعون الله - عز وجل - في تلك الفترة الوجيزة التي لا تعد في عمر الدول شيئاً مذكوراً رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه وأرضاه.

---

(١) ابن سعد (٣/٣٦٤، ٣٦٥)، الطبري (٤/١٩٤).



الخليفة الثالث

عُثمانُ بن عَفّان

الخليفة الثالث

عثمان بن عفان

نسبه ونشأته:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد الشمس بن عبد مناف فهو قرشي أموي، ولد في السنة السادسة من عام الفيل أي بعد النبي ﷺ بست سنين. وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.

كان تاجراً كثير المال مما جعله يعيش عيش المترفين الموسرين، وكان يلبس أفخر الثياب وأجملها، روى ابن سعد عن سليم أبي عامر قال: رأيت على عثمان بن عفان برداً يمانياً ثمن مائة درهم، وعن محمد بن ربيعة ابن الحارث قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يوسعون على نسائهم في اللباس الذي يصان ويتجمل به، ثم يقول: رأيت على عثمان مطرف خز ثمن مائتي درهم، فقال: هذا لنائلة كسوتها إياه فأنا ألبسه أسرها به، وكان ـ رضي الله عنه ـ يشد أسنانه بالذهب[1] مما يدل على خفض العيش الذي كان ينعم به وكثرة الثراء الذي لزمه طول حياته.

إسلامه:

كان عثمان قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصدِّيق إلى الإسلام ولم يعرف عنه تلكؤ أو تلعثم بل كان سباقاً أجاب على

---

(١) ابن سعد (٥٨/٣) ونائلة زوجَهُ التي دافعت عنه يوم الدار.

الفور دعوة الصدِّيق فكان بذلك من السابقين الأولين حتى قال ابن إسحاق: كان أول الناس إسلاماً بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة[1].

فكان بذلك رابع من أسلم من الرجال، ولعل سبقه هذا إلى الإسلام كان نتيجة لما حدث له عند عودته من الشام، وقد قصه ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ﷺ حين دخل عليه هو وطلحة بن عبيد الله، فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن، وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله فآمنا وصدقا.

فقال عثمان: يا رسول الله، قدمت حديثاً من الشام، فلما كنا بين معان والزرقاء فنحن كالنيام إذا منادٍ ينادينا، أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة، فقدمنا فسمعنا بك[2].

لا شك أن هذه الحادثة تترك في نفس صاحبها أثراً إيجابياً لا يستطيع أن يتخلى عنه .عندما يرى الحقيقة ماثلة بين عينيه، فمن ذا الذي يسمع بخروج النبي قبل أن يصل إلى البلد الذي يعيش فيه حتى إذا نزله ووجد الأحداث والحقائق تنطق كلها بصدق ما سمع به ثم يتردد في إجابة الدعوة؟

لا يستطيع الإنسان مهما كان مكابراً إلا أن يذعن للحق، ومهما أظهر الجفاء فإن ضميره لا يزال يتلجلج في صدره حتى يؤمن به أو يموت فيتخلص من وخز الضمير وتأنيبه.

ولم تكن سرعة تلبيته عن طيش أو حمق، ولكنها كانت عن يقين راسخ، وتصديق لا يتطرق إليه شك، فلم يكد عمه الحكم بن أبي العاص يسمع بإسلامه حتى استدعاه وأوثقه رباطاً.

وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين.

---

(١) السيوطي ص ١٥٠.

(٢) ابن سعد (٣/٥٥).

فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه[1].

صفته:

وكان ـ رضي الله عنه ـ ربعة: ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه أبيض، مشرباً بحمرة[2] بوجهه نكتات جدري، كثير اللحية، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، خدل الساقين، طويل الذراعين، شعره قد كسا ذراعيه، جعد الرأس، أصلع، أحسن الناس ثغراً، جمته أسقل من أذنيه، يخضب بالصفرة، وكان قد شد أسنانه بالذهب[3].

وكان حسن وجهه يستوقف كل من يراه حتى قال فيه عبدالله بن حزم المازني: رأيت عثمان بن عفان فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أحسن وجهاً منه.

ويقول أسامة بن زيد: بعثني رسول الله ﷺ إلى منزل عثمان بصفحة فيها لحم، فدخلت فإذا رقية ـ رضي الله عنها ـ جالسة، فجعلت مرة أنظر إلى وجه رقية، ومرة أنظر إلى وجه عثمان.

فلما رجعت سألني رسول الله ﷺ قال لي: دخلت عليهما؟ قلت: نعم. قال: فهل رأيت زوجاً أحسن منهما؟ قلت: لا، يا رسول الله.

تلك هي صفاته الخلقية، فماذا عن صفاته الخلقية؟

كان عثمان رجلاً شديد الحياء، وكان لشدة حيائه يهاب الكلام، ولم تكن هيبته للكلام عن عجز ولاعي، فقد كان ـ رضي الله عنه ـ أحسن الناس حديثاً وأتمهم منطقاً حتى قال فيه عبد الرحمن بن حاطب: ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدث أتم حديثاً ولا أحسن من عثمان ابن عفان، إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث[4].

---

(١) نفسه.

(٢) السيوطي ص ١٥٠ وفي الطبري وابن الأثير أنه كان أسمر اللون.

(٣) السيوطي ص ٥٠

(٤) ابن سعد (٣/٥٧).

وكان إذا عزم على أمر أصر عليه فلا يستطيع أحد صرفه عنه مما يدل على أنه كان يتمتع بعزيمة صادقة وثبات نادر في الرجال، ولا أدل على ذلك من ثباته أمام مثيري الفتنة، وقد راودوه على أن يعزل نفسه فأبى، وقال: لا أنزع سربالاً سربلنيه الله، ولكن أنزع عما تكرهون[1].

لقد وقف عثمان هذا الموقف وهو يرى الموت في سيوف المحاصرين لداره، وأصر على موقفه رغم تهديدهم له وهو يعلم أنه القتل لا محالة، وفي هذا الموقف الرائع رد على هؤلاء الذين يزعمون أن سبب إصراره على رأيه ما كان يتمتع به من مال وفير وعشيرة لا تطاول، إذ لو كان المال هو الدافع له على اعتزازه برأيه وعدم تنازله عنه، فماذا يغني المال في مثل هذا الموقف وهو يعلم أن المال ذاهب عنه إلى غيره بالموت؟ ولو كانت العشيرة فأين هي وهو محصور في بيته لا يكاد يريم؟

لهذا أستطيع أن أجزم بأن عزيمة عثمان وثباته على الحق الذي كان يؤمن به إنما هي ثمرة إيمان قوي وقر في قلبه، جعله يستهين بكل شيء في هذه الحياة حتى بالحياة نفسها.

وإننا لنرى أن حياء عثمان مع أنه كان يحول بينه وبين الكلام في كثير من المواقف حتى قال فيه رسول الله ﷺ أصدق أمتي حياء عثمان[2] وقال ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة[3].

إن حياء عثمان لم يمنعه من الكلام مع هول الموقف وضيق الحصار، وفزع التهديد، بل نراه وقد انطلق لسانه يرد عليهم افتراءاتهم، ويدحض بحجته كذبهم مما يؤيد أن حياءه كان لا يتجاوز موضعه ولم يكن له ليقضي على شجاعته.

ومن هذا نستخلص أنه ـ رضي الله عنه ـ كان شجاعاً لا يهاب الموت،

---

(١) ابن سعد (٣/٦٦).
(٢) ابن سعد (٣/٦٠).
(٣) متفق عليه.

جريئاً يواجه الباطل في تحدٍ سافر، حليماً لا يجهله حمق الحمقى.

فضائله:

هو من السابقين الأولين فقد أسلم قبل أن يتخذ رسول الله بيت الأرقم مقراً للدعوة.

وهو أول المهاجرين مع أهله إلى الحبشة الهجرتين، ثم إلى المدينة، فقال فيه النبي ﷺ صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط[1] وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ، وأحد الذين حفظوا القرآن عن ظهر قلب، وروى أنه كان يقوم به الليل.

سئل عنه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه فقال: ذلك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين كان ختن رسول الله على ابنتيه[2].

زوجه رسول الله ﷺ ابنته رقية وهي التي هاجر بها إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وكانت معه حتى تجهز المسلمون للخروج للقافلة يوم بدر فمرضت فخلفه رسول الله عليها بمرضها، فماتت يوم جاء زيد بن حارثة يبشر المسلمين بالفتح والانتصار على قريش، فضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسهمه وأجره في بدر فكان كمن شهدها[3]. ثم زوجه رسول الله ابنته الثانية أم كلثوم، فماتت عنده، ولذا سمى عثمان ذا النورين، لأنه لم يتزوج أحد ابنتي نبي قبله ولا بعده، وقال رسول الله بعد وفاة أم كلثوم: لو كان عندي ثالثة زوجتها عثمان[4].

واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة في غزوة ذات الرقاع، وغزوة

---

(١) السيوطي ص ١٥١.
(٢) السيوطي ص ١٢٩.
(٣) ابن سعد (٥٦/٣).
(٤) ابن سعد (٥٦/٣).

غطفان[1]. وجهز من جيش العسرة مائتي بعير بأحلاسها وأقتابها، وجاء بألف دينار فنثرها في حجر رسول الله فجعل رسول الله يقلبها ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم.

وقال له رسول الله ﷺ يا عثمان، إنه لعل الله يقمصك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني[2].

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة قال: اشترى عثمان الجنة من النبي ﷺ مرتين: حيث حفر بئر رومة، وحيث جهز جيش العسرة[2].

وهو الذي اشترى بئر رومة وجعلها لله يستعذب بها المسلمون، واشترى الأرض التي كانت بجوار المسجد ليوسع بها مسجد رسول الله ﷺ على المسلمين حين انتدب رسول الله من يشتريها من المسلمين وله مقابلها الجنة، وفي فضله ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ من الأحاديث الصحاح في كتب السنة ما تضيق به صفحات الكتب.

أخرج بن عساكر عن أبي ثور الفهمي قال: دخلت على عثمان ـ وهو محصور ـ فقال: لقد اختبأت عند ربي عشراً، إني لرابع أربعة في الإسلام، وجهزت جيش العسرة، وأنكحني رسول الله ﷺ ابنته ثم توفيت فأنكحني ابنته الأخرى، وما تغنيت، ولا تمنيت، ولا وضعت يمين على فرجي منذ بايعت رسول الله ﷺ وما مرت بي جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا أن لا يكون عندي شيء فاعتقها بعد ذلك، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام قط، ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام قط، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ﷺ[3].

---

(1) نفسه.
(2) السيوطي ص ١٥٢، والصحيح أنه اشترى بئر رومة من اليهودي ولم يحفرها.
(3) السيوطي ص ١٦١ والمراد باختبأت ادخرت، والمراد بقوله جمعت القرآن أي حفظته عن ظهر غيب.

نظام الشورى[1]

ظل المسلمون بعد طعن عمر ـ رضي الله عنه ـ في حيرة من أمرهم، فبينما هم يفكرون في أسباب ارتكاب تلك الجريمة البشعة، وماذا سيكون وراءها من أحداث، وما يستتبعها من الفتن والمحن؟ وما مصير المسلمين بعد مقتل أمير المؤمنين؟ بينما هم مستغرقون في هذا الخضم المتلاطم من التفكير إذ هم يرون أنفسهم أمام مستقبل لا يعلم إلا الله وحده عم يتمخض، إن الأمر الخطير الذي سيواجه المسلمين لا محالة بعد موت الخليفة هو استخلاف من يليه.

وبقدر ما كان يشغل هذا التفكير بال المسلمين الملتفين حول الخليفة بقدر ما كان يشغل بال الخليفة نفسه.

إن الخليفة قد عاصر يوم السقيفة ورأى بعينيه وسمع بأذنيه ما دار يومئذ من الحديث بين الناس فهل يترك المسلمين يواجهون مثل هذا الموقف الخطير؟ وهل في الناس مثل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة حتى يحسموا الأمر، ويقنعوا من يشغب عليهم من هواة الشغب؟

لا شك أن صورة يوم السقيفة لا زالت عالقة بذهن الخليفة، وأن ارتفاع الأصوات وتطاول الأعناق وتطلع النفوس لِمَّا أثار مخاوف عمر، وجعله يخشى تكرار الأمر ووقوع المحظور.

ولعل تطلع أمير المؤمنين إلى حسم هذا الأمر وإخماد الفتنة قبل أن تولد هو الذي جعله يقول لعبد الرحمن بن عوف لمَّا دخل عليه، إني أريد أن

أعهد إليك وعندئذ قال عبد الرحمن: أو تشير عليّ بذلك يا أمير المؤمنين؟ وأفاق عمر على صوت عبد الرحمن وهو يستنصحه، فخشى أن يغشه فأجابه، اللهم لا، فقال عبد الرحمن: والله لا أدخل في هذا الأمر أبداً[١].

وألح الناس على الخليفة أن يستخلف خشية أن يفاجئه الأجل، ولكنه كان قد عزم على ألا يستخلف، وقال للناس: إن مت فأمركم إلى هؤلاء الستة الذين فارقوا رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ: علي بن أبي طالب، ونظيره الزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، ونظيره عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، ونظيره سعد بن مالك، ألا وإني أوصيكم بتقوى الله في الحكم، والعدل في القسم[٢].

ودعا الخليفة هؤلاء النفر فحضروا فالتفت إلى علي وعثمان ولم يكلم غيرهما فقال: يا علي لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله فيه.

ثم قال لعثمان: يا عثمان، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله ﷺ وسنك وشرفك، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله، ولا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس.

ثم قال: ادعوا لي صهيباً، فدعى، فقال: صل بالناس ثلاثاً، وليخل هؤلاء القوم في بيت، فإذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه[٣].

قال عمر: وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين: علي أو عثمان، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي فرجل فيه دعابة، وأحْرِبه أن يحملهم على طريق الحق، وإن تولوا سعداً فأهلها هو، وإلا فليستعن به

---

(١) ابن الأثير س(٣/ ٥٠).
(٢) ابن سعد (٣/ ٦١).
(٣) ابن سعد ٣٤٢.

الوالي، فإني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف، ونعم ذو الرأي عبدالرحمن ابن عوف، مسدد رشيد، له من الله حافظ فاسمعوا منه.

والتفت عمر إلى أبي طلحة الأنصاري وقال: إن الله ـ عز وجل ـ طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم، ثم نظر إلى صهيب وقال: صل بالناس ثلاثة أيام.

وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم[1].

وهكذا يكون الخليفة ـ رحمه الله ـ قد حدد الطائفة التي يختار منها الخليفة، ولما كانوا ستة نفر جعل ابنه عبدالله معهم يدلي برأيه ليرجح وليس له من الأمر شيء ونبه على فضل سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهما.

وكأن عمر كان يحس بأن الأمر في البيعة سيفوض إلى عبدالرحمن ابن عوف فأوصى بالسمع منه والطاعة له.

وخاف الخليفة أن يمتد زمن التشاور وتترك الأمة بغير راع، وقد يدخل عليهم من يفسد رأيهم ويوقع بينهم، فحدد مدة التشاور، وجعل على المكان الذي يلتقون فيه حرامة مشددة لا يدخل أحد إليه غير أهل الشورى.

وأمر صهيباً أن يصلي بالناس ثلاثة الأيام التي سيكون فيها التشاور، وينطوي هذا الأمر على حنكة سياسته وبراعة فائقة ونظرة ثاقبة، إن أمر صهيب ليصلي بالمسلمين فيه تفويض كامل للمتشاورين ليختاروا من أهل الشورى من يشاؤون دون ضغط مادي أو أدبي إذ لو اختار الخليفة أحد الستة ليصلي بالناس لكان هناك شبه ترشيح له وإيحاء للآخرين باختياره، وقد أبى الخليفة إلا أن يترك الأمر شورى بين المسلمين.

ولعل الخليفة قد توقع اختلاف القوم في التفضيل بين الرجلين اللذين

---

(١) الطبري (٤/٢٢٩)، ابن الأثير (٣/٦٧).

غلب على ظنه اختيار أحدهما ـ علي وعثمان ـ فوضح للمتشاورين الطريقة التي ينبغي اتباعها إذا تساوت الأصوات فقال: فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه، أو اضرب رأسه بالسيف ـ وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً فحكموا عبدالله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس[١].

إن الخليفة يؤكد أكثر من مرة على قتل المخالفين سواء كانوا واحداً أم أكثر لأنه ـ رضي الله عنه ـ كان يعلم أن ثمرة هذا الخلاف مرة، وأن الذين سيتجرعون مرارتها هم المسلمون، فمن ذا الذي يمنع الفرس أن تتمرد وتثور والمسلمون في هذا الخلاف؟ ومن ذا يحول بين الروم وبين الإعداد لغزو المسلمين وهم يتنافسون الإمرة فيما بينهم وملك القياصرة لا يزال قائماً في القسطنطينية؟ بل من ذا الذي يمنع ضعفاء الإيمان في قلب الجزيرة العربية من استغلال الفرصة والعودة إلى الردة؟ وماذا يكون الوضع لو تمرد الفرس وانتقض الروم وارتد العرب في ساعة الواحدة؟.

أليس في ذلك فناء المسلمين؟ وتقويض لدولة الإسلام التي بذل المسلمون في إقامتها دماءهم وأموالهم وأوقاتهم وأولادهم، فلا بأس إذاً بقتل رجل أو رجلين أو ثلاثة ـ ولو كانوا من كبار الصحابة ـ في سبيل البقاء على الإسلام ودولته مرفوعة الرأس، موفورة الكرامة، ترفع راية الحق وتعلي كلمة الله.

واجتمع أهل الشورى، وأخذوا يتشاورون وكثر كلامهم وارتفعت أصواتهم، فتنبه عمر فقال: أمهلوا فإن حدث بي حدث فليصل لكم صهيب ثلاث ليالي، ثم أجمعوا أمركم، فمن تأمر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه[٢].

---

(١) الطبري (٢٢٩/٤)، وابن الأثير (٦٧/٣).

(٢) ابن سعد (٣٤٤/٣).

فلما مات عمر ـ رحمه الله ـ وأخرجت جنازته وقدموها للصلاة، بادر عثمان ليصلي عليه، وهكذا فعل علي، وقف هذا عند رأسه وهذا عند رجليه، ورأى عبد الرحمن بن عوف ما فعلا فقال: كلاكما يحب الإمرة، لستما من هذا في شيء، هذا إلى صهيب استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على إمام، فتقدم صهيب فصلى عليه[1].

وخرج الناس يشيعون عمر إلى مثواه الأخير ويشيعون معه كل المعاني الإنسانية السامية التي عرفها الناس فيه فلما بلغوا بيت أم المؤمنين عائشة وقفوا هناك واستأذنوها ليدفن مع صاحبيه كما أوصاهم فأذنت له فدفن هناك.

وعاد الناس يحملون في قلوبهم هموماً لا تطيقها الجبال، فقد كان موته ـ رضي الله عنه ـ مصيبة عظيمة أحدثت في قلوب المسلمين جرحاً لا يندمل، وتركت في نفوسهم أسى لا يخففه شيء، وشخصت أبصارهم إلى حيث يجتمع أهل الشورى ينتظرون عم تنفرج، ويترقبون من سيكون الخليفة عليهم.

جمع المقداد بن الأسود أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة أو في بيت المال أو في بيت عائشة أم المؤمنين بإذنها، وكانوا خمسة لأن طليحة بن عبيد الله كان غائباً في مال له بالسراة وكان معهم عبدالله بن عمر، وكان عمر قد أوصاهم بإشراك طليحة في الأمر إذا حضر قبل اختيار الخليفة.

---

(١) الطبري (٤/ ٢٣٠).

مُبَايَعَةُ عُثْمَانَ بِالخِلَافَةِ

أخذ أهل الشورى يناقشون الأمر من وجوهه المختلفة، وكثر الكلام بينهم فظن أبو طلحة أن الأمر سيطول فقال: لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم.

وقال عبد الرحمن بن عوف لأهل الشورى: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد. فقال: فأنا أخلع نفسي منها، فقال عثمان: أنا أول من رضي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمين في الأرض أمين في السماء». فقال القوم: قد رضينا ـ وعلي ساكت.

فقال عبد الرحمن: ما تقول يا أبا الحسن؟

قال علي: أعطني موثقاً لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألوا الأمة نصحاً.

قال عبد الرحمن: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم، وعلى ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه، ولا آلوا المسلمين، فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله[1].

وأخذ عبد الرحمن يخلو بأهل الشورى واحداً واحداً ويشاورهم في الأمر ويطرح عليهم كثيراً من الأسئلة ويجمع الإجابة لعلّهُ يستخلص من ذلك من يستحق أن يكون خليفة للمسلمين.

---

(١) الطبري (٤/٢٣١).

وبدأ بعلي فقال له: تقول إنك أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين، ولم تبعد، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به؟ قال: عثمان.

وخلا بعثمان فقال له: تقول شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله، ﷺ وابن عمه، ولي سابقة وفضل، فأين يصرف هذا الأمر عني، ولكن لو لم تحضر أي هؤلاء الرهط تراه أحق به؟ قال: علي[1]. وسأل الزبير وسعداً فقال كل منهما: عثمان[2].

وأخذ عبد الرحمن يطوف بالناس، ويلقى أصحاب الرسول ﷺ ويذهب إلى من وافى المدينة من سادة الناس وأشرافهم وأمراء الجنود والقواد، ويشاورهم فيمن يختارون ويخبرهم بأن الأمر قد انحصر في ثلاثة نفر، وذ لك لأن الزبير بن العوام قد تنازل لعلي وسعد بن أبي وقاص قد ترك حقه فيها لعبد الرحمن بن عوف، وكان الثالث هو عثمان بن عفان.

ولكن عبد الرحمن قد انخلع منها فلم يبق سوى الرجلين: عثمان وعلي، ولهذا كان يسأل هؤلاء عمن يختارون من الرجلين، فصار لا يخلو برجل إلا أمره بعثمان[3].

ولعل المسلمين كانوا يفضلون عثمان ـ رضي الله عنه ـ ويحبون إمرته عليهم لأنهم كانوا يخشون أن يكون اختيار على امتداداً لحكم عمر، وقد لقوا من الشدة وخشونة العيش في عهد عمر ما جعلهم يضيقون به، ولعلهم أرادوا عثمان ليغيروا أسلوب الحكم الذي عاشوا فيه سنين، وذلك لأن عثمان كان رجلاً لين الجانب خفيض العيش مشهوراً بالرقة والعطف على من حوله، حتى كان لا يكلف خدمه بالقيام بالليل ليعدوا له وضوءه، ولما كلموه في ذلك قال: الليل لهم يستريحون فيه[4].

---

(١) ابن الأثير (٣/٦٨، ٦٩).
(٢) الطبري (٤/٢٣١).
(٣) الطبري (٤/٢٣١).
(٤) ابن سعد (٣/٦٠).

كان أمل المسلمين من اختيار عثمان أن يستروحوا في عهده ما حرموا منه في عهد عمر وأن يجدوا في جواره ما فقدوه زمن عمر، ومن أجل هذا كان الجميع حريصين على اختيار عثمان خليفة إلا من كان يريد استمرار المسيرة على النحو الذي بدأه الخليفة الثاني.

مضت ليلتان من الموعد الذي حدده عمر لأهل الشورى، ولم يبق سوى ليلة واحدة يجب أن يتم فيها الأمر، وإلا فإن أبا طلحة قد جلس يرصد أعمالهم، ويحصي عليهم أنفاسهم وينتظر انتهاء الأجل فإما أن يعلنوا الخليفة الجديد، وإما أن يلحقوا بالخليفة الراحل، وذهب عبد الرحمن بن عوف إلى بيت المسور بن مخرمة فوجده نائماً حيث قد مضى من الليل أكثره فأيقظه، وقال له: انطلق فادع الزبير وسعداً.

فدعاهما فبدأ بالزبير، وكلمه في الأمر فقال: نصيبي لعلي. وقال لسعد خل نصيبك لي فأختار، فقال سعد: إن اخترت نفسك فنعم، وإن اخترت عثمان فعلي أحب إليّ[1].

واقترح سعد على عبد الرحمن أن يبايع لنفسه ولكن عبد الرحمن كان قد انخلع منها فقال لسعد: يا أبا إسحاق إني قد خلعت نفسي منها على أن اختار، ولو لم أفعل وجعل الخيار إليّ لم أردها، إني أريت كروضة خضراء كثيرة العشب، فدخل فحل فلم أرَ قطّ فحلاً أكرم منه، فمر كأنه سهم لا يلتفت إلى شيء مما في الروضة حتى قطعها، فلم يعرج، ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج من الروضة، ثم دخل فحل عبقري يجر خطامه، يلتفت يميناً وشمالاً ويمضي قصد الأولين حتى خرج.

ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة، ولا والله لا أكون الرابع، ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضي الناس عنه.

قال سعد: فإني أخاف أن يكون الضعف قد أدركك، فامض لرأيك، فقد عرفت عهد عمر[2].

---

(١) و(٢) الطبري (٤/٢٣٢).

وبعث عبد الرحمن المسور بن مخرمة إلى علي بن أبي طالب فناجاه طويلاً وهو لا يشك أنه صاحب الأمر، ثم نهض.

وأرسل إلي عثمان فكان في نجيهما حتى فرق بينهما أذان الصبح.

فلما صلى الناس الصبح جمع أهل الشورى وأرسل إلى المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد، وكان الناس قد لجئوا إلى المدينة بعد موسم الحج، وبعد الاعتداء على أمير المؤمنين وظلوا بها يترقبون معرفة الخليفة الجديد، فقال عبد الرحمن: إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد عرفوا من أميرهم، فقال سعيد بن زيد: إنا نراك لها أهلاً، فقال: أشيروا عليّ بغير هذا.

وهنا حصل نقاش طويل بين المجتمعين في المسجد فعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود يرشحان علياً ويصران على ترشيحه، وابن أبي سرح وابن أبي ربيعة يلحان على ترشيح عثمان وحدث لغط شديد، وارتفعت الأصوات ما بين مؤيد ومعارض، وخشى المسلمون وقوع الفتنة التي يحاولون الفرار منها فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن، أفرغ قبل أن يفتتن الناس[١]... فالتفت إلى علي وعثمان فقال: إني سألت عنكما وعن غيركما، فلم أجد الناس يعدلون بكما[٢].

والتفت إلى أهل الشورى وقال: إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً. ودعا علياً فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الخليفتين من بعده.

قال علي: أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمي وطاقتي.

ودعا عثمان فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة سوله، وسيرة الخليفتين من بعده.

قال عثمان: نعم[٣].

---

(١) الطبري (٤/٢٣٣). ابن الأثير (٣/٧١). (٢) و (٣) الطبري (٤/٢٣٨) (٤/٢٣٣).

فأشار عبد الرحمن بيده إلى كتفيه وقال: إذا شئتما. وتقدم ثلاثتهم نحو المجتمعين في المسجد وتأخر عثمان حياء مخافة أن يكون الأمر إلى علي حتى كان في آخر المسجد، وأقبل عبد الرحمن متقلداً سيفه، وعليه العمامة التي عممه بها رسول الله ﷺ وصعد المنبر فوقف وقفة طويلة ودعا بدعاء لم يسمعه الحاضرون وأنظار الناس شاخصة إليه لقد أصبح تعيين الخليفة بين شفتيه، ولم يعد بين الناس وبين معرفة الخليفة إلا كلمة ينطق بها عبد الرحمن.

ورفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد، وأخذ بيد عثمان، ثم قال: اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان.

وقعد عبد الرحمن مقعد النبي ﷺ من المنبر، وأقعد عثمان على الدرجة الثانية، فجعل الناس يبايعونه[1].

روى صاحب الطبقات أن أول من بايع عثمان عبد الرحمن ثم علي بن أبي طالب، وقال: حدثني عمر بن عميرة بن هني مولى عمر بن الخطّاب عن أبيه عن جده قال: أنا رأيت علياً بايع عثمان أول الناس، ثم تتابع الناس فبايعوا[2].

وذهب عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - إلى الكوفة حين استخلف عثمان بن عفان فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مات فلم نر يوماً أكثر نشيجاً من يومئذ وأنا اجتمعنا أصحاب محمد فلم نأل عن خير نادى فوق، فبايعنا أمير المؤمنين عثمان فبايعوه[3].

وتمت له البيعة لثلاث خلون من المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت أول صلاة له بالمسلمين صلاة العصر، وقيل بويع - رضي الله عنه - يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، فاستقبل بخلافته

---

(١) الطبري (٤/٢٣٨).

(٢) و (٣) ابن سعد (٣/٦٢ - ٦٣).

المحرم سنة أربع وعشرين وهو غريب[1]. وحضر طلحة بن عبيد الله بعدما تمت البيعة فبايعه.

عثمان يباشر مهام منصبه:

آل أمرالمسلمين إلى عثمان بن عفان، وفرح الناس بخلافته وظل ست سنوات يباشر عمله دون أن ينقم عليه أحد شيئاً، وانه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب لأن عمر كان شديداً عليهم، فلما وُليَ عثمان لان لهم ووصلهم[2].

بدأ عثمان عهده بخطاب وجهه إلى المسلمين فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أياماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله[3].

وعثمان ـ رضي الله عنه ـ لم يكن خطيباً ولم يسبق له أن وقف هذا الموقف فلا عجب أن يرتج عليه ولا غرابة أن يعتذر عن عدم قدرته على الخطابة وبخاصة وأن حياءه كان يمنعه من الكلام.

ولم يكن المسلمون في حاجة إلى خطيب بقدر حاجتهم إلى خليفة حكيم يقودهم على سنن السابقين ويعدل بينهم إذا أحتكموا إليه، ولهذا روى الخطبة أبو هلال العسكري فجاء فيها أن عثمان قال: وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل[4].

وانتحى عثمان ناحية من المسجد، وطلب عبيد الله بن عمر ابن الخطاب ذلك الذي قتل الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة، وكان سعد بن أبي وقاص قد انتزع السيف من يد عبيد الله، وجذبه من شعره حتى بطحه على الأرض، وحبسه في بيته.

(١) ابن سعد (٣/٦٢ ـ ٦٣).
(٢) السيوطي ص ١٥٦.
(٣) ابن سعد (٣/٦٢).
(٤) العسكري ص ١٤٧.

فلما ولى عثمان طلبه وهو جالس في المسجد وحوله أصحابه ليحاكمه على ما ارتكب من قتل هؤلاء، فلما حضر قال عثمان: أشيروا عليّ في هذا الرجل الذي فتق في الإسلام ما فتق.

فقال علي: أرى أن تقتله.

وقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم.

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك.

فقال عثمان: أنا وليهم وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي[1].

واتخذ له خاتماً نقش عليه (آمن عثمان بالله العظيم)، وزاد في أرزاق الناس وأعطياتهم.

وكان ينادي مناديه: يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها موفورة، ثم يقال لهم: اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها موفورة، ثم يقال لهم: اغدوا على السمن والعسل[2].

وهكذا كثر المال وتوسع الناس وتنافسوا الدنيا حتى كانوا يلعبون بالحمام والجلاهقات[3]. وكانت هذه أول مفسدة ظهرت في المدينة، ولم يسكت عنها عثمان ـ رضي الله عنه ـ بل وكل بها رجلاً من بني ليث فكان يقص الحمام ويكسر الجلاهقات.

وواصل الجيش الإسلامي الفتح في أماكن مختلفة ففتح في عهده بقية بلاد الفرس ووسع رقعة الأرض المسلمة من بلاد الروم وفتحت إفريقيا.

وكان ـ رضي الله عنه ـ ودوداً يسأل عن أحوال المسلمين، ويتعرف

---

(١) الطبري (٤/٢٣٩)، ابن الأثير (٣/٧٥).

(٢) ابن كثير (٧/٢١٤).

(٣) نفسه والجلاهقات جسم كروي يرمى به أو القوس.

مشكلاتهم ويطمئن على غائبهم ويواسي قادمهم، وإنه ليفعل ذلك وهو على المنبر والمؤذن يؤذن.

روى ابن سعد عن موسى بن طلحة قال: رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران فيجلس على المنبر، فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن أسفارهم وعن قدامهم وعن مرضاهم[١].

ونفذ وصية عمر ـ رضي الله عنه ـ فأبقى عماله على البلاد التي كانوا عليها سنة دون أن يغير أحداً منهم، وكتب إلى عماله يحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرفق بأهل الذمة، ويأمرهم بجباية الخراج بالعدل وينهاهم عن ظلم الناس وأخذ أموالهم بغير حق.

وكان ـ رضي الله عنه ـ مع لين جانبه وعطفه على رعيته لا يعرفُ في أخذ الحق صاحباً ولا يمالىء صديقاً ولا يجامل حبيباً بل كان يقوم إلى جانب الضعيف حتى يأخذ له حقه، ويقف في وجه الظالم حتى يأخذ الحق منه، ولهذا كان يلزم عماله بحضور الموسم كل عام، ويكتب إلى الرعية، من كانت له عند أحد من العمال مظلمة فليواف إلى الموسم فإني آخذ له حقه من عامله[٢].

سياسته الداخلية:

وحدد عثمان سياسته الداخلية في كتب ثلاثة: كتب أحدها إلى الولاة بين لهم فيه واجبهم نحو الرعية، وعرفهم أن مهمتهم هي رعاية الناس والقيام على مصالحهم وأنهم لم يعينوا جباة لجمع المال فإذا كانوا كذلك صلحت الأمة وإذا انقلبوا جباة انقطع الحياء وفقدت الأمانة والوفاء، وعلمهم أن أعدل طريق هو أن يعطوا الناس حقهم، ويأخذوا منهم ما عليهم.

وكتب الثاني إلى عمال الخراج حذرهم فيه من الظلم وأمرهم أن يأخذوا الحق ويعطوا الحق، وحثهم على الأمانة والوفاء[٣].

---

(١) ابن سعد (٣/٥٩).

(٢) ابن كثير (٧/٢١٩).

(٣) الطبري (٤/٢٤٥).

وكتب الثالث إلى الرعية حثهم فيه على تقوى الله وعدم الركون إلى الدنيا، وأخبرهم بأن الله أعطاهم الدنيا ليصلوا بها إلى الآخرة وذكرهم بأن الدنيا فانية والآخرة هي الباقية والعاقل من يؤثر الباقي على الفاني، وأمرهم بلزوم جماعة المسلمين ونهاهم أن يكونوا أحزاباً وتلى عليهم الآية الكريمة ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[1].

وبهذه الكتب الثلاثة حدد الخليفة الثالث سياسته الداخلية، وإنا لنلاحظ فيها وفاء بعهد البيعة فقد التزم بأن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ويقتدي بالخليفتين - أبي بكر الصدِّيق وعمر الفاروق - ومن أجل هذا اطمأن الناس إلى سياسة الخليفة، وعاد الجميع إلى أمصارهم وهم يتوقعون الخير في عهده، وكيف لا وهو قد بدأ عهده معهم بزيادة مخصصاتهم[2] وطمأنتهم على كل ما يحبون الاطمئنان عليه.

وأما سياسته الخارجية فسنعرف الكثير عنها في الصفحات الآتية...

---

(١) ابن كثير (٧/٢١٦).

(٢) ابن الأثير (٣/٧٩).

السياسة الخارجية في عهد عثمان

جاءت ولاية عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وسط ظروف تدعو إلى الحذر والحيطة، بقدر ما تتطلب من الأناة والصبر فقد كان مقتل عمر ابن الخطاب مفاجأة أذهلت المسلمين، وتكشف الأمر عن مؤامرة لا يعلم أحد هل هي بداية سلسلة من الأحداث أم ستقتصر على اغتيال الخليفة وكفى؟.

أضف إلى ذلك ما كانت تموج به البصرة والكوفة من تمرد الناس على الأمراء ومطالبتهم بتغيير الأمير مرة بعد مرة، حتى ضاق عمر بن الخطاب القوي الشديد بفعالهم، وقال لأبي موسى وقد استعمله على البصرة بعد المغيرة: يا أبا موسى، إني مستعملك، إني أبعثك إلى أرض قد باض فيها الشيطان وفرّخ[1].

وأما الكوفة فكانت أكثر تمرداً وأشد تحاملاً على الأمراء، لم يرضوا عن أمير، ولم يرض عنهم أمير وقد ولى أمرهم أربعة أمراء في سنتين.

لقد شكا أهلها سعداً واتهموه بالباطل فعزله عمر وولى مكانه عمار ابن ياسر ثم شكوه فعزله وولى مكانه سعداً مرة أخرى فشكوه فولى مكانه جبير ابن مطعم فتحاملوا عليه فعزله وولى مكانه المغيرة بن شعبة[2].

وضاق عمر بن الخطاب بأهل الكوفة ذرعاً وقال: من عزيرى من أهل

---

(1) الطبري (٤/٧٠).

(2) ابن عبد البر (٢/٢٢) حاشية الإصابة.

الكوفة إن استعملت عليهم القوي فجّروه وإن وليت عليهم الضعيف حقروه[1].

واستمرت تلك المنازعات بين سكان المِصْرَيْن وبين أمرائهما حتى انتقل عمر إلى جوار ربه وكان على عثمان أن يواجه تلك المشكلة مع غيرها من المشكلات.

كان هذا إلى جوار ما توسع فيه المسلمون من متع الحياة الطيبة الحلال في آخر عهد عمر، وكانت النفوس تتطلع إلى المزيد، وكانت ولاية عثمان عليهم موحية بنوع من المزيد قل أو كثر.

ذلك لأن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قد تعود منذ نشأته حياة هانئة وعيشاً خفيضاً، ولا شك في أنه سيستمر بعد ولايته في مثل ما كان يعيشه قبلها، ولم يكن لدى عثمان القدرة على أن يعيش مثلما كان عمر يعيش، فإن حياة عمر ـ رضي الله عنه ـ كانت نوعاً من المثالية يعجز عنه كل من حاول الوصول إليه.

ولقد أحس عمر نفسه بذلك في لحظاته الأخيرة، وقبل أن يودع الدنيا مقبلاً على الآخرة فقال: لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد[2].

ولكن عثمان كان على العكس من ذلك فقد كان يقدم له في طعامه صغار الضأن، والدقيق الأبيض المنخول، ولما قيل له كان عمر لا يأكل من الضأن إلا مسانها قال: يرحم الله عمر ومن يطيق مثل عمر؟

كان ذلك والمسلمون يرون الخليفة وينظرون إلى ما يوسع به عليهم ليوسعوا على أنفسهم.

ولو تركنا الوضع الداخلي على علاته فماذا كان في خارج الرقعة التي يحكمها المسلمون؟

---

(١) البلاذري ص ٢٧٨.
(٢) الطبري (٤/٢٢٨).

لقد كان يزدجرد ملك الفرس يترقب اللحظة التي يستطيع فيها استرداد بلاده التي فقدها وكان يقيم في عاصمة سمرقند (فرغانة) لعل الفرصة تواتيه فيهتبلها ولا يضيعها، وأما الروم فكانوا قد تم إجلاؤهم عن بلاد الشام ففروا إلى العاصمة البيزنطية وأخذوا يتهيئون للانقضاض على المسلمين الذين فتحوا بلادهم وأخرجوهم من ديارهم.

ولم تكن الإسكندرية بمنأى عن هذا التطلع بل كان أهلها يتشوفون إلى اللحظة التي يتخلصون فيها من حكم المسلمين الذين فرضوا عليهم الجزية وقد كانوا لا يدفعونها للروم كما كان يدفعها بقية السكان تمييزاً لهم.

بدأت خلافة عثمان محاطة بتلك المشكلات كلها لهذا كان لزاماً عليه أن يتروى في الأمر ولا يتعجل وبخاصة وأن الجيوش الإسلامية كانت تضرب في كل واد لتفتح المزيد من البلاد، أو تهدىء الثائرين في أنحائها المترامية، فلم يكن لدى عثمان ما يردع به المتمردين.

ونظر عثمان إلى هذه الأوضاع من حوله، وفكر في الأمر ولعله طال به التفكير ولعل أول ما استرعى انتباهه أن يستغل الأعداء ما اشتهر به من اللين ودماثة الأخلاق فيؤدي ذلك إلى انتفاضهم وخروجهم على الطاعة فكان لا بد أن يحسب لهذا الأمر ألف حساب، وكان عليه أن يثبت لهؤلاء المتربصين أنه لن يسمح بانتقاص الأرض التي بذل المسلمون في فتحها دماءهم وأموالهم، وأنه مستعد لبذل كل شيء في سبيل الإبقاء على مكاسب المسلمين في أصقاع الأرض المختلفة.

وعلى هذه الأسس أقام عثمان سياسته الخارجية ومراعاة لكل هذه الملابسات رسم خطته التي سيواجه بها كل المتربصين.

ولم تخطىء فراسة عثمان، فلم يكد يشيع نبأ اغتيال الخليفة عمر ابن الخطاب وتولي عثمان الخلافة بعده، حتى طارت الأنباء بذلك إلى بلاد الفرس وبلاد الروم واشتعلت نيـران الفتنة والتمرد في كلا البلدين فقد ثار الفرس في أذربيجان وأعلنوا العصيان ومنعوا الجزية التي كانوا قد صالحوا عليها المسلمين.

وبدأ الروم هجومهم على بلاد الشام ظانين أن المسلمين لن يستطيعوا الوقوف في طريقهم بعد وفاة عمر فقد كان عمر في زعمهم هو الذي يسوق إليهم هذا النصر ويخطط لهم للوصول إليه، ولم يعرفوا أن المسلمين ينتصرون على عدوهم بنصر الله لهم.

ونقضت الإسكندرية الصلح، واستعان أهلها بقوة الروم البحرية، ولم يقصر الروم فأمدوهم بعدد ضخم من السفن التي تحمل الرجال والسلاح ويلغ عدد قطعها ثلاثمائة سفينة.

ولم تفت تلك الأحداث في عضد المسلمين ولم تنل من عزم الخليفة، بل وقف في وجهها وقفة حمدها له المسلمون، وسطرها له التاريخ، وكانت ثمرات تلك الوقفة الرائعة.

١ - إخضاع المتمردين وإعادة سلطة المسلمين على بلادهم.
٢ - ازدياد الفتوحات الإسلامية إلى ما وراء البلاد المتمردة.
٣ - اتخاذ قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية.
٤ - إنشاء قوة بحرية لمواجهة أي هجوم بحري ولغزو الجزر المحيطة بالمسلمين.

نماذج من الفتوحات:

بدأت الفتوحات في عهد عثمان لإسكات المتمردين ولكنها ما لبثت أن تعدت ذلك إلى التوسع في الفتوحات وضمت القوات الإسلامية بلاداً جديدة إلى الرقعة التي كان المسلمون قد سيطروا عليها في عهد االخليفة الراحل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وتلك نماذج من الغزوات التي قام بها المسلمون في عهد الخليفة الجديد.

غزو أذربيجان والري

كانت أذربيجان والري من أواخر البلاد التي فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكان فتحهما بعد فتح نهاوند في سنة

اثنتين وعشرين على يد حذيفة بن اليمان الذي تولى قيادة جيوش المسلمين بعد استشهاد النعمان بن مقرن في غزوة نهاوند كما أسلفنا.

فلما توفي عمر وتولى الأمر عثمان نقضت أذربيجان والري الصلح الذي صالحهما عليه حذيفة وتمردا، وعلم الخليفة بالأمر فكان لا بد أن يقف منه موقفاً حازماً وإلا فإن بقية الأقاليم تجد الفرصة مواتية حيث لم تجد من الخليفة عزيمة لردهم على أعقابهم وتجبرهم على العودة إلى ما كانوا عليه من الإذعان والطاعة.

وعندئذ أصدر الخليفة أمره إلى الوليد بن عقبة بالتوجه إلى أذربيجان، وإلى أبي موسى الأشعري بالتوجه إلى الري.

صدع الوليد بأمر الخليفة وتوجه إلى أذربيجان وبعث مقدمة له عبدالله بن شبيل بن عوف الأحمسي في أربعة آلاف مقاتل.

وأغار ابن شبيل على موقان والبير والطيلسان، فأصاب من أموالهم وغنم وتحرز القوم منه، بعد أن سبى منهم بعض السبي، ثم أقبل على الوليد بن عقبة، وقد أيقن أهل أذربيجان بالهلكة فطلبوا الصلح، فصالحهم الوليد على مثل ما كان حذيفة قد صالحهم عليه، ثمانمائة ألف درهم في كل سنة، ولم يبرح حتى قبض منهم جزية سنة ورجع سالماً غانماً إلى الكوفة[1] وقد ولى عليها الأشعث بن قيس[2].

ويبدو أن أهل أذربيجان قد تمردوا أكثر من مرة في عهد عثمان رضي الله عنه فإنه لما تولى أمرها الأشعث بن قيس انتقضت، فكتب الأشعث إلى الوليد يستمده فأمده بجيش عظيم من أهل الكوفة، وتتبع الأشعث آثار الثائرين وأنزل بهم هزيمة منكرة طلبوا على أثرها الصلح فصالحهم على مثل صلحهم الأول.

---

(١) ابن كثير (٧/١٥٠).

(٢) البلاذري ص ٣٢٤.

وخاف الأشعث أن يعيدوا الكرة فأسكنها ناساً من العرب، وجعل لهم عطايا وأثبتهم في الديوان، وأمرهم بدعوة الناس إلى الإسلام[1].

ولعل الأشعث أراد بدعوتهم إلى الإسلام إخماد تلك الفتنة التي لم تهدأ منذ تولى عثمان، ذلك لأن الناس إذا دخلوا في الإسلام سوّى الإسلام بينهم وبين الفاتحين فلم يشعروا بالشعور الذي كان دائماً سبباً في تمردهم وهو فرض الجزية عليهم.

وفي عهد سعيد بن العاص أعاد أهل أذربيجان الكرة فتمردوا على الوالي الجديد فبعث إليهم سعيد جرير بن عبدالله البجلي فهزمهم، وأخذ رئيسهم فصلبه على قلعة باجروان.

ولم تهدأ أذربيجان إلا بعد أن دخل أهلها في الإسلام وقرأوا القرآن[2].

وأما الري فقد كانت كثيرة التمرد والانتقاض، فتحها في زمن عمر عروة بن زيد الخيل بعد ن هزم جموع الديلم ومن ساعدهم من أهل الري، وفي ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة انتقضت الري فأرسل إليها المغيرة كثير بن شهاب الحارثي فقاتل كثير أهل الري حتى اضطرهم إلى التسليم والعودة إلى الطاعة، وأذعنوا بالخراج والجزية التي كانوا قد صالحوا عروة عليها ومقدارها خمسمائة ألف.

وظلت كذلك تصالح وتنقض الصلح فيفتحها المسلمون حتى فتحها قرظة ابن كعب الأنصاري في ولاية أبي موسى الأشعري الكوفة زمن عثمان بن عفان فاستقامت واستقر الأمر فيها للمسلمين[3].

---

(١) البلاذري ص ٣٢٤.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

صد هجمات الروم

بلغ ملك الروم وفاة عمر وتولية عثمان فطمع في استرداد ما فقده من الملك فجمع عدداً عظيماً وجيش جيشاً قوياً حتى خاف أهل الشام، وبعثوا إلى عثمان يستمدونه ويتعجلون المدد حتى لا يبغتهم العدو بما لا يحبون.

وكان الوليد بن عقبة قد انتهى من أمر أذربيجان، وأعادهم إلى الطاعة وحصل منهم الجزية وعاد إلى الموصل، ولم يكد يحط رحاله حتى جاءه كتاب عثمان يستحثه على إمداد أهل الشام قائلاً: إذا جاءك كتابي هذا فابعث رجلاً أميناً كريماً شجاعاً في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إلى إخوانكم بالشام[1].

شعر الوليد بعظم المسؤولية وأحس بثقل التبعة أن إخوانه المسلمين في الشام يتعرضون لهجمة شرسة من الروم قد تعرض مكاسب المسلمين في تلك البلاد لخسارة فادحة، بل قد تودي بحياة كثير ممن يتعرضون لتلك الهجمة المسعورة من هؤلاء الموتورين.

وماذا عسى أن يكون لو تأخر المدد وقام الروم بهجوم خاطف؟ لا شك أن العاقبة تكون وخيمة، ولا شك أنه سيكون بإبطائه قد أعان الروم على إخوانه، ويكون قد أسهم بذلك في ضياع ما أحرزه المسلمون بعرقهم ودمائهم.

---

(١) ابن كثير (٧/ ١٥٠).

لهذا قام الوليد في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، يها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسناً، رد عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردهم سالمين غانمين مأجورين فالحمد لله رب العالمين.

وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي[1].

كان لهذا الخطاب أثر عظيم في نفوس المسلمين، ومع أنهم لم يستريحوا بعد من عناء غزو أذربيجان فإنهم لم يكسلوا عن معونة إخوانهم بالشام، ولقد حرك الوليد ـ رحمه الله ـ في نفوسهم حب الجهاد، ورغبهم في معونة إخوانهم حين ذكرهم بالأجر العظيم والفضل المبين. فلم تمض ثلاثة أيام حتى نفر من الناس ثمانية آلاف، ومضى بهم سلمان بن ربيعة حتى دخل الشام، وانضم الجيشان هناك، وتوجه الجميع إلى أرض الروم يقود أهل الشام حبيب بن مسلم الفهري، ويقود المدد سلمان بن ربيعة الباهلي.

وشن الجيشان الغارات على بلاد الروم، فغنموا وسبوا شيئاً كثيراً وفتحوا حصوناً كثيرة، وملؤوا أيديهم من المغنم[2].

واسترد المسلمون هيبتهم ولقنوا الروم درساً أعاد إليهم صوابهم وأقنعهم بأن ابن عفان ليس بأقل حزماً من ابن الخطاب، والحق الذي ينبغي أن نعرفه هو أن الإسلام لم ينزل معركة إلا وكتب الله له النصر، فليس ابن الخطاب ولا ابن عفان هما اللذان يجلبان النصر ويدفعان الهزيمة، ولكن الله ـ عز وجل ـ راعي الإسلام وحامي حِماه هو الذي وعد المسلمين النصر إن هم اخلصوا النية، وأحسنوا بالله الظن، وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

---

(١) الطبري (٤/٢٤٨).

(٢) نفسه، ابن كثير (٧/١٥٠).

فتح أرمينية

نبذة جغرافية:

أرمينيا هي المنطقة الجبلية الوسطى العالية في غرب آسيا، ويحدها من الشمال والشمال الشرقي البحر الأسود وبلاد القوقاز، ومن الجنوب الركن الشمالي الغربي من أرض الجزيرة ومن الشرق والجنوب الشرقي أذربيجان وبحر قزوين، ومن الغرب آسيا الصغرى.

وأرمينية تقع على مفترق الطرق الثلاثة المؤدية إلى البلاد التي فتحها المسلمون واستوطنوها وهي:

١ ـ أرض الجزيرة بالعراق.
٢ ـ بلاد الشام.
٣ ـ جنوب آسيا الصغرى.

وتبلغ مساحتها ١١٥٤٠٠ ميل مربع، وتجري فيها أنهار شتى يصل إلى البلاد الإسلامية من هذه الأنهار نهرا دجلة والفرات.

وكانت هذه البلاد واسعة المساحة ومقسمة إلى أربعة أقاليم: أرمينية الأولى وأرمينية الثانية، وأرمينية الثالثة، وأرمينية الرابعة[1]. ولسعة مساحتها كانت تمتد بين بلاد الروم وبلاد الفرس.

---

(١) البلاذري ص ١٩٧.

وأدى موقع أرمينية الجغرافي الممتاز إلى نشوب نزاع لم يهدأ بين الدولتين العظيمتين في ذلك الحين ـ دولتي الفرس والروم ـ وكانت نتيجة هذا النزاع أن سقط القسم الشرقي والأكبر في يد الفرس، وبقي القسم الغربي وهو أصغر القسمين في يد الروم، وقد حاولت كل من الدولتين السيطرة على أرمينيا لموقعها الاستراتيجي الهام الذي يُمَكِّنُ المسيطر عليها من التفوق العسكري على خصمه[1].

الحالة السياسية في أرمينية:

أدار الفرس القسم الشرقي من أرمينية والذي كان تحت سيطرتهم عن طريق حكام محليين ـ أرمنيين ـ وتركوا لهم حرية التصرف في إدارة البلاد، ولكن هؤلاء الأرمن كانوا يبغضون الفرس المحتلين، لا لأنهم محتلون، فإن هذا الأمر لم يخطر ببالهم فقد كانوا من قبل تحت سلطة البيزنطيين، ولعل هذا الجيل الذي استعمله الفرس لم يذق طعم الحرية، فقد كانت أرمينية تتخلص من يد البيزنطيين لتقع في مخالب الفرس، وتخرج من سيطرة الفرس لتلقي بنفسها تحت التسلط البيزنطي، إذاً فما سبب كراهية الأرمن للفرس؟.

ترجع كراهية الأرمن للفرس في الحقيقة إلى عوامل دينية، فقد كان الأرمن يدينون بالنصرانية ويشعرون بالسخط والبغض للمحتلين المجوس الذين يخالفونهم في العقيدة.

ويقدر بغض الأرمن للفرس بقدر حبهم للروم فكانوا يتعاطفون معهم لاتحادهم في الدين.

وفي القسم البيزنطي نشأت مشكلة جديدة جعلت الأرمن الذين يدينون بالنصرانية يبغضون البيزنطيين الذين يتفقون معهم في العقيدة، ذلك أن مجمع خلقيدونيا الذى عقد عام ٤٥١ م قد اتفق على الاعتراف بمذهب واحد

---

(١) الأمويون والبيزنطيون.

من المذاهب النصرانية المتعددة ورفض الأرمن اعتناق المذهب المتفق عليه، فاعتبرهم البيزنطيون خارجين على الطاعة، وأخذوا يضطهدونهم بقسوة مما جعل الأرمن يتطلعون إلى من يخلصهم مما هم فيه.

وظل الحال في أرمينية على هذا الوضع، بُغْض من الحكام الأرمن للمحتلين الذين يخالفونهم في الدين، وظلم واضطهاد من المحتلين للأرمن الذين يخالفونهم في الاعتقاد في طبيعة المسيح.

يوم الفتح:

شجعت هذه الأحوال في داخل أرمينية المسلمين على التوجه لفتح البلاد. وكان الوليد بن عقبة قد انتهى من إخضاع أذربيجان وإعادتها إلى سلطة المسلمين.

ولما كانت أرمينية واقعة على حدود أذربيجان فإن الوليد قد عزم على فتحها، فوجه إليها جيشاً بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي قوامه اثنا عشر ألفاً فسار حتى دخل أرض أرمينية فقتل وسبى وغنم، ثم عاد إلى الوليد وقد ملأ يديه من المغنم[1].

ومن جهة الشام فإن الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ قد كتب إلى معاوية يأمره بتوجيه جيش إلى أرمينية بقيادة حبيب بن مسلمة الفهري، وأنفذ معاوية رغبة الخليفة، فسير حبيباً نحو أرمينية في جيش تعداده ستة آلاف جندي أو ثمانية آلاف جندي من أهل الشام والجزيرة.

وكانت همة حبيب بن مسلمة متوجهة لفتح عاصمة البلاد ـ قاليقلا ـ أو (تيودو ثيوبوليس) وتلك هي عاصمة أرمينية البيزنطية، ولما وصل إليها حبيب أناخ عندها، وخرج إليه أهلها فقاتلهم قتالاً شديداً حتى اضطرهم إلى الاعتصام بالمدينة، ومن هناك طلبوا الصلح على الجلاء والجزية، فصالحهم حبيب، وخرج كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم[2].

---

(١) الطبري (٢٤٧/٤).

(٢) البلاذري ص ٢٠٠.

ومكث حبيب في قاليقلا أشهراً ينظم جنده، ويعد نفسه لما قد يجد مما ليس في الحسبان وهناك بلغه أن الروم يجمعون له حشوداً ضخمة ليخرجوه من أرمينية، وقد انضم إلى جيش الروم جنود من بلاد الخزر والترك ى بلغ عدد الجيش ثمانين ألفاً[1].

كتب حبيب إلى معاوية يخبره بما جمع الروم، ويطلب منه المدد ليستطيع مواجهة العدو، وكتب معاوية إلى الخليفة ليطلعه على الموقف، فأمره عثمان أن يمده بجيش من أهل النجدة والشجاعة والإيمان، وكتب إلى سعيد بن العاصي والي الكوفة يأمره بإمداد حبيب بجيش عليه سلمان ابن ربيعة الباهلي، فأعدَّ سعيد جيشاً من ستة آلاف مقاتل وأمر عليه سلمان ووجهه نحو أرمينية ليعاون حبيب بن مسلمة[2].

أقبل جيش الروم مزهواً بعَدده وعُدده، ونزل على شاطىء الفرات الأعلى وراح يتهيأ لمنازلة جيش المسلمين، وطال انتظار حبيب بن مسلمة للمدد القادم من العراق، وخشيَ إن تأخر أكثر من ذلك أن يباغته العدو، وينزل بالمسلمين هزيمة تكسر شوكتهم فلا يستطيعون لها جبراً، لهذا عزم حبيب على أن يبدأ عدوه بجيشه الصغير، مهما كانت النتائج ورسم خطته مع أمراء الجيش على أن يبيت جيش عدوه وهم غارون.

اختار حبيب من بين جنوده ألفي رجل، وأسكنهم قاليقلا العاصمة، وطلب منهم الدفاع عنها، وأغراهم بالبقاء فيها فأقطعهم أرضاً ليستغلوها لأنفسهم فأصبحوا بذلك قوة مرابطة بها، تحميها من الغارات، وتدفع عنها الغزاة.

تهيأ حبيب لملاقاة الروم، ولم يكن ينقصه شيء من التهيوء النفسي المطلوب دائماً قبل كل معركة، فكان ـ رحمه الله ـ شجاعاً شهماً جريئاً لا يقف دون عزيمته شيء، ولا يلويه عن قصده خطب.

---

(١) الطبري (٤/٢٤٨).
(٢) البلاذري ص ٢٠١.

جمع القائد أمراء الجيش، وأخذ يستعرض معهم الخطة التي عزم على تنفيذها وعبأهم نفسياً للنصر أو الشهادة، وسمعته امرأته ـ أم عبدالله بنت يزيد الكلبية ـ فقالت: أين موعدك؟ فقال: سرادق الطاغية أو الجنة[1].

وزحف حبيب بن مسلمة بمن معه من المسلمين إلى جيش الروم الذي كان يقوده رجل من خيرة قوادهم اسمه الموريان، فبيتهم وهم غافلون، فقتل من تعرض له حتى دخل سرادق الموريان، وهناك وجد امرأته قد سبقته إلى السرادق فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها حجاب سرادق[2].

وأنزل حبيب بجيش الروم هزيمة ساحقة أنسته التفكير في محاربة المسلمين، وثبتت أقدام المسلمين في أرمينية، وفر الروم منها إلى غير رجعة، وعاد حبيب إلى قاليقلا ريثما استجم جيشه، وقد رفع انتصاره على الموريان معنويات جنوده، فهيأهم لمواصلة الزحف، وانطلق بهم يفتح حتى وصل إلى دبيل أو (دوين) عاصمة أرمينية الفارسية فحاصرها وشدد عليها الحصار، فتحصن أهلها بها، فنصب عليهم منجنيقاً، ورماهم حتى أوهى أسوار المدينة، واضطر أهلها إلى طلب الصلح والأمان فأعطاهم إياه، وبعث سراياه فغلبت على جميع قرى دبيل مما اضطر بَطْرِيقَها ليعقد معه كتاب الصلح وهذا نص الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لنصارى أهل دبيل ومجوسهاويهودها، شاهدهم وغائبهم، إني قد أمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم، فأنتم آمنون، وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج، شهد الله (وكفى بالله شهيداً).

واشترط حبيب على البطريق أن ينصح للمسلمين، ويعاونهم على أعدائهم[3].

---

(١) نفسه.

(٢) ابن الأثير (٣/٨٤).

(٣) البلاذري ص ٢٠٣.

وهكذا يتضح لنا أن فتح أرمينية إنما كان لتأمين حدود الدولة الإسلامية، حيث كان الروم يستغلون موقعها ويجتمعون فيها للانقضاض على المسلمين فيقلقونهم، ويقضون مضاجعهم.

ولم يكتف حبيب بالاستيلاء على عاصمة أرمينية الفارسية (دبيل)، بل تجاوزها موغلاً حتى التقى مع جيش عياض بن غنم في أرض الجزيرة بالعراق، وتعاون الجيشان في فتح المنطقة المعروفة بأرمينية الرابعة (شمشاط).

وكان عياض بن غنم قد أمن أهل هذه المنطقة فأخرج البطريق كتاب عياض بالصلح الذي تم بينهم، فأقره حبيب، وأنفذه لهم[١].

وواصل حبيب زحفه في أرمينية حتى فتح مدينة تفليس صلحاً حيث استسلم أهلها وطالبوا بالصلح. فعاهدهم حبيب، وأمنهم على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم، وفرض عليهم الجزية على كل أهل بيت دينار، وعلى المسلمين النصح لهم والدفاع عنهم، وعليهم قِرى المسلمين من حلال مالهم، وإن انشغل المسلمون عن الدفاع عنهم فدهمهم عدو فالمسلمون غير مآخذون بذلك، ولا ينقض عهدهم به؛ وختم الكتاب بقوله: هذا لكم وهذا عليكم، شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً[٢].

وقضى حبيب في فتح أرمينية عشر سنين، فقد بدأ حملته عليها في سنة ٢٥ هـ الموافق ٦٤٥ م أي في السنة الثانية من خلافة عثمان - رضي الله عنه - وانتهى من حملته سنة ٣٥ هـ - ٦٥٥ م أي في نهاية خلافة عثمان حيث التقى جيش المسلمين بكتيبة بيزنطية بقيادة ماوريانوس الذي جاء في محاولة يائسة لطرد المسلمين من أرمينية وإعادتها إلى الحظيرة البيزنطية، ولكنه تلقى من حبيب وجيشه ضربة قاضية ردته خاسئاً مدحوراً، وانتهت بذلك الحملات البيزنطية على أرمينية[٣].

---

(١) البلاذري ص ٢٠٢.

(٢) نفسه ص ٢٠٤.

(٣) العدوى الأمويون والبيزنطيون ص ١٢٥

رَدْع المتمرّدين في الإسكندريّة

كبر على الروم خروج الإسكندرية من أيديهم، وظلوا يتحينون الفرص لإعادتها إلى حوزتهم، فراحوا يحرضون من بالإسكندرية من الروم على التمرد والخروج على سلطان المسلمين، ذلك لأن الروم كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون الاستقرار في بلادهم بعد خروج الإسكندرية من ملكهم[١].

وصادف تحريض الروم لأهل الإسكندرية هوى في نفوس سكانها فاستجابوا للدعوة وكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل يخبرونه بقلة عدد المسلمين، ويصفون له ما يعيش فيه الروم بالإسكندرية من الذل والهوان[٢].

وكان عثمان رضي الله عنه ـ قد عزل عمرو بن العاص عن مصر، وولى مكانه عبدالله بن سعد ابن أبي سرح، وفي أثناء ذلك وصل منويل الخصي قائد قوات الروم لإعادة الإسكندرية وتخليصها من يد المسلمين إلى الإسكندرية، ومعه قوات هائلة يحملهم في ثلاثمائة مركب مشحونة بكل ما يلزم هذه القوات من السلاح والعتاد[٣].

علم أهل مصر بأن قوات الروم قد وصلت إلى الإسكندرية، فكتبوا إلى عثمان يلتمسون إعادة عمرو بن العاص ليواجه القوات الغازية فإنه أعرف

(١) ابن الأثير (٣/٨١).
(٢) البلاذري ص ٢٢٣.
(٣) نفسه.

بحربهم، وله هيبة في نفوسهم، فاستجاب الخليفة لطلب المصريين، وأبقى ابن العاص أميراً على مصر(١).

ونهب منويل وجيشه الإسكندرية، وغادروها بعد أن تركوها قاعاً صفصفاً ليعيثوا فيما حولها من القرى ظلماً وفساداً.

وأمهلهم عمرو ليمعنوا في الإفساد، وليشعر المصريون بالفرق الهائل بين حكامهم من المسلمين، وحكامهم من الروم، ولتمتلىء قلوب المصريين على الروم حقداً وغضباً فلا يكون لهم من حبهم والعطف عليهم أدنى حظ.

وخرج منويل بجيشه من الإسكندرية يقصد مصر السفلى دون أن يخرج إليهم عمرو أو يقاومهم أحد، وتخوف بعض أصحاب عمرو من هذه السياسة، فإنها قد تؤدي إلى استغلاظ أمر الروم، أو إلى إياس المصريين من دفاع العرب عنهم فينضمون إلى جيوش الروم الغازية، ولكن عمراً كان له رأي آخر، فقد كان يرى أن يتركهم يقصدونه، ولا يشك أنهم سينهبون أموال المصريين، وسيرتكبون من الحماقات في حقهم ما يملأ قلوبهم حقداً عليهم وغضباً منهم، فإذا نهض المسلمون لمواجهتهم عاونهم المصريون على التخلص منهم، وحدد عمرو سياسته هذه بقوله: (دعهم يسيروا إليّ، فإنهم يصيبون من مروا به، فيُخزي بعضهم ببعض)(٢).

وقد صدق حدس عمرو، وأمعن الروم في إفسادهم ونهبهم وسلبهم، وضج المصريون من فعالهم، وأخذوا يتطلعون إلى من يخلصهم من شر هؤلاء الغزاة المفسدين.

وكان عمرو يعد جيشه، ويهيئُه مادياً ومعنوياً لملاقاة خصمه، وقد عزم على أن ينزل به ضربة لا تترك له فرصة التفكير في استرداد هذه الأرض مرة أخرى.

وصل منويل إلى نقيوس، واستعد عمرو للقائه هناك، وعبأ جنده، وسار

---

(١) نفسه ص ٢٢٥.

(٢) المقريزي (١/١٦٧)، هيكل (عثمان بن عفان) ص ٦٧.

بهم نحو عدوه الشرس، وتقابل الجيشان عند حصن نقيوس على شاطىء نهر النيل، وعمرو خبير بالأرض وما عليها فقد التقى بجيش الروم قبل ذلك وفي هذا المكان عينه، وأنزل بهم هزيمة ساحقة، ولعل الله يمن عليه بنصر على عدوه كما حدث في المرة السابقة.

وذكر عمرو جنوده بنصر الله لهم، وأعلمهم بأن اليوم له ما بعده، وأنه يوم حاسم فإذا لم يستبسلوا فيه لينصروا دين الله باءوا بالخسران، ورجعوا إلى بلادهم بالخزي والعار.

واستبسل الفريقان أيما استبسال، وصبر كل فريق صبراً أمام خصمه زاد الحرب ضراوة واشتعالاً، ودفع بالقائد عمرو إلى أن يمعن في صفوف العدو، ويقحم فرسه بين فرسانهم، ويشهر سيفه بين سيوفهم، ويقطع به هامات الرجال وأعناق الأبطال، وأصاب فرسه سهم فقتله، فترجل عمرو وانضم إلى صفوف المشاة، ورآه المسلمون فأقبلوا على الحرب بقلوب كقلوب الأسود لا يهابون الموت ولا يخافون قعقعة السيوف.

حمى وطيس الحرب، وأبدى الفريقان من الشجاعة ما جعل اليأس يتسرب إلى النفوس من انتصار أحد الفريقين، وإذا رجلٌ من الروم يبرز من بين صفوفهم ويطلب المبارزة، وكان في عينيه يأس من الحياة، وبدا له أن الموت خير من النجاة بعار الهزيمة وانبرى له رجل من المسلمين لم يكن أقل منه حماسة وشجاعة.

والتقى الرجلان فتناوشا بالرماح فترة فلم تغن الرماح شيئاً، فألقى الرومي رمحه واستل سيفه وقابله البطل المسلم (حومل) بسيفه، وأظهر كل منهما براعة وشجاعة وإقداماً مما جعل الجيشين ينسيان المعركة، ويصطفان لمشاهدة ما يظهر البطلان من فنون الحرب والبطولة، وحمل الرومي على حومل بسيفه، وتلقاه حومل فضربه ضربة أردته قتيلاً، وحمل حومل جريحاً إلى صفوف المسلمين، ولكنها كانت جراحاً مميتة مات منها بعد أيام، وبعث عمرو بجثمان حومل ذلك البطل الشهيد إلى الفسطاط ليدفن هناك، فحمل على سرير، وكان عمرو بنفسه يحمل الجنازة تكريماً لفعال هذا البطل، وقد

حكى المقريزي هذا المشهد بقوله: (ورُئِي عمرو يحمل سريره بين عمودي نعشه حتى دفنه بالمقطم)[1].

دارت المعركة عنيفة بين الفريقين بعد مقتل الرومي، وقد رفعت شجاعة حومل وانتصاره معنويات المسلمين بقدر ما حطمت نفوس الروم، فهجم المسلمون على عدوهم وقد رأوا بشائر النصر بأعينهم، وأما الروم فقد وهنت عزائمهم وخارت قواهم، فانهزموا أمام الأبطال الذين لا يرضون بغير النصر إلا الشهادة.

وفر الروم أمام المسلمين يقصدون الإسكندرية لعلهم يجدون في حصونها المنيعة وأسوارها الشاهقة ما يواري عنهم شبح الموت الذي يلاحقهم[2].

وأخذ الروم يفسدون الطرق المعبدة، ويدمرون الجسور القائمة لعل ذلك يحول بينهم وبين عدوهم الذي يتعقبهم، ولكن ذلك لم يوقف المسيرة المتقدمة ولم يحل بين الجيش الذي تذوق حلاوة النصر وبين بلوغ أهدافه، وخرج المصريون بعد أن رأوا هزيمة الروم يصلحون للمسلمين ما أفسده العدو الهارب من الطرق ويقيمون لهم ما دمره من الجسور، وأبدى المصريون غبطتهم بانتصار المسلمين على العدو الذي انتهك حرماتهم واعتدى على أموالهم وممتلكاتهم، وقدموا للمسلمين ما ينقصهم من السلاح والمؤونة[3].

انتهى عمرو من دفن البطل الشهيد حومل، وتوجه بجيشه المظفر نحو الإسكندرية فوجد الروم قد تحصنوا بأسوارها وحصنوها ونصبوا العرادات يرمون بها كل من حاول الاقتراب منها[4]، ووقف عمرو ينظر ويتأمل أسوارها ويذكر حصونها، ولا شك في أنه ندم أشد الندم على ضياع العاصمة الرشيقة

---

(١) المقريزي (١/١٦٨).
(٢) البلاذري ص ٢٢٣.
(٣) هيكل ص ٦٩.
(٤) البلاذري ص ٢٢٣.

العتيقة، وأخذ يفكر كيف الوصول إلى الاستيلاء عليها مرة أخرى، وتأكد أن أسوارها الشاهقة هي سبب الحيلولة بينه وبينها إذ لولا تلك الأسوار ما وجد الجيش المنهزم مأوى يلجأ إليه، ولما استعصى عليه فتحها بعد أن مُنِي الروم بالهزيمة النكراء.

ولعل هذا هو السر في أن عمراً أقسم لئن فتحها الله عليه، وتم له الاستيلاء عليها ليهدمنّ سورها وليجعلنها بلا أسوار تؤتى من كل مكان[1].

وطال الحصار وإن لم يكن كثيراً، وأمر عمرو رجاله أن يبتعدوا عن مرمى المجانيق حتى لا يصيبهم منها شيء، ونصب عليها المجانيق، وظل يضرب أسوار الإسكندرية حتى أوهنها وألح عليها بالضرب حتى ضعف أهلها وتصدعت أسوارها وفتحت المدينة الحصينة أبوابها، ودخل المسلمون الإسكندرية، ولكن كيف تم لهم ذلك؟ وما مصير من فيها؟

أغلب الظن أن عمراً أوهى أسوارها بالمجانيق، وألقى الرعب في قلوب حاميتها المهزومة فلم تقو الأسوار على حمايتها، ولم تستطع الحامية الدفاع عنها ففتح الحراس الأبواب أمام الضغط المتزايد من القوات المهاجمة، فاقتحمها المسلمون غير عابئين بما وراءها.

وأما قصة ابن بسامة، وما كان منه من الخيانة كما ذكر ابن عبد الحكم، فليس لدينا من الوثائق ما نستطيع الاعتماد عليه في صحة الرواية، وتبقى الرواية قائمة على عهدة ابن عبد الحكم.

وأعمل المسلمون سيوفهم في الروم يقتلون المقاتلين، ويأسرون النساء والذرية وهرب من نجا من الموت لاجئين إلى السفن ليفروا بها عائدين من حيث أتوا وكان منويل في عداد القتلى، ولم يكف المسلمون عن القتل والسبي حتى أمر عمرو بذلك لما توسط المسلمون المدينة، ولما لم يكن هناك من يقاوم أو يتصدى لهم[2].

---

(١) المقريزي (١/١٦٧).

(٢) نفسه (١/١٦٨).

ولما فرغ المسلمون أمر عمرو ببناء مسجد في المكان الذي أوقف فيه القتال وسماه مسجد الرحمة[1]، وعادت إلى العاصمة العتيدة طمأنينتها، وعادت السكينة إلى قلوب المصريين فيها، فرجع إليها من كان قد فر منها أمام الزحف الرومي الرهيب.

وعاد بنيامين بطريق القبط إلى الإسكندرية بعد أن فر مع الفارين، وأخذ يرجو عمراً ألا يسيء معاملة القبط لأنهم لم ينقضوا عهدهم، ولم يتخلوا عن واجبهم، ورجاه كذلك ألا يعقد صلحاً مع الروم، وأن يدفنه إذا مات في كنيسة يحنس[2].

وحضر المصريون من القرى المختلفة إلى عمرو يشكرونه على تخليصهم من إرهاب الروم، ويشكون إليه ما نهبوا من أموالهم ودوابهم معلنين ولاءهم وطاعتهم فقالوا: إن الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة.

فطلب منهم عمرو أن يقيموا البينة على ما ادعوا ومن أقام بينة وعرف ما له بعينه رده عليه[3].

اطمأن المصريون في جوار عمرو، وفرحوا بعودة سلطان المسلمين على بلادهم، فقد لمسوا فيما مضى من عدلهم ورحمتهم ما جعلهم يلهجون بالثناء عليهم وها هم أولاء يجدون في حكم المسلمين هذه المرة ما يربط قلوبهم بهم، فقد ردوا عليهم أموالهم وكل ما سلبه الروم منهم.

وحمد عمرو الله ـ عز وجل ـ على نصره، وشكر له ـ جل ثناؤه ـ إنجاز وعده، ونظر إلى سور الإسكندرية فتذكر نذره، وقام إليه ليبر قسمه، فأمر بهدمه وتركها بغير سور[4]. وكان ذلك في سنة ٢٥ من الهجرة.

---

(١) المقريزي (١/١٦٨).
(٢) هيكل ص ٧٠.
(٣) ابن الأثير (٣/٨١).
(٤) نفسه.

وأصبحت الإسكندرية آمنة من جهاتها كلها رغم هدم سورها، فقد كان شرقيها في قبضة المسلمين وكذلك جنوبيها، وأما غربيها فقد أمنه عمرو ابن العاص بفتح برقة وزويلة وطرابلس الغرب وصالح أهل هذه البلاد على الجزية، فكانوا يدفعونها طائعين.

وأما شمالها فكان في قبضة الروم، وقد تلقنوا درساً على يد المسلمين لم يترك لهم فرصة للتفكير في العودة، وحتى لو فكروا في العودة فهيهات أن يدخلوها وليس لهم فيها نصير ولا معين، وقوات المسلمين تراقب البحر بكل يقظة واهتمام.

أطل عمرو بن العاص على إفريقيا بعد فتح طرابلس، ونظر إليها بعين الطموح المشرئب وهم بالتوجه إليها فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في فتحها فقال: إنا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين إفريقية تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل.

فرد عليه عمر ينهاه ويقول له: ما هي بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها[1].

ورجع عمرو من طرابلس إلى مصر، وكله أمل في أن تتاح له فرصة لفتحها.

---

(١) البلاذري ص ٢٢٧.

فتح إفريقية

انتقل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى الله وهو مصر على موقفه السابق من فتح إفريقيا، ولكن ذلك لم يثن عزم ابن العاص على فتحها، بل ظل يرقب الوقت المناسب لينتهز الفرصة، فلما تولى عثمان بن عفان أمر المسلمين أعاد عمرو عليه الكرة ورغبه في فتح إفريقيا.

وكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ قد عزم على أن يولي عمرو بن العاص على الحرب، ويولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج، فأبى عمرو ذلك وقال: أنا كماسك قرنَي البقرة والآخر يحلبها[1].

واختلف عمرو وعبد الله وشكا كل منهما صاحبه إلى الخليفة، فعزل عثمان عمراً واستقدمه فقدم عمرو مغضباً. ودخل على الخليفة وعليه جبة محشورة قطناً، فلما دخل على عثمان أراد عثمان أن يداعب عَمراً، وكأنه يريد أن يذهب عنه غضبه فقال: ما حشو جبتك؟ فقال: عمرو.

قال عثمان: قد علمت أن حشوها عمرو، ولم أرد هذا، إنما سألت، أقطن هو أم غيره؟[2].

وولى عثمان عبدالله بن سعد الخراج والجند[3].

---

(١) البلاذري ص ٢٢٥.

(٢) ابن الأثير (٣/٨٨).

(٣) الطبري (٤/٢٥٦).

خلص الأمر في مصر لعبدالله بن سعد بن أبي سرح بعد عزل ابن العاص وكان هو الآخر لا يقل عن عمرو بن العاص تطلعاً إلى إفريقيا، فأرسل سرايا في جرائد خيل إلى أطراف إفريقيا فأصابوا وغنموا غنائم كثيرة، شجعت عبدالله على أن يطلب من الخليفة الأذن في غزوها، وكان عثمان متردداً في ذلك، فاستشار من حوله من المسلمين، فأشاروا عليه بغزوها[1]. فكتب إلى عبدالله بن سعد يأمره بغزوها وأمده بجيش عظيم فيهم جلة الصحابة وخيارهم عبدالله بن الزبير، والمسور بن مخرمة، وعبدالله بن عمر، وعبد الرحمن ابن أبي بكر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، ويسر بن أرطاة العامري بالإضافة إلى معبد بن العباس بن عبد المطلب، ومروان بن الحكم، وأخوه الحارث ابن الحكم، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعاصم بن عمر، وعبد الله ابن عمر، وأبو ذؤيب خويلد ابن خالد الهذلي، وتوفي بها فقام عليه ابن الزبير حتى واراه في لحده[2].

واستنفر عثمان المسلمين مع الجيش الذاهب إلى إفريقية فخرج جمع كثير ممن حول المدينة.

وصل الجيش إلى مصر، وهناك استقبله ابن أبي سرح، وأعده للقتال، ثم سار به نحو إفريقيا فلما وصل سعد بجيشه إلى برقة التقى هناك بعقبة ابن نافع فيمن معه من المسلمين، وانضم الجيشان وساروا جميعاً نحو طرابلس الغرب.

وكانت طرابلس بداية مملكة جرجير التي تنتهي عند طنجة، وكان جرجير عاملاً على إفريقية لهرقل يجمع له خراجها كل عام ويبعث به إليه.

بلغ جرجير أن المسلمين قد يمموا نحو بلاده، فأخذ يستعد للقائهم، وجمع جيشاً ضخماً تعداده مائة ألف وعشرون ألف فارس، وتربص بالمسلمين، فلما كانوا بمكان بينه وبين سبيطلة يوم وليلة التقى الجيشان، وكانت سبيطلة هي عاصمة جرجير.

---

(١) ابن الأثير (٣/٨٩).

(٢) البلاذري ص ٢٢٨.

أرسل عبدالله بن سعد إلى جرجير يدعوه إلى الإسلام ـ كعادة المسلمين في كل معاركهم ـ فأبى ـ فطالبه بالجزية فرفض واستكبر، فلم يكن هناك بد من الحرب[1].

يقول ابن الزبير: أغزانا عثمان بن عفان إفريقية، وكان بها بطريق سلطانه من طرابلس إلى طنجة، فسار عبدالله بن أبي سرح حتى حل بعقوبة فقاتله أياماً فقتله الله ـ وكنت أنا الذي قتلته ـ فهرب جيشه فتمزقوا، وبث ابن أبي سرح السرايا ففرقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا من عبدالله ابن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يكف عنهم، ويخرج من بلادهم فقبل ذلك[2].

خطة ابن الزبير لإنهاء المعركة:

ويروي ابن الأثير أن عبدالله بن الزبير رأى القتال بين الفريقين يبدأ من الصباح الباكر إلى أذان الظهر فإذا أذن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه، ولم ير عبدالله بن الزبير عبدالله بن أبي سرح بين المسلمين، فسأل عنه، فقيل إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبدالله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي، فهو يخاف.

فذهب إليه ابن الزبير وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف، وزوجته ابنته، واستعملته على بلاده، ففعل ذلك، فصار جرجير يخاف أشد من عبدالله[3].

لم يرق عبدالله بن الزبير طريقة القتال التي كان يتقاتل بها الفريقان، حيث كانوا يتقاتلون من الصباح إلى الظهيرة ثم يمسكون فيذهب كل فريق إلى خيامه كما قدمنا.

---

(١) ابن الأثير (٣/٨٩).
(٢) البلاذري ص ٢٢٨.
(٣) ابن الأثير (٣/٩٠).

رأى ابن الزبير أن الأمر على هذا النحو سيطول، وستبدأ المعركة كل يوم وكأنها معركة جديدة لم يرهق فيها أحد ولم ينل النصب من أحد، والروم في بلادهم تأتيهم ميرتهم ويجددون أسلحتهم وإذا نقص الجند بالقتل استبدلوا بهم غيرهم فمتى إذن تنتهي المعركة؟.

إن المسلمين لو طال بهم الوقت لا بد أن تكون النتيجة بعكس ما يحبون إنهم يفقدون من الجند فلا يجدون البديل، وتنقص عليهم المؤنة ولا يستطيعون تعويضها، ويحتاجون إلى المزيد من السلاح وليس إليه سبيل ففي مصلحة من تكون النتيجة؟

فكر ابن الزبير في هذا كله ورسم على أساسه خطة للمعركة تحسم الأمر وتنهي النزاع، واستقرت الفكرة في رأس ابن الزبير، وذهب إلى عبدالله بن أبي سرح ليعرضها عليه.

التقى ابن الزبير بابن أبي السرح وعرض عليه خطته فقال: إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلادهم هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر حتى يضجروا ويملوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ممن لم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم[1].

استمع ابن أبي سرح إلى رأي ابن الزبير وتأمله كثيراً ويبدو أنه أعجب ابن أبي سرح فحمله إلى أهل الشورى وعرضه عليهم فرأوا رأياً صائباً وخطة محكمة، فلم يترددوا في الموافقة عليه وتحمل ابن الزبير بنفسه تنفيذ الخطة.

فلما كان الغد والتقى الفريقان لم يكن مع ابن الزبير إلا عامة المقاتلين، أما الشجعان وأهل البلاء فقد استبقاهم عبدالله في خيامهم

---

(١) ابن الأثير (٣/٩٠).

ليستجموا بعض الوقت ويتأهبوا لمنازلة عدوهم بعد انتهاء المعركة المألوفة كل يوم.

ودارت المعركة كما تدور في كل يوم ولم يدر بخلد الروم أن الأمر سيختلف وأن شخصية جديدة بدأت تظهر في ميدان المعركة وأن المسلمين أخذوا يفكرون في حسم المعركة بطريقة تنهيها لمصلحتهم.

وكان الروم مطمئنين أن المعركة على النحو الذي تدور به خالصة لهم، وأن نتيجتها محتومة لمصلحتهم، فلم يفكروا في التغيير، ولم يدخلوا على خطتهم أي تعديل، فالتقوا مع المسلمين كما يلتقون في كل يوم، فلما حان وقت الظهر، وارتفع صوت المؤذن الذي ألفوه ميقاتاً لانتهاء المعركة كما يألف التلميذ صوت الجرس مؤذناً بانتهاء اليوم الدراسي، هموا جميعاً بالانصراف كالعادة.

ولكن ابن الزبير فاجأهم بشيء جديد فقد ألح عليهم بالقتال، ولم يتركهم يذهبون إلى خيامهم آمنين، واضطر القوم للتصدي لابن الزبير وجيشه، فلما أحس ابن الزبير بأن القوم قد أجهدوا وبدا عليهم الإعياء ونال منهم التعب كل منال تركهم ينصرفون إلى خيامهم.

ولم يكد الجيش المنهوك القوي المبهور الأنفاس يصل إلى خيامه حتى ألقى عنه سلاحه وألقى بنفسه على الأرض في محاولة للاسترخاء طلباً للراحة، والتماساً للهدوء النفسي الذي حرم منه في الساعات الماضيات.

ومضت لحظات تنفس فيها جيش جرجير الصعداء وظن أن الأمر سيقف عند هذا الحد وأنه سيتمتع بليلة هانئة هادئة شأنه في كل ليلة مضت منذ اندلاع المعارك بين الفريقين، واستسلم الجنود وقائدهم جرجير للهدوء الذي نعموا به تلك اللحظات، وأخلدوا إلى الراحة التي منوا بها أنفسهم، وطرحوا وراءهم متاعب معركة مضت وهيهات أن يطلع صباح الغد المرتقب.

وبينما القوم يحاولون الاستمتاع بلحظات الأمن التي أتيحت لهم فقد لا يدركونها مرة أخرى، إذ خرج عليهم ابن الزبير بالفرقة التي لم تشترك في

المعركة السابقة، وكلها من الأبطال الصناديد وفاجأوا الناس وهم مستلقون فلم يتمكنوا من لبس سلاحهم، وإن كانوا قد نهضوا للدفاع عن أنفسهم.

يقول ابن الأثير: فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقتل جرجير - قتله ابن الزبير - وانهزم الروم، وقتل منهم مقتلة عظيمة[1].

وهذا الإيجاز من ابن الأثير لا يشفي غلة الباحث في مثل هذه المعركة التي فتحت إفريقية أمام المسلمين ومهدت الطريق إلى الأندلس وأطلقت أيدي المسلمين في هذه البلاد من غير مقاومة تذكر.

ولنستمع إلى ابن الزبير - رضي الله عنه - يحكى لنا قصة قتل جرجير وهزيمة جيش الروم حين يقول: نظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف، وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري وأقصد الملك.

فجهز معي جماعة من الشجعان فأمر بهم فحموا ظهري، وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه - وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك - فلما اقتربت منه أحس مني الشر ففر على برذونه فلحقته فطعنته برمحي، وذففت عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت.

فلما رأى ذلك البربر تفرقوا وفروا كفرار القطا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمة وأموالاً كثيرة وسبياً عظيما، وكان ذلك ببلد يقال له سبيطلة على يومين من القيروان[2].

ولعل من أهم الأسباب التي مكنت المسلمين من إنهاء المعركة بتلك السرعة ولعل السبب الأعظم الذي جعل جرجير لا يحارب في معركة فاصلة تدور حتى يسلم أحد الطرفين هو أنه كان قد ثار على الإمبراطور البيزنطي

---

(١) ابن الأثير (٣/٩٠).
(٢) ابن كثير (٧/١٥٢).

واستقل بإقليم إفريقية مما جعله يقف في الميدان وحده دون أن يتلقى أي عون من الروم، ويتلقى ضربات المسلمين العنيفة دون أن يدخل في معركة فاصلة.

وبالرغم من أن جرجير قد استطاع أن يجمع جيشاً قوامه مائة وعشرون ألفاً على أقل تقدير وبالرغم من أن جيش المسلمين لم يزد على عشرين ألفاً على أكثر تقدير فقد استطاع المسلمون أن ينزلوا بجرجير وجيشه هزيمة فتحت أمامهم إفريقيا.

فبعد قتل جرجير وهزيمة جيشه زحف عبدالله بن أبي سرح إلى العاصمة سبيطلة وحاصرها حصاراً شديداً حتى استسلمت ودخلها الجيش الإسلامي وقضى على من فيها من البيزنطيين وواصل المسلمون زحفهم يطاردون الفلول المذعورة من بقايا جيش الروم والتي حاولت التحصن بحصن «الأجم» فأسرع المسلمون، وحاصروا الحصن ومنعوا الجيش الفار من دخوله، واستولوا عليه، ودحروا ما بقي من جيش الروم(١).

وبث ابن أبي سرح سراياه في أنحاء مختلفة من شمال إفريقيا فاستولت على سائر الحصون التي صادفتها ولم يعد للروم مقر يأوون إليه، واضطر البربر أمام هذا الزحف الكاسح الذي كاد يدمر بلادهم ويقضي على سلطانهم أن يعرضوا الصلح على المسلمين، وصالحهم المسلمون على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار، أي مليونين ونصف من الدنانير - وكانت ابنة جرجير من سبايا هذه المعارك، فنفلها عبدالله بن سعد لابن الزبير، وبعثه ببشارة الفتح إلى عثمان(٢).

وأقام الجيش الإسلامي في إفريقيا سنة وثلاثة أشهر وكان سهم الفارس من غنائمها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار(٢).

وعاد ابن أبي سرح إلى مصر دون أن يولي أحداً عليها.

---

(١) الأمويون والبيزنطيون، العدوى ص ٢٢٩، ٢٣٠، ابن الأثير (٣/٩١).
(٢) ابن الأثير (٣/ ٩٠ - ٩١).

المعارك البحريّة

لم يشترك المسلمون في معارك بحرية قبل عهد عثمان أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ، فبالرغم من أن معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ والي الشام من قبل عمر بن الخطاب، قد ألح على الخليفة في أن يسمح له بغزو قبرص عن طريق البحر، وهون عليه أمرها حتى قال له: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم[1].

فإن عمر بن الخطاب لم يسمح بركوب المسلمين البحر، ولكن معاوية لم يكف عن إلحاحه وأخذ يطلب ذلك من الخليفة كلما سنحت مناسبة.

وكاد عمر ـ رضي الله عنه ـ يرق لإلحاح معاوية، ولكن نفسه لم تطاوعه خوفاً على المسلمين فكتب إلى عمرو بن العاص يقول له: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه[2].

فكتب عمرو يقول: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق[3].

---

(١) الطبري (٤/٢٥٤).
(٢) نفسه.
(٣) ابن الأثير (٣/٩٥).

وإنه لوصف دقيق يلفت النظر فيه تلك التشبيهات المرعبة المخيفة، والمقابلات القوية العنيفة، ومن أقدر على هذا الوصف من عمرو بن العاص؟ لقد ترك قلب أمير المؤمنين بعد وصول الرسالة إليه يخفق، وكأنه في وسط لجة تضطرب، وتخيل الدود على ظهر العود يتلاعب به الموج الصاخب فبعضه يغرق، والآخر يبرق، ومر بخياله المسلمون يتساقطون في ماء البحر أمام عينيه وهو لا يملك إنقاذهم.

لا أشك في أن هذه الصورة المخيفة مرت بخاطر أمير المؤمنين عمر حينما تلقى رسالة عمرو بن العاص، ولهذا كتب على الفور لمعاوية بن أبي سفيان كتاباً تكاد تلمس فيه غضب أمير المؤمنين، وانزعاجه لما يريد أن يعرضهم له معاوية، وتحس في كل كلمة من كلماته جرص الخليفة على رعيته، وحبه لهم، وحدبه عليهم، يقول عمر: والذي بعث محمد ﷺ بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر؟ وبالله، لمسلم أحب إليّ مما حوت الروم، وإياك أن تعرض إليّ، فقد علمت ما لقي العلاء مني[1].

ويبدو أن معاوية طأطأ رأسه لأمر عمر وسكت حتى تهدأ العاصفة، وطوى قلبه على ما فيه، ولعله أدرك أن الكلام في هذا الأمر قد يغلق دونه الباب فلا يستطيع الولوج إليه، فلينتظر حتى تبرق له بارقة أمل من خلال هذا اليأس.

إن رسالة عمر إلى معاوية لا ينقصها إلا الأمر بعزله، ولعله إن راجع أمير المؤمنين مرة أخرى يصيبه ما يحذر منه، فليسكت، وليدع الأمر حتى يحين حينه.

ويظهر أن عمر بن الخطاب كان قد قنع بما فتح الله - عز وجل - عليه من البلاد، فقد أزال ملك آل ساسان، وقضى على الدولة المجوسية، وأذل

---

(١) ابن الأثير (٣/٩٦).

آل هرقل وفتح قواده أكثر بلادهم وأصبحت دولة الإسلام واسعة الأرجاء، مترامية الأطراف ويحسب عمر أن يعدل في أهل تلك الرقعة الفضفاضة من أرض الله.

لهذا لم يتطلع عمر إلى ما وراء البحار ولم يكن به طاقة ليتحمل عبء رقعة أوسع من تلك، وقد كبر سنه، ورق عظمه، وانتشرت رعيته، وكان كل أمله أن يقبضه الله غير مفرط ولا مضيع، فإذا ضممنا هذا المعنى الذي كان يراود عمر، إلى خوفه على المسلمين وحرصه عليهم لأنه مسؤول عنهم لكفانا ذلك في فهم عزوف عمر عن فتح قبرص وما عداها من جزر البحار مهما خفت مؤونتها، وسهلت معالجتها.

وكان من جراء توقف عمر عن التوسع في الفتح أن هادنه ملك الروم، وكاتبه، وبعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وزوج أمير المؤمنين عمر إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء، ودستها إلى البريد فأبلغه لها، وأخذ منه.

وتقبلت ملكة الروم الهدية ويبدو أنها أعجبت بها، فجمعت النساء وقالت: هذه هدية امرأة ملك العرب، وبنت نبيهم، وكاتبت الملكة زوج أمير المؤمنين، وكافأتها، وأهدت لها، وفيما أهدت لها عقداً فاخراً[1].

رأى عمر العقد مع البريد فأمر بإمساكه، وجمع المسلمين، واستشارهم في أمر العقد.. فقال قائلون: هو لها بالذي لها، وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به، ولا تحت يدك فتتقيك.

وقال آخرون: قد كنا نهدي الثياب لنستثيب، ونبعث بها لتباع، ولنصيب ثمناً.

قال عمر: ولكن الرسول رسول المسلمين، والبريد بريدهم،

---

(١) الطبري (٤/٢٦٠).

والمسلمون عظموها في صدرها، ثم أمر بردها إلى بيت المال، ورد عليها بقدر نفقتها[1].

ومضت فترة غير قصيرة وما زال معاوية يتطلع إلى ركوب البحر وغزو قبرص ولكنه لا يستطيع أن يبدي فيه أو يعيد، وظل يرقب الفرصة من بعيد، وحانت الفرصة حين تولى عثمان بن عفان أمر المسلمين.

وعاود معاوية طلبه من الخليفة الجديد وتردد الخليفة بادىء ذي بدء، أيجيبه إلى ما طلب ويخالف سلفه في ذلك أم يقتدي بالخليفة ويرفض طلبه؟.

ويمثل هذا التردد في نفس الخليفة خطابه إلى معاوية حين طلب الإذن بغزو قبرص فكتب إليه: إني قد شهدت ما رد عليك عمر ـ رحمه الله ـ حين استأمرته في غزو البحر[2].

إن هذا الكتاب من الخليفة لا يمثل رأياً صريحاً سواء كان ذلك بالقبول أو الرفض فهو يخبره بأنه يعلم رد عمر عليه، ولكن هل يؤيد عثمان رأي عمر فيرفض كما رفض أو يخالفه فيرضى ويوافق على ما رفض؟ تلك حقيقة لم تتضح بعد في ذهن الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ولذا لم يرفض ولم يوافق.

وفي الوقت نفسه كأن رد الخليفة قد منح معاوية فرصة المعاودة والطلب، فلم يسكت بل ألح وكرر الطلب حتى وافق الخليفة، ولكنه اشترط عليه أن يصحب زوجه معه في تلك الرحلة[3] وألا يكره أحداً على الخروج في هذه الغزوة[4].

إن عثمان باشتراط هذين الشرطين يكون قد أخرج نفسه من تحمل

---

(١) نفسه.
(٢) البلاذري ص ١٥٧.
(٣) نفسه.
(٤) ابن الأثير (٣/٩٦).

مسؤولية الغزاة في البحر لأن معاوية إذا كان يقدر أن الأمر فيه مخاطرة لا يمكن أن يصحب معه زوجه، فهو حينئذ يعرضها لخطر الأسر وهو أشد على نفس الحر من الموت مهما كان طعمه، وبالشرط الآخر لن يخرج أحد مكرهاً فمن يخرج يخرج طائعاً مختاراً فهو إذ اً أمير نفسه، ويتحمل تبعة ما يجري عليها.

وعندما يقف الإنسان على موافقة الخليفة على الغزو في البحر يجد نفسه أمام تساؤل هام عن الدوافع التي جعلت الخليفة ـ مع حرصه على اتباع سياسة عمر، وتحريه لسلامة المسلمين وعدم تعريضهم للخطر ـ يوافق على ركوب البحر، ويسمح للمسلمين بالحرب على متنه.

إنها ولا شك مغامرة خطيرة، ولا بد أن تكون الدوافع إليها أكثر أهمية في نظر الخليفة وتقديره، فما عسى تكون تلك الدوافع؟.

إنني أعتقد أن أهم دوافع الموافقة على الغزو في البحر هي حرص الخليفة على توسيع رقعة الدولة الإسلامية، لشعوره بأن الإسلام لا بد أن يظهر على الدين كله، وأن من واجب الخليفة السعي لتحقيق ذلك، أما وقد فتحت بلاد الفرس في عهد عمر، وقد استولى المسلمون على أكثر بلاد الروم في عهده، فليس أمام الخليفة الجديد سوى هذه البلاد المبثوثة في ثنايا هذا البحر الممتد خلف الأفق البعيد، أو بلاد إفريقيا التي لم تصل لها جيوش المسلمين بعد.

والخليفة السابق وإن كان حذّر عمرو بن العاص من غزو إفريقيا[١]، ونهى معاوية بن أبي سفيان عن غزو قبرص[٢] فإن الخليفة اللاحق لا يجد بداً من غزو هذه المناطق لتوسيع رقعة الدولة وإضافة الجديد إلى بلاد المسلمين.

لا بد أن الخليفة قد اقتنع بهذا وطابت نفسه به ولهذا كتب إلى معاوية:

---

(١) البلاذري ص ٢٢٧.
(٢) ابن الأثير (٣/٩٥).

فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك، وإلا فلا[1]. ولا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه[2].

تسلم معاوية كتاب الخليفة بالموافقة على غزو قبرص فجد في الأمر، ونهض به على النحو الذي علم أنه يحقق له رغبته.

وكان عليه أن يعد المراكب التي ستحمل المجاهدين وعليه أن يعلن للناس عن عزمه ويخيرهم حسبما أمره الخليفة وعليه فوق ذلك كله أن يهيء نفوس المقاتلين لركوب البحر فإن الأمر عليهم جديد ولم يسبق لهم به خبرة ولا معرفة وعليه بعد هذا أن يرسم خطة الهجوم ويجهز المسلمين بكل ما يلزم لخوض المعركة.

موقع قبرص:

قبرص جزيرة من جزر البحر المتوسط الكثيرة والمنتشرة في نواحيه المختلفة، وهي تقع في أقصى الشمال الشرقي منه، بالقرب من أرض الأناضول والشام، حيث تقع الجزيرة جنوبي الأناضول وغربي الشام، ويفصل البحر بينها وبين أرض الشام والأناضول بمضيق، بحيث يسمع أهل الشام صياح دجاجهم، ونباح كلابهم، من مدينة حمص.

والجزيرة مشهورة بخصوبة أرضها وطيب هوائها وفاكهتها الكثيرة المتنوعة، ولموقعها الاستراتيجي الهام وخيراتها الكثيرة كانت دائماً مطمعاً للدولتين العظميين ـ الفرس والروم. وفي الفترة التي غزاها فيها المسلمون عام ٢٧ أو ٢٨ هـ الموافق ٦٤٧ م ٦٤٨ م كانت الجزيرة تحت سلطة الروم، وهي أول غزوة بحرية غزاها المسلمون[3].

ولعل الذي شجع المسلمين على غزوها انهزام الروم أمام جيوش المسلمين في كل معركة خاضوها معهم، ولعل غزوة الإسكندرية البحرية

---

(١) البلاذري ص ١٥٧.
(٢) ابن الأثير (٣/٩٦).
(٣) البلاذري ص ١٥٧.

التي قادها منويل الخصي، والتي مني فيها الروم بفشل ذريع، وقتل فيها منويل نفسه كانت من أكبر العوامل على غزو قبرص وتشجيع المسلمين على خوض المعركة معهم دون مبالاة بالنتائج.

التهيوء للغزو:

أعد معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازي، واتخذ ميناء عكا مكاناً للإقلاع وكانت المراكب كثيرة وحمل معه زوجه فاختة بنت قرظة، كذلك حمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان معه في تلك الغزوة[1].

وأم حرام هذه هي صاحبة القصة المشهورة، التي رويت في الصحيح، روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً فأطعمته ثم جلست تفلي من رأسه فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك.

فقال: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟.

قال: ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة.

قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك.

قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: ناس من أمتي عرضوا عليَّ في سبيل الله، كما قال في الأولى.

قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم.

قال: أنت من الأولين.

---

(١) البلاذري ص ١٥٨، وابن كثير (٧/١٥٣).

فركبت أم حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت[1].

ورغم أن معاوية ـ رضي الله عنه ـ لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين[2] مما يدل على أن المسلمين قد هانت في أعينهم الحياة بما فيها، فأصبحوا لا يعبؤون بها بالرغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون في نعيمها.

إن المسلمين قد تربوا على أن ما عند الله خير وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه وإقامة العدل ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كل ما عداه، وهم يعتقدون أن هذه المهمة هي رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصروا في مهمتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم فسيمسك الله عنهم نصره في الدنيا، ويحرمهم مرضاته في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

من أجل هذا هرعوا مع معاوية وتسابقوا إلى السفن يركبونها ولعل حديث أم حرام قد ألم بخواطرهم فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ثمان وعشرين من الهجرة، ٦٤٩ م[3].

وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء عكا متوجهين إلى قبرص، تتقدمهم سفينة معاوية تتبعها بقية السفن فلما وصلت السفن جزيرة قبرص، ونزل المسلمون إلى الساحل، تقدمت أم حرام لتركب دابتها، فنفرت الدابة وألقت أم حرام على الأرض فاندقت عنقها فماتت[4].

وترك المسلمون أم حرام بعد دفنها في أرض الجزيرة عنواناً على مدى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) ابن كثير (١٥٣/٧).
(٣) البلاذري ص ١٥٨.
(٤) ابن الأثير (٩٧/٣).

التضحيات التي قدمها المسلمون في سبيل نشر دينهم، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة[1].

واجتمع معاوية بأصحابه وكان فيهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، وأبو الدرداء وأبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت وواثلة بن الأسقع وعبدالله بن بشر المازني وشداد بن أوس بن ثابت والمقداد بن الأسود وكعب الحبر بن ماتع وجبير بن نفير الحضرمي[2].

وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم ولكنهم أرادوا تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام.

وذلك لأن البيزنطيين كانوا يتخذون من قبرص محطة يستريحون فيها إذا غزوا ويتموّنون منها إذا قل زادهم وهي بهذه المثابة تهدد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها فإذا لم يطمئن المسلمون على مسالمة هذه الجزيرة لهم وخضوعها لإرادهم فإن وجودها كذلك سيظل شوكة في ظهورهم وسهماً مسدداً إلى حدودهم.

ولكن سكان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة ولم يفتحوا لهم بلادهم بل تحصنوا في العاصمة (قسطنطينا) ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين.

وهكذا يكون السكان قد وقفوا من غزو المسلمين موقفاً سلبياً، فهم لم يقاوموهم إذ لا قبل لهم بمقاومتهم، ولم يستسلموا لهم فيفتحوا بلادهم ولعل تحصنهم بالعاصمة إنما كان من أجل الحصول على صلح يرضونه.

ولكن المسلمين لم يقفوا موقفاً سلبياً يقابلون به موقف أهل الجزيرة وأهل الجزيرة معذورون في موقفهم هذا حيث كانوا ينتظرون تقدم الروم أصحاب السلطان على الجزيرة للدفاع عنها، وصد هجوم المسلمين عليها،

---

(١) البلاذري ص ١٥٨.

(٢) نفسه ص ١٥٩.

ولما لم يحصل ذلك من الروم فماذا ينتظر من سكان مغلوبين على أمرهم إلا هذا الموقف السلبي؟ ولكن ما عذر المسلمين إذا قابلوا الموقف السلبي بموقف مثله، وهم لم يخرجوا من بلادهم إلا للغزو والقتال؟.

الاستسلام وطلب الصلح:

لهذا تقدم المسلمون نحو قسطنطينا وحاصروها وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وأجابهم المسلمون إلى الصلح، وقدموا للمسلمين شروطاً، واشترط عليهم المسلمون شروطاً.

أما شرط أهل قبرص فكان في طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطاً تورطهم مع الروم لأنهم لا قبل لهم بهم، ولا قدرة لهم على قتالهم.

وأما شروط المسلمين فتتمثل فيما يأتي:

١ ـ ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة إذا هاجم سكانها محاربون.
٢ ـ أن يدل سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوهم من الروم.
٣ ـ أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومائتي دينار في كل عام.
٤ ـ أن يكون طريق المسلمين إلى عدوهم عليهم.
٥ ـ ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، ولا يطلعوهم على أسرارهم(١).

وهكذا يكون سكان الجزيرة قد سالموا المسلمين، ولم يعادوا الروم، وبذلك يسلمون من غزو المسلمين ويأمنون شر البيزنطيين.

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، ولم يغرهم الصلح فيأمنوا ويناموا ملء جفونهم ولكن كانوا في حالة حذر وتربص، فمن يضمن لهم أن أهل قبرص لن يساعدوا الروم؟ ولماذا لا يكون القبرصيون قد قبلوا هذه الشروط ليردوا المسلمين عن بلادهم؟ فعلى المسلمين إذاً أن يكونوا على حذر منهم، وعليهم أن يراقبوا الجزيرة عن كثب حتى لا يؤتوا من قبلها.

---

(١) العدوى ص ٩١.

وهذه الحملة وإن لم تؤد إلى جعل قبرص تحت السيادة الإسلامية إلا أنها قد أثبتت قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدخول في معارك من هذا النوع مع العدو المتربص بهم سواء بالهجوم على بلاد الشام أم على الإسكندرية.

ومضت سنوات والقبرصيون ملتزمون بشروط الصلح ولم يحاولوا الإخلال به لعلمهم بما سيترتب على ذلك من هجوم المسلمين على بلادهم وضياعها منهم إلى الأبد وبخاصة وهم قد رأوا بأعينهم أن الروم لم يدافعوا عنهم، ولم يحموا الجزيرة من هجمات المسلمين.

القبرصيون ينقضون الصلح:

وفي سنة اثنتين وثلاثين هجرية، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومي عنيف أجبرهم على إمداد جيش الروم بالسفن ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلوا بشروط الصلح.

وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة ووضعها تحت سلطان المسلمين.

لقد كانت قبرص قادرة على الاستعانة بالمسلمين لإزالة ضغط الروم عنها، وكان باستطاعة حاكمها أن يقف في وجه الروم حتى يأتيه المدد من المسلمين، بل كان باستطاعته أن يخبر المسلمين بما عزم عليه الروم ويكون بذلك قد وفى بعهده وليس عليه بعد ذلك أن يأخذ الروم مراكبه عنوة، أو يجبروه على تسليمها لهم، وعلى المسلمين بعد أن يبلغهم الخبر مواجهة الموقف والوفاء للقبرصيين بعهدهم.

ولكن الذي يبدو للمؤرخ أن القبرصيين كان هواهم مع الروم، وكانوا يقدمونهم على المسلمين، ألم تر أنهم اشترطوا ألا يبرم المسلمون معهم شرطاً يؤذي الروم؟ ثم هم بعد ذلك يساعدونهم على غزو المسلمين، وأغلب الظن أن رابطة الدين قد عززت موقف أهل الجزيرة من الروم الغزاة وإن ذاقوا على أيديهم ألوان المهانة والإذلال.

كان لزاماً على المسلمين إزاء هذا الموقف من الجزيرة أن يلقنوها درساً يجعل أهلها يحترمون العهود، ولا ينقضوا المواثيق، فجهز معاوية لغزوها جيشاً في سنة ثلاث وثلاثين حمله على خمسمائة مركب[١] وأمر عليهم عبدالله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة[٢].

وعلم عبدالله بن سعد بن أبي سرح والى مصر بنقض قبرص عهدها، وأن معاوية سار إليها من الشام فتوجه عبدالله إلى قبرص بأسطول آخر حتى اجتمع الجيشان على الجزيرة[٣].

وهاجم المسلمون الجزيرة هجوماً عنيفاً فقتلوا وأسروا وسلبوا، هجم عليها جيش معاوية من جهة، وعبدالله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبايا كثيرة وغنموا مالاً جزيلاً جيداً[٤].

ولما كثر السبى في أيدي المسلمين بكى أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟

فقال أبو الدرداء: ويحك، إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبي، وإذا سلط على قوم السبي فليس لله فيهم حاجة ثم قال: ما أهون الخلق على الله ـ تعالى ـ إذا تركوا أمره[٥].

وتحت ضغط القتل والأسر اضطر أركون قبرص ـ حاكمها ـ أن يرفع يديه ويستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح فأقرهم معاوية على صلحهم الأول[٦].

---

(١) البلاذري ص ١٥٨.
(٢) الطبري (٤/٢٦٠)، ابن الأثير (٣/٩٦).
(٣) ابن الأثير (٣/٩٦).
(٤) ابن كثير (٧/١٥٣).
(٥) نفسه.
(٦) البلاذري ص ١٥٨.

وخشي معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يرابط في الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين فبعث إليهم اثني عشر ألفاً من الجنود ونقل إليها جماعة من بعلبك وبنى هناك مدينة، وأقام فيها مسجداً وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم وظل الحال على ذلك، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من هجمات الروم المفاجئة.

ولاحظ المسلمون أن أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم، وأحس المسلمون أن الروم يغلبونهم على أمرهم، ويسخرونهم لمصالحهم فرأوا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلط البيزنطيين.

وقال إسماعيل بن عياش: أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم[١].

ولعل إدراك المسلمين لهذا الضعف في القبرصيين هو الذي جعلهم يتشبثون في هذه المرة بفرض سلطانهم على الجزيرة ليحموها من كيد البيزنطيين، وليثبتوا قدرتهم البحرية أمامهم حتى لا يجترئوا على منازلة المسلمين.

معركة ذات الصواري

لم يكن للمسلمين عهد بالقتال البحري قبل غزوة قبرص، ومع ذلك فقد أثبتوا فيه جدارة ومهارة نادرتين، حيث قادوا المراكب بحذق وفن، وخاضوا لجة البحر بشجاعة وإقدام واستولوا على الجزيرة بسهولة ويسر، دون مقاومة تذكر.

والعجيب أن الأسطول الإسلامي يغزو الجزيرة مرتين ولم تتصد له أية مقاومة من الأسطول الرومي، وكأن الروم كانوا معتمدين على نقض أهل الجزيرة وخيانتهم للعهود كما كانوا يستغلون ضعفهم وعدم قدرتهم على

---

(١) البلاذري ص ١٦٢.

الوقوف أمام رغباتهم، فكانوا لذلك يتركونهم يصطلون بنار الغزو وحدهم، ليحافظوا على قوتهم البحرية أمام القوة الناشئة.

وأغلب الظن أن الروم لم يتصدوا للمسلمين لما جربوه معهم من المعارك التي فشلوا فيها، ولم يكن لهم حظ الانتصار في معركة واحدة منها، ولعلهم أرادوا أن يحتفظوا بقوتهم البحرية حتى يستعدوا لضربة قوية يوجهونها للأسطول الناشىء في رحاب البحر المتوسط.

وقد أخطأ القواد الروم حين تركوا الأسطول الإسلامي في المرة الأولى يغزو الجزيرة دون مقاومة على أمل الاستعداد لضربه الضربة القاضية، ولم يخطر ببالهم أن كل يوم يمر على الأسطول الناشىء يزيده قوة ويشتد فيه عوده، ويصبح صعب المنال، قوي المراس، ولهذا فإنني أرجح أن يكون إمساك القواد البحريين الروم عن مواجهة الأسطول الإسلامي لم يكن للاستعداد وتحين الفرصة بقدر ما كان بسبب الخوف من المواجهة.

وكانت الغزوة الثانية للجزيرة أقوى من سابقتها، وأعنف في معاملتها، حتى سقط في يد الروم وأحسوا بأن الأمر قد أفلت زمامه من أيديهم، وندموا على تفريطهم فيما مضى.

وقد أثبتت غزوة قبرص الثانية التعاون التام بين القوتين البحريتين الإسلاميتين في مصر والشام على حد سواء، مما جعل الروم يعتقدون أنه لا يمكن أن تقوم لهم قائمة في البحر المتوسط إلا بالقضاء على أسطول المسلمين سواء كان في مصر أم في الشام.

ولئن كان الروم قد خسروا المعارك البرية أمام جيوش المسلمين المظفرة فإنه لا يجوز لهم مطلقاً أن يهزموا في البحر وإلا فقد تودع منهم وطويت صفحة البيزنطيين إلى الأبد ولهذا بدأ الروم في تنفيذ خطة تجنبهم المواجهة وتضعف في الوقت نفسه قوة الأسطول الإسلامي.

مهاجمة قائد الأسطول الإسلامي وقتله:

كان معاوية بن أبي سفيان قد شجعه انتصار الأسطول في الغزوتين

اللتين قام بهما على قبرص، وكان عبدالله بن قيس الذي عينه معاوية أميراً على القوة البحرية في الشام قد قام بغزوات كثيرة ومتتابعة بتوفيق ونجاح، عدها الطبري وابن الأثير خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة في البر والبحر، وكان يدعو الله أن يعافيه في جنده وألا ينكبه في أحد منهم فاستجاب الله له، فلم يغرق أحد من جنوده في غزواته كلها[1].

وكان عبد الله بن قيس قد نبغ في حرب البحر نبوغاً أذهل الروم، وأزعجهم بكثرة ما أنزل بهم من الهزائم والخسائر حتى كانوا يفكرون كيف السبيل إلى التخلص منه وأصبح اسم عبدالله وحده يقض مضاجع الروم أكثر من جيش بأكمله.

وخرج عبدالله مرة طليعة لغزوة أراد القيام بها وقد تزيا بزي التجار ليشتر بنفسه حتى يستطيع استجلاء الأمر وسار حتى انتهى إلى مرفأ من مرافىء الروم فوقف بمركبه، ووجد هناك مساكين يسألون من الحاجة فتصدق عبدالله عليهم صدقة سخية جعلت السؤال يشكون في أمره، فذهبت امرأة فأخبرت قومها بوجود عبدالله ابن قيس في المرفأ، فتكالبوا عليه على غرة فقتلوه بعد قتال عنيف دار بينهم وبينه وقد استطاع الملاح المرافق لعبدالله أن ينجو وأخبر المسلمين بما حصل للقائد الفذ.

وأصر المسلمون على الثأر لقائدهم، وعلى تأديب الروم على فعلتهم الغادرة فتوجهوا إلى المرفأ، وأرسوا هناك مراكبهم، وتولى قيادة الحملة سفيان بن عوف الأزدي وتقاتل المسلمون والروم قتالاً عنيفاً، حتى ضجر سفيان، وأخذ يعبث بأصحابه ويشتمهم.

فقالت جارية عبدالله ـ القائد المقتول: واعبدالله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل.

قال سفيان: فماذا كان يقول؟

قالت: الغمرات ثم ينجلينا.

---

(١) ابن الأثير (٣/٩٧)، والطبري (٤/٢٦١).

فترك سفيان ما كان يقول، ولزم الغمرات ثم ينجلينا وأصيب عبدالله ضمن من أصيب من المسلمين يومئذ.

وقيل للمرأة التي دلتهم على عبدالله: كيف عرفت أنه عبدالله ابن قيس؟

قالت: كان كالتاجر، فلما سألته أعطاني كالملك، فعرفت أنه عبدالله[1].

مؤامرات ضد البحرية الإسلامية:

أثارت غزوات المسلمين البحرية قلق الروم على مستقبلهم في البحر، ودارت برؤوسهم أفكار شتى، لقد رأوا أن الإمبراطورية التي طالما ضحوا من أجلها تحتضر بين أيديهم دون أن يستطيعوا أن يدفعوا عنها، وتأكد لهم أن القوات البحرية الإسلامية أصبحت قادرة على غزو عاصمتهم متى شاءت، وليس هناك منقذ من هذه الورطة إلا التخلص من البحرية الجديدة التي انتزعت زعامة البحر المتوسط من أيدي الروم.

ودام التفكير فترة استمرت ثلاث سنين واهتدوا في النهاية إلى فكرة التخريب والتدمير خيانة ما داموا غير قادرين على المواجهة.

وقام بالتنفيذ بعض عملاء الروم في مدينة طرابلس التي حشد فيها معاوية قواته ومعداته الحربية البحرية.

استغل رجلان من النصارى يقيمان في طرابلس اطمئنان المسلمين إلى الأوضاع الداخلية وهاجما السجن الذي به أسرى الروم وفتحاه، وخرج الأسرى متوجهين إلى دار حاكم المدينة وقتلوه هو وأتباعه، ثم أحرقوا المعدات التي بذل فيها معاوية كثيراً من المال والجهد والوقت ولاذوا بالفرار إلى القسطنطينية[2].

---

(١) الطبري (٢٦١/٤)، والغمرات الشدائد والمراد أصبر للشدائد حتى تنجلي.

(٢) العدوى ص ١٠٢.

ولم تكن تلك الغدرة من رجال أقاموا في كنف الدولة وحمايتها لتنال من نفوس المسلمين، بل كانت عاملاً قوياً أثار فيهم الحماس، وجعلهم أكثر تصميماً على امتلاك قوة بحرية قاهرة يؤدبون بها الغادرين ويكونون بها سادة البحر دون منازع، وينتزعون بها الزعامة من البيزنطيين.

وبذل معاوية من المال والجهد والوقت أضعاف ما بذله سابقاً ليعيد بناء قواته قبل أن يفاجئه العدو الغادر وأخذ المسلمون حذرهم ممن يسكنون بلادهم وهم على غير دينهم.

وأخذ معاوية يحشد قواته البرية ليتوجه بها إلى آسيا الصغرى في الوقت الذي خرج فيه عبدالله بن سعد بن أبي سرح على رأس القوات البحرية وبلغ عدد مراكب المسلمين مائتي سفينة، ونيفاً[١].

وخرج قسطنطين بن هرقل على رأس القوات البيزنطية البحرية، ولعل الذي دفعه لأن يخرج بنفسه ما رآه من تباطؤ قواده، وتهيبهم من لقاء المسلمين، فغامر بنفسه حتى يشجع الروم على لقاء المسلمين، وكانت سفن الروم بين الستمائة والخمسمائة مركب وجمع قسطنطين جيشاً عظيماً لم ير المسلمون مثله منذ التقوا مع الروم، وكان ذلك في عام ٣١ هـ.

وكان اللقاء بالنسبة للطرفين مخيفاً ومفزعاً حتى قال أحد المسلمين حينما رأى مراكب الروم: فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط[٢]. وأما الروم فلم يكد المسلمون يعرضون عليهم الأمان حتى قالوا: ذلك لكم ولنا منكم[٣].

وهذان الموقفان يدلان بوضوح على مدى ما داخل الفريقين من الخوف والفزع ومما يصور دقة الموقف وشدة حرجه أن المسلمين قضوا ليلتهم يقرأون القرآن، ويذكرون الله ويبتهلون إليه أن ينصرهم على هذا العدو العنيد

---

(١) ابن عبد الحكم (١/٢٥٦)، الأتابكي (١/٨٠).
(٢) الطبري (٤/٢٩٠).
(٣) نفسه.

كما بات النصارى يدقون النواقيس محاولين إدخال الطمأنينة إلى قلوب الجنود.

وقبل أن تبدأ المعركة هبت ريح عاصفة كادت تكفأ مراكب المسلمين، وتجنبها المسلمون فأرسوا المراكب على أقرب شاطىء منهم حتى هدأت العاصفة واقترب الجيشان حتى كادا يلتقيان.

خير المسلمون عدوهم فقالوا: إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم، وإن شئتم فالبحر[١].

ولكن الروم فضلوا المعركة البحرية مهما كانت نتائجها، إذ كيف يقبلون معركة برية وهم قد جربوا حظهم مراراً مع المسلمين فلم يوفقوا في شيء منها؟ فليجربوا هذه المرة حظهم في معركة بحرية لعل التوفيق يحالفهم فيمحون ما لطخ صحائفهم من خزي الهزيمة وعار الفرار، فقالوا جميعاً: الماء الماء[٢].

وأجابهم عبدالله إلى ما طلبوا.

بدأ المسلمون المعركة يرمون عدوهم بالنبل والنشاب وكانت السهام تقصر عنهم فلم تنل منهم أي منال، وأخذت السهام تنفد والروم في انتظار نفادها، واستعمل المسلمون الحجارة يرمونهم بها، وكانوا قد أعدوها لمثل تلك الظروف، ولكن الحجارة نفدت هي الأخرى والروم لم يجهدوا أنفسهم، ولم يردوا على المسلمين بشيء[٣].

وأحس المسلمون بضعف موقفهم وبفشل محاولاتهم ففكروا في أن يتخذوا من المراكب ميداناً للمعركة، وهنا شدوا سفنهم بعضها إلى بعض، وأوثقوها جيداً، وأخذوا يقتربون من سفن العدو حتى كانت في متناول خطاطيفهم، وحينئذ قذفوا الخطاطيف على مراكب الروم، وجذبوها إليهم

---

(١) الطبري (٢٩٠/٤).

(٢) ابن كثير (١٥٣/٧).

(٣) ابن عبد الحكم (٢٥٦/١).

وشدوها إلى مراكبهم شداً محكماً حتى أصبحت السفن كلها ميداناً رحباً لقتال شرس عنيف[1].

وأصبحت المعركة البحرية وكأنها معركة برية قريبة مما ألفه العرب المسلمون في معاركهم، وقد فزع الروم أيما فزع حينما رأوا أنفسهم في متناول أيدي المسلمين، وخاب أملهم، وخارت قواهم ووهنت عزائمهم وتأكدوا أن النصر للمسلمين لا محالة.

ومع ما أصيب به الروم من هول المفاجأة، ومع انهيار معنوياتهم فإنهم قد استبسلوا في القتال بشكل لم يكن منتظراً، ولعل السر في هذا الاستبسال، والاستماتة في القتال هو شعورهم بأن المعركة فاصلة، وأن المنهزم فيها لن تقوم له بعدها قائمة، ومن جانب آخر فإن وجود الملك - قسطنطين بن هرقل - بينهم كان من أكبر الدواعي لأن يظهروا أمامه من فنون البراعة وضروب الشجاعة ما يثبت له أنهم لم يكونوا مقصرين في المعارك التي هزموا فيها، ولعلهم يحرزون نصراً في النهاية فيكونون محل عطفه وتقديره.

ودارت المعركة بين الفريقين رهيبة ومفزعة، واستعمل الفريقان السيوف والخناجر، وقاتلا أشد القتال، فوثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجئون بالخناجر[2]. وعبدالله بن سعد يمر على المسلمين في نواحي السفن فيأمرهم بقراءة القرآن ويحثهم على الصبر[3].

ولما مس الـروم حر السيف اعتقدوا أنها النهاية فوثبوا على صفوف المسلمين في سفنهم فنقضوها وقاتل المسلمون على غير صفوف وسالت الدماء حتى لونت ماء البحر بلونها الأحمر القاني وأخذت الأمواج تضربها إلى الشاطىء فترتد حتى بدا البحر وكأنه بحيرة من الدم، وقذفت الأمواج جثث

---

(١) الطبري (٤/ ٢٩٠).
(٢) الطبري (٤/ ٢٩٠).
(٣) نفسه ص ٢٩٢.

القتلى على الشاطىء حتى رآها المقاتلون وكأنها ركام من الرمل[1].

رأى البيزنطيون أن الكفة قد رجحت إلى جانب المسلمين، وأيقنوا من الهزيمة، وقد نال الإعياء منهم كل منال، وترنحوا على ظهور المراكب كأنهم سكارى يعملون ما لا يعقلون.

محاولة لاختطاف القائد الإسلامي:

عندئذ أراد قسطنطين (قنسطانز) أن يرفع معنويات جنوده ليثبتوا أمام ضربات المسلمين العنيفة القاسية، فأمر الجنود بخطف مركب أمير البحر عبدالله بن سعد، ونجح الجنود حين أصابت خطاطيفهم مركب القيادة الإسلامية، فأخذوا يجرونها إليهم، وقد شعروا بنشوة النصر تسري في عروقهم، إنهم بعد لحظات ستكون في أيديهم أثمن هدية يقدمونها للملك لعلهم يفوزون برضاه، إنهم بهذه الطريقة سيقضون على الرأس المفكر والقلب النابض والروح التي تحرك وتخطط.

ووقف المسلمون مبهوتين أمام هذا المنظر الرهيب، إن أميرهم سيختطف من بينهم وهم لا يدرون، كيف يخلصونه؟

ومرت لحظات رهيبة وفوجىء المسلمون والروم على حد سواء برجل من المسلمين يسمى - علقمة بن يزيد - وكان مع الأمير في مركبه - يلقي بنفسه على السلسلة الضخمة التي يسحب العدو بها مركب الأمير وأخذ يقطع السلسلة بسيفه، والروم يضربونه بالنشاب وهو صابر متحمل.

واقتربت مركب الأمير من أسطول العدو، وأمسك المسلمون أنفاسهم خشية وقوع المحظور، وفي اللحظة التي يئس فيها المسلمون من نجاة أميرهم انقطعت السلسلة وبذل الملاح أقصى ما يمكنه ليدير المركب إلى جهة المسلمين، ونجحت محاولة الملاح الماهر، وأفلت الصيد السمين من

---

(١) نفسه ٢٩٠ - ٢٩١.

يد البيزنطيين، فوقفوا ينظرون إلى المركب وهي تنضم إلى الأسطول المظفر بعد أن كادت تكون غنيمة باردة لهم[1].

والتقط المسلمون أنفاسهم في هدوء بعد لحظات من الذعر والفزع، وأداروا الكرة على العدو، فهاجموا مركب الملك، وأعملوا السيف في جنده وحرسه، وهم لا يريدون إلا الملك، ولكن الملك استطاع أن يختفي منهم في زي ابن أحد ضاربي الطبول في السفينة وبذلك التبس أمره على المسلمين، ونجا الملك هارباً على ظهر أحد المراكب، وتمكن من الفرار إلى جزيرة صقلية[2].

وقتل يومئذ من المسلمين خلق كثير، وقتل من الكفار ما لا يحصى، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام، وانهزم قسطنطين مدبراً... ولقد أصابه يومئذ جراحات مكث منها حيناً جريحاً[3].

وفر الروم هاربين، تاركين خلفهم عشرات الآلاف من القتلى وأقام ابن أبي سرح بذات الصواري أياماً بعد هزيمة البيزنطيين ليستجم الجيش ويقوى على وعثاء السفر الشاق الذي ينتظره ليعود إلى الإسكندرية بعد هذا العناء.

كانت هذه المعركة بحق من المعارك الحاسمة الفاصلة التي غيرت مجرى التاريخ إذ كان البيزنطيون قبلها لا يكفون عن المحاولات لاسترداد بلادهم حيث كان يخيل إليهم أنهم مع كثرة المحاولات وتكرار الطلب سيحققون ما يصبون إليه، فلما هزموا في معركة ذات الصواري، وقتل منهم آلاف مؤلفة، وهرب ملكهم جريحاً لم يقو على الصمود كفوا عن التفكير في استرداد ما فقدوا من ممتلكات الدولة موقنين بأن ما نزل بهم من البلاء والخسارة إنما كان بسبب ذلك، وحينئذ فكروا في الدفاع عما بقي في أيديهم من البلاد لعله يسلم لهم من غارات المسلمين.

---

(١) ابن عبد الحكيم (١/٢٥٧).
(٢) العدوى ص ١٠٥.
(٣) الطبري (٤/٢٩١).

ورجع عبدالله بن سعد إلى الإسكندرية مؤيداً منصوراً مظفراً[1]، وأما قسطنطين فإنه لما وصل إلى صقلية سأله أهلها عن حاله وما جرى له، فأخبرهم بما حدث له ولجيشه في المعركة، فغضبوا أشد الغضب، وحزنوا على ما جرى لأهل ملتهم وعزموا على الثأر لهم ولكنهم وجدوا ثأرهم تلك المرة مع الملك الذي كان سبباً في كل ما حصل فقالوا له: أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم.

ثم أدخلوه الحمام، وأوهموه أنهم يريدون أن يتنشط، وأن يبدل ثيابه وسلطوا عليه من قتله.

وسمحوا للمراكب التي قدمت به في الذهاب إلى القسطنطينية[2].

ورجعت المراكب بغير الإمبراطور، وفقدت القسطنطينية بفقده ملكاً طالما حاول انقاذ الإمبراطورية، وبذل قصارى جهده في صد الزحف الإسلامي المكتسح، ولم يضن بنفسه بل بذلها في سبيل استرداد ما فقد من البلاد، فماذا يريدون منه أن يفعل أكثر مما فعل؟.

وقد كتب الله لدينه النصر والفوز، ولأعدائه الهزيمة والخسران، فهل يغني حذر من قدر؟.

(١) ابن كثير (١٥٧/٧).
(٢) ابن الأثير (١١٨/٣ - ١١٩)، وابن عبد الحكيم (٢٥٨/١).

أحداث هامّة

أ ـ بناء المسجد النبوي:

في السنة التاسعة والعشرين وهي السنة السادسة من خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ كثر سكان المدينة، وزاد عددهم زيادة كبيرة، وضاق مسجد رسول الله ﷺ بالمصلين، حتى كان الناس يصلون في الشوارع المحيطة بالحرم.

فأشار الناس بهدم المسجد وبنائه حتى يتسع للمصلين، فاستشار عثمان الناس فأشار عليه أهل الرأي بتجديد المسجد وتوسعته.

هدم عثمان المسجد وابتدأ البناء في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع[1].

لم يعد عثمان بناء المسجد على الصورة التي كان عليها في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر، ولكنه حسنه وزينه، حيث بناه بالحجارة المنقوشة، وكان ينقل الجص من بطن نخل، وجعل عمده من حجارة مثقوبة، وجعل فيها أسياخ الحديد وصب فيها الرصاص، وسقفه ساجاً، وترك أبوابه على ما كانت عليه في عهد عمر ستة أبواب[2].

ولم يكن تحسين عثمان لبناء المسجد النبوي الشريف بدعة يعاب بها

---

(١) الطبري (٢٦٧/٤).

(٢) نفسه.

أو خطأ يؤخذ عليه، ولكنه تأول الحديث الشريف «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»[1]. فهو - رضي الله عنه - حسن المسجد وزينه ليكون بيته في الجنة على نحو بناء المسجد من الحسن والجمال، وقد زاد عثمان في المسجد زيادة كبيرة من جهاته الثلاث - الجنوب والشمال والغرب - وكانت الزيادة من الجنوب إلى جدار القبلة اليوم وتقدر بعشرة أذرع، والزيادة من الغرب تقدر بعشرة أذرع كذلك، وأما من الشمال فقد قيل إنها بلغت خمسين ذراعاً وهو وهم ممن قاله، والراجح أنها كانت عشرة أذرع كذلك حيث قدرت الزيادة في المسجد جميعه بأربعمائة وستة وتسعين متراً[2].

وعلى هذا تكون مساحة المسجد بالأمتار المربعة في عهد عثمان - رضي الله عنه - قد بلغت خمسة وستين متراً عرضاً في خمسة وثمانين متراً طولاً، وذلك يساوي ٥٥٢٤ م٢[3].

وهذه الزيادة ليست في حد ذاتها حدثاً هاماً، ولكن ما ترتب عليها من الأمور الجسام حيث استغلها مشعلوا الفتنة وألبـوا بها النـاس على أمير المؤمنين هو الذي جعلنا نذكرها في عداد الأحداث الهامة في خلافة عثمان - رضي الله عنه -.

وفي هذه السنة - أي سنة تسع وعشرين - حج عثمان بالناس، وأتم الصلاة في منى فصلى بأصحابه أربعاً ولم يقصر، فكان ذلك مما عيب عليه لمخالفته لهدى الرسول ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر.

ب - سقوط خاتم النبي من يد عثمان:

لما تم صلح الحديبية تبن رسول الله ﷺ وقريش في سنة ست من الهجرة ورجع الرسول إلى المدينة وقد أمن غارات قريش، وهدأت الأوضاع،

---

(١) رواه أحمد في المسند.

(٢) على حافظ فصول من تاريخ المدينة ص ٦٩.

(٣) يراجع كتابنا المسجد النبوي عبر التاريخ.

أراد ﷺ أن يكتب إلى الملوك والحكام يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ ويرغبهم في الإسلام.

فقال له رجل: يا رسول الله، إنهم لا يقبلون كتاباً إلا مختوما، فأمر الرسول أن يتخذ له خاتم من حديد، ولكن جبريل أمره أن ينبذه من إصبعه فنبذه، وأمر أن يصنع له خاتم من نحاس، وأمره جبريل أن ينبذه فنبذه، ثم اتخذ خاتماً من فضة فأقره جبريل وكان نقش الخاتم (محمد رسول الله) ثلاثة أسطر.

وكتب كتباً إلى الملوك والحكام كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى غيرهم، وبقي الخاتم في إصبع رسول الله ﷺ يتختم به حتى قبض، ثم تختم به أبو بكر مدة خلافته، وتختم به عمر من بعده، وتختم به عثمان ست سنوات[1].

وحفر عثمان بئراً للمسلمين يشربون منه، وهو المعروف ببئر أريس، وكان عند مسجد قباء، وبينما كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ جالساً على رأس البئر أخذ يعبث بالخاتم، فسقط منه في البئر فنزحوا ما في البئر من الماء، وبحثوا عن الخاتم فلم يجدوه، وجعل عثمان لمن يأتي به مالاً عظيماً، ولكن أحداً لم يعثر على الخاتم.

وحزن عثمان حزناً شديداً، وكأن ضياع الخاتم كان مشيراً إلى ضياع الأمر وضياع المسلمين وانفتاح باب الفتنة ولعل هذا هو السبب في حزن عثمان.

ولما يئس عثمان من العثور على الخاتم أمر بأن يصنع له خاتم آخر مثله ونقشه فبقي في إصبعه حتى هلك، فلما قتل ذهب الخاتم، فلم يدر من أخذه[2].

وكان فقد الخاتم في السنة الثلاثين من هجرة سيد المرسلين..

---

(١) الطبري (٤/٢٨٢).
(٢) ابن الأثير (٣/١١٣).

جـ - توغل المسلمين في بلاد الفرس:

في سنة ثلاثين من الهجرة عزم سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة على فتح طبرستان فخرج إليها في جيش عظيم فيه عدد كبير من كبار الصحابة. حذيفة بن اليمان، عبدالله بن عمر، عبدالله بن عمرو بن العاص، عبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عباس، والحسن والحسين - رضي الله عنهم أجمعين.

اتجه سعيد إلى خراسان، وقبل أن يصلها علم بأنّ أمير البصرة عبدالله ابن عامر قد نزل أبرشهر بالقرب من خراسان، عندئذ اتجه سعيد بجيشه إلى قومس حتى لا يجتمع الجيشان على بلد لا يستحق التجمع، وفي الوقت نفسه أراد سعيد بنزوله قومس أن يتجه إلى بلاد أخرى من فارس، وحينئذ يتعاون الجيشان في فتح البلاد من جهتين فيؤدي ذلك إلى الإسراع في فتحها.

ومن قومس سار سعيد إلى جرجان، ولكن المسلمين لم يلقوا كيداً بل خرج أهل جرجان وصالحوا سعيداً على جزية مقدارها مائتا ألف[1].

ومضى سعيد إلى طميسة وهي مدينة على ساحل البحر في تخوم جرجان، ولم يستسلم أهلها كما استسلم غيرهم، بل خرجوا للقتال مستعدين له، وقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً حتى اضطروهم إلى أن يصلوا صلاة الخوف.

وسأل سعيد حذيفة، كيف كان الرسول ﷺ يصلي صلاة الخوف؟

وأخبره حذيفة بكيفية الصلاة فصلى بها الأمير صلاة الخوف، وهم يقتتلون[2].

واستبسل المسلمون في القتال وشدوا على العدو شدة أرهقته وضرب

---

(١) الطبري (٤/٢٦٩).

(٢) نفسه.

سعيد رجلاً من الأعداء ضربة قطعت حبل عاتقه وخرج السيف من تحت مرفقه، وأجبرهم على الالتجاء إلى حصنهم، وحاصرهم حتى أجهدهم، فسألوه الأمان، فأعطاهم على ألا يقتل منهم رجلاً واحداً.

وفرح أهل طميسة بهذا الأمان، وفتحوا حصنهم فأخذهم سعيد وقتلهم جميعاً، واستبقى منهم رجلاً واحداً. وحوى المسلمون كل ما في الحصن[1].

لا شك أن سعيداً وفى لهم بوعدهم فلم يقتل منهم رجلاً وحده، ولكنه قتلهم جميعاً ولعل سعيداً اضطر إلى معاملة أهل طميسة هذه المعاملة لأنهم نقضوا العهد الذي عاهدهم عليه سويد بن مقرن[2]، ولم يستسلموا كما استسلم غيرهيم، وأرهقوه في الحرب حتى صلى صلاة الخوف.

لقد ترك ذلك كله في نفس سعيد أثراً سيئاً، فخاف إذا هو تركهم أن يفعلوا ذلك بغيره، وهو وإن كان قد انتصر عليهم، إلا أنه لا يدري إن كان غيره سينتصر عليهم أم لا، ولهذا رأى أن التخلص منهم فيه غير اتقاء شرهم تأديب لغيرهم، وردع لمن تسول له نفسه أن يتأسى بهم.

وفي الوقت الذي كان سعيد بن العاص يتوغل بجيشه في بلاد طبرستان، في الشمال الشرقي من طهران كان عبدالله بن عامر أمير البصرة يضرب بجيشه شرقي طهران في بلاد خراسان، وبالقدر الذي عاناه أمير الكوفة من نقض أهل طبرستان وخروجهم على الطاعة، كانت معاناة أمير البصرة في رد الناس إلى الطاعة، وإخضاع المتمردين لسلطان الدولة الإسلامية.

وكان صيت عبدالله بن عامر قد سبقه إلى هذه البلاد، فأخذ بعضها يتسابق إلى مصالحته وبعضها الآخر يسقط تحت ضربات سيفه، فلم يكن هناك ما يدعو إلى الصمود والمقاومة حيث كانت أخبار يزدجرد تصلهم

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١١٠)، وابن كثير (٧/ ١٥٤).
(٢) ابن كثير (٧/ ١٥٤).

باستمرار، وأنباء فراره تتوالى على أسماعهم بلا انقطاع، فكيف يقوى هؤلاء بعد ذلك على الصبر على ضربات المسلمين المسددة إليهم والتي شرد تحت وطأتها يزدجرد ملك الفرس وصاحب السلطان المنهار؟

خرج ابن عامر من البصرة متجهاً إلى الشرق نحو كرمان، وولى حربها مجاشع ابن مسعود السلمي، ومال نحو الشمال الشرقي زاحفاً بجيشه على سجستان، وولى حربها كذلك الربيع بن زياد الحارثي، وسار ببقية الجيش متوجهاً نحو الشمال الغربي قاصداً نيسابور.

وجعل على مقدمة جيشه الأحنف بن قيس، وتقدم الأحنف حتى وقف على بابي خراسان فلم يقو الفرس على المقاومة، فصالحوا الأحنف، وأخفى الأحنف طريقه إلى الغرب حتى أتى قوهستان، وحاول أهلها المقاومة ولكن الأحنف قاتلهم حتى ألجأهم إلى دخول الحصن.

وبينما يحاصر الأحنف الحصن قدم عليه ابن عامر فطلب أهل قوهستان الصلح حين أيقنوا أنه لا قبل لهم بمقاومة المسلمين، فقبل ابن عامر وصالحه أهلها على ستمائة ألف درهم[١].

وأرسل عبدالله السرايا تفتح نواحي نيسابور المختلفة ففتحت رستاق زام وباخرز وجوين، وكان الأسود بن كلثوم قد توجه إلى بيهق بأمر من ابن عامر وهي من أعمال نيسابور ودخل الأسود البلد من ثلمة كانت في أسواره، وتنبه العدو، فسد الثغرة حتى لا يتمكن المسلمون من الخروج منها، وتقاتل الجيشان حتى قتل الأسود، وتولى أمر الجيش بعده أخوه أدهم ابن كلثوم فقاتل أهل بيهق حتى ظفر بهم[٢].

وقصد عبدالله أبرشهر (نيسابور) فحاصرها أشهراً، وكانت مقسمة على أربع إمارات يحكم كل إمارة منها مرزبان، ولما طال حصارها طلب أحدهم الصلح على أن يمكن المسلمين من دخول نيسابور من جهته، وأجابه ابن

---

(١) ابن الأثير (٣/١٤٢).

(٢) نفسه.

عامر، ودخلها المسلمون ليلاً فتحصن المرزبان الأكبر في حصنها ودخل معه جماعة، وطلب الأمان والصلح على جميع نيسابور وصالح ابن عامر على ألف ألف درهم وولى عبدالله قيس بن الهيثم السلمي على نيسابور[1].

وبعد أن استقر ابن عامر في نيسابور وجه عبدالله بن خازم إلى هراة، فسار ابن خازم نحو الشرق قاصداً هراة فعلم مرزبانها بتوجه المسلمين إلى بلده، فأسرع إلى ابن عامر وطلب منه الصلح عن هراة وباذغبس وبوشنج مقابل ألف ألف درهم[2].

وبلغت أنباء تلك الفتوح مرزبان مرو الواقعة إلى الشمال من هراة ففزع لها وأيقن أن بلاده مفتوحة لا محالة، فبادر وأتى عبدالله بن عامر وطلب الصلح فصالحه على ألفي ألف ومائتي ألف درهم قبل أن تصله جيوش المسلمين بقيادة حاتم بن النعمان الباهلي[3].

ومن نيسابور وجه ابن عامر الأحنف بن قيس إلى أقصى الشمال الشرقي من بلاد فارس إلى طخارستان فسار الأحنف نحوها وعلم أهل طخارستان بتوجه المسلمين إلى بلادهم، فجمعوا جموعهم وانضم إليهم أهل الجوزجان والطالقان والفرياب ومن حولهم حتى صاروا جمعاً غفيراً، والتقى الجيشان، ودارت بينهما معركة عنيفة وحمل ملك الصغانيان على الأحنف حملة ظن الناس أنها القاضية، ولكن سرعان ما انتزع الأحنف رمح الملك من يده وقاتله قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً[4].

وسار الأحنف بجيشه المظفر وقد استولت عليهم نشوة النصر يبغون بلخ، فقدم أهلها فروض الولاء وصالحوا الأحنف على سبعمائة ألف واستعمل عليها أسيد بن المتشمس، وسار نحو خوارزم على نهر جيحون،

---

(١) نفسه ١٢٥.
(٢) ابن الأثير (٣/١٢٥).
(٣) الطبري (٤/٣٠٢).
(٤) ابن الأثير (٣/١٢٦).

وفي الوقت نفسه كان مجاشع قد فتح كرمان، والربيع تم له فتح سجستان، ودانت بلاد الفرس كلها للمسلمين.

ولما تم لعبدالله بن عامر هذا الفتح العظيم، وخضعت له هذه الأقاليم قال له الناس: ما فتح الله على أحد ما فتح عليك فارس وكرمان وسجستان وعامر خراسان.

فقال: لا جرم، لاجعلن شكري لله على ذلك أن أحرم بعمرة من موقفي هذا.

فاحرم بعمرة من نيسابور، فلما أقبل على الخليفة ـ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ لامه على إحرامه من خراسان[1].

د ـ مقتل يزدجرد:

بعد هزيمة الفرس المنكرة في معركة نهاوند لم تقم لهم قائمة، وكانت نهاوند آخر موقعة كبرى بين المسلمين والفرس، ولذا سميت فتح الفتوح، ومنذ ذلك الحين ويزدجرد يعيش شريداً طريداً ومعه أهله والمخلصون من رجاله.

لقد كان يزدجرد يأمل أن تواتيه فرصة يستطيع أن يسترد فيها ملكه، أو يصد هذا الزحف الكاسح إذا لم يستطع استرداد ملكه، فأخذ يتنقل من مكان إلى مكان ويترك بلداً ليقيم في آخر، وكلما اقتربت قوات المسلمين منه كلما أيقن بالهلاك المحقق، ولكنه يعود فيتشبث بالحياة ولو كانت مرة أليمة، كما يتشبث الغريق بالقشة التي لن تغني عنه شيئاً.

كان يزدجرد بعد فتح العراق وجزء كبير من بلاد فارس قد فر إلى الجزء المتبقي منها، وأقام هناك حتى فتح عبدالله بن عامر بلاد فارس سنة ثلاثين فهرب يزدجرد إلى كرمان وأرسل ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود السلمي يتعقبه ففر إلى خراسان[2].

---

(١) ابن كثير (٧/١٦٠، ١٦١).
(٢) الطبري (٤/٢٨٦).

وفي خراسان عزم يزدجرد على أن يكاتب الملوك ويجمع الجموع ليدخل في معركة فاصلة مع العرب فسار إلى مرو، واصطحب معه الرهائن من أولاد الدهاقين ومن هناك كاتب ملك الصين، وملك فرغانة وملك كابل وملك الخزر يستمدهم، ويستعين بهم على مواجهة المسلمين[1].

ويبدو أن أحداً من هؤلاء الملوك لم يجبه، فظل في أعوانه وأسورته، وقد حدث بينه وبين مرزبان مرو ما جعل يزدجرد يهم بعزل المرزبان ـ رئيس البلد ـ ولم يكد المرزبان يحسّ بذلك حتى استعدى الترك على يزدجرد ووعدهم بأن يخلي لهم الطريق ويعينهم عليه[2].

وأقبل الترك إلى مرو، وعلم يزدجرد فخرج إليهم برجاله، فقاتلهم وأخذ ماهوَيه مرزبان مرو يتظاهر بالقتال معه، فاثخن يزدجرد في الترك، وقتل منهم مقتلة عظيمة حتى خشي ماهوَيه أن ينهزم الترك فتحول بأساورة مرو إلى صفوف الترك، فرجحت كفتهم وقتلوا أصحاب يزدجرد وعقروا فرسه[3].

وذهب يزدجرد ماشياً حتى اختبأ في طاحون على شاطىء نهر المرغاب، ومكث فيه ليلتين والعدو يبحث عنه دون جدوى.

وحضر صاحب الطاحون فلما دخل رأى كسرى في زينته عليه تاجه، وفي أذنيه قرطان وفي وسطه منطقته، وفي يديه خاتمه وسواره، ففزع صاحب الرحى من منظر لم يألفه، فقال لكسرى: ما أنت؟ إنسيّ أم جني؟

وأجاب كسرى: إنس، فهل عندك طعام؟

قال: نعم، وأحضر له الطعام.

ولكن كسرى لا يستطيع أن يأكل إلا على أصوات الموسيقى، فطلب

---

(١) ابن الأثير (٣/١٢١).
(٢) الطبري (٤/٢٩٤).
(٣) الطبري (٤/٢٩٤).

من الطحان أن يحضر له من يزمزم له - يغني - فخرج الطحان يبحث له عمن يزمزم له فسأله أحد الناس عن سبب ذلك فقال الطحان: عندي رجل لم أر مثله قط، وقد طلب مني هذا.

فأخبروا المرزبان، فقال: هذا يزدجرد، وأمر رجاله بأن يذهبوا إليه ويقتلوه.

فذهبوا مع الطحان، فلما اقتربوا من الطاحون هابوا أن يقتلوه وقالوا للطحان: ادخل أنت فاقتله.

دخل الطحان على يزدجرد وقد عزم على القبض عليه، وأحس كسرى بما عزم عليه الطحان فعرض عليه كل ما يملك ليطلقه ويذهب إلى حال سبيله، ولكن الطحان أصر على أن يأخذ منه أربعة دراهم، وعز الطلب فلم يكن كسرى في تلك اللحظة يملك الدراهم الأربعة وإن كان يملك من الحلى ما لا يقدر بثمن.

وبينما كسرى يحاول إقناع الطحان يأخذ خاتمه ويحاول من جانب آخر إقناع الطحان بأن هذا الخاتم ثمين جداً، وإن قيمته لا تحصى، إذ دهم جند المرزبان المكان وأحاطوا بكسرى وهموا بقتله، فقال لهم كسرى: لا تقتلوني، واذهبوا بي إلى الملك أو إلى العرب فإنهم لا يقتلون مثلي من الملوك.

ولكن استعطاف كسرى ذهب أدراج الرياح، فسلبه الجنود وخنقوه بوتر قوس وألقوه في النهر[1].

وعلم أسقف مرو بما جرى ليزدجرد، فأخرجه من النهر، ووضعه في تابوت، ودفنه في ناووس - مقبرة النصارى - وعثر المسلمون على حلى كسرى، فبعثوا به إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فلما تفقده رأى أن أحد قرطيه غير موجود فأغرم الدهقان قيمة القرط المفقود[2].

---

(١) ابن كثير (١٥٨/٧ - ١٥٩).

(٢) ابن كثير (١٥٩/٧).

وكان ملك يزدجرد عشرين سنة، منها أربع سنين في دعة وأمان ورخاء، وست عشرة سنة في تعب ومشقة ونصب، قضاها في حروب مستمرة مع المسلمين، وكان يزدجرد آخر ملوك آل ساسان، وصفا الملك بعده للعرب(١).

وصدق رسول الله ﷺ حين يقول: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»(٢).

وكان هلاك كسرى يزدجرد بن شهريار في سنة ٣١ هـ الموافق ٦٥١ م.

غزو بلاد الترك:

وفي سنة اثنتين وثلاثين كتب عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إلى سعيد ابن العاص يطلب منه أن يسير سلمان بن ربيعة إلى الباب، وفي الوقت نفسه كتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة - وكان والياً على الباب: إن الرعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة، فقصر ولا تقتحم بالمسلمين، فإني خاش أن يبتلوا(٣).

ولكن عبد الرحمن كان قد عزم على فتح بلنجر، فلم يزجره كتاب الخليفة عن قصده، وسار بجيشه نحو بلنجر، وحاصرها، ونصب عليها المجانيق والعرادات فلم يستطع أحد أن يقترب منها لأن المسلمين قد تصدوا لكل من يقرب منها، فكان لا يدنوا منها أحد إلا أعنتوه أو قتلوه(٤).

وكان لغزوات المسلمين المظفرة والمتتابعة في تلك المنطقة الجنوبية والجنوبية الغربية من آسيا وقع سيء في نفوس سكانها فتذامروا وعاير بعضهم بعضاً بما حل بهم من الخزي والهزائم على يدي العرب الذين لم يكن لهم

---

(١) ابن الأثير (١٢٣/٣).
(٢) رواه البخاري.
(٣) الطبري (٣٠٤/٤).
(٤) الطبري (٣٠٤/٤).

في حسابهم أدنى اعتبار حتى قال بعضهم: لقد كنا أمة لا تقوم لنا أمة ولا يقف أمامنا أحد، فلماذا لا نقوم لهذه الأمة القليلة الضعيفة؟.

وأجاب الآخرون، إن هؤلاء لا يموتون، ولو أن الموت يقع بهم لما اقتحموا علينا[1].

ولعل الذي دعا أهل البلاد إلى اعتقاد أن المسلمين لا يموتون هو أن المسلمين غَزَوْا سنين في إمارة عثمان واشتركوا في معارك عنيفة ودامية دون أن يقتل منهم أحد حتى قال الطبري: وغزا أهل الكوفة بلنجر سنين في إمارة عثمان فلم تئن امرأة ولم ييتم فيهن صبي من قتل[2].

وقد ساد هذا الاعتقاد في الناس لهول ما رأوا، إنهم يرون المسلمين قد تركوا بلادهم خلفهم واندفعوا نحو الموت بشكل لم يألفه أهل البلاد مع شراستهم في الحروب، وضراوتهم في القتال، ولكن العقلاء منهم لم يصدقوا أسطورة البقاء الأبدي، وعدم موت إنسان مهما كان ولهذا قالوا: أفلا تجربون؟

واقتنع الناس بفكرة التجربة، وأعدوا كميناً للمسلمين في الطريق الذي اعتادوا أن يمروا به، وما هي إلا لحظات حتى مر بالكمين جماعة من جند المسلمين فرماهم الكمين عن قوس واحدة فقتلوا[3].

وأشيع الخبر بين الترك، وانكسر حاجز الرعب الذي طالما سيطر على قلوبهم وتأكد لهم أنهم يقاتلون بشراً مثلهم، فلماذا إذاً تلك الهزائم المنكرة؟

لا شك أن هناك شيئاً آخر غير عدم الموت هو الذي جعل المسلمين يقتحمون بلاد الترك، ويغزونهم بهذه الشجاعة، وفي الوقت نفسه كان انكسار ذلك الحاجز الرهيب مشجعاً للترك، ودافعاً لهم على خوض معركة مع المسلمين أعدوا لها كل ما في وسعهم من الإعداد، وجمعوا لها كل ما

---

(١) نفسه ٣٠٥.

(٢) نفسه.

(٣) الطبري (٤/٣٠٥).

يمكنهم جمعه من الجنود، فتواعد أهل بلنجر، واجتمع إليهم الترك واشتبكوا مع المسلمين في معركة ضارية قتل فيها عبد الرحمن بن ربيعة والي مدينة الباب، وكان يعرف بذي النور ـ وهو اسم سيفه[1].

كان المسلمون قبل بداية تلك المعركة قد رأوا مصارعهم، فقد روى المؤرخون أن يزيد بن معاوية النخعي، وعلقمة بن قيس، ومعضد الشيباني، وأبو مفزر التميمي كانوا في خيمة واحدة، وكان عمرو بن عتبة، وخالد ابن ربيعة، والحلحال بن ذرى والقرثع في خيمة أخرى، وكانوا متجاورين في عسكر بلنجر[2].

ورأى يزيد بن معاوية أن غزالاً جيء به لم ير أحسن منه فلف في ملحفة، ثم دفن في قبر لم ير أحسن منه عليه ثلاثة نفر قعود.

وأخذ الناس يتحدثون في تلك الليلة كلهم يشتهون الشهادة، لقد سمع الناس عمرو بن عتبة ينظر إلى قباء عليه ويقول: ما أحسن حمرة الدماء على بياضك.

ويقول القرثع: ما أحسن لمع الدماء على الثياب[3].

ولقد صدقهم الله وعده، فبلغهم ما اشتهوا، وأكرمهم بالشهادة تلك الأمنية الحبيبة إلى نفوس المجاهدين، فلما كان يوم القتل رمى يزيد بحجر فهشم رأسه، فكأنما زين ثوبه بالدماء زينة، فكان هو الغزال الذي رآه في منامه، ودفن في القبر الذي دفن فيه الغزال.

وأما عمرو بن عتبة فقد أصيب بجراحة حتى سال دمه على قبائه، ورآه الناس كما اشتهى، وقال معضد لعلقمة: أعرني بردك أعصب به رأسي، فأعطاه علقمة برده، فشده على رأسه، وانطلق إلى البرج الذي رمى يزيد

---

(١) ابن الأثير (٣/١٣١، ١٣٢).
(٢) الطبري (٤/٣٠٥).
(٣) ابن الأثير (٣/١٣٢).

بالحجر فهشم رأسه، فرماهم وقتل منهم، ثم أصابه حجر عرادة ففضخ هامته وحمله أصحابه قتيلاً، ودفنوه إلى جوار يزيد.

وقاتل القرثع حتى خرق جسمه بالحراب فكأنما كان قباؤه ثوباً أرضه بيضاء ووشيه أحمر[١].

وبلغ خبر الناس عثمان وما تكلموا به، فاعتبر ذلك انتكاثة وقع فيها أهل الكوفة وخاف عليهم أن يكون ذلك سبيلهم، يتمنون الموت ويسعون إليه فيقتدي بهم غيرهم، فيقع الوهن في صفوف المسلمين ولذلك قال ـ رضي الله عنه ـ إنا لله وإنا إليه راجعون. انتكث أهل الكوفة، اللهم تب عليهم، واقبل بهم[٢].

ولا زال الناس يقاتلون هذا التجمع التركي الخزري ببسالة نادرة وشجاعة فائقة حتى بعد استشهاد قائدهم عبد الرحمن بن ربيعة، وقد ثبتوا لهم أياماً، فلما قتل القرثع انهزم المسلمون[٣]، فتفرقوا فرقتين: فرقة نحو الباب، وفرقة نحو جيلان وجرجان[٤].

وكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ قد أمر سعيد بن العاص بتسيير سلمان ابن ربيعة مدداً للمسلمين لما سمع بأخبارهم، فتوجه سلمان نحو الباب، وهناك التقى بإحدى الفرقتين فحماها حتى خرجت من الباب ونجت معه، وأما التي اتجهت نحو بلاد الخزر فقد مرت بجيلان وجرجان، وكان فيهم أبو هريرة وسلمان الفارسي[٥].

واستعمل سعيد بن العاص سلمان بن ربيعة على الباب بدلاً من أخيه عبد الرحمن، وجعل على الحرب حذيفة بن اليمان[٦].

---

(١) الطبري (٣٠٦/٤).
(٢) الطبري (٣٠٦/٤).
(٣) نفسه.
(٤) ابن الأثير (١٣٢/٣).
(٥) ابن الأثير (١٣٢/٣).
(٦) الطبري (٣٠٧/٤).

وغزا حذيفة بن اليمان ثلاث غزوات قتل عثمان - رضي الله عنه - في أخراها فحزن حذيفة لذلك حزناً شديداً، واغتم المسلمون لما نزل بأمير المؤمنين وكان وقع الخبر عليهم أليماً، وهول الفجيعة في الخليفة عظيماً.

ونظر حذيفة إلى مقتل الخليفة فرأى فيه هول الفتنة، وبشاعة الجرم، وأحس بأن قتلة عثمان قد فتحوا على المسلمين باباً ليس في وسعهم إغلاقه فقال: اللهم العن قتلة عثمان، وغزاة عثمان، وشنأة عثمان، اللهم إنا كنا نعاتبه ويعاتبنا، متى ما كان من قبله يعاتبنا ونعاتبه؟ فاتخذوا ذلك سلماً إلى الفتنة اللهم لا تمتهم إلا بالسيوف[1].

---

(١) نفسه.

الفتنة ومقتل الخليفة

ظلت الحياة في المدينة المنورة عاصمة الإسلام هادئة ناعمة، تأتيها باستمرار أخبار انتصارات جيوش المسلمين على عدوهم، ويفرح المسلمون بهذه الأنباء، وقد ضاعف فرح المسلمين وسرورهم أن الخليفة - رضي الله عنه - قد زاد في أعطياتهم، ووسع عليهم في أرزاقهم وشملهم جميعاً بِبِرِّه وحلمه وكرمه حتى إنهم ودعوا عيشة التقشف التي عاشوها في عهد عمر - رضي الله عنه - واستبدلوا الخشونة باللين والشظف بالترف.

عاش المسلمون على هذه الحال ست سنوات من خلافة عثمان - رضي الله عنه - لم ينقم عليه أحد، ولم يؤخذ عليه شيء، وكان أحب إلى قريش من عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وذلك لما اتصف به من اللين والرحمة في معاملة المسلمين. ولأنه وسع عليهم ولم يتشدد[1].

وظل الأمر كذلك حتى دخل اليهودي الحاقد عبدالله بن سبأ في المسلمين وأخذ يحرض على عثمان ويقول: إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، ويشير إلى علي — رضي الله عنه — ويقول: هذا وصي رسول الله ﷺ انهضوا إلى هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر[2].

إن هذا الكلام الخطير يوضح الخطة الخبيثة التي خدع بها ذلك

---

(١) ابن سعد (٣/٦٤).

(٢) الطبري (٤/ ٣٤، ٣٤١).

اليهودي المسلمين، حيث كان يتظاهر بالإصلاح وهو لا يريد إلا الإفساد ويمشي في الناس باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو لا يقصد إلا أن يصدقه المسلمون ويثقوا به لينفذ خطته الخبيثة من وراء ذلك الستار الكثيف.

وأخذ ابن سبأ يتنقل في بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم وإفساد عقيدتهم، فخرج من صنعاء إلى الحجاز ولكنه لم يجد سميعاً لدعوته، فذهب إلى البصرة ثم إلى الكوفة، وتوجه منها إلى بلاد الشام ولكنه كان يطارد من الأمراء في كل مكان نزل فيه، واستقر أخيراً في مصر[1].

واستطاع ابن سبأ ـ لعنه الله ـ أن يجد له أتباعاً في الكوفة والبصرة ومصر ولكنه لم يفلح في ذلك حين توجه إلى بلاد الشام حيث يجتمع كبار الصحابة والسابقون إلى الإسلام الذين استنارت بصائرهم بهديه وتوجيهاته، فرأوا في دعوة ابن سبأ وكلامه الخديعة، ولمسوا فيه الحقد اليهودي الدفين، فلم يقبلوا منه، ولم يستمعوا له كما حدث ذلك في بلاد الحجاز تماماً حيث يأوي المهاجرون والأنصار.

لم ييأس ابن سبأ من سكان الشام، ولكنه ظل يتصل بهم فرادى، ويثيرهم حسب خطته على أميرهم معاوية ـ رضي الله عنه ـ فاتصل بأبي الدرداء وحرضه على معاوية، ولكن أبا الدرداء ـ رضي الله عنه ـ رفض ذلك، وأمسك بابن سبأ وقال: من أنت؟ أظنك والله يهودياً.

وترك ابن سبأ أبا الدرداء ليحرض غيره من المسلمين، وكأنه كان يتحرى كبار الصحابة لأنه إذا نجح في إثارة واحد منهم تبعه على ما هو عليه المسلمون، ولذلك بعد أن ترك أبا الدرداء اتصل بعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ وكشف عبادة أمره فتعلق به، وسار إلى معاوية وقال له: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر[2].

---

(١) الطبري (٣٤١/٤).

(٢) ابن الأثير (١١٥/١١٤/٣).

ويبدو أن ابن سبأ قد يئس من الشام كما يئس من الحجاز واكتفى بمن اتبعه من أهل الأمصار الأخرى كمصر والكوفة والبصرة، وبدأ الثوار يوجهون التهم إلى الخليفة وهم بعد في أماكنهم لم يتحركوا ليثيروا بذلك شكوك المسلمين ويوغروا صدورهم على الخليفة، وعندئذ تتهيأ لهم الفرصة للانقضاض عليه وخلعه حسب الخطة الموضوعة[1].

فلما تهيأ الجو، ورأوا الفرصة سانحة تواعدوا أن يذهبوا إلى المدينة لمحاصرة الخليفة وإجباره على التنازل عن الخلافة أو يقتلوه ويتخلصوا منه.

وتقدم الثوار من أمصارهم قاصدين المدينة، وخرجوا جميعهم في شهر شوال متظاهرين بأنهم يريدون الحج حتى يخفى أمرهم على المسلمين فلا يتعرض لهم من يصدهم ويحبط مؤامرتهم، ونزل أهل البصرة بذي خشب ونزل أهل الكوفة ومصر بذي المروة.

والغريب أن هؤلاء المتمردين لم يكونوا على رأي واحد، بل كانت كل جماعة منهم تريد رجلاً وتهوى أن يكون هو الخليفة، فكان متمردوا الكوفة يريدون الزبير بن العوام، ومتمردوا البصرة يريدون طلحة بن عبيد الله، ومتمردوا مصر لا يريدون غير علي بن أبي طالب، ولكنهم لم يجرؤوا على مصارحة بعضهم بذلك، وحاولت كل جماعة منهم أن تكتم أمرها، وتبايع من تريد سراً.

ترى لو أن هذا الأمر قد تم لكل فريق، ونصبت كل فرقة منهم أميراً وبايعته بالخلافة، وفوجىء المسلمون بأمراء المؤمنين يخرجون عليهم كل مع جماعته فماذا عسى أن يكون الحال؟ وماذا يكون موقف هؤلاء الأمراء من أنفسهم ومن المؤمنين الصامدين المرابطين في المدينة المنورة؟.

لا شك أنها تكون محنة لا يعلم إلا الله - عز وجل - عاقبتها، ونهاية أمرها.

ولكن الله سبحانه - أيد دينه بهؤلاء الرجال فرفض كل منهم ما عرضه

---

(١) يراجع في ذلك كتابنا (المدينة المنورة عاصمة الإسلام).

عليه مريدوه وطردوهم شر طرده، يقول ابن الأثير: فأتى المصريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت[1] متقلداً سيفه، وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه فسلموا عليه، وعرضوا عليه، فصاح بهم وطردهم وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وجيش ذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ فانصرفوا عنه.

وأتى البصريون طلحة فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل ابنيه إلى عثمان.

وأتى الكوفيون الزبير فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل ابنه عبدالله إلى عثمان[2].

ورجع المتمردون خائبين فلم يستطيعوا إقناع أحد بقبول بيعتهم ليكون خليفة، إن هذا الموقف من المتمردين يعطينا تصوراً واضحاً عن فهمهم للدين، وكيفية معالجتهم لهذه الفتنة مما يجعلنا نعتقد أنهم كانوا من عوام الناس ورعاعهم، ولم يكن فيهم من يفقه مثل هذا الأمر حتى خفي عليهم.

أن بيعة الخليفة في الإسلام لا يجوز مطلقاً أن تكون سراً مكتوماً لا يعلمه إلا من يبايعه، بل يجب أن تكون جهاراً نهاراً يعلم بها القاصي والداني ويشارك فيها المسلمون على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم، وبغير ذلك لا تتم البيعة، ولا يصبح المبايع خليفة وأميراً للمؤمنين، وقد رأينا في خلافة الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ أنه لما تمت بيعته في السقيفة ولم يكن في السقيفة إلا نفر قليل من المسلمين لم يرض أبو بكر بذلك حتى بويع البيعة العامة في مسجد رسول الله ﷺ وهذا هو الأصل في مبايعة الخليفة في الإسلام.

فهل يزعم أحد بعد ذلك أن هؤلاء المتمردين كانوا على مستوى النظر في أمر الخليفة؟.

---

(١) أحجار الزيت مكان يقع غربي المسجد النبوي بالقرب من مسجد الغمامة وقد دخل في توسعة المسجد النبوي الأخيرة.

(٢) ابن الأثير (٣/١٥٩).

وهل يخطر ببال أحد أن هؤلاء الذين يجهلون أبسط قواعد الإسلام في اختيار الخليفة هم الذين يحكمون على أعمال الخليفة ويقررون خلعه من الخلافة؟.

الحقيقة أنهم جميعهم، من البسطاء السذج الذين خدعهم ابن سبأ، واستثارهم بدهائه وحقده وحرضهم على الخليفة ليفسد على المسلمين وحدتهم، ويفتح عليهم أبواباً من الشر لا قبل لهم بإغلاقها، وتم له ما أراد بواسطة هؤلاء الغوغائيين.

والذي يظهر لي أن هؤلاء لم يكونوا مخدوعين فقط، بل قد بلغ بهم الأمر حد الاعتقاد فيما ألقاه عليهم هذا اليهودي ولو أنهم كانوا مجرد مخدوعين لظهر لهم ما هم فيه من الخداع بمجرد رؤيتهم لكبار الصحابة على خلاف ما هم عليه، ولكن إصرارهم على ما جاؤوا له، وخداعهم أهل المدينة حتى ينصرفوا عنهم ليعودوا إلى بيت الخليفة بعدما تظاهروا بالانصراف، كل ذلك يدل على أن أمر ابن سبأ كان قد تمكن في قلوبهم، وغلب على عقولهم حتى أصبحوا غير قادرين على الانفكاك منه.

لقد وجه المتمردون إلى الخليفة تهماً حصرها المؤرخون في اثنتي عشرة[1] ولكن الخليفة فندها كلها ولم يترك لهم مجالاً يستمسكون به، وذهب إليهم الإمام علي بن أبي طالب فأقنعهم بالعودة ورضاهم حتى رضوا وانصرفوا راجعين إلى بلادهم.

لم يكن هذا الإنصراف حقيقة، وإنما كان حيلة أخرى استعملها المتمردون ليخدعوا من وقفوا دون الخليفة، وحالوا بينه وبينهم فلم ينالوا منه ما أرادوا فتظاهروا بالإنصراف، ولكن رجلين منهم لم ينصرفا مع المنصرفين هما: الأشتر النخعي وحكيم بن جبلة[2].

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب ـ رحمه الله ـ مشيراً إلى تخلف

---

(١) يراجع كتابنا (المدينة المنورة عاصمة الإسلام ودولته الأولى) فصل أسباب الفتنة.
(٢) الطبري (٣٧٥/٤).

الأشتر وحكيم: وفي ذلك شبهة قوية بأن لهما دخلاً في افتعال الكتاب المزور على أمير المؤمنين[1].

لقد تخلف الرجلان ليدبرا أمراً، ولعل انصراف الناس قد ساءهما ففكرا كيف يردان الناس ليتم لهما ما أرادا، فزورا كتاباً على لسان أمير المؤمنين، وحمله رجل مجهول لم يستطع أحد من المؤرخين أن يجزم بأنه فلان من الناس.

والأدهى من ذلك أن حامل الخطاب لما مر بالثوار المتمردين أخذ بتعرض لهم ويختفي عنهم، ثم يظهر ويختفي، وكأنه بذلك يقول لهم: تعالوا فأنا أحمل إليكم نبأ.

فلما رأوه على تلك الحال شكوا فيه وسألوه مالك؟ وما شأنك، فأجاب إني رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه فعثروا معه على كتاب من عثمان إلى عبدالله بن أبي سرح أن يقتلهم أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف[2].

ونجح الأشتر وحكيم فيما أرادا، حيث أثار هذا الخطاب حفائظ العائدين وجعلهم يرجعون إلى المدينة ليخلعوا الخليفة أو يقتلوه، لأنه نقض العهد الذي أعطاهم.

محاصرة بيت الخليفة:

وفوجىء المسلمون في المدينة بالتكبير يهز أرجاءها هزاً، ونزل المتمردون حول بيت الخليفة، وحاصروه من كل جانب، وقالوا: من كف يده فهو آمن[3].

وروع المسلمون بعودة المتمردين بعد أن حمدوا الله على عودتهم دون

---

(١) حاشية العواصم من القواصم ص ٨٩.
(٢) الطبري (٤/٣٥٥).
(٣) نفسه (٤/٣٥١).

إراقة دماء، وخرج إليهم أهل المدينة يكلمونهم في أسباب رجعتهم، وسألهم علي ـ رضي الله عنه ـ ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟

فقالوا: أخذنا مع البريد كتاباً بقتلنا.

وكلم طلحة ـ رضي الله عنه ـ البصريين، والزبير ـ رضي الله عنه ـ الكوفيين.

فقالوا: نحن نمنع إخواننا وننصرهم.

فقال لهم علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟

هذا والله أمر أبرم بالمدينة.

قالوا: فضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا[1].

إن هذه المناقشة الجريئة تدل على أن موضوع الخطاب المزور ليس صحيحاً، بل تثبت أنه ليس هناك كتاب قط لا مزور ولا صحيح، لأنه لو كان المصريون هم الذين أمسكوا الرسول، وعثروا معه على الكتاب، وعادوا إلى المدينة على أثر ذلك، فمن الذي بلغ البصريين والكوفيين أمر الكتاب حتى يرجعوا؟ وطريق المصريين غير طريق العراقيين، فهي إذن مؤامرة دبرت بليل كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

والذي يفهم من ذلك أن هؤلاء المتمردين قد تظاهروا كما قلت بالإنصراف بعد أن تواعدوا جميعاً على الرجوع إلى المدينة في موعد حددوه، ويؤكد ذلك عودتهم من جهاتهم المختلفة في يوم واحد، حتى هزوا أرجاء المدينة بالتكبير وحاصروا بيت الخليفة في ليلة واحدة.

وقد ظل هذا الحصار أربعين يوماً، وعثمان ـ رضي الله عنه ـ يخرج للصلاة، فيصلي وهم يصلون خلفه ثلاثين يوماً، ثم منعوه من الصلاة،

---

(١) الطبري (٤/٣٥١).

وصلى بهم أميرهم الغافقي بن حرب بقية أيام الحصار، وعندئذ تفرق أهل المدينة فلزموا بيوتهم وبساتينهم ولم يصلوا وراءه، ولبسوا سيوفهم ليدفعوا بها عن أنفسهم إن أرادهم أحد بسوء[1].

وشدد المتمردون الحصار ومنعوا وصول الماء إلى الخليفة، وأحرقوا باب الدار ليروا كل حركة تدور فيه، وألزم الخليفة المسلمين بحق الطاعة ألا يدافعوا عنه، وأخبرهم بأن قتله وحده أهون عليه من إراقة دماء المسلمين[2].

كبار الصحابة يستعدون للدفاع عنه:

وكان قد استعد للدفاع عنه كبار الصحابة، وأرسلوا أبناءهم لحراسته والقتال دونه، ولكنه ـ رضي الله عنه ـ أصر على أن ينصرفوا وكان آخر من انصرف من الدار الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ وكان في استطاعة الخليفة لو أراد أن يجرد من أهل المدينة جيشاً يدافع به عن نفسه ويرد به المتمردين عن حصار بيته، ولم يكن ذلك عسيراً على أمير أحبه الناس أكثر من حبهم لابن الخطاب، وما كان للمسلمين حينذ أن يتخلفوا عن أمر يصدره الخليفة وفي أعناقهم له بيعة بالسمع والطاعة، ولكن الخليفة فضل حقن الدماء وحصرها في أقل قدر ممكن، وليكن ذلك هو دمه وحده ـ رضي الله عنه وأرضاه.

ولما قرب موسم الحج، وخالف المتمردون وشددوا الحصار، خاف عثمان ألا يكون هناك أمير يحج بالناس فأشرف على المسلمين من سطح داره واستدعى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فأمره أن يحج بالناس وكان ممن وقفوا بالباب ليدافعوا عن أمير المؤمنين، فلما انتدبه عثمان ليحج بالناس قال: جهاد هؤلاء أحب إليّ من الحج.

فأقسم عليه الخليفة فانطلق[3].

---

(١) ابن الأثير (٣/١٦١).
(٢) العواصم من القواصم ص ٩٩.
(٣) ابن الأثير (٣/١٧٤).

ولما أحرق المتمردون باب الدار ثار من فيها، وكانت لهم صيحة وجلبة وكان عثمان - رضي الله عنه - يصلي، قد بدا في سورة طه فما شغله ما سمع من الصياح، ولا أخطأ ولا تتعتع حتى انتهى من صلاته فلما فرغ جلس إلى المصحف يقرأ فيه، حتى قرأ قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

المتمردون يمنعون الماء وعثمان يستغيث:

واستغاث عثمان بعلي وطلحة والزبير وأزواج النبي ﷺ طالباً الماء لما منعوه عنه، فكان أول من لبى علي وأم حبيبة - رضي الله عنهما - وذهبا إليه يحملان الماء فأما علي فقد منعه المحاصرون فوعظهم وذكرهم فلم يجد فيهم ذلك فرمى بعمامته في دار عثمان ليعلمه أنه حضر ولكنه منع، وأما أم حبيبة فقد حال الثوار بينها وبين الدخول على الخليفة فاحتالت بأن وصايا بني أمية عنده وأنها تخاف أن يموت فيضيع حق اليتامى والأرامل، ولكن الحيلة لم تنفع معهم فضربوا البغلة التي كانت تحمل الماء ففرت وكادت تلقي بأم المؤمنين على الأرض، وعلم طلحة والزبير بما جرى لعلي وأم حبيبة فلزما بيتيهما، وظل عثمان لا يصله الماء إلا عن طريق بيت آل حزم في غفلة من الناس[1].

إن المسلمين لم يكونوا يتصورون أن الثورة ستفضي إلى قتل أمير المؤمنين، ولكن كانوا يتوقعون أن تنتهي بخلعه، ولو كانوا يعلمون أنها ستفضي إلى القتل ما تخلف أحد عن الدفاع عن الخليفة وما كان للثوار حينئذ أن يتغلبوا في هذا الموقف، فمهما تكن قوتهم وعددهم فإنهم عاجزون عن مقاومة عشرين ألفاً أو أكثر كانوا رهن إشارة الخليفة في المدينة[2].

ولما رأى من في الدار مع عثمان أن الأمر قد اشتد، وأن المجرمين قد أحرقوا باب الدار والسقيفة التي أمامه، وتأكد المدافعون أن الثوار يريدون ما

---

(١) ابن الأثير (٣/١٧٤، ١٧٥).

(٢) ابن العربي ص ١٠٢ العواصم من القواصم.

هو أعظم مما يتصورون خرجوا واحداً تلو الآخر يطلبون المبارزة، فخرج المغيرة ابن الأخنس بن شريق، وكان قد تعجل من الحج وحضر إلى المدينة ليدافع عن الخليفة فارتجز وهو خارج إلى الأعداء بقوله:

قد علمت ذات القرون الميل   والحلي والأنامل الطفول[1]
لتصدقن بيعتي خليلي   بصارم ذي رونق مصقول
لا أستقيل إذ أقلت قيل

وخرج وراءه الحسن بن علي وهو يقول:

لا دينهم ديني ولا أنا منهم   حتى أسير إلى طمار شمام[2]

وخرج في أثره محمد بن طلحة مرتجزاً:

أنا ابن من حامى عليه بأحد   ورد أحزاباً على رغم معد

وتبعه سعيد بن العاص وهو ينشد:

صبرنا غداة الدار والموت واقب   بأسيافنا دون ابن أروى تضارب[3]
وكنا غداة الروع في الدار نصرة   نشافههم بالضرب والموت نائب

وبرز مروان بن الحكم وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل   والكف والأنامل الطفول
إني أروع الرعيل   بغارة مثل القطا الشليل[4]

وأقبل أبو هريرة والناس محجمون فقال: هذا يوم طاب فيه الضرب. ونادى في الناس:

﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾[5].

---

(١) الطفول: الناعمة، والرونق: الحسن والبهاء.

(٢) الطمار: المكان المرتفع، وشمام اسم جبل كأنه يريد أن يركب الصعب في سبيل الدفاع عن الخليفة.

(٣) الموت واقب: آت.

(٤) يقول إني أفزع مقدمة الجيش بغارة سريعة مثل غارة الطائر المعروف بالقطا.

(٥) سورة غافر الآية ٤١.

معركة بين أنصار الخليفة والمتمردين:

ودار قتال عنيف بين المدافعين عن الخليفة والثائرين عليه[1] واقتحم المتمردون دار أمير المؤمنين من الدور المحيطة بها حتى ملؤوا دار عثمان بعد دخلوا عليه من دار عمرو بن حزم، ويبدو أنهم هابوا الخليفة فلم يجرؤ أحد على قتله، فانتدبوا رجلاً ليقتله.

فدخل عليه رجل فقال له: اخلعها وندعك.

فقال عثمان ـ رضي الله عنه ـ ويحك. والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيت ولا تمنيت، ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت رسول الله ﷺ ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى ـ حتى يكرم الله أهل السعادة، ويهين أهل الشقاوة.

فلما سمع الرجل ذلك الكلام خرج عنه ولم يقتله.
فسأله من بالباب، ما صنعت؟
فقال: والله لا ينجينا من الناس إلا قتله، ولا يحل لنا قتله.

ومن هذه الإجابة الصريحة نعلم أن المتمردين كانوا قد فعلوا ما فعلوا مخدوعين، فلما ناقشهم الخليفة تبين لهم خطؤهم، ولكن تخوفوا عاقبة الإنصراف فينكشف أمرهم فلا يتركهم المسلمون يمشون على الأرض آمنين.

فأدخلوا رجلاً من بني ليث إلى الخليفة ليقتله، ودخل الرجل، ولم يكد يراه أمير المؤمنين حتى ابتدره قائلاً: لست بصاحبي، لأن النبي ﷺ دعا لك أن تحفظ يوم كذا وكذا ولن تضيع. فرجع الرجل، وفارق المتمردين.

ودخل عليه ثالث من قريش فقال له عثمان: إن رسول الله استغفر لك يوم كذا وكذا فلن تقارف دماً حراماً، فرجع الرجل وفارق أصحابه.

وأقبل عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ فأخذ ينهاهم عن قتله. ويقول: يا قوم لا تسلوا سيف الله فيكم، والله إن سللتموه لا تغمدوه،

---

(١) الطبري (٣٨٢/٤).

ويلكم. إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة، فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف، ويلكم. إن مدينتكم محفوفة بالملائكة فإن قتلتموه ليتركنها.

فقالوا له: يا ابن اليهودية، ما أنت وهذا. فرجع عنهم[1].

الخليفة يستعد للقاء الله:

وفي صبيحة ذات يوم جلس الخليفة في بيته ووضع المصحف بين يديه، وفتح باب الدار الذي أحرقه المتمردون وأطفأ الحريق المدافعون، وكأن عثمان كان يستعد لأمر تحقق أنه سيقع في هذا اليوم، فلما سئل قال: رأيت رسول الله ﷺ البارحة، فقال لي: يا عثمان أفطر عندنا، فأصبح - رضي الله عنه - صائماً، وقتل في ذلك اليوم.

وروى عن السيدة نائلة بنت الفرافصة قالت: أغفى عثمان، فلما استيقظ قال: إن القوم يقتلونني، فقلت: كلا يا أمير المؤمنين، قال: إني رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - فقالوا: أفطر عندنا الليلة، أو قالوا: إنك تفطر عندنا الليلة[2].

وصدقت رؤيا عثمان - رضي الله عنه - فقد تواترت الأنباء بأن المسلمين قد خرجوا من بلادهم يريدون الحج ثم يتوجهون إلى المدينة لنصرة الخليفة، وبلغت تلك الأخبار المتمردين وركب الشيطان رؤوسهم فقالوا: لن يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل ذلك الرجل، فيشتغل بذلك الناس عنا.

يقول ابن جرير - رحمه الله: ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلى قتله[3].

اتجه المتمردون نحو الباب، وردهم الحسن وابن الزبير وابن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن كان معهم من أبناء الصحابة، ودارت معركة

---

(1) ابن الأثير (٣/١٧٧، ١٧٨). والطبري (٤/٣٩٠، ٣٩١).
(2) ابن سعد (٣/٧٥).
(3) الطبري (٤/٣٨٨).

أخرى بين الفريقين، وعثمان ـ رضي الله عنه ـ ينهي أصحابه عن القتال ويقول لهم: أنتم في حل من نصرتي، الله الله، ولكنهم أبوا أن يكفوا، فتقدم هو، وفتح الباب ومعه ترسه وسيفه يريد أن يزجرهم، فلما رآه المصريون أدبروا وركبهم حرس الخليفة فتراجعوا[1].

وظل الحال على ذلك، فلا الثائرون يجرؤون على قتل الخليفة، ولا المدافعون عندهم القدرة على ردهم وهزيمتهم لقلتهم أولاً، ولعزم الخليفة عليهم ألا يقاتلوا ثانياً، فلما بلغ المتمردون أن الإمداد تحركت من مصر والشام والعراق لنجدة الخليفة خاف الثوار العاقبة، وقالوا: نعاجله قبل أن تقدم الإمداد[2].

كبار الصحابة يغادرون المدينة:

ورأى كبار الصحابة أن الأمر قد خرج من أيديهم وأنهم إن بقوا في المدينة حتى يقتل الثوار الخليفة لتكونن سابقة خطيرة يتخذها الناس ذريعة لارتكاب أعظم الجرائم في حضرتهم دون تهيب أو خوف فغادروا المدينة بعد أن تركوا أبناءهم يحرسون الخليفة، ويدافعون عنه بأنفسهم.

غادر الزبير المدينة، وأقام على طريق مكة لئلا يشهد قتله، وذهب سعد بن أبي وقاص إلى حائط له يبتعد بذلك عن الناس وقال لا أشهد قتله[3] وخرجت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وحاولت أن تبعد أخاها محمداً عما هو فيه فرفض، ولم يذهب معها إلى الحج.

يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة واستتبعت أخاها فأبى، فقالت: أما والله لئن استطعت أن يحرمهم الله مما يحاولون لأفعلن[4].

---

(١) نفسه.
(٢) الطبري (٣٩٤/٤).
(٣) الطبري (٣٩٢/٤).
(٤) نفسه (٣٨٦/٤).

وتقدم محمد بن أبي بكر، فتسور على عثمان من دار عمرو بن حزم وصحبه من الثوار ثلاثة نفر: كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي، وسودان ابن حمران، وعمرو بن الحمق، فدخلوا على عثمان فوجدوه يقرأ القرآن في سورة البقرة.

وتوجه محمد بن أبي بكر إلى الخليفة، وأخذ بلحيته، وقال: قد أخزاك الله يا نعثل.

فقال عثمان: لست بنعثل، ولكني عبدالله وأمير المؤمنين.

قال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان.

قال عثمان: يا ابن أخي، دع عنك لحيتي، فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه.

قال محمد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك، وما أريد بك أشد من قبضي على لحيتك.

قال عثمان: أستنصر الله عليك وأستعين به. فتركه محمد وخرج[1].

مقتل الخليفة:

وأخذ الحاضرون يعبثون بالخليفة، فمنهم من يجوءه بنعل سيفه، وآخر يلكزه، وجاء رجل بمشاقص معه، فوجأه في ترقوته، فسال الدم على المصحف، وهم في ذلك يهابون قتله[2].

قال ابن جرير: ورفع كنانة بن بشر مشاقص كانت في يده، فوجأ بها في أصل أذن عثمان، فمضت - المشاقص - حتى دخلت في حلقه ثم علاه بالسيف فقتله[3].

قال عبد الرحمن سمعت أبا عون يقول: ضرب كنانة بن بشر جبينه

---

(١) ابن الأثير (٣/١٧٨).

(٢) الطبري (٤/٣٩٣).

(٣) نفسه.

ومقدم رأسه بعمود حديد فخر لجبينه، فضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خر لجبينه فقتله.

قال: وأما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات ثم قال: فأما ثلاث منهن فإني طعنتهن إياه لله، وأما ست فإني طعنتهن إياه لما كان في صدري عليه[1].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وفي رواية أن الغافقي بن حرب تقدم إليه بعد محمد بن أبي بكر فضربه بحديدة في فيه، ورفس المصحف الذي بين يديه برجله فاستدار المصحف ثم استقر بين يدي عثمان ـ رضي الله عنه ـ وسالت عليه الدماء، ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف فمانعته نائلة فقطع أصابعها فولت فضرب عجيزتها بيده وقال: إنها لكبيرة العجيزة، وضرب عثمان فقتله.

فجاء غلام لعثمان فضرب سودان فقتله، فضرب الغلام رجل يقال له قترة فقتله[2].

وأراد المجرمون حز رأسه بعد قتله، فصاح النساء، وضربن وجوههن فيهن امرأتاه نائلة وأم البنين وبناته ـ رضي الله عنهن ـ فلما رأى ابن عديس ذلك قال: اتركوه، فتركوه.

ونادى مناد من المتمردين، يا قوم، أيحل لنا دَمُه ولا يحل لنا ماله، فانتهبوا ما في البيت ولم يتركوا شيئاً حتى ما كان على النساء، واستلب رجل يقال له: كلثوم التجيبي ملاءة السيدة نائلة زوجة الخليفة ـ رضي الله عنها ـ فضرب كلثوماً غلام لعثمان فقتله، ثم قتل الغلام.

ونادى المجرمون بالاتجاه لبيت المال فأخذوا ما فيه بعد أن فر حراسه أمام الخوارج[3].

وكان مقتل الخليفة ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمعة بلا خلاف، وكان قد

---

(١) الطبري (٤/٣٩٤)، ابن الأثير (٣/١٧٩)، ابن كثير (٧/١٨٥).
(٢) ابن كثير (٧/١٨٨).
(٣) نفسه (٧/١٨٨، ١٨٩).

مضى من ذي الحجة ثماني عشرة ليلة على المشهور سنة خمس وثلاثين على الصحيح.

وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً وكان قد تجاوز اثنتين وثمانين سنة[1].

وقد قام بتغسيله وتكفينه بعض خدمه وحملوه على باب وصلى عليه جبير بن مطعم وقيل الزبير بن العوام وقيل غير ذلك، ومشى في جنازته نفر قليل من الصحابة منهم: حكيم بن حزام، وحويط بن عبد العزى، وأبو جهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم الأسلمي، وجبير بن مطعم وزيد بن ثابت وكعب بن مالك وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب.

كذلك تبعه بعض النساء منهن امرأتاه نائلة وأم البنين، وبعض الصبية[2].

وبعد دفن الخليفة أخرجوا عبديه اللذين قتلا يوم الدار وهما صبيح ونجيح - رضي الله عنهما - فدفنا إلى جوار الخليفة، وقد كان دفنهم جميعاً في مكان يعرف بحش كوكب كان الخليفة قد اشتراه ليوسع به مقبرة المسلمين.

وهكذا قضى الخليفة الثالث - رضي الله عنه - بعد أن استغل الثوار بكل خسة ودناءة انفراده وعدم وجود المدافعين حيث كان قد أقسم عليهم أن يلزموا بيوتهم ولا يعرضوا أنفسهم لإراقة الدماء، وبعد أن حرّر من يكف يده من عبيده[3].

ودخلوا عليه داره التي طالما آوت المستضعفين، وردت فيها جوعة الجائعين، وسلوا سيوفهم وقتلوه في وحشية وضراوة، لم يحترموا شيخوخته ولم يرقوا لضعفه ووحدته ولم يوقروا المصحف الذي بين يديه، وضاعت كل

---

(١) ابن كثير (٧/١٩٠).

(٢) ابن كثير (٧/١٩١).

(٣) الطبري (٤/٣٩١).

المحاولات التي بذلها الخليفة ليحقن بها دماء المسلمين، ولكنه حقن بدمه الذكي دماء المسلمين، وقد كان من المحتمل أن تهدر هدراً وأن تضيع سدى.

لم يكن قتل الخليفة هو الغاية التي يقصدها الثوار كما يظن كثير من السطحيين وإلا لهان الأمر وسكنت الفتنة واستبدل خليفة بخليفة وعادت المياه إلى مجاريها.

ولكن الثوار كانت لهم غاية أبعد أثراً وأعمق غوراً من قتل الخليفة والاستبدال به.

وماذا يجني الثوار من قتل الخليفة إذا اجتمع المسلمون على خليفة آخر؟ وكيف يتحقق لهم هدم هذا الصرح الشامخ إذا هدأت العاصفة، وتمكن المسلمون من رأب صدعهم، وجمع شملهم، وعادوا كما كانوا إخوة متحابين؟.

إن غاية الثوار هي هدم حقيقة الإسلام، والنيل من عقيدته، وتشويه مبادئه، وقد تناولها ابن سبأ بمفترياته المدمرة، وحاول أن يجهز عليها بكتائبه المسلحة ولهذا لما بدأت محاولات الصلح بين علي وبين طلحة والزبير - رضي الله عنهم - قبل وقعة الجمل، تأخذ وضعها الطبيعي وتقاربت النفوس خاف ابن سبأ أن تكون نتيجة ذلك الصلح كشفاً لعوراته، وافتضاحاً لبدعه ومفترياته، فعقد جلسة مع رؤساء حركته، واستعرض فيها الموقف بأكمله، وتبادل معهم الآراء، واستمع إلى رأي كل منهم، ثم رده في لطف لئلا يثيرهم فلما انتهوا من عرض أفكارهم طرح عليهم فكرته الخبيثة وقال: اقترح أن تبدأوا القتال عندما يتواجه الفريقان حتى لا يتمكنوا من عقد الصلح، وبذلك تفسدون عليهم خطتهم وتنجون من غضب الفريقين، وتستـرون تدبيركم[1].

---

(١) الطبري (٤/٤٩٤) بتصرف.

فوافق المؤتمرون ونفذوا ما اتفقوا عليه، وضيعوا فرصة الصلح على المسلمين.

هذه كانت خطة المتمردين، لم يريدوا بها إلا الكيد لهذا الدين، ولكن الإسلام كان أقوى من كل هذه الهجمات وأعظم من كل هذه التحديات، وأقدر على الصمود والثبات، فقد ذهب ابن سبأ، وبقي الإسلام، وأما أفكاره المدمرة فإنها وإن كانت لا تزال تجد مكانها في نفوس طائفة من المسلمين إلا أنها طائفة منبوذة لقبح اعتقادها، وسوء تصرفاته.

وقد قيض الله للإسلام رجالاً نفوا عنه خبث هذه الأفكار، وأظهروا فسادها فاستمسك المسلمون بعقيدة التوحيد، واتبعوا نهج السلف الصالح، كما حقق الله ـ عز وجل ـ نبوءة نبيه ﷺ حين قال:

«ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[1].

فتنازل الحسن ـ رضي الله عنه ـ عن حقه في الخلافة، فاجتمعت كلمة المسلمين على خليفة واحد[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) العصامي (٢/٥٢١).

تحليل وتعليق

لقد استطاع المتمردون أن يغلفوا فعلتهم المنكرة تغليفاً جيداً باسم الدين، وأن يوهموا العامة من الناس بصدقهم ونصحهم للإسلام والمسلمين، حتى التبس الأمر، واختلط على القريب والبعيد، وأصبح الناس وهم لا يدرون ماذا يفعلون، ولا مع من يقفون؟

وكانت صيحات التحذير من الإقدام على إيقاع الأذى بالخليفة من كبار الصحابة تضيع وسط تهويلات المفترين وصراخ المتمردين، فكم زعم هؤلاء أنهم لم يخرجوا إلا لنصرة الإسلام، ورد الحقوق، وإقامة الحدود التي ضيعت في عهد عثمان، وكم شوه هؤلاء كل عمل قام به الخليفة، حتى الذي أجمع المسلمون بعد ذلك على حسنه وجليل فائدته ذلك لأنهم لم يكن لهم هدف إلا تمزيق وحدة المسلمين بقتل خليفتهم، وتركهم بين أهوال المحنة وبين انشغال الذهن بمحاولة جمع الشمل.

ولكن هل كان هؤلاء المتمردون صادقين في هذا الزعم؟ يبدو أن أناساً منهم كانوا مخدوعين حقيقة فانضم فريق منهم إلى المتمردين باسم الانتصار للإسلام وتقويم منهج الخليفة حتى يستقيم على أمر الله، ومن هؤلاء الرجال الليثي الذي أدخلوه على الخليفة ليقتله فلما راجعه الخليفة خرج وفارق المتمردين ومنهم كذلك القرشي الذي ذكره عثمان باستغفار الرسول له فرجع كذلك وفارق المتمردين وقد سبق الكلام عنهما.

ومنهم سالم بن ثعلبة الذي قال لأصحابه يوم الجمل: من كان أراد بما

أتى الدنيا فإني لم أرد ذلك، والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتي، ولئن طال بقائي إذا أنا لاقيتهم لا يزد على جزر جزور، وأحلف بالله أنكم لتفرقون السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف[1].

إن هذا الرجل الذي لا يريد من قتل الخليفة إلا ما عند الله مخدوع لا محالة لم يدرك عظم الجرم الذي ارتكبه، ولا بشاعة الفتنة التي أوقع الناس في نارها، وهو لا محالة ذائق عاقبة خطيئته، قال الله تعالى: ﴿ قل هل نُنبِّئكم بالأخسَرِين أعمالاً؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾[2].

إن هذا وأمثاله من المخدوعين كان ينبغي عليهم أن يتثبتوا مما هم مقدمون عليه، خاصة وهم سيسفكون دماً، وإن هذا الدم هو دم الخليفة الذي أعطوه صفقة أيديهم وثمرة قلوبهم، وبايعوه على السمع والطاعة، ولقد حضر إليهم كبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كعلي بن أبي طالب ومحمد ابن مسلمة وذهبا إلى حيث يجتمعون ومعهم من الصحابة عدد لا يستهان به، وتكلما مع المتمردين وأقنعاهم بخطأ خروجهم على الخليفة حتى هموا بالرجوع إلى بلادهم.

لقد كان للمخدوعين في كف كبار الصحابة عن الخليفة وعدم الاشتراك معهم في تمردهم ما يردعهم عن التمادي في الباطل الذي خدعوا به، كما كان في تحذيرهم إياهم مغبة الخروج ومحاولة صرفهم عما عزموا عليه دليل واضح على فساد اعتقادهم فيما اتهم به الخليفة لو كانوا يعقلون.

ولكنهم عموا عن كل ذلك فلم يبصروا إلا ما أراهم إياه الخوارج المفترون على الخليفة لهذا فهم غير معفوين من هذا الخطأ الذي وقعوا فيه.

وإلى جوار هؤلاء المخدوعين من الخوارج توجد طائفة الموتورين الذين أثارت حفائظهم مواقف الخليفة منهم، إما لتأديبهم وردهم إلى الحق،

---

(١) الطبري (٤/٤٩٤).
(٢) سورة الكهف الآية ١٠٣، ١٠٤.

وإما لتطلعهم إلى مناصب ليسوا لها بأكفاء لم يمكنهم الخليفة من الوصول إليها.

وكلا الفريقين طوى صدره على غل أسود، فكان يتربص بالخليفة لحظة يمكنه فيها النيل منه ليشفي ما في صدره، وينفس عما في قلبه، فلم يكد يذيع ابن السوداء بدعه، ولم تكد فتنته وتحريضه على الخليفة يظهران بين الناس حتى انضم هؤلاء الموتورون إلى المتمردين لعلهم يصلون عن طريق الفتنة إلى ما عجزوا عن الوصول إليه في فترة الهدوء والطمأنينة.

فمن الذين أدبهم الخليفة وأخذ منهم الحقوق محمد بن أبي بكر، وكان عليه حق فأخذه منه عنوة فغضب ابن أبي بكر وحملها للخليفة في نفسه، ووجد الفرصة سانحة للانتقام إذا انضم إلى المتمردين فدفعه ذلك إلى الانضمام إليهم ولهذا لما دخل على عثمان ــ رضي الله عنه ــ قال له: ويلك. أعلى الله تغضب؟ هل لي إليك جرم ألا حقه أخذته منك؟

ويظهر من هذا أن الحق الذي كان على ابن أبي بكر كان لله ـ عز وجل ـ لأن قول الخليفة: أعلى الله تغضب؟ ثم قوله بعد ذلك: هل لي إليك جرم ألا حقه أخذته منك؟ دليل على أن محمد بن أبي بكر كان مقصراً في حق من حقوق الله.

يقول ابن جرير: وأما محمد بن أبي بكر فإنه أعجب حتى رأى أن الحقوق لا تلزمه[1].

ولعل محمداً كان يعتقد أن منزلة أبي بكر في المسلمين ستمنع الخلفاء من إلزامه بالحقوق سواء منها ما كان لله ـ عز وجل ـ أم ما كان للمسلمين فاغتر بذلك وأعجب فلما بدا تقصيره لم يتركه الخليفة فعظم ذلك في نفسه، وكان ذلك سبباً في الخروج على الخليفة ـ رضي الله عنه.

ومن الموتورين عمير بن ضابي، وكان الخليفة قد حبس أباه ضابي

---

(١) الطبري (٤/٣٤٦).

الحنظلي التميمي ثم البرجمي، حتى مات في الحبس، والسبب في ذلك أن ضابياً قد استعار كلباً يقال له: قرحان، من قوم، فأراد أصحاب الكلب أخذه من ضابي فهجاهم هجاء مقذعاً قال فيه:

تجشم نحوي وفد قرحان خطة ... تضل بها الوجناء وهي حسير
فراحوا بكلب مردفيه كأنما ... حباهم بتاج المرزبان أمير
فأمكم لا تتركوها وكلبكم ... فإن عقوق الوالدين كبير
إذا غبرت من آخر الليل دخنة ... يظل لها فوق السرير هرير

فاستعدوا عليه الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وقال له: ويلك. رميت أم قوم بكلبهم لو كنت في عهد رسول الله ﷺ لنزل فيك قرآن، فضربه وحبسه.

ثم إن عثمان طلبه ليخرجه من حبسه فوجد معه خنجراً يريد أن يغتاله به فرده إلى الحبس، فقال ضابي:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

وظل ضابي في الحبس حتى مات[1]، فأحفظ ذلك ابنه عميراً وما كادت الفتنة تطل بقرنها حتى انضم إليها عمير بن ضابي، فلما قتل الخليفة، ووضع على سريره ليصلى عليه جاء عمير ونزا عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه، وقال: حبست ضابياً حتى مات[2].

ومن هؤلاء أيضاً عمرو بن الحمق، وكان حاقداً على عثمان، ويبدو أن حقده عليه كان شديداً حتى أنه لما قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وثب عليه وبه رمق، وطعنه تسع طعنات: قسمها عمرو على قدر حقده على الخليفة فقال: فأما ثلاث منهن فإني طعنتهن إياه لله، وأما ست فإني طعنتهن إياه لما كان في صدري عليه[3].

وإنك لتدرك من الوهلة الأولى عندما ترى عمراً يطعن الخليفة ثلاث

---

(١) الأوائل للعسكري ص ١٥٧، ٢٥٨.
(٢) ابن كثير (١٩١/٧) نقلاً عن الواقدي.
(٣) الطبري (٣٩٤/٤) وابن الأثير (١٧٩/٣).

طعنات لله ـ إن كان صادقاً ـ ثم يشفي صدره بست طعنات أي بضعف ما جعله لله ـ عز وجل ـ مدى ما كان في قلب ابن الحمق على الخليفة من الغل البغضاء.

أنا لا أشك في أن عمر أعلن أن الطعنات الثلاث لله ليستر بها شيئاً من الجرم الذي أقدم عليه في حق الخليفة بغير ما مبرر، ولو كانت غضبته لله بحق لجعل التسع كلهن لله ـ تعالى ـ أما أن يجعل لله نصف ما يجعله لنفسه فذلك دليل واضح على أنه يجعل لله ما يكره أن يكون لنفسه، وليس هذا إلا ثلمة في إيمانه تجعل المحقق يشك في إخلاصه إذا لم يتأكد من عدمه.

أفيكون أمثال هؤلاء هم الذين يطالبون الخليفة بالتمسك بالإسلام، ويتهمونه بالخروج على مثله ومبادئه؟

إن مجرد الشبهة في العمل الذي يعمله الإنسان تخرج العمل عن كونه خالصاً لوجه الله أو مراداً به وجه الله، فكيف إذا كانت الأحقاد تطفح من القلوب والضغائن تسيل على الألسنة؟.

فأما الذين كانوا يتطلعون إلى مناصب أكبر من قدرهم، وحال الخليفة بينهم وبينها لثقته بعدم صلاحيتهم للقيام بها فإنهم كانوا رؤوساً في التحريض على الخليفة، وحملوا مع ابن السوداء لواء الغدر به، وكان من أشهرهم محمد بن أبي حذيفة.

كان محمد ابن أبي حذيفة ربيباً لعثمان ـ رضي الله عنه ـ مات أبوه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة يوم اليمامة، وترك محمداً هذا بغير كَفيل، فكفله عثمان بن عفان، وأحسن تربيته.

ولكن محمداً لم يستقم على الجادة، فشرب خمراً، فلم يعفه الخليفة بل أقام عليه الحد، فلجأ محمد إلى التنسك وأقبل على العبادة يستر بذلك ما بدر منه مما أوجب عليه الحد، ثم طلب من الخليفة أن يوليه عملاً.

فقال عثمان: لو كنت أهلاً لذلك لوليتك.

وأصرها محمد في نفسه، ولم يظهر غضبه لذلك بل تظاهر بأنه يريد الجهاد واستأذن في الخروج إلى مصر ليغزو مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فأذن له عثمان بطيب نفس وجهزه، واتخذ محمد بن أبي حذيفة العبادة ستاراً كثيفاً يستر وراءه ما يضمره في نفسه ورأى المصريون عبادته فعظموه واتبعوه.

ولما رأى محمد أن مكانته تعاظمت في نفوس المصريين بدا يطعن على الخليفة وعلى واليه عبدالله بن سعد، فشكاه عبدالله إلى الخليفة، وأراد الخليفة أن يواصل بره به، فأوصى به الوالي وأرسل إليه ثلاثين ألف درهم وجملاً عليه كسوة.

واستغل محمد بر الخليفة له أسوأ استغلال وشهر به بدلاً من أن يشكره، ووضع المال والكسوة في المسجد وصاح، يا معشر المسلمين، ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني، ويرشوني عليه، فأعجب به المصريون، وازدادوا تعظيماً له، وطعناً على عثمان، وبايعوا محمداً على رياستهم[1].

لقد كان رفض عثمان لتولية ربيبه محمد بن أبي حذيفة أمراً من أمور المسلمين سبباً في ثورة هذا الربيب العاق على ولي نعمته، وصاحب الفضل في تربيته، ولو أن عثمان أراد أن يجامل أحداً من أقاربه على حساب المسلمين لكان ابن أبي حذيفة أولى الناس بهذه المجاملة، ولكن الخليفة أبى أن يوليه شيئاً ليس كفؤاً له، ولم يكن ذلك كراهية له، ولا نفوراً منه، وإلا لما جهزه وحمله وأوصى به.

ولقد تحمل الخليفة من هذا العاق متاعب لم يتحملها أحد قبله، ولقد فجر محمد في خصومته للخليفة فجوراً لا يفجره عدو، فكان يؤلب

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٦٥).

المسلمين على أمير المؤمنين، ويحرض على خلعه، ويزور الكتب على لسان أمهات المؤمنين يدعو المسلمين فيها إلى الثورة على عثمان[١].

وليس ذلك لأن عثمان ارتكب جرماً يستحق به أن يخلع، أو حاد في حكمه عن شريعة الله ودينه، بل لأنه أبى أن يعينه والياً على بلد من بلاد المسلمين.

ومن هؤلاء أيضاً مالك بن الحارث (الأشتر النخعي) فقد كان يرى نفسه كفؤاً لإدارة أعمال المسلمين وكان يعتقد أنه أحق بالولاية من غيره ممن ولاهم أمير المؤمنين عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولما لم يول ثار وحرض وارتكب الجرائم العظام حتى قتل عثمان، وكان من أوائل المبايعين لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ومن أكبر أعوانه أملاً أن ينال منه ما لم ينل في عهد عثمان ولكنه لم ينل مأربه حتى في عهد علي، لأنه ليس الرجل الذي يتحمل عن المسلمين.

وليس أدل على تطلعه إلى الولاية وغضبه لنفسه إذ لم يول من قوله وقد ولى عليّ ابن عمه عبدالله بن عباس البصرة، ولم يكد الخبر يطير إلى آذان الأشتر حتى غضب وقال: علام قتلنا الشيخ. إذ اليمن لعبيد الله والحجاز لقثم والبصرة لعبدالله والكوفة لعلي[٢].

وهكذا يعرض الأشتر بولاة الخليفة الجديد الذي أسرع في بيعته، وتفانى في خدمته أملاً أن يصيبه شيء من الأمر الذي كان يعمل جاهداً للوصول إليه، فلما وجد أمير المؤمنين علياً عدل عنه وولاها الأكفاء من أبناء عمه تماماً كما فعل عثمان ثار وغضب، وركب دابته وفارق الخليفة ولولا أن أدركه الإمام، وأغز السير حتى لحق به، ما كان يدري إلا الله ماذا كان سيعمل هذا الثائر المتمرد.

إن غضبة هذا وأمثاله لم تكن في ساعة من الساعات خالصة لوجه

---

(١) المقريزي (٣/٢٦٤).

(٢) الطبري (٤/٤٩٢).

الحق، ولم يرد بها قط تقويم الخليفة وإعادته إلى الجادة التي سلكها صاحباه من قبل، ولكنها كانت لهوى النفس، ونفثة من الشيطان.

ولو أضفنا إلى هاتين الطائفتين ـ المخدوعين والموتورين ـ طائفة ثالثة هي طائفة المتربصين بالدين لاكتملت بها الحلقة، وتوفرت كل أسباب الفتنة، واتضحت لنا أبعاد هذه المحنة التي كان ضحيتها أمير المؤمنين الذي ضرب المثل الأعلى للتضحية والبذل حيث حقن دماء المسلمين بدمه الذكي.

وكان على رأس هذه الطائفة ابن السوداء عبدالله بن سبأ الذي تظاهر بالإسلام ليهدمه من الداخل حيث عجز من هم أقوى منه على هدمه من الخارج بجيوشهم الكثيرة، ومعداتهم الوفيرة.

هؤلاء هم الثائرون على الخليفة والمتمردون على الإسلام، وإنا لنراهم ما بين مخدوع مغفل، وبين موتور حاقد، أو مبتدع جاحد، وليس فيهم رجل رشيد، وليس بينهم مشهور بالدين، أو معروف بالخلق أو سابق إلى الخيرات، بل كلهم رعاع في أقوامهم، سفلة في قبائلهم، فهل يجوز في عرف أو دين أن يكون هؤلاء هم الذين يحكمون على أعمال الخليفة، ويطالبون بخلعه في وقت يجتمع فيه حول الخليفة كبار الصحابة وشيوخهم، ولم ير أحد منهم على الخليفة ما يوجب خلعه أو الخروج عليه، بل كان موقفهم على خلاف ذلك تماماً؟.

أقوال الصحابة في عثمان:

وهذه أقوالهم في الخليفة وفي المتمردين كما رواها لنا الثقات من المؤرخين:

١ ـ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

قيل له: قتل عثمان.

فقال: رحم الله عثمان، وخلف علينا بخير.

وقيل له: ندم القوم.

فقال: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر...﴾[1].

٢ - حواري رسول الله ﷺ الزبير بن العوام رضي الله عنه.

قيل له: قتل عثمان.

فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحم الله عثمان، وانتصر له.

وقيل له: إن القوم نادمون.

فقال: دبروا دبروا ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون...﴾[2].

٣ - الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه.

قيل له: قتل عثمان.

فقال: رحم الله عثمان وانتصر له وللإسلام.

وقيل له: إن القوم نادمون.

فقال: تباً لهم. وقرأ: ﴿فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾[3].

٤ - خال رسول الله ﷺ الذي جمع له الرسول أبويه سعد بن مالك (ابن أبي وقاص) - رضي الله عنه.

قيل له: قتل عثمان.

فقال: فررنا إلى المدينة بديننا.

وقيل له: إن القوم نادمون.

فقال: اللهم اندمهم ثم خذهم، وقرأ: ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[4].

ويروي ابن الأثير عن حسان بن زيد قال: سمعت علياً وهو يخطب الناس، ويقول بأعلى صوته:

يا أيها الناس إنكم تكثرون فيَّ وفي عثمان، فإن مثلي ومثله كما قال

---

(١) سورة الحشر الآية ٦.

(٢) سورة سبأ الآية ٥٤.

(٣) سورة يس الآية ٥٠.

(٤) سورة الكهف الآية ١٠٤، والأقوال المذكورة منقولة من الطبري بتصرف قليل (٣٩٢/٤).

الله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾[1].

تلك هي شهادة أجلاء الصحابة وشيوخهم، كلهم يترحمون عليه، وينقمون على أعدائه الذين أسرفوا في ذمه، وتناولوه بألسنتهم، ثم نهشوه بسيوفهم، والله من ورائهم محيط، وكفى بالله ولياً وكفى بالله شهيداً.

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٧، ابن الأثير (١٨٤/٣).



الخليفة الرابع

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب



الخليفة الرابع
علي بن أبي طالب

نسبه ونشأته:

هو علي بن أبي طالب، واسم أبي طالب (عبد مناف) بن عبد المطلب، واسم عبد المطلب (شيبة) بن هاشم واسم هاشم (عمرو) بن عبد مناف واسمه (المغيرة) بن قيس واسمه (زيد) بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضير بن كنانة فهو قريشي هاشمي، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب كناه بها النبي ﷺ، فكانت أحب أسمائه إليه حتى أنه كان يفرح إذا نودي به روى البخاري في الأدب عن سهل بن سعد أن علياً غاضب يوماً فاطمة - رضي الله عنها - فخرج، فاضطجع إلى الجدار في المسجد، فجاءه النبي ﷺ وقد امتلأ ظهره ترابا فجعل يمسح التراب عن ظهره، ويقول: (اجلس أبا تراب) وفي رواية مسلم: (قم أبا تراب، قم أبا تراب).

نشأ في بيت رسول الله ﷺ فقد كان أبو طالب ذا أعباء كثيرة وذا عيال وكان مع ذلك قليل المال، فاجتمعت عليه أعباء الرئاسة وتكاليفها، وهي ذات أعباء لا تخفى على بصير وأعباء النفقة على العيال، ولقد أدرك رسول الله ﷺ ما يتحمله عمه من الأعباء المرهقة والتكاليف الباهظة رغم ضيق ذات اليد حتى إنه كان يرعى الغنم وهو صغير ليعين عمه على حمل تلك الأعباء.

فلما تزوج من السيدة البارة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -

واحس بحبوحة العيش وكثرة الخير أراد أن يخفف عن عمه، وأن يكافئه على إعالته له في الصغر فأخذ عليا عنده يكفله ويحسن رعايته فتربى في بيت ابن عمه، ونشأ في أحضان النبوة.

إسلامه:

يعتبر جمهور المؤرخين علياً - رضي الله عنه - أول من أسلم بعد خديجة فالإجماع على أن خديجة - رضي الله عنها - هي أول المسلمين، واختلف بعد ذلك في أول من أسلم بعدها في ثلاثة نفر: أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة، والراجح عند العلماء أنه علي ابن أبي طالب. ونقل بعضهم الإجماع على ذلك[1].

وكان عمره حين أسلم أحد عشر عاماً على الأرجح ولذا لم يسجد لصنم قط لصغر سنه[2].

وهو أول من صلى جماعة مع رسول الله ﷺ روى صاحب الأوائل أن أبا طالب ومعه ابنه جعفر مر على رسول الله ﷺ وهو يصلي وعلى يمينه علي فقال أبو طالب لجعفر: صل جناح ابن عمه فتأخر علي، وقام جعفر معه وتقدمهم رسول الله ﷺ وأنشأ أبو طالب يقول:

إن علياً وجعفراً ثقتي ... عند احتدام الزمان والكرب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما ... أخي ابن أمي من بينهم وأبي
والله لا أخذل النبي ولا ... يخذله من بني ذو حسب[3]

صفته:

كان - رضي الله عنه - بديناً، أصلع الرأس، كثير الشعر، ربعة لا بالطويل ولا بالقصير ولكنه كان إلى القصر أميل، عظيم البطن، كث اللحية

---

(١) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ١٦٦.
(٢) ابن سعد الطبقات (٢/٣، ٢٢).
(٣) العسكري الأوائل ص ٨٧.

حتى كانت تملأ ما بين منكبيه، وكانت لحيته بيضاء كأنها قطن، وكان آدم شديد الأدمة[١].

كما كان ضخم عضلة الذراع، دقيق مستدقها، ضخم عضلة الساق، دقيق مستدقها، ثقيل العينين عظيمهما وكان بعض الأعاجم في السوق عندما مروا به يقولون إنه ضخم البطن ولما سئل عن ذلك قال: إن أعلاه علم وأسفله طعام[٢]، وكان حسن الوجه، ضحوك السن، خفيف المشي على الأرض[٣].

فضائله ولباسه:

وأما فضائله ـ رضي الله عنه ـ فهي كثيرة لا تحصى، بل هو أكثر الصحابة فضائلاً ومميزات ولم يذكر لأحد من المناقب مثل ما ذكر له، قال الإمام ـ أحمد ـ رضي الله ـ ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعلي ـ رضي الله عنه[٤].

ولعل السر في كثرة ما ورد من فضائل أن أشياعه قد أكثروا من وضع الأحاديث في فضله يريدون بذلك أن يستكثروا بها على أعدائه ولكنه ـ رضي الله عنه ـ له من الفضائل الثابتة الصحيحة ما يغنيه عن وضع الواضعين، والاستكثار بما ليس فيه.

ولقد كانت فرقة الرافضة أكثر الفرق كذباً على رسول الله ﷺ وأكثرها وضعاً للحديث في فضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حتى قال عنهم الأئمة مالم يقولوه عن غيرهم سئل مالك ـ رحمه الله ـ عن الرافضة فقال: (لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون)[٥].

---

(١) السيوطي ص ١٦٧.
(٢) ابن سعد (٣/٢٦/٢٧).
(٣) ابن كثير س(٦/٢٢٣).
(٤) رواه الحاكم ونقله عنه السيوطي.
(٥) منهاج السنة (١/١٦) السنة ومكانتها للدكتور السباعي ص ٨٠.

وقال شريك بن عبدالله القـاضي: (أحمل عن كـل من لقيت إلا الرافضة، فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه ديناً) وقال أبو حاتم قال سمعت الشافعي يقول: (لم أر أحداً أشهد بالزور من الرافضة) ومن أمثلة هذه الموضوعات قال: (أنا ميزان العلم، وعليّ كفتاه، والحسن والحسين خيوطه وفاطمة علاقته والأئمة منا عمود توزن فيه أعمال المحبين لنـا والمبغضين لنا)[1].

ومنها: (حب عليّ حسنة لا تضر معها سيئه، وبغضه سيئة لا ينفع معها حسنة)[2] إلى غير ذلك من الموضوعات التي بنى عليها أئمة الحديث الحفاظ ـ رحمهم الله ـ على أن فضائل الإمام الصحيحة الثابتة تغنيه عن كل ذلك، فقد روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال لعليّ: أنت مني وأنا منك.

وفي غزوة خيبر قال ﷺ لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، قال فبات الناس ليلتهم يدركون، أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يعطاها.

فقال النبي: أين علي بن أبي طالب؟

فقالوا: يشتكي عينه يا رسول الله.

قال: فأرسلوا إليه، فأتوني به.

فلما جاء بصق في عينه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي يا رسول الله: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟

فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك أن يكون لك حمر النعم[3].

وفي رواية عند البخاري أيضاً لأعطين الراية غداً رجـلاً يحبه الله

(١ و ٢) السنة ومكانتها السياسي ص ٨٠.

(٣) متفق عليه.

ورسوله، أو قال: يحب الله ورسوله يفتح الله عليه، فإذا نحن بعلي وما ترجوه فقالوا هذا علي، فأعطاه رسول الله ﷺ ففتح الله عليه.

وفي صحيح مسلم ـ رحمه الله ـ أن رسول الله ﷺ خلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»[1] وعن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم، قيل يا رسول الله، سمهم لنا قال: علي منهم يقول ذلك ثلاثاً ـ وأبو ذر، والمقداد، وسلمان[2]، ولما آخى الرسول بين أصحابه، جاء علي تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد.

فقال ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[3] وعند ابن سعد أن النبي ﷺ حين آخى بين أصحابه، وضع يده على منكب علي ثم قال: «أنت أخي ترثني وأرثك، فلما نزلت آية الميراث قطعت ذلك»[4].

وهو صاحب لواء رسول الله ﷺ في الغزوات التي غزاها، ولم يتخلف عن غزوة من الغزوات إلا غزوة تبوك، وكان له في كل الغزوات ما يغني عن كثير من الشجعان وقد وصفه عبدالله بن عباس بن أبي ربيعة فقال: كان لعلي ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشرة، والقدم في الإسلام، والعهد برسول الله ﷺ والفقه في السنة، والنجدة في الحرب والجود في المال.

هذه بعض فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وكلها تدل على شخصية تفردت بكثير من صفات الخير لم يحظ بها سواه

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي والحاكم.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) الطبقات (٣/٢٢).

بل إن بعضها لكاف ليدل على مكانته عند رسول الله ﷺ والمسلمين، ولو لم يكن له من ذلك إلا حب الله ورسوله له لكفاه ذلك فضلاً وفخراً وعزاً، ولو لم يكن له من ذلك إلا أنه كان من رسول الله ﷺ بمكانة هارون من موسى لكان منتهى ما يفخر به رجل في قومه وعشيرته بل في الدنيا كلها ويتيه به على العالمين.

وأما لباسه ـ كرم الله وجهه ـ فكان فيه من البساطة والسذاجة ما يدل على ورع وزهد فلم يتكلف في ملبسه بل كان سهلاً يلبس ما يجده دون أن يتحرى لوناً معينا من اللباس فكان يلبس الإزار والرداء وكان إزاره فوق سرته وإلى نصف ساقه وكان له بردان نجرانيان ورثي ـ رضي الله عنه ـ وعليه رداء مرقوع فقيل له في ذلك فقال يخشع القلب ويقتدي به المؤمن.

واشترى قميصاً بأربعة دراهم فوجد كمه طويلاً يمتد خلف أصابعه فذهب إلى الخياط فأمره أن يقطعه مما خلف أصابعه وقال الحمد الله الذي كسا علي بن أبي طالب.

وكان غطاء رأسه قلنسوة بيضاء مصرية الصنع يلف فوقها عمامة سوداء يرخى طرفيها من الأمام ومن الخلف وكان يطوف في الأسواق، وفي يده درة يأمر الناس بتقوى الله وحسن البيع

وكان له خاتم يلبسه في يده اليسرى، وكان منقوشاً عليه (الله الملك). وذلك لأن الخاتم الذي كان يختتم به الخلفاء هو خاتم رسول الله ﷺ والذي كان نقشه (محمد رسول الله) قد سقط من عثمان رضي الله عنه في بئر أريس ولم يعثر عليه رغم هذه المحاولات الكثيرة التي بذلت للحصول عليه لأجل ذلك اتخذ علي خاتماً لنفسه ونقش عليه (الله الملك).

وهكذا كان ـ رضي الله عنه ـ سهلاً في ملبسه مقتدياً برسول الله ﷺ في كل الأحوال حتى أصبح ذلك سجية له لا تفارقه ولا يعدل عنها[1].

---

(١) نقلت كل ما تتعلق بلباسه ـ رضي الله عنه ـ من الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٢٨، ٢٩، ٣٠).

هجرته:

لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة كانت عنده ودائع كثيرة لأهل مكة لأنهم كانوا يثقون في أمانته حتى لقبوه بالأمين، فكان لزاماً عليه أن يؤدي هذه الودائع ويردها إلى أصحابها.

وماذا لو أنه أخذها وهاجر بها؟ لقد كان ﷺ في حاجة ماسة إليها بل إلى ما هو أقل منها يستعين بها على ذلك السفر الطويل ويستغلها في غربته التي سيواجهها.

ولكنه ﷺ أبى أن يخون من ائتمنه ولو كان عدواً يحرض عليه، ويؤذيه لأن خيانة الأمانة من صفات المنافقين، ويتنزه عنها المؤمنون. لقد حان الوقت لمغادرة مكة، وكان عليه أن يغادرها متخفياً حتى لا ينكشف أمره ويفطن الأعداء لخروجه فيمنعوه. ويحولوا بينه وبين الهجرة.

ولو أنه ﷺ رد هذه الودائع إلى أهلها بدون طلب منهم لأثار ذلك شكوك أهل مكة وأيقظ مشاعرهم للأمر الذي عمد رسول الله إلى إخفائه عنهم ولهذا كان عليه أن يلجأ إلى حيلة بارعة يخفي بها خروجه أولاً، ويرد الأمانات إلى أهلها ثانياً.

وقد تم ذلك حين أمر علياً ـ رضي الله عنه ـ بأن ينام على فراشه ويتغطى ببرده الحضرمي الأخضر حتى إذا أصبح رد الودائع إلى أهلها، ولحق به مهاجراً إلى المدينة المنورة.

وهذا مع ما فيه من التدبير المحكم والمخطط الدقيق لتعمية الأمر على المترصدين، وتنفيذ الخطة المرسومة بكل عناية فإنه يعطينا صورة حية لشجاعة علي ـ كرم الله وجه ـ إنه يعلم وهو يقوم بتنفيذ ما أمر به أنه معرض لخطر عظيم فقد يقتحمون عليه داره ويقتلونه دون أن يتثبتوا من هويته وقد يباغتونه وهو خارج في الصباح من غير أن يتبينوا من هو والقوم يتربصون به طول الليل يترقبون هذه اللحظة وقد بلغ منهم الجهد كل مبلغ فأصبحوا غير

قادرين على التأكد من شخصية الخارج من الدار أهو محمد ﷺ أم هو رجل آخر.

لا بد أن ذلك كله قد دار في عقل علي ولكنه لا يملك إلا لتنفيذ فهو أولاً مأمور ممن لا يُعصى وثانياً هي عملية لا بد منها لكي يخرج الرسول سالماً من تدبير الأعداء حتى يتمكن من نشر الإسلام في كل مكان فالأمر إذن يتعلق بمصلحة الإسلام أولاً وثانياً.

ونام علي - رضي الله عنه - على فراش رسول الله وهو ينتظر شيئاً ما مما يدور بذهنه ولكنه نام وإنما نومه في هذه الليلة، ومع توقعه لكل ما توقعه، لدليل قاطع على عمق الإيمان في قلبه ورسخ التسليم لقضاء الله وقدره فهو بحق مؤمن بقوله - تعالى - حتى قبل نزول الآية: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[1].

فلما أصبح قام علي - رضي الله عنه - عن فراشه فعرفه القوم وتأكدوا من نجاة رسول الله ـــ عليه السلام ـــ فقالوا لعلي أين صاحبك؟

قال: لا أدري أورقيباً كنت عليه. أمرتموه بالخروج فخرج. وضاق القوم بتلك الإجابة الجريئة وغاظهم خروج رسول الله من بين أظهرهم وقدعموا عنه فلم يردوه فانتهروا علياً وضربوه، وأخذوه إلى المسجد فحبسوه هناك ساعة، ثم تركوه[2] وتحمل علي ما نزل به في سبيل الله وكان فرحه بنجاة رسول الله أعظم عنده من كل أذى نزل به ولم يضعف ولم يخبر عن مكان رسول الله ﷺ.

وانطلق علي في مكة يجوب شوارعها باحثاً عن أصحاب الودائع التي خلفه رسول الله من أجلها وردها إلى أصحابها وظل يرد هذه الأمانات حتى برئت فيها ذمة رسول الله ﷺ وهناك تأهب للخروج ليلحق برسول الله بعد ثلاث ليال قضاهن في مكة[3].

---

(١) سورة التوبة.

(٢) الطبري (٢/٣٧٤).

(٣) الطبري (٢/٣٨٢).

وكان علي في أثناء هجرته يكمن بالنهار فإذا جن عليه الليل سار حتى قدم المدينة وقد تفطرت قدماه[1].

وهكذا يكون علي ـ رضي الله عنه ـ قد لاقى في هجرته من الشدة مالم يلقِـهِ أحد فلم تكن له راحلة يمتطيها ولم يستطـع السير في النهار لشدة حرارة الشمس وفي مشي الليل ما فيه من الظلمة المفجعة والوحدة المفزعة ولو أضفنا إلى ذلك أنه ـ رضي الله عنه ـ قد قطع الطريق على قدميه دون أن يكون معه رفيق يؤنسه لعلمنا مقدار ما تحمله من قسوة الطريق ووعثاء السفر وآلام الوحـدة.

وكان هناك عامل واحد خفف عنه ما لقيه وهون عليه تلك الرحلة الشاقة وذلل له تلك العقبـات المبرحة وذلكم هو يقينه أنه يعمل ما يعمل ابتغاء مرضاة الله ـ عز وجل ـ وأنه في نهاية المطاف سيلحق برسول الله، ويستمتع بجواره آمناً مطمئناً في المدينة المنورة. ولم يكد علي يقطع الطريق ويصل إلى المدينة حتى نزل في بني عمرو بن عوف على كلثوم بـن الهدم حيث كان ينزل رسول الله ﷺ[2].

وعلم رسول الله بقدوم علي وبلغه ما تحمله في طريق هجرته، وما لقيه من العنت والشدة فلان قلبه له، وقال: ادعوا لي علياً. قالوا: لا يقدر أن يمشي. فأتاه النبي ﷺ واعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، وتفل في يديه وأمرها على قدميه، فلم يشتكهما بعد حتى قتل[3] رضي الله عنه وأرضاه.

هكذا كانت هجرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ تضحية وفداء وتحملاً وصبراً وشجاعة وإقداماً، وإننا لنلمح في اختيار رسول الله ﷺ لعلي ـ ليقوم بهذا الدور الخطير ـ ثقة تامة لا تعدلها ثقة، واطمئناناً إلى

---

(١) ابن الأثير (٢/١٠٦).
(٢) الطبري (٢/٣٨٢).
(٣) ابن الأثير (٢/١٠٦).

قدرات خاصة امتاز بها عليّ لا تتوفر في غيره فإنه لم يتردد حين دعاه الرسول لينام على فراشه، وهو يعلم أنه ليس وراء ذلك إلا الموت الذي أعد له المشركون أشجع فتيان قريش ليحملوه في سيوفهم إلى صاحب هذه الدار الذي سيفتديه علي بروحه حين ينام على فراشه، نعم إنه لم يتردد ولم يسمح لنفسه أن يفكر في العاقبة لأنه يعلم أنه حين يكون فداء لرسول الله ﷺ ينال بذلك شرفاً لا يناله بغير هذا الطريق.

زواجه:

اختلف المؤرخون في عمره - رضي الله عنه - حين زواجه، كما اختلفوا فيه وقت هجرته والحقيقة أن ذلك متوقف على معرفة عمره وقت إسلامه وحيث رجحنا أن عمره عند إسلامه كان أحد عشر عاماً، فإننا كذلك نستطيع أن نرجح أن عمره وقت الهجرة كان أربعة وعشرين عاماً وبالتالي يكون عند الزواج ستة وعشرين عاماً.

وقد أثبتنا هذا الترجيح بالاستقراء، فالمؤرخون الموثوقون مترددون في عمره يوم إسلامه من ثمانية أعوام إلى ستة عشر عاماً ولكننا وجدنا أنهم بعدما يذكرون الروايات في هذا الاختلاف يرجحون أن عمره كان عشرة أو أحد عشر عاماً.

فابن إسحاق يقطع بأن عمره كان عشر سنين[1] وابن حجر يرجح أنه كان ابن عشر سنين[2] والسيوطي يرجح أنه كان ابن عشر سنين[3] وكذلك ابن كثير[4].

وأما الواقدي فيؤكد أن عمره أحد عشر عاماً[5] وكذلك الطبري[6] وابن

---

(١) ابن هاشم (١/٢٤٥) تحقيق مصطفى السقا.

(٢) الإصابة (٢/٥٠٧).

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٦٦.

(٤) ابن كثير (٣/٢٦).

(٥) ابن سعد (٣/٢٢).

(٦) تاريخ الرسل والملوك (٣/٢١٤).

الأثير[1] والمقريزي[2] وحيث لم يكن الضبط دقيقاً فإننا رجحنا أن يكون قد أتم العاشرة قطعاً ودخل في الحادية عشرة وجارينا في ذلك من يجزم بأنه كان في الحادية عشرة.

والغريب أن صاحب المواهب اللدنية يجزم بأن عمر السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ عند زواجها كان خمسة عشر عاماً وخمسة أشهر أو ستة ونصفاً، وأن عمر علي عند زواجه منها كان إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر[3] وأنا لا أدري كيف جزم بهذا مع مخالفته لكل ما رواه المؤرخون في سنه حين إسلامه إذ يقتضي ذلك أن يكون قد أسلم وهو ابن ست سنوات لأن الفترة المكية ثلاثة عشر عاماً يضاف إليها عامان بعد الهجرة لأنه رضي الله عنه ـ بنى ـ بها في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة كما صرح به صاحب المواهب نفسه فهذه خمسة عشر عاماً، وعلى هذا يكون عمره حين دعي إلى الإسلام ستة أعوام.

والرأي الراجح الذي يقبله العقل، ولا يختلف فيه المحققون أنه تزوج وعمره بين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين.

وكان زواجه من فاطمة هو أول زواج له ولم يتزوج عليها في حياتها ويروي أنس ـ رضي الله عنه ـ قصة زواجهما فيقول: جاء أبو بكر ثم عمر يخطبان فاطمة إلى النبي ﷺ فسكت ولم يرجع إليهما شيئاً فانطلقا إلى علي يأمرانه بطلب ذلك.

قال علي: فنبهاني لأمر، فقمت أجرّ ردائي حتى أتيت النبي ﷺ.
فقلت: زوجني فاطمة؟ قال: وعندك شيء؟.
قلت فرسي وبدني. قال: أما فرسك فلا بد لك منها، وأما بدنك فبعها.

---

(١) الكامل (٢/٥٨).
(٢) امتاع الإسماع (١/١٧).
(٣) القسطلاني (١/٨٩).

قال علي: فبعتها بأربعمائة درهم وثمانين فجئته بها. فوضعها ﷺ في حجره فقبض منها قبضة. وقال: أي بلال، ابتع لنا طيباً، وأمرهم أن يجهزوها فجعل لها سرير مشرَّط، ووسادة من أدم حشوها ليف.

وقال رسول الله لعلي: إذا أتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك.

قال: وجاءت فاطمة مع أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وأنا في جانب. وجاء رسول الله ﷺ فقال: ها هنا أخي؟.

قالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته ابنتك؟ قال: نعم

وقال لفاطمة: ائتني بماء، فقامت إلى قعب في البيت، فأتت بماء.

فأخذه ﷺ ومج فيه ثم قال لها: تقدمي فتقدمت، فنفخ بين ثدييها وعلى رأسها.

وقال: اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم.

ثم قال لها: أدبري، فأدبرت، فصب بين كتفيها، ثم فعل مثل ذلك لعلي.

ثم قال: أدخل بأهلك باسم الله والبركة[1].

وفي رواية أنس عند القزويني أن علياً خطبها بعد أن خطبها أبو بكر ثم عمر فقال عليه الصلاة والسلام. قد أمرني ربي بذلك.[2]

قال أنس: ودخل علي فابتسم النبي ﷺ فابتسم في وجهه. ثم قال: إن الله ـ عز وجل ـ أمرني أن أزوجك فاطمة على أربعة مثاقيل فضة، أرضيت بذلك؟ فقال: قد رضيت بذلك يا رسول الله.

فقال ـ عليه السلام: جمع الله شملكما وأعز جدكما، وبارك عليكما، وأخرج منكما وتحدث علي عن جهاز زوجته فقال: كان جهاز فاطمة خميلة وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المناقب.

(٢) القسطلاني المواهب اللدينية (١/٩٠).

(٣) رواه أحمد في المناقب.

وفي رواية عند الإمام أحمد أن صداق فاطمة كان درعاً حطمية، وأن علياً ـ رضي الله عنه لما ذهب ليخطب فاطمة تردد في ذلك حين ذكر أنه لا يملك شيئاً يصدقها إياه ولكنه عاد وذكر قرابته من رسول الله وبره به فخطبها.

فسأله الرسول ﷺ فقال: هل لك من شيء؟ فقال: لا.

فقال: أين درعك الحطمية التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟ قال: هي عندي، وأعطاه إياها[1].

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة بعث معه بخميلة ووسادة من أدم حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجربتين[2].

وشكا علي لفاطمة يوماً من تعبه لكثرة العمل في البيت، وشكت إليه هي الأخرى مثل ذلك، واتفقا على أن يسألا رسول الله خادماً يخدمهما، لا سيما وقد جاءه سبي، وأصبح في سعة من هذا الأمر. وذهبت فاطمة إلى رسول الله تسأله ما اتفقا عليه فلما رآها الرسول سألها، ما جاء بك قالت: جئت لأسلم عليك واستحيت أن تسأله ورجعت فقال علي: ما فعلت؟.

قالت: استحييت أن أسأله. فذهبا معاً إلى رسول الله ﷺ.

قال علي: يا رسول الله، والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري.

وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبي وسعة فأخدمنا.

فقال رسول الله ﷺ والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكنني أبيعهم، وأنفق عليهم أثمانهم، فرجعا. فأتاهما الرسول، وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطت رؤوسهما تكشفت أقدامهما، وإذا غطت أقدامهما تكشفت رؤوسهما فثارا أي نهضنا.

فقال الرسول: مكانكما. ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟

---

(١) رواه أحمد باب زواج علي بفاطمة الزهراء.
(٢) رواه أحمد.

قالا: بلى.

فقال: كلمات علّمنيهن جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: تسبحان في دبر كل صلاة عشراً وتحمدان عشراً وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبـرا أربعاً وثلاثين.

قال علي: فوالله ما تركتهن منذ علّمنيهن رسول الله ﷺ.

قال أحد أتباع علي ـ عبدالله بن الكواء: ولا ليلة صفين.

قال علي: قاتلكم الله يا أهل العراق، نعم، ولا ليلة صفين[١].

وأراد علي ـ رضي الله عنه ـ أن يعد لوليمة عرسه بفاطمة، فرهن درعه عند يهودي على شيء من الشعير ولكن الشعير لا يكفـي في الوليمة وكان علي قد غنم يوم بدر ناقة مسنه وأعطاه الرسول ناقة أخرى، فأراد علي أن يحمل عليهما أذخراً ليبيعه لأحد الصاغة ويشتري بقيمة الأذخر مـا يلزم للوليمة.

وأناخ على الناقتين أمام بيت رجل من الأنصار، وكان حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله وعم علي يشرب الخمر في هذا البيت ـ وذلك قبل تحريم الخمر ـ وكانت معه قينة (مغنية) تغنيه، فقالت في غنائها: ألا يا حمز للشرف النواء.

فثار حمزة إلى الشارفين، فجب أسنمتهما،، وبقر خواصرهما، ثم أخذ من أكبادهما.

قال علي: فنظرت إلى منظر أفظعني، فأتيت نبي الله ﷺ وعنده زيد ابن حارث فأخبرته الخبر، فخرج ومعه زيد، وانطلقت معه فدخل على حمزة فتغيظ عليه. فرفع حمزة بصره، فقال: هل أنتم إلا عبيد لآبائي؟.

فخرج رسول الله ﷺ يقهقر حتى خرج عنهم[٢].

---

(١) نفسه.

(٢) رواه مسلم.

ويبدو من هذا أن علياً ـ رضي الله عنه ـ لم يتمكن من عمل الوليمة التي قد عزم عليها حيث لم يستطـع أن يوفر المال اللازم لذلك، ولكنه على كل حال قد دبر أمره وقدم وليمة لضيوفه لم تكن أقل من الولائم التي أقيمت في مثل هذه المناسبة.

فعن أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت: لقد أولم علي على فاطمة، فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته رهن درعه عند يهودي بشطر من شعير وكانت وليمته آصعاً من شعير وتمر وحيس: والحيس التمر والأقط[1].

وقد أنجب ـ رضي الله عنه ـ من فاطمة بنت رسول الله ﷺ الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى.

وكان رضي الله عنه ـ يطمع في أن يتزوج زوجة أخرى مع فاطمة، وأحسب أنه كان لا يرى بذلك بأساً ولكن الرسول ﷺ كره ذلك لابنته وأخبر أنه لا يحل حراماً، ولا يحرم حلالاً، إلا أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد علل ذلك بالمضاره .

روى مسلم في صحيحه أن علي بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل على فاطمة وجاء بنو هاشم بن المغيرة يستأذنون رسول الله في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلم يأذن لهم وقال: فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها.

وفي رواية له قال: إن فاطمة مني، وإني أتخوف في أن تفتن في دينها. وزاد في روايـة أخرى، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله مكاناً واحداً أبداً.

وعندئذ رجع علي عن خطبته، وأمسك فاطمة ـ رضي الله عنهـا ـ ورضي بها وحدها ويظهر أن العلة الحقيقية في منع هذا الزواج هو المضارة

---

(١) القسطلاني المواهب اللدنية (١/ ٩٠) وأسماء هي بنت عميس.

التي قد تقع على فاطمة وما يقع عليها من الأذى يقع على رسول الله ﷺ وإيذاء رسول الله ﷺ حرام بنص القرآن الكريم: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾[1].

وليست العلة في ذلك هو ما يحصل من اجتماع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبي جهل - لعنه الله. في مكان واحد.

ذلك لأن علياً - رضي الله عنه - أراد أن يتزوج أسماء بنت عميس فكره الرسول ﷺ ذلك.

عن أسماء بنت عميس قالت: خطبني علي فبلغ ذلك فاطمة فأتت النبي ﷺ فقالت: إن أسماء متزوجة علياً. فقال رسول الله ﷺ: «ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله»[2].

تلك هي العلة الحقيقية في كراهية الرسول لزواج علي من غير فاطمة في حياتها لأن ذلك يؤذيها وما يؤذيها يؤذي رسول الله، وما يؤذي رسول الله يكون إيذاء لله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فلما توفيت - رضي الله عنها - تزوج بعدها سبع نسوة سوى ما كان عنده من أمهات الأولاد وكان عدد أولاده أربعة عشر ذكراً وتسع عشرة امرأة وكان النسل من ولده لخمسة: الحسن والحسين ابنا فاطمة، ومحمد بن الحنفية والعباس بن الكلابية، وعمر بن التغلبية، وقتل ستة من أبنائه مع الحسين ابن علي - رضي الله عنهم أجمعين - في معركة كربلاء كما قتل عشرة آخرون من أهل بيته في المعركة نفسها.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٧.

(٢) المطالب العالية (٤/٦٧).

مُبَايَعتُهُ بالخلافَةِ

كان لا بد للناس من إمام يجمع كلمتهم ويلم شعثهم، بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وكان الثوار يدركون أنه إذا لم تتم بيعة لإمام بعد قتلهم الإمام السابق فإن الناس سينقضون عليهم، ويواجهون ثورتهم بثورة إن لم تكن أكثر عنفاً وأشد شراسة فإنها لن تقل عنها.

وكانت المشكلة التي تواجه الثوار المتمردين أنهم كانوا مجتمعين على قتل الخليفة ولكنهم كانوا متفرقين في الاتفاق على الخليفة الذي يولونه فكان أهل مصر يريدون علياً ويحاولون توليته وأهل الكوفة يريدون الزبير ويبذلون جهدهم في أن يكون هو الخليفة وأما أهل البصرة فكان هواهم مع طلحة ويودون أن يبايعوه بالخلافة.

وفي الواقع أن هؤلاء الثلاثة كانوا محط أنظار المسلمين حيث كانوا من أهل الشورى ومن السابقين الأولين، نعم كان يوجد بالمدينة ـ سعد ابن أبي وقاص وهو من أهل الشورى ومن السابقين الأولين كذلك ولكن الناس لم يلتفوا حوله التفافهم حول هؤلاء النفر لأن سعداً ـ رضي الله عنه ـ كان قد عزل نفسه عن الأمر، فلم يكن له فيه رغبة وقد علم الناس عنه ذلك وتأكدوا من عزوفه عنه لهذا لم يكن أمام الناس إلا أحد الثلاثة.

ولما كان المصريون هم أصحاب الحول والطول في هذه الثورة المدمرة وكان لهم القوة والسطوة في المدينة بعد قتل الخليفة، رجحت كفة أمير المؤمنين ـ علي بن أبي طالب في ترشيحه للخلافة.

والحقيقة أنه لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ الموجودين في ذلك الحين أحق بالخلافة من علي ـ رضي الله عنه ـ فهو من أول المسلمين، وهو ابن عم رسول الله ﷺ وهو زوج أحب بناته إليه وهو أخوه وكان منه بمنزلة هارون من موسى إلى غير ذلك من الفضائل التي تقدم علياً وترشحه لأن يكون خليفة المسلمين فإن اتجهت إليه أنظار المسلمين، وإذا أصروا على أن ينتخبوه خليفة فهو الجدير بها، الحقيق بأن يتقلدها.

ولم تكن السابقة فقط أو القرابة والصهر هي المرشحات لعلي ـ كرم الله وجه ـ لهذا المنصب الخطير ولكن علياً ـ والحق يقال ـ كان كفؤاً لهذا الأمر، فشجاعته وإقدامه وعقليته القضائية النادرة، وحزمه الذي اشتهر به في كل مواقفه، وصلابته في الحق وبعد نظره في تصريف الأمور حتى كان الخليفة عمر ـ رضي الله عنه ـ يأخذ برأيه إذا التبست عليه الأوضاع كل ذلك بالإضافة إلى فضائله يجعله المرشح الوحيد لإمامة المسلمين في تلك الفترة الحرجة من حياتهم.

الظروف التي تولى فيها الخلافة:

لقد كانت تلك الفترة التي تولى فيها الإمام علي أمر المسلمين من أحرج الفترات التي مرت بهم منذ القضاء على الردة في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ بل إني لا أشعر أنني لست مغالياً ولا مبالغاً إذا قلت إن هذه الفترة لا تقل صعوبة عن فترة الردة التي واجهها المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ لقد كان المرتدون يشعرون بأنهم خارجون على نظام قائم له أنصاره وله حكامه، وله قوته التي يستطيع أن يدفع عن نفسه كل من يحاول الخروج عليه، وكانت تلك أخطر نقط الضعف في حركة الردة التي سادت الجزيرة العربية وكانت تلك هي أقوى الركائز التي ـ زعزعت كيان المرتدين، وجعلتهم لا يثبتون أمام جيوش المسلمين.

أما الخوارج المتمردون فأنهم كانوا يتمسحون في الإسلام، ويوهمون الناس أنهم قائمون لتصحيح المسيرة التي تعثرت في عهد عثمان، ثم هم بعد ذلك تمكنوا من قتل الخليفة، وأصبحت لهم الكلمة العليا في المدينة وعلى بالناس أميرهم الغافقي عدة أيام في مسجد رسول الله ﷺ لهذا فإنني أقول: إن الفترة التي بويع فيها علي بالخلافة تختلف تماماً عن الفترات التي بويع فيها من قبله بالخلافة، فأبو بكر - رضي الله عنه - تمت بيعته بالسقيفة وعلى ملأ من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، نعم، حصل ما حصل من الخلافة في الرأي ولكن المسلمين كانوا مجتمعين على الهدى لا يفارقونه، ولا يحيدون عنه حينما يظهر لهم وما هي إلا أن استبانت لهم الحقيقة حتى التفوا حولها، وأجمعوا على بيعته - رضي الله عنه - دون أن تؤثر هذه الخلافات على المسار الصحيح الذي ينبغي للمسلمين أن يتجهوا إليه.

لم تزد هذه الخلافات عن وجهات نظر آمن بها أصحابها، فعرضوها على الحاضرين بغية الوصول إلى الحق وسرعان ما توصلوا إليه، وبايعوا أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ﷺ وحسم الأمر واجتمعت كلمة المسلمين، وأعدهم الخليفة لمواجهة المشكلات التي بدأت بخروج أهل الردة وعصيانهم.

وأما خلافة عمر - رضي الله عنه - فإنها كانت بتوصية من الخليفة السابق بعد أن استشار كبار الصحابة وأخذ رأيهم في تولية عمر ولهذا لم يكن هناك ما يدعو إلى الخلاف، أو التباين في وجهات النظر بل تلقى المسلمون نبأ استخلاف عمر بالتسليم والرضا.

وكذلك تمت مبايعة عثمان - رضي الله عنه - عن طريق مجلس الشورى الذي عينه عمر وهو مكون من النفر الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وكلهم من خيار الصحابة لا ينازع في ذلك أحد من المسلمين وعن طريق هذا المجلس أختير عثمان خليفة وتمت بيعته في مسجد رسول الله بإجماع المسلمين من الأنصار والمهاجرين.

أما بيعة علي فكانت على خلاف ذلك، فإنها تمت في ظروف سيطر

فيها الإرهابيون على العاصمة واعتدوا على الخليفة فقتلوه، وأضحوا وهم أصحاب الأمر والنهي يهددون مـن خالفهم، ويجبرون من يشاؤون على فعل ما يشاؤون واضطرب الأمر وسادت الفوضى واختلط ـ الحابل بالنابل.

ولو أضفنا إلى ذلك غياب كثير من الصحابة عن المدينة عندما بدأ الثوار يحاصرون بيت الخلافة حيث ساءهم هذا الأمر وأفزعهم أن يتغلب أمثال هؤلاء الأوباش على أمر المسلمين ويعرضوا منصب الخلافة الذي هو أقدس المناصب في الدولة الإسلامية لهذا العبث الذي أحدثوه على غير سابقة وأحزنهم أن ينزل بالخليفة مكروه وهم شهود ولا يستطيعـون له رداً فنزحوا عن المدينة مفضلين الابتعاد عن الفتنة العمياء.

في وسط هذه الظروف الحرجة وبين زحمة الأحداث المؤلمة، أخذ المتمـردون يبحثون عن شخص يرضاه المسلمون ليبايعوه بالخلافة، ليسكنوا بذلك ثائرة الثائرين وليضمنوا رضاهم بالخليفة الجديد، وحتى لا يؤدي خلو الميدان من الإمام إلى إندلاع الثورة ضدهم فيصطلون بنارها ولا يأمنون عاقبتها.

لم يكن من السهل في تلك الظروف أن يجد المتمردون رجلاً يرضاه الناس، ويقتنع بخلافته المسلمون، فإن أي إنسان يقبل الخلافة حينئذ يعرض نفسه للقيل والقال، ويضع قدمه في موضع زلج، لا يأمن أن يزل به فيسقط ويكون الضحية الثانية لهؤلاء الثوار. وكان الثوار هم الآخرون في وضع لا يحسدون عليه فبرغم نجاح خطتهم في قتل الخليفة، وبرغم فرض سلطانهم على أهل المدينة وسيطرتهم على الأمور فيها، فإنهم لم يأمنوا أن ينقض عليهم المسلمون مـن أطراف المدن الإسلامية انتقاماً لقتل الخليفة، فكانوا لذلك في وضع قلق لا يعرفـون الراحة ولا يهدأ لهم بال. فهم في فزع أشد من فزع أهل المدينة، وفي خوف أمر من خوف المهددين بسيوفهم.

وكان الثوار يعتقدون أن المسلمين لن يرضوا إلا بخليفة يخلف الذي قتلوه ظلماً وعدواناً فاجتمع عليهم بذلك أمران عظيمان: الأول الحالة النفسية المضطربة التي يكابدونها، والثاني اختيار الخليفة الذي يرضى المسلمين،

وأدى ذلك إلى اضطراب في تفكيرهم، وحيرة لا يدرون معها ماذا يفعلون.

لهذا كانوا يتخبطون كالذي يتخبطه الشيطان من المس، فكانوا يذهبون إلى علي - رضي الله عنه - يرجونه أن يقبل الخلافة فيفر منهم، ويطردهم شر طردة، فيذهبون إلى طلحة ويلحون عليه أن يقبل هذا الأمر فيرفض، ولا يستمع إليهم، ثم يذهبون إلى الزبير، فيلقون منه مثلما لقوا من صاحبيه، فيئسوا من هؤلاء الثلاثة، وحاولوا أن يولوا سعد ابن أبي وقاص - رضي الله عنه - فبعثوا إليه وقالوا: إنك من أهل الشورى، فرأينا فيك مجتمع، فاقدم نبايعك فبعث إليهم: إني وابن عمر خرجنا منها، فلا حاجة لي فيها على حال، وتمثل:

لا تخلطن خبيثات بطيبة: واخلع ثيابك منها وانج عرياناً.

ثم أتوا ابن عمر عبد الله فقالوا: أنت ابن عمر، فقم بهذا الأمر.

فقال: إن لَهذا الأمر انتقاماً، والله لا أتعرض له، فالتمسوا غيري.

يقول ابن جرير: فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم[١].

تهديد علي ليقبل الخلافة:

تواترت الروايات على أن علياً - رضي الله عنه - رفض أن يتولى أمر المسلمين بعد مقتل عثمان، وكلمه الناس في ذلك فقال: لا تفعلوا، لأن أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً.

وبقي الناس على ذلك بغير أمير ثلاثة أيام أو خمسة، والناس يبحثون عمن يلي أمرهم وكلما ذهبوا إلى شخص يطلبون منه قبول البيعة رفض وهرب منهم.

يروي ابن جرير أنهم كانوا إذا لقوا طلحة أبى، وقال:

ومن عجب الأيام والدهر أنني بقيت وحيداً لأمر ولا أحلى

فيقولون: إنك لتوعدنا فيقومون ويتركونه.

---

(١) الطبري (٤/٤٣٢).

(٢) الطبري (٤/٤٢٧)، ابن الأثير (٣/١٩١).

فإذا لقـوا الزبير وأرادوه، أبى وقال:

متى أنت عن دار بفيحاء راحل ... وباحتها تخنو عليك الكتائب

فيقولون: إنك لتوعدنا.

فإذا لقوا علياً، وأرادوه أبى وقال:

لو أن قومي طاوعتني سراتهم ... أمـرتهم أمراً يـريح الأعـاديا

فيقولون: إنك لتوعدنا فيقومون ويتركونه[1].

عندئذ حاروا في أمرهم، ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير أمره اختلف الناس في أمرهم، ولم نسلم، فرجعوا إلى عليّ وألحوا عليه[2]. ولكن علياً كان يرى أن الأمر ليس إلى هؤلاء الشراذم، بل الأمر في اختيار الخليفة يرجع إلى أهل الحل والعقد، وأعضاء مجلس الشورى الذين عينهم عمر - رضي الله عنه - وارتضاهم المسلمون، لهذا كان يرفض عرضهم، ويهرب منهم ويختبيء في بساتين المدينة[3].

ولما رأى المتمردون امتناع الناس، وعدم طاعتهم لهم هددوا بالقتل إذا لم تتم البيعة بعد يومين قالوا: دونكم يا أهل المدينة، فقد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيرين.

فتكاثر الناس على عليّ وقالوا: نبايعك فقد ترى ما نزل بالمسلمين، وما ابتلينا به من ذوي القربى.

فقال علي: دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول.

فقالوا: ننشدك الله، ألا ترى ما نرى؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال علي: قد أجبتكم لما أرى، وأعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا

---

(١) الطبري (٤/٤٣٤).

(٢) ابن كثير (٧/٢٢٧).

(٣) نفسه.

الغد[1]. وانصرف الناس وهم مشغولون بما سيأتي به الغد، هل ستتم البيعة، وتخرج المدينة من هذه الأزمة؟ هل سيبايع طلحة والزبير أم سيفران إلى مكة بغير بيعة؟ وهل ستتم بيعة علي دون أن يبايع طلحة والزبير؟.

لقد كان الأمر أخطر مما كان يتصوره الناس أن المدينة بغير إمام، والمسلمين فوضى لم يستقروا على حال، وسيوف المتمردين مشرعة تهدد بقتل كل شخصية بارزة إذا لم تتم بيعة أحدهم، ومن يدري؟ لعلهم في النهاية يرشحون أحدهم ويبايعونه فيصبح خليفة على المسلمين وهو ليس أهلاً لذلك ويتحمل الأمر بالقوة، ويحمل الناس عليه بالسيف فهل من المصلحة أن يفر من هم أهل للخلافة عن تولّيها ويتركون أمر المسلمين يصير إلى شرذمة من المشاغبين الأفاقين؟.

لا شك أن كل هذه الأسئلة طرحت نفسها على عليّ، ولا شك أنه أجال عقله فيها كثيراً وأنه فكر في المصير المجهول الذي سيؤول إليه أمر المسلمين إذا بقي الحال على ذلك. وعندئذ قرر أمام هذا الموقف الرهيب أن يقبل البيعة خشية أن يهجم عليها من ليس كفؤاً لها ويغتصبها اغتصاباً بقوة السيف الذي بأيدي المتمردين، وهو لا يدري إن كان مصيبٌ أو مخطئاً في ذلك.

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن قيس بن عباد قال: كنا مع علي، فكان إذا شهد مشهداً، أو أشرف على أكمة، أو هبط وادياً قال: سبحان الله، صدق الله ورسوله.

فقلت لرجل من بني يشكر: انطلق بنا إلى أمير المؤمنين حتى نسأله عن قوله: صدق الله ورسوله. قال: فانطلقنا إليه، فقلنا: يا أمير المؤمنين، رأيناك إذا شهدت مشهداً، أو هبطت وادياً أو أشرفت على أكمة قلت: صدق الله ورسوله.

فهل عهد رسول الله ﷺ إليك شيئاً في ذلك؟

---

(١) الطبري (٤/٤٣٤).

قال: فأعرض عنا، وألححنا عليه، فلما رأى ذلك قال: والله ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ عهداً إلا شيئاً عهده إلى الناس، ولكن الناس وقعوا على عثمان ـ رضي الله عنه ـ فقتلوه، فكان غيري فيه أسوأ حالاً وفعلاً مني، ثم إني رأيت أني أحقهم بهذا الأمر فوثبت عليه، فالله أعلم أصبنا أم أخطأنا[١].

وكان الناس في المدينة يخافون ألا يبايع طلحة والزبير، وهما الندان اللذان ينافسان علياً الأمر، وعدم بيعتهما يؤدي إلى ضعف البيعة ويحدث فيها ثلمة قد لا تلتئم وتسبب إراقة الدماء الأمر الذي يحاول الناس تلافيه، لذا كان الناس يقولون إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت[٢].

وسرت هذه المقالة إلى آذان المتمردين، فخافوا أن يفسد طلحة والزبير عليهم الأمر الذي يحاولون الوصول إليه، وبذلوا فيه أقصى جهدهم.

لقد استجاب علي لإلحاح المسلمين، وهدد المتمردون بسفك الدماء إذا لم يجتمع أهل المدينة على رجل من المسلمين يرضونه ويسكنون إليه، وها هي ذي الفرصة قد أتيحت بموافقة علي ـ رضي الله عنه ـ فينبغي ألا يدعوها تفلت من أيديهم، ثم يعصرون أعينهم عليها بعد ذلك.

فأرسل أهل البصرة حكيم ابن جبلة العبدي، ومعه جماعة من أهل البصرة إلى الزبير بن العوام: فأحضروه والسيف على رأسه وأرسل أهل الكوفة الأشتر النخعي ومعه نفر من أهل الكوفة إلى طلحة بن عبيد الله، فجاؤوا به يحدونه بالسيف[٣].

قال محمد بن شيرين: جاء علي إلى طلحة فقال: أبسط يدك يا طلحة لأبايعك. فقال طلحة: أنت أحق، وأنت أمير المؤمنين، فابسط يدك فبسط عليّ يده فبايعه[٤].

---

(١) رواه أحمد في المسند باب خلافة علي.
(٢) الطبري (٤/٤٣٤).
(٣) نفسه.
(٤) نفسه.

فلما كان يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين حضر علي إلى المسجد، فصعد المنبر وقال: أيها الناس، عن ملأ وأذن، إن هذا أمركم وليس لأحد فيه حق إلا من أمرّتم، وقد افترقنا بالأمس على أمر، وكنت كارهاً لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح مالكم معي، وليس لي أن آخذ درهماً دونكم، فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا أجد على أحد.

وهتف الناس من جوانب المسجد قائلين: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس. فقال علي: اللهم فاشهد[1].

وجيء بطلحة ليبايع، فقال للأشتر: دعني أنظر ما يصنع الناس، فلم يدعه وجاء به يتله تلاً عنيفاً، وصعد المنبر فبايع، ثم جاء حكيم بن جبلة بالزبير حتى بايع ثم جيء بقوم كانوا قد تخلفوا، فقالوا: نبايع على إقامة كتاب الله في القريب، والبعيد والعزيز والذليل، فبايعهم، ثم قام العامة فبايعوا[2].

وهكذا تمت البيعة لعلي ـ رضي الله عنه ـ في هذه الظروف الحرجة. وتحت ضغط أهل المدينة وتهديد المتمردين، وتحمل ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ تبعة المسلمين في هذه الأوقات الصعبة التي وصفها بقوله: (فإنا مستقبلون أمراً له وجوه، وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول)[3].

لقد كان عليّ بلا شك يقدر الأمر حق قدره، ويوليه من العناية والاهتمام ما يتكافأ مع جلاله وقدره وهو يعلم تماماً ثقل المسؤولية وضخامة التبعة، ولا يخفى عليه ما سيتجشمه من المشقات والصعوبات وهو يدير دفة الأمور في وسط هذا البحر اللجي الذي تكتنفه العواصف وتعكر صفوه تلك الأعاصير، ولكن ماذا يفعل؟

---

(١) ابن الأثير (٣/١٩٣ ـ ١٩٤).
(٢) الطبري (٤/٤٣٥).
(٣) الطبري (٤/٤٣٤).

ليس أمام عليٍّ خيار آخر يلجأ إليه، وهو يرى بعينيه انفراط عقد المسلمين، والمصير المظلم الذي يهدد العاصمة ويكاد يزلج شوارعها بدماء الأبرياء، ثم هو لا يرى أحداً أحق بها منه وليس في الناس من يغني غناءه في ذلك المقام فقبل البيعة على علاتها مضحياً براحته وسلامته لكي يضمن سلامة كيان الدولة، ويحقن الدماء الغالية المعرضة للسفك والضياع ولو بذل في سبيل حقنها دمه الذكي وروحه الغالية.

المتخلفون عن البيعة:

يذكر المؤرخون جماعة من الناس من المهاجرين والأنصار، ويزعمون أنهم لم يبايعوا علياً، منهم: سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وصهيب بن سنان، وأسامة بن زيد، وقدامة بن مظعون، والمغيرة بن شعبة، وهؤلاء من المهاجرين.

وذكروا من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك ومسلمة ابن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد ابن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب ابن عجرة، وعبدالله ابن سلام، وسلمة بن سلامة بن وقش[١].

كذلك ذكروا جماعة قد هربوا إلى مكة بعد مقتل عثمان دون أن يبايعوا علياً منهم: الوليد بن عقبة وسعيد بن العاصي، ومروان بن الحكم، وتبعهم من كان في المدينة من بني أمية[٢].

والذي يظهر إلى أن التوقف في بيعة علي ـ رضي الله عنه ـ كان في بداية الأمر، وكان ذلك ممن لم يبايعوا على سبيل الورع، وعدم التورط في أمر لم يستبن لهم بعد، وبخاصة أن قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ كانوا ممن بايع علياً، بل هم الذي أجبروه على قبول البيعة ليحتموا وراءه من سخط

---

(١) ابن الأثير (٣/١٩١، ١٩٢).

(٢) الطبري (٤/٤٣٣، ٤٣٤).

الناس ويتقوا غضبتهم، فكان تواجدهم مع علي من أهم الأسباب التي جعلت هؤلاء لا يبايعون.

فلما اتضح الأمر، واجتمع الناس على بيعة علي بايع هؤلاء، ولم يتخلف إلا من فر إلى الشام أو إلى مكة، يقول ابن جرير فيما يروى عن الواقدي: ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم[1].

وأما عدم اشتراك بعضهم في المعارك التي دارت بين علي ومعاوية كسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد فكان اجتهاداً منهم، لأنهم لم يقبلوا أن يشتركوا في حرب يقتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً، ولهذا لما دخل هؤلاء على أمير المؤمنين - علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - عاتبهم على عدم الخروج معه إلى العراق، فأجابوه بما يدل على عزمهم على عدم الاشتراك في تلك الفتنة لما فيها من إراقة دماء المسلمين.

قال سعد: أعطني سيفاً يعرف المسلم من الكافر، حتى أقاتل به معك.

وقال ابن عمر: أنشدك الله أن تحملني على مالا أعرف.

وقال ابن مسلمة: إن رسول الله أمرني أن أقاتل بسيفي ما قوتل به المشركون، فإذا قوتل أهل الصلاة ضربت به صخر أحد حتى ينكسر، وقد كسرته بالأمس.

وقال أسامة: اعفني من الخروج معك في هذا الوجه، فإني عاهدت الله ألا أقاتل من يشهد ألا إله إلا الله[2].

إن حضور هؤلاء إلى أمير المؤمنين، واعتذارهم عن الوقوف معه في حرب أهل الشام أو فيما يدور بينه وبين المسلمين من القتال لدليل واضح على أن في أعناقهم بيعة، فإذا لم يكن في أعناقهم بيعة تلزمهم بطاعته لما

---

(١) الطبري (٤/٤٣٩)، ابن كثير (٧/٢٢٧).
(٢) الدينوري الأخبار الطوال (١٤٢، ١٤٣).

اعتذروا، ولتركوه يخرج دون أن يذهبوا إليه أو يعتذروا له، فهم حينئذ غير ملزمين بطاعته.

ومما يؤيد أن في أعناقهم بيعة تلزمهم قول الأشتر بعد أن اعتذروا عن الخروج مع أمير المؤمنين؛ يا أمير المؤمنين، إنا وإن لم نكن من المهاجرين والأنصار، فإنا من التابعين لهم بإحسان، وإن القوم وإن كانوا أولى بما سبقونا إليه فليسوا بأولى مما شركناهم فيه، وهذه بيعة عامة، الخارج فيها طاعن مستعتب فحض هؤلاء الذين يريدون التخلف عنك باللسان، فإن أبوا فأدبهم بالحبس.

فأجابه علي: بل أدعهم ورأيهم الذي هم عليه[1].

إن كلام الأشتر صريح في أن القوم بتخلفهم عن الخروج يكونون خارجين على البيعة، وإن رد أمير المؤمنين على كلام الأشتر ليزيده توضيحاً، لأنه إذا لم يكن في أعناقهم بيعة لعليّ لالتمس لهم العذر بأنهم لم يبايعوا فكيف يلزمهم، بدلاً من أن يقول: بل أدعهم ورأيهم الذي هم عليه.

ومن هذا يتضح أن البيعة في المدينة كانت عامة، وأن الذين لم يبايعوا في أول الأمر بايعوا بعد ذلك، يقول ابن كثير: فلما كان يوم الجمعة، وصعد على المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس[2].

أول خطبة لعلي:

فلما تم الأمر لعلي ـ رضي الله عنه ـ بالبيعة كانت أول خطبة بعد حمد الله والثناء عليه قال: إن الله ـ تعالى ـ أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر إن الله حرم حرماً مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل للمسلم أذى مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإنما

---

(١) نفسه ص ١٤٣.

(٢) البداية والنهاية (٧/٢٢٧).

خلفكم الساعة تحدو بكم فتخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل، ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوه، وإذا رأيتم الشر فدعوه ﴿واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾[1].

وعاد الخليفة إلى بيته وجاء طلحة والزبير في جماعة من الصحابة، فدخلوا على عليّ فقالوا يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل، وأحلوا بأنفسهم.

علي يرد على المطالبين بدم عثمان:

فطن علي لما يريد القوم، وعلم ـ أنهم بذلك يطالبون ـ بتسليم قتلة عثمان ليقام عليهم الحد، بل إنه فهم أنهم يطالبونه هو بإقامة الحد عليهم، لقد أصبح في موقف حرج إن المطالبة بإقامة الحد على قتلة عثمان في مثل هذه الظروف أمر ينبغي أن يستبعد، ذلك لأن الأمر لم يستتب بعد في المدينة، فقتلة عثمان كثرة كثيرة ولا يزالون يسيطرون على الوضع في العاصمة، وهم الذين يسيرون دفة سياستها، وقد رأينا كيف هددوا بالقتل وسفك الدماء إذا لم ينتخب أهل المدينة خليفة، وكيف أتوا بطلحة والزبير يسوقونهما بالسيف ليبايعا لعلي.

كيف يستطيع علي إقامة الحد على هؤلاء؟ بل كيف يستسيغ المطالبون بإقامة الحد عليهم أن ـ يطالبوا به في مثل هذه الظروف؟؟ إنهم لم يستطيعوا أن يعصموا أنفسهم عندما أحضروهم يتلونهم تلًا ليبايعوا مع الناس، فكيف يتصورون أن علياً يستطيع أن يقيم عليهم الحد حتى يطالبوه به؟.

لقد كان أمير المؤمنين يفهم أبعاد الموقف تماماً ويعرف ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك في مثل هذه الأحوال ولقد دلت إجابته للمطالبين بتقديم قتلة عثمان ليقام عليهم الحد على عبقرية وسياسة لا تقل روعة عن عبقريته القضائية والفقهية، والعبقرية السياسية من ألزم لوازم الحاكم الناجح

---

(١) الطبري (٤/٤٣٦) والآية من سورة الأنفال رقم: ٤١.

إذ بها يستطيع تقدير الأمور ووضع كل شيء في موضعه الصحيح، وألزم ما تكون العبقرية السياسية للحاكم في مثل الظروف التي تـولى فيها على - رضي الله عنه - أمر المسلمين، حيث الفتنة مشتعلة، والأمور مضطربة، والناس يتملكهم الذعر، ويستولي عليهم الخوف، وأبعاد الثـورة لازالت مجهولة لدى الكثيرين، لأن الثوار لم يغادروا المدينة بعد قتل عثمان، ولا بعد تولية علي فماذا يريد هؤلاء بعد ذلك؟.

من أجل هذا كله كان عَلَى أمير المؤمنين أن يتحفظ في معاملة هؤلاء المتمردين، وأن يستعمل معهم أقصى ما يمكن أن يستعمله من الرفق واللين حتى يثقوا به، وحتى يستخرج ما عندهم من نوايا يخبئونها ولم تتكشف بعد، لأنهم لو ارتابوا في أمره، وشكوا في إخلاصه، لا يعلم أحد كيف تكون عاقبة الخليفة نفسه على أيدي الخوارج المتربصين.

لهذا نهج الخليفة مع المتمردين نهجاً يخفف آثار الثورة في نفوسهم، ويبعث الطمأنينة إلى أعصابهم المشدودة المتوترة ويجعلهم أكثر ثقـة به وبتصرفاته، ولكن الذين لم يوفقوا لفهم أبعاد هذه السياسة والذين حكموا عواطفهم في قتلة الخليفة واستبعدوا عقولهم ظنوا بأمير المؤمنين الظنون، واتهموه بأنه متمالىء معهم في اغتيال الخليفة.

إن الإصرار على المطالبة بدم عثمان منذ اليوم الأول لتولية عليّ لا يمت إلى السياسة الحكيمة بصلة، وإن الإلحاح على الخليفة الجديد لتقديم قتلة الخليفة السابق للقصاص على الفور ليس من الحكمة في شيء وأغلب الظن أنه كان وراءه أحد دافعين: الأول وهو خير الدافعين إن كان في أحدهما خير وهو ثورة الغضب التي استبدت بالناس لقتل الخليفة، وأسفهم على ما وقع بمشهد منهم دون أن يقدموا له أي عون.

والناس في حال غضبهم، وسيرهم وراء عواطفهم لا يدركون الأمور إدراكاً واقعياً يمكنهم من التفكير السوي، والتقدير الحكيم، فتنعكس في تقديرهم الأوضاع، ويظنون المستحيل ممكناً.

وأما الدافع الثاني فهو استغلال بعض المغرضين لثورة الغضب العارمة

التي عمت الناس في المدينة، وتحريك هذه الثورة في النفوس بتحويلها إلى المطالبة بدم عثمان لإحراج الخليفة الجديد حتى تبقى الفتنة مشتعلة، ويظل الهرج والمرج قائماً على أشده، فلا تقوم للمسلمين دولة، ولا يعود لهم سلطان.[1]

ولكن علياً ـ رضي الله عنه ـ قد احتاط لكل ما يمكن أن يكون وراء المطالبة بدم عثمان، وحاول أن يشرح للمطالبين وجهة نظره في تأجيل ذلك الأمر، فقال لهم في حوار هادىء:

يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما يشاؤون، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟[2].

وعندئذ ثابت إليهم عقولهم، وعادت إليهم أحلامهم، وكأنهم كانوا نياماً فاستيقظوا.

فقالوا جميعاً: لا.

قال علي وقد رأى تفهمهم للأمر. وتأكد من وقوفهم على حقيقة الأوضاع، وعاد إلى الحوار الهادىء الرزين: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه ـ إن شاء الله ـ ثم قال: إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم سادة، وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً.

وزاد في التوضيح فأخبرهم أن الناس مختلفون، وليسوا على رأي واحد فيما تقولون، سترون منهم من يخالف رأيكم، ومن يوافقكم على ما تريدون، ومن سيقفون من هذا الرأي وذاك موقفاً واحداً. قال علي: إن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى مالا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها،

(١) ولعل طلحة والزبير قد ساءهما ما صنع بهما المتمردون عند البيعة فطلبا ذلك من الخليفة فى ثورة غضب.

(٢) الطبرى (٤ / ٤٣٧).

وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم، ثم عودوا[1].

وخرج الناس من عنده بعدما سمعوا منه هذا القول وهم فريقان: فريق يرى ما رآه علي وفريق يقول: نقضي الذي علينا ولا نؤخره.

وحاول أمير المؤمنين أن يرد الأعراب إلى أماكنهم التي خرجوا منها، فقال: أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب فليلحقوا بمياههم.

ولكن رواد الفتنة من السبئية تبادر إلى أذهانهم أن الخليفة يريد أن يجردهم من أعوانهم الذين يشدون أزرهم، ويقفون إلى جوارهم، فعصوا ذلك الأمر وحرضوا الأعراب على البقاء فأطاعهم الأعراب وثبتوا في أماكنهم.

وهنا خاف علي أن يفلت الأمر من يده وأن يثور به من ثاروا بعثمان بالأمس فكف عن الطلب، ودخل بيته، ودخل عليه طلحة والزبير وجماعة من الأصحاب.

فنظر إليهم عليٌّ، وقال: دونكم ثأركم فاقتلوه[2].

فأظهر القوم عجزاً عن القيام بأنفسهم لما يطالبون به أمير المؤمنين، وقد لمسوا قوة الثائرين وتأثيرهم فيمن حولهم من الأعراب، وطاعة الناس لهم فيما يأمرون به.

فطلب منه طلحة أن يوليه أمر البصرة ليأتيه منها بالجنود ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج وطلب منه الزبير أن يوليه أمر الكوفة ليأتيه منها بالجنود كذلك.

فقال علي: مهلاً عليّ حتى أنظر في هذا الأمر[3].

وهكذا أثبت الخليفة للمطالبين بتسليم قتلة عثمان أن ذلك أمر غير مقدور عليه عملياً بعدما بذل جهده في إقناعهم به نظرياً، كذلك أحرجهم

---

(١) الطبري (٤/٤٣٧).

(٢) ابن الأثير (٣/١٩٦).

(٣) ابن كثير (٧/٢٢٨، ٢٢٩).

بإظهار عجزهم عن الأخذ بثأر عثمان أمام هذا الجمع الحاشد من المتمردين، فما بالهم لا يكفون عن المطالبة بدم عثمان؟.

موقف علي من عمال عثمان:

تولى علي الأمر، وعمال عثمان على أعمالهم كما ولاهم إلا من غلب منهم على أمره وأخرج من ولايته كعبدالله بن كريز والي البصرة حيث خرج منها ولم يول عثمان مكانه أحداً، وسعيد بن العاصي والي الكوفة فقد أخرج منها ولم يستطع دخولها، وعبدالله بن سعد ابن أبي سرح حيث غلبه محمد بن أبي حذيفة على ولاية مصر، وتولاها مكانه في آخر عهد عثمان.

وأما بقية الولاة فكانوا على ولاياتهم مقيمين، كان على مكة المكرمة عبدالله بن الحضرمي وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن منية، وعلى الجَنَد ـ ولاية باليمن ـ عبد الله بن أبي ربيعة وهؤلاء ولاته في جزيرة العرب.

أما في العراق فكان عبد الله بن عامر على البصرة ، وسعيد بن العاص على الكوفة، وقد أشرت إلى ولايتيهما أولاً حيث خرجا ولم يستطيعا الدخول، ولم يول عثمان مكانهما.

وكذلك كان الوضع في مصر، وأما في الشام فكان الوالي معاوية ابن أبي سفيان، وكان ينوب عن معاوية في إدارة أقاليم الشام أمراء هم: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص، وحبيب بن مسلمة على قنسرين، وأبو الأعور بن سفيان السلمي على الأردن، وعلقمة بن حكيم على فلسطين وكان قائد البحرية عبدالله بن قيس الفزاري وكان قاضي بلاد الشام أبو الدرداء (عويمر بن عامر)[1]. روى ابن جرير ـ رحمه الله ـ أن عثمان مات وعلى الكوفة أبو موسى الأشعري على الصلاة، والقعقاع بن عمرو على حربها، وجابر بن عمرو المزني على خراج السواد[2].

---

(١) الطبري (٤/٤٢١) والصحيح أن أبا الدرداء مات في زمن عثمان.

(٢) الطبري (٤/٤٢٢).

وأما عماله ـ رضي الله عنه ـ على بلاد الفرس فهم: جرير بن عبدالله البجلي على قرقيسياء، والأشقر بن قيس على أذربيجان، وعنيبة بن النهاس على حلوان، ومالك بن حبيب على ماه، والنسير على همذان وسعيد بن قيس على الري، والسائب بن الأقرع على أصبهان، وخنيس على ماسبذان.

وكان على بيت المال عقبة بن عامر وعلى القضاء زيد بن ثابت(١).

أقر علي ـ رضي الله عنه ـ هؤلاء العمال على ما هم عليه إلا نفراً يسيراً حيث كان يرى فيهم الكفاءة التي تؤهلهم للولاية، أو كانوا عنده ملومين ببعض المآخذ، ولم ير إقرارهم لذلك وهؤلاء العمال: معاوية بن أبي سفيان والي الشام، وعبدالله بن عامر والي البصرة، وسعيد ابن العاص والي الكوفة، ويعلى بن منية والي اليمن.

ولما علم المخلصون لعلي بأنه قد عزم على عزل هؤلاء، قدموا له النصح، وأشاروا عليه بإبقاء عمال عثمان حتى يأخذوا له البيعة ويستقر الأمر في البلاد، فإذا تم له ذلك أقر من يشاء، وعزل من يشاء.

وكان ممن أشار عليه بذلك المغيرة بن شعبة، وأيد هذا الرأي ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ولكن علياً اعتبر هذا نوعاً من الخداع والمداهنة لا يليق بدينه وكرامته، فأجاب المغيرة: والله لا أدهن في ديني، ولا أعطي الدنية في أمري.

فقال المغيرة: فإن كنت قد أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاويه، فإن لمعاوية جرأة وهو في أهل الشام يسمع، ولك حجة في إثباته، كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها.

فقال علي: لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً(٢).

وخرج المغيرة، وقد لمس من علي تصميما أكيداً على عزل معاوية

---

(١) ابن الأثير (٣/١٨٩، ٧).
(٢) الطبري (٤/٤٤١).

وأمثاله، ثم عاد من الغد، ودخل على عليّ فقال: إني أشرت عيك أول مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه، ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الـذي رأيت فتعزلهم، وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله، وهم أهون شوكة مما كان[1].

ودخل ابن عباس على أمير المؤمنين فوجد المغيرة خارجاً من عنده، فسأله: ما قال لك هذا وأخبر علي ابن عباس بما دار بينه وبين المغيرة في اليومين.

فقال ابن عباس: لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالوا من ولي هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبوا عليك، فتنتقض عليك الشام وأهل العراق، مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك، وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فإن بايع لك فعلَيَّ أن أقلعه من منزله.

قال علي: والله لا أعطيه إلا السيف ثم تمثل:

وما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب[2].

لا شك أن هذه المسألة من المسائل التي تجول فيها العقول وتصول وللاجتهاد فيها مجال واسع فالمغيرة وابن عباس - رضي الله عنهما - كانا يريدان بذلك تثبيت الأمر، وتسكين الفتنة، واجتماع المسلمين على خليفة واحد دون إراقة الدماء، أو اختلاف في الرأي، أو اضطراب في الأوضاع وفي ذلك تحقيق للمصلحة العامة، وتجنيب للمسلمين للفتنة التي تهدد باجتياح الدولة واجتثاث الخلافة من جذورها، وهي وإن كان فيها خداع ومداهنة إلا أن ارتكاب أخف الضررين قاعدة معمول بها لدى علماء المسلمين.

---

(1) ابن الأثير (٣/١٩٧).
(2) نفسه.

ولا شك أن خداع بعض المسلمين، ومداهنتهم أخف ضرراً من إراقة الدماء وتفريق كلمة المسلمين.

وأما علي ـ رضي الله عنه ـ فقد كان له فيه اجتهاد آخر، حيث كان يعتقد أن التحايل والخداع إنما يلجأ إليهما الإنسان ـ لو جاز أن يلجأ إليهما ـ في حالة عدم قدرته على المواجهة وعدم استطاعته تنفيذ ما يريد إلا بهما، وحينئذ تكون له مندوحة في استعمالهما.

وقد كان عليّ يرى أنه أمير المؤمنين، وأن طاعته واجبة على جميع المسلمين، وأن له القوة التي يستطيع بها إرغام كل مخالف على الدخول في الطاعة، والتزام الجماعة، فلماذا يداهن ولِم يلجأ إلى أسلوب الخداع؟

وهناك أمر آخر ينبغي ألا يعزب عن بال المحقق، وهو أن معاوية وبقية العمال الذين عزم عليّ على أن يعزلهم، كانوا من أهم أسباب خروج الثائرين كما يقولون، فبقاؤهم في أعمالهم يؤدي إلى التربص به والخوف منه وعدم الثقة به، وحينئذ تستمر الأوضاع الأمنية في المدن قلقة مضطربة كما هي فلا يستطيع أمير المؤمنين أن يسكن الفتنة، ولا يستقيم له أمر الناس بل إنه لا يأمن أن ينقض عليه المتمردون حين يجدون منه سكوتاً على من خرجوا لعزلهم كما يزعمون.

وأمر ثالث يجب أن يؤخذ في الحسبان، ذلك أن أمير المؤمنين أصبح في نظر عمال عثمان شريكاً في دمه ـ وإن كان غير ذلك ـ فهم جميعاً يكنون ذلك له، ويضمرونه في انفسهم فهو لا يأمن أن يكيدوا له مهما ثبتهم، ويعتقد أن بقاءهم في مناصبهم عون لهم على تنفيذ خططهم ومآربهم، وقد يلجؤون إلى الخداع والمداهنة، ويتظاهرون بالقبول والرضى ثم يفسدون عليه أمره بعد أن يثبتوا في أماكنهم، وتستقر الأوضاع لهم، فلا لوم على أمير المؤمنين إذا استبعد هؤلاء، بل في اعتقاده أن استبعادهم وتولية رجال مخلصين له هو الأمر الحتمي الذي لا مفر منه.

اجتمعت كل هذه العوامل أمام علي، ورأى فيها كل ما يمكن أن

يتصوره الإنسان في مثل تلك الظروف فأصر على عزلهم ـ وله العذر ـ ورفض كل محاولة لاستبقائهم ولو ليومين لا ثالث لهما، إن أي إنسان يستقبل هذا الأمر في مثل هذا الوضع لا بد أن يأخذ نفسه بكل أنواع الحيطة والحذر حتى لا يكون لقمة سائغة في يد أعدائه.

لهذا لم تمض على بيعة أمير المؤمنين خمسة أيام حتى أخذ يوجه عماله إلى الأقاليم فوجه عبدالله بن عباس إلى الشام ليحل محل معاوية، ولكن عبدالله اعتذر له، وأفهمه أن معاوية قد يقتله بابن عمه الخليفة المقتول فإذا لم يفعل فلا أقل من أن يحبسه عنده، ويحمله كل ما يحمله لعلي.

عندئذ أمّر علي سهل بن حنيف على الشام، وأرسل عثمان بن حنيف إلى البصرة، وعمارة بن شهاب إلى الكوفة، وعبيد الله بن عباس إلى اليمن، وقيس بن سعد بن عبادة إلى مصر[1].

عمال علي يتوجهون إلى الأمصار

وجه عليٌّ عماله إلى الأمصار على النحو الذي سبق، فسار كل منهم إلى البلد الذي وجه إليه آملاً أن يكون عوناً لأمير المؤمنين على استقرار الأمور، وإعادة الأمن والهدوء إلى ربوع البلاد وكانت عودة الأمن والاطمئنان إلى النفوس أملاً يراود كل حريص على الخير محب لوطنه وإخوانه المسلمين.

ولم يكن المقصود باستبدال العمال مجرد التغيير شأن الذين لا هم لهم إلا السيطرة وبسط النفوذ ولا مجرد الانتقام من عمال عاونوا خليفة آخر غير الخليفة الجديد، لأن ذلك شأن الجبناء الذين ابتلوا بمركبات النقص فحاولوا تعويض النقص بإظهار قوتهم في ذلك المجال، ولكن كان الاستبدال محاولة لوضع الأمور في نصابها، واستتباب الأمن في بلاد روعت بارتكاب أبشع

(١) ابن الأثير (٣/٢٠١).

جريمة عرفتها الأمة الإسلامية وهي قتل الخليفة بأيدي رجال يزعمون أنهم مسلمون.

إن تغيير الولاة في مثل هذه الأحوال يعيد إلى النفوس الطمأنينة، ويوحي إليها بحلول عهد جديد غير الذي ارتكبت فيه تلك الجريمة، وروعت فيه النفوس بفقد الخليفة، والاعتداء عليه بغير ذنب ولا جريرة وفي الوقت نفسه يعيد الثقة بالعهد الجديد، ويبعث الأمل في القلوب المذعورة التي تترقب فتك المتمردين بها كما فتكت من قبل بالخليفة العادل الأمين، دون أن يتحرك أحد من هؤلاء الولاة بنجدة الخليفة المظلوم.

نعم إن الخليفة ـ رحمه الله ورضي عنه ـ لم يطلب النجدة من أحدٍ، ولم يستنصر بغير الله، ولكن كان الواجب يقضي على هؤلاء العمال أن ينشطوا لإغاثة الخليفة وإن لم يطلب منهم ليكون في ذلك إرهاب للمتمردين، وعون للخليفة على مواصلة عمله على استتباب النظام في أنحاء البلاد، أما وإن شيئاً من ذلك لم يحدث فإن الشك يجد له سبيلاً إلى النفوس بضعف العمال وإهمالهم في القيام بواجبهم فكيف يطمئن الناس إلى عمال في نظرهم مقصرين في نصر الخليفة؟ وكيف يجدون في رحابهم الأمن الذي ينشدونه لأنفسهم وهم لم يستطيعوا أن يضمنوا هذا الأمن للخليفة الذي هو صاحب الفضل عليهم بتوليتهم هذه المناصب العالية؟.

كان لا بد إذن لتستقر الأوضاع، وتهدأ النفوس، ويعود الأمن والاطمئنان إلى القلوب من تغيير العمال، وذلك ما قصد إليه أمير المؤمنين ـ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

ولكن هل وصل هؤلاء الولاة إلى مقر أعمالهم أم صادفتهم عقبات ردتهم على أعقابهم ذلك ما سنتعرض له في هذا المقام بإذن الله.

أما سهل بن حنيف والي الشام فانصدع بأمر الخليفة، وركب دابته، وقصد بها الشام وعند تبوك تصدت له خيل عليها فرسانها فقالوا: من أنت؟

قال سهل: أمير، قالوا: على أي؟ قال: على الشام.

قالوا: إن كان عثمان قد بعثك فحيهلا بك، وإن كان غيره فارجع قال: أو ما سمعت بالذي كان؟ قالوا: بلى.

فرجع سهل إلى علي دون أن يدخل الشام.

وأما صاحب مصر - قيس بن سعد بن عبادة فلم يكد ينتهي إلى أبلة ذلك الميناء الذي يعتبر مركز الالتقاء بين مصر وبلاد العرب تصدت له خيل بفرسانها، وسألوه: من أنت؟

قال: من فالّة عثمان، فأنا أطلب من آوي إليه وانتصر به.
قالوا: من أنت؟ قال: قيس بن سعد. قالوا: امض.

فمضى حتى دخل مصر ولكن الناس لم يجتمعوا عليه بل تفرقوا فرقاً، فمنهم من بايع لعلي ودخل في الجماعة، ومنهم من قال: لا نبايع حتى يقتل قتلة عثمان، ألا فنحن على عزيمة رأينا حتى يستثيرنا أحد أو نصيب حاجتنا، ومنهم من قال: نحن مع علي مالم يقتص من إخواننا، وأظهروا دخولهم في الطاعة.

هكذا كان الحال في مصر، فلم يتمكن الأمير من جمع كلمة المصريين على أمير المؤمنين وليس لديه قدرة على إجبارهم وإخضاعهم فكتب بذلك إلى الخليفة.

وكذلك كان الحال في البصرة، فإن عثمان بن حنيف دخلها دون أن يرده أحد ولم يجد لعبدالله ابن عامر أي أثر في توجيهها، ولم يسيطر عليها أحد بعده، ولكنه وجد الناس فرقاً ومذاهب: فرقة دخلت في الطاعة والتزمت الجماعة، وفرقة تابعت المنشقين على الخليفة والثالثة توقفت حتى ترى ماذا يصنع أهل المدينة فيصنعون كما صنعوا[1].

وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فدخلها بلا معارضة، ولكنه وجد أميرها السابق يعلى ابن منية قد جمع كل ما جباه وخرج به إلى مكة فاستقر بها ومعه المال.

---

(١) الطبري (٤/٤٤٢، ٤٤٣).

وذهب عمارة بن شهاب إلى الكوفة فلما بلغ زبالة لقيه هناك طليحة ابن خويلد، وكان قد خرج مطالباً بثأر عثمان، وكان شديد الحزن لما فاته من عدم نصرته حتى كان يقول: لهفي على أمر لم يسبقني ولم أدركه، فلما لقيَ عمارة، وعرف أنه من قبل علي قال: ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً، فإن أبيت ضربت عنقك.

فرجع عمارة إلى المدينة فأخبر علياً بما كان بينه وبين طليحة[1].

وقال عمارة حين هدده طليحة بالقتل: احذر الخطر ما يمسك، الشر خير من شر منه[2]. لم يكن لأحد من عمال علي أثر في تحريك الأمور أو تسكينها، حتى الذين استطاعوا أن يصلوا إلى ولايتهم لم يجدوا من الناس فيها إجماعاً على أمير المؤمنين، بل وجدوهم فرقاً وأحزاباً بحيث يتعذر أخذ البيعة منهم، أو توجيههم لما يجب أن يكونوا عليه.

توالت هذه الأنباء إلى أمير المؤمنين، ورجع إليه من عماله صاحب الشام وصاحب الكوفة وتأكد لدى علي أن الأمر مدبر، وأن الفتنة موشكة على الاندلاع، وأنها متى تسعرت لا تدرك إلا بالقضاء عليها.

عندئذ دعا الخليفة طلحة والزبير، وأخبرهما بما حدث فقال: إن الذي كنت أحذركم منه قد وقع يا قوم، وإن الأمر الذي وقع لا يدرك إلا بإماتته، وإنها فتنة كالنار وكلما سعرت ازدادت واستنارت.

فقالا له: فأذن لنا أن نخرج من المدينة، فإما أن نكابر، وإما أن تدعنا.

فقال علي: سأمسك الأمر ما استمسك، فإن لم أجد بدا فآخر الدواء الكي[3].

بين علي ومعاوية

كان رد الفعل عنيفاً على نفس الخليفة حين رجع إليه أمراؤه من الشام

---

(١) ابن الأثير بتصرف (٣/٢٠٢).

(٢) الطبري (٤/٤٤٣).

(٣) الطبري (٤/٤٤٣).

والكوفة وحين لم يوفق صاحب مصر وصاحب البصرة من أخذ البيعة لأمير المؤمنين، ولم يستبشر الخليفة بذلك بل توقع أموراً كان يظن أنه سيتغلب عليها بالرفق واللين، ومن أجل هذا أحضر طلحة والزبير وأخبرهما بما حصل، وكشف لهما أنه سيعالج الأمر بالحكمة ما أمكن علاجه فإذا لم يتمكن فلا بد من الحرب وهي حينئذ آخر الدواء.

وفي هذا الوقت الذي يصفه ابن كثير بقوله: انتشرت الفتنة، وتفاقم الأمر، واختلفت الكلمة جاءت رسالة من أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ تبشر الخليفة بمبايعة أهل الكوفة إلا نفراً قليلاً منهم، ورغم عدم استطاعة عمارة بن شهاب ـ رسول الخليفة ـ وواليه على الكوفة الدخول إلى الكوفة فإن أبا موسى الأشعري وكان على الصلاة بالكوفة منذ عهد أمير المؤمنين عثمان ـ قد استطاع أن يقنع الناس بمبايعة الخليفة فبايعوا إلا هذا النفر القليل[1].

لم يبق أمام أمير المؤمنين من عمال عثمان شخص ذو بال إلا معاوية بن أبي سفيان والي الشام وأميرها منذ عهد عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان الخليفة يعتقد أن البلاء الذي سينزل بالمسلمين سيكون من قبل أهل الشام، أما بقية الولايات فإنها سامعة مطيعة وهي وإن لم يبايع كل أهلها إلا أنهم لم يتحفزوا للشر، ولم يتحركوا للحرب كما فعل أهل الشام.

لهذا بادر الخليفة وأرسل إلى معاوية رسالة مع سبرة الجهني، وقدم سبرة على معاوية وسلمه رسالة أمير المؤمنين، واستلمها معاوية ولكنه لم يجب بشيء، وظل معاوية يماطل في الرد حتى مضت ثلاثة أشهر من قتل عثمان، وكان ذلك في شهر صفر من عام ستة وثلاثين.

حينئذ دعا معاوية رجلاً من بني عبس، يقال له قبيصة، وأعطاه طومارا (صحيفة) مختومة وكتب عليها: من معاوية إلى علي.

وقال معاوية لقبيصة: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار،

---

(١) ابن كثير (٧/ ٢٣٠).

وسرح معاوية سبرة الجهيني رسول علي إليه، دون أن يحمله رد الرسالة.

والذي يتبادر إلى الذهن أن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قد تعمد كما هو ظاهر أن يهمل الرد وأن يؤخره هذه المدة ـ ثلاثة أشهر ـ حتى يستبين له الأمر ويعرف ـ اتجاه الناس وميولهم فإن وجدها مع علي سلم وأطاع، وإن وجدها ضده أصر وعارض.

ولعل مما قوّى إصرار معاوية على الخروج ما تم بمكة من اجتماع أم المؤمنين ـ عائشة وطلحة والزبير ومن تبعهم من أهل مكة على الخروج والمطالبة بدم عثمان، فلما تأكد لمعاوية أن القوم قد غادروا مكة إلى البصرة، وأنه قد بلغ عدد الخارجين ثلاثة آلاف رجل، وأن علياً قد غير اتجاهه من الشام إلى العراق ليواجه الخارجين عليه فيها علم أن وضعه يضمن له السلامة، وإن لم يبايع علياً كما طلب منه.

عندئذ رفض مبايعة علي، ونبذ إليه كتابه، وأرسل ذلك العبسي، وعلمه ماذا يقول عندما يصل المدينة.

نعم، إن معاوية استغل وصول قميص عثمان إلى الشام في إثارة عواطف المسلمين، وتحريك مشاعرهم نحو المطالبة بدم عثمان، فقد حمل القميص النعمان بن بشير مضمخاً بدمه، ومعه أصابع نائلة زوجة الخليفة الراحل ـ التي أصيبت حين دافعت عنه بيدها فقطعت مع بعض كفها ـ وأخذ معاوية القميص وعلق أصابع نائلة في كمه، ووضعه على المنبر ليراه الناس، وندب الناس إلى الأخذ بالثأر فبكى الناس حول المنبر وتحت القميص، يرفعه تارة ويعلقه أخرى، والناس يتباكون حوله سنة كاملة، وأخذ يحرض بعضهم بعضاً على الأخذ بالثأر، والمطالبة بدم عثمان.

وكان يؤيد معاوية في الأخذ بالثأر والمطالبة بدم عثمان ـ رضي الله عنه ـ بعض الصحابة والتابعين فلما رأى معاوية أن الأمور تسير ضد علي،

---

(١) ابن كثير (٧/٢٢٨).

وأن قميص عثمان قد حرض الناس على الوقوف معه والمطالبة بدم عثمان ازداد اقتناعاً بموقفه السلبي من علي.

ولا شك أن الفترة التي لم يردَّ فيها على رسالة عليّ أعطته فرصة التبين والوقوف على حقيقة الأوضاع وحددت موقفه الذي اختاره أخيراً وهو الرفض والمطالبة بثأر عثمان.

كانت رسالة عليٍّ إلى معاوية تطالب بالدخول في الطاعة والتزام جماعة المسلمين، يقول علي: (أما بعد فقد بلغك الذي كان من مصاب عثمان ـ رضي الله عنه ـ واجتماع الناس عليّ ومبايعتهم لي، فادخل في السلم أو ائذن بحرب)[1].

وكان رد معاوية أن أَمَر بِطومارين فوصل أحدهما بالآخر، ولم يكتب فيهما شيئاً إلا ـ بسم الله الرحمن الرحيم وأرسله مع العبسي، فسلمه لعلي ـ رضي الله عنه ـ وفضه عليٌّ فلم ير فيه شيئاً.

فسأل العبسي: ما وراءك؟

فقام العبسي فقال: أيها الناس، هل فيكم أحد من عبس؟ قالوا: نعم.

قال: فاسمعوا مني. وافهموا عني، إني قد خلفت بالشام خمسين ألف شيخ خضبوا لحاهم بدموعهم تحت قميص عثمان، رافعيه على أطراف الرماح، قد عاهدوا الله ألا يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته، أو تلحق أرواحهم بالله.

فقام إليه خالد بن زفر ـ وهو رجل من عبس ـ فقال: بئس لعمر الله وافد الشام أنت، أتخوف المهاجرين والأنصار بجنود أهل الشام وبكائهم على قميص عثمان؟ فوالله ما هو بقميص يوسف ولا بحزن يعقوب، ولئن بكوا عليه بالشام، فقد خذلوه بالعراق[2].

---

(١) الدينوري الأخبار الطوال ص ١٤١.

(٢) الدينوري ص ١٤٢.

فأما علي بن أبي طالب فإنه لما سمع ذلك قال: أمني يطلبون دم عثمان؟ ألست موتوراً كترة عثمان؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. نجا والله قتلة عثمان، إلا أن يشاء الله فإنه إذا أراد شيئاً أصابه.

ثم التفت إلى رسول معاوية، وقال له: أخرج.

فقال العبسي: وأنا آمن؟ قال: وأنت آمن.

فخرج العبس، لما رآه قتلة عثمان صاحوا به وقالوا: هذا الكلب رسول الكلاب اقتلوه، فنادى العبسي، يا آل مضر، يا آل قيس، فمنعته مضر وجعلوا يقولون له: أسكت فيقول لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً، فلقد أتاهم ما يوعدون.

فيقولون له: اسكت، فيقول: لقد حل بهم ما يحذرون، انتهت والله أعمالهم وذهب ريحهم.

يقول أبو جعفر معلقاً على ذلك: فوالله ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم[1].

علي يأمر بالخروج إلى الشام:

كان كلام العبسي رسول معاوية إلى أمير المؤمنين مصدر قلق له فقد احس بأن أهل الشام في ثورة نفسية عنيفة، وأنه ليس بعد هذا البكاء حول قميص عثمان إلا الخروج على الخليفة، وتمزيق وحدة المسلمين، وليس لهذا كله نتيجة إلا الحرب الضروس التي ستأكل الأخضر واليابس، ولا تدع مجالاً ـ للتفاهم وإصلاح ذات البين.

وأدرك الخليفة أنه إذا لم يبتدر هذه الحرب برجاله، فسوف تزحف عليه في عقر داره، وأنه إذا لم يدركها وهي لا تزال وليداً يحبو، فسوف يشتد عودها وتفترس من يتصدى لها.

لهذا بادر الخليفة، وكتب إلى عماله في الأقاليم، كتب إلى قيس ابن

---

(١) الطبري (٤/٤٤٤) وابن الأثير (٣/٢٠٣).

سعد في مصر، وإلى أبي موسى الأشعري في الكوفة، وإلى عثمان بن حنيف بالبصرة، أن يستنفروا الناس لحرب أهل الشام وأن يحرضوهم على الخروج لنصرة الإمام، ويجهزوهم بما يلزم لمثل هذه الحال.

وأخذ يتأهب للخروج، ودعا أهل المدينة إلى النهوض معه، وخطب فيهم حاثا على قتال أهل الفرقة فقال: إن الله ـ عز وجل ـ بعث رسولاً هادياً مهدياً بكتاب ناطق وأمر قائم واضح، لا يهلك عنه إلا هالك، وإن المبتدعات والشبهات هن المهلكات إلا من حفظ الله، وإن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها، والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إليها.

انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون أن يفرقوا جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم[1].

ونهض أمير المؤمنين إلى الذين اجتمعوا حوله، وأخذ ينظم صفوفهم، ويرتب ميمنته وميسرته، واختار الأمراء الذين سيتولون هذا الأمر، وأسند إلى كل واحد منهم عمله فدعا ولده محمد ابن الحنفية وسلمه اللواء، وجعل عبدالله بن عباس قائد الميمنة، وعمر بن أبي سلمة قائد الميسرة، وجعل على مقدمة الجيش أبا ليلى بن عمر بن الجراح، واستخلف على المدينة قثم ابن العباس. ونحن نلاحظ أن أمير المؤمنين قد أبعد عن هذه المناصب الخارجين على عثمان ـ رضي الله عنه ـ فلم يول أحداً منهم، ولم يستعمل شيوخهم ورؤساءهم، وذلك ليعلن عملياً تبرؤه من هؤلاء المارقين، ويثبت قدرته على السيطرة على أمر المسلمين من غير عون منهم، فقد كان له في المسلمين الموالين له، والمؤيدين لخلافته ما يغنيه عن الاستعانة بهم والتودد إليهم.

جهز الخليفة جيشه، وهيأه نفسياً للقيام بواجبه نحو دينه وإخوانه

---

(١) الطبري (٤/٤٤٥).

(٢) ابن كثير (٧/٢٣٠).

المسلمين، وعزم على أن يقاتل به الذين عصوا، وأوشكوا أن يفرقوا كلمة المسلمين، ودخل عليه ابنه الحسن - رضي الله عنه - فوجد أباه يستعد لقتال أهل الشام، فحز ذلك في نفسه، وتألم ألماً شديداً حين علم بأن المسلمين سيقتل بعضهم بعضاً، وأن هذه السيوف التي كانت تشهر لإزهاق الباطل وتثبيت الحق، تشحذ الآن لتريق دماء المسلمين، وتزهق أرواحهم.

فقال الحسن لأبيه: يا أبتي، دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم[1] ولكن علياً كان مشغولاً بحال أهل الشام مما جعله لا يصغي لنصح ولده، ولا يستمع إلى أي قول فيه خلاف ما صمم عليه من قتالهم.

قد يبدو علي - رضي الله عنه - معتدياً على أهل الشام بعزمه الخروج إليهم بجيشه لقتالهم في الوقت الذي لم يتحركوا فيه نحو المدينة، ولم تصله أخبار تشير إلى أنهم يتجهرون لغزوها، وقد يظهر عصبياً مستبداً حيث لم يصغ لنصح ولده، وهو لم يرد إلا الإصلاح بين الطائفتين المتخاصمتين، صحيح إن الناظر إلى الموضوع من هذه الزاوية يرى أن أمير المؤمنين كذلك، بل قد يرى فيه ما هو أكثر من ذلك. ولكن الذي يحيط بالموقف من جوانبه المختلفة يتضح له أن علياً معذور حين يقف من أهل الشام هذا الموقف المتشدد.

إن المسألة ليست مسألة جماعة لم يبايعوا فقط، أو جماعة يخالفون في الرأي فذلك من حق كل إنسان حتى يستبين له الحق، ولكن الأمر خرج عن هذا الطور إلى اتهام الخليفة بالمشاركة في قتل عثمان، وإيواء قتلته وحمايتهم، بل إن الأمر قد أخذ شكلاً آخر يغاير ما يمكن أن يكون عليه لو وقف عند حد عدم البيعة أو الخلاف في الرأي بطلبهم الثأر من علي نفسه، وذلك حين قال له العبس: ورائي أني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود.

قال علي: ممن؟ قال العبسي: من خيط رقبتك[2].

---

(١) ابن كثير (٧/ ٢٣٠).

(٢) ابن الأثير (٣/ ٢٠٣).

الفتنة في الشام إذن قائمة على أساس الانتقام من علي، وقطع رقبته ليتخلصوا منه، ويخلو الجو لهم فهل يسكت الخليفة حتى يقتل كما قتل الخليفة السابق؟ وهل هناك معنى لسكوته وعدم تحركه نحوهم بعد أن صرحوا له بعزمهم غير ضعف الخليفة وعدم قدرته على وأد الفتنة مما يجرؤهم على ارتكاب ما يريدون؟

وقد حاول أهل المدينة أن يثنوا علياً عما عزم عليه، ويصرفوه عن قتال أهل الشام فطالبوه بالرفق واللين، وتمثل رسولهم إلى علي بقول زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ورفض عليٌّ هذا العرض اللين في معاملة أهل الشام حيث وجد منهم جرأة على الإمام لا يوقفها إلا الحزم، ونهوضاً إلى الفتنة لا يحسمه إلا السيف، وتمثل بقول الشاعر:

متى تجمع القلب الزكي وصارما ... وأنفا حمياً تجتنبك المظالم[1]

وهمّ عليٌّ أن يسير بجيشه إلى الشام دون أن يؤثر فيه نصح ولده الحبيب الحسن بن الزهراء ودون أن يثنيه رجاء أهل المدينة، ولكنه صرف عن ذلك بأمر لم يكن في حسبانه ولم يخطر له على بال.

عَائِشَةُ أمّ المؤمنين تتوجه إلى البصرة

لم يصرف على النظر عن الحرب مرة واحدة ولم يصرف نظره عن حرب أهل الشام لأنه اقتنع بأحقيتهم فيما يطالبون به، ولكنه تصرف على نحو جديد حين علم بأن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قد التقت هي وطلحة والزبير في مكة، وجمعوا حولهم جموعاً من المسلمين، وعزموا على التوجه إلى البصرة ليبدأوا الطلب بدم عثمان من هناك.

عندئذ رأى أمير المؤمنين أن حرب من تأهبوا للحرب، وجمعوا لها الجموع، وخرجوا يحرضون المسلمين على المطالبة بدم عثمان؛ يجب أن

---

(١) الطبري (٤/٤٤٥).

تقدم على حرب أهل الشام، لأن أهل الشام مستقرون في شامهم أما هؤلاء فإنهم أثاروا الناس في مكة حتى ألبوهم على الخليفة، ثم جهزوهم وحفزوهم حفزاً ليسيروا إلى البصرة حيث الأعوان والأنصار وهم ليسوا من أهل البصرة ولا ممن سبق لهم المقام فيها، فهم بذلك يثيرون الفتنة في أنحاء البلاد، ومسيرهم إلى العراق إعلان سافر عن التمرد والعصيان.

وفوق هذا كله فإن الخليفة رأى أنهم أحدثوا حدثاً لا يمكن السكوت عليه، وهو أنهم شقوا جماعة المسلمين وقطعوا نظام المسلمين[1].

كانت عائشة - أم المؤمنين - في مكة حين قدم إليها طلحة والزبير معتمرين، وعلمت أم المؤمنين وهي في طريقها إلى المدينة بأن عثمان قد قتل، وأن الناس اجتمعوا على عليّ، وإن المسيطرين على الموقف في المدينة هم المتمردون الذين قتلوا عثمان.

سمعت أم المؤمنين بذلك كله وهي في سرف بعد أن قضت عمرة المحرم التي ظلت في مكة بعد الحج تنتظر وقتها فعادت من سرف إلى مكة وقصدت المسجد الحرام، وتسترت في الحجر، واجتمع عليها الناس، وأتاها أمير مكة عبدالله بن الحضرمي وسألها: ما ردك يا أم المؤمنين؟

قالت: ردّني أن عثمان قتل مظلوماً، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام[2].

وخطبت خطبة أثبتت فيها براءة عثمان مما عابوه عليه، وأظهرت بشاعة الجرم الذي ارتكبوه وحرضت على المطالبة بدم عثمان[3].

فاستجاب الناس لندائها وهموا بالخروج إلى المدينة ليطالبوا علياً بتسليمهم قتلة عثمان وكان كثير من الصحابة قد هربوا إلى مكة، ولعلهم

---

(١) الطبري (٤/٤٤٦).
(٢) الطبري (٤/٤٤٩).
(٣) الطبري (٤/٤٤٨، ٤٤٩).

قصدوها ليتحرموا في جوارها لأنهم يعتقدون أن الثوار مهما طغوا وبغوا لن يجرؤوا على استحلال حرمة مكة والاعتداء على من فيها.

واعترض طلحة والزبير على الذهاب إلى المدينة وقالا: يا أم المؤمنين، دعي المدينة فإن من معنا لا (يقرون) لتلك الغوغاء التي بها.

واقترحت جماعة أن يتوجهوا إلى الشام، واعترض عبدالله بن عامر والي البصرة سابقاً على ذلك وقال: قد كفاكم الشام من يستمر في حوزته ـ يعني معاوية[1].

وسأل طلحة والزبير: ابن عامر فقالا: فأين؟ قال: البصرة، فإن لي بها صنائع، ولهم في طلحة هوى ثم استقر رأيهم على الخروج إلى البصرة، وحينئذ طلبوا من عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن تسير معهم إلى البصرة فقالت: نعم[2].

وكانت أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ قد وافقن عائشة على الخروج معها إلى المدينة فلما تحولت وعزمت على الخروج إلى البصرة تركن ذلك ولم يوافقن على الخروج معها، وذهب القوم إلى السيدة حفصة ـ أم المؤمنين ـ فقالت: رأيي يتبع لرأي عائشة، ووافقت على الخروج معها ولكن عبدالله بن عمر منعها من الخروج فأرسلت إلى عائشة تخبرها بذلك، وطلبوا من ابن عمر أن يخرج معهم فأبى وقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون، فتركوه[3].

فلما استقر الرأي على الخروج إلى البصرة، فكر الناس كيف يخرجون وليس معهم ما يحملهم ولا ما يبلغهم؟ فانبرى يعلى بن منية وكان والياً على اليمن وقد جمع كل ما جباه وحضر به إلى مكة، واستعد لتجهيز الناس، وكذلك عبدالله بن عامر بذل مالاً كثيراً، وأرسل يعلى إلى عائشة ستمائة بعير

---

(١) الطبري (٤/٤٥٠).

(٢) الطبري (٤/٤٥١).

(٣) ابن الأثير (٣/٢٠٨).

وستمائة ألف درهم ليتجهز بها الناس، فنادى مناديها: إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن أراد إعزاز الإسلام، وقتال المحلين، والطلب بثأر عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت.

فجهزوا بذلك ستمائة رجل، وبلغ عدد الخارجين مع أم المؤمنين من أهل المدينة ومكة ألف رجل ولحق بهم في الطريق ناس كثيرون حتى بلغ العدد ثلاثة آلاف رجل[١].

وكانت أم الفضل بنت الحارث أم عبدالله بن عباس تراقب كل ما يدور في مكة، وتترقب في لهفة على أي شيء سيجتمعون، وكانت تخفي أمرها على الناس لئلا ينكشف ما تسره عنهم فلما عزموا على الخروج وجهزوا الناس وحملوهم، وعلمت أم الفضل وجهتهم، استأجرت رجلاً من جهينة يسمى ظفراً وبعثته إلى المدينة ليخبر علياً بما اجتمع عليه الناس في مكة.

غادرت أم المؤمنين وطلحة والزبير ومن معهم من السائرين إلى البصرة، ومشوا حتى بلغوا ذات عرق، وهناك فارق أمهات المؤمنين عائشة متوجهات إلى المدينة، وبكين لوداعها، وبكى الناس بكاء شديداً حتى سمي اليوم يوم النحيب.

ولعل هذا البكاء كان إرهاصاً لما سيحدث للمسلمين، ولعله كان أسفاً على ما سيقع فيه المسلمون من القتال وإراقة الدماء، وتفرق الكلمة، ولعله كان إيذاناً بتورط السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ في أمر ليس لها فيه حجة ولا برهان، حيث كانت الأمهات ـ رضي الله عنهن ـ يرين الخروج في ذلك معصية لا تليق بهن، وقد عبرت عن ذلك السيدة أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ في رسالتها إلى عليٍّ: يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصى الله ـ عز وجل ـ وأنك لا تقبله مني لخرجت معك[٢].

ولم يكن ذلك من أم سلمة رضي الله عنها ـ اعتذاراً عن الخروج،

---

(١) ابن الأثير (٢٠٨/٣).
(٢) الطبري (٤٥١/٤).

وضنا بنفسها على أمير المؤمنين ولكن كان الحق الذي تؤمن به وقد برهنت على صدقها حين قدمت ولدها ـ عمر ـ رضي الله عنه ـ ربيب رسول الله وكان أعز عليها من نفسها وقدمته لأمير المؤمنين ليكون معه في مقدمة جنوده.

قالت أم سلمة: وهذا ابني عمر ـ والله لهو أعز علي من نفسي ـ يخرج معك فيشهد مشاهدك[1].

وبينما كانت أم المؤمنين ومن معها تسير نحو البصرة، وقد ركبت جملاً اشتراه يعلى بن منية بثمانين ديناراً[2] وأعد هودجاً لتجلس فيه، واستأجر القوم دليلاً لهم يدلهم وكانوا كلما مروا بوادٍ سألوا عنه، حتى مروا بمكان فيه ماء يعرف بالحوأب، فقالوا: أي ماء هذا؟ قال الدليل: هذا ماء الحوأب.

فصرخت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بأعلى صوتها وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون إني لهيه. سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وعنده نساؤه: ليت شعري، أيتكن تنبحها كلاب الحوأب ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته. وقالت: ردوني أنا والله صاحبة ماء الحوأب. فأناخوا حولها يوماً وليلة فقال لها عبدالله بن الزبير: إنه كذب، ولم يزل بها وهي تمتنع فقال لها: النجاء النجاء، لقد أدرككم علي بن أبي طالب، فارتحلوا نحو البصرة[3].

واقترب الناس من فناء البصرة وكتبت أم المؤمنين إلى رجال من أهل البصرة الأحنف بن قيس، وصبرة بن شيمان وأمثالهم، وأقامت بالحفير تنتظر الجواب[4].

وعلم عثمان بن حنيف والي البصرة بقدومها فأرسل إليها عمران ابن حصين وأبا الأسود الدؤلي ليسألاها عن سبب قدومها وذهب الرجلان إلى الحفير حيث تقيم أم المؤمنين واستأذنا فأذنت لهما، ثم سألاها عن قدومها،

---

(١) الطبري (٤/٤٥١).
(٢) ابن الأثير (٣/٢١٠).
(٣) نفسه.
(٤) نفسه.

فأخبرتهما بأنها قدمت تطالب بدم عثمان لأنه قتل مظلوماً في شهر حرام وبلد حرام وتلت قوله تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾[1].

وخرج عمران وأبو الأسود من عندها متوجهين إلى طلحة وسألاه: ما أقدمك قال: الطلب بدم عثمان، قالا: ما بايعت علياً؟ قال: بلى، والسيف على عنقي ولا أستقبله إن هو لم يخل بيننا وبين قتلة عثمان.

فتركاه وذهبا إلى الزبير فقالا: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان، قالا: ما بايعت علياً؟ قال بلى، والسيف على عنقي.

فرجع عمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف، وقال أبو الأسود:

يا ابن الأحنيف قد أثبت فانفر   وطاعن القوم وجالد واصبر
واخرج لهم مستلئماً وشمر[2]

وفوجىء عثمان بن حنيف بهذا الكلام، ولم يكن يتوقعه أبداً وما كان أحد من قريب أو بعيد يتوقع أن يتورط المسلمون في مثل هذا العمل البغيض، بل لم يكن أحد قط يتصور أن يحمل المسلمون سيوفهم ليقتلوا بها أنفسهم وهي التي كانت لا تشهر إلا في وجوه أعداء الله وأعداء المسلمين.

إن العرب منذ أن أكرمهم الله - عز وجل - بالإسلام لم يرفع واحد منهم سيفه إلا في وجوه الكافرين، فما بالهم اليوم يشحذون سيوفهم، ويريشون سهامهم، ويثقفون رماحهم ليضرب بها بعضهم رقاب بعض إن ذلك ولا شك إيذان بأدبار الخلافة النبوية واستقبال للملكية الجبرية وهو في حد ذاته تهديد مخيف ينذر القوم بالويل والثبور.

لهذا قال عثمان ابن حنيف: (إنا لله وإن إليه راجعون) دارت رحا

---

(١) ابن كثير (٢٣٢/٧) والآية من سورة النساء: ١١٤.
(٢) ابن كثير (٢٣٢/٧).

الإسلام ورب الكعبة، فانظر بأي زيفان تزيف، قال عمران: أي والله لتعركنكم عركاً طويلاً[1].

ويريد عثمان بقوله الحديث الشريف الذي أخبر فيه الرسول ﷺ بأن رحا الإسلام ستدور لخمس وثلاثين، وهو ما رواه الإمام أحمد في المسند عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إن رحى الإسلام ستزول لخمس وثلاثين أو سبع وثلاثين، فإن تهلك فسبيل من هلك وإن يقمْ لهم دينهم يقم سبعين عاماً» قال: قال عمر: يا رسول الله، أبما مضى أو بما بقى؟ قال بل بما بقى.

وبين ابن كثير ـ رحمه الله ـ أن في الحديث إشارة إلى الفتنة التي قتل فيها عثمان سنة خمسة وثلاثين والفتنة التي كانت في أيام علي ـ وكانت في ست وثلاثين وسبع وثلاثين ثم يقول: وأراد بالسبعين ملك بني أمية، فإنه بقي بين ما استقر لهم الملك إلى أن ظهرت الدعاة بخرسان وضعف أمر بني أمية ودخل الوهن فيه نحواً من سبعين سنة[2].

ثم قال عثمان بن حنيف لعمران بن حصين: أشر عليّ يا عمران.
فقال عمران: اعتزل فإني قاعد.
قال عثمان بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين[3].

انصرف عمران إلى بيته، وقام عثمان بواجبه في جمع الناس ليمنع بهم القادمين إلى البصرة من إحداث أمور لا يرضاها أمير المؤمنين خشية أن يحدث هذا فتنة لا تبقى ولا تذر، ودخل هاشم بن عامر على عثمان فقال له: إن هذا الأمر الذي تريده يسلم إلى شر مما تكره إن هـذا فتق لا يرتق، وصدع لا يجبر، فارفق بهم وسامحهم حتى يأتي أمر علي[4].

---

(١) ابن الأثير (٣/٢١٢).
(٢) ابن كثير (٦/٢٠٦).
(٣) ابن الأثير (٣/٢١٢).
(٤) نفسه.

ورفض عثمان ذلك الرأي ونادى في الناس يأمرهم بالاستعداد ولبس السلاح وخرج الناس إلى المسجد متجهزين للقتال، ودس رجلاً في الناس ليخبر ما عندهم، ويقف على حقيقة أمرهم، ويرى هل فيهم من يؤيد القادمين إليهم؟

وخرج الرجل إلى الناس وقال: أيها الناس، أنا قيس بن العقدية الحميسي إن هؤلاء الناس إن كانوا جاؤوا خائفين فقد أتوا من بلد يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطالبوا بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان، فأطيعوني وردوهم من حيث جاؤوا.

وقام الأسود بن سريع، وكأنه دهش لهذا الكلام، فأراد أن يوضح موقف الناس القادمين من مكة فقال: أو زعموا أنا قتلة عثمان؟ إنما أتوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا، عندئذ حصبه الناس[1].

وتبين لعثمان أن لقتلة عثمان بن عفان بالبصرة أعواناً فكره ذلك. وتقدمت السيدة عائشة ومن معها من الناس وقصدت المربد ـ سوق الإبل بالبصرة ـ وأخذت أعلاه وعسكرت بجنودها هناك، وانضم إليها من أهل البصرة من أراد نصرتها وخرج عثمان بن حنيف بجيش إلى المربد وعسكر مقابلها، فاجتمع الجيشان بالمربد.

وقام طلحة والزبير فتكلما فطلبا بدم عثمان وحرضا على الأخذ بثأره فرد على ما قالا أناس من جيش عثمان، ثم قامت أم المؤمنين فحرضت الناس، وحثت على الحرب والقتال فثارت طوائف من الجيش وتراشقوا بالحجارة دون أن يحصل قتال بالسلاح وحجز الناس بين الفرقين، وانضم فريق من جيش عثمان إلى جيش عائشة بعد أن: سمعوا كلامها.

وأقبل جاريه بن قدامة فقال: يا أم المؤمنين، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنه قد

---

(١) ابن الأثير (٣/٢١٢).

كان لك من الله ستر وحرمة، فهتكت سترك وأبحت حرمتك، إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك، وإن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس[1].

وخرج غلام شاب من بني سعد، إلى طلحة والزبير وقال لهما: أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك وأرى أمكما فهل جئتما بنسائكما؟ قال: لا، قال: فما أنا منكما في شيء.

وذهب غلام آخر من جهينة إلى محمد بن طلحة ـ وكان محمد رجلاً متنسكاً ورعاً عابداً فقال له الجهيني: أخبرني عن قتلة عثمان.

فقال محمد: نعم دم عثمان ثلاثة أثلاث، ثلث على صاحبة الهودج ـ يعني عائشة ـ وثلث على صاحب الجمل الأحمر ـ يعني طلحة ـ وثلث على علي بن أبي طالب[2].

وضحك الغلام، وانضم إلى علي، وقال شعراً:

سألت ابن طلحة عن هالك — بجوف المدينة لم يقبر
فقال: ثلاثة رهط همو — أماتوا ابن عفان واستعبر
فثلث على تلك في خدرها — وثلث على راكب الأحمر
وثلث على ابن أبي طالب — ونحن بدويه قرقر
فقلت صدقت على الأولين — وأخطأت في الثالث الأزهر[3]

أقبل حكيم بن جبلة ـ وهو ممن باشر قتل عثمان ـ وكان قائد الخيل في جيش ابن حنيف فأنشب القتال وجعل أصحاب عائشة يكفون أيديهم ويمسكون عن القتال، وحكيم يقتحم عليهم فشرعوا رماحهم لكي يكف ويرجع ولكنه ظل يهجم عليهم ويستثيرهم، فاقتتلوا على فم السكة وأمرت عائشة من معها أن يميلوا نحو مقبرة هناك، وحجز الليل بين الفريقين وفي

---

(١) الطبري (٤/٤٦٥).

(٢) نفسه.

(٣) الطبري (٤/٤٦٥).

اليوم التالي باشروا القتال فاقتتلوا قتالاً عنيفاً وقتل كثير من الجانبين وجرح من سلم جراحاً أليمة.

فلما ذاقوا شدة الحرب، واستحر فيهم القتل، تصالحوا على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة يسأل ويرى هل بايع طلحة والزبير مكرهين أم طائعين؟ فإن كانا أكرها ترك ابن حنيف لهم البصرة وخرج منها وإن بايعا طائعين رجعوا عن البصرة.

وذهب ليستطلع الخبر كعب بن سور فلما قدم المدينة اجتمع عليه الناس ـ وكان يوم جمعة، فقام فقال: يا أهل المدينة أنا رسول أهل البصرة إليكم، جئت أسألكم هل بايع طلحة والزبير طائعين أم مكرهين؟ فسكت الناس وتكلم أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ فقال إنما بايعا مكرهين.

فوثب الناس على أسامة وكادوا يقتلونه، لولا أن أبا أيوب الأنصاري، وصهيباً في نفر من أصحاب الرسول ﷺ منهم محمد بن مسلمة، فقالوا: اللهم نعم فترك الناس أسامة.

وأخذ صهيب بيد أسامة إلى بيته وقال له: أما وسعك ما وسعنا من السكوت؟ فقال أسامة ما كنت أظن أن الأمر كما أرى[١].

ورجع رسول البصرة إليهم بما رأى وسمع، وبلغ الخبر علياً، فكتب إلى ابن حنيف: والله ما أكرها على فرقة، ولقد أكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرا ونظرنا[٢].

فلما رجع كعب بن سور وأخبر طلحة والزبير بما علم، كتبا إلى عثمان بن حنيف أن يخلي لهم البصرة ولكن عثمان احتج بجواب علي وقال: هذا أمر آخر غير ما كنا فيه.

كان من الطبيعي أن يغضب طلحة والزبير لرفض عثمان الخروج وقد

---

(١) ابن الأثير (٣/٢١٥).

(٢) نفسه.

اتفقوا عليه إن ثبت أنهما بايعا مكرهين، فجمعا الرجال في ليلة مظلمة شديدة الرياح والبرد، وتوجها بهم نحو المسجد، وشهدوا صلاة العشاء في المسجد الجامع.

ولم يخرج عثمان للصلاة في تلك الليلة، وكأنه كان يتوجس خيفة مما قد يقع، فصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد الذي يصلي بالناس في جيش أم المؤمنين وحدثت مشادة كلامية بين الناس في المسجد ودار بين الفريقين قتال قتل فيه أربعون من أهل البصرة.

ودخل الرجال على ابن حنيف فأخذوه إلى طلحة والزبير بعد أن نتفوا شعر لحيته حتى لم يبق في وجهه شعرة، فلما رآه طلحة والزبير على هذه الحال استعظما ذلك، وأرسلا إلى عائشة فأخبراها بما حدث لعثمان، فأمرت أن يخلى سبيله، فأطلقوه.

وولوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر، وقسموا ما في بيت المال في الناس، وفضلوا من كان لهم سامعاً مطيعاً، وأقبل الناس يأخذون أرزاقهم، واستبدوا بالأمر في البصرة.

غضب لذلك جماعة ممن اشتركوا في قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وأنصارهم فجمعوا من الرجال ثلاثمائة رجل وتقدمهم حكيم بن جبلة، وباشروا القتال، فضرب رجل حكيماً فقطع رجله، فزحف حكيم حتى أخذها ورمى بها قاتله فقتله، ثم اتكأ عليها وأنشد:

يا ساق لن تراعي إن معي ذراعي
أحمي بها كراعي

وأنشد أيضاً:

ليس على أن موت عار والعار في الناس هو الفرار
والمجد لا يفضحه الدمار

ومر به رجل وهو متكىء على الرجل الذي قطع رجله فسأله: من قتلك؟ قال حكيم: وسادتي.

وقتل حكيم وقتل معه سبعون ممن اشتركوا في قتل عثمان، فكان ذلك

قصاصاً عدلاً من أولئك الذين خرجوا على الخليفة المظلوم وقتلوه من غير ذنب ولا جريرة.

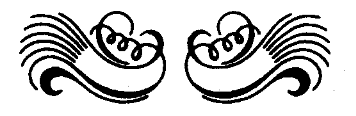
وقوي بذلك أمر طلحة والزبير في البصرة حتى قيل إن الناس بايعوهما فيها وكتبوا بذلك إلى أهل الشام يبشرونهم بذلك.

وقام الزبير في أهل البصرة، وطلب منهم أن يخرج معه ألف رجل ليلقى بهم علياً قبل أن يصل إلى البصرة فلم يجبه أحد فقعد، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين(١).

وكتبت عائشة - رضي الله عنها - إلى زيد بن صوحان تدعوه إلى نصرتها والوقوف معها فإن لم يفعل فليلزم بيته ولا يكن عليها، فرد زيد ذلك الطلب وقال: أنا في نصرتك ما دمت في منزلك.

وقال زيد: رحم الله أم المؤمنين، أمرها الله أن تلزم بيتها، وأمر أن نقاتل فخرجت من بيتها، وأمرتنا بلزوم بيوتنا، وكانت هي أحق بذلك منا.

وكما كتبت أم المؤمنين بذلك إلى زيد بن صوحان، كتبت به إلى أهل اليمامة والكوفة(٢).



(١) ابن كثير (٧/٢٣٤).
(٢) نفسه.

عَليّ يُوجِّهُ جَيْشَهُ إلى البَصْرَة

وصلت رسالة أم الفضل إلى أمير المؤمنين، ووقف على ما فيها فعزم على أن يتوجه بتعبئتـه نفسها إلى البصرة بدلاً من الشام، فأخبر الناس بما عزم عليه، وأعلمهم بما اجتمع عليه طلحة والزبير ومعهم أم المؤمنين، وقال: سأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني.

ثم بلغه أنهم يقصدون البصرة فسر لذلك، وحمد الله أن صرفهم عن الكوفة، لأن الكوفة فيها رجال العرب وسادتهم، وبقدر سرور علي بانصرافهم عن الكوفة بقدر مساءة ابن عباس بذلك، ذلك لأن العرب الذين في الكوفة لهم طموح وعندهم تطلع، وفيهم رجال لا يزالون يسمون إلى أمور لم ينالوها، وإذا ـ كان الأمر كذلـك فإن ابن عباس يخشى أن يشغب عليه هؤلاء الذين قد بلغوا ما أرادوا.

واقتنع علي بما قال ابن عباس، وقام في أهل المدينة يدعوهم إلى الخروج معه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم[1].

فتثاقلوا عليه ولم يجبه أحد، عندئذ قام زياد بن حنظلة وقال لعلي: من تثاقل عنك فإنا نخف معك فنقاتل دونك، واستجاب لعلي ـ رضي الله عنه ـ

(١) ابن الأثير (٣/٢٢١).

من كبار الصحابة أربعة: أبو الهيثم بن التيهان، وأبـو قتادة الأنصـاري، وزياد بن حنظلة، وخزيمة بن ثابت (وليس بذي الشهادتين فذاك مات في خلافة عثمان)[1].

واستخلف علي على المدينة تمام بن عباس، وعلى مكة قُثم ابن عباس، وذلك في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

ولما هم علي بالخروج من المدينة متجهاً إلى العراق، اجتمع عليه أشراف الأنصار، ودخلوا على أمير المؤمنين، وتكلم عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ وهو من البدريين فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي يفوتك من الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ والسعي بين قبره ومنبره أعظم مما ترجو من العراق، فإن كنت تسير إنما تسير لحرب الشام، فقد أقام عمر فينا، وكفاه سعد زحف القادسية، وأبو موسى زحف الأهواز، وليس من هؤلاء رجل إلا ومثله معك، والرجال أشباه، والأيام دول.

فقال علي: إن الأموال والرجال بالعراق، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها[2].

ونادى مناديه في الناس بالمسير.

وبينما علي يغادر المدينة، وقد حاول الإسراع ليرد القوم قبل أن يصلوا إلى البصرة، ونشط معه رجال من الكوفيين والبصريين بلغوا سبعمائة رجل، فلقيه عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ فأخذ بعنانه، وقال: يا أمير المؤمنين، لا تخرج منها، فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً.

فسبه أصحاب علي، فزجرهم علي وقال: دعوا الرجل، فنعم الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ[3].

---

(١) ابن كثير (٧/٢٣٤).

(٢) الدينوري ص ١٤٣.

(٣) الطبري (٤/٤٥٥) وعند ابن الأثير خرج معه تسعمائة.

سار علي برجاله حتى انتهى إلى الربذة، فبلغه أنهم فاتوه، فأخذ يتشاور مع أصحابه.

قرر على المسير إليهم، واتجه نحو البصرة بجيشه، وأدركت الناس صلاة الصبح، فأقيمت الصلاة، وتقدم أمير المؤمنين فصلى بالناس، فلما أتم صلاته أقبل عليه ابنه الحسن - رضي الله عنه - فجلس أمامه وقال: أمرتك فعصيتني وتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك فيها.

فقال له علي: إنك لا تزال تحن حنين الجارية، وما الذي أمرتني فعصيتك؟

قال الحسن: أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت علي، وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا، فإن كان الفساد كان على يد غيرك، فعصيتني في كل ذلك.

فقال علي: أي بني، أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان، فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به وأما قولك: لا تبايع حتى يبايع أهل الأنصار، فإن الأمر أمر أهل المدينة، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ولقد مات رسول الله ﷺ وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس أبا بكر الصدِّيق فبايعته، ثم إن أبا بكر انتقل إلى رحمة الله، وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس عمر فبايعته ثم إن عمر انتقل إلى رحمة الله، وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني، فجعلني سهماً من ستة أسهم فبايع الناس عثمان فبايعته.

ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه، وبايعوني طائعين غير مكرهين، فأنا مقاتل من خالفني بمن أطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

وأما قولك أن أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير، فكيف لي بما قد لزمني؟ أو من تريدني؟ أتريدني أن أكون كالضبع التي يحاط بها ويقال

ليست هاهنا حتى يحل عرقوبها حتى تخرج، وإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر ويعينني فمن ينظر فيه؟ فكف عني يا بني[1].

بلغ علي ما أحدث الناس في البصرة من القتال، ومن قتل حكيم ابن جبلة، وما فعلوه بواليه عثمان بن حنيف وما نهبوا من أموال بيت المال فقال: اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير من قتل المسلمين.

وكتب إلى أهل الكوفة مع محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر يقول: إني قد اخترتكم على أهل الأمصار فرغبت إليكم، وفرغت لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وانهضوا إلينا فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخواناً[2].

وأرسل إلى المدينة فجلب منها ما شاء من السلاح والدواب، وقام في الناس خطيباً فقال: إن الله ـ عز وجل ـ أعزنا بالإسلام، ورفعنا به، وجعلنا به إخواناً بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله، الإسلام دينهم، والحق فيهم، والكتاب إمامهم، حتى أُصيبَ هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة، إلا أن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن.

ثم عاد ثانية فقال: إنه لا بد مما هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، شرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي، فقد أدركتم ورأيتم، فالزموا دينكم، واهتدوا بهدى نبيكم ﷺ واتبعوا سنته، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله ـ عز وجل ـ رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقرآن حكماً وإماماً[3].

وخرج بجيشه نحو البصرة، فقام ابن لرفاعة بن رافع الأنصاري، وكلم أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين أي شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟.

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٢٣).

(٢) ابن كثير (٧/٢٣٥).

(٣) الطبري (٤/٤٧٩).

قال علي: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إن قبلوا منا وأجابونا إليه.

قال: فإن لم يجيبوا إليه؟.

قال علي: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق، ونصبر.

قال: فإن لم يرضوا؟.

قال علي: ندعهم ما تركونا.

قال: فإن لم يتركونا؟

قال علي: امتنعنا منهم.

قال: نعم إذاً.

وقام الحجاج بن غزية الأنصاري فقال لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول، والله لأنصرن الله - عز وجل - كما سمانا أنصاراً[1].

وانطلق علي بجيشه على تعبيته الأولى: أبو ليلى بن عمر بن الجراح على مقدمته والراية بيد ابنه محمد ابن الحنفية، وعلى الميمنة عبدالله ابن عباسٍ، وعلى الميسرة عمر بن شعبان الأسدي وسار في سبعمائة وستين مقاتلاً، يتقدمهم أمير المؤمنين على ناقة له حمراء يقود فرساً كميتاً.

فلما نزل بفيد - وهو موضع - عرضت عليه قبيلتا طيء وأسد أنفسهم، فقال: الزموا قراركم في المهاجرين كفاية، وقدم عليه عامر بن مطر الشيباني، فسأله عما وراءه، حتى سأله عن أبي موسى الأشعري.

فقال عامر: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك.

قال علي: والله ما أريد إلا الإصلاح حتى يرد علينا[2].

وسار حتى انتهى إلى ذي قار فدخل عليه عثمان بن حنيف، وقد نتف أصحاب الزبير وطلحة شعره ولحيته وحاجبه فنظر علي إلى أصحابه وقال: انطلق هذا من عندنا وهو شيخ فرجع إلينا وهو شاب[3].

---

(١) نفسه.

(٢) الطبري (٤/٤٨٠).

(٣) الطبري (٤/٤٨١).

وعرضت قبيلة بكر بن وائل أن تكون معه في حربه فقال لها كما قال لطيء وأسد.

ودخل محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بكتاب أمير المؤمنين على أبي موسى بالكوفة، واستنهضا الناس للدخول في طاعة علي فلم يجابا، وأخبر أمير المؤمنين بذلك، فأرسل الأشتر النخعي وابن عباس إلى أبي موسى، فرجعا بما رجع به المحمدان قبلهما، فأرسل ابنه الحسن وعمار ابن ياسر، فقدما الكوفة، ودخلا المسجد وخرج إليهما أبو موسى، فضم الحسن إليه، وقال لعمار: يا أبا اليقظان، أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا فأحللت نفسك مع الفجار؟ فقال عمار: لم أفعل ولم يسؤني.

فقطع الحسن كلامهما، وقال لأبي موسى: لم تثبط الناس عنا؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، ومثل أمير المؤمنين لا يخاف على شيء.

فقال أبو موسى: صدقت بأبي أنت وأمي، ولكن المستشار مؤتمن، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب، وقد جعلنا الله إخواناً، وقد حرم علينا دماءنا وأموالنا[1].

وغضب عمار بن ياسر وتلاحى الناس في المسجد بعضهم يريد الخروج والآخرون يريدون القعود وحينئذ قام القعقاع بن عمرو- رضي الله عنه - فقال: إني لكم ناصح، وعليكم شفيق، أحب لكم أن ترشدوا ولأقولن لكم قولاً هو الحق، أما ما قال الأمير- أبو موسى - فهو الحق لو أن إليه سبيلاً، وأما ما قال زيد، فزيد عدو هذا الأمر فلا تستنصحوه، والقول الذي هو الحق أنه لا بد من إمارة تنظم الناس، وتزع الظالم، وتعز المظلوم، وهذا أمير المؤمنين ولي بما ولى، وقد أنصف في الدعاء، وإنما يدعو إلى الإصلاح، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع[2].

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) نفسه (٣/٢٧٩).

وكان أبو موسى قد أمر الناس بالقعود والعزلة، حيث كان يرى أنها فتنة لا يحل السعي فيها، وأما زيد بن صوحان فكان هواه مع علي إلا أنه كان ملوماً، وبينما الناس لم يستقروا على رأي سمع عمار بن ياسر رجلاً يسب أم المؤمنين فقال له: اسكت مقبوحاً منبوحاً، ثم قال: إني لأعلم أنها ـ زوجته ـ يعني الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها[1].

واختلط على الناس أمرهم، ولم يتبين لهم ما يقومون فيه، فكلما همّ جماعة بالخروج ثبطهم أبو موسى، وحبب إليهم القعود، فعندئذ قام إليه الحسن وأمره أن يغادر المسجد فغادره وحث الحسن ـ رضي الله عنه ـ أهل الكوفة على الخروج مع أمير المؤمنين، وأخبرهم بأنه يطلب منهم أن يسيروا معه على الإصلاح فإن وجدوه مظلوماً أعانوه، وإن كان ظالماً أخذوا منه[2].

وأخذ الناس يحث بعضهم بعضاً على الخروج ونصرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حتى قام حجر بن عدي فقال: أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين، وتلا قوله ـ تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[3].

ووجد الحسن أن الفرصة قد سنحت وأن النفوس قد تهيأت، ونشط الناس للخروج فقال أيها الناس إنني غادٍ، فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر، ومن شاء في الماء[4].

وأصبح الحسن فوجد الناس قد استعدوا للخروج، فأحصاهم، فكانوا تسعة آلاف وستمائة وخمسين رجلاً، فوافوا علياً بذي قار قبل أن يرتحل[5].

ويرى ابن جرير وابن الأثير وابن كثير أن الخارجين كانوا تسعة آلاف فقط، خرج منهم في البر ستة آلاف ومائتان، وخرج في الماء ألفان وثمانمائة.

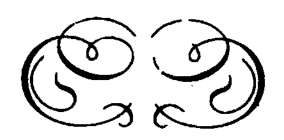
---

(١) رواه البخاري.
(٢) ابن الأثير (٣/٢٣٠).
(٣) ابن كثير (٧/٢٣٧).
(٤) ابن الأثير (٣/٢٣١).
(٥) الدينوري ص ١٤٥.

وخرج الناس على تعبيته كل جماعة منهم عليهم رجل، فكان على كنانة وأسد وتميم والرباب معقل بن يسار الرياحي، وكان على سُبْع قيس سعد بن مسعود الثقفي عم المختار، وعلى بكر وتغلب وعلة ابن محدوج الذهلي، وكان على مزحج والأشعرين حجر بن عدي، وعلى بجيلة وأنمار وخثعم والأزد مخنف بن سليم الأزدي(١) .

فلما دخلوا على أمير المؤمنين بذي قار تلقاهم في جماعة من أصحابه منهم بن عباس، فرحب بهم وقال لهم: يا أهل الكوفة، أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم، وقدْ دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده، وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدأوا بظلمنا ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد - إن شاء الله(٢).

وكان رؤساء القادمين من الكوفة إلى علي: القعقاع بن عمرو، وسعد بن مالك، وهند بن عمرو، والهيثم بن شهاب.



(١) ابن الأثير (٣/٢٣٢).
(٢) ابن كثير (٧/٢٣٧).

علي يرسل القعقاع للصلح

واختار عليٌّ القعقاع ليكون رسولاً له إلى طلحة والزبير وأم المؤمنين، وقال له: الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية، فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظم عليهما الفرقة.

ثم قال له: كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة مني؟

قال القعقاع: نلقاهم بالذي أمرت به، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأي اجتهدنا الرأي، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي.

قال علي: أنت لها.

وخرج القعقاع حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة - رضي الله عنها - فسلم عليها.

وقال يا أمه، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلاد؟.

قالت أي بني، إصلاح بين الناس.

قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما.

فبعثت إليهما فجاءا، فقال القعقاع: إني سألت أم المؤمنين، ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد؟.

فقالت: إصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان؟
قالا: متابعان.

قال القعقاع: فأخبراني ما وجه هـذا الإصلاح؟ فـوالله لئن عرفنـا لنصلحن، ولئن أنكرنا لا نصلح.

قالا: قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن، وإن عمل به كان إحياء للقرآن.

قال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة إلا رجلاً، فغضب لـه ستة آلاف، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتـم ذلك الـذي أفلت ـ يعني حرقوص بن زهير ـ فمنعه ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون، وأنتم أحميتم مضرور بيعة من هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير.

عندئذ قالت أم المؤمنين: فما تقول أنت؟.

قال القعقاع: أقول هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير، وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر، وبعثة الله في هذه الأمة هزاً هزها، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم.

وأيم الله، إني لأقول هذا وأدعوكم إليه وإني لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله ـ عز وجل ـ حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر، وليس كالأمور، ولا كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة الرجل.

قالوا: قد أصبت وأحسنت فارجع، فإن قدم عليٌّ وهو على مثل رأيك صلح الأمر(١).

---

(١) الطبري (٤/٤٨٨، ٤٨٩)، وابن الأثير (٣/٢٣٢، ٢٣٣)، وابن كثير (٧/٢٣٨).

بشائر الصلح:

نجحت سفارة القعقاع بن عمرو نجاحاً لم يكن متوقعاً، وأثبت جدارة في المفاضات لا تقل روعة عن مقدرته العسكرية ومواهبه الحربية، فقد استطاع أن يقنع أم المؤمنين وطلحة والزبير - رضي الله عنهم - بما عجز غيره عن إقناعهم به، وخرج من بينهم وهم موافقون على الصلح الذي عرضه عليهم بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

وعاد القعقاع إلى علي وأخبره خبر القوم، وفرح علي وأتباعه بالموافقة على الصلح، لما فيه من حقن دماء المسلمين، وتحقيق المصلحة العليا باجتماع الشمل ورأب الصدع ووحدة الصف.

وفي الوقت الذي كان أمير المؤمنين مبتهجاً بالموافقة على الصلح وإحلال الأمن جاءت وفود البصرة لنظرائهم من أهل الكوفة يسألونهم عن مقدمهم ويعلمونهم أنهم رسل أهل البصرة إليهم وأنهم لا يريدون إلا الإصلاح، ولم يخطر لهم قتال على بال، وسمع أهل الكوفة منهم ذلك فأخبروهم بأنهم لم ينهضوا لقتال وإنما خرجوا كذلك للإصلاح.

دخل القادمون من أهل البصرة على أمير المؤمنين، ونقلوا إليه وجهة نظر إخوانهم من ورائهم وأنهم لم يريدوا القتال ولم يفكروا فيه، وكان وفد تميم ووفد بكر قد أتيا أهل الكوفة قبل عودة القعقاع فلما سمع علي منهم ذلك سأل جرير بن شرس عن طلحة والزبير فأخبره بأمرهما.

سارع علي بجيشه وهو لا ينوي إلا الإصلاح فنزل إلى جانب البصرة، وقد خندق طلحة والزبير هناك وسأل أهل البصرة إخوانهم عما رأوا وسمعوا من أهل الكوفة فقالوا: يقولون: خرجنا للصلح وما نريد قتالاً، فاطمأن القوم لذلك، وحمدوا الله - عز وجل - أن وفق الجميع لإرادة الصلح ونبذ القتال.

رجع القعقاع من البصرة يحمل معه بشائر الصلح، وعاد وفد أهل البصرة كذلك يحملون إلى - إخوانهم بشائر الصلح، ووقف علي فخطب في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر الجاهلية وشقاءها والإسلام والسعادة

وأنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم حدث هذا الحدث الذي جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا وحسدوا من أفاءها الله عليه وعلى الفضيلة، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها والله بالغ أمره، ثم قال: ألا وأني راحل غداً فارتحلوا، ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم[1].

سمع الخارجون على عثمان في جيش علي هذه الكلمة فنزلت على نفوسهم نزول المنون، ووقعت في آذانهم وقوع الصواعق، فأخذوا يفكرون في مصيرهم، وما سيؤول إليه أمرهم.

فاجتمع منهم علباء بن الهيثم، وعدي بن حاتم، وسالم بن ثعلبة القيسي، وشريح بن أوفى، والأشتر، وانضم إليهم ابن سبأ ومعه المصريون وخالد بن ملجم، وتشاوروا في أمرهم، ماذا يعملون.

إن القوم قد أوشكوا على الصلح، وليس بينهم إلا أن يلتقوا فيتمموا ما رأوا، ولن يكون ذلك إلا على دمائهم، وهم ولا شك أقل عدداً، وأذل نفراً من غيرهم، كان ذلك كله داعياً لقتلة عثمان أن يفكروا في مصيرهم، وأن يطرح كل منهم ما يراه حلاً لتلك المحنة التي ستحل بهم.

قال الأشتر: نقتل علياً فنلحقه بعثمان فتكون فتنة يرضى فيها القوم منا بالسكوت.

فقال ابن سبأ: بئس الرأي رأيت، أنتم قلة والقوم مشتاقون إلى قتالكم.

قال علباء: ننصرف عنهم فيصبحون بذلك قلة أمام عدوهم فيكون عدوهم أقوى عليهم.

وقال ابن سبأ: بئس ما رأيت، ود والله الناس أنكم تنفردون ولم تختلطوا بقوم بُرَءاء، وحينئذ يتخطفكم الناس.

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٣٤، ٢٣٥).

قال عدي: والله ما رضيت ولا كرهت، وإن لنا لعتاد من خيل وسلاح فإن أقدمتم أقدمنا، وإن أمسكتم أمسكنا.

قال ابن سبأ: أحسنت.

قال شريح بن أوفى: أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا، ولا تؤخروا أمراً ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجلوا أمراً ينبغي لكم تأخيره، فإنا عند الناس بشر المنازل، وما أدري ما النـاس صانعون غداً؟.

وأخيراً أتاهم عبدالله بن سبأ بالحل والمخرج، وكأن كل هذه الآراء ليست بشيء عنده يستحق أن يذكر فقال: يا قوم، إن عزكم في خلطة الناس، فإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال قبل أن يصطلحوا على شيء فمن معكم يمتنع، ومن عليكم يقاتلكم، ويشغل الله طلحة والزبير وعلي عن رأيهم فلا تجدون شيئاً مما تكرهون، وينصرفون عما يحبون.

اجتمع قتلة عثمان على ذلك، ووجدوا في ذلك الرأي الذي ضل عنهم، وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون.

ارتحل علي بجيشه من ذي قار، ومر بعبد القيس فانضموا إليه وساروا جميعاً حتى نزلوا الزاوية، ومنها إلى البصرة، وسار طلحة والزبير ومن معهما للقاء علي، واجتمعوا عند قصر عبيد الله بن زياد، ونزل الناس كل في ناحية، وتلاحقت الجيوش، ومكثوا ثلاثة أيام، والرسل تروح وتغدوا بينهم.

وأشار بعض الناس على طلحة والزبير بانتهاز فرصة الأمان هذه والميل على قتلة عثمان ليتخلصوا منهم فأجابا ـ رضي الله عنهما ـ إن علياً قد أشار بتسكين هذا الأمر، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك.

وبذلك أبطل طلحة والزبير مكيدة كادت تشعل المعسكرين ناراً، واخبتا فتنة عمياء إن هي شبت لا تبقى ولا تذر[1].

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٣٥، ٢٣٦) وابن كثير (٧/٢٣٩) وقد نقلت ما دار بين المؤتمرين بتصرف كبير.

وقام علي في الناس خطيباً، فقام إليه الأعور المنقري وسأله عن إقدامه على البصرة فقال علي: الإصلاح وإطفاء الثائرة، ليجتمع الناس على الخير، ويلتئم شمل هذه الأمة.

قال الأعور: فإن لم يجيبونا؟.
قال علي: تركناهم ما تركونا.
قال: فإن لم يتركونا؟.
قال: دفعناهم عن أنفسنا.
قال: فهل لهم في هذا الأمر مثل الذي لنا؟.
قال: نعم.

وقام إليه أبو سلام الدالاني فقال: هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله في ذلك؟.
قال علي: نعم.
قال: فهل لك من حجة في تأخيرك ذلك؟.
قال: نعم.
قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً؟.
قال: إني لأرجو ألا يقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه لله إلا أدخله الله الجنة.

ثم قال علي - رضي الله عنه: أيها الناس أمسكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم، وإياكم أن يسبقونا غداً، فإن المخصوم غداً مخصوم اليوم[1].

فلما تراءى الجمعان خرج الزبير بن العوام على فرسه وعليه سلاحه، وخرج في عقبه طلحة بن عبيد الله، فخرج إليهما علي ابن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - وتقاربوا حتى اختلفت أعناق دوابهم.

فقال علي: لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما

---

(١) ابن كثير (٧/٢٣٩، ٢٤٠).

عند الله عذراً، فاتقيا الله، ولا تكونا ﴿كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً﴾[1] ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما، فهل من حدث أحل لكما دمي؟

قال طلحة: ألبتَ على عثمان.

قال علي: ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾[2] يا طلحة، تطلب بدم عثمان؟ لعن الله قتلة عثمان، يا طلحة، أجئت بعرس رسول االله ﷺ تقاتل بها، وخبأت عرسك في البيت؟ أما بايعتني؟

قال طلحة: بايعتك والسيف على عنقي.

والتفت علي إلى الزبير وقال له: يا زبير ما أخرجك؟ قال: أنت، ولا أراك لهذا الأمر أهلاً، ولا أولى به مني.

قال علي: ألست له أهلاً بعد عثمان؟ قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا[3].

وأخذ علي يذكر الزبير بأشياء، ويحاول أن يقنعه بأنه لا يحل له قتاله ولا الخروج عليه بعد البيعة ثم ذكره بحديث رسول الله ﷺ.

قال علي: يا زبير، نشدتك الله، أتذكر يوم مر بك رسول الله ﷺ ونحن في مكان كذا وكذا فقال: (يا زبير ألا تحب علياً)؟ فقلت: ألا أحب ابن خالي وابن عمي وعلى ديني؟ فقال الرسول: «يا زبير، أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم له»[4].

تذكر الزبير ذلك وقال: والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك، ورجع الزبير.

---

(١) سورة النحل الآية ٩٢.
(٢) سورة النور الآية ٢٥.
(٣) ابن الأثير (٣/٢٣٩).
(٤) ابن كثير (٧/٢٤٢).

ورجع إلى أصحابه فقال: أما الزبير فقد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم[1].

ودنا الزبير من ابنه عبدالله وبيده الراية العظمى فقال: يا بني إني منصرف، قال: وكيف يا أبت؟

قال: مالي في هذا الأمر من بصيرة، وقد أذكرني علي أمراً، قد كنت غفلت عنه، فانصرف يا بني معي.

فقال عبدالله: والله لا أرجع أو يحكم الله بيننا، فتركه الزبير ومضى نحو البصرة ليتحمل منها[2]. ويرجع الحجاز.

وبعث علي حكيم بن سلامة، ومالك بن حبيب يقولان للناس: إن كنتم على ما فرقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر.

ورد القوم حكيماً ومالكاً إلى علي: بأنا على ما فارقنا عليه القعقاع ابن عمرو فاقدم.

وقدم علي حتى نزل بحيالهم، ونزلت القبائل إلى قبائلهم: مضر إلى مضر، وربيعة إلى ربيعة واليمن إلى اليمن، وهم لا يشكون في الصلح، فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض ولا يذكرون ولا ينوون إلا الصلح[3].

وظل الناس على ذلك يؤملون في الصلح، وينتظرون عقده، وأمن الناس بعضهم بعضاً، ولاحت بشائر الصلح بين الفريقين، ورفرف السلام على الميدان الذي احتشدوا فيه للقتال، ورجع علي إلى عسكره كما رجع طليحة والزبير إلى عسكرهما. وبات الناس أهنأ بيات منذ قدموا البصرة.

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٤٠).

(٢) الدينوري ص ١٤٨.

(٣) الطبري (٤/٤٩٦، ٥٠٥).

معركة الجمل

فرح المسلمون بالصلح الذي أوشك أن يتم بين الفريقين، وبات الناس بخير ليلة لِمَا لمسوا من العافية وبات قتلة عثمان بشَرٍّ ليلة لَمَّا علموا من أن الصَلح سيكون على دمائهم، وعزموا على أن ينفذوا خطتهم التي اتفقوا عليها من إنشاب القتال بين الفريقين، وعدم إعطائهم فرصة للصلح، وأسرّوا أمرهم، وطووا قلوبهم على خبثهم حتى لا يعرف الناس حالهم.

وبدأ الفريقان يمهّدان للصلح، فأرسل عليٌّ عبدالله بن عباس إلى طلحة والزبير، وأرسلا إليه محمد ابن طلحة المعروف بالسجاد، وتقارب الفريقان، وبات الناس ينتظرون الصباح لينعموا بالأمن والاطمئنان.

أما قتلة عثمان فقد صمموا على إنشاب القتال وإثارة الحرب بغلس قبل أن يبدو النهار، ونهض كل فريق منهم إلى جماعتهم، فهجموا عليهم بالسيوف وهم نائمون يحلمون بالأمن والعافية فبددوا أحلامهم، وعكروا صفوهم، واستيقظوا مذعورين تلاحقهم ضربات قاتلة من أولئك الفجرة وهم لا يعرفون، فهرعوا إلى سيوفهم، ودافعوا عن أنفسهم، وردوا الغادرين على أعقابهم.

لقد ظن أهل البصرة أن أتباع علي - رضي الله عنه - قد بيتوهم على غرة، وخدعوهم بكلمة الصلح الذي أعلنوه، وشعر علي بضجة وجلبه فسأل، ما هذا؟ فأجابه أحد المتآمرين بأن أهل البصرة بيتوهم وخدعوهم فتألم علي لما حدث، واتهم كل فريق الآخر، وسرت في المعسكرين لوثة الغدر

والخيانة وأخذ عليٌّ يحاول كف الناس حتى ينظر الأمر، ولكن المتمردين لم يكفوا، وراحوا يقتلون كل من يلقون وقابلهم أهل البصرة بالمثل.

وقامت الحرب على ساق، وبرز الفرسان من الجانبين، وجال الشجعان الفريقين، ووقف كل فريق بحيال الآخر، وقد اجتمع مع علي عشرون ألفاً، والتفَّ حول طلحة والزبير ثلاثون ألفاً[1].

رأى كعب بن سور قاضي البصرة أن دماء المسلمين ستضيع هدراً، فذهب إلى أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقال لها : أدركي الناس لعل الله أن يصلح بك ما أفسده الغادرون فجلست في هودجها، وهو فوق بعيرها، وستروا الهودج بالدروع حتى لا تصاب بأذى.

لقد أراد كعب ـ رحمه الله ـ أن يهدىء ثائرة الناس بخروج أم المؤمنين، وهو لا يدري أن خروجها على هذا النحو سيثير فيهم الحماس، ويدفعهم إلى القتال والجلاد.

ذلك لأن خروج أم المؤمنين إلى ميدان المعركة معناه عند المطالبين بدم عثمان الإلحاح في طلب الثأر، وتشجيعهم على الاستمرار في المعركة حتى يتحقق لهم ما خرجوا من أجله، ومعناه عند الآخرين تهديدهم بالقتل والفناء مما يجعلهم يزدادون شراسة وفتكاً، ويقوي من حماسهم للدفاع عن أنفسهم.

لقد كان ظهور أم المؤمنين في ساحة الوغى أشبه بفتيل لقنبلة مؤقتة حان وقتها، بل كان أشبه بالنفط صب على نار خامدة فأشعلها وزادها لهيباً.

ذلكم هو ما حصل فعلاً سواء كان ذلك مقصوداً لكعب أم لم يكن مقصودا له، لقد لزمت أم المؤمنين بيتها على أمل أن الصلح سيتم غداً، فلما أنشب المتمردون القتال في غفلة من الفريقين حاول كعب أن يضع للقتال حداً، ولكن هيهات.

---

(١) ابن كثير (٧/ ٢٤٠).

كذلك حاول أمير المؤمنين في الطرف الآخر أن يوقف نهر الدم الذي تدفق بغير علم منه ولا إرادة، فأرسل منادياً ينادي في الناس: ألا كفوا، ألا كفوا، ولكن هيهات هيهات.

لقد أحكم المجرمون أمرهم، ودبروا مكيدتهم، وهم الذين يتولون تنفيذها، فهل هناك من يمكنه إيقافها؟.

كان الفريقان متفقين على ألا يقتتلوا حتى يعذر كل فريق من الآخر، فيطلبون الحجة المسوغة للقتال، فإذا اقتتلوا فلا يقتلون مدبراً، ولا يزففون على جريح، ولا يستحلون سلباً، ولكن القتال قد بدأ بتلك المؤامرة الخبيثة بغير رأي زعماء الفريقين، ودون أن يطلب أحدهما الحجة التي تبيح القتال، وإن التزموا في المعركة ببقية ما اتفقوا عليه.

وقد ثار المتمردون فتنة أغضبت أمير المؤمنين حين اعترضوا بقولهم: أتحل لنا دماؤهم ولا يحل لنا سلبهم؟.

فقال علي: القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر[١].

ورأت عائشة ـ أم المؤمنين ـ بعينيها ما يرتكب الفريقان من القتل وسفك الدماء، فأعطت كعب بن سور مصحفاً، وقالت: أدعهم إليه[٢].

لقد رجع الزبير وترك القتال حين ذكره علي بقول الرسول ﷺ: «لتقاتلنه وأنت له ظالم» وقتل طلحة في الجولة الأولى من المعركة جاءه سهم غرب ـ طائش ـ لا يدري من راميه فشك رجله مع فرسه، وظل ينزف حتى مات، وتساقطت الرؤوس، وملأت الأرض بجثث القتلى، ولم يكن حينئذ بد من الدعوة إلى وقف القتال

لذا أعطت أم المؤمنين كعباً المصحف وقالت: أدعهم إليه.

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٥٩).
(٢) ابن كثير (٧/٢٤٢).

ولكن هل استجاب قتلة عثمان لتلك الدعوة الكريمة؟ لا، إنهم لم يكن لديهم الاستعداد لقبولها إذ لو كان عندهم نية لقبول الصلح ما أنشبوا القتال حينما كان الناس من الصلح قاب قوسين أو أدنى، وكانت إجابتهم على تلك الدعوة البارة، أن رَشَقوا من دعاهم بالسهام رشقة رجلٍ واحد فأردوه قتيلاً فقام مسلم بن عبدالله العجلي مكانه فرشقوه رشقاً واحداً فقتلوه وهو يدعوهم إلى الله وإلى كتابه.

وتقدم السبئيون وكانوا في مقدمة جيش أمير المؤمنين ليفسدوا عليه كل فكرة للصلح، وهم الذين قتلوا كعب بن سور ومسلم العجلي، وتقدموا وهم لا يقصدون إلا أم المؤمنين، وقد رموا هودجها، وهي تذكرهم الله واليوم الآخر، وهم يأبون إلا الهجوم عليها والإضرار بها، حينئذ رفعت صوتها وقالت: أيها الناس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم.

وأخذت تدعو ـ وكانت جهورية الصوت ـ فضج الناس بالدعاء حتى سمع دعاؤهم في أنحاء المعسكر رغم شدة القتال وصياح المتقاتلين، وسمع علي الضجة فسأل: ما هذا؟ فقالوا: عائشة تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم.

فقال علي: اللهم العن قتلة عثمان.

واشتد هجوم السبئيين على الجمل، وتأكدت أم المؤمنين أنهم يريدونها هي، فأرسلت إلى عبد الرحمن بن عتاب وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام أن اثبتا مكانكما، وأخذت تحرض الناس على القتال والثبات، وكان لتحريضها تأثير شديد في النفوس فهاجت المشاعر، وثارت النفوس والتاث الناس حول الجمل، ودافعوا بحمية لم تعهد من قبل، وحملت مضر البصرة حتى عصفت بمضر الكوفة، وزعزعت صفوفها، وتراجع الناس حتى زحموا علياً فقال علي لابنه محمد ـ وكان معه الراية ـ احمل، فتقدم بها حتى لم يجد متقدماً إلا على سنان الرمح، فأخذ علي الراية من ابنه، وتقدم[1].

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٤٥).

ودارت رحى الحرب عنيفة ضاربة، وكانت سجالاً يوماً لأهل البصرة ويوماً عليهم، وتزاحم الناس حول الجمل، ولا يأخذ بخطامه إلا شجاع معروف، ويعرف بنفسه قبل أن يأخذ الخطام فيقول فلان بن فلان، وكلما قتل رجل حل محله آخر حتى قتل من بني ضبة أربعون رجلاً قتلوا جميعهم على خطام الجمل، وأخذ الخطام بعد ضبة رجال من قريش قتل منهم سبعون رجلاً كلهم يقتل وهو آخذ بخطام الجمل[1].

وأخذ الأبطال من الجانبين يتحدى بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً حتى أكلتهم الحرب، وفرغ من المتقاتلين الصبر، فتنادوا يوصي بعضهم بقطع الأطراف لعل الناس عندما تقطع أطرافهم يمسكون عن القتال، ونطايرت الأكف والأذرع والأرجل حتى يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ ولم ترَ وقعةٌ أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الوقعة[2].

وأخذ السبئيون يرمون الهودج بالنبال حتى صار مثل القنفذ لكثرة ما رشق فيه منها.

وهنا أترك الحديث لابن الأثير يروي لنا ما دار في هذا اليوم بين الفريقين يقول: وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الخطام أحد إلا قتل، وما رامه أحد من أصحاب عليٍّ إلا قتل أو أفلت ثم لم يعد، وحمل عدي بن حاتم الطائي عليهم ففقئت عينه.

وأخذ الخطام عبدالله بن الزبير ولم يتكلم، فقالت: من أنت؟ فقال: ابنك ابن أختك قالت: واثكل أسماء، وانتهى إليه الأشتر فاقتتلا فضربه الأشتر على رأسه فجرح جرحاً شديداً، وضربه عبدالله ضربة خفيفة، واعتنق كل رجل صاحبه، وسقطا إلى الأرض يعتركان، فقال ابن الزبير:

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

فلو يعلمون من مالكاً لقتلوه، إنما كان يعرف بالأشتر، فحمل أصحاب

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٤٩).

(٢) البداية والنهاية (٧/٢٤٣).

علي وعائشة فخلصوهما، وأما الأشتر النخعي فيصف ما لقيه أثناء المعركة فيقول:

لقيت عبد الرحمن بن عتاب فلقيت أشد الناس وأروغه ما لبثت أن قتلته ولقيت الأسود بن عوف فلقيت أشد الناس وأشجعه فما كدت أنجو منه فتمنيت أني لم أكن لقيته، ولحقني جندب بن زهير الغامدي فضربته فقتلته.

قال: ورأيت عبدالله بن حكيم بن حزام وعنده راية قرين، وهو يقاتل عدي بن حاتم وهما ـ يتصاولان تصاول الفحلين فتعاورناه، وأخذ الخطام الأسود بن أبي البختري فقتل وهو قرين أيضاً، وأخذه عمرو بن الأشرف فقتل وقتل معه ثلاثة عشر رجلاً من أهل بيته، وهو أزدي، وجرح مروان ابن الحكم، وجرح عبدالله بن الزبير سبعاً وثلاثين جراحة من طعنة ورمية[1].

قال عبدالله بن الزبير: مشيت يوم الجمل وبي سبع وثلاثون جراحة من ضربة وطعنة وما رأيت مثل يوم الجمل قط، ما ينهزم منا أحد، وما نحن إلا كالجبل الأسود، وما يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قتل[2].

ورأى علي أن الناس يسقطون في الميدان كورق الشجر، وكلما أبيدت فرقة لاذ بالجمل فرقة أخرى، وتأكد أمير المؤمنين بأن السر في احتدام الأمر وتشبث الناس بالقتال هو بقاء الجمل في المعركة، فنادى في الناس: اعقروا الجمل فأنه إن عقر تفرقوا[3].

تَحيَّن بجير بن دلجة الضبي ـ وهو من أهل الكوفة ـ فرصة، وضرب عرقوب الجمل فخر وسقط يقول ابن زبير: فما سمعت صوتاً قط أشد من عجيج الجمل.

وقيل لبجير: لم عقرته؟ فقال: رأيت قومي يقتلون، فخفت أن يفنوا، ورجوت إن عقرته أن يبقى لهم بقية[4].

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٥٠، ٢٥١)

(٢) الطبري (٤/٥١٩).

(٣) ابن الأثير (٣/٢٥١).

(٤) الطبري (٤/٥٢٣).

وكانت فكرة عقر الجمل فكرة عبقري ألهمه الله ذلك حتى تحقن هذه الدماء التي تهدر هدراً وكانت عند أصحابها أرخص من الهواء الذي يستنشقون، فما كان لأهل الكوفة أن يفروا من المعركة وهم ما حضروا إلا لنصرة أمير المؤمنين، وكيف يفرون وهم يرون الحق معهم؟ والفرار في نظرهم استسلام للباطل الذي مع خصمهم.

وما كان لأهل البصرة أن يتركوا أم المؤمنين وحيدة في الميدان، وهي قد لجأت إليهم ولاذت ببلدهم، وإنهم ليرون نصرتها نصرة لرسول الله ﷺ فكيف يفرون ويتركون أمهم أمام خصم عنيد؟ وقد كان حبهم لأم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ يدفعهم إلى الدفاع عنها حتى الموت، ويشهد لذلك ما رواه ابن جرير من أن رجالاً من الأزد أخذوا بعر الجمل وفتوه وشموه، وقالوا: بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك[1].

لقد كان الجمل في هذه المعركة رمزاً للتضحية، وصرخة بالملتفين حوله تحثهم على الثبات والصبر ومجالدة الخصم، ولهذا فقد اتفق رأي علي والقعقاع وبجير على أن الوسيلة الوحيدة لأنهاء هذه المعركة هي عقر هذا الجمل.

ولم يكد بجير بن دلجة ينفذ الخطة، ويضرب عرقوب الجمل فيهوي صريعاً، ولم يكد الهودج يسقط من فوق الجمل حتى تفرق الناس، وكأن الهودج هو الذي كان يشدهم جميعاً إلى القتال بغير تفكير ولا تدبير.

وليس المقصود من عقر الجمل هو إنهاء القتال فقط، ولكنه كان تعبيراً صادقاً عن المحافظة على حياة أم المؤمنين، حيث كان هودجها غرضاً اتخذه السبيئيون لرميهم، ولم يكن له من وراء ذلك غاية إلا قتل أم المؤمنين، والتخلص منها، وبخاصة وأنهم قد تخلصوا من طلحة والزبير، فلم يكن هناك من يخيفهم ويقلق بالهم إلا وجودها، فلو أنهم تخلصوا منها لخلا لهم الجو، ولم يعد هناك من يطلب بثأر عثمان منهم.

---

(١) الطبري (٤/٥٢٣).

صحيح أن وجود معاوية بالشام قد يعكر عليهم ذلك الحلم الجميل الذي يؤملون العيش فيه ولو إلى حين، ولكنهم كانوا يعتقدون أن معاوية لن يطلبهم إلا إذا طلبوه، وما داموا لم يحركوا إليه قوة، ولم يطلبوا منه بيعة، فإنه سيرضى بذلك، وسيقنع بحكم الشام حتى تحين فرصة التوسع.

ولكن عقر الجمل وسقوطه إلى الأرض قد أنهى المعركة من جهة، وفوت على السيئيين غرضهم وأحبط كيدهم الخبيث من جهة أخرى.

وبسقوط الجمل تفرق الناس، وانتهت المعركة، وأمر علي محمد ابن أبي بكر أن يحمل الهودج هو وعمار بن ياسر، ويخرجاه من وسط القتلى والجرحى، ويضربا على أم المؤمنين قبة[1].

وقال علي لمحمد بن أبي بكر انظر، هل وصل إليها شيء من الجراح، فنظر محمد إلى داخل الهودج وهي لم تعرفه، فقالت: من أنت؟ ويلك. قال: أنا أبغض أهلك إليك.

قالت: ابن الخثعمية؟ قال: نعم. قالت: بأبي أنت وأمي، الحمد لله الذي عافاك[2].

وقال لها عمار: كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أماه؟ قالت: لست لك بأم.

قال عمار: بلى وإن كرهت.

قالت عائشة: فخرتم إن ظفرتم، وأتيتم مثل الذي نقمتم، هيهات والله لن يظفر من كان هذا دأبه.

وأقبل وجوه الناس على عائشة ـ رضي الله عنها ـ وفيهم القعقاع ابن عمرو، فسلم عليها.

فقالت: إني رأيت بالأمس رجلين اجتلدا وارتجزا بكذا فهل تعلم كوفيك؟

---

(١) ابن كثير (٧/٢٤٥).

(٢) الطبري (٤/٥١٩).

قال القعقاع: نعم، ذلك الذي قال: أعقّ أم نعلم، وكذب، إنك لأبر أم نعلم ولكن لم تطاعي.

قالت: والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة[1].

وجاء علي بن أبي طالب إليهما مسلماً: كيف أنت يأماه؟ قالت: بخير، فقال يغفر الله لك، قالت: ولك[2].

ورأى علي القتلى يعدون بالآلاف فحزن وتألم لذلك ألماً شديداً، وقال لابنه الحسن يا حسن، ليت أباك مات منذ عشرين سنة فقال له الحسن: يا أبت، كنت أنهاك عن هذا، قال علي: يا بني إني لم أر أن الأمر يبلغ هذا، وضم الحسن إليه ثم قال: إنا لله يا حسن، أي خير يرجى بعد هذا[3].

لقد كان علي - رضي الله عنه - حقيقاً بأن يندم على ما كان، وكيف وهو يرى خيرة الناس قتلى في الميدان؟ فها هو ذا يقف على كعب بن سور ويقول: أزعمتم أنه خرج معهم السفهاء، وهذا الحبر قد ترون؟ ولما رأى عبد الرحمن بن عتاب قال: هذا يعسوب القوم لأنهم قد رضوه يجتمعون عليه لصلاتهم - ورأى طلحة بن عبيد الله صريعاً فقال: لهفي عليك يا أبا محمد إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى، أنت والله كما قال الشاعر:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وجعل كلما مر برجل قتيل فيه خير قال: زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء وهذا العابد المجتهد فيهم.

وقد بلغ عدد القتلى عشرة آلاف[4]، وقيل ثلاثة عشر ألفاً[5] نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب عائشة.

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٥٤).
(٢) الطبري (٤/٥٣٤).
(٣) ابن كثير (٧/٢٤١).
(٤) ابن الأثير (٣/٢٥٥).
(٥) ابن سعد (٣/٣٢).

قتل من ضبة ألف رجل، ومن بني عدي سبعون رجلاً حول الجمل كلهم قد قرأ القرآن(١).

والحق أن المعركة كانت رهيبة مفزعة، وقد وصفها من حضرها عن قرب فقالوا:

قال القعقاع: ما رأيت شيئاً أشبه بشيء من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين، لقد رأيتنا ندافعهم بأسنتنا، ونتكىء على أزجتنا، وهم مثل ذلك، حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلت بهم.

وقال عبدالله بن سنان الكاهلي: لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فنيت، وتطاعنا بالرماح حتى تكسرت، وتشبكت في صدورنا وصدورهم حتى لو سيرت عليها الخيل لسارت، ثم قال علي: السيوف يا بني المهاجرين، فما شبهت أصواتها إلا بضرب القصارين(٢).

وطارت أنباء المعركة إلى أهل المدينة عن طريق النسور، فقد مر بالمدينة قبل أن تغرب الشمس نسر يطوف بماء هناك، ورأى الناس معه شيئاً معلقاً، فلما سقط منه فإذا هو كف فيه خاتم منقوش عليه: عبد الرحمن ابن عتاب.

وعلم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة بما ينقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام وصلى عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ على القتلى من الفريقين، وأمر فدفنت الأطراف في قبر عظيم.

وجمع ما كان في المعسكر مما ترك القتلى، وبعث به إلى مسجد البصرة، وقال: من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان.

وسألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عمن قتل من الفريقين، فكلما نعى

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٥٦).

(٢) نفسه (٣/٢٥٩).

واحد من الجميع قالت: يرحمه الله، فقيل لها: كيف ذلك؟.

قالت: كذلك قال رسول الله ﷺ فلان في الجنة، وفلان في الجنة. وقال علي - رضي الله عنه: إني لأرجو ألا يكون أحد نقى قلبه لله من هؤلاء إلا أدخله الله الجنة[1].

وشيع علي - رضي الله عنه - عائشة، بعد أن جهزها بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر، وأذن علي لمن نجا من الجيش ممن كان قدم معها أن يرجع معها إلا أن يحب المقام.

فلما كان يوم الرحيل جاء علي فوقف بالباب، وحضر الناس، وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس، ودعت لهم، وقالت: يا بني، لا يعتب بعضنا على بعض أنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار.

فقال علي: صدقت والله، ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

وسار علي معها مشيعاً ومودعاً أميالاً، ثم سرح بنيه معها بقية اليوم، وكان ذلك يوم السبت غرة رجب سنة ست وثلاثين، واتجهت في مسيرها إلى مكة فأقامت بها إلى أن حجت في ذلك العام، ثم رجعت إلى المدينة - رضي الله عنها وأرضاها[2].

مواقف رائعة في معركة الجمل:

لما فرغ علي من معركة الجمل، وكانت الغلبة فيها له، أتاه القوم ورؤساؤهم يسلمون عليه، وكان فيهم الأحنف بن قيس حضر في بني سعد.

فلما رآه أمير المؤمنين عاتبه على ما كان منه من القعود عن نصرته،

---

(١) نفسه (٣/٢٦٠).
(٢) ابن كثير (٧/٢٤٦).

وكان الأحنف قبل المعركة قد عرض على أمير المؤمنين أن يقاتل معه بستة آلاف سيف أو يكف عنه عشرة آلاف سيف، فقبل منه علي أن يكف عنه عشرة آلاف سيف.

فاعتزل الأحنف، ونادى في قومه أن يعتزلوا ـ وكان فيهم مطاعاً ـ فاعتزلوا ولم يشترك أحد منهم في القتال، فلما جاء مسلِّماً عاتبه أمير المؤمنين، فقال الأحنف: ما كنت أراني إلا قد أحسنت، وبأمرك كان ما كان يأمير المؤمنين، فارفق فإن طريقك الذي سلكت بعيد، وأنت إليَّ غداً أحوج منك بالأمس، فاعرف إحساني، واستبق مودتي لغد، ولا تقل مثل هذا فإني لم أزل لك ناصحاً.

وجاء عبد الرحمن بن أبي بكرة فسلم عليه، وسأله علي عن أبيه، فقال هو والله مريض يا أمير المؤمنين وإنه على مسرتك لحريص، فقال له علي: امش أمامي، فمشى عبد الرحمن حتى بلغ المكان الذي يقيم فيه والده، فعاده علي، واعتذر أبو بكرة عن قعوده وأنه كان بسبب مرضه، وقبل علي عذره.

وعرض عليه أن يوليه البصرة، ولكنه رفض وأشار عليه أن يولي ابن عباس فإنه رجل من قرابة أمير المؤمنين، ويسكن إليه الناس ففعل، وولى زياد ابن أبيه الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع له ويطيع[1].

ودخل بيت عبدالله بن خلف ـ وهو من أعظم بيوت البصرة ـ وكان قد أنزل فيه عائشة ـ رضي الله عنها ـ فلما دخل قالت صفية أم طلحة الطلحات وزوج عبدالله بن خلف: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي، فلم يرد عليها بشيء.

وسلم أمير المؤمنين على أم المؤمنين، ورحبت به، وهم بالخروج فأعادت إليه صفية مقالها ولم يرد عليها فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أتسكت على هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟.

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٥٦).

فقال علي: ويحك إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات، أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟[1]

وجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن على الباب رجلين ينالان من عائشة قال أحدهما: جزيت عنا أمنا عقوقاً، وقال الآخر: يا أمي توبي فقد أخطأت.

فبعث علي القعقاع بن عمر، فأمسك بالرجلين وهما: عجلان وسعد ابنا عبدالله، فضربهما مائة سوط، وأخرجهما من ثيابهما[2].

تلك مواقف رائعة من أمير المؤمنين، فيها يتجلى حلم أمير المؤمنين وصفحه، وفيها عبقريته السياسية حين عرض على أبي بكرة إمارة البصرة، وأبو بكرة من الصحابة الذين نزلوا البصرة مبكرين عند تأسيسها فهو إذن أعلم بها وبما يصلحها من غيره فإذا تولى إمرتها أحسن إدارتها، وساسها بما يصلحها ويصلح أهلها، فلما اعتذر أبو بكرة أخذ علي رأيه فيمن يوليها، وهو لا شك يحسن الاختيار، ويرشح لها من هو أقدر على تسيير الأمور فيها، فأشار بتولية ابن عباس، فأخذ بها علي وولى ابن عباس إمارة البصرة، واختار مع ابن عباس زياد بن أبيه، وهو ممن اعتزل القتال ولم يشترك فيه، ولعل أمير المؤمنين قد اختار زياداً ليكون مساعداً لابن عباس، وعينه على الخراج وبيت المال، ليعيد بذلك الطمأنينة لأهل البصرة، ويهدىء من روعة الحرب التي أخذتهم، فإن الغالب في مثل هذه الحال أن يولي المنتصر رجالاً يقهرون الذين كادوا له ووقفوا في طريقه ليذلهم ويذيقهم عاقبة تمردهم وعصيانهم.

فإذا اختار أمير المؤمنين بعد انتصاره رجلاً محايداً لم يشترك من قريب ولا من بعيد، ولم يناصر أحد الطرفين المتنازعين فليس لذلك معنى إلا أنه يريد الإنصاف، ويحرص على استقرار الأمور ولا يقصد مطلقاً الانتقام والتشفي وفي تولية زياد ـ ذلك الرجل المحايد ـ الخراج وبيت المال دليل واضح على أن أمير المؤمنين لا يريد الدنيا ولا يسعى لها، وذلك كله مما يؤدي إلى إعادة

---

(١) ابن كثير (٧/٢٤٦).

(٢) ابن الأثير (٣/٢٥٧).

الطمأنينة إلى النفوس، ويمكن الناس من القيام بواجباتهم وهم آمنون على مستقبلهم.

وبقدر ما في هذه المواقف من الحنكة السياسية البارعة فإن فيها كذلك احتراماً لحق الغير في الاجتهاد والمحافظة على حرمات المسلمين، فإن أمير المؤمنين قد بذل جهده في تبصير الخارجين عليه، وأعلن أنه لا يريد إلا الصلح وجمع شمل المسلمين، وبعد أن تم له النصر لم يزفف على جريح، ولم يقتل مدبراً، ولم يسلب مالاً، ولم يهتك ستراً ولولا أنه يعرف أن هؤلاء مجتهدون، وأنهم مأجورون حتى على خطئهم لما عاملهم هذه المعاملة التي تدل على تقدير للموقف من جوانبه المختلفة وخاصة بعد انتصاره عليهم.

وفي جلده للرجلين اللذين نالا من أم المؤمنين - رضي الله عنها - محافظة على حرمات المسلمين وإن جاهروا بالعداء، وإن أعلنوها حرباً شعواء، فحرمة المؤمن لا يبيحها اختلاف الرأي، ولا يحلها التنازع مهما بلغ مداه، وإنما يبيحها شيء واحد فقط هو ارتكاب ما يوجب الحد، فكل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه، والخطأ فى الاجتهاد ليس مما يحل دم المسلم أو عرضه أو ماله، لأن صاحبه مأجور عليه، فكيف يجمع له بين الأجر والوزر على شيء واحد؟.

إن الخصومة بين علي وطلحة والزبير وأم المؤمنين - رضي الله عنهم أجمعين - لم تكن خصومة حزبية أوحت بها عصبية قبلية أو نزعة طائفية، وإنما كانت غضبة للحق، وطلباً لتصحيح وضع خشي الجميع أن يظل مقلوباً بقتل عثمان - رضي الله عنه - ولهذا لم يستبح أحد من زعماء الطائفتين النيل من الطرف الآخر أو التحقير من شأنه، بل حفظ كل منهما للآخر سابقته في الإسلام، وصحبته لرسول الله ﷺ وحرمته التي شمله بها الإسلام في دينه وعرضه وماله.

وموافه [illegible] ة:

كانت موقعة الجمل موقعة رهيبة مخيفة، صبر فيها الفريقان صبراً لم يعهد في موقعة عسكرية قبلها ولا بعدها، ولعل إيمان كل منهما بأنه على

الحق هو الذي جعل المعركة تصل إلى هذا الحد من الشراسة والضراوة.

وبرغم ما اتسمت به المعركة من العنف، وبرغم ما وصفت به من بدايتها إلى نهايتها من القسوة والشدة، فإنه قد كان فيها أمور تثير الدهشة والعجب، وأخرى تثير الضحك.

وسأذكر هنا مواقف لكلا الفريقين من كلا النوعين.

١ ـ حكيم بن جبلة: من أصحاب علي، وهو ممن خرجوا على عثمان من أهل البصرة، فلما قدم طلحة والزبير إلى البصرة واعتدى من معهما على عثمان بن حنيف، خرج حكيم غاضباً وقال: لست أخاف الله إن لم أنصره، وجاء في جماعة من عبد القيس ومن تابعه من ربيعة.

والتقى بعبدالله بن الزبير فقال له: ماذا تريد يا حكيم؟ قال: نريد أن نأخذ حقناً من الزرق، وأن تتركوا عثمان يقيم في بيت الإمارة حتى يأتي علي، وايم الله لو أجد عليكم أعواناً ما رضيت منكم بهذه حتى اقتلكم بمن قتلتم من البصرة.

ووجه كلامه لابن الزبير فقال: بم تستحلون الدم الحرام؟ أما تخشون الله؟ أما تخافون غضبه؟ فقال له عبدالله: لا أطعمك من هذا الرزق ولا نخلي سبيل عثمان حتى تخلع علياً.

فغضب حكيم وقال: اللهم إنك حكم عدل فاشهد، وقال لأصحابه: لست في شك من قتال هؤلاء القوم، فمن كان في شك فلينصرف[١].

وتقدم حكيم فقاتل وتصدى له طلحة بن عبيد الله، وجعل حكيم يضرب بالسيف وهو يقول:

أضربهم باليابس ضرب غلام عابس
من الحياة آيس في الغرفات نافس[٢]

---

(١) ابن الأثير (٣/٢١٨).
(٢) الطبري (٤/٥٢٤).

وانقض رجل على حكيم فضرب رجله فقطعها، فزحف إليها حكيم حتى أخذها وضرب بها من قطعها فصرعه، ثم زحف إليه فقتله، واتكأ عليه، وأنشد:

يا ساق لن تراعي إن معي ذراعي
أحمي بها كراعي

ثم قال:

ليس عليّ أن أموت عار والعار في الناس هو الفرار
والمجد لا يفضحه الدمار

فمر به رجل وهو واضع رأسه على رجلٍ ميت فسأله: مالك يا حيكم؟

قال: قتلت. قال من قتلك؟ فأجاب في سخرية لاذعة وقال: وسادتي[1].

٢ ـ عمير بن الأهلب الضبي: كان من المحاربين مع أهل البصرة، وجرح في القتال جراحة خطيرة، فمر به رجل من آهل الكوفة، وهو يتألم مما به من الجراحة، ويفحص برجله الأرض لشدة ما يلقى ويقول:

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا فلم ننصرف إلا ونحن رواء
لقد كان عن نصر ابن ضبة أمه وشيعتها مندوحة وغناء
أطعنا بني تيم بن مرة شقوة وهل تيم إلا أعبد وإماء

فقال الكوفي: يا عبدالله، قل: لا إلّه إلا الله.

فقال عمير: أدن مني ولقني فإن في أذني وقراً.

قال فدنوت منه، فقال لي: من أنت؟ قلت: رجل من أهل الكوفة فوثب علي، فاصطلم أذني.

ثم قال: إذا لقيت أمك فأخبرها أن عمير بن الأهلب الضبي فعل بك هذا[2].

٣ ـ عمار بن ياسر: وهو من المؤيدين لأمير المؤمنين ـ علي بن أبي

---

(١) ابن الأثير (٣/٢١٨).

(٢) الطبري (٤/٥٢٤).

طالب - وكان من المبارزين الشجعان رغم كبر سنه، فقد بلغ التسعين في وقعة الجمل، ومع ذلك لم يمنعه كبر سنه وضعف جسمه من المبارزة والخروج للشجعان.

ولعمار - رضي الله عنه - موقفان رائعان مثيران لا يقل أحدهما في روعته وتأثيره عن الآخر، وإن اختلفا في نتيجتهما.

فأما أحدهما فمع الزبير بن العوام - رضي الله عنه - فقد برز كل منهما للآخر وتصاولا وجعل عمار ينخره بالرمح، والزبير كاف عنه، ويقول له: أتقتلني يا أبا اليقظان فيقول له عمار: لا يا أبا عبدالله.

وَلي على هذه الرواية تعليق في كلمتين: الأولى أن الروايات الصحيحة أثبتت أن الزبير - رضي الله عنه - قد ترك القوم ورجع قبل بداية المعركة، وذلك حين ذكره علي - رضي الله عنه - بقول الرسول ﷺ: «لتقاتلنه وأنت له ظالم».

عندئذ قال الزبير: ما ذكرت هذا منذ قاله الرسول إلا الآن، ولو ذكرت ذلك ما سرت مسيرتي هذه، وقال: والله لا أقاتلك أبداً وانصرف.

الثانية: إن الزبير - رضي الله عنه - يعلم أن عمار قاتل الفئة الباغية، وما دام قد انضم إلى علي فإن الفئة التي تقاتله، وهي فرقة الزبير هي الفئة الباغية، ولهذا ذكر صاحب الكامل أن الزبير عاد عن القتال لما سمع أن عمار مع علي فخاف أن يقتل عماراً وقد قال النبي ﷺ: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية».

على كل حال فقد رجع الزبير عن القتال قبل بداية المعركة سواء عندما ذكره علي أم عندما علم بأن عمارا في فئة علي، فكيف تمت بينهما المبارزة؟ أغلب الظن أن الرواية ليست صحيحة أو دخل عليها شيء من التحريف.

أما الموقف الثاني فكان مع عمرو بن يثربي الضبي، وذلك حين أخذ عمرو زمام الجمل وأنشد:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل   ننزل بالموت إذا الموت نزل
القتل أحلى عندنا من العسل   ننعي ابن عفان بأطراف الأسل

ثم ارتجز قائلاً:

أنا لمن أنكرني ابن يثربي   قاتل علباء وهند الجملي
وابن الصوحان على دين علي

ثم قال: من يبارز؟ فبرز له رجل فقتله، ثم برز له آخر فقتله.

ويبدو أن الرجل قد أخذته نشوة النصر فنسى نفسه، وارتجز يهدد بقتل علي حين قال:

أقتلهم وقد أرى عليا   ولو أشا أوجرته عمريا

حينئذ برز له عمار بن ياسر، وإنه لأضعف من بارزه، حتى استرجع الناس حينما رأو عمارا ينزل للرجل وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، ليلحق عمار بأصحابه.

يقول الراوي: وكان عمار قضيفاً ـ دقيق العظم قليل اللحم ـ حمس الساقين ـ يعني دقيقهما وعليه سيف حمائله تشف عنه، قريب من أبطه[1].

ونادى عمار الرجل: لقد عذت بحريز، وما إليك من سبيل، فإن كنت صادقاً فاخرج من هذه الكتيبة إليّ.

فترك عمرو بن يثربي الزمام في يد رجل من بني عدي، وبرز حتى وقف بين الصفين، وتقدم عمار وهو ابن تسعين سنة ـ وقيل أكثر من ذلك ـ عليه فرو قد شد وسطه بحبل ليف.

وضرب ابن يثربي عماراً فاتقاه بدرقته، فنشب فيها السيف، وحاول ابن يثربي أن يخرجه فعجز وقصد عمار بسيفه رجليه وضربه فقطعهما فوقع مقعياً[2].

وأوهط عمار الرجل، وضربه أصحاب علي ـ رضي الله عنه ـ بالحجارة

---

(١) الطبري (٤/٥٣١).
(٢) ابن الأثير (٣/٢٤٨).

حتى أثخنوه وارتثوه، وحمل أسيراً إلى علي، فقال: إستبقني.

فقال علي: أبعد ثلاثة تقبل عليهم بسيفك تضرب به وجوههم؟ ثم أمر به فقتل[1].

حصاد المعركة:

كان حصاد هذه المعركة مراً وأليماً بالنسبة للفريقين المنتصر منهما والمنهزم على حد سواء، فقد قتل من الفريقين ما يجعل نتيجة المعركة خيبة أمل حتى ولو كانت الانتصار، فما قيمة الانتصار بعد أن يفقد المسلمون عشرة آلاف مقاتل من خيرة شبابهم وشيوخهم؟ وما فائدة هذا الانتصار وفي كل بيت من بيوت المسلمين مأتم وعويل؟ ولو أن هذا العدد قتل في غزو المسلمين أعداءهم لكان للمسلمين عزاء في قتلاهم بالشهادة في سبيل الله، ولكان لهم عنه سلوى بما أحرزوه من إعلاء كلمة الله ولكن ما عزاء المسلمين في هذه المعركة؟ وكيف يتسلون عن فقد الأحبة من كبار الصحابة وأجلاء التابعين وهم يقتل بعضهم بعضاً؟.

وإن أصدق تعبير عن هذه المأساة التي يتجرع مرارتها المسلمون هو قول طلحة بن عبيد الله حين سأله علقمة بن وقاص، وقد رآه مطرقاً يفضل الخلوة، ويبتعد عن الاختلاط فقال له علقمة: يا أبا محمد، أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك على صدرك، إن كرهت شيئاً يطلب فاجلس، وأجاب طلحة: يا علقمة، بينما نحن يد واحدة على من سوانا إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً[2].

أي والله، هذا هو البلاء المبين، لقد كان المسلمون يداً واحدة في وجه كل عدو لدود للإسلام فأصبحوا اليوم جبلين من حديد يطلب كل واحد منهما الآخر ليفتك به، إن قوة المسلمين كامنة في وحدتهم، وقدرتهم على مواجهة أعدائهم موقوفة على تكتلهم واعتصامهم بحبل الله، فإذا ما تفرقوا

---

(١) الطبري (٤/٥١٩).

(٢) ابن الأثير (٣/٢٢٠).

كانوا أهون على عدوهم من الذباب، وأضعف في نظره من الذر.

إن وحدة المسلمين كانت أشد على عدوهم من السلاح، وأفتك به من الموت، فإذا تمزقت وحدتهم تصدعت قوتهم، إنهم بهذه الفرقة المدمرة قد راحوا عدوهم من طلبهم أو الدخول معهم في معركة ليسترد ما سلبوه من ملكه، ويستعيد هيبته في بلاده، نعم، إنه ليس في حاجة إلى ذلك فقد كفته فرقة المسلمين واختلافهم مؤونة كل ذلك.

لقد كان حصاد هذه المعركة المؤسفة عشرة آلاف قتيل على أقل تقدير: ألفان من الأزد، وخمسمائة من سائر اليمن، وألفان من مضر، وخمسمائة من قيس، وخمسمائة من تميم، وألف من ضبة وخمسمائة وسبعون شيخاً من بني عدي كلهم قد قرأ القرآن هذا عدا الشباب ومن لم يقرأ القرآن(1).

وبقية الآلاف العشرة من القبائل المختلفة، فأي خير يرجى بعد هذه المأساة؟.

ونحن إذا تأملنا هؤلاء القتلى فوجدنا بينهم طلحة بن عبيد الله الذي سماه الرسول ﷺ طلحة الخير، والزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ ومحمد بن طلحة المعروف بالسجاد لأثر السجود في وجهه من طول سجوده لله، وكعب بن سور قاضي البصرة الذي وصفه علي بن أبي طالب رغم موقفه ضده بقوله: والله إنك ـ ما علمت ـ كنت صليباً في الحق قاضياً بالعدل(2)، وهؤلاء السبعين الذين قرأوا القرآن، إلى غير هؤلاء وأولئك، فما ترى أن يكون المصير بعدئذ؟

إن أسوأ ما يقع فيه المسلمون بعد هذه المعركة أن تستمر هذه الفرقة، وأن يظل نهر الدم الذي نبع من البصرة في فيضانه فلا يجف ولا يتوقف، ولا تكون هناك فرصة لأولياء هذا الدم أن يعفوا ويصفحوا، ويمدوا أيديهم ليتصافحوا.

---

(1) الطبري (٥٣٩/٤).
(2) نفسه ٥٢٨.

إن هذه الدماء التي أهدرت ليس لنا فيها عزاء حتى ولو كان أصحابها من الشهداء، إلا أن يقلع الفريقان عما تورطا فيه من تلك الفتنة العمياء، وإلا أن يتوقف هذا النزيف الذي أنهك قوة الأمة التي أرهبت أعداء الله بتماسكها، وارتباطها بالوحدة التي فرضها عليهم الإسلام.

والذي يبدو للباحث بعد انتهاء موقعة الجمل بهذه النهاية المفجعة، وبعد دخول أهل البصرة في الطاعة أن الموقف قد انجلى، وأن الفتق قد رتق، وأن الصف قد التأم.

لهذا بادر علي ـ رضي الله عنه ـ فأخذ البيعة ممن لم يبايع من قبل، فقد دخل البصرة يوم الاثنين، وجاء الناس على رايتهم، فبايعوه، ولم يتخلف عن هذه البيعة أحد حيث حضر الجرحى والمستأمنون فأعطوا البيعة غير مكرهين[١].

وكان نص البيعة كما يأتي: عليك عهد الله وميثاقه بالوفاء، لتكونن لسلمنا سلماً، ولحربنا حرباً، ولتكفن عنا لسانك ويدك[٢].

وكتب علي ـ رضي الله عنه ـ إلى أهل الكوفة بواسطة عامله عليها يبشرهم بانتصاره على أهل البصرة من عبدالله عليٍّ أمير المؤمنين، أما بعد.

فإنا التقينا في النصف من جمادي الأخرة بالخريبة ـ فناء من أفنية البصرة ـ فأعطاهم الله ـ عز وجل ـ سنة المسلمين، وقتل منا ومنهم قتلى كثيرة، وأصيب ممن أصيب منا ثمامة بن المثنى، وهو ابن عمرو، وعلياء ابن الهيثم، وسيحان ويزيد ابنا صوحان، ومحدوج[٣].

وأرسل أمير المؤمنين زفر بن قيس بهذه الرسالة إلى الكوفة في جمادي الأخرة سنة ست وثلاثين.

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٥٦).
(٢) الطبري (٤/٥٤٣).
(٣) نفسه ٥٤٢.

ولما فرغ علي من بيعة أهل البصرة، ودان له الجميع بالطاعة، وأعطوه ولاءهم، نظر في بيت المال، فوجد فيه ستمائة ألف أو تزيد، فقسمها على من حضر معه المعركة، فخص كل واحد منهم خمسمائة، ومنّاهم بمثلها إن أظفرهم الله بالشام زيادة على أعطياتهم[1].

وأراد علي أن يقيم بالبصرة أياماً ليصلح من أحوالها، ويدبر شؤونها، حتى إذا ما تركها تركها وهو مطمئن على ولائها وطاعة أهلها، ولكن السبئيين قد أعجلوه عن المقام بها، فإنهم ارتحلوا دون أن يستأذنوه، فخاف أن يحدثوا أمراً يفسدون به تدبيره، فأمر بالتعجيل والسير في أثرهم ليفسد عليهم خطتهم قبل أن يفسدوا عليه أمره[2].

تحليل وتعليق

هذه هي وقعة الجمل، وهي كما رأينا قد فتحت باباً على المسلمين كان مغلقاً، فأوردتهم موارد ليس لهم بها عهد، لقد كان المسلم قبل تلك الواقعة يرى أن حمل السلاح على أخيه المسلم يؤدي به إلى النار التي فر منها بدخوله في الإسلام، وكان المسلم يفرق كلما سمع قول الرسول ﷺ «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار»[3].

ولكننا رأينا بعد تلك المعركة كيف اجترأ المسلم على المسلم، وشاهدنا كيف كان يرى بعضهم أن قتله بسيف أخيه المسلم يفضي به إلى الجنة التي طالما اشتاق إليها، حتى كان استقرار هذا المعنى في نفوسهم من أعظم أسباب الثبات والصبر في القتال.

ولقد تناول المؤرخون تلك الوقعة من جوانبها المختلفة، ودس بعضهم فيها أقوالاً كاذبة لا دليل لهم عليها، ووضع بعضهم الأحاديث ونسبوها إلى

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٥٩).
(٢) الطبري (٤/٥٤٣).
(٣) رواه أبو داود والنسائي.

رسول الله ﷺ كذباً وافتراء، ودبج بعضهم خطباً نسبوها إلى أمير المؤمنين في ذم البصرة ومدح الكوفة والثناء على أهلها، بل حتى على أرضها وسمائها ومائها كما وجد فيها المستشرقون مادة دسمة لنفث سمومهم، وتشويه التاريخ الإسلامي وتسويد صفحاته البيض بما أبرزوه من معالمها، وحملوه على غير وجهه الصحيح.

والحق يقال إن الوقعة أليمة ومبرحة ولم يقر ما وقع فيها من الأحداث أحد من كبار الفريقين بل كلهم كان في نفسه شيء منها، وكان زعماؤها من الفريقين لا يدرون أين موقع أقدامهم منها، ولكنه الاجتهاد في طلب الحق والوقوف في صفه دون أن يكون لدى أحد حجة واضحة أو دليل قاطع. وحتى هذه الحجة القطعية الواضحة التي جاءت في قول رسول الله ﷺ لعمار ابن ياسر، (تقتلك الفئة الباغية)[1] تأولها بعضهم فأوهن حجيتها، وشكك في المراد منها.

وأحب أن أقول قبل البدء في تحليل الأحداث والتعليق عليها، وأحب أن أؤكد القول في ذلك، أن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين - رضي الله عنهم أجمعين - بشر ككل البشر وليسوا معصومين عن الخطأ، فكل ما يقع منهم موافق للشرع فهو من توفيق الله - عز وجل - أولاً، ثم من حرصهم على تحري الحق ثانياً، وكل ما يقع منهم مخالفاً لقواعد الشرع سواء منها التشريعية أو الأخلاقية فهو محمول على الخطأ الذي يجوز على كل إنسان غير معصوم، وبخاصة إذا كان في المسألة احتمال للتأويل والاجتهاد.

ولا يفوتني هنا أن أذكِّر بأن المجتهد مأجور حتى على خطأه غير أنه يكون على النصف من أجر المجتهد المصيب.

ونحن إذا تصورنا الصحابة شيئاً آخر غير بني آدم نقع في خطأ عظيم، لأن ذلك يؤدي أولاً إلى مخالفة الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم حين يؤكد

---

(١) رواه أحمد في المسند.

على بشرية الرسول ﷺ ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلٰهكم إلٰه واحد﴾[1]، وتلك الحقيقة كما تسري على الرسول تسري على أصحابه الذين نصروه وعظموه، وثانياً يؤدي ذلك التصور إلى استحالة وقوع الخطأ منهم في نظرنا، فإذا حدث ووقع الخطأ منهم أو من بعضهم، ينشأ عن ذلك تصور آخر أشد خطأ من الأول وهو خروجهم على الإسلام، وتمردهم على أصوله وتعاليمه.

ومعاذ الله أن يكون من الصحابة الذين أثنى عليهم القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾[2].

وقد حذرنا الرسول ﷺ من الوقوع فيهم بقوله: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[3] وقوله ـ عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[4].

والذي يخرجنا من هذا التصور الخاطىء هو اعتقادنا أن الصحابة ومن تبعهم بإحسان بشر مثلنا، وهم غير معصومين يجوز عليهم الخطأ كما يجوز على كل البشر، وحينئذ نستطيع أن نقبل ما يحدث في تصرفاتهم من أخطاء غير مقصودة، وإنما وقعت نتيجة اجتهاد لم يوفقوا فيه إلى الصواب.

وانطلاقاً من هذه القاعدة التي يجب أن تكون أساساً للبحث في هذا الموضوع وأمثاله أتناول الموضوع بالتحليل والتعليق سائلاً المولى ـ جل

---

(١) سورة الكهف الآية ١١٠.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه مسلم.

وعلا ـ أن يلهمني الصواب ويجنبني الخطأ إنه سميع مجيب.

وينبغي هنا تقرير الحقائق التي ستكون موضع التحليل والتعليق ليتضح الأمر، وتتجلى خفاياه وتظهر المواقف بالشكل الذي يجب أن تكون عليه.

لا شك أن خروج أم المؤمنين عائشة ـ ومن كان معها سواء من الصحابة أم من غيرهم إلى البصرة وقيامها في هذا الأمر بتلك الصورة أمر لم يكن لها أن تقع فيه، وكان الأولى بها أن تلزم بيتها ولا تتحمل تبعة هذا الأمر الخطير، وكان يسعها ما وسع غيرها من أمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ ولا شك أنها كانت مقدرة تماماً لما يترتب على خروجها من تجمع الناس حولها، وذبهم عن جملها، وتحمسهم للدفاع عنها مما قد يؤدي إلى إزهاق الأرواح، وانتهاك حرمات المؤمنين وإهدار الحصانة التي فرضها الإسلام على هذه الدماء الذكية، ثم إنها لم تكن من أولياء هذا الدم وحتى لو كانت من أوليائه فما دام هناك من الرجال الأقوياء القادرين على المطالبة به، والقائمين فعلاً على ذلك فلا يجوز لها أن تورط نفسها، بل تدع الأمر لذويه، وأقصى ما يمكن أن تعمله لو كانت من أولياء الدم أن تحث الرجال على الجد في المطالبة به، وكذلك طلحة والزبير فإنهما ليسا من أولياء الدم وليسا من المطالبين أمام الله ـ عز وجل ـ ولا أمام الشرع بشيء لو قعدوا عن المطالبة بدم عثمان فخروجهم في جيش من المسلمين للمطالبة بما ليس من حقهم أمر غير مستساغ ولا مقبول عند أحد من علماء المسلمين وثقاتهم، وقد قعد كثير من الصحابة والتابعين عن الاشتراك في هذه الفتنة فكان الأولى بهؤلاء وهم من أجلاء الصحابة والسابقين إلى الإسلام أن يلزموا بيوتهم ويكفوا أيديهم.

ولقد كان لأم المؤمنين أسوة حسنة في بقية الأمهات، فإنهن عندما علمن بأن عائشة سائرة إلى البصرة أبين المسير معها، غير حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنهما ـ فأنها قد عزمت على السير معها حتى ردها أخوها عبدالله عن مسيرها فأرسلت واعتذرت لها.

وكانت أم المؤمنين ـ أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أصرح الناس في

عتابها لعائشة حين خرجت مع طلحة والزبير إلى البصرة، فلم تهادنها، ولم تسكت على خروجها في غير وجه شرعي بل كتبت إليها وذكرتها بواجبها في مثل هذا الموقف المشتبه فقالت: أما بعد فإنك سدة بين رسول الله وبين أمته، وحجابك مضروب على حرمته، قد جمع القرآن الكريم ذيلك فلا تندحيه، وسكن عقيرتك فلا تصحريها، الله من وراء هذه الأمة، قد علم رسول الله ﷺ مكانك لو أراد أن يعهد إليك، وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع.

حماديات النساء غض الأبصار وضم الذيول، ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضها بأطراف الجبال والفلوات على قعود من الإبل من منهل إلى منهل؟

إن بعين الله مهواك، وعلى رسول الله ﷺ تردين وقد هتكت حجابه الذي ضرب الله عليك، وتركت عهيداه، ولو أتيتُ الذي تريدين ثم قيل لي ادخلي الجنة لاستحيت أن ألقى الله هاتكة حجاباً قد ضرب عليّ، فاجعلي حجابك الذي ضرب عليك حصنك، فابغيه منزلاً لك حتى تلقيه فإن أطوع ما تكونين إذا ما لزمته، وأنصح ما تكونين إذا قعدت فيه ولو ذكرتك كلاماً قاله رسول الله ﷺ لنهشتني نهش الحية، والسلام[1].

وصلت هذه الرسالة إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي لم تصل بعد إلى البصرة، ولو أنها ـ استجابت لنداء أم سلمة، ورجعت إلى المدينة لسكنت الفتنة، وانصرف الناس، ولم يكن لهم ما يتجمعون حوله، ولكنها ردت على الرسالة بأدب جم، وقبول حسن، ثم بينت عذرها في المسير فقالت: ما أقبلني لوعظك، وأعلمني بنصحك، وليس مسيري على ما تظنين، ولنعم المطلع مطلع فزعت فيه إليَّ فئتان ـ متناجزتان، فإن أقدر ففي غير حرج، وإن أحرج فلا غنى بي عن الازدياد منه والسلام[2].

---

(١) الطبري (٤/٤٥١).

(٢) ابن قتيبة الإمامة والسياسة (١/٥٦، ٥٧).

إن رد أم المؤمنين على رسالة أم سلمة ـ رضي الله عنهما ـ يدل على أن السيدة عائشة ما خرجت تبغي فتنة، ولا تريد وقيعة، ولكنها رأت أن المسلمين يطالبون بدم الخليفة المظلوم، وقد لجؤوا إليها يطلبون عونها في ذلك، وقد أفهموها أن خروجها معهم سيعينهم على الاقتصاص من قتلة عثمان، وأن وجودها معهم سيجمع الناس حولهم فيتمكنون من الأخذ بثأره، وقد رأت هي ـ رضي الله عنها ـ أن الكلام وجيه، وأن خروجها سيمكن المطالبين بدم عثمان من القضاء على المتمردين، وردعهم عن التفكير في مثل تلك الفتنة الهوجاء التي أوقعوا فيها المسلمين بقتل إمامهم، والاجتراء على منصب الخلافة المصون الذي لم يجترىء عليه أحد من قبل.

إن قول أم المؤمنين ـ عائشة: ولنعم المطلع مطلع فزعت إليَّ فيه فئتان متناجزنان يدل على أنها كانت تعتقد أن خروجها قد يؤدي إلى تحكيمها فتفصل بين طائفتين متنازعتين وتحسم الأمر، ويرجع المتنازعون إلى الحق، وبذلك تكون قد أسدت إلى المسلمين خدمة جليلة بخروجها، فإذا آل الأمر إلى غير ما قصدت الخروج له فليس الذنب ذنبها وإنما ذنب المؤلِّبين المارقين.

وأما أمير المؤمنين ـ علي ـ فهو الخليفة الشرعي، ومن حقه أن يناجز من خرج على خلافته أو حاول إشعال فتنة في صفوف المسلمين، لهذا فهو ليس بملوم على مواجهته للخارجين.

ونحن لو نظرنا إلى الموقف برمته من حيث الدوافع والمبررات التي دعت كلا الفريقين للوقوف في هذا الموقف الحرج لوجدنا لكل منهما ما يبرر خروجه، ولتأكد لنا أن كلاً منهما لم يخرج لحرب ولا لقتال.

لقد كان لأم المؤمنين وطلحة والزبير في عثمان ـ رضي الله عنه ـ كلام ورأي، فلما قتل دون أن يدفعوا عنه أو يقفوا إلى جواره في محنته شعروا بالتقصير، وعضهم الندم، وأدركوا أن قتل الخليفة كان بسبب كلامهم وعدم مناصرتهم، فدفعهم هذا الشعور إلى النهوض ليكفروا عما بدر منهم من خطأ

في حق الخليفة، وقد كانوا يرون أنه لن يكفر هذا الذنب إلا أن يقتلوا قتلته أو يموتوا دون ذلك.

فهذا طلحة بن عبيد الله يصرح بذلك فيقول: إنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يسفك دمي في طلب دمه(١).

والزبير بن العوام يرى أنها فتنة، وأنه لا يعرف موضع قدمه منها، ولا يدري أمقبل هو أم مدبر فيها(٢).

وهذه أم المؤمنين عائشة ـ وقد لامها عبيد ابن أبي سلمة المشهور بابن أم كلاب حين طالبت بدم عثمان، رغم أنها كانت من الناقمين عليه تقول: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا: وقولي الأخير خير من قولي الأول(٣).

وهكذا نرى أن الشعور بالتقصير، والندم على ما فرط في حق الخليفة الثالث ـ عثمان ـ كان من أهم الدوافع التي جعلت هؤلاء يخرجون للمطالبة بدم عثمان، وليس معنى هذا أنني أبرىء هؤلاء أو غيرهم من وجود نزعات نفسية كانت أيضاً من أسباب ذلك الخروج فقد كان طلحة والزبير يطمعان في أن يكونا واليين، وطلبا أن يوليهما البصرة والكوفة، ولكن علياً قد رفض ذلك، وولى البصرة عثمان بن حنيف، وولى الكوفة أبا موسى الأشعري.

ويرى بعض المؤرخين أن هذا العمل من على ضعف في السياسة، وعدم خبرة في تثبيت الإدارة، وأن تولية طلحة والزبير لم يكن ليضر علياً بشيء، بل كان سيدعم مركزه، ويقوي وضعه في أنحاء الدولة الإسلامية.

والحق أن علياً كانت له وجهة نظر سياسية تخالف وجهة نظر الذين انتقدوه فهو أحس بأن طلحة والزبير كان كل منهما يتطلع إلى الخلافة، فلما آلت إلى علي خشي إن هو ولاهما شيئاً أن يؤلبا عليه في هذه المناطق التي

---

(١) ابن الأثير سي(٣/ ٢٢٠).

(٢) نفسه.

(٣) الطبري (٤/ ٤٥٩).

كانت تعتبر من أهم مراكز القوى الإسلامية في ذلك الحين، لهذا استبقاهما كوزيرين له يستشيرهما ويأخذ برأيهما[1].

على أن ما يحدث في نفس الإنسان أحياناً من الغضب على إنسان آخر أو الحقد عليه شيء فطري لا يعاب به الإنسان، وإنما يعاب الشخص إذا نفذ ما يترتب على ما في نفسه من الغضب أو الحسد، وحتى إذا نفذ ذلك فإنه إنسان غير معصوم لا يستحيل عليه أن يقع في خطأ أو يرتكب ذنباً، وأعود فأذكر بالقاعدة التي انطلقنا منها إلى هذا التحليل.

وطلب الرئاسة أو التطلع إلى منصب كبير ليس مما يعاب به الإنسان وبخاصة إذا آنس من نفسه الكفاءة التي تمكنه من القيام به، وقدوتنا في ذلك نبي الله ـ يوسف ـ عليه السلام ـ فقد قال لعزيز مصر: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾[2] ولا شك أن طلحة والزبير كلاهما كفء لتولي الخلافة وإدارة دفة الدولة الإسلامية كما ينبغي، وهما وإن لم يجربا في ذلك إلا أن شعور كل منهما بكفاءته يخول له حق المطالبة بما يتطلع إليه.

ولهذا كان جواب الزبير ـ رضي الله عنه ـ حين قال له أمير المؤمنين ـ علي ـ ما أخرجك؟ قال: أنت، ولا أراك بهذا الأمر أولى به مني[3].

هذا وإن لدينا من الشواهد والأدلة من كلام الطرفين شيئاً كثيراً رواه الثقات من المؤرخين يؤيد أن الفريقين لم يكن أحدهما يكن العداء الشخصي للآخر، وأنه كان يريد به شراً، بل كان المطالبون بدم عثمان لا يريدون إلا قتلة عثمان، والمؤيدون لأمير المؤمنين يريدون إخضاعهم للبيعة التي تمت حتى يلتئم شمل المسلمين، ولا يكون هناك خلاف منهم.

ولنبدأ في سرد ما لدينا من الأدلة التي روتها كتب التاريخ لنثبت براءة الجانبين من قصد الحرب وإراقة الدماء، ولنتبين أن المقصود من جانب أمير

---

(١) نفسه (٤/٤٢٩).

(٢) سورة يوسف الآية ٥٥.

(٣) ابن كثير (٧/٢٤١).

المؤمنين هو الإصلاح واستقرار الأمن وجمع الشمل، وأن المقصود لدى طلحة والزبير هو التكفير عن الإهمال الذي ارتكبوه في حق الخليفة بالانتقام من كل من اشترك في قتله من قريب أو بعيد.

وهم وإن كانوا ليسوا ممن لهم الحق في المطالبة بدمه إلا أن الخوف من عاقبة الإهمال وشعورهم بالمسؤولية عن ذلك الإهمال أمام الله ـ عز وجل ـ جعلهم يسرفون في ذلك إلى حد إنشاب الحرب وسفك الدماء.

الأدلة التي تثبت براءة علي:

لم يكن مراد علي من الخروج هو مقاتلة الفريق الآخر ولكنه كان عملية إرهاب وتخويف، والمقصود الحقيقي هو منع الذاهبين إلى البصرة من الذهاب إليها حتى لا يجتمع حولهم الناس، وتقوم الحرب على ساق، وتراق الدماء، وحينئذ يقع المحظور.

يقول ابن جرير: لما أتى علياً الخبر وهو بالمدينة بأمر عائشة وطلحة والزبير أنهم قد توجهوا نحو العراق، خرج يبادر وهو يرجو أن يدركهم ويردهم[1].

وأما صاحب الكامل فيقول: وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم[2].

ولما فاته القوم عزم على أن يواجههم ليردهم إلى الصواب، ويبين لهم ما يترتب على عملهم هذا من الخطر على جماعة المسلمين وتفريق وحدتهم، فلما غادر الربذة متوجهاً إلى البصرة حيث توجه القوم، نزل بفيد، وهناك عرضت عليه قبيلتا طيء وأسد أن يكونا معه فرفض ذلك وقال: الزموا قراركم، في المهاجرين كفاية[3].

إن أمير المؤمنين لو كان يريد الحرب لما رد قبيلتين كبيرتين كطيء

---

(١) الطبري (٤/٤٧٧).
(٢) ابن الأثير (٣/٢٢٢).
(٣) الطبري (٤/٤٨٠).

وأسد يستطيع بهما أن يتقوى على عدوه، وبخاصة وهما قبيلتان مشهورتان بالبأس والشجاعة وقوة الشكيمة، ولا يقول أحد: إن أمير المؤمنين كان معه من الرجال من يثق في قدرتهم العسكرية وكفاءتهم وغنائهم، ذلك لأن المحارب لا يستغني عن القوة مهما كانت قوته، ولا يستكثر جيشه مهما كان عدده.

لا يزال أمير المؤمنين بفيد ـ اسم مكان ـ ودخل عليه رجل فقال له: من أنت؟

قال الرجل: عامر بن مطر. قال علي: الليثي؟ قال الرجل الشيباني من أهل الكوفة.

قال علي: أخبرني عما وراءك، فأخبره حتى سأله عن أبي موسى.

فقال الرجل: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك.

قال علي: والله ما أريد إلا الإصلاح حتى يرد علينا[1].

لهذا خرج أمير المؤمنين من المدينة، وإلى هذا يسعى، فهو لا يريد إلا أن يجمع كلمة المسلمين ويلم شعثهم، لهذا أقسم أنه لا يريد إلا الصلح، وسيظل يعرضه ويطالب به حتى يرد عليه ولا يقبله الناس.

ولهذا أيضاً لما سأله الأعور بن نيار المنقري عن سبب قدومه البصرة قال: الإصلاح وإطفاء الثائرة ليجتمع الناس على الخير، ويلتئم شمل هذه الأمة[2].

قال الأعور: فإن لم يجيبوا؟ قال علي: تركناهم ما تركونا.

قال: فإن لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا. قال: فهل لهم في هذا الأمر مثل الذي لنا؟ قال: نعم.

---

(١) نفسه.

(٢) ابن كثير (٤٣٩/٧).

وقام أبو سلام الدالاني فقال: هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله في ذلك؟ قال: نعم.

قال: فهل لك من حجة في تأخيرك ذلك؟ قال نعم.

قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً؟ قال: إني لأرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه لله إلا أدخله الله الجنة.

ثم خطب في الناس فقال: أيها الناس، أمسكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم[1].

إن أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ يقر بحق القوم في المطالبة بحق عثمان، لأنهم في رأيه أفراد من الأمة، وأعضاء في مجلس الشورى الذي اختار الخليفة، وهو فوق ذلك يعترف بأن لهم حجة ودليلاً على ما قاموا به ما داموا يريدون وجه الله ـ عز وجل ـ ويرجو أن يكون القتلى من الفريقين في الجنة ولم يخص جماعته بذلك، لأنه يرى أنهم مجتهدون فيما خرجوا له، وللمجتهد ثوابه وإن أخطأ، ثم إننا نرى الخليفة يسمو كل السمو، ويترفع عن الدنايا كل الترفع فيأمر أصحابه بأن يمسكوا أيديهم فلا يبدأوا القتال، ويمسكوا ألسنتهم فلا ينالوا منهم وإن خرجوا لقتالهم لأنهم إخوانهم[2].

إن المسلمين أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، ومن حق كل فرد في هذه الأمة أن يطلب بحق أخيه إذا عجز عن طلبه، أو يعينه عليه إذا لم يتمكن وحده منه، فكيف إذاً كان صاحب الحق هو أميرهم الذي بايعوه فأعطوه صفقة أيديهم وثمرة قلوبهم؟ وكيف إذا كان المطالبون بهذا الحق هم من ممثلي هذه الأمة الشرعيين الذين رشحوا الخليفة، وقدموه للأمة لتبايعه بالخلافة؟

إن هذا المعنى هو الذي أراده أمير المؤمنين ـ عليٌّ ـ عندما قرر بأن

---

(١) ابن كثير (٧/٢٣٩).

(٢) الطبري (٤/٤٩٦).

للقوم الحق في المطالبة بدم عثمان، وأنهم يملكون هذه الحجة إن طولبوا بحجتهم في هذا الذي خرجوا له.

وأقبل في غضون ذلك الأحنف بن قيس، وانحاز إلى علي للبيعة التي كانت منه له بالمدينة وكان معه ستة آلاف قوس، فقال لعلي: إن شئت قاتلت معك، وإن شئت كففت عنك عشرة آلاف سيف.

وأجابه علي ـ رضي الله عنه: أكفف عنا عشرة آلاف سيف[1].

وهذا الموقف من الأحنف ورجاله، وقد قدم بستة آلاف مقاتل وانحاز بهم إلى أمير المؤمنين، وهم ولا شك بانضمامهم إلى القوة التي معه يحدثون تغييراً كبيراً في الموقف العسكري، وتغييراً في ميزان القوى لدى الفريقين، ومع ما يترتب على ذلك من تقوية جيش أمير المؤمنين ولكنه يرفضه لأنه يقدم الصلح على الحرب، ولو أنه كان يفكر في الحرب لما خطر له أن يرد الجماعات التي جاءت طائعة لتنضم إلى جيشه.

إننا نلاحظ أن جيش أمير المؤمنين تعرض عليه الزيادة في العدد وفي العتاد وهو بهذه الزيادة يزداد قوة ومنعة في الوقت الذي كان فيه الفريق الآخر لا يجد شيئاً من ذلك، فقد عرضت طيء وأسد وبكر بن وائل على أمير المؤمنين أن يكونوا معه فردهم رداً جميلاً، وهذا الأحنف يأتيه في ستة آلاف، فيقول: بل اكفف عني قومك.

لم يكن ذلك كله من أمير المؤمنين إلا لأنه لم يرد حرباً، ولعله قد خشي إن كثر جيشه وزاد في عتاده أن يُحفظ ذلك الآخرين، ويثير غضبهم، فيكون العناد والتحدي، ويقع مالا يريد الخليفة وقوعه من الحرب والقتال.

على أننا نستطيع أن نقول: إن الخليفة لم يكن ليكنَّ في صدره شيئاً ما على الخارجين عليه، بل كان يحبهم ويقدرهم، ويعذرهم في خروجهم، ويعتبرهم إخواناً له، ولهذا قال لمن معه من المقاتلين: أيها الناس، املكوا

---

(١) ابن كثير (٧/ ٢٤٠).

أنفسكم، كفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم فإنهم إخوانكم، واصبروا على ما يأتيكم[1].

ولما جاءه قاتل الزبير يحمل رأسه، وهو يرجو عنده حظوة ومكانة، ومعه سيفه الذي سلبه منه ليقدمه هدية لأمير المؤمنين، حزن علي حزناً شديداً، وأمسك السيف بيده وقال: طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ ونظر إلى ابن جرموز قاتل الزبير وقال: بشر قاتل ابن صفية بالنار[2] ولم يأذن له بالدخول عليه[3].

واستمرت مساعي أمير المؤمنين للصلح، ولم ييأس من ذلك إلى آخر لحظة، فهو ينادي طلحة ـ والزبير ويحاول إقناعهما بالعدول وترك القتال، ويقتنع الزبير ويحلف لا يقاتل علياً أبداً، ويرجع إلى البصرة فيتحمل منها ليعود إلى الحجاز، وبينما هو في طريقه إلى الحجاز وقد بلغ وادي السباع أصاب منه ابن جرموز غفلة، حيث كان في صلاته آمناً فطعنه فقتله وكان قتله يوم الخميس لعشر خلون من جمادي الآخرة سنة ست وثلاثين[4]. ـ أي قبل المعركة بخمسة أيام ـ حيث كانت في اليوم الخامس عشر من شهر جمادي الآخرة من السنة نفسها[5].

وأما طلحة فيبدو أنه اقتنع هو الآخر، وهم بترك الحرب، فجاءه سهم غرب فنزف فمات[6].

وأعذر الخليفة إلى القوم، ورمى بآخر سهم عنده من أجل تحقيق الصلح، فأرسل القعقاع ابن عمرو التميمي إلى أم المؤمنين، وناقش القعقاع القوم وأقنعهم بالصلح، فاقتنعوا ورجع القعقاع فبشر علياً بما تم من الاتفاق

---

(١) الطبري (٤/٤٩٦).
(٢) العسكري ص ١٧١.
(٣) ابن كثير (٧/٢٥٠).
(٤) ابن كثير (٧/٢٥٠).
(٥) الطبري (٤/٥٠١).
(٦) الدينوري ص ٨.

على الصلح وفرح المؤمنون[1] وابتأس قتلة عثمان، ودبروا مؤامرتهم بإنشاب القتال ليفسدوا على الفريقين ما أوشك أن يكون بينهم من الصلح والاتفاق[2].

وحتى بعد أن بدأ القتال لم يكف علي عن طلب الصلح فقد أخرج مصحفاً وطلب من أصحابه أن يعرضوه عليهم، فأخذه شاب فقال له علي: اعرضه عليهم، وقل: هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره، والله في دمائنا ودمائكم[3].

وهكذا يكون أمير المؤمنين قد أعذر وبذل أقصى جهده من أجل إماتة الحرب وإحياء الصلح، وإعادة الطمأنينة إلى النفوس والسكينة إلى القلوب، ولقد كان حرص أمير المؤمنين على الصلح أظهر من أن يخفى، وكان الدافع له على ذلك علمه بأن المسلمين إخوة، ولا يجوز مطلقاً أن يحمل مسلم سيفه على مسلم، وكانت الآية الكريمة: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾[4] تضع علامات استفهام كبيرة أمام هذه المعركة، بل وعلى رؤوس المتقاتلين فيها، كيف يقتل بعضهم بعضاً؟ وكيف يستبيح المؤمن دم أخيه المؤمن؟

إن الله - عز وجل - قد حرم عليهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم فكيف يستحلونها وكان أمير المؤمنين أعلم الناس بذلك وأحرصهم على ألا يكون قتال بين الفريقين وهو في هذا يذكر حديث رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار». قيل يا رسول الله: هذا القاتل، فما بال المقتول، قال: «إنه كان حريضاً على قتل صاحبه»[5].

---

(١) ں الأثير (٣/٢٣٤).
(٢) الطبري (٤/٥٠٦).
(٣) نفسه (٤/٥٠٩).
(٤) سورة النساء الآية ٩٣.
(٥) رواه أحمد وأبو داوود.

ولهذا كان المسلمون الحريصون على تحري الحق في قلق نفسي، واضطراب عصبي، حتى سألوا علياً ـ رضي الله عنه ـ عن القتلى في هذه المعركة فقال كلمته المشهورة: إني لأرجو ألا يكون أحد نقى قلبه لله من هؤلاء إلا أدخله الله الجنة.

وقد روى عنه أنه كان يقول: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله ـ عز وجل ـ فيهم: (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين)[1].

الأدلة التي تثبت حسن نية أم المؤمنين ومن معها:

لا شك أن أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قد ركبت في خروجها مركباً صعباً لا يذلله من خرج معها مهما كانت شخصياتهم، ومهما كان عددهم، ولقد كان الأليق بها، والأوفق لمكانتها أن تلزم ما التزم به غيرها وأن تقر في بيتها كما أمرها الله ـ عز وجل ـ في قوله ـ تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾[2] ولكن يبدو أن شعورها بالتقصير في حق عثمان ـ رضي الله عنه ـ دفعها إلى الخروج لعلها تصيب بذلك تكفيراً عما بدر منها، وبخاصة وأنها قد رأت طلحة والزبير ـ رضي الله عنهما ـ قد خرجا لهذا الأمر بل إن خروجهما هو الذي شجعها على أن تسير معهما هذا المسير ولعل كلامها الذي ردت به على بعض من اعترض على خروجها يبرر لنا موقفها هذا، فقد قالت: غضبنا لكم من سوط عثمان، أفلا نغضب لعثمان من سيوفكم.

ومع ما ترتب على هذا الخروج من أمور خطيرة أهمها إراقة دماء المسلمين وتفريق كلمتهم فإن الذين ارتكبوا ذلك لم يكن قصدهم الحقيقي إلا إهدار دماء قتلة عثمان حتى لا يجترىء الناس على ذلك ويستمر الأمر عليه كلما غضب الناس على أمير خرجوا عليه وقتلوه واستحلوا دمه.

ولم يكن مرادهم الإطاحة بعلي، أو التمرد على إمارته وإن فهم هو

---

(١) ابن كثير (٧/٢٤٩) والآية من سورة الحجر (٤٧).
(٢) الأحزاب الآية ٣٣.

ذلك، كما فهم كثير من المؤمنين ذلك لأن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد أشاروا جميعهم بمبايعة علي - رضي الله عنه - حينما سئلوا عن ذلك وعثمان محصور في بيته.

يروي ابن جرير - رحمه الله - عن الأحنف ابن قيس قال: فلقيت طلحة والزبير فقلت: من تأمراني به، وترضيانه لي. فإني لا أرى هذا الرجل - يعني عثمان - إلا مقتولاً. قال علي؛ قلت أتأمراني به وترضيانه له. قالا: نعم.

فانطلقت حتى قدمت مكة، فبينا نحن بها إذ أتانا قتل عثمان - رضي الله عنه - وبها عائشة - أم المؤمنين - رضي الله عنها - فلقيتها فقلت: من تأمرينني أن أبايع.

قالت: علي.
قال: فمررت على علي بالمدينة فبايعته[1].

إن إجماع أم المؤمنين وطلحة والزبير على أحقية علي بالبيعة بعد قتل عثمان، وإن نصيحتهم الأحنف ابن قيس بذلك بدون تردد لدليل واضح على اعترافهم الصريح بتقديم علي في هذا الأمر دون منازع، وهما وإن أجبرا على بيعة علي بعد موت عثمان فذلك لأن الناس عجلوا بهما ولعلهما كانا ينتظران ليريا ماذا سيفعل الناس فيفعلان كما يفعل الناس وهما ليسا بدعاً في ذلك فقد وقف هذا الموقف بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة وغيرهم.

ولعل الذي دعا إلى الإتيان بهما ليبايعا في أول الناس هو أن أهل المدينة كانوا يعتقدون أن البيعة بدونهما لا تتم حتى قالوا: إذا دخل طلحة والزبير في هذا الأمر فقد استقام[2] ولو أنهم أمهلوهما حتى يتبين لهما الأمر، وتستقر الأوضاع كما فعل على نفسه مع سعد وابن عمر لبايعا برضاهما كما بايع غيرهما.

---

(١) الطبري (٤/٤٩٦، ٤٩٧).
(٢) الطبري (٤/٤٣٤).

والذي يؤيد ذلك أن الأشتر النخعي لما ذهب إلى طلحة ليحضره للبيعة قال طلحة: دعني أنظر ما يصنع الناس[1].

إن طلحة والزبير قد بايعا قبل أن يطمئنا إلى إجماع الناس على عليٍّ وشعرا وهما يبايعان بأنهما مكرهان على البيعة وذلك ولا شك يدعو إلى الغضب، ويثير في النفس الشعور بالإهانة ولهذا قالا: إننا بايعنا مكرهين، وكان علي - رضي الله عنه - يرى أن الإكراه في مثل تلك الحالة لا بأس به، حيث يكون الإكراه على فعل الخير وليس على فعل شيء من الشر، وقد وضح ذلك في كتابه لعامله على البصرة عثمان بن حنيف حين قال: والله ما أكرها إلا كَرْها على فرقة وقد أكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كان يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا[2].

لم يكن عتب طلحة والزبير على بيعة علي وتوليته الأمر، وإنما كان لأنهما لم يتركا ليبايعا بعد أن يتبين لهما الأمر ويجتمع المسلمون على بيعة علي.

إن المطالبين بدم عثمان لم يريدوا قتل الأبرياء ولا تفريق كلمة المسلمين، ولكنهم قصدوا المارقين المعتدين دون غيرهم من المسلمين، ولقد برهنوا على صدق اتجاههم هذا حين تصدى لهم حكيم بن جبلة وهم واقفون - بالمربد، وأنشب القتال، وشرع أصحاب عائشة رماحهم، وأمسكوا ليمسك حكيم وأصحابه، فلم ينته وقاتلهم وأصحاب عائشة كافون يدفعون عن أنفسهم[3].

إن إمساك أصحاب أم المؤمنين عن القتال وهم قادرون عليه دليل على أنهم لا يريدون الحرب ولم يخرجوا للقتال، وإنما خرجوا يطلبون تسليم قتلة عثمان ليقيموا عليهم حد الله وحكيم بن جبلة وإن كان من قتلة عثمان إلا أنه كان معه من الأبرياء من لا يستحل هؤلاء دماءهم فأمسكوا عنهم.

---

(١) نفسه (٤/٤٣٥).
(٢) نفسه (٤/٤٦٨).
(٣) ابن الأثير (٣/٢١٤)

بل هناك ما هو أكثر من ذلك وضوحاً في التدليل على ذلك فإن أم المؤمنين والمعركة على أشدها حول الجمل والناس يسقطون قتلى وصرعى يعدون بالآلاف، ويستفتيها محمد بن طلحة السجاد فيقول. وقد أخذ بزمام الجمل: يا أمتاه، مريني بأمرك، فتقول: آمرك أن تكون خير ابني آدم إن تركت، فجعل لا يحمل على أحد إلا إذا حمل عليه[1].

هذه الوصية لا تصدر إلا عن إرادة خيرة تبغي الخير ولا تحيد عنه، إذ الموقف يقتضي أن يضرب محمد كل من يراه يقترب من الجمل سواء حمل عليه أم لم يحمل، بل يقتضي ما هو أكثر من ذلك وهو ضرب كل من كان في متناول سيفه، ولكن أم المؤمنين تأمر محمد بن طلحة أن يكف عمن كف عنه، ولا يقتل إلا من يريد قتله، وتلك هي شيمة النفوس الأبية التي لا تريد إلا الإصلاح، وتتورع عن التدمير والإفساد.

وهذا المعنى هو الذي دعا أم المؤمنين أن تأمر أتباعها بأن لا يقتلوا إلا من قاتلهم، وذلك حين أصر حكيم بن جبلة على القتال، وحينئذ نادى الناس: من لم يكن من قتلة عثمان فليكف عنا، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان. ولا نبدأ أحداً[2].

ولكن حكيماً لم يبال بالنداء، وأنشب القتال، وكان الناس قد رجعوا عنه، ولم يبق معه إلا قتلة عثمان، فقال طلحة والزبير: الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة، اللهم لا تبق منهم أحداً وأقِدْ مِنْهُمْ اليوم فاقتلهم.

واشتد القتال بين الطرفين حتى صرع حكيم ومات، وقتل من كان معه إلا حرقوص بن زهير في نفر من أصحابه فروا إلى قومهم، وعندئذ نادى منادي طلحة والزبير: ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم، فجيء بهم كما يجاء بالكلاب، فقتلوا فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعاً إلا حرقوص بن زهير فإن بني سعد منعوه[3].

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٤٩).

(٢) الطبري (٤/٤٧٠).

(٣) نفسه (٤/٤٧٢).

إن أصحاب طلحة والزبير قد أمسكوا أولاً عن القتال لأن الناس كانوا مختلطين فيهم البريء وفيهم الأثيم، ونادت عائشة لا تقتلوا إلا من قاتلكم حتى لا تبدأ بقتال، فلما تميز الناس ورجعوا وتركوا قتلة عثمان وحدهم في الميدان أتيحت الفرصة للقصاص وطاب للقوم القتال فقتلوهم وأخذوا بثأر عثمان، وشفي الله صدور المؤمنين، ولم يعد لهم في البصرة مأرب ولا طلبة.

وكتبوا لأهل الكوفة يخبرونهم بما تم، ويطلبون منهم أن يقيدوا من قتلة عثمان كما فعلوا هم بالبصرة ولكن قتلة عثمان من أهل الكوفة كانوا مع جيش علي - رضي الله عنه - ولم يتركوه لحظة خشية أن يدبر أمره ويقتص منهم لعثمان - رضي الله عنه.

وكانت أم المؤمنين تخشى أن ينضم أهل الكوفة إلى جيش الخليفة، ويؤازروا إخوانهم من قتلة عثمان، فيشتد القتال، ويستحر القتل في المسلمين، وتقوى شوكة القتلة حين يجدون من يحميهم، ويدفع عنهم، لهذا كتبت إلى أهل الكوفة تخبرهم بأنباء البصرة، وتطلب منهم ألا ينضموا إلى القتلة، وأن يثبطوا الناس عن الخروج معهم، وأن يلزموا بيوتهم(1).

وهذه الرسالة تعطي مدلولاً واضحاً حيث لم تطلب أم المؤمنين من أهل الكوفة الانضمام إلى جيشها للتقوّي بهم وتكثير أنصارها، ولو كانت المسألة شهوة قتال، ودعوة إلى التدمير لما أمرت الناس بالكف إلا عن قتلة عثمان، ولطلبت منهم الانضمام إلى أنصارها لتقاتل بهم عدوها.

وهناك من المؤرخين من يزعم أن قتال أم المؤمنين، وقيادتها جيش طلحة والزبير إنما كان لشيء في نفسها من علي - رضي الله عنه - ويعزون ذلك إلى موقف علي من عائشة - رضي الله عنها - يوم حادثة الإفك، وذلك حين سأل رسول الله ﷺ علياً ليأخذ رأيه في عائشة، واستشاره في فراقها فقال

---

(1) نفسه (4/473).

علي: لم يضيق الله عليك، والنساء كثير، وقد أحل الله لك وأطاب، فطلقها وأنكح غيرها[1].

والحق أنه رأي خطير، وموقف يوغر النفوس، ويقطع القلوب، ويضيق به صدر الحليم، ولكن إذا عرف سبب ذلك لا يستغرب أن يقول عليّ تلك الكلمة مع خطورتها، لقد رأى عليٌّ ما حل برسول الله ﷺ من الغم والهم بسبب ذلك، وعز عليه أن يظل رسول الله في هذا الكرب، وقد أبطأ الوحي، ولم يكن هناك حسم لمثل هذا الموقف إلا عن طريقه، فأراد أن يسري عن رسول الله، ويذكره بأن الله قد وسع عليه، فَلِمَ يضيق على نفسه؟

ونحن نلاحظ في كلام علي ـ رضي الله عنه ـ أنه لم يجرح السيدة عائشة الطاهرة المطهرة، ولم يذكرها بكلمة تنال من شرفها لا تصريحاً ولا تلميحاً، ولو كان كذلك لأقام عليه رسول الله ﷺ حد القذف كما أقامه على حسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ومسطح بن أثاثة، فعليٌّ ـ رضي الله عنه ـ لم يتهم عائشة، ولم يشك في براءتها وطهارتها ـ رضي الله عنها.

قال النووي ـ رحمه الله: رأى علي أن ذلك هو المصلحة في حق النبي ﷺ واعتقد ذلك لما رآه من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة لإرادة راحة خاطره[2].

إذن فعليٌّ لم يرد بذلك الكلام تجريح عائشة أو النيل منها ومن مكانتها عند الرسول ﷺ ولكنه علم أن في ذلك الكلام تخفيفاً من قلقه وإراحة لنفسه، على أنه لم يقطع بفراقها حيث قال: وسل الجارية تصدقك، فكان إدخال الراحة على نفس رسول الله أحب إليه من أن يقول كلاماً مكرراً قاله أسامة بن زيد، وزينب بنت جحش، وبريرة جارية عائشة، ولم يخفف ذلك من انزعاجه ﷺ.

ولا يفوتني هنا أن أنبه إلى أن قصة الإفك هذه على ما جاءت به تعطي

---

(١) المقريزي: امتاع الأسماع (١/٢٠٨).

(٢) فتح الباري ابن حجر (٨/٤٦٨).

معنى عقدياً لا ينبغي أن يعزب عن عقل المؤمن، وهو أن الله ـ عز وجل ـ قد احتفظ بعلم الغيب وحده، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولو كان رسول الله يعلم الغيب لما وقف من حديث الإفك هذا الموقف الذي لم يستطع فيه أن يجزم ببراءة عائشة أو إدانتها حتى نزل القرآن الكريم فبرأها بعشر آيات تتلى إلى يوم القيامة.

ويرد كلام هؤلاء الذين يزعمون أن عائشة قاتلت علياً لذلك قول عائشة نفسها حين جهزها علي في البصرة لتذهب إلى المدينة، وقد حضر الناس لوداعها فودعتهم ودعت لهم وقالت: يا بني، لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار.

فقال علي: صدقت والله، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة[1].

إن هذا الكلام في لحظة الوداع ليدل بإخلاص على أن عائشة لم تخرج غضباً لنفسها ولم تحرك فتنة ضد علي ولا ضد أحد من المسلمين، ولكنها أرادت فقط قتلة عثمان، ثم إن عائشة لم تكن ضعيفة رغم ما نزل بجيشها، ولم تكن جبانة تخشى أن تقول ما في نفسها ولكنها قالت الحق الذي تؤمن به، وتدين الله عليه.

ولم يكن موقف طلحة والزبير ـ رضي الله عنهما ـ من تلك الحرب إلا كموقف أم المؤمنين منها ولقد كان حديثهما عنها، وتشككهما فيما يفعلان من أمرهما دليلاً واضحاً على أن الموضوع كان محل اجتهاد منهما فهما مثابان وإن أخطآ.

فالزبير ـ رضي الله عنه ـ يسمي هذه الحرب فتنة ويقول: فيها: إن هذه للفتنة التي كنا نحدث عنها.

فقال له مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها؟

---

(١) ابن كثير (٧/٢٤٦).

قال الزبير: ويلك. إنا نبصر ولا نبصر، ما كان أمر قط إلا وأنا أعلم موضع قدم فيه غير هذا الأمر، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر؟

وأما طلحة ـ رضي الله عنه ـ فقد رآه علقمة بن وقاص يكثر الخلوة بنفسه، ويطرق لحيته على صدره، فسأله علقمة فقال: يا أبا محمد، أرى أحب المجالس إليك أخلاها، وأنت ضارب بلحيتك على صدرك، إن كرهت شيئاً فاجلس.

فأجابه طلحة: يا علقمة، بينا نحن يد واحدة على من سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً، إنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يسفك دمي في طلب دمه[1].

ويوضح موقف الزبير من الحرب أنه حينما ذكره علي بحديث رسول الله ﷺ «أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم».

قال الزبير: والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك، ورجع الزبير وترك الحرب ولم يشترك فيها.

وقد كان موقف طلحة يختلف عن موقف الزبير، حيث كان من طلحة تقصير عظيم في حق عثمان لم يكن من الزبير مثله، ولهذا استمر طلحة في الحرب لعله يقتل فيكون في ذلك تكفير لهذا التقصير، ولذلك لما بدأت المعركة، وأوشك الناس على القتال كان يصيح قائلاً: اللهم إن كنا قد داهنا في أمر عثمان وظلمناه، فخذ له اليوم منا حتى ترضى[2].

ويروي ابن جرير أن طلحة كان يقول في هذا اليوم: اللهم اعط عثمان مني حتى يرضى[3].

لقد كان طلحة في حيرة من أمره، ولا يدري ماذا يصنع، أينصرف كما

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٢٠).
(٢) ابن قتيبة الإمامة والسياسة.
(٣) الطبري (٤/٥٢٧).

انصرف الزبير أم يباشر المعركة مقاتلاً قتلة عثمان؟ فإن نجا فهو قد بذل جهده للانتصار للخليفة المظلوم وإن قتل يكون قد بذل دمه في سبيل ذلك، وفي كلا الحالين فهو يرجو أن يكفر الله عنه ما وقع منه في جانب عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

ونلاحظ في الفترة التي كان ينتظر الطرفان فيها توقيع الصلح، وإعادة الأمن إلى النفوس موقفاً رائعاً لكل من طلحة والزبير يدل دلالة صادقة على رغبتهما في الصلح واستتباب الأمن، فقد جاءهما كعب بن سور، وقد أقبل علي بجيشه فقال كعب: ما تنتظرون يا قوم بعد توردكم أوائلهم؟ اقطعوا هذا العنق من هؤلاء.

قالوا: يا كعب، إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا، وهو أمر ملتبس، لا والله ما أخذ أصحاب محمد ﷺ مذ بعث الله نبيه طريقاً إلا علموا أين مواقع أقدامهم، حتى حدث هذا، فإنهم لا يدرون أمقبلون هم أم مدبرون؟.

إن الشيء يحسن عندنا اليوم، ويقبح عند إخواننا، فإذا كان من الغد قبح عندنا وحسن عندهم، وإنا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة، ثم يحتجون بها على أمثالها، ونحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه وتموا، وإلا فإن آخر الدواء الكي[1].

ويذهب أبو الجرباء إلى الزبير بن العوام، ويحرضه على مفاجأة علي بجيشه يصبحه ويمسيه قبل أن ينضم إليه بقية جيشه.

فيقول الزبير: يا أبا الجرباء، أنا لنعرف أمور الحرب، ولكنهم أهل دعوتنا، وهذا أمر حدث في أشياء لم تكن قبل اليوم.

هذا أمر من لم يلق الله فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة، ومع ذلك إنه قد فارقنا وفدهم على أمر، وأنا أرجو أن يتم لنا الصلح[2].

وهذا صبرة بن شيمان زعيم من زعماء البصرة يقبل على الرجلين،

---

(١) الطبري (٤/٤٩٥).
(٢) الطبري (٤/٤٩٥).

وهما ينتظران إقرار الصلح، فيقول: يا طلحة، يا زبير، انتهزا بنا هذا الرجل، فإن الرأي في الحرب خير من الشد.

فقالا: يا صبرة، إنا وهم مسلمون، وهذا أمر لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن، أو يكون فيه من رسول الله ﷺ سنة، إنما هو حدث، وقد زعم قوم أنه لا ينبغي تحريكه اليوم وهم عليٌّ ومن معه فقلنا: نحن لا ينبغي لنا أن نتركه اليوم ولا نؤخره.

فقال علي: هذا الذي ندعوكم إليه من إقرار هؤلاء القوم شر وهو خير من شر منه، وهو كأمر لا يدرك، وقد كاد أن يبين لنا، وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بإيثار أعمِّها منفعة وأحوطها[1].

إنه لموقف رائع حقاً من طلحة والزبير - رضي الله عنه - وهو لا يقل روعة عن موقف أم المؤمنين السابق، فكل منهم قبل الصلح ووافق عليه، وكل منهم كان يتورع أن يسفك دماً حلالاً، أو يقتل مسلماً بغير ذنب يستحق به القتل.

وإننا لنرى في كلام كل منهم بروز معنى الأخوة الإسلامية التي تحول بينهم وبين خوض المعركة، والخوض في دماء المسلمين، لقد كانوا جميعاً يشعرون بأن الأمر ملتبس وأن القعود فيه خير من الوقوف، والوقوف خير من المشي.

ولقد كان عرض عليٍّ الصلح وهو مؤمن بأنه على الحق، وأن الذين يعارضونه هم الخارجون إعذاراً إلى الله قبل أن يضطر إلى الخوض في بحار من دماء المسلمين، وكان قبول طلحة والزبير هذا العرض بعد انتصارهما على أهل البصرة وحصولهما على البيعة منهم تلبية خالصة لدعوة ليس الغرض من ورائها إلا حقن دماء المسلمين.

ولا يمكن أن يفهم عاقل يقف على هذه النصوص أن الزعماء هم

(١) نفسه.

الذين حركوا المعركة وأوقدوا نارها، وكيف يتأتى ذلك وكلا الطرفين كانت كلمة الصلح قد نزلت من النفوس والقلوب منهم منزلاً لا تقبل سواه، ولكنهم قتلة عثمان أصحاب ابن سبأ هم الذين أشعلوا فتيلها، وأججوا نيرانها حتى لا يكونوا كبش الضحية، فصمموا على أن يتغدوا بالقوم قبل أن يتعشوا بهم، والله حسيبهم وهو نعم المولى ونعم النصير.

بعد معركة الجمل

كان النصر حليف أمير المؤمنين في هذه المعركة، وقد استسلم المقاتلون، وقتل طلحة في المعركة كما قتل الزبير في الطريق بوادي السباع بعد أن فارق القوم، ولم يشترك في القتال وسقط هودج أم المؤمنين وحملت إلى دار ابن خلف بالبصرة ثم جهزها أمير المؤمنين وشيعها إلى المدينة، وفي الطريق اتجهت نحو مكة وأقامت بها حتى حجت هذا العام، ثم اتجهت إلى المدينة فأقامت هناك.

استقر الأمر لعلي بالبصرة، وعفا عن الأسرى فبايعوه عن رضا، وراح يهتم بتنظيم أموره في البصرة.

ظهور الخوارج

بلغ أمير المؤمنين أن حسكة بن عتاب الحَبْطي وعمران بن الفضيل البُرْجمي خرجوا إلى سجستان ومعهم بعض الصعاليك وكان أهل سجستان قد نكثوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين فجمع حسكة ومن معه منهم مالاً، وتوجهوا إلى زَرَنج فخافهم حاكمها فصالحهم وأقاموا بها.

وخشي علي أن يستفحل أمرهم ويثيروا فتنة هو في غنى عنها، وبخاصة وأن معاوية بعد لم يدخل في الطاعة، ولا يزال يتربص بالقوم، فأرسل أمير المؤمنين عبد الرحمن بن جرو الطائي إلى حسكة ومن معه ولكن حسكة تغلب على عبد الرحمن وقتله[1].

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٦٤).

وازداد خوف علي من ظهور فتنة جديدة فأرسل إلى ابن عباس، وكان والياً على البصرة، وأمره أن يولي سجستان رجلاً شجاعاً حازماً، ويرسل معه أربعة آلاف جندي، فوجه ابن عباس إلى سجستان ربعي بن كاس العنبري، ومعه الحصين ابن أبي الحر العنبري، وأمدهما بما أمر الخليفة من الرجال والعتاد والتموين.

وسار الرجلان بجيشيهما حتى بلغوا سجستان، وهناك خرج إليهم حسكة، فقاتلهم، وقاتلوه حتى ظفروا به وقتلوه، وأصبح ربعي والياً على سجستان، وأحسن إدارتها، وضبط شؤونها[1].

---

(1) نفسه.

موقف عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص في المدينة المنورة حين حاصر المتمردون دار عثمان بن عفان، فخرج منها وتوجه إلى الشام وهو يقول: والله يا أهل المدينة، ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله - عز وجل - بالذل، من لم يستطع نصره فليهرب[1].

وأخذ عمرو ولديه - عبدالله ومحمد - وخرج بهما، وتبعه حسان ابن ثابت، وخلق كثير وظل عمرو وهو بالشام يتتبع أخبار المدينة ويسأل كل قادم منها عما جرى فيها حتى بلغه نبأ قتل عثمان وبيعة الناس علي بن أبي طالب.

قال عمرو: أنا أبو عبدالله، تكون حرب من حك فيها قرحة نكأها، رحم الله عثمان ورضي الله عنه، وغفر له.

وسمع سلامة بن زنباع الجذامي بقتل عثمان فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد كان بينكم وبين العرب باب، فاتخذوا باباً إذ كُسر الباب.

فقال: وذاك الذي نريد، ولا يصلح الباب إلا أشافٍ تخرج الحق من حافرة البأس ويكون الناس في العدل سواء، وارتحل عمرو راجلاً يبكي، ويقول: واعثماناه أنعي الحياء والدين! وظل يمشي حتى دخل دمشق[2].

---

(١) الطبري (٤/٥٥٨).

(٢) نفسه (٤/٥٥٩) والأشافي جمع إشفيٌ وهو المثقب.

هذا هو موقف عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ من حصار عثمان وقتله، وذلك هو الذي يتناسب مع مكانة عمرو في الإسلام، وجهاده في سبيله، وتأثره بصحبة النبي ﷺ لا تلك الروايات التي تظهر عمراً في صورة المحرض على عثمان المستبيح حرمته، المزهو بأنه قتله وهو بعيد عن موطنه، إن هذه الروايات وأمثالها ينبغي أن تحقق قبل أخذها مهما كان راويها، ولا يجوز مطلقاً لدارس التاريخ أن يستسلم لكل ما يقرأ لأنه جاء في كتب موثوقة ومعترف بها.

إننا نلاحظ أن الروايتين قد رواهما الطبري في كتاب واحد، وفي موضوع واحد وفي صفحتين متواليتين، ولكن ليس معنى هذا أن الروايتين صحيحتان، وللمؤرخ أن يختار أيهما شاء، ولكن يجب أن نأخذ بالأقوى سنداً، وبالأوفق مع حياة الشخصية التي نتكلم عنها، ومنزلتها الدينية والاجتماعية في البيئة التي نشأت فيها. فلو لم يكن عمرو بن العاص صحابياً لكان الأليق به وهو سيد من سادات العرب أن يتنزه عما نسب إليه في حق عثمان وهو قرشي معروف الفضل والمكانة عند العرب جميعاً، لهذا فإننا نرجح هذه الرواية ونرد غيرها، وبخاصة إذا كان غيرها أنزل منها سنداً.

ولا يقدح في عمرو انضمامه إلى معاوية في معركة صفين فإن ذلك مما أداه إليه اجتهاده وبخاصة وأنه قد رأى قتلة عثمان يحيطون بعلي، ويملأون جيشه، ويتولون فيه القيادة، وقد كان يرى أن عثمان قتل ظلماً وأن المطالبة بدمه أمر لا بد منه حتى لا يسبب إهماله جرأة العامة على الخلفاء، فيستحلون دماءهم.

ومع انضمام عمرو إلى معاوية ومقاتلته معه فإنه كان له مواقف تدل على ورع وتقوى وتثبت ما كان عليه من خلق رفيع في معاملة خصومه حتى في أثناء المعركة.

فقد روى الثقاة من المؤرخين أن جيش معاوية قد سبق جيش علي ونزل شريعة الفرات، وبحث جيش علي عن شريعة أخرى ينزل عليها ليشرب منها فلم يجد، فتوجهوا إلى الشريعة التي كان عليها جيش معاوية بقيادة أبي

الأعور السلمي، فمنعهم أبو الأعور من الورود، وحال بينهم وبين الماء، فشكا القوم إلى أمير المؤمنين ما نزل بهم من العطش وأخبروه بأن أبا الأعور منعهم من ورود الماء.

فأرسل عليٌّ إلى معاوية يعاتبه في ذلك، ويطلب منه أن يخلي الشريعة حتى يشرب الناس فاستشار معاوية أصحابه فقال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعوه عثمان ابن عفان ـ رضي الله عنه ـ حصروه أربعين صباحاً يمنعونه برد الماء، ولين الطعام، أقتلهم عطشاً، قتلهم الله عطشاً.

وقال عبدالله بن أبي سرح: امنعهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، ولو قد رجعوا كان رجوعهم فلاً، امنعهم الماء، منعهم الله يوم القيامة[1].

وأما عمرو بن العاص فقال: خل بين الماء وبين القوم، وإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ولكن بغير الماء، فانظر فيما بينك وبين الله[2].

وفي رواية أن عمراً قال: خل بينهم وبين الماء، فليس من النصف أن نكون ريانين وهم عطاش، إن هذا الموقف النبيل من عمرو، وهذه الرقة التي لم تعهد في قلوب أمثال عمرو من القادة العسكريين لهي برهان على حبه الخير، وصدقه في القول، ومروءته في التصرف مع خصمه، ولو كان عمرو يقاتل مع معاوية بروح الانتقام والتشفي كما تنسب إليه بعض الروايات لأيد رأي الوليد بن عقبة وعبدالله بن أبي سرح، ولأشار ببعثِ المدد سريعاً وتقوية حراس الشريعة حتى لا يقتحمها العدو ويفوز بها دونهم.

إن منع القوم الماء وصدهم عنه خطأ لا يبرره أي سبب مهما كان، بل هو مع كونه جريمة دينية، وسفهاً أخلاقياً فهو خطأ فاحش في التخطيط العسكري، ذلك لأن الناس إذا عطشوا ولم يكن لهم سبيل إلى الماء إلا هذه

---

(١) الطبري (٤/٥٧٢).
(٢) ابن الأثير (٣/٢٨٤).
(٣) ابن كثير (٧/٢٥٧).

الشريعة، وأحرقتهم حرارة العطش وذاقوا مرارة الظمأ والماء أمامهم فإنهم حينئذ يقاتلون عنه بشراسة، وكلما اشتد عطشهم كلما ازدادت شراسة قتالهم، ولهذا من النتائج ما لا يقدره إلا الله ـ عز وجل.

ونحن نلاحظ أن عمراً لم يعارض منعهم الماء لتلك العلة العسكرية، وهو القائد المحنك ولكن عارضه من الجانب الأخلاقي (فليس من النصف أن نكون ريانين وهم عطاش) كما عارضه من الجانب الديني حين قال لمعاوية: (إنهم لن يعطشوا وأنت ريان، ولكن بغير الماء، فانظر فيما بينك وبين الله) وفي رواية الطبري (فانظر فيما بينك وبينهم) يعني من الإخوة في الدين الداعية إلى عدم الفجور في الخصومة.

ذلكم هو موقف عمرو بن العاص في معركة صفين، وهو موقف كله مروءة وذكاء، وحب للإنصاف، ورغبة في الخير.

وأما ما ذكره الواقدي من أنه لما علم بقتل عثمان ومبايعة علي أحضر ولديه عبدالله ومحمد واستشارهما في الأمر فقال له عبدالله: توفي النبي ﷺ وهو عنك راضٍ، وتوفي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو عنك راضٍ، وتوفي عمر ـ رضي الله عنه ـ وهو عنك راضٍ، أرى أن تكف يدك، وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه.

وأما محمد فقال: أنت ناب من أنياب العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر.

فقال عمرو لولديه: أما أنت يا عبدالله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي وأسلم في ديني وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي أنبه لي في دنياي وشر لي في آخرتي[1].

ثم خرج مع ولديه ولحق بمعاوية في الشام.

ومفاد الرواية أن عمراً ـ رضي الله عنه ـ أحب أمر الدنيا وفضله على

---

(١) الطبري (٤/ ٥٦٠).

أمر الآخرة مع علمه بأن ذلك شر له في اخرته، وأي عاقل أريب لا يفعل ذلك مهما كانت الدوافع فكيف بعمرو بن العاص، وهو الداهية الألمعي الذي يزن الأمور بعبقرية لا يفوتها مثل ذلك.

إنني أعتقد أن عمراً حتى لو وزن الأمور بميزان مادي لما فضل أمر الدنيا على الآخرة لأن الخسارة حينئذ ستكون فادحة، وبخاصة إذا علمنا أن عمراً في تلك الفترة كان قد ناهز التسعين من عمره أو فاتها فماذا كان يبغي من الدنيا؟.

وأحب أن أذكّر هنا بأن الرواية من مرويات الواقدي، وهو غير ثقة عند المحدثين فلا يعتد بروايته إلا إذا تابعه عليها ثقة.

وقد نقلت الرواية من طريق آخر عن نصر بن مزاحم المنقري، وذكر فيها زيادات عن رواية الواقدي بيّن فيها قول عمرو وتردده عندما دعاه معاوية إلى الشام، وصوّر هذا التردد بصور حية موحية تبين مدى الحيرة التي كانت في نفس عمرو، وذلك حين نسب إليه شعراً قال فيه:

فوالله ما أدري وما كنت هكذا	أكون ومهما قادني فهو سابقي
أخادعه إن الخداع دينة	أم اعطيه من نفسي نصيحة وامق
أو اقعد في بيتي وفي ذاك راحة	لشيخ يخاف الموت في كل شارق
وقد قال عبدالله قولاً تعلقت	به النفس إن لم يعتقلني عوائقي
وخالفه فيه أخوه محمد	وإني لصلب العود عند الحقائق[1]

وإن كانت هذه الرواية تصور حال عمرو عندما دعي إلى بلاد الشام، وتوضح موقفه من إجابة تلك الدعوة التي كان يحس من ورائها ورطة قد تودى به، وتعكر عليه صفو عيشه الذي كاد ينتهي من هذه الحياة، أو على الأقل تدخله في معركة ليس له فيها ناقة ولا جمل إلا أن ابن مزاحم المنقري رجل مردود الرواية عند أكثر المحدثين لأنه شيعي متعصب[2].

---

(١) ابن مزاحم المنقري (وقعة صفين) ص ٣٥.

(٢) وقعة صفين ومن المقدمة.

والخلاصة أن عمراً رضي الله عنه - اتهم كثيراً بأمور لا تتناسب مع مكانته الدينية، ومنزلته الاجتماعية وعمره الذي كان قد أوشك على الانتهاء، أي أنه نسب إليه ذلك وهو في وقت يسلم فيه الكافر، ويتوب فيه العاصي، ويقلع الفاجر عن فجوره.

على أن ذلك لو صح فإنني كما ذكرت سابقاً أحيله إلى أنهم بشر غير معصومين يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم.

ولقد ورد في حق عمرو بن العاص أحاديث كثيرة وصحيحة مدحه فيها الرسول ﷺ وأثنى عليه وعلى آل بيته، وذلك كقوله - عليه الصلاة والسلام -: (عمرو بن العاص من صالحي قريش)[1] وقوله: (نعم أهل البيت: عبيدالله وأبو عبدالله، وأم عبدالله)[2].

وقد ثبت أنه - رضي الله عنه - عندما حضرته الوفاة تاب توبة نصوحاً، فقد ذكر حاله في الكفر وحاله بعد إسلامه ثم قال: ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء فلا أدري عليّ أم لي؟ قال: وحول وجهه إلى الجدار، وجعل يقول: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا ولا يسعنا إلا عفوك، ووضع يده في موضع الغل من عنقه ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم لا قوي فأنتصر، ولا بريء فأعتذر، ولا مستنكر بل مستغفر، لا إله إلا أنت، ولم يزل يكررها حتى مات - رضي الله عنه[3].

إن تذكر التوبة عند الموت، ومحاسبة النفس على ما فرط منها والتبرؤ إلى الله من الحول والطول، وطرق باب عفوه ورحمته بالدموع كل ذلك من دلائل القبول، وعلامة من علامات العفو عن الزلات ومحو السيئات.

وليس لأحد بعد ذلك أن يقول في عمرو أو في غيره من الأصحاب البررة - رضوان الله عليهم - إلا خيراً ومن يقل غير ذلك فقد خسر خسراناً مبيناً.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) أخرجه البغوي.

(٣) ابن كثير (٨/٢٦، ٢٧).

مَعرَكة صِفّين

دانت العـراق كلها بالولاء لأمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ ومن قبلها بايعه أهل المدينة ولم يتنكر له أحد من أهل مكة، ولم يبق أمامه إلا الشام، وكان عليها معاوية بن أبي سفيان منذ ولاه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاة أخيه ـ يزيد ـ فقد طالت مدة إمارته عليها حيث حكمها ما يناهز العشرين عاماً، ولهذا ألفه الناس وألفهم، وخبروه وعرفهم حتى أصبح تعلقهم به أكثر من تعلقهم بأي شيء آخر في حياتهم، ولقد صاهر معاوية شيوخ القبائل اليمنية الموجودين ببلاد الشام فربط الصهر بينهم برباط زاد ما بينهم شداً وتوثيقاً.

وكان حلم معاوية وسخاؤه وحسن مجلسه مما يجعل القلوب تحيطه بحبها، والرجال تفديه بمهجها حتى كان معاوية يدل بهذا المركز المرموق، وقد وصل هذا الإدلال إلى حد التحدي ومقاومة كل مالا يراه في مصلحته.

وأحس معاوية بتأييد أهل الشام له، وكان أكثرهم من قبائل اليمن المشهورة بقوة المراس وشدة الشكيمة، وجاء مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ فاستغله معاوية في إثارة الأعصاب، وتحريك النفوس، وإيقاد نار الغضب في صدور الرجال، حتى ظل الناس يبكون تحت قميص عثمان ـ بعد أن علقه معاوية على المنبر ـ سنة كاملة، فكان هذا القميص هو الشرارة التي أشعلت أعظم حريق عرف بين صفوف المسلمين، بل هو الفتيل الذي فجر أضخم قنبلة قتلت عشرات آلاف من البشر.

وظل معاوية يعبىء الناس، ويحرضهم على القتال، حتى لا تخبوا جذوة الغضب في صدورهم، وهو بذلك يتربص بجيش علي حتى إذا حانت ساعة اللقاء واجهه بالثأر الثائر في النفوس، والغضب المتقد في الصدور حتى لا يهزم كما هزم أهل البصرة من قبل وحتى لا يقتل كما قتل طلحة وأصحابه.

لقد كانت موقعة الجمل نذيراً مرعباً لكل من يحاول مناوأة الخليفة أو الخروج على سلطانه ولقد سرت أنباؤها إلى الشام كما سرت إلى غيره من البلاد، وكان صداها في نفوس المناوئين فزعاً نغص عليهم حياتهم، وأقض مضاجعهم، كما كان وقعها في قلوب المؤيدين بهجة أشاعت الفرح والأمل في كل مكان.

وكان أمير المؤمنين حريصاً على ألا يراق دم طاهر بريء، وألا تقتل نفس مؤمنة بغير حق لهذا فكر في أن يرسل إلى معاوية رجلاً يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار، وأن يسمع ويطيع لولي الأمر الذي أجمع على بيعته أهل الحل والعقد وشيوخ الصحابة والبدريون ليحقن بذلك دماء المسلمين، ويجمع شملهم، ويدعم وحدتهم.

عرض علي هذا الرأي على أصحابه، وانتدب منهم رجلاً يقوم بتلك المهمة الجليلة، فقال جرير بن عبدالله البجلي: أرسلني إليه فإنه لي ودٌّ.

ولكن الأشتر عارض ذلك وألح على أمير المؤمنين ألا يرسل جريراً وقال: إن هواه مع معاوية.

فقال علي: دعه حتى ننظر ما الذي يرجع إلينا به[1].

وقال علي لجرير حين أراد أن يبعثه: إن حولي من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الدين والرأي من قد رأيت، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله ﷺ فيك: (إنك من خير ذي يمن) إيت معاوية بكتابي، فإن دخل فيما

(١) ابن الأثير (٣/٢٧٦).

دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه، وأعلمه أني لا أرضى بإمارته، وإن العامة لا ترضى به خليفة[1].

انطلق جرير يحدوه أمل كبير في قدرته على إقناع معاوية ببيعة علي والدخول فيما دخل فيه المسلمون، ولم يكن يخطر بباله قط أن معاوية سيرده خائباً، ونسيَ جرير أن الخصومة ليست على بعير ولا شاه، ولكنها خصومة على المنصب الكبير ذي الأغوار البعيدة في النفس البشرية في كل زمان ومكان.

ولكن جريراً فوجىء بما لم يكن يتوقع، حين قام معاوية خطيباً في أهل الشام بعد أن جمعهم وذكرهم بأنه خليفة عمر وعثمان على هذه البلاد، وإنه ولي عثمان وقد قتل مظلوماً وقرأ عليهم الآية الكريمة: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنّه كان منصوراً﴾[2] ثم قال: وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان.

فقام أهل الشام جميعهم، وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفني الله أرواحهم[3].

وأخذ جرير ـ رضي الله عنه ـ يستحث معاوية على البيعة، ويلح عليه في إعلانها، ولكن ـ معاوية قال له: يا جرير، إنها ليست بخلسة، وإنه أمر له ما بعده، فأبلعني ريقي حتى انظر.

ودعا معاوية أهل ثقته، واستشارهم في الأمر، فقال له عتبة بن أبي سفيان: اجتمع على هـذا الأمر مع عمرو بن العاص، وأثمن له بدينه فإنه من قد عرفت، وقد اعتزل أمر عثمان حياته، وهو لأمرك أشد اعتزالاً إنْ ير فرصة[4].

---

(١) المنقري ص ٢٨.

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٣.

(٣) المنقري ص ٣٢.

(٤) المنقري ص ٣٣.

ورأى جرير أن معاوية يماطل ولا يجيب فرجع إلى علي وأخبره بما رأى وما سمع، واتهم الأشتر جريراً بممالأة معاوية، فغضب جرير، وانصرف إلى قرقيسيا.

وأما علي فقد تأكد له أن القوم لن يدخلوا في الطاعة، ولم ينتهوا عما في نفوسهم حتى تقطع رؤوسهم، فخرج بجيشه حتى عسكر بالنخيلة، وهناك قدم عليه عبدالله بن عباس فيمن نهض معه من أهل البصرة.

وعلم معاوية بخروج عليٍّ على رأس جيشه فنهض هو الآخر على رأس جنوده، وعقد اللواء لعمرو ابن العاص، وعقد عمرو لغلامه وردان ولابنيه عبدالله ومحمد، وأما علي فقد عقد لواءه لغلامه قنبر.

وخرج معاوية مستأنياً في سيره، واستبطأ الوليد بن عقبة سير معاوية فاستحثه على السير فكتب إليه معاوية:

ومستعجب مما يرى من أناتنا ... ولو زَبَنَتْهُ الحرب لم يترمرم

علي يرسل الطلائع:

وأخذ أمير المؤمنين يبعث بالطلائع ليقف على أسرار القوم وخباياهم، فبعث زياد بن النضر في ثمانية آلاف، وألحق به شريح بن هانىء في أربعة آلاف، فلما بلغ المدائن وجه معقل بن قيس في ثلاث آلاف، وطلب منه أن يسلك طريق الموصل حتى يلتقي معه على الرقة.

ومن الرقة أراد علي أن يعبر النهر ليصل إلى الشام، ولكن أهل الرقة أبوا عليه، وامتنعوا عن عمل الجسر الذي طلبه، فخلف عليهم الأشتر، ونهض ليعبر إلى الشام على جسر منبج.

وغضب الأشتر عندما رأى أهل الرقة يرفضون عمل الجسر ليعبر أمير المؤمنين فناداهم قائلاً: يا أهل هذا الحصن، ألا إني أقسم بالله، لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسّروا له عند مدينتكم جسراً حتى يعبر لأجردن فيكم السيف، ثم لأقتلن الرجال، ولأخربن الأرض، ولآخذن الأموال.

وخاف الناس من وعيد الأشتر، وهم يعلمون أنه قادر على أن يفي لهم بما قال أو يصيبهم بما هو أعظم منه، لذا بعثوا إلى الأشتر، وأخبروه بأنهم سينصبون له جسراً، وأقبل علي ومن معه، فعبروا الجسر بأثقالهم وما يحملون.

وظن أمير المؤمنين أن القوم ربما كادوه بنصب الجسر، وخشيَ على جنوده أن يفعل الناس بالجسر شيئاً فيغرق بعضهم، فأمر الأشتر أن يقف على أول الجسر ومعه ثلاثة آلاف رجل حتى يعبر الجيش، وعبروا جميعاً بسلام.

ولما تم عبور الجيش قدم الطلائع التي كان قد عينها، وتقدمت الطليعة نحو جيش الشام وهناك عند سور الروم التقت الطليعة بمقدمة معاوية، وعليها أبو الأعور ـ عمرو بن سفيان ـ السلمي، فأرسل زياد وشريح إلى أمير المؤمنين يخبرانه بأنهما لقيا أبا الأعور ومعه جند من جنود الشام ودعوناهم فلم يجبنا أحد، فمرنا بأمرك[١].

فأمدهما أمير المؤمنين بالأشتر النخعي، وقال له: إذا قدمت فأنت عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدأوك حتى نلقاهم فندعوهم ونسمع منهم، ولا يحملك بغضك على قتالهم ـ قبل دعائهم والاعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً، ولا تدن منهم دون من ينشب الحرب، ولا تباعد منهم من يهاب اليأس، وكتب علي إلى زياد وشريح بذلك وأمرهما بطاعة الأشتر[٢].

وسار الأشتر وهو يحمل هذه الوصية من أمير المؤمنين، تلك الوصية التي تنم عن روح مخلصة حريصة على الخير، وتعطي انطباعاً بيناً عما يكنه أمير المؤمنين لجيش الشام إنه لم يخرج لقتال إلا أن يقاتل، ولم يخرج للإرهاب والإفساد، وإنما خرج يدعو المسلمين إلى العودة إلى الجماعة وإلى السمع والطاعة، وإن توجيهات أمير المؤمنين للأشتر وصاحبيه لتدل

---

(١) الطبري (٤/٥٦٧).

(٢) ابن الأثير (٣/٢٨٢).

على حرص شديد على الكف عن القتال، ألم تر إلى قوله للأشتر: (ولا يحملك بغضك على قتالهم) فهل كان جيش الشام على هذا المستوى من المعاملة؟

أغلب الظن أن جيش معاوية لم يكن لديه شيء من مثل هذه التوجيهات الغالية، وإلا لتم الصلح وحقنت الدماء، وعاد المسلمون صفاً واحداً.

وقف جيش الأشتر كافاً عن القتال كما أمره علي وهو بمواجهة جيش أبي الأعور وكلا الجيشين كاف لا يبدأ القتال حتى إذا دخل المساء تحين أبو الأعور فرصة وحمل على جيش الأشتر وتضاربوا ساعة، ثم انصرف أبو الأعور بجيشه.

والتقى الجيشان في اليوم الثاني، واقتتلوا طوال اليوم، وخرج الأشتر فحمل على جيش أبي الأعور وقال: أروني أبا الأعور، وكأن هذه الكلمة وقعت في نفس أبي الأعور موقعاً فتراجع بجيشه وعسكر الأشتر في مكان جيش أبي الأعور، وأرسل إليه يدعوه للمبارزة.

ولكن أبا الأعور رفض المبارزة لأنه لم ير الأشتر كفؤاً له، فرجع رسول الأشتر وخبره بما كان من أبي الأعور، ووقف الجيشان بلا قتال حتى حجز الليل بينهما، وعاد كل فريق إلى عسكره.

وأقبل عليٌّ ببقية جيشه، ونزل في محل الأشتر، وأخذ يبحث عن مكان مناسب ينزل فيه جنوده، فوجد جيش معاوية قد سبقه، وحط رحاله في مكان سهل منبسط على شريعة الفرات.

القتال على الماء:

قطع جيش أمير المؤمنين مسافة كبيرة من الكوفة إلى صفين، وصفين هذه قرية خراب من بناء الروم قريبة من الفرات، وقد لاقى الجيش كثيراً من

المتاعب أثناء رحلته، حتى بلغ العطش منه مبلغاً، ولم يكد أمير المؤمنين يحط رحله ليستريح من عناء سفر طويل حتى جاء الناس يشكون من عدم الماء، ومن صد جيش معاوية لهم عنه.

كان جيش أمير المؤمنين قد بلغ ثمانين ألفاً[1]، وهذا العدد الضخم لا يرويه إلا ماء الفرات، ولو صد عنه لم يستطع السكوت، ويضحي في سبيل الوصول إليه بالغالي والنفيس، ولو سكت أمير المؤمنين على ذلك يكون قد استسلم لأمر فرضه عليه أعداؤه، وتلك أول الهزيمة.

إن الهزيمة النفسية في مثل تلك المواقف تؤدي إلى الهزيمة الفعلية للجيش، بل إن الهزيمة النفسية أشد وبالاً على الجيش من الهزيمة العسكرية، لأن الهزيمة العسكريه يمكن استئناف الجهاد بعدها متى ما عبأ الجيش قواده، وأعادوا إليه ما فقد من عتاد وأما الهزيمة النفسية فإنها تظل تطارد صاحبها، ولا يرجى له برىء منها إلا بعد عناء طويل وجهد متواصل، وقد يجتاز هذه الهزيمة ولا يكون قادراً بعدها على حمل السلاح، لأن مجرد رؤية السلاح يعيد إلى نفسه أسباب تلك الهزيمة فتعاوده، وحينئذ يستعصي علاجها.

لذا فإن الخليفة قد أرسل على الفور صعصعة بن صوحان إلى معاوية، وأمره أن يقول له: إنا سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، فقدمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، ونحن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك.

وهذه أخرى قد فعلتموها، منعتم الناس عن الماء، والناس غير منتهين، فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء، وليكفوا فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له فإن أردت أن نترك ما جئنا له ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا[2].

---

(١) الدينوري ص ١٦٦.

(٢) ابن الأثير (٣/٢٨٤).

بلغ صعصعة رسالة أمير المؤمنين، وظل عند معاوية ينتظر جوابها، وجمع معاوية مستشاريه ليأخذ رأيهم فأشاروا عليه بمنعهم من الماء حتى يذوقوا حرارة العطش كما أذاقوها لعثمان ـ رضي الله عنه ـ وقال بعضهم: امنعهم الماء إلى المساء لعلهم يرجعون فيكون رجوعهم هزيمة لهم. أما عمرو ابن العاص فقد أشار عليه أن يخلي بينهم وبين الماء لأنه ليس من الإنصاف أن يشرب جيشه، ويبقى الآخرون عطاشاً.

ولكن معاوية استجاب لنداء المنع، وقال لصعصعة: اذهب وسيأتيكم رأيي. وأرسل إلى أبي الأعور يأمره بمنعهم من الماء ويمده بالجند ليحمي الشريعة[1].

وسمع علي بما فعل معاوية فأمر جنده أن يقاتلوهم على الماء، وجاء الأشعث بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين، أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا، ولّني الزحف إليه، فوالله لا أرجع أو أموت، ومر الأشتر فلينضم إليّ في خيله.

فقال علي: إيت في ذلك ما رأيت[2].

وسار جيش الأشعث حتى دنوا من جيش أبي الأعور فثاروا في وجوههم فرموهم بالنبل، ثم تطاعنوا بالرماح، ثم اقتتلوا بالسيوف، وأمد معاوية أبا الأعور بجيش من الخيالة يقوده يزيد بن أسد البجلي القسري، وأمد عليٌ الأشعث بشبث بن ربعي الرياحي فاشتد القتال، وخاف معاوية الهزيمة وهذه هي المعركة الأولى فإذا هزم فيها جيشه فلا يزال يهزم، لذا أمدهم بعمرو ابن العاص في جند كثيف، وأمد علي قواته بالأشتر في جمع ضخم وازداد القتال شدة وضراوة، وحمل جيش أمير المؤمنين حملة صادقة حتى أجلاهم عن الماء وأصبح في أيديهم.

وسقط في يد معاوية، وقال له عمرو بن العاص: ما ظنك بالقوم اليوم

(١) ابن الأثير (٣/٢٨٤) والشريعة المكان الذي يرده الناس للشرب.
(٢) الدينوري ص ١٦٩.

إن منعوك الماء كما منعتهم أمس؟ قال معاوية: دع ما مضى، ما ظنك بعلي؟ قال عمرو: ظني أنه لا يستحل منك ما استحللت منه لأنه أتاك في غير الماء[1].

وأخذت نشوة النصر أصحاب علي، فأقسموا ألا يسقوا أهل الشام من الماء، ولكن علياً لم يوافق على ذلك، فأرسل إليهم أن خذوا من الماء حاجتكم، وخلوا عنه، فإن الله نصركم ببغيهم وظلمهم[2].

وبهذا الرأي السديد لأمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ تمت الموادعة بين الجيشين وكف بعضهم عن بعض، واختلط الناس، ودخل بعضهم في معسكر بعض دون أن يتعرض أحد لأحد إلا بخير وراود الناس ما يكونون فيه من العافية لو تم الصلح.

أتاحت فرصة الموادعة هذه للناس أن يتصل بعضهم ببعض، وأن يلقي بعضهم بعضاً في سلم وسلام، فأقبل عبيدالله بن عمر واستأذن على علي فأذن له، فلما دخل عليه قال له علي: قتلت الهرمزان ظلماً، وقد كان أسلم على يدي عمي العباس، وفرض له أبوك في ألفين وترجوا أن تسلم مني؟

فقال له عبيد الله: الحمد لله الذي جعلك تطالبني بدم الهرمزان، وأنا أطالبك بدم أمير المؤمنين عثمان.

فقال له علي: ستجمعنا وإياك الحرب، فتعلم[3].

وظلت هذه الموادعة شهري ربيع وجمادي الأولى من عام ٣٧ هـ وكان الناس يفزعون فيزحف بعض على بعض، ويتدخل القراء والصالحون فيكفونهم عن القتال ويفرقون بينهم فيرجعون بغير قتال.

وما أن انتهى وقت الموادعة حتى بدأ كل فريق يعبىء جنوده، ويكتب

---

(١) نفسه.
(٢) ابن الأثير (٣/٢٨٥).
(٣) الدينوري ص ١٦٩.

كتائبه، ويستعد للنزال ولم تحدث حرب شاملة في تلك الفترة، بل كانت الفرق تخرج من هنا ومن هنا، ويقاتل بعضها بعضاً بين صفي الجيشين الكبيرين ثم تنحاز كل فرقة إلى جماعتها.

فلما أهل هلال رجب أمسك الفريقان عن القتال. وأتيحت فرصة أخرى لتبادل الآراء وذهب أبو الدرداء وأبو أمامة إلى معاوية وقالا له: علام تقاتل علياً وهو أحق بهذا الأمر منك؟ قال: أقاتله على دم عثمان.

قالا: أو هو قتله؟ قال: آوى قتلته، فسلوه أن يسلم إلينا قتلته، وأنا أول من يبايعه من أهل الشام.

فذهبا إلى علي فأخبراه بذلك، فخرج من معسكر عليّ نحو عشرين ألف رجل، وصاحوا نحن جميعاً قتلنا عثمان.

فاعتزل أبو الدرداء وأبو أمامة الحرب فلم يشهدا شيئاً منها، ولحقا ببعض السواحل[1].

المراسلة بين الفريقين:

انتهز علي فرصة الموادعة، ودعا بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد ابن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي، وقال لهم: ائتوا هذا الرجل، فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة.

فقال شبث بن ربعي: يا أمير المؤمنين، ألا تطمعه في سلطان توليه إياه، ومنزلة يكون له بها أثره عندك إن هو بايعك؟

فقال علي: إيتوه، فألقوه، واحتجوا عليه، وانظروا ما رأيه.

هكذا كان علي صريحاً في الحق لا يداهن ولا يحابي، ولعله إن وعد معاوية بشيء من ذلك يقبل معاوية، ويكف عن الحرب، ولكن علياً سيكون ملزماً بما وعد، ولا يستطيع أن يخلفه، وهو يعلم أن معاوية ليس أهلاً لذلك،

---

(١) نفسه والصحيح أن الذي ذهب إلى معاوية هما أبو هريرة وأبو أمامة فأبو الدرداء مات زمن عثمان.

فكيف يعده عدة ولا يلتزم بما وعد، إنه إن فعل خالف الحق الذي يؤمن به، وإن خالف ولم يفعل فقد وصم نفسه بصفة من صفات المنافقين، ثم من الذي يضمن له أن يقبل معاوية هذا العرض ولم يتخذه وسيلة للطعن في علي والتشهير به مدعياً أن علياً وعده ومناه ليصرفه عن المطالبة بحقه في دم عثمان، ولا يعلم أحد غير الله كيف تكون العواقب حينئذ.

وقد روى صاحب الإمامة والسياسة أن معاوية عرض على جرير ابن عبدالله البجلي أن يستقل بالشام ومصر جباية في عهد علي حتى إذا مات لم يجعل لأحد في عنق معاوية بيعة على أن يسلم معاوية الأمر إلى علي، ويكتب له بالخلافة.

ولكن علياً لم يلمح في كلام معاوية ما يدل على أنه سيبايع، وأن هذه حيلة يريد أن يخرج منها من بيعة علي، فرفض ذلك وكتب إلى جرير:

أما بعد: فإن معاوية إنما أراد بما طلب ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب وقد كان المغيرة بن شعبة أشار عليّ وأنا بالمدينة أن أستعمله على الشام فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني متخذاً المضلين عضداً فإن بايعك الرجل، وإلا فأقبل[1].

وذهب رسل علي إلى الشام، وطلبوا من معاوية أن يتقي الله، وأن يبايع لمن بايع له المهاجرون والأنصار، وأن يلزم جماعة المسلمين ولا يفرق أمرهم، ويريق دماءهم.

فقال معاوية: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟

قال أبو عمرة: إن صاحبي ليس مثلك، صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من رسول الله ﷺ.

ورفض معاوية ما عرض عليه بحجة أنه بذلك يطل دم عثمان، وأقسم

---

(١) ابن قتيبة (١/٩٥).

ألا يفعل ذلك أبداً، وقال للرسل: انصرفوا من عندي، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف[1].

وأرسل معاوية إلى علي يطالبه بتسليم قتلة عثمان، وأن يتخلى عن الخلافة وترد شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من رضوا وأحبوا.

وذهب الرسل إلى علي، وبلغوه ما حملهم معاوية، فطلبوا منه أن يسلمهم قتلة عثمان فقال: إني لا أستطيع ذلك، وهم زهاء عشرين ألف رجل.

وطلب حبيب بن مسلمة من علي أن يتخلى عن الخلافة، وترد شورى ليختار المسلمون من أراد ولكن علياً رفض هذا الطلب وقال لحبيب: وما أنت وذاك، لا أم لك، فلست هناك.

ورجع رسل علي فأخبروه بما كان من معاوية، كما عادت رسل معاوية تحمل إليه رأي علي.

القراء يسعون للصلح

وكان القراء من أهل العراق والشام قد حاولوا الإصلاح بين الفريقين، وترددوا بين الصفوف في محاولة لإنهاء الحرب وسفك الدماء، ورأى معاوية أن القراء والصالحين من المؤمنين قد أصبَحوا يميلون إلى علي بعد هذا التردد في المعسكرين، وخشي أن يجمعوا على بيعته فكتب على سهم هذه العبارة، من عبدالله الناصح: يا معشر أهل العراق، إن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات ليغرقكم فخذوا حذركم، ورمى بالسهم في معسكر أمير المؤمنين فأخذه الناس فقرأوه وتحدثوا به[2].

وبلغ الخبر علياً، فحاول أن يطمئن الناس، ويفهمهم أن فعل ذلك أمر

---

(١) الطبري (٤/٥٧٣، ٥٧٤).
(٢) ابن كثير (٧/٢٦٠).

مستحيل لا يمكن حصوله ولكن الناس قد فزعوا لهذا الأمر، وبخاصة وقد رأوا عمالاً يحفرون في جنب الفرات، وهؤلاء قد أرسلهم معاوية ليشوشوا على الناس ويقلقوا راحتهم.

وحاول علي مرة أخرى أن يقنع أصحابه بأن هذه خديعة، وأن معاوية إنما يفعل ذلك ليزيلهم عن مواقعهم لينزل فيها بجيشه، ولكن الناس لم يقتنعوا وأصروا عن هذا التحول عن هذا المنزل فتحولوا ونزل فيه معاوية[1].

وظل الناس على هذه الحال شهر ذي الحجة، ثم بدأ القتال بينهم، عليٌّ يعين كل يوم قائداً وأكثر قواده نزولاً في المعارك هو الأشتر النخعي، وكذلك كان معاوية يولي كل يوم قائداً، وكانت الفرق تتقاتل بين الصفوف، ولم تكن هناك حرب شاملة، وظلوا يقتتلون على هذا النحو شهر ذي الحجة بأكمله، وربما اقتتلوا في بعض الأيام مرتين[2].

ولما أهل هلال محرم من سنة ٣٨ هـ[3] توادع النـاس، ووضعوا سلاحهم آملين في أن يتم الصلح، واختلفت الرسل بين الفريقين، ولكن دون أن يقع صلح بينهم.

فحينئذ أرسل أمير المؤمنين ـ علي ـ رجلاً فنادى في الناس عند غروب الشمس: ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استأنيتكم لتراجعوا الحق، وأقمت عليكم الحجة فلم تجيبوا وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين[4].

ففزع أهل الشام لهذا النداء وأيقنوا أن الحرب قائمة على قدم وساق، وأخذ معاوية وعمرو ينظمون صفوف المقاتلين، ويقسمونهم إلى فرق وكتائب وعلى كل فرقة أو كتيبة أمير من شجعان المسلمين، وكذلك ظل علي ـ رضي

---

(١) ابن كثير (٧/ ٢٦٠).

(٢) نفسه.

(٣) في الطبري وابن الأثير أنه من عام ٣٧ هـ والمذكور هو رواية الدينوري.

(٤) ابن كثير (٧/ ٢٦٠).

الله عنه ـ يعبىء جيشه ويعين الأمراء وقد اختارهم من خيرة رجاله شجاعة وإقداماً، وبات طول ليلته يحرض رجاله على القتال ويرغبهم في الاستشهاد.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يوصي جنوده دائماً بألا يبدأوا القتال حتى يبدأ الخصم ويقول لهم: لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم، فأنتم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا دارا إلا بإذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في معسكر، ولا تهيجوا امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والنفس[1].

وأقبل أهل الشام، وبايع رجال منهم معاوية على الموت، فشدوا أنفسهم بالعمائم، وصفوا أنفسهم خمسة صفوف، وكانوا إذا خرجوا اصطفوا عشرة صفوف، ويخرج أهل العراق في أحد عشر صفاً.

بدء المعركة:

وبدأت المعركة يوم الأربعاء، وعلى أهل الكوفة الأشتر النخعي، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة وكانوا يخافون من تفاني الناس فكانوا يتقاتلون فرقة فرقة، وتقاتل الفريقان قتالاً شديداً معظم النهار، وكان ذلك الأربعاء هو أول صفر من سنة سبع وثلاثين[2].

وفي يوم الخميس الثاني من صفر خرج من أهل العراق هاشم بن عتبة المرقال يقود فرقة من جيش علي وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي في فرقة من جيش معاوية، واقتتلوا يومهم تحمل الخيل على الخيل والرجالة على الرجالة، وانصرفوا آخر النهار دون أن ينهزم أحد.

وفي الجمعة وهو اليوم الثالث خرج عمار بن ياسر، وخرج إليه

---

(١) الطبري (٥/١١).

(٢) المنفر ص ٢١٤.

عمرو بن العاص كل منهما يقود قطعة من جيشه واقتتلوا أشد ما يكون القتال، وأمر عمار زياد بن النضر وكان على الخيل أن يحمل فحمل على أهل الشام، وصبروا له، وحمل عمار على عمرو بن العاص فأزاله عن موقفه.

وبارز زياد بن النضر أخاً لهُ لأمه (عمرو بن معاوية) فلما التقيا تعارفا فانصرف كل منهما عن الآخر وتراجع الناس[1].

وبرز من أهل العراق رجل اسمه حجْل بن أثال وكان من فرسان العرب المعدودين فوقف بيَن الصفوف، ونادى: هل من مبارز؟ وكان متقنعاً بالحديد لا يعرفه أحد، فبرز إليه أبوه أثال وكان معدوداً من فرسان أهل الشام، وكان كذلك متقنعاً بالحديد، ولا يعرف أحدهما من صاحبه، وتطاردا وطعن كل واحد منهما صاحبه دون أن يصنع به شيئاً، والناس قد شخصت أبصارهم، ينظرون ماذا يصنع كل منهما بصاحبه، وحمل الأب على الابن فاحتضنه، ورفعه عن فرسه ورمى به إلى الأرض وسقط فوقه، فانكشفت حينئذ وجوههما فتعرف كل منهما على الآخر فانصرف ولم يحدث قتال غير ذلك[2].

فلما كان اليوم الرابع (السبت) خرج محمد بن علي (ابن الحنفية) وخرج له عبيد الله بن عمر في جمعين عظيمين فاقتتلوا أشد ما يكون القتال، وصبر كل فريق للآخر وأرسل ابن عمر إلى ابن الحنفية يطلب مبارزته فخرج له محمد، ولكن أباه رآه يتقدم إليه، فأخره وتقدم هو إلى ابن عمر ولكن ابن عمر تراجع دون أن يبارز أمير المؤمنين.

فقال محمد لأبيه، يا أبت لم منعتني من مبارزته؟ فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله.

فقال علي: لو بارزته لرجوت أن تقتله وما كنت آمن أن يقتلك.

فقال محمد: أو تبارز هذا الفاسق؟ والله لو أبوه سألك المبارزة لرغبت بك عنه.

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٩٥).

(٢) الدينوري ص ١٧٣.

فقال علي: يا بني لا تقل في أبيه إلا خيراً[1].

وفي اليوم الخامس (الأحد) خرج عبدالله بن عباس، وبرز له الوليد ابن عقبة واقتتل الناس قتالاً شديداً، وانغمس ابن عباس في أهل الشام ودنا من الوليد فأخذ الوليد يسب بني عبد المطلب، فأرسل إليه ابن عباس أن أبرز لي فامتنع، وقاتل ابن عباس قتالاً شديداً حتى غشى الناس بنفسه.

وفي اليوم السادس (الاثنين) خرج قيس بن سعد الأنصاري، وانبرى له ابن ذي الكلاع الحميري ودارت معركة عنيفة، وانصرف الناس بعدها كل فريق إلى عسكره.

ثم خرج الأشتر مرة ثانية، وبرز له حبيب بن مسلمة، فاقتتلا إلى الظهر، ثم انصرف الناس دون أن يغلب أحد، وكان ذلك يوم (الثلاثاء) السابع من شهر صفر عام سبعة وثلاثين من الهجرة.

ونظر أمير المؤمنين فوجد كثرة الضحايا من الجانبين دون أن يحرز أحد نصراً ورأى أن الأمر سيطول دون أن يحسم حتى تحقن هذه الدماء المهدرة وتحفظ النفوس المتعرضة للفناء وأيقن أنه لا بد من معركة حاسمة ينتهي فيها هذا الأمر الخطير، ليستريح من عنائه المسلمون فعزم على أن يناهض القوم بجيشه كله حتى تكون الفاصلة.

فقام علي في الناس يوم الثلاثاء بعد العصر فخطب فيهم خطبة جامعة قال في نهايتها: ألا إنكم ملاقوا القوم غداً، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، وسلوا الله ـ عز وجل ـ النصر والصبر، وألقوهم بالجد والحزم، وكونوا صادقين.

فوثب الناس إلى سلاحهم يصلحونه، وإلى رماحهم ونبالهم يقومونها، ومر بهم كعب بن جعيل التغلبي، فقال:

أصبحت الأمة في أمر عجب   والملك مجموع غداً لمن غلب

---

(١) الطبري (١٣/٥).

فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب[1]

وبات علي ليلته هذه يعبي الناس، ويحرضهم على القتال، ويحثهم على الزحف حتى أصبح فزحف بالناس وخرج معاوية في أهل الشام وتواجه الفريقان، وسأل علي عن القبائل، وأمر كل قبيلة ممن معه أن تكفيه نظيرتها من أهل الشام، ونهض الناس نهضة واحدة واشتبكوا في قتال عنيف لم ير مثله، ودامت المعركة إلى آخر النهار، وانصرف الناس وليس منهم غالب ولا مغلوب وكان ذلك يوم الأربعاء الثامن من شهر صفر.

فلما كان يوم الخميس بكر علي بصلاة الصبح، وخرج بأصحابه إلى أهل الشام، وزحف عليهم بجيش كثيف، وأما معاوية فقد رفعت له قبة عظيمة، وبايعه أكثر أهل الشام على الموت، ووقفت خيل أهل الشـام تحرس قبة معاوية، ولكن عبدالله بن بديل بن ورقاء الذي كان على ميمنة جيش أمير المؤمنين قد هجم على ميسرة معاوية وعليها مسلمة بن حبيب فكرها وأمالها عن موقعها، ولا يزال يكشفـهم حتى لجؤوا إلى خيمة معاوية عند الظهر[2].

فلما وصل عبدالله بن بديل إلى قبة معاوية أقبل الذين بايعوا على الموت فأمرهم بالصمود وأرسل مسلمة بن حبيب بميسرة الجيش فواجه بديل، ودارت معركة عنيفة انكشفت فيها ميمنة أهل العراق، ولم يبق في الميدان إلا عبدالله بن بديل ومعه ثلاثمائة من القراء.

وراوحت المعركة فصار النصر لهؤلاء تارة والنصر لأولئك تارة أخرى، فلما انهزمت ميمنة علي انصرف إلى الميسرة، وأخذ طريقه والنبل يمر فوق رأسه وبين عاتقه ومنكبيه وبنوه حوله يفتدونه بأنفسهم ولكنه يصرفهم، ويتقدم نحو أهل الشام.

وبصر به مولى لأبي سفيان فقصده، فخرج له مولى لعلي فاختلفا

---

(١) الطبري (٥/١٤).

(٢) ابن الأثير (٣/٢٩٧).

ضربتين فقتل أحمر مولى أبي سفيان كيسان مولى علي، ورأى على مصرع مولاه، فتقدم من أحمر، وأدخل يده في جيب درعه وحمله على عاتقه ثم رفعه وضرب به الأرض فانكسر منكباه وعضداه، وتقدم نحو أهل الشام بخطوات وئيدة، وقال له ابنه الحسن: لو أسرعت حتى تنتهي إلى هؤلاء من أصحابك فقال علي: يا بني إن أباك والله لا يبالي، أوقع على الموت، أم وقع الموت عليه[1]؟

وأخذ يثبت أهل الرايات ويدعو لهم بالخير والنصر والثبات، وتقدم الأشتر بأمر أمير المؤمنين وراح يحرض أصحابه، وتصدت له همدان وكانوا ثمانمائة واستبسلوا في القتال وصبروا حتى قتل منهم مائة وثمانون رجلاً، وأحد عشر رئيساً[2].

وزحف الأشتر نحو الميمنة، فلم يقصد كتيبة إلا كشفها، ومر به بعض رفاقه القواد محمولين إلى العسكر، وكانوا قد ثبتوا وصبروا حتى أصابهم ما أصابهم فقال: هذا والله الصبر الجميل والفعل الكريم، أما يستحي الرجل أن ينصرف ولا يقتل أو يشفي على القتل، وزادت حمية الأشتر وظل يقاتل حتى كشف أهل الشام، وقتل أربعة صفوف من الذين بايعوا على الموت، ولم يبق حول معاوية إلا صف واحد وأوشك معاوية أن ينهزم ويفر لولا أنه تذكر قول ابن الأطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي وأخذ الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريح

قال معاوية: فمنعني هذا القول من الفرار، ونظر إليه عمرو بن العاص وقال: اليوم صبر وغداً فخر، فقال معاوية: صدقت[3].

وتقدم عبدالله بن بديل برجاله نحو أهل الشام، ودارت بين الفريقين

(١) ابن الأثير (٣/٢٩٩).
(٢) نفسه (٣/٣٠٠).
(٣) نفسه (٣/٣٠٢، ٣٠٣).

معركة حامية، وترك عبدالله رجاله فيها يعتركون، وضرب فرسه حتى أحماه، وانطلق به نحو أهل الشام، فشق جموعهم وصار لا يقرب منه أحد إلا انقض عليه بسيفه فقتله، حتى انتهى إلى الرابية التي كان عليها معاوية، فهب أصحاب معاوية يدفعونه، وصاح فيهم معاوية: ويحكم إن الحديد لم يؤذن له في هذا، فعليكم بالحجارة.

فأخذوا يرمونه بالصخر حتى مات.

ووقف معاوية فعرفه، فقال: هذا كبش القوم، هذا كما قال الشاعر:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها　　وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

كليث عرين بات يحمي عرينه　　رمته المنايا قصدها فتقطرا

ورأى معاوية أن فرسان العراق قد اجترأوا على قبته، فهذا هو الهجوم الثاني، فأما الأول فكاد يفر وينهزم لولا أن تفانى الناس حوله حتى سقط أربعة صفوف من الخمسة الذين يدافعون عنه، ولم يكن لما ذكر من الشعر أبداً أن يثبته لولا دفاع الصف الخامس واستماتة رجاله واستبسالهم فماذا كان يغني الشعر لو أن الأشتر استطاع أن يتخلص من الصف الخامس وخلص إلى معاوية؟ لم يكن لابن الأطنابة أن يدافع عنه، فكيف بشعره مهما تدفق حماساً وفخراً وقوة؟

وأما الثانية فكاد يقع فريسة لسيوف أصحاب عبدالله بن بديل لولا أن أسعفته قريحته، وعلم أن السيوف لن تغني عنه شيئاً، فاقترح على أصحابه أن يستعملوا الحجارة والصخر فكان فيها حتف عبدالله البطل الذي روع معاوية، وذلك لأن الصخور حينئذ تحل محل القذائف فهي تصيب على بعد ليس للسيف أو الرمح أن يصل إليه.

وخشي معاوية أن يتكرر الهجوم، (وما كل مرة تسلم الجرة)[1] وفكر عمرو بن العاص في إنهاء المعركة بقتل أمير المؤمنين، فحرض عليه (حريثاً) مولى معاوية وكان فارساً شجاعاً يعتز به معاوية وكان حريث يلبس بزة

---

(١) مثل عامي يقال في مثل هذه الحالة.

معاوية، ويستلئم سلاحه، ويركب فرسه، ويحمل على أهل العراق متشبهاً بمعاوية، فإذا حمل قال الناس: هذا معاوية.

وكان معاوية قد نهى حريثاً عن أن ينازل علياً أو يواجهه، فقال اجتنب علياً وضع رمحك حيث شئت.

ولكن عمراً خلا به يوماً وقال له: يا حريث، ما يمنعك من مبارزة علي وأنت له كفء؟ قال: نهاني مولاي عنه.

قال عمرو: وإني والله لأرجو إن بارزته أن تقتله فتذهب بشرف ذلك.

ولم يزل يزين له قتل أمير المؤمنين حتى استقر في قلبه، فلما أصبحوا برز حريث بين الصفين وقال يا أبا الحسن، أبرز إليّ، أنا حريث، فبرز إليه علي فضربه فقتله[1].

ورأى علي كثرة القتلى، وشاهد بعينيه تفاني الناس في القتال، وكان يعز عليه قتل المؤمنين بعضهم بعضا، ويحس من قرارة نفسه أنه إن فني هؤلاء الشجعان فمن لحماية الإسلام ومن للأعداء المتربصين من الفرس والروم؟ فهو وإن أمن انتقاض العرب، حيث لم يكن هناك مجال للردة مرة أخرى، فإن غير العرب لازالوا موتورين، ولازالت بلادهم تحت سيطرة المسلمين حتى هذه البقعة التي تدور فوقها تلك المجزرة الرهيبة.

وإن الإنسان ليقف أمام تلك الأحداث مدهوشاً عجباً، كيف لم يستغل أعداء الإسلام هذه الخلافات البشعة التي فرقت جمع المسلمين ومزقت وحدتهم، ودفعتهم لأن يقتل بعضهم بعضاً؟ أين كانت قيادتهم المدبرة؟ بل أين كانت جيوشهم الهادرة الثائرة؟.

إنني لعلى يقين من أن الذي صرف تفكير القوم عن غزو المسلمين في تلك الظروف إنما هو تدبير الله ـ عز وجل ـ لحفظ هذا الدين واستمرار بقائه، وإلا فليس للأعداء في مثل ذلك الوقت دافع ولا راد إلا الله ـ سبحانه وتعالى.

---

(١) الدينوري ص ١٧٦.

إن ملك الروم لا يزال ملاصقاً لبلاد الشام التي تدور على أرضها المجزرة الرهيبة وإن معاوية مهما أهدى إلى ملك الروم، ومهما كانت الهدايا نفيسة قيمة لا ترد قيصر عن استرداد بلاده المفقودة في مثل تلك الظروف المهيئة للانقضاض والنصر.

ولم تكن جيوش القسطنطينية من الضعف بحيث لا تستطيع الدخول في معركة مع هذه الجيوش المتناحرة، فقد ثبتت طويلاً في وجه قوات المسلمين، واستعصت على الهزيمة والفرار طول عهد الأمويين والعباسيين، حتى سقطت القسطنطينية في يد محمد الفاتح في منتصف القرن الخامس عشر المسيحي.

إن الله ـ عز وجل ـ الذي تكفل بحفظ هذا الدين هو وحده ـ سبحانه ـ الذي صرف الأعداء عن غزو بلاد المسلمين.

ولعل هذه الخواطر طرأت على قلب أمير المؤمنين علي ـ حينما رأى سقوط فرسان المسلمين ـ وأبطالهم صرعى تحت ضربات السيوف ففكر في أن ينهي القتال بأسلوب يحقن دماء المسلمين، ويسكن هذه الفتنة الطائشة، وحينئذ اقترح على معاوية أن يخرج له ليبارزه وبعث إليه: لم نقتل الناس بيني وبينك؟ أبرز إلى فأينا قتل صاحبه تولى الأمر.

وهذا هو منتهى الإنصاف في مثل تلك الحالة، ولكن معاوية خشى العاقبة فاختلا بعمرو بن العاص ليأخذ رأيه وسأله: ما ترى؟

قال عمرو: قد أنصفك الرجل، فابرز إليه.

فقال معاوية: أتخدعني عن نفسي، ولم أبرز إليه ودوني عك والأشعريون؟

ثم قال:

ما للملوك وللبراز وإنما ... حظ المبارز خطفة من بارز

وغضب معاوية من عمرو لاعتقاده أنه أراد خداعه حتى إذا قتل خلا له

الجو بعده فينفرد بما يقاتل عليه معاوية، وهجر معاوية عمراً أياماً[1].

قال عمرو لمعاوية: إني خارج إلى علي غداً، فلما أصبحوا برز عمرو بين الصفين ونادى علياً: يا أبا الحسن أخرج إليّ أنا عمرو بن العاص.

فخرج إليه علي، وتطاعن الرجلان دون أن يحدث أحدهما بصاحبه شيئاً فانتضى علي سيفه وحمل على عمرو، ورأى عمرو أنه مقتول لا محالة، وقد علاه علي بالسيف فألقى بنفسه إلى الأرض، ورفع رجله، فبدت عورته فصرف على وجهه، وتركه.

فقال له أصحابه: مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه؟ فقال أتدرون ما هو؟ قالوا: لا، قال: هذا عمرو بن العاص تلقاني بسوءته، فذكرني بالرحم، فرجعت عنه.

فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له: احمد الله واحمد إستكَ[2].

وحمى الناس وحمل بعضهم على بعض، واقتتلوا حتى تكسرت الرماح، وتقطعت السيوف، ثم تكادموا بالأفواه، وتحاثوا بالتراب، ثم تنادوا من كل جانب: يا معشر العرب من للنساء والأولاد؟ الله الله في الحرمات.

وعلي ـ رضي الله عنه ـ ينغمس في أهل الشام فيضرب بسيفه حتى ينثني، ثم يخرج متخضباً بالدم حتى يسوي له سيفه، ثم يرجع ويعاود الكرة، وربيعة معه لا تضن بجهد، ولا تبخل بالأرواح، وظل الأمر كذلك حتى غابت الشمس، وقربوا من المكان الذي يقيم فيه معاوية ونظر معاوية إلى عمرو وقال: ما ترى؟

قال عمرو: أرى أن تخلي سرادقك.

فنزل معاوية عن المنبر الذي كان يقف عليه ليراقب سير المعركة،

---

(١) الدينوري ١٧٦، ١٧٧.

(٢) ابن كثير (٧/٢٦٤) والاست الدبر.

وترك السرادق خالياً وأقبلت ربيعة وأمامها علي ـ رضي الله عنه ـ حتى دخلوا سرادق معاوية، فقطعوه ثم انصرفوا.

واستمرت المعارك على هذا النحو أياماً طوالاً، ولم يتحقق النصر لأحد الفريقين، فقد تقطعت السيوف وتكسرت الرماح، وأظلمت الأرض من القتام، وأصاب الناس البهر، وبقي بعضهم ينظر إلى بعض بهيراً، وحجز بينهم الليل.

والتقت قبيلتان؛ عك من أهل الشام مع همدان من أهل العراق، وتقاتلا قتالاً شديداً، واضطربت بالسيوف، وأقسمت عك ألا ترجع حتى ترجع همدان، وأقسمت همدان ألا ترجع حتى ترجع عك، وصبر كل فريق للآخر، ولم يتراجع أحد.

فقال عمرو لمعاوية: لقيت أسد أسداً، لم أر كاليوم قط.

فقال معاوية لعمرو: لو أن معك حياً آخر كعك، ومع علي حي آخر كهمدان لكان الفناء[1].

معاوية يكتب لعلي وعلي يرد

وكتب معاوية إلى علي:

بسم الله الرحمن الرحيم: من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، أما بعد، فإني أحسبك أن لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك وبنا ما بلغت لم نجنها على أنفسنا، فإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا، فقد بقي لنا منها ما ينبغي أن نندم على ما مضى، ويصلح ما بقى، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا أخاف القتل إلا ما تخاف، وقد والله رقت الأجناد، وتفانى الرجال، ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا ما يستزل به العزيز ولا يسترق به الحر، والسلام[2].

---

(١) الدينوري ص ١٨٦.

(٢) نفسه ص ١٨٧.

فكتب إليه علي ـ رضي الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك وبنا ما بلغت لم نجنها على أنفسنا، فاعلم أنك وإيانا منها إلى غاية لم نبلغها بعد وإما استواؤنا في الخوف والرجاء، فإنك لست أمضى عَلَيَّ منى على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة.

وأما قولك: إنا بنو عبد مناف، وليس لبعضنا فضل على بعض فليس كذلك، لأن أمية ليس كهاشم ولا حرباً كعبد المطلب، ولا أبا سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق وفي أيدينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز، ودان لنا بها الذليل[1].

وغدا علي بأصحابه بعد صلاة الفجر فزحف إلى أهل الشام، وتقدم الأشتر، وحمى الوطيس وشق الأشتر صفوف أهل الشام، وكسر فيهم ثلاثة أرماح، وأخذ الناس يضرب بعضهم بعضاً بالسيوف وأعمدة الحديد.

مقتل عمار بن ياسر:

وحرج عمار بن ياسر يوماً فحرض الناس على القتال وقال: أين من يبتغي رضوان الله؟ ولا يثوب إلى مال ولا ولد، فاجتمعت عليه عصابة من الناس فقال: أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم عثمان ابن عفان، ويزعمون أنه قتل مظلوماً، والله ما طلبتم بدمه، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرؤوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقوا بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، وتلك مكيدة ـ بلغوا بها ما ترون، ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان، اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم[2].

---

(١) الدينوري ص ١٨٧.

(٢) الطبري (٥/٣٩).

وتقدم عمار بمن تبعه حتى دنا من عمرو بن العاص فقال: لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاثاً، وهذه الرابعة ما هي بأبر ولا أتقى.

وكان عمار ـ رضي الله عنه ـ لا يسير في طريق، ويسلك وادياً إلا تبعه أصحاب رسول الله في جيش عليٍّ يسيرون بسيره، ومشى عمار نحو هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص المعروف بالمرقال، وهو صاحب راية أمير المؤمنين، فقال عمار: يا هاشم، أعَوَراً وجبناً؟ لا خير في أعور لا يغشى البأس، إركب يا هاشم، فركب ومضى معه.

وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت تحت أطراف الأسل وقد فتحت أبواب السماء، وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة، محمداً وحزبه[1].

وقاتل عمار هو وهاشم قتالاً شديداً، ودب الوهن في صفوف الشاميين، وكادت المعركة تنحسر عن نصر مؤزر لأمير المؤمنين، وحينئذ نبتت في رؤوس أهل الشام فكرة التحكيم، أشار بها عمرو ابن العاص على معاوية.

ففي صبيحة ليلة الهرير، وهي الليلة التي دار القتال فيها طول النهار والليل دون أن يفتر قام عليٌّ في الناس خطيباً فقال: أيها الناس، إنه قد بلغ بكم وبعدوكم الأمر إلى ما ترون ولم يبق من القوم إلا آخر نفس، فتأهبوا رحمكم الله لمناجزة عدوكم غداً، حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين[2].

وبلغ ذلك معاوية، فرجع إلى مستشاره عمرو وقال: ما ترى، فإنما هو يومنا هذا وليلتنا هذه وحينئذ أشار عمرو برفع المصاحف ودعوة الناس إلى التحكيم.

ووقعت الفرقة في أصحاب علي: بعضهم يؤيد التحكيم، وبعضهم

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٣١٠).

(٢) الدينوري ص ١٨٨.

يرفضه ويرى الاستمرار في القتال وكان من الرافضين عمار بن ياسر، وشرح وجهة نظره لعلي ـ رضي الله عنهما ـ فقال علي: والله إني لهـذا الأمر لكاره[1].

واطمأن عمار إلى صواب رأيه حين وافقه أمير المؤمنين، فنادى في الناس: هل من رائح إلى الجنة فخرج إليه زهاء خمسمائة رجل، واستسقى عمار الماء، فأتاه غلام له بإداوة فيها لبن، فلما رآه كبر وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «آخر زادك من الدنيا لبن»[2].

قال عمار: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلته، وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته.

والله إني لأرى قوماً ليضربنكم ضرباً يرتاب منه المبطلون، وأيم الله، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أنا على الحق، وأنهم على الباطل.

ثم حمل هو وهاشم بن عتبة فلم يرجعا وقتلا.

وكان لمقتل عمار صدى وهزة عنيفة في العسكرين، فأما أصحاب علي فقد اطمأنوا أنهم على الحق وزاد يقينهم بتأييد الله لهم. فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بأن الفئة التي تقتل عماراً هي الفئة الباغية، وقد تبين بقتله أن علياً محق، وأن معاوية باغٍ [3].

وأما أصحاب معاوية فقد وقع الخبر منهم موقعاً سيئاً، وكان ذو الكلاع الحميري قد سمع عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ لعمار ابن

---

(1) ابن قتيبة (١/١٢٦).

(2) نفسه.

(3) ابن كثير (٧/٢٦٧).

ياسر: (تقتلك الفئة الباغية وآخر شربة تشربها صاع لبن).

فلما رأى ذو الكلاع عماراً يقاتل مع علي ارتاب، وأخذ يقول لعمرو: ويحك. ما هذا يا عمرو فيقول له عمرو: إنه سيرجع إلينا.

ولكن ذا الكلاع مات قبل عمار، ولم يعرف الفئة الباغية، ولذلك لما مات عمار قال عمرو لمعاوية: والله ما أدري بقتل أحدهما أنا أشد فرحاً، بقتل عمار أو ذي الكلاع، والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام، ولأفسد علينا جندنا[1].

وكان رجال يأتون إلى معاوية كل يدعي أنه قتل عماراً، وكلما ادعى رجل ذلك سأله عمرو فما سمعته يقول؟ فيخلطون، حتى حضر قاتله، وسأله عمرو فقال: سمعته يقول اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه، فقال عمرو: أنت صاحبه، ثم قال: رويداً والله ما ظفرت يداك، ولقد أسخطت ربك[2].

وروى ابن الأثير أن قاتل عمار عاش حتى زمن الحجاج، ودخل عليه فأكرمه الحجاج وقال له: أنت قتلت ابن سمية ـ يعني عماراً؟ قال: نعم.

قال الحجاج: من سره أن ينظر إلى عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلى هذا الذي قتل ابن سمية.

وسأل قاتل عمار الحجاج حاجته، فلم يجبه إليها، فقال الرجل: نوطىء لهم الدنيا، ولا يعطونا منها، ثم يزعم أني عظيم الباع يوم القيامة.

فقال الحجاج: أجل والله، من كان ضرسه مثل أحد، وفخذه مثل جبل ورقان، ومجلسه مثل المدينة والربذة إنه لعظيم الباع يوم القيامة، والله لو أن عمراً قتله أهل الأرض كلهم لدخلوا كلهم النار[3].

وتبلبل الناس في عسكر معاوية لقتل عمار، وأمسك فريق منهم عن

---

(١) ابن كثير (٧/٢٦٨).
(٢) ابن الأثير (٣/٣١٠).
(٣) نفسه (٣/٣١١).

القتال، وقال عبدالله ابن عمرو لأبيه: يا أبت، قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا، وقد قال فيه رسول الله ما قال؟ قال عمرو: وما قال؟.

قال: ألم تكن معنا ونحن نبني المسجد، والناس ينقلون حجراً حجراً ولبنةً لبنة، وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين، فغشي عليه، فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: (ويحك ابن سمية. الناس ينقلون حجراً حجراً، ولبنةً لبنة، وأنت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منك في الأجر وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية)[1].

ولم يكد عمرو يسمع هذا من ولده حتى دفع صدر فرسه، ثم جذب معاوية إليه فقال: يا معاوية، أما تسمع ما يقول عبدالله؟ قال: وما يقول؟ فأخبره الخبر.

فقال معاوية: إنك شيخ أخرق، ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض في بولك أو نحن قتلنا عماراً؟ إنما قتل عماراً من جاء به.

فخرج الناس يرددون تلك الكلمة ويقولون: إنما قتل عماراً من جاء به[2].

يقول ابن كثير - رحمه الله: هذا التأويل الذي سلكه معاوية - رضي الله عنه - بعيد[3].

وكما تأول معاوية - رضي الله عنه - قتل عمار على هذا النحو، تأول كذلك وصفه وجماعته بالفئة الباغية، فكان يقول: إنما نحن الفئة الباغية التي تبغي دم عثمان[4]، وهذا ولا شك أبعد في التأويل من سابقة.

وسأل علي عدياً: يا عدي، قتل عمار بن ياسر؟ قال عدي: نعم، فبكى

(١) الطبري (٥/٤١) وروى البخاري معناه.
(٢) الطبري (٥/٤١).
(٣) ابن كثير (٧/٢٧١).
(٤) ابن قتيبة (١/١٢٦).

علي وقال: رحمك الله يا عمار، استوجب الحياة والرزق الكريم، كم تريدون أن يعيش عمار، وقد نيف على التسعين؟(١).

هزيمة جيش الشام:

أقبل الأشتر النخعي على أمير المؤمنين، وهو جريح فقال: يا أمير المؤمنين خيل كخيل ورجال كرجال، ولنا الفضل إلى ساعتنا هذه، فعد مكانك الذي كنت فيه، فإن الناس إنما يطلبونك حيث تركوك.

ودعا علي بفرسه التي كانت لرسول الله ﷺ ثم جعل بغلة رسول الله الشهباء إلى جانبه وتعصب بعمامة رسول الله السوداء، ونادى الناس: من يبع نفسه اليوم يربح غداً، يوم له ما بعده إن عدوكم قد قدح كما قدحتم.

وانتدب علي من أصحابه اثني عشراً ألفاً، فحمل بهم حملة رجل واحد، فلم يبق صف من صفوف أهل الشام إلا انتفض، وقتل في هذا الموطن خلق كثير من الفريقين لا يعلم إلا الله عددهم، وطارت أكف ومعاصم ورؤوس عن كواهلها.

وحانت صلاة المغرب فصلوا العشاءين إيماء، واستمر القتال، واستشرى الشر، وكانت ليلة الجمعة، والناس يقتتلون في كل ناحية، واستعملوا كل أسلحة الحرب في تلك الليلة، فتقاتلوا بالرماح حتى تقصفت، وثنوا بالنبال حتى فنيت، واستعملوا السيوف حتى فلت، فلم يكن بد من أن يتقاتلوا بالأيدي والحجارة وحثو التراب في الوجوه، وتعاضوا بالأسنان.

يقتتل الرجلان حتى يثخنا فيجلسان ليستريحا، وكل واحد منهما يتوعد صاحبه فإذا استراح قاما يقتتلان كما كانا.

واستمر الحال على ذلك حتى أصبح الناس فصلوا الصبح إيماء والقتال على أشده حتى أصبح النهار، ومالت كفة أهل الشام وترجح النصر لأمير المؤمنين.

---

(١) نفسه.

رفع المصاحف وطلب التحكيم

رأى معاوية رجحان كفة أمير المؤمنين، وتأكد أن النصر أصبح منه قاب قوسين أو أدنى فاستشار عمرو بن العاص فأشار إليه برفع المصاحف، وطلب التحكيم إلى كتاب الله ـ عز وجل ـ وجاءت الفكرة في وقتها، فالفريقان قد أنهكا، ومات منهما خلق كثيرة قدره ابن سيرين وسيف بسبعين ألف قتيل خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق[1].

لهذا لم تكد تعرض فكرة التحكيم برفع المصاحف من قبل أهل الشام حتى ثاب الناس إليها من الفريقين وكأنها ضالة غالية وقد عثروا عليها، ولكن أمير المؤمنين أدرك أن هذه حيلة لم يقصد بها من نادى إليها إلا تثبيط همم المقاتلين الذين أوشكوا أن يحرزوا نصراً يعتز به الحق وأهله.

وحاول أمير المؤمنين أن يثني أصحابه عن قبول الفكرة، ويفهمهم أن القوم قد لجؤوا إليها حين عضتهم السيوف وأكلتهم الحرب، ولكنهم كانوا كالغريق الذي رأى القشة فحسبها قارب النجاة وباءت محاولات علي بالفشل.

والعجيب أن الذين أجبروا علياً على قبول التحكيم هم جماعة القراء، وهم أنفسهم الذين كفروا علياً بعد ذلك لأنه قبل التحكيم، وقالوا: حكمت الرجال؟ لا حكم إلا لله، وهم الذين كانوا نواة فاسدة للخوارج قالوا: يا علي، أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا دفعناك برمتك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، إنه غلبنا أن يعمل بكتاب الله فقتلناه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك.

قال علي: فاحفظوا عني نَهيي إياكم، واحفظوا مقالتكم لي، أما أنا فإن تطيعوني فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدالكم[2].

وأصر القوم على وقف القتال وقبول التحكيم، ورأى عليّ أن الأمر قد

---

(١) ابن كثير (٧/٢٧٥).

(٢) نفسه (٧/٢٧٤).

خرج من يده، وأن جماعة القراء قد أفسدوا عليه تدبيره، وتبين أنه إذا لم يطعهم فإنها الفتنة قد. وقعت بين أصحابه وقد تكون عواقبها أو خم مما يخطر بالبال فنزل أمير المؤمنين على رغبتهم، وحينئذ طلبوا منه أن يرسل إلى الأشتر ليوقف القتال، ويكف عن الحرب.

وبعث أمير المؤمنين يزيد بن هانىء إلى الأشتر ليوقف القتال، فأجاب الأشتر: هذه ساعة لا ينبغي أن تزيلني عن موقفي فيها، إني قد رجوت أن يفتح الله عليّ، فلا تعجلني.

ورجع يزيد بن هانىء إلى أمير المؤمنين، وأخبره بما قال الأشتر، وتصميم الأشتر على القتال ينتهز الفرصة.

وصاح القوم بعلي قائلين والله ما نراك إلا أمرته بالقتال.

فقال علي: هل رأيتموني ساررته؟ ألم أبعث إليه جهرة وأنتم تسمعون؟

فقالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلا والله اعتزلناك.

وأحس أمير المؤمنين بالفتنة تتغلغل في نفوس القوم فأرسل إلى الأشتر ليُقبل إليه، وأخذ الأشتر يتململ ويقول: ويحك، ألا ترى إلى ما نحن فيه من النصر ولم يبق إلا القليل؟

فقال يزيد بن هانىء للأشتر: أيهما أحب إليك أن تقبل أو يقتل أمير المؤمنين كما قتل عثمان - فأقبل الأشتر وهو مغيظ محنق، فلما وقف على القوم قال: يا أهل العراق، يا أهل الذل والوهن أحين علوتم القوم، وظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وسنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم.

أمهلوني فإني قد أحسست بالفتح، قالوا: لا.
قال: أمهلوني عدو فرس فإني قد طمعت في النصر.
قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك[1].

---

(١) ابن كثير (٧/٢٧٤).

وأخذ الأشتر يحاورهم ويقول: فخبروني عنكم، متى كنتم محقين؟ أحين تقاتلون وخياركم يقتلون؟ فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مبطلون، أم أنتم الآن محقون؟ فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم وهم خير منكم في النار.

قالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم لله، وندع قتالهم لله.

قال: خدعتم فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أرى مرادكم إلا الدنيا، ألا قبحاً يا أشباه النِّيب الجلالة، ما أنتم برائين بعدها عزا أبداً، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون[1].

وتَسَابَّ الأشتر والقراء وضربوا وجه دابته وضرب وجوه دوابهم حتى صاح بهم علي فكفوا وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً.

اختيار الحكمين:

غلب أمير المؤمنين على أمره وعصاه من كانوا معه على كلمة سواء، واجتمع قراء أهل العراق، وقراء أهل الشام، وقعدوا بين الصفين ومعهم المصحف يتدارسونه، واتفقوا على أن يحكموا حكمين[2].

اتفق أهل الشام على اختيار عمرو بن العاص حكماً عنهم، واختلف أهل العراق في اختيار من يمثلهم، رأى علي أن يختار ابن عباس، وقال للقوم: إن عمرو بن العاص رجل قريش ولا يصلح له إلا رجل مثله، فأبى القوم، وقال الأشعث بن قيس ومن معه من قراء أهل العراق: قد رضينا نحن بأبي موسى.

فقال علي: لست أثق برأي أبي موسى ولا بحزمه، ولكن أجعل ذلك لابن عباس.

---

(١) ابن الأثير (٣/٣١٨).

(٢) الدينوري ص ١٩٢.

قالوا: والله ما نفرق بينك وبين ابن عباس، وكأنك تريد أن تكون أنت الحاكم، بل اجعل رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى أحد منكما بأدنى منه إلى الآخر.

قال علي - رضي الله عنه: فلم ترضون لأهل الشام بابن العاص، وليس كذلك؟

قالوا: أولئك أعلم، إنما علينا أنفسنا.

قال علي: فإني أجعل ذلك إلى الأشتر.

فقال الأشعث بن قيس: وهل سعر هذه الحرب إلا الأشتر، وهل نحن إلا في حكم الأشتر؟

قال علي: وما حكمه؟

قال: يضرب بعض وجوه بعض حتى يكون ما يريد الله.

قال علي: فقد أبيتم إلا أن تحكموا أبا موسى؟ قالوا: نعم.

قال: فاصنعوا ما أحببتم[١].

وبعث الناس إلى أبي موسى، وأخبروه بما كان، فأقبل حتى دخل على علي، وولوه الأمر ورضوا به فقبله.

أحس الأحنف بن قيس بخطورة الموقف، ورأى أن الأمور تسير في غير طريقها، وعلم أن أبا موسى ليس ممن يصلح لهذا الأمر، فأين هو من دهاء عمرو بن العاص وذكائه، ولكن ماذا يفعل وقد غلب الناس على أمير المؤمنين، واختلفوا عليه في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلا الاتفاق والألفة؟ أيسكت على ما يجري أم يقول رأيه ويبرىء ذمته، ويخلص النصح لمن بايعه؟

عزم الأحنف أن يدلي برأيه، وأن ينصح لأميره مهما ترتب على ذلك، لأنه رأى أن السكوت خيانة وتقصير في أمر لا يجوز التقصير فيه.

---

(١) الدينوري ص ٩٢.

فذهب إلى أمير المؤمنين وقال: إنك قد منيت بحجر الأرض، وداهية العرب، وقد عجمت أبا موسى فوجدته كليل الشفرة، قريب القعر، وأنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل يدنوا من صاحبه حتى يكون في كفه، ويبعد منه حتي يكون مكان النجم، فإن شئت أن تجعلني حكماً فافعل، وإلا فثانياً أو ثالثاً

فإن قلت: إني لست من أصحاب رسول الله ﷺ فابعث رجلاً من صحابته واجعلني وزيراً له ومشيراً.

فقال علي: قد أبى القوم إلا أبا موسى والله بالغ أمره[1].

وثيقة التحكيم:

استقر الرأي على أن يمثل عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أهل الشام، وأن يمثل أبو موسى الأشعري ـ عبدالله بن قيس ـ أهل العراق، وكتبوا بينهم كتاباً هو وثيقة التحكيم وهذا نصها.

هذا ما تقاضي عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ قضية علي على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب، وقضية معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب إنا رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم، وأن نقف عند أمره فيما أمره، وأنه لا يجمع بيننا إلا ذلك، وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكماً فيما اختلف فيه من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، على ذلك تقاضينا، وبه تراضينا.

وإن علياً وشيعته رضوا أن يبعثوا عبدالله بن قيس (أبو موسى) ناظراً ومحاكماً، ورضي معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظراً ومحاكماً.

على أنهما أخذ[2] عليهما عهد الله على أحد من خلقه ليتخذان الكتاب

---

(١) الدينوري ص ١٩٣

(٢) في الأصل أخذوا وما أثبته هو ما يوافق قواعد اللغة.

إماماً فيما بعث إليه، ولا يعدونه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً، وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله ﷺ الجامعة، لا يتعمدان لهما خلافاً، ولا يتبعان في ذلك لهما هوى، ولا يدخـلان في شبهة[1].

ونصت الوثيقة على أن يكون الحكمان آمنين على دمائهما وأموالهما وحريمهما، والأمة على ذلك أنصار، كما نصت على أن يلقي الفريقان السلاح إلى انتهاء الأجل وهو انقضاء شهر رمضان وعلى الحكمين ألا يؤخرا الأمر عن الأجل المسمى، فإن أحبا أن يؤجلا فلهما ذلك عن تراض منهما، وعلى أن يرجع أهل العراق إلى عراقهم، وأهل الشام إلى شامهم.

وحددت الوثيقة مكان الاجتماع وهو دومة الجندل، وذلك لأنها مكان وسط بين العراق والشام وضمن أهل العراق الوفاء لأهل الشام، كذلك ضمن أهل الشام الوفاء لأهل العراق وشهد كل فريق على وثيقة الفريق الآخر[2].

فلما كتبت الصحيفة دعى الأشتر ليوقع عليها فرفض، لأنه لم يرض بالصلح والموادعة وقال: لا صحبتني يميني، ولا نفعتني بعدها شمالي إن خط لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة، أو لست على بينة من ربي ومن ضلال عدوي؟ أو لستم قد رأيتم الظفر لو لم تجمعوا على الجور[3]؟ كتبت هذه الوثيقة في يوم الأربعاء السابع عشر من شهر صفر سنة سبع وثلاثين، وأقام الناس في صفين منذ اجتمعوا إلى أن كتبت الوثيقة من أول ذي الحجة سنة ست وثلاثين إلى اليوم السابع عشر من شهر صفر سنة سبع وثلاثين، فكانت مدة إقامتهم في صفين سبعة وسبعين يوماً[4].

رحم الله قتلى الجمل وصفـين لقد كان كل منهم حريصاً على إحقاق

---

(١) المنقري ص ٥٠٤، ٥٠٥.
(٢) ابن قتيبة (١/٣٣).
(٣) الطبري (٥/٥٥).
(٤) ابن كثير (٧/٢٧٥).

الحق، باحثاً عن الصواب فمنهم المجتهد المصيب وهذا له أجران، ومنهم المجتهد المخطىء وقد بشره الرسول ﷺ بأجر واحد، ولقد قال زياد ابن أنعم ـ وقد ذكر عنده أهل صفين ـ: كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية، فالتقوا في الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام فتصابروا واستحيوا من الفرار.

وقال الشعبي: هم أهل الجنة لقى بعضهم بعضاً فلم يفر أحد من أحد[1].

توجه الحكمان إلى دومة الجندل المكان الذي حدد لاجتماعهما، وقد بعث علي مع أبي موسى شريحة ابن هانىء في أربعة آلاف من خاصته، وبعث ابن عباس ليصلي بهم، وبعث معاوية مع عمرو بن العاص أبا الأعور السلمي ومعه أربعة آلاف من أهل الشام[2].

وانصرف علي ومن معه حتى دخلوا الكوفة، وكذلك انصرف معاوية بمن معه حتى دخلوا دمشق، وكانوا قد اتفقوا على أن يوافي عليٌّ ومعاوية دومة الجندل في رمضان ليسمعا ما توصل إليه الحكمان.

وكان علي ـ رضي الله عنه ـ قد أسر عدداً كبيراً من أهل الشام، وكذلك كان لدى معاوية عدد من أهل العراق لا يقل عن عدد أسرى الشاميين، واستشار عمرو بن العاص في أمرهم، فأشار عليه عمرو بقتلهم، ولكن معاوية تمهل في ذلــك، وتقدم إلى معاوية أحد الأسرى وهو عمرو بن أوس.

وقال: لا تقتلني لأنك خالي.

فقال معاوية: من أين أنا خالك؟ فوالله ما كان بيننا وبين أوس مصاهرة

قال عمرو: فإن أخبرتك وعرفته فهو أماني عندك؟

قال معاوية: نعم.

قال عمرو: ألست تعلم أن أم حبيبة ابنة أبي سفيان زوج النبي ﷺ؟

---

(١) نفسه (٧/٢٧٨).

(٢) الدينوري ص ١٩٧.

قال معاوية: بلى.

قال عمرو: وهل أم المؤمنين فهي أمي، وأنت أخوها، فأنت خالي.

فقال معاوية: لله أبوك. ما كان في هؤلاء أحد يفطن لها غيره[1].

وأطلق عليّ من كان عنده من الأسرى قبل انصرافه إلى الكوفة فأتوا معاوية، وعمرو يقول أقتل من عندك من الأسرى، فلما دخلوا على معاوية نظر إلى عمرو وقال: يا عمرو لو أطعناك في هؤلاء الأسرى وقعنا في قبيح من الأمر، ألا ترى قد خليٌّ سبيل أسرانا وأمر بتخلية سبيل من في يديه من الأسرى[2].

فتنة الخوارج:

كانت وثيقة التحكيم سبباً في ظهور فتنة جديدة، فلم يكد الأشعث ابن قيس ـ يحمل الوثيقة ويطوف بها على الناس يقرؤها عليهم حتى أطلت فتنة الخوارج بقرنها، وقد كان أولئك الخوارج من جماعة أمير المؤمنين، ولم يشترك فيها أحد من أهل الشام، فقد كانوا جميعاً راضين بالتحكيم، مجتمعين على ما سيتوصل إليه الحكمان أما أهل العراق فأخذوا يصيحون بالأشعث قائلين: حكمت الرجال، لا حكم إلا لله، وأول من قالها رجل يقال له: عروة بن أدية.

ولم يكد أمير المؤمنين يصل إلى الكوفة حتى اعتزل من جيشه اثنا عشر ألف رجل وهم الخوارج، وتركوا الكوفة، ونزلوا حروراء، وأنكروا على أمير المؤمنين أشياء، فأرسل إليهم علي عبدالله بن عباس فناظرهم وأقنع رجالاً منهم، وخرج إليهم عليٌّ نفسه وجادلهم حتى رجع كثير منهم وتابوا وأنابوا وأصر الباقون على العناد والكفر، ولما ذكرهم علي بأنهم الذين ألحوا في قبول التحكيم في أول ـ الأمر قالوا: لقد أخطأنا ثم تبنا إلى الله ورجعنا، فإما أن تتوب كما تبنا وإلا قاتلناك حتى ترجع إلى حكم الله.

---

(١) الطبري (٥/٦٥).

(٢) نفسه.

وكان الخوارج إذا مروا بعلي عرضوا به وشتموه، وقد مر به رجل وهو يصلي فقرأ قوله ـ تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ فقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ ﴿فاصبر إن وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾[1].

ويرى ابن جرير ـ رحمه الله ـ أن هذه المقولة كانت وعلي يخطب حيث مر به حكيم ابن عبد الرحمن البكائي فقرأ قوله تعالى: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين﴾.

فرد عليه علي بقوله ـ تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يقونون﴾.

وقال علي لهؤلاء المصرين: إن لكم عندنا ثلاثاً: لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا[2].

وتكاتب الخوارج فيما بينهم، وتجمعوا من كل مكان حتى التقوا بمكان يعرف بالنهروان، وأخذوا يتعرضون لكل من يمر بهم ويسألونه رأيه في الحكمين فإن أنكر تركوه، وإن رضي قتلوه.

وعلم علي بما يعملون، وجاءه الخبر بأنهم قتلوا عبدالله بن خباب، وبقروا بطن امرأته وهي حبلى متم، وقتلوا ثلاثة نسوة من طيء وكذلك قتلوا أم سنان الصيداوية.

وفزع أمير المؤمنين لما سمع فأرسل إليهم الحارث بن مرة العبدي، وأمره أن يتعرف أخبارهم، ويتحقق مما بلغه عنهم، ولم يكد رسول أمير المؤمنين يصل إليهم حتى خرجوا إليه وقتلوه.

---

(١) ابن كثير (٧/٢٨٢) والآية الأولى من سورة الزمر آية والثانية من سورة الروم آية. ٦٠.
(٢) الطبري (٥/٧٤).

وبلغ ذلك علياً، وشاع في عسكره، فقام الناس إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين، علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا؟ سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام[١].

واجتمع الرأي على الخروج إليهم، ونادى أمير المؤمنين بالرحيل، وسار حتى وصل النهر وهو المكان الذي يقيم فيه الخوارج، فبعث إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم أقتلهم بهم فأنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل المغرب فلعل الله يقبل بقلوبكم، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم.

فقالوا: كلنا قتلهم، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم[٢].

وحاول قيس بن سعد بن عبادة أن يثنيهم عن موقفهم، وقام من بعده أبو أيوب الأنصاري يذكرهم بالله، ويخوفهم عاقبة تلك الفتنة، ولكنهم أصروا على موقفهم ولم يتراجعوا قيد شعرة.

ثم خرج عليهم علي - رضي الله عنه - وقال: أيها العصابة، إني نذيركم أن تصبحوا تلعنكم الأمة وأنتم صرعى بإزاء هذا النهر بغير برهان ولا سنة، ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة؟ وأخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة، وانبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأني أعرف بهم منكم، قد عرفتهم أطفالاً، وعرفتهم رجالاً فعصيتموني وأكرهتموني حتى حكمت، فما أن فعلت شرطت واستوثقت، وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة، وعملا بالهوى فنبذنا أمرهم، ونحن على الأمر الأول، فما نبؤكم، ومن أين أتيتم؟

فقالوا: إنا حيث حكمنا الرجال أخطأنا بذلك، وكنا كافرين، وقد تبنا من ذلك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، وتبت كما تبنا وأشهدنا فنحن معك ومنك، وإلا فاعتزلنا، وإن أبيت فنحن منابذوك على سواء[٣].

---

(١) الطبري (٥/٨٢).

(٢) ابن الأثير (٣/٣٤٣).

(٣) ابن قتيبة (١/١٤٨).

قال علي: أصابكم حاصب، ولا بقي منكم وابر، أبعد إيماني برسول الله ﷺ وهجرتي معه، وجهادي في سبيل الله، أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين[1].

ثم قال لهم: ويحكم. بماذا تستحلون قتالنا، والخروج على جماعتنا، وتضعون أسيافكم على عواتقكم ثم تستعرضون الناس تضربون رقابهم؟ إن هذا لهو الخسران المبين.

والله لو قتلتم دجاجة لعظم عند الله قتلها، فكيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام؟.

فتنادوا: لا تخاطبوهم، ولا تكلموهم، وتهيأوا للقاء الله، الرواح الرواح إلى الجنة، فعاد علي عنهم[1].

فلما سمع علي من الخوارج هذا النداء، ورآهم يتزاحفون على أتباعهم قام فعبأ جيشه تعبئة تردع الخصم، وتؤدب المارق، وترد الشارد فجعل على ميمنته حجر بن عدي، وعلى ميسرته شبث بن ربعي وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة - وكانوا سبعمائة أو ثمانمائة رجل - قيس بن سعد بن عبادة.

وعبأ الخوارج أنفسهم فكان على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى العبسي، وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسدي، وعلى الرجالة حرقوص بن زهير السعدي.

ورفع علي راية الأمان مع أبي أيوب الأنصاري، ونادى أبو أيوب الخوارج فقال: من جاء هذه الراية منكم ممن لم يَقتل ولم يَستعرض فهو آمن، ومن انصرف وخرج من هذه الجماعة فهو آمن إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم[2].

---

(١) ابن الأثير (٣/٣٤٤).
(٢) الطبري (٥/٨٥، ٨٦).

وسمع الخوارج صيحة أبي أيوب فتبلبلت أفكارهم، وتزلزلت أقدامهم، ولم يستقروا على حال وانفرط عقدهم، فخرج فروة بن نوفل الأشجعي وقال: والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً، لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو اتباعه، وانصرف في خمسمائة فارس[1].

وخرجت طائفة أخرى متفرقين، وذهبوا إلى الكوفة، وانضم إلى علي منهم نحو من المائة، وكانوا أربعة آلاف، فلم يبق سوى ألفين وثمانمائة، وأخذوا يزحفون إلى علي.

وأمر علي أتباعه أن يكفوا ولا يقاتلوا حتى يبدأوهم، وكانت هذه عادته في كل معركة، وتنادى الخوارج الرواح الرواح إلى الجنة، وشدوا على أصحاب علي فلم تثبت الخيل لشدتهم، وتفرقت الخيل فرقتين: فرقة نحو الميمنة وفرقة نحو الميسرة، وهجموا على الرجال كالوحوش الكاسرة، فتصدت لهم فرقة الرماة، ورمت وجوههم بالنبل، وعطفت عليهم الخيل المتفرقة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال برماحهم وسيوفهم وما هي إلا لحظات حتى قتلوهم جميعاً.

واستغاث قائد خيلهم برجاله، فهبوا لنجدته، ولكن خيل علي أدركتهم فقتلتهم جميعاً، وكان قتلهم في سرعة لم تعهد من قبل في معارك حربية حتى وصف هلاكهم أحد رجال علي فقال: ما هو إلا أن لقينا أهل البصرة فما لبثناهم، فكأنما قيل لهم: موتوا فماتوا[2].

ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة[3].

مقتل ذي الثدية

وأخذ أمير المؤمنين يبحث عن ذي الثدية، فوجده في حفرة على شاطىء النهر وحوله أربعون أو خمسون قتيلاً، فاستخرج من بين القتلى،

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الطبري (٥/٨٦).

(٣) الطبري (٥/٨٩).

ونظر إلى عضده فرأى لحماً مجتمعاً على منكبه كثدي المرأة له حلمة عليها شعرات سود، فإذا مدت امتدت حتى تكون طول يده الأخرى، فإذا تركت تجمعت على منكبه كثدي المرأة فلما رآه علي قال: الله أكبر، والله ما كذبت ولا كذبت، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه ﷺ لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم، عارفاً للحق الذي نحن عليه.

ومر بهم أمير المؤمنين وهم صرعى فقال: بؤساً لكم، لقد ضركم من غركم.

وقالوا: يا أمير المؤمنين من غرهم؟

قال: الشيطان، وأنفس أمارة بالسوء، غرتهم بالأماني، وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون[١].

وجمع كل ما في عسكر الخوارج، فأما ما استعملوه في القتال من السلاح والدواب فقسمه بين المحاربين، وأما المتاع والإماء والعبيد فقد رده إلى ذويه.

وأخذ عدي بن حاتم يبحث عن ابنه طرفه ـ وكان مع الخوارج ـ فوجده ودفنه، ودفن رجال من أصحاب علي من وجدوه من جماعتهم في قتلى الخوارج، فقال علي: أتقتلونهم ثم تدفنونهم؟ ارتحلوا فارتحل الناس.

وكانت الواقعة في سنة ثمان وثلاثين، وقتل فيها من أصحاب علي يزيد بن نويرة الأنصاري، وله صحبة وسابقة، ومشهود له بالجنة، وهو أول من قتل[٢].

ووصف الثعلبي الخوارج أثناء المعركة فقال: لقد رأيت الخوارج حين استقبلتهم الرماح والنبل كأنهم معز اتقت المطر بقرونها[٣].

---

(١) ابن الأثير (٣/٣٤٨).
(٢) ابن الأثير (٣/٣٤٨).
(٣) ابن قتيبة (١/١٤٩).

اجتماع الحكمين

في شهر رمضان من عام سبعة وثلاثين اجتمع الحكمان في دومة الجندل حسبما اتفق الناس وأرسل الحكمان إلى جماعة من الصحابة يدعونهم لشهود الاجتماع، وحضور ما سيتفق عليه، ليكون حضورهم توثيقاً للحكم الذي سيصدر عنهما، فكتب إلى عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث ـ وعبد الرحمن بن عبد يغوث وأبو جهم بن حذيفة والمغيرة بن شعبة، وجميعهم ممن اعتزل ولم يشترك في هذه الحروب[1].

وحضر معاوية ابن أبي سفيان حيث كانت الوثيقة تنص على حضور علي ومعاوية جلسة الحكمين، فأما علي فلم يحضر لأنه كان لا يرى التحكيم ولم يرض به، وإنما غلبه عليه أصحابه فنزل على رغبتهم.

ورأى عمر بن سعد بن أبي وقاص، اجتماع الناس بدومة الجندل ليشهدوا ما يكون من الحكمين فذهب إلى أبيه وكان معتزلاً ـ فقال: يا أبت قد بلغك ما كان بين الناس بصفين، وقد حكم الناس أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وقد شهدهم نفر من قريش، فاشهدهم فإنك صاحب رسول الله ﷺ وأحد الشورى، ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة، فاحضر فإنك أحق الناس بالخلافة.

فقال سعد ـ رضي الله عنه: لا أفعل، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه تكون فتنة خير الناس فيها الخفي التقي» والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً[2].

وحاول معاوية إقناع الحاضرين بأنه أحق بهذا الأمر، وتوعد من طرف خفي فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فمن كان متكلماً في الأمر فليطلع لنا قرنه.

---

(١) الطبري (٥/٥٧، ٦٧).

(٢) نفسه (٥/٦٧).

وسمع عبدالله بن عمر هذا التحدي من معاوية فاشتد غيظه، وفك حبوته، وأراد أن يرد عليه كلامه، قال ابن عمر: أردت أن أقول قولاً: يتكلم فيه رجال حاربوا أباك على الإسلام. ثم خشيت أن أقول كلمة تفرق الجماعة أو يسفك فيها دم أو أحمل فيها على غير رأي، فكان ما وعد الله ـ عز وجل ـ في الجنان أحب إليّ من ذلك[1].

المداولة:

بدأ الحكمان يتبدلان الأمر، وتكلم عمرو بن العاص محاولاً أن يثبت على أمير المؤمنين مخالفة ما اتفق عليه من الحضور إلى دومة الجندل فقال: يا أبا موسى، رأيت أول ما نفضي به من الحق أن تقضي لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم.

قال أبو موسى: وما ذاك.

قال عمرو: ألست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وفوا، وقدموا للموعد الذي واعدناهم إياه؟

قال أبو موسى: بلى.

قال عمرو: اكتبها، فكتبها أبو موسى.

قال عمرو: يا أبا موسى: أأنت على أن نسمي رجلاً يلي أمر هذه الأمة؟ فسمه لي فإن أقدر على أن أتابعك، فلك عليّ أن أتابعك، وإلا فلي عليك أن تتابعني.

قال أبو موسى: أسمّي لك عبدالله بن عمر.

قال عمرو: إني اسمى لك معاوية بن أبي سفيان.

ورفض كل من الحكمين ما سماه صاحبه وخرجا من الجلسة دون أن يتوصلا إلى شيء، والتقيا مرة أخرى فقال عمرو: يا أبا موسى: ألست تعلم أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قتل مظلوماً؟

---

(١) نفسه (٥/٥٨).

قال: أشهد.

قال عمرو: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال: بلى.

قال عمرو: فإن الله ـ عز وجل ـ قال: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾[1] فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته من قريش كما علمت؟ فإن تخوفت أن يقول الناس: ولي معاوية وليست له سابقة، فإن لك بذلك حجة، تقول: إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير، وهو أخو أم حبيبة زوجة النبي ﷺ وقد صحبه، فهو أحد الصحابة.

وعرَّض عمرو لأبي موسى بالسلطان فقال: إن وُلِّيَ أُكرمك كرامة لم يكرمها خليفة.

قال أبو موسى: يا عمرو، اتق الله ـ عز وجل ـ فأما ما ذكرت من شرف معاوية، فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب.

وأما قولك: إن معاوية ولي دم عثمان فوله هذا الأمر فإني لم أكن لأوليه معاوية وادع المهاجرين الأولين، وأما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه كله ما وليته، وما كنت لأرتشي في حكم الله ـ عز وجل ـ ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه.

قال عمرو: إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه؟

قال أبو موسى: إن ابنك رجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة[2].

وكان عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ لا يقاتل مع

---

(١) سورة الإسراء الآة ٣٣.

(٢) الحوار كله منقول من الطبري (٥/٦٨).

معاوية، ولكنه كان يخرج مع القوم طاعة لأبيه، فلما قتل عمار قال لأبيه: قتلتم الرجل، وقد قال رسول الله ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» فلما بلغ معاوية ما يقول عبدالله قال له: فلم تقاتل معنا وأنت تقول ذلك؟

قال عبدالله: أنا لا أقاتل معكم، ولكني خرجت طاعة لأبي، لأن رسول الله ﷺ أمرني ألا أعصى أبي.

رأى عمرو بن العاص إصرار أبي موسى على تولية عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - وسمع قوله: أما والله لئن استطعت لأحيين اسم عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - كما سمع مقالته في ابنه عبدالله فخاف أن يفلت الأمر من يده فقال: إن هذا الأمر لا يصلح له إلا رجل له ضرس يأكل ويطعم.

قال: وكانت في ابن عمر غفلة، فقال له عبدالله بن الزبير: أفطن فانتبه فقال ابن عمر: لا والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً، والتفت إلى ابن العاص وقال: إن العرب أسندت إليك أمرها بعدما تقارعت بالسيوف وتناجزت بالرماح، فلا تردنهم إلى فتنة[1].

وكان عمرو بن العاص منذ التقى بأبي موسى في دومة الجندل قد اتبع معه سياسة تقديره وإجلاله فكان لا يتقدم عليه في شيء، وكان يقول له: أنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن مني فتكلم وأتكلم، وبذلك عوده أن يتقدم في كل شيء، وكان ذلك تمهيداً ليقدمه فيبدأ بخلع علي.

وهذا رغم رواية الطبري له إلا أن النفس لا تسكن إليه، ذلك لأن اقتراح خلع علي ومعاوية لم يكن قد ظهر في أفق المفاوضات بعد، وإنما كان هناك إصرار من أبي موسى على ترشيح عبدالله ابن عمر، ولو أن عمراً استجاب لذلك لكان فيه اتفاق على تعيين الخليفة، وفي هذا الحال يسقط علي ومعاوية على حد السواء.

---

(١) الطبري (٥/٦٩).

وكان عمرو قد عرض على أبي موسى معاوية بإصرار فرفضه، ثم غرض عليه ولده عبدالله فرفضه وعرض أبو موسى على عمرو عبدالله بن عمر فرفضه، وبذلك وصلت المفاوضات والمداولات إلى طريق مغلق لم يتوصل فيه الحكمان إلى حل صريح ومرض.

وهنا قال عمرو لأبي موسى: لقد عرضت علي فرفضت، وعرضت عليك فرفضت فما رأيك؟

قال أبو موسى: رأيي أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختارون لأنفسهم من أحبوا.

فقال عمرو ـ ويبدوا أن هذا الرأي قد قربه من هدفه: الرأي ما رأيت.

وأقبل الحكمان على الناس وهم مجتمعون ينتظرون نتيجة المداولات، وبان عمرو فقال: يا أبا ـ موسى، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق.

فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله ـ عز وجل ـ به أمر هذه الأمة، فقال عمرو: صدق وبر، يا أبا موسى، تقدم فتكلم.

وتقدم أبو موسى ليتكلم، فقال له ابن عباس ـ رضي الله عنه: ويحك. والله إني لأظنه قد خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمر، فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تكلم أنت بعده، فإني لا آمن أن يكون قد أعطاك ـ الرضا فيما بينك وبينه، فإذا أقمت في الناس خالفك ـ وكان في أبي موسى غفلة ـ فقال أبو موسى: إنا قد اتفقنا.

فتقدم أبو موسى وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر، فليولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً.

وتنحى أبو موسى ليقوم عمرو مقامه فيعلن هو الأخر خلع الرجلين،

ولكن عمراً حمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان ابن عفان والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه.

وانزعج أبو موسى لهذه المقالة من عمرو، وتعجب كيف لا يخلع صاحبه كما خلع هو صاحبه وكما اتفقا على ذلك لإخماد الفتنة، وحقن الدماء[1].

---

(١) الطبري (٧١/٥).

تحليل الموقف

والحق الذي يقال: إن الإنسان إذا نظر إلى تصرف عمرو في هذا الموقف نظرة سطحية لا يرى فيها إلا الغدر والبغي فقد اتفقا على أمر، وكان من حقه أن يرفض وحينئذ يحق له أن يتصرف كما يشاء لأنه لم يلتزم بشيء أما وقد وافق عليه فإنه يجب أن يلتزم مهما كانت نتائجه.

تلك هي النظرة السطحية للموضوع الخطير الذي سيترتب عليه مالا يعلم إلا الله من إراقة الدماء أو حقنها، وأما النظرة العميقة التي تسبر غوره، وتصل إلى قراره، وتقدر التبعة التي يتحملها الحكمان، وتنظر إلى الأمر بموضوعية تليق به، فإنها لا يمكن أن تترك الموضوع كما اقترح أبو موسى، فهو اقتراح وإن بدا وجيهاً للتخلص من رجلين قد أريقت بسببهما دماء المسلمين إلا أنه قد يؤدي إلى عواقب أوخم وأشد نكاية بالمسلمين من الوضع الذي كانوا عليه قبل هذا الاقتراح.

فلو فرضنا أن عمراً وأبا موسى قد عزل كل واحد منهما صاحبه، وتركا المسلمين بلا راعٍ يرعاهم، ولا إمام يعصمهم من الزلل فماذا كانت تكون النتيجة؟

أغلب الظن أن أهل الفتنة وأحلاس الفوضى يكونون قد أتيحت لهم فرصة العبث بمقدرات هذه الأمة وبخاصة وأن دماء عثمان لم تجف بعد، وقميصه لم يزل في ذاكرة الناس وهم يبكون تحته وهو فوق منبر مسجد دمشق، من ذا الذي يضمن أن هؤلاء الفجرة من قتلة عثمان لا يتسلقون

على أكتاف المسلمين في مثل تلك الفرصة، ويقبضون على زمام الأمر. بل وتصير إليهم مقاليد هذه الأمة المنكوبة بقتل إمامها ثم بخلع رجليها؟

الأمر إذن يحتاج إلى تفكير أعمق من هذا التفكير الضحل الذي سيجعل المسلمين ولو إلى حين رعية بغير راع، وأمة بغير إمام، ومن الذي يعتقد أن الأمة لو تركت في مثل هذه الظروف تستطيع أن تختار إماماً خيراً من كلا الرجلين أو من أحدهما؟

إن الناس بعد وفاة الرسول ﷺ قد مرو بهذه التجربة، وكانت تجربة مرة وخطيرة، وكادت الفتنة أن تمزق صفوف المسلمين، وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وعبد الرحمن وطلحة والزبير وغيرهم من أجلاء الصحابة وشيوخهم، ولولا أن عصم الله هذه الأمة وأنقذهم بأبي بكر لا يستطيع أحد أن يتكهن بما يصير إليه أمرها بعد ما تعرضت له من تلك العاصفة التي كادت تدمر بنيانها.

وما حدث في يوم السقيفة هو الذي جعل أبا بكر يستخلف عمر قبل أن يلقى ربه ليطمئن على وحدة الأمة واجتماعها قبل وفاته، حتى إذا مات مات وهو قرير العين بالتفاف الناس حول خليفة يرعى شؤونهم، ويسهر على مصلحتهم، وإن يوم السقيفة وما دار فيه هو الذي جعل عمر يعين أهل الشورى في حياته، ويأمرهم باختيار خليفة لهم من بينهم، على أن يكون ذلك في ثلاثة أيام حتى لا يشغب عليهم من يريد للمسلمين الشر والتفرق، وإن يوم السقيفة نفسه هو الذي حدا بالمسلمين في المدينة بعد مقتل عثمان أن يبايعوا علياً دون أن ينتظروا رأي أهل مكة أو أهل الشام أو حتى رأي المسلمين المقيمين حول المدينة، فكيف إذن نترك المسلمين بغير إمام، ونقول لهم اختاروا من تحبون وولوه أمركم كما ترغبون؟

وذلك أمر بعيد عن الصواب، بعيد عن الحكمة، بعيد عن منهج المسلمين الذي اتبعوه منذ كانت الخلافة فيهم بعد رسول الله ﷺ.

ولعل هذا المعنى هو الذي أدركه عمرو بن العاص، حين لم يخلع معاوية، وثبته بعد أن خلع أبو موسى علياً.

إن الذي يتأمل موقف أبي موسى منذ الوهلة الأولى يدرك تماماً أنه غير راض عما حدث بين المسلمين وأنه يرفض أن يكون أحد الرجلين خليفة وقد دخلا في الفتنة وإراقة دماء المسلمين، ولكن ماذا سيترتب على ذلك؟ وماذا تكون النتيجة؟

لا بد للمسلمين من إمام يجمع شملهم، ويوحد صفهم، ويحقن دماءهم، ويعيد الألفة والمودة بينهم وهل يتحقق ذلك إذا خلع علي ومعاوية وبقي المسلمون بغير خليفة؟ هذا ما لا يمكن أن يتم أبداً في مثل تلك الظروف، وإذا كان المسلمون في ظروف خير من هذه الظروف، وحال أفضل من تلك الحال وكادت الفرقة أن تقضي عليهم لعدم وجود الإمام الذي يحول بينهم وبين الاختلاف فما بالك بهم الآن، ودماء الفريقين لم تزل تنزف، وقتلاهم لم ينسوا بعد، وفي كل بيت مأتم وعويل؟

وكانت النظرة الدقيقة حينئذ هي أن يبقى أحد الرجلين خليفة يجتمع حوله المسلمون، ويلوذون به، وإذا كان أبو موسى قد خلع علياً فلا بد من أن يبقى معاوية، وهـذا هو منطق العقل المدبر وإن خالف الحق المقرر.

ولعل هذا هو السر في أن وقف عمرو بن العاص هذا الموقف، فثبت صاحبه حين قال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية.

تصرف عمرو بن العاص هذا التصرف الوحيد الذي يمكن أن يحفظ جماعة المسلمين ويبقي على ـ تماسكهم، وبخاصة وأن معاوية كان له من حسن التدبير ولين الجانب، والدراية الفائقة بكسب الأعداء والأصدقاء على حد سواء ما يرشحه لهذا المنصب في تلك الظروف الخطيرة.

إلا أن هناك أمراً لا يجوز مطلقاً أن نفوته أو نسكت عليه، وذلكم هو تصرف عمرو هذا في غفلة من أبي موسى، وإذا كان إدراك الوضع على حقيقته قد فات أبا موسى ولم يخف على عمرو فإنه كان الواجب ومسؤولية النصح للمسلمين يحتمان على عمرو شرح الموقف لأبي موسى، وتذكيره بما قد يؤدي إليه خلع الرجلين من البلاء والفتن بالنسبة للمسلمين جميعاً،

وحينئذ يمكن أن يتفقا على أمر تكون فيه مصلحة المسلمين ولم شعثهم، أما أن يترك أبا موسى في غفلته ليفاجئه بما دبره وخبأه فذلك ما لا يحمد لعمرو، ولا أراه محقاً في عمله مهما حاول تبريره، لأن في ذلك غدراً ونقضاً لعهد قد اتفق عليه الحكمان ونقاه بأوثق العقود والمواثيق.

بعد التحكيم

لم تنه فكرة التحكيم ما كان بين المسلمين من النزاع بل إنها لم تستطع أن تخمده ولو إلى حين وكان الأمر على العكس مما تصوره المترقبون الذين علقوا على التحكيم آمالاً كباراً فقد ازداد عدد الفرق المتنازعة فأصبحوا ثلاثاً بعد أن كانوا فرقتين، واتسع الخرق على أمير المؤمنين حتى أنه مضطر بعد التحكيم لأن يقاتل في جبهتين، وهو وإن كان بهمته وشجاعته استطاع أن يتخلص من رواد حركة الخوارج إلا أن بذور الحركة لم تجتث من جذورها، وظلت تنمو في الظلام، وتتضخم في الخفاء حتى اجترأت على تدبير قتل أمير المؤمنين، وسببت بعد ذلك مشكلات ضخمة لدولة الأمويين.

وكانت نتيجة التحكيم ثمرة فجة وطبيعية للفكرة في حد ذاتها مما زاد الطين بلة فزلجت أقدام، وزلت عقول، وتزلزلت رجال، واضطرب أمر الناس، ووقعت الأمة في حيص بيص.

فأما أهل الشام وعلى رأسهم عمرو بن العاص - رضي الله عنه - فقد انصرفوا نحو معاوية وكان حاضراً بدومة الجندل يرقب نتيجة التحكيم فسلموا عليه بالخلافة، وهنئوه بما آل إليه من إمرة المؤمنين ثم شدوا رحالهم وتوجهوا شطر دمشق حيث مقر الخلافة الجديد.

وأما أهل العراق فكانوا لا يزالون في نقاشهم البيزنطي البغيض، هل يجوز تحكيم الرجال في مثل هذه الأمور؟ والحكم في تصورهم لا يكون إلا لله - عز وجل - ونسوا أو تناسوا أن هذا خلاف بين طائفتين من المؤمنين وأول

ما يجب أن يرجعوا إليه لفض هذا النزاع هو تحكيم رجال لإقامة الصلح بين الفريقين، وما أدري كيف تجاهل هؤلاء الناس قول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما؟﴾[1] أي والله لست أدري كيف تجاهل هذه الآية أولئك الذين أنكروا التحكيم على أمير المؤمنين، وجلهم من القراء المشهورين والمعدودين؟ أغلب الظن أنها غابت عن عقولهم، ولم يتنبه لها أحد منهم.

لقد كان تحكيم الرجال عند هؤلاء جريمة يترتب عليها أمور عظيمة أدناها حل قتال أمير المؤمنين وجماعته، وأعلاها تكفيرهم وإخراجهم من ملة الإسلام حتى يتوبوا ليعودوا بتلك التوبة إلى حظيرة الإسلام.

كان هذا الجدل معولاً هدم كل ما بناه علي، وأهدر كل الدماء الذكية التي أريقت في سبيل إجبار الفئة الباغية على قبول الصلح تحقيقاً لقوله ـ تعالى: ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾[2]، بل إن هذا الجدل قد أدى في النهاية إلى إهدار دم أمير المؤمنين نفسه لأنه كفر حين حكم الرجال في نظرهم.

ولست أدري ماذا يريدون برد الحكم إلى الله في تلك القضية وأمثالها؟ أيريدون أن ينزل الله قرآناً يحكم به فيما بين الفريقين؟ فعلى من ينزل هذا القرآن، وقد انقضت فترة الوحي، ولحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى؟ أم يريدون الرجوع إلى القرآن نفسه، فالقوم لم يفعلوا خلاف ذلك إنها على كل حال فتنة تأججت نيرانها، وليس هناك وصف لها أدق من وصف أمير المؤمنين بأنها (كلمة حق أريد بها باطل).

لم تحقق نتيجة التحكيم إذن الأمل الذي كان يراود المنصفين من المسلمين، ولم ترض الطرفين وهو الأمر الذي كان يتوقعه علي منذ اللحظة الأولى، لهذا كان عدم رضا أمير المؤمنين بها أشد وأقوى من رضا معاوية ـ

---

(١) سورة الحجرات الآية: ٩.

(٢) الطبري (٥/١٣١).

رضي الله عنهما ـ واغتباطه بتلك النتيجة، وكان ذلك إنذاراً باشتعال ـ المعركة مرة أخرى، فاستنفر علي أصحابه، وجهز جيشه، وخرج ليقاتل أهل الشام على الحق الذي قلده إياه المسلمون ولم يقر به المخالفون، ولكن أصحاب علي رأوا أن قتال المكفرين أولى من قتال المخالفين فاقترحوا عليه ذلك فتردد أول الأمر، ولم يلبث أن زال ذلك التردد عندما بلغه تصديهم للمسلمين، وقتلهم لكل من يخالفهم في عقيدة التحكيم فعندئذ عزم على الذهاب إليهم والبدء بهم.

وكعادته ـ رضي الله عنه ـ مع مخالفيه رأى أن يعذر إليهم، وتلك سنته لم يحد عنها قط، حتى كان يوصي بها قواده، وكان يقول: (ولست مقاتله ـ يعني من خرج عليه ـ حتى أدعوه وأعذر إليه)[1].

لهذا كتب إلى الخوارج قبل أن يقاتلهم (بسم الله الرحمن الرحيم: من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى زيد بن حصة وعبدالله بن وهب ومن معهما من الناس، أما بعد، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمهما خالفا كتاب الله، واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكماً فبرىء الله ورسوله منهما والمؤمنون).

فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم، ونحن على الأمر الذي كنا عليه والسلام[2].

فرد الخوارج كتابه، وكتبوا إليه: أما بعد، فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك، فإن ـ شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين[3].

يئس علي من القوم بعد أن قرأ كتابهم، وعلم أنهم لن يرجعوا عن غيهم وأجابهم بقوله: أصابكم حاصب، وما بقي منكم وابر، أبعد إيماني

---

(١) نفسه (٥/٧٧).
(٢) نفسه (٥/٧٨).
(٣) نفسه (٥/٨٤).

برسول الله ﷺ وهجرتي معه، وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين[1].

انتهى علي من أمر الخوارج، وقضى على رؤوسهم ولكنه لم يستطع القضاء على أفكارهم التي سرت في النفوس الضعيفة المتوترة مسرى النار في الهشيم، وتمثل ذلك في أناس كانوا مصدر قلق واضطراب بما كانوا يثيرون من القتال الحين بعد الحين.

وأخذ علي يحرض أصحابه على الخروج لقتال أهل الشام، ولكنهم تثاقلوا عن الخروج ولم تتهيأ له فرصة ليواجه قوات الشام فقعد ولم يخرج، وبقي الوضع كما هو طوال عام ٣٨ هـ حيث شغل علي بظهور فتنة جديدة وهي فتنة الخريت بن راشد.

فتنة الخريت

والخريت هذا رجل من بني ناجية، حرض قومه ومن أطاعه من القبائل على العصيان وعدم إخراج الزكاة وظاهر المرتدين، وقتل رجلاً من أصحاب علي - رضي الله عنه - فوجه إليه رجلاً من خيرة رجاله هو معقل بن قيس في ألفين من أهل الكوفة، والتقى جيش معقل بجيش الخريت، وانهزم الخريت ولم يصبر ساعة وقتل من قومه وأتباعه ثلاثمائة وسبعون رجلاً، ونجا الخريت وفر بمن بقي معه إلى أسياف البحر، وتبعه معقل، والتقى به بعد أن انضم إليه من جاءه من أهل البصرة، وتقاتل الفريقان وصبر الخريت ساعة ثم انهزم وقتله رجل من جرم طعنه فصرعه عن دابته ثم أثخنه جراحاً ثم زفف عليه، وقتل معه سبعون ومائة، وذهبوا يميناً وشمالاً[2].

وسبى معقل منهم سبياً كثيراً ثم نظر فيهم فمن كان مسلماً خلاه، وخلى له عياله وأخذ منهم البيعة لأمير المؤمنين، وأما من كان قد ارتد فإنه

---

(١) نفسه (٥/٨٤).

(٢) الطبري (٥/١٢٧).

عرض عليهم الإسلام فعادوا إليه وخلى سبيلهم إلا رجل واحد منهم أصر على الردة فضرب عنقه، وأما النصارى فقد سباهم معقل ليكونوا عبرة لمن بعدهم من أهل الذمة حتى لا يمنعوا الجزية، ولا يجترئوا على قتال أهل القبلة(١).

ولما استهل عام ٣٩ هـ بدأ معاوية يسرح جيوشه إلى الأطراف التي تحت إمرة علي، ولعل الذي دعا معاوية إلى ذلك علمه بانشغال علي في إخماد تلك الفتنة الداخلية، فطمع معاوية في أن تدين له تلك الأطراف، وتذعن لطاعته في وقت تخيل أن علياً عاجز فيه عن إغاثة أحد من عماله، ولكن علياً كان يقظاً فلم يرسل معاوية جيشاً إلى طرف من الأطراف إلا وأرسل إليه من يتصدى له ويرده ـ خائباً.

وجه معاوية النعمان بن بشير إلى عين التمر وأرسل معه ألف جندي، ولم يكد الجيش يصل إلى عين التمر حتى تصدى له مالك بن كعب في مائة رجل، وقاتلهم حتى دخل الليل، وانهزم النعمان وعاد إلى حيث أتى.

ووجه سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل إلى هيت وأمره أن يخضعها ثم يتوجه إلى الأنبار والمدائن فتوجه سفيان إلى هيت فلم يجد بها أحداً فسار إلى الأنبار، وهناك قابله عامل علي أشرس بن حسان في مائة رجل وصبر في رجاله مع قلتهم لجيش سفيان البالغ ستة آلاف رجل، ولكن سفيان حمل بالخيل والرجالة فقتل أشرس وقتل معه ثلاثين رجلاً، وبلغ الخبر علياً فأرسل في طلبهم ففاتوهم ولم يدركوا منهم أحداً كذلك وجه معاوية عبدالله ابن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء، وأمره أن يجمع الصدقات من البدو الذين يمر بهم، ويقتل من يمتنع منهم، ثم يتوجه إلى المدينة فمكة فالحجاز ويفعل فيهما مثلما فعل بتيماء.

وبلغ الخبر علياً فوجه المسيب بن نجبة الفزاري في ألف رجل فأدرك عبدالله عند تيماء، وتقاتل ـ الجيشان حتى زالت الشمس، وتمكن المسيب

---

(١) الطبري (١٢٨/٥).

من عبدالله، ولكنه لم يرد قتله، وحرضه على الهرب فلجأ عبدالله إلى الحصن وهرب الباقون إلى الشام، وحاصرهم المسيب في الحصن ثلاثة أيام ثم أحرق باب الحصن فأحسَّ عبدالله بالهلاك فطلبوا العفو فعفا عنهم المسيب، وأطلقهم فانصرفوا إلى الشام.

ووجه معاوية الضحاك بن قيس في ثلاثة آلاف رجل وأمره أن يمر بأسفل واقصة ثم الثعلبية وأن يغير على كل من يوالي علياً في هذه المناطق، فسار الضحاك وقتل وسلب ونهب، وأخذ أمتعة الناس ولما بلغ القطقطانة لقي عمرو بن عميس وكان في خيل علي وأمامه أهله يقصد الحج فأغار الضحاك على من كان معه وحبسه عن الحج.

وبلغ علياً الخبر فبعث حُجْر بن عدي الكندي في أربعة آلاف، فأدرك حجر الضحاك عند تدمر فقتل من رجال الضحاك تسعة عشر رجلاً، وقتل من رجاله اثنان، وحال الليل بين المتقاتلين فهرب الضحاك ومن معه، ورجع حجر برجاله.

ويبدو أن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قد انزعج لما يحدث لمن يوجههم إلى الأطراف فخرج بنفسه إلى أن شارف دجلة، ولكنه رجع بغير قتال ودون أن يواجه أحداً من رجال علي، والذي يظهر أن معاوية تذكر مقالته الأولى لما برز له علي في صفين وطلب المبارزة، وأشار عليه عمرو بن العاص بمبارزة عليّ حينئذ قال معاوية متمثلاً بقول الشاعر:

ما للملوك وللبراز وإنما ... حظ المبارز طعنة من خاطف

وهكذا مضت سنة تسع وثلاثين في مناوشات لم تغن عن صاحبها شيئاً وإن أثبتت جدارة المقاتلين في جيش علي ـ رضي الله عنه ـ وجدارة قواده وبسالتهم في رد المعتدين.

واستهلت سنة أربعين بإرسال بسر بن أبي أرطاة إلى المدينة في ثلاثة آلاف رجلاً وخرج بسر من الشام متوجهاً إلى الحجاز، فلما وصل المدينة وكان عامل علي عليها أبو أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ ففر أبو أيوب، وترك جيش بسر يدخل المدينة، وصعد بسر المنبر ولم يقاتله أحد وبايعه أهل

المدينة، وطلب من بني سلمة أن يأتوه بجابر بن عبدالله وهددهم تهديداً شديداً وعلم جابر بذلك فذهب إلى أم سلمة ـ زوجة النبي ﷺ وسألها ماذا يفعل فأشارت عليه بأن يبايع، وأخبرته بأنها أمرت ولدها عمر بن أبي سلمة بأن يبايع وكذلك أمرت ختنها عبدالله بن زمعة.

وبايع جابر بن عبدالله، وهدم بسر دوراً بالمدينة.

وانطلق إلى مكة، وخاف أبو موسى أن يقتله بسر، ولكن بسراً طمأنه قائلاً: ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله ﷺ ذلك، فخلى عنه.

وسار بسر إلى اليمـن، وكان عليها عبيد الله بن عباس من قبل علي، فلما علم عبيد الله بقدوم بسر فـر إلى الكوفـة، واستخلف على اليمن عبدالله بن عبد المدان الحارثي، فذهب يسر إلى ابن عبد المدان فقتله وقتل ابنه، وقتل ابنين لعبيد الله بن عباس، كما قتل خلقاً كثيراً من شيعة علي باليمن.

وبلغ علياً خبر بسر وما فعله بأهل المدينة ومكة واليمن فاشتاط غضباً، وجهز جارية بن قدامة في ألفي رجل، ووهب بن مسعود في ألفين كذلك، فسار جارية حتى بلغ نجران فحرق بها دوراً وأخذ ناساً من مؤيدي معاوية فقتلهم، وأشاع الرعب في الناحية كلها، وسمع بسر بن أبي أرطاة بقدوم جارية ففر هارباً هو وأصحابه، وسار جارية وراءهم حتى بلغ مكة، ولكنه لم يدركهم فقد أمعنوا في الفرار.

وأخذ جارية بيعة أهل مكة للحسن بن علي وكذلك فعل في المدينة، وذلك لأن أمير المؤمنين كان قد مات بعد خروج جارية من الكوفـة.

المهادنة بين علي ومعاوية

وسمع معاوية بخروج جارية متعقباً بسراً، وعلم أن المعارك لن تنتهي على هذا الحال إلا بصلح يعقد بين الطرفين، لأن كل واحد منهما أصر على الإمرة: عليٌّ بما له من البيعة التي تمت له في المدينة ومعاوية بنتيجة التحكيم، ولم يسلم أحدهما للآخر، ولم يعط له الطاعة حينئذ كتب معاوية

إلى علي يطلب منه كف السيف وعدم إراقة الدماء، ودارت مكاتبات كثيرة بين الرجلين كان آخرها رسالة معاوية التي قال فيها: (أما شئت فلك العراق ولي الشام، ونكف السيف عن هذه الأمة ولا تهريق دماء المسلمين).

وقبل علي - رضي الله عنه - هذا العرض، وتراضيا على ذلك[1].

ووقعت بذلك المهادنة بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - واتفقا على وضع الحرب، وعلى ألا يدخل أحدهما على الآخر في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[2].

ولكن هذه الهدنة لم تدم طويلاً فقد قتل أمير المؤمنين - علي - في رمضان سنة ٤٠ هـ أي في السنة نفسها التي حصلت فيها الهدنة.

قبل مقتل علي - رضي الله عنه -

لم يكد الناس ينعمون بالهدوء وراحة البال على أثر الهدنة التي وقعت بين علي ومعاوية، حيث وضعت الحرب أوزارها، وألقى الناس السلاح، وأمن بعضهم بعضاً، وأخذت الأوضاع تستقر، وبسط معاوية نفوذه على بلاد الشام، وما حولها بدون منازع وراح يجبيها، كما بسط عليّ نفوذه على العراق بلا منازع وأخذ يجبيها ويقسمها على أصحابه.

ولكن أصابع المفسدين لم تدع الناس يهنؤون بذلك، ويستمتعون بالأمن والسلامة، بل أخذت تعبث في الظلام، وتدبر في الخفاء مؤامرة للتخلص من علي ومعاوية وعمرو بن العاص ولعلهم كانوا يخبئون رجلاً من رجالهم يولونه الأمر بعد أن يهلك هؤلاء الثلاثة، وإلا فماذا كانوا يخفون في نفوسهم؟ ولو فرضنا أنهم استطاعوا التخلص من الثلاثة في ليلة واحدة حسبما خططوا فهل كانوا سيتركون المسلمين هملاً بلا خليفة ولا قيادة أم ماذا كانوا سيفعلون؟

---

(١) الطبري (٥/١٤٠).
(٢) نفسه.

لا شك أن الله عز وجل ـ قد لطف بهذه الأمة لطفاً لا يستطيعه سواه ـ جل شأنه ـ حين فشل تخطيطهم لقتل الرجال الثلاثة ولم ينجح إلا في قتل علي ـ كرم الله وجه ـ ونحن لو أمعنا النظر في النتيجة التي حصلت بناء على هذا التخطيط الخبيث لأدركنا فيها حكمة الله البالغة ولمسنا لطفه بعباده المؤمنين.

فأما نجاح الخطة في مقتل علي ـ رضي الله عنه ـ فذلك كان أمنية ينتظرها أمير المؤمنين، بشره بها رسول الله ﷺ كما كانت كرامة له أكرمه الله ـعز وجل ـ بها حيث فاز بالشهادة على أثرها، وهل كان في حياة أمير المؤمنين كلها شيء أحب إليه من أن يلقى الله شهيداً؟

كما أن قتله كان في ظروف لم يكن فيها شيء أحب إلى نفسه من التخلص من الفتن التي أحاطت به فقد وجد نفسه وحيداً إلا من إيمان تغلغل في نفسه، وملأ عليه حياته، وعوضه عن كل ما فقد منها، تقاعس عنه أنصاره، وتثاقلوا عن تأييده والخروج معه ولقد ضاق ـ رضي الله عنه ـ بالدنيا، وضاقت به حتى إنه لينتظر اللحظة التي ينبعث فيها الشقي الذي يضرب هامته فيبل دمه لحيته.

وخرج ذلك الشقي يحمل سيفاً مسموماً ليضرب به رأس أمير المؤمنين، فيخرجه من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ولينقله من متاعب الحياة إلى راحة الجنة، ولينهي بذلك المشكلات الضخمة التي كانت في انتظاره من أصحابه ومن أعدائه على حد السواء.

وأما فشل الخطة في قتل معاوية وعمرو فكان منة كُبرى من الله ـ تبارك وتعالى ـ على هذه الأمة لا على معاوية وعمرو فقط.

ذلك لأن بقاء معاوية في هذه الظروف كان ضرورة لجمع وتوحيد صفها والتفافها حول خليفة يأخذ بيدها ليخرجها من دوامة الاضطرابات التي وقعت فيها، وكان معاوية بالذات هو أنسب الناس لهذه الظروف لأنه اجتمع له مميزات كثيرة ترشحه للخلافة في تلك الظروف فقد كان أصحابه على قلب

رجل واحد لم يحتلفوا فيما بينهم، وكان هو خبيراً بالرجال يعرف كيف يرضيهم، وكيف يكسب حبهم ويحظى بمؤازرتهم، ولم يجتمع ذلك لعلي - رضي الله عنه - مع قرابته وفضله وسابقته حيث كان أصحابه في خلاف دائم مع بعضهم ومع أمير المؤمنين، كذلك كانت صرامته في الحق وعدم مداهنته لأحد مما ينفر من صحبته، وقد عبر عن ذلك أمير المؤمنين - عمر ابن الخطاب - حين قال: لم تُبْقِ كلمة الحق لعمر صديقاً.

لهذا كان الخير كل الخير في اختيار الله - عز وجل - أمير المؤمنين إلى جواره شهيداً مبروراً، وترك معاوية على قيد الحياة يتحمل مشاقِها، ويعاني لأواءها ويكون له بعد ذلك فضل جمع الأمة على إمام واحد.

ونحن إذا ذكرنا فضل جمع الأمة ينبغي ألا ننسى صاحب الفضل الأكبر في ذلك وهو الحسن ابن علي - رضي الله عنه - فإنه لم تكد تتم له البيعة، ويجتمع عليه أصحاب أبيه، حتى وجد أتباعه على ما فارقهم عليه أمير المؤمنين من الخلاف والفرقة، فعلم أنهم لن يجتمعوا وأن فرقتهم ليس على أبيه لذاته ولكن لأنها طبيعة نفوسهم، وخصلة لا يمكنهم التخلص منها، عندئذ تنازل بعد ستة أشهر حاول فيها جمع كلمة المسلمين، وإنهاء الحرب بينهم، وكف السلاح عن أمة محمد ﷺ ولكنه لم يصل إلى شيء من ذلك، فرأى أن التنازل لمعاوية هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيع أن يحقق بها ذلك الهدف السامي النبيل الذي كان يسعى إليه منذ معركة الجمل في عهد أبيه - رضي الله عنهما.

لقد كانت مواقف الحسن من الفتنة وميله إلى وضع الحرب وكف الناس عن القتال كفيلة بأن تجمع الناس عليه، وكان بذلك يستطيع - لو كان من هواة الحروب - أن يثيرها شعواء على معاوية وأصحابه فيضفي بذلك بحاراً من الدماء إلى البحار التي سبقته، ولكنه فضل السلام ليحظى بذلك الفخر الذي حقن به الدماء وجمع الأمة وأمات الفتن.

وقد ضرب الحسن - رضي الله عنه - بتنازله عن الخلافة مثلاً سامياً،

حيث أثبت أن سدة الحكم ليس كل شيء في حياة العظماء من الرجال ذوي الأهداف السامية، وأن كرسي الحكم لا يستحق من أرباب النفوس العالية أن يتزاحموا عليه إلا بالقدر الذي يمكنهم من الإصلاح، ويعينهم على تحقيق الخير لأممهم ورعاياهم.

المؤامَـرَةُ الخبيثة

كانت الأحداث التي مر بها المسلمون بعد ظهور فكرة التحكيم من أخطر ما عرف المسلمون فقد كانت سبباً في وجود فكر غريب تسرب إلى عقول المسلمين، وجعلهم ينظرون إلى تلك الأحداث بعين غير العين التي تفتحت على نور الإسلام وهدايته، فنشأت في هذا الظلام فكرة التكفير التي جعلت المكفرين يستهينون بدماء المسلمين البرءاء الذين لم يفعلوا ما يحل دماءهم.

والغريب في الأمر ليس الجرأة على قتل الأبرياء، ولا استباحة الدماء، وإنما الغريب بحق هو اعتقاد هؤلاء أنهم يتقربون بتلك الدماء إلى الله ـ عز وجل ـ وأنهم يرجون من وراء ذلك الحظوة عند الله والمكانة الرفيعة لديه، وهذه العقيدة هي التي جعلتهم يقدمون على القتل دون تهيب أو خوف ودون أن يفكروا في المصير الذي يعقب ذلك القتل، ولا في النتائج التي تترتب عليه.

وكان من آثار تلك العقيدة المؤامرة الخبيثة التي راح ضحيتها أمير المؤمنين ـ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقد اجتمع عبدالرحمن ابن ملجم والبَرَك بن عبدالله، وعمرو بن بكر التميمي، وراحوا يتذاكرون أحوال المسلمين، وينتقدون الأمراء والولاة، وذكروا معركة النهر وما كان فيها من القتلى، فتراحموا عليهم، وبكوا لفراقهم.

وأثار ذكرْ قتلى النهروان من الخوارج أشجاناً في نفوس الرجال الثلاثة،

فأسفوا على ما كان، وكرهوا الحياة، وعافوا العيش وقالوا: (ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم).

ثم قال أحدهم: لو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا؟

فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ـ وكان ابن ملجم من أهل مصر.

وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان.
وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص.

وبعد أن كان ذلك مجرد اقتراح تقدم به أحدهم أصبح حقيقة تعهد المتآمرون الثلاثة على تنفيذها وتواثقوا أن يلتزم كل منهم بما تكلم به، ولا ينكص أحد منهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، واتفقوا على تنفيذ جريمتهم في الليلة السابعة عشرة من رمضان سنة ٤٠ هـ واتجه كل واحد منهم إلى البلد الذي يقيم به صاحبه الذي يقصده.

فأما صاحب معاوية وهو البرك بن عبدالله فإنه قعد لمعاوية، فلما خرج لصلاة الصبح شد عليه فضربه، فوقع السيف في إليته ولم يصب منه مقتلاً، وأخذ البرك، وقدم لمعاوية فقال: البرك: إن عندي خيراً أسرك به فإن أخبرتك فنافعي ذلك عندك؟

قال معاوية: نعم.
قال البرك: إن أخاً لي قتل علياً في مثل هذه الليلة.
قال معاوية: فلعله لم يقدر على ذلك.
قال البرك: بلى، إن علياً يخرج ليس معه من يحرسه.

ولكن معاوية لم يرض عن ذلك الفعل، ولو كان فيه قتل علي، وهذا ما يظهر من تصرف معاوية، لأنه لو كان يهب لذلك القاتل حياته مقابل قتل علي فعلاً لانتظر حتى يأتيه الخبر اليقين، ولكنه لم ينتظر، وأمر بقتل البرك فقتل.

وبعث إلى الطبيب فعالجه وبرىء من ضربته.

وأما عمرو بن بكر صاحب عمرو بن العاص فقد اختبأ له في تلك الليلة، ولكن عمراً كان قد اشتكى بطنه فلم يخرج للصلاة، وأناب خارجة بن حذافة ليصلي بالناس صلاة الفجر، فلما خرج خارجة للصلاة شد عليه عمرو بن بكر فقتله، فأخذه الناس، وقدموه إلى عمرو بن العاص وسلموا عليه بالإمرة.

فقال ابن بكر: فمن قتلت؟.

قالوا خارجة بن حذافة.

فنظر إلى عمرو وقال: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك.

فقال عمرو: أردت عمراً وأراد الله خارجة، ثم أمر بقتله فقتل.

وأما ابن ملجم صاحب علي، فإنه ذهب إلى الكوفة قبل ارتكاب الجريمة، وكتم الخبر عن جماعته حتى لا يفشوا سره، والتقى بجماعة من تيم الرباب - وكان علي قتل منهم يوم النهر عشرة فذكرهم - قتلاهم، وفي اليوم نفسه التقى بامرأة من تيم الرباب يقال لها قطام ابنة شجنة، وكان أبوها وأخوها ممن قتل يوم النهر، وكانت امرأة وضيئة فائقة الحسن رائعة الجمال، فلما رآها ابن ملجم شغلته عن مهمته التي جاء من أجلها، فخطبها فقالت: حتى تشفى لي.

قال ابن ملجم: وما يشفيك؟

قالت: ثلاثة آلاف، وعبد وقينة، وقتل علي بن أبي طالب.

فقال: هو لك مهر، وأما قتل علي فلا أراك ذكرته لي وأنت تريديني.

قالت: بلى، التمس غرته، فإن أصبت شفيت نفسي ونفسك، ويهنك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها.

عندئذ قال ابن ملجم: فوالله ما جاء بي إلى هذا المصر إلا قتل علي، فلك ما سألت.

فقالت قطام: انتظر حتى أطلب لك من يشد أزرك ويسند ظهرك، ويساعدك على أمرك. وأرسلت إلى رجل من قومها (وردان) وكلمته فوافق وأجابها إلى ما طلبت، وذهب ابن ملجم إلى رجل يقال له شبيب بن بجرة فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟

قال شبيب: وما ذاك؟

قال بن ملجم: قتل علي بن أبي طالب.

قال شبيب: ثكلتك أمك. لقد جئت شيئاً إدّاً، كيف تقدر على علي؟

قال ابن ملجم: أكمن له في المسجد، فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا، وأدركنا ثأرنا، وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها.

قال شبيب: ويحك. لو كان غير علي أهون عليّ، قد عرفت بلاءه في الإسلام وسابقته مع النبي ﷺ وما أجدني أنشرح لقتله.

قال ابن ملجم: أما تعلم أنه قتل إخواننا من أهل النهر العباد الصالحين؟

قال شبيب: بلى.

قال ابن ملجم: فنقتله بمن قتل من إخواننا، فأجابه شبيب.

وذهبوا إلى قطام ـ وكانت معتكفة في المسجد الأعظم ـ فقالوا لها: قد أجمع رأينا على قتل علي.

قالت: فإذا أردتم ذلك فأتوني.

فإذا كانت ليلة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان سنة أربعين وهي الليلة التي تواعد فيها المتآمرون على تنفيذ جريمتهم ذهب ابن ملجم إلى قطام وأخبرها بأنه سينفذ قتل أمير المؤمنين غداً.

فدعت قطام بالحرير فعصبتهم به، وأخذوا أسيافهم، وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي للصلاة، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فلم يصبه، وضربه ابن ملجم فأصاب رأسه وأما وردان فهرب دون أن يفعل شيئاً،

واختبأ في بيته، فدخل عليه رجل من أهله وهو ينزع الحرير ورأى السيف ـ فسأله: ما هذا الحرير وما هذا السيف؟

فأخبره وردان فعلاه الرجل بسيفه حتى قتله.

وأما شبيب فنجا في زحمة الناس، وشد الناس على ابن ملجم فأمسكوا به، وضربه رجل بسيفه على رجله فصرعه، وقدم عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ جعدة بن هبيرة فصلى بالناس.

وطلب عليّ الرجل فجيء به فقال له: أي عدو الله، ألم أحسن إليك؟

قال: بلى.

قال: فما حملك على هذا؟

قال: شحذته أربعين يوماً، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه.

فقال علي ـ عليه السلام ـ لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلقه[1].

رواية شاهد عيان:

عن محمد بن الحنفية قال: كنت والله إني لأصلي تلك الليلة التي ضرب علي في المسجد الأعظم، في رجال كثير من أهل المصر، يصلون قريباً من السدة، ما هم إلا قيام وركوع وسجود، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره، إذ خرج علي لصلاة الغداة، فجعل ينادي أيها الناس، الصلاة الصلاة.

قال محمد: فما أدري أخرج من السدة فتكلم بهذه الكلمات أم لا؟ فنظرت إلى بريق، وسمعت الحكم لله يا علي، لا لك ولا لأصحابك.

قال محمد: فرأيت سيفاً، ثم رأيت ثانياً، ثم سمعت علياً يقول: لا يفوتنكم الرجل فشد الناس عليه من كل جانب.

قال محمد: فلم أبرح حتى أخذ بن ملجم، وأدخل على علي،

(١) الطبري بتصرف (٥/١٤٣ ـ ١٤٥).

فدخلت فيمن دخل من الناس فسمعت علياً يقول: النفس بالنفس، إن أنامت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأي[1].

ودخل الناس فزعين على الحسن بن علي لما سمعوا من ضرب أمير المؤمنين، فوجدوا المجرم مكتوفاً بين يديه، ونادته أم كلثوم بنت علي وهي تبكي قالت: أي عدو الله لا بأس على أبي، وقد أخزاك الله.

قال فعلى من تبكين؟ والله لقد اشتريته بألف، وسممته بألف، ولو كانت الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد[2].

علي والاستخلاف:

دخل جندب بن عبدالله على أمير المؤمنين فسأله فقال: يا أمير المؤمنين، إن فقدناك ـ ولا نفقدك ـ فنبايع الحسن؟

قال علي: لا آمركم ولا أنهاكم، أنت أبصر.

ودعا عليٌّ ولديه: الحسن والحسين ـ وكان ابن الحنفية حاضراً ـ فقال: أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوي عنكما، وقولا الحق وارحموا اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في الكتاب، ولا تأخذكما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم قال: فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقيرهما لعظيم حقهما عليك، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما.

وقال للحسن والحسين: أوصيكما به، فإنه شقيقكما، وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكم كان يحبه.

وقال للحسن: أوصيك أي بني بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء

---

(١) الطبري (١٤٦/٥).
(٢) نفسه.

الزكاة عند محلها وحسن الوضوء فإنه لا صلاة إلا بطهور، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة، وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عند الجهل والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش(١).

فلما حضرته الوفاة كتب وصيته ولم تخرج عن الوصايا السابقة، وظل يردد (لا إلّه إلا الله) حتى قبض - رضي الله عنه وأرضاه - وظل يعاني من أثر ضربته يوم الجمعة ويوم السبت وتوفي بسببها ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربعين من الهجرة الشريفة وغسله ولداه الحسن والحسين، وابن أخيه عبدالله بن جعفر - رضي الله عنهم أجمعين - وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وكبر عليه الحسن - وهو الذي صلى عليه - تسع تكبيرات(٢) ودفن عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة(٣).

فلما توفي أمير المؤمنين - عليه السلام - بعث الحسن إلى ابن ملجم ليقتله فبادر ابن ملجم الحسن قائلاً: هل لك فى خصلة؟ وإني والله ما أعطيت الله عهداً إلا وفيت به إني كنت قد أعطيت الله عهداً عند الحطيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما، فإن شئت خليت بيني وبينه، ولك الله عَلَيَّ إن لم أقتله ثم بقيت، أن آتيك حتى أضع يدي في يدك.

فقال له الحسن: أما والله حتى تعاين النار فلا، ثم قدمه فضرب عنقه، ثم أخذه الناس فأدرجوه في بواري، ثم أحرقوه بالنار(٤).

وكان علي رضي الله عنه - قد نهى ابنه الحسن عن المثلة فقال: يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين، تقول: قتل أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين، ألا لا يقتلن قاتلي، أنظر يا حسن، إن أنا مت

---

(١) الطبري (١٤٧/٥).
(٢) الطبري (١٤٨/٥).
(٣) ابن سعد. الطبقات (١٢/٦).
(٤) الطبري (١٤٩/٥).

من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثِّل بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور»[1].

عُمْر علي عند وفاته

واختلف المؤرخون في عمره ـ رضي الله عنه ـ عند وفاته، فقال بعضهم كان ابن ثمان وخمسين سنة، وقال بعضهم كان ابن خمس وستين سنة، والذي حققه ابن سعدوالواقدي وأيده الطبري أنه توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، قال الطبري: وذلك أصحُ ما قيل فيه وقال ابن سعد: قال محمد بن عمر الواقدي ـ كذلك وهو الثبت عندنا[2].

وهذا يقتضي أن يكون إسلامه ـ رضي الله عنه ـ وهو ابن عشر سنين، حيث يكون قضى بمكة بعد إسلامه ثلاثة عشر عاماً، وتوفي في سنة أربعين من الهجرة فيكون عمره حينئذ ثلاثاً وستين سنة.

ولكننا نلاحظ أن ابن سعد نفسه يرجح في الطبقات (٢١/٣) أنه أسلم وهو ابن إحدى عشرة وذلك يحتم أن يكون توفي وعمره أربع وستون سنة، ولكنه يمكن أن يقال: إن علياً ـ رضي الله عنه ـ كان حين أسلم قد أتم العاشرة ودخل في الحادية عشرة، ويكون من قال: إنه أسلم وهو ابن عشرة يلغي الشهور التي دخلها في الحادية عشرة، ويكون من قال: إنه أسلم وهو ابن إحدى عشرة يجبر ما بقي من الشهور، ويكون التحقيق أنه توفي وعمره ثلاث وستون سنة[3] ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وجمعنا وإياه في مستقر رحمته.

تحليل وتعليق

ليس هناك من هو أولى بإمارة المؤمنين بعد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ من علي بن أبي طالب، فذلك أمر مقطوع به من علماء المسلمين، وهو

---

(١) الطبري (١٤٨/٥).
(٢) الطبري (١٥١/٥).
(٣) ابن سعد الطبقات (٣٨/٣).

إجماع أهل السنة والجماعة دون أن يشذ منهم أحد، وهذا يستوجب ألا ينازعه أحد هذا الأمر لحظة من نهار، فكيف وقع هذا النزاع؟ بل كيف وقعت هذه المعارك الدامية التي لا زالت تقلق بال المسلمين كلما تذكروها؟

إن كثيراً من الكتاب والمؤرخين قد استغلوا هذه الأحداث استغلالاً سيئاً يشوه حركة المد التاريخي الإسلامي الذي سعدت به الدنيا قروناً طويلة، ومن هنا يزعمون أن فترة الحكم الإسلامي الصحيح لا تتجاوز أربعين عاماً، بل يتطاول بعضهم فيجعلها خمسة وثلاثين عاماً فيخرج فترة هذا النزاع بين عليّ ومعاوية، ويعتبرها ليست امتداداً لتلك الفترة.

والحق أن هذا النزاع في ظاهره يعتبر شذوذاً في حركة التاريخ الإسلامي، فمنذ عرفت الدنيا الإسلام، وهي ترى وحدة المسلمين وترابطهم، وتعاونهم على كل من عاداهم وخاصة وأن الإسلام قد حرم على المسلم أن يحمل السلاح على أخيه المسلم، فإذا تقابل المسلمون بالسلاح فالقاتل والمقتول في النار.

ونحن إذا وجهنا الأمر كل وجهة، وحاولنا أن نوجد المبررات لوقوع هذا النزاع واشتعال نار الحرب لا نجد سوى شيء واحد يطمئن له قلب المؤمن، وهو أن الفريقين اجتهدا وقام كل فريق بما توصل إليه من اجتهاده، والإسلام قد أخبرنا بأن المجتهد يخطىء ويصيب وأنه مأجور على كلا الحالين غير أنه إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجره كما قررت سابقاً.

وانطلاقاً من هذه القاعدة فنحن لا نتهم أحداً بالخيانة، ولا نرمي أحداً بالخروج على مبادىء الإسلام، بل نحترم الجميع، ونترضى على الجميع، ونعتبرهم جميعاً مأجورين.

غير أن أحداث تلك الفترة تتطلب تبريراً تطمئن إليه النفس، ويهدىء من فزع القلب ويوجه الأحداث كلها وجهة لا تتعارض مع مبادىء الإسلام ومثله، وأنا أعتقد أن هناك سببين رئيسين هما اللذان أوردا الأمة هذا المورد وهما:

١ ـ اندساس قتلة عثمان في جيش علي.

٢ ـ ظهور الخوارج الذين فهموا الإسلام على وجهة لم يقرهم عليها أحد من المسلمين.

ونحن نلاحظ أن جيش أمير المؤمنين كان متفوقاً عسكرياً في كل المعارك التي خاضها سواء كانَ في البصرة أو في الشام، بل إن فكرة التحكيم لم تظهر إلا عندما شعر معاوية بأن جيشه أكلته السيوف، وأنه يوشك على هزيمة قد لا تبقى على أحد منه، فلم تكن فكرة التحكيم إلا فراراً من هزيمة لا تبقي ولا تذر حيث تنزل، بجنود اا‌لشام، ولكنها مع ذلك قد وجهت مسار التاريخ وجهة لم تكن في حسبان أحد من المنصفين.

وإنني لألمح في ذلك المسار الجديد حكمة لله ـ عز وجل ـ قد تخفى على كثير من الباحثين، إننا بعاطفة غير محدودة نأسف للنتيجة التي انتهت بها تلك المنازعات من تحقيق آمال الشاميين. واستبعاد الرجل الذي كنا نتمنى صادقين أن تؤول إليه أمور هذه الأمة، وكنا كذلك نرجو أن يسكن الله على يديه تلك الفتن التي اجتاحت أمة كانت آمنة مطمئنة.

ولعل سبب هذا الأسف هو أن الأمور سارت على غير ما نهوى ونحب، ونسينا أن الله ـ عز وجل ـ هو مقدر هذه الأمور، ومحدد تلك النتائج، وأن له فيما آلت إليه الأمور حكمة أدركها من أدركها، وخفيت على من لم يوفق إليها.

إن شدة هذا الأسف على هذه النتيجة ألهانا عن التعرف على الحكمة، وشغلنا عن سر حصول تلك النهاية، وكان ذلك سبباً آخر في ازدياد حزننا، وتفاقم البلاء أمامنا.

لقد اندس قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ في جيش علي، بل وتغلغلوا فيه بشكل لم يمكن علياً من توجيه الأمور كما يشاء، وكان منهم القواد المهرة الذين أبلوا بلاء حسناً في كل المعارك التي دارت، وأغلب الظن أن سر

استماتتهم في القتال هو خوفهم من انتصار الفريق الآخر الذي يطلبهم، ويقاتل من أجل الاقتصاص منهم، فلو أن هؤلاء هم الذين انتزعوا النصر من أهل الشام، وآلت بجهودهم الخلافة إلى علي فهل كانوا سيتركون علياً يصرف الأمور وحده أم كانوا سيضغطون عليه ليوجهوه حسب رغبتهم ووفق إرادتهم؟

وهنا يجب أن نذكر أن هؤلاء هم الذين أججوا نار الحرب يوم الجمل بعد أن أوشك الصلح أن يتم بين الناس، ولم يكن ذلك إلا خوفاً على مصيرهم المجهول، وهم من ذلك الحين والشكوك تجري في عروقهم من عليّ نفسه، فهل لهؤلاء ـ وهم القوة الفعالة في جيش عليّ ـ أن يتركوا علياً يدير شؤون المسلمين وفق أحكام الشرع الذي آمن به، وهم يعلمون أن الشرع الذي سيحكم به علي يطالبهم بدم الخليفة المظلوم؟

لا أعتقد مطلقاً أن قتلة عثمان كانوا سيمكنون علياً من إدارة دفة الحكم وحده بل كانوا سيحاولون توجيه الأمور في الدولة التي أقاموها حسبما يضمن لهم السلامة ويؤمنهم على مستقبلهم، وماذا ينتظرون من هؤلاء الذين اجترأوا على خليفتهم فقتلوه ظلماً؟ وماذا يرجى من قوم يخطط لهم ابن سبأ اليهودي وهم ينفذون خطته صماً وعمياً؟

إنهم بلا شك لو تمكنوا لأداروا البلاد بعقولهم البعيدة كل البعد عن توجيه الإسلام، وبخططهم اليهودية التي ترمي إلى إبعاد الإسلام عن ساحة الحكم ليطلقوا أيديهم، ويتصرفوا حسب أهوائهم.

وهذا هو ما سعى إليه أعداء الإسلام منذ قتل عثمان حتى توصلوا إليه أخيراً، وأبعدوا الإسلام عن سدة الحكم، وعزلوه في المساجد، وشغلوه بأحكام الزواج والطلاق، وحصروه في جمعيات خيرية تدفن الموتى وتطعم الفقراء.

فهل هذا الحال يسر مسلماً داعياً مدركاً لرسالة الإسلام التي بعث من أجلها رسول الله ﷺ؟

ألست معي إذن في أن انتصار جيش معاوية ـ مهما كان ـ خير من أن يؤول أمر المسلمين إلى أيدي قتلة عثمان.

وقد يقول قائل: إن علياً ـ رضي الله عنه ـ كان ينتظر حتى يتمكن ويستتب له الأمر، ثم ينظر في شأن قتلة عثمان، ونحن قد رأينا ما يؤيد ذلك عندما طالب طلحة والزبير علياً بتسليم قتلة عثمان، فاعتذر لهم بأنهم كثير، وإنهم قوة لا يستهان بها، وطلب منهم أن يصبروا حتى تستقر الأوضاع ثم يأخذهم بذنوبهم[1].

ولكننا نقول: إن هذا قول محتمل، ويمكن أخذه بعين الاعتبار لو كان لعلي قوات أخرى لم يقدها أحد من قتلة عثمان أو من المتعاطفين معهم وبشرط أن تكون أقوى من القوات التي يقودها هؤلاء، أما وإن الأمر كله قد صار إلى هؤلاء القتلة، وأن القوات الأخرى كانت تبعاً لهم يحركونها بإرادتهم، وفوق ذلك فإن هذه القوات الأخرى لم تستطع أن تحقق نصراً مستقلاً عن قوات الأشتر ورجاله فإن أخذ المذنبين بذنوبهم أمر يبدو بعيداً إن لم يكن حلماً من الأحلام.

وهناك أمر آخر يجعل قوات أمير المؤمنين غير قادرة على تحقيق النصر مهما كانت قوتها ومهما كان عددها؛ ذلك هو ما وقع بينهما من خلاف أفضى إلى نشوب القتال بينها حتى شغلت بذلك أمير المؤمنين عن محاربة جنود الشام، وفضل البدء بالمكفرين كما قدمنا.

لم يكن الخلاف بين قوات أمير المؤمنين خلافاً سياسياً وإلا لهان الأمر، ولم يكن خلافاً في وجهات النظر وإلا لأمكن القضاء عليه وإنما كان خلافاً عقدياً لا يمكن السكوت عليه، وليس من السهل التغاضي عنه ولهذا كانت نتائجه حروباً دامية يعتقد فيها كل فريق أنه على الحق وأن خصمه قد جانب ذلك الحق ومن هنا كانت المعارك حامية بذل فيها كل فريق قصارى جهده وهو مؤمن بأنه ينصر الحق، ويدحض بذلك الباطل حتى كان الخوارج

---

(١) الطبري (٥/ ٨٥).

يتنادون ألا تخاطبوهم، ولا تكلموهم، وتهيئوا للقاء الرب، الرواح الرواح إلى الجنة.

ولما قتل زيد بن حصين ـ وهو من أعلام الخوارج ـ جاء قاتله أبو أيوب إلى علي وأخبره بقتله، فسأله علي: ما قلت له وما قال لك؟

قال أبو أيوب: طعنته بالرمح في صدره حتى نجم من ظهره، وقلت له: أبشر يا عدو الله بالنار.

قال زيد: ستعلم أينا أولى بها صليا[1].

إن هذا الحوار بين الرجلين وفي هذه اللحظات دليل على أن كل واحد منهما يقاتل عن عقيدة استقرت في قلبه، وملكت عليه حواسه، فهو يعلم أنه إذا لم يقاتل دونها فهو مقصر وآثم وسيأتي يوم القيامة محجوجاً لا عذر له.

والغريب في أمر هؤلاء المخالفين أنهم كانوا أكثر الناس في جيش علي عبادة، وأعظمهم تقوى وأقرأهم لكتاب الله ـ عز وجل ـ حتى كانوا يسمون بالقراء، والأكثر غرابة أنهم هم الذين أجبروا علياً على قبول التحكيم، وكان ذلك بداية خلافهم، فلما قبل التحكيم كفروه بقبوله، وخرجوا عليه، وحاربوه كما بينت قبل.

وهذا الخلاف أصبح طبيعة القوم وديدنهم، فلم يفعل أمير المؤمنين شيئاً إلا خالفوه، وكأنهم قصدوا المخالفة لتفريق كلمة المسلمين فقط لا لاستبانة الحق والوقوف على ما يجب اتباعه.

فقد خالفوا أمير المؤمنين عندما رفض التحكيم، فلما نزل على رأيهم وقبله خالفوه فرفضوه وفي اختيار الحكمين اقترح عليّ أن يمثله ابن عباس فرفضوا، فاقترح الأشتر فرفضوا، فاقترح بعض الناس أبا موسى الأشعري فرفضه أمير المؤمنين فأصروا هم على أن يكون أبو موسى هو ممثل عليٍّ عَلَى رغم أنف عليٍّ.

---

(١) نفسه (٥/٨٧).

هكذا كان أصحاب علي في اللحظات الحرجة التي كان ينتظر فيها النصر على أهل الشام، ويرجو أن تحسم المعارك، وتحقن دماء المسلمين، وبذلك فتحوا عليه جبهة جديدة في أرضه التي كان يسيطر عليها فاضطر إلى أن يخرج إليهم ويقاتلهم حيث لم يقفوا عند حد الكلام بل تعدوا ذلك إلى قتل المسلمين، ورمي كل من يخالفهم بالكفر والضلال.

ولا يمكن والحالة هذه أن ينتصر جيش وقع فيه مثل هذا الخلاف، وبخاصة إذا كان ذلك الخلاف مبنياً على فكر اتخذه الناس عقيدة لهم يدافعون عنها ويموتون دونها.

ولقد أطاع هؤلاء المخالفين عدد لا بأس به من الذين خدعوا بعبادتهم، وفتنوا بورعهم، وغرهم كثرة قراءتهم للقرآن الكريم، فساروا في ركابهم، وحملوا فكرهم تقليداً لهم دون أن يفحصوه أو يعرضوه على الكتاب الكريم أو السنّة المشرفة فكانوا كالأبواق يرددون ما ينفخ فيهم بغير وعي.

ولو أن هؤلاء لم يناقَشوا في هذه الأفكار لكان لهم عذر في الإيمان بها، أما وقد ذهب إليهم أمير المؤمنين، وناقشهم، ووضح لهم كل ما خفي عليهم حتى رجع منهم عدد كبير، وانضموا إلى جماعة المسلمين فليس لهم حينئذ عذر يقبل[1].

لا شك أن جيشاً ينشب فيه الخلاف على هذا النحو وإلى حد تكفير بعضهم بعضاً لا يمكن أن يكون أهلاً للنصر، ولو أن هذا الجيش قد انتصر، وأصبح أمير المؤمنين خليفة يحيط به أمثال هؤلاء مع عقيدتهم فيه وتكفيرهم له هل كان الأمر يستقر على ذلك أم تنشأ حرب جديدة وفي ميدان جديد؟

لعل هذا هو السر في انتصار أهل الشام حيث كان الأمر فيهم مستقراً، وكان في استطاعة معاوية أن يجمع المسلمين على كلمة سواء، رضي الله عن الجميع، وأنزلهم منازل الشهداء وألحقنا بهم على خير ما يحب ويرضى.

---

(١) الطبري (٥/٦٦).

الخاتمة

إن عصر الخلفاء الراشدين هو بلا شك الفترة الذهبية في أحقاب التاريخ الإسلامي الممتدة في أغوار أربعة عشر قرناً من الزمان، ولهذا فقد حظيت هذه الفترة باهتمام المؤرخين القدامى والمحدثين على حد سواء، فالكتابة في الموضوع ليست بدعاً في ذاتها، وإنما هي نوع من الاهتمام الذي لقيته تلك الفترة من الكتاب والمؤرخين.

ونحن لا ننكر أن هناك فترات من التاريخ وقع فيها من الأحداث ما يجعلها على جانب كبير من الأهمية، والمسلمون في حاجة إلى معرفتها والوقوف على أحداثها ومدى تأثير هذه الأحداث في توجيه المد التاريخي للأمة الإسلامية ذات التاريخ المجيد.

ولعل الكتابة في هذه الفترات تخدم الجانب التاريخي خدمة عظيمة حيث تكشف عن كثير من الجوانب التي شوهها المغرضون، ودسوا فيها على التاريخ الإسلامي ما ليس منه، ومن هذه الفترات ما يأتي:

١ ـ العصر العباسي بما فيه من تهم وجهت إلى بعض الخلفاء وهم منها براء.
٢ ـ فترة الحروب الصليبية التي حاول المؤرخون إخفاء كثير من حقائقها.
٣ ـ العصر العثماني وما قام به من أعمال مجيدة في خدمة الإسلام طمسها أعداء الأمة الإسلامية.

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام سؤال يتطلب الإجابة بإلحاح وهو: لماذا تكرس الجهود للكتابة في عصر الخلفاء، وتترك تلك الفترات الهامة؟.

والحق أنني لا أجد عندي إجابة شافية لهذا السؤال، غير أنني كنت أحس بميل جاد ورغبة صادقة للكتابة في عصر الخلفاء الراشدين، وإن كنت لا أستطيع أن أعلل تعليلاً واضحاً لسر هذا الميل وحقيقة تلك الرغبة، فقد يكون سببهما الحب الذي يملأ جوانح كل مسلم للخلفاء أنفسهم ـ رضي الله عنهم ـ وقد يكون هو الرغبة في دحض كثير من الأباطيل التي دست في تلك الفترة، كما يمكن أن يكون الدافع تجلية بعض الحقائق التي فهمت على غير وجهها الصحيح، وقد يكون مجموع هذه الأمور هو سر الميل الجاد والرغبة الصادقة.

على أنني أحب أن أنبّه إلى أن تكرار الكتابة في هذا العصر ليس فيه مضيعة، ولم يخل من الفائدة بل إننا نلاحظ أن كل كاتب يأتي في كتابته بجديد، حتى أحسست بأن الموضوع في حاجة أكثر إلى كتابة وكتابة لنستكمل الجوانب التي لم يتناولها المؤرخون بالتحليل والتعليق والتصحيح.

كما أن لكل كاتب أسلوبه الخاص، وفهمه الخاص للأحداث التاريخية، وفي اختلاف الأسلوب يجد القارىء المتعة، وبتناول الأحداث بالفهم الخاص لكل كاتب يوجد الجديد وتحصل الفائدة المرجوة من الأبحاث التاريخية.

وهناك أمر هام يحصله القارىء والباحث من تكرار الكتابة في العصر الواحد، ذلكم هو استنباط العبر، واستخلاص الفوائد ـ وتلك هي الغاية الحقيقية من دراسة التاريخ ـ فالمحقق والباحث قد يلمح من العبر والفوائد ما يخفى على غيره، لأن ذلك إنما يستنبط استنباطاً من أحداث الفترة التاريخية ولا يجده الكاتب منصوصاً عليه في الكتب والمؤلفات.

وإني هنا أرى لزاماً على أن أعلن شكري لله ـ عز وجل ـ إذ وفقني إلى إبراز كثير من الحقائق وتجلية بعض الخفايا، وإزاحة الشبهات عن شخصيات كادت تلك الشبهات أن تفقدهم مكانتهم في نفوس دارسي التاريخ من غير المحققين المتثبتين، فمن ذلك:

١ ـ استطعت من خلال الحقائق التار يخية التي لا تنكر أن أثبت أن أبا بكر ـ

رضي الله عنه ـ هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ دون أن أقف في ذلك عند الأحاديث الصحيحة أو شهادة كبار الصحابة فقط.

٢ ـ نفي تهمة تآمر كعب الأحبار ـ رحمه الله ـ على عمر، واشتراكه في تدبير قتله.

٣ ـ تحقيق الدوافع التي أدت إلى مقتل أمير المؤمنين ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأثبت أن المؤامرة كان المقصود بها الإسلام لا عمر.

٤ ـ المتآمرون على أمير المؤمنين ـ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ لم يكونوا من المصلحين الغيورين على الإسلام، ولم يسبق لهم سابقة خير في الإسلام، أثبتّ ذلك عن طريق تحليل شخصيات رؤساء الفتنة، وبيّنت أنها مؤامرة يهودية رأسها عبدالله بن سبأ اليهودي.

٥ ـ تبرئة عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ من تهمة التحريض على قتل عثمان، ومناقشة موقفه من قصة التحكيم مع توضيح أن موقفه هذا له ما يبرره، و لا يعاب عليه.

إلى غير ذلك من التحليلات والتعليقات التي كان يقتضيها المقام، ويستلزمها استعراض الأحداث، وهي كثيرة ومتفرقة في ثنايا البحث وجوانبه المختلفة.

هذا وأرجو أن أكون قد وفقت في إزالة اللبس عن كثير من أحداث التاريخ في تلك الفترة العزيزة على نفس كل مسلم، وكشفت الكثير مما دس على التاريخ بأقلام المغرضين، حيث كان التاريخ والتاريخ بالذات هدفاً من الأهداف الرئيسة التي استهدفها المستشرقون وركزوا عليها.

إن تاريخ كل أمة هو مجدها، وهو رائدها ومصدر إلهامها، ألست ترى الناس كلما أدلهمت الخطوب، واكفهر الجو، وعبست الوجوه يرجعون إلى تاريخهم يستلهمونه مخرجاً، أو يلتمسون عنده حلاً لها؟ فإذا ما زور هذا التاريخ، ودس فيه ما ليس منه، وبرزت شخصياته في صور كالحة مشوهة فمن أين يأخذ الناس العبرة؟ وبمن يقتدون إن التمسوا القدوة؟ إن التاريخ هو

حركة الحياة الدائبة التي لا تفتر، وهو سر الإلهام الدافع إلى تطوير الحياة حتى لا تتراجع أو تتوقف، ونحن لهذا نرى أن الأمم التي تهتم بتاريخها، وتعتني بتدريسه الدراسة التحليلة الصحيحة بحيث تستخلص منه العبرة، وتستهدي فيه القدوة، هي الأمم ذات المد الحضاري المتصل الذي لم تستطع ولن تستطيع الأحداث أن تردها إلى الوراء، أو تجمد نموها المطرد الشامخ المزهو بأصالته لدى حقب التاريخ الضاربة في أغوار الماضي السحيق.

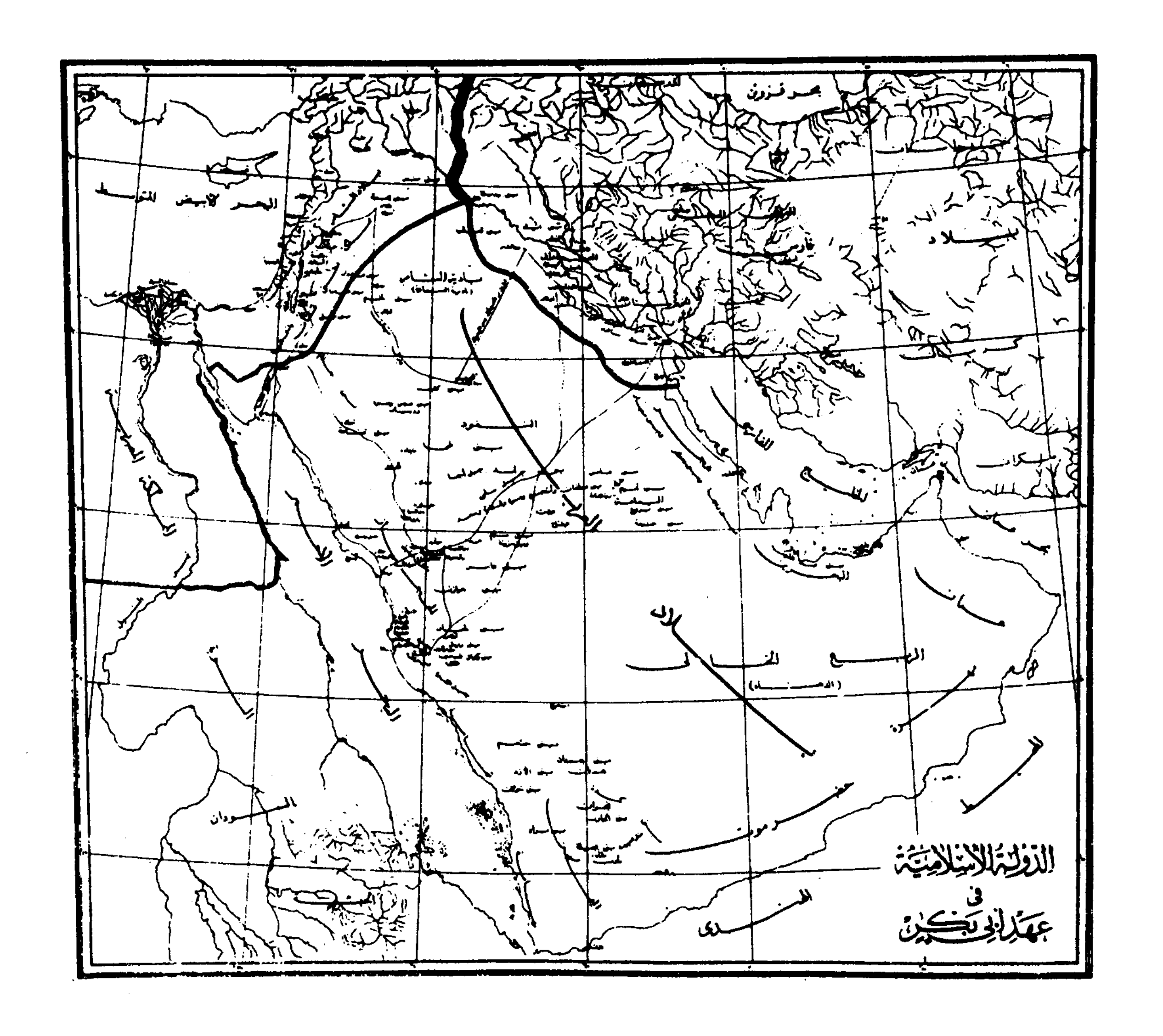
إن الأبطال هم الذين يسطرون صفحات التاريخ، يسطرونها بجهدهم وعرقهم ودمائهم وعلى قدر ما يسطر التاريخَ الأبطال، يصنع التاريخ الأجيال، ويربي الرجال، ويحفظ تراث الأمة من الضياع أو النسيان.

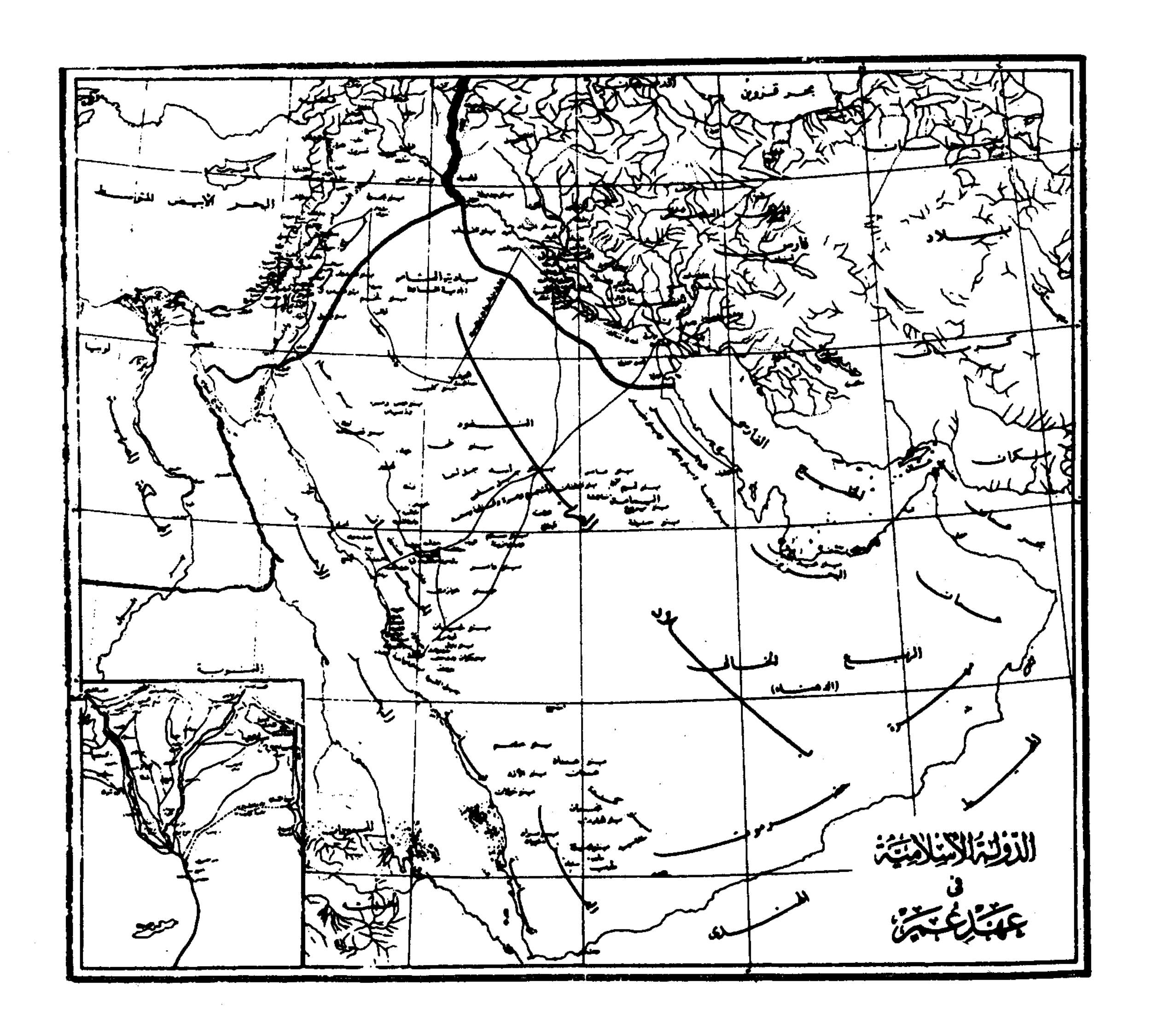
لهذا كان لا بد من العناية بدراسة التاريخ حتى يؤتي ثمرته المرجوة، ويحقق للأمة أملها المنشود، والله أسأل التوفيق والسداد والهداية والرشاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور
محمد السيد الوكيل

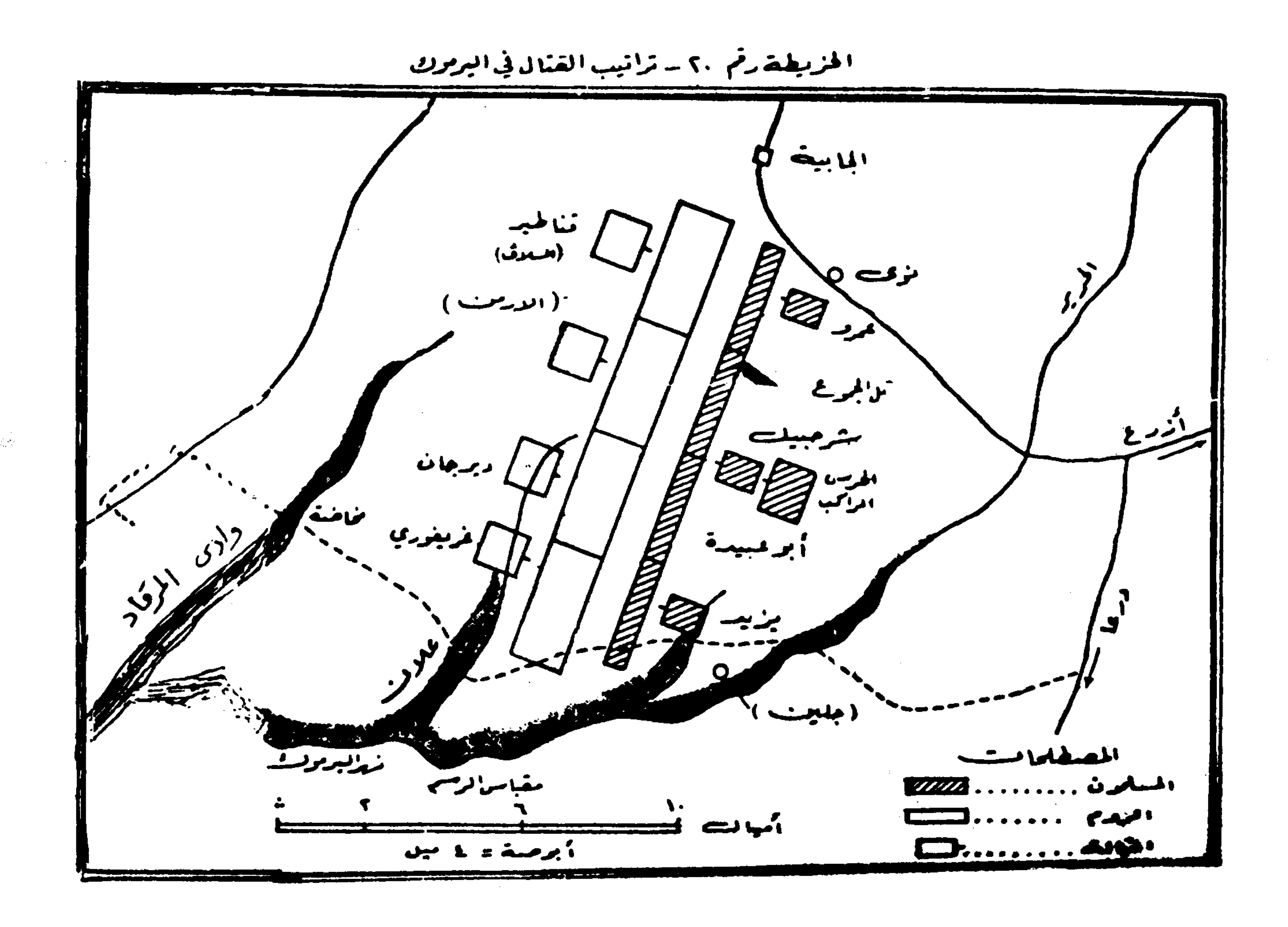
وتم ذلك في صباح يوم الثلاثاء: ١٨ من شهر رمضان ١٤٠٣ هـ.
٢٨ يونيه ١٩٨٣ م.

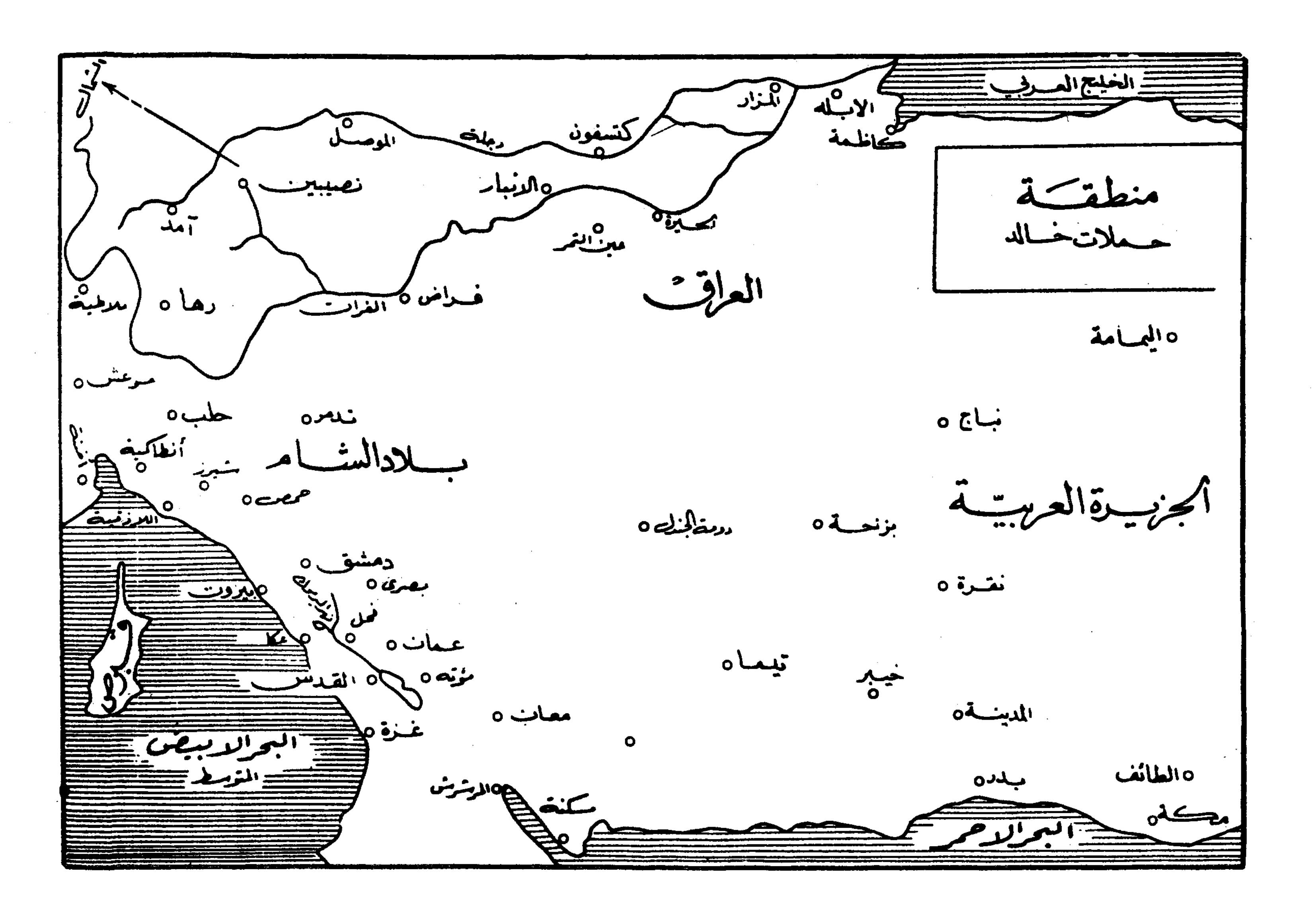

الدولة الإسلامية
في
عهد أبي بكر



الدولة الإسلامية
في
عهد عمر
بحر قزوين
البحر الأبيض المتوسط
الربع الخالي
(الدهناء)
حضرموت

الخريطة رقم ٣٠ - ترتيب القتال في اليرموك





منطقة
حملات خالد
الخليج العربي
الأبلة
كاظمة
المزار
كتسفون
دجلة
الموصل
نصيبين
الأنبار
آمد
الحيرة
عين التمر
العراق
الفرات
فراض
رها
اليمامة
مرعش
حلب
تدمر
بلاد الشام
أنطاكية
شيزر
حمص
نباج
الجزيرة العربية
بزنحة
دومة الجندل
دمشق
بصرى
بيروت
فحل
عمان
عكا
تيماء
خيبر
القدس
مؤتة
معان
المدينة
غزة
البحر الأبيض المتوسط
الطائف
بدر
الرشرش
سكنة
مكة
البحر الأحمر

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ كتب الحديث الشريف.
٣ ـ الأخبار الطوال.
٤ ـ الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني.
٥ ـ الإمامة والسياسة، عبدالله بن مسلم بن قتيبة.
٦ ـ الأوائل، أبو الحسن عبدالله العسكري.
٧ ـ البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير.
٨ ـ تاريخ الأمم الإسلامية، الشيخ محمد الخضري.
٩ ـ تاريخ الخلفاء الراشدين، عبد الرحمن بن بكر السيوطي.
١٠ ـ تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جعفر بن جرير الطبري.
١١ ـ تاريخ اليعقوبي.
١٢ ـ الخراج، لأبي يوسف يعقوب.
١٣ ـ سمط النجوم العوالي، عبدالله بن حسن العاظمي.
١٤ ـ السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام.
١٥ ـ الصدّيق أبو بكر، محمد حسين هيكل (دكتور).
١٦ ـ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع.
١٧ ـ عثمان بن عفان، محمد حسين هيكل (دكتور).
١٨ ـ العواصم من القواصم، أبو بكر بن العربي.
١٩ ـ الفاروق عمر، محمد حسين هيكل (دكتور).
٢٠ ـ فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.

٢١ ـ فتوح الشام، محمد الواقدي.
٢٢ ـ فتوح مصر والمغرب، عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم.
٢٣ ـ القاموس المحيط، للفيروز آبادي.
٢٤ ـ الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني بن الأثير.
٢٥ ـ المدينة المنورة عاصمة الإسلام ودولته الأولى، محمد السيد الوكيل (دكتور).
٢٦ ـ المواعظ والاعتبار (الخطط)، تقي الدين أبو العباس بن أحمد المقريزي.
٢٧ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي.
٢٨ ـ وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

صدر عن

دار المجتمع للنشر والتوزيع

الأسلوب التربوي للدعوة إلى الله في العصر الحاضر
خالد الخياط
الارتقاء إلى النجاح الدراسي
سليمان العلي
إصلاح المجتمع مجلد طبعة جديدة مؤيدة مخرجة
البجاني
أحكام النجاسات في النقد الإسلامي
عبد المجيد صلاحي (رسالة ماجستير)
افعال الرسول ودلالتها على الأحكام
د. محمد العروس عبد القادر
الآفاق الفنية في القصة القرآنية
محمد ناجي شرح
الأهداف الإعلامية في القصة القرآنية
محمد ناجي شرح (رسالة ماجستير)
الوظائف الفنية في القصة القرآنية
محمد ناجي شرح
اثر القادة في تكوين الراي العام
محمد ناجي شرح
بحوث في استخدام التليفزيون التعليمي
خالد أبو الخير (رسالة ماجستير)
برامج الاحاديث الدينية التلفازية
د. ملكة صابر
تاملات في سيرة الرسول ﷺ
د. محمد الوكيل
تفسير سورة النور
الشنقيطي تعليق د. عبد الله قادري
تقريب مصطلح الحديث إلى مسلمي العصر الحديث
أبو ابراهيم المصري
التادب مع رسول الله ﷺ
حسن نور حسن (رسالة ماجستير)
تربية البنات في الأسرة المسلمة
خالد الشنتوت
التليفزيون وتربية الطفل المسلم
عاليه الخياط (رسالة ماجستير)

الثمرات الجياد في مسائل فقه الجهاد

أبو ابراهيم المصري

حين يجد المؤمن حلاوة الإيمان

د. عبد الله علوان

إلى كل أب غفور يؤمن بالله

د. عبد الله علوان

موسوعة المدينة المنورة التاريخية ١/٤

د. محمد الوكيل (رسالة ماجستير)

خطر المربيات غير المسلمات على الطفل المسلم

خالد الشنتوت

الدر النقي شرح الفاظ الخرقى ١/٢ مجلد

رسالة دكتوراه رضوان غربيه

دور الأم في تربية الطفل المسلم

خيرية صابر رسالة ماجستير

دور المسجد في التربية

د. عبد الله قادري

رسالة إلى زوجة شهيد

أم ابراهيم المصري

رفع اللمم في تهذيب غياث الامم في التياث الظلم

أبو ابراهيم المصري

رسالة مفتوحة للتحذير من التعامل بالربا المحرم شرعاً

أحمد الحمدان

سيدتي في ماله؟ عليك إلا أن..؟

أميرة كمال

شرح الأربعين النووية

النوودي

الصراط السوى في جهاد أصحاب النبي ﷺ

أبو ابراهيم المصري

الصحوة الإسلامية وكيف نحافظ عليها

الشيخ عوض القربى

فوائد اسلامية ج ١، ج ٢

محمد عادل طايع

قضايا تهم المراة المسلمة

د. عبد الوهاب الديلمي

قل للمؤمنات
صالح محمد جمال
كلمات في الأخلاق الإسلامية
د. كمال عيسى
كيف تكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات
أحمد الحمدان
كيف ننجح في تعديل سلوكنا
عادل غنيم
معارج الصعود الى تفسير سورة هود
الشنقيطي تعليق. د. عبد الله قادري
المنافقون في القرآن الكريم
د. عبد العزيز الحميدي (رسالة ماجستير)
الغوامض والمبهمات ٢/١ مجلد
(تحت الطبع) رسالة ماجستير
مقدمة كتاب شرح السنة ٢/١ مجلد علي بادحدح
(تحت الطبع) رسالة ماجستير
منهاج المسلم الصغير من احاديث البشير النذير
أبو ابراهيم المصري
مباديء العقيدة بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم
سعيد صني
معادل الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير
ابراهيم الجبهان
مشكلة إفلاس المدين والحل الإسلامي
د. نزار الحمداني
المأثورات في ثوبه الجديد
د. عبد الله عزام
موعظة الإمام الأوزاعي
د. يوسف صديق
مسئولية الأب المسلم في تربية الولد
عدنان باحارث (رسالة ماجستير)
مشكلات المرأة المسلمة المعاصرة وحلها في ضوء الكتاب والسنة
د. مكية مرزا (دكتوراه)
المؤثرت السلبية في تربية الطفل المسلم
عائشة الجلال (رسالة ماجستير)

المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منهم

د. سميرة جمجوم (دكتوراه)

مجالس شهر رمضان

الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين

المدخل إلى علم الأجنة الوصفي والتجريبي

د. صالح كريم

المسلمون تجاه الحضارة الغربية

الشيخ أبو الحسن الندري

نيل المرام من احكام الصيام

الشيخ أحمد الحمدان

النهج المبين شرح الأصول العشرين

عبد الله قاسم الوشلي (ماجستير)

لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ

د. حمدان الهجاري

مدينة جدة [السكان - البيئة - العمران]

فاطمة الحمدان (ماجستير)

المنهج الدعوى في أصول المحاضرة الدعوية

هشام بنان (ماجستير)

هتاف العزة والجهاد

د. عبد الله قادري

رؤوس الاقلام في فقه الإسلام

محمد أحمد عبود

آداب إسلامية

محمد أحمد عبود

المختصر في فقه العبادات

الشيخ أحمد الحمدان

حقوق دلت إليها الفطرة وقررتها الشريعة

الشيخ العثيمن تعليق الشيخ أحمد الحمدان

كيفية صلاة النبي ﷺ

الشيخ عبد العزيز بن باز

فتوى حول فتن الجرائد والمجلات

الشيخ محمد صالح العثيمن

حكم الفتار ادلة تحريمه

الشيخ عبد العزيز بن باز

مسائل في صلاة المسافر

عماد الصياد

إنكار ومأثورات

الشيخ عبد النافع الرفاعي

اختي المسلمة من امرك بالحجاب

اختيار الدار

العاب لتعليم ابنك القراءة

أميرة كمال